تاريخ بجوى إبراهيم أفندى

التاريخ السياسى والعسكرى للدولة العثمانية

المجلد الأول

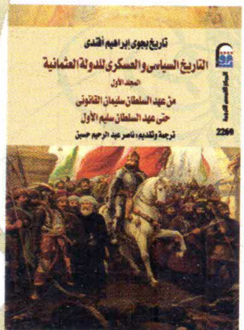
من عهد السلطان سليمان القانونى
حتى عهد السلطان سليم الأول

ترجمة وتقديم: ناصر عبد الرحيم حسين

المركز القومى للترجمة

2269





يعد "تاريخ بجوى" الذى هو بين أيدينا من أمهات المصادر التاريخية عند الأتراك العثمانيين الذين اهتموا بالتأريخ باعتباره نافذة للاطلاع على أمجادهم وبطولاتهم وأيضا وسيلة لتخليد ذكراهم على مر العصور.

وقد جمع هذا المجلد بين صفحاته التاريخ السياسى والعسكرى للدولة العثمانية منذ عهد السلطان سليمان القانونى حتى عهد السلطان سليم الأول. كما تعرض للوزراء العظام والأمراء ومشايخ الإسلام والدفتردارية والنشابجية والأعمال الخيرية المصاحبة لعهد كل سلطان من السلاطين، مما جعل من هذا الأثر مرجعا لكل من يريد أن يبحث أو يتحرى عن رجالات الدولة العثمانية على مر العصور.

02269

تصميم الغلاف: رحاب حسن

تاريخ بجوى إبراهيم أفندى

التاريخ السياسى و العسكرى للدولة العثمانية

المجلد الأول

من عهد السلطان سليمان القانونى حتى عهد السلطان سليم الثانى

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2269
- تاريخ بجوى إبراهيم أفندى: التاريخ السياسى والعسكرى للدولة العثمانية (المجلد الأول) من عهد السلطان سليمان القانونى حتى عهد السلطان سليم الثانى
- ناصر عبد الرحيم حسين
- اللغة: الفارسية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:

تاريخ پچوى

جلداول

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

تاريخ بجوى إبراهيم أفندى

التاريخ السياسى والعسكرى للدولة العثمانية

المجلد الأول

من عهد السلطان سليمان القانونى
حتى عهد السلطان سليم الثانى

ترجمة وتقديم

ناصر عبد الرحيم حسين

2016

تاريخ بجوى إبراهيم افندى: التاريخ السياسى والعسكرى للدولة العثمانية/ ترجمة وتقديم: ناصر عبد الرحيم حسين. ـ القاهرة : المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥.
مج١: ٢٤ سم. ـ (المركز القومى للترجمة)
المحتويات: جـ١من عهد السلطان سليمان القانونى حتى عهد السلطان سليم الثانى
تدمك ٨ ٠١٨١ ٩٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ الإمبراطورية العثمانية.
٢ ـ الإمبراطورية العثمانية ـ الأحوال السياسية.
أ ـ حسين، ناصر عبد الرحيم (مترجم ومقدم)
ب ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٥٥٦٣/ ٢٠١٥
I. S. B. N 978 - 977- 92 - 0181 - 8
ديوى ٩٥٣.٠٩

المحتويات

تقديم المترجم

إن هذه الترجمة مصدر من المصادر الأولى للتاريخ العثماني خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري الموافق السابع عشر الميلادي، وتأتي أهمية هذه الترجمة في أن معظم التواريخ العثمانية إن لم يكن جميعها قد كتبت باللغة التركية العثمانية، وأن معظم ما كتبه المؤرخون العرب عن الدولة العثمانية قد اعتمد بصفة أساسية على المصادر والمراجع الغربية فقط، فجاءت دراساتهم أحادية النظرة؛ ولذا جاء اهتمامنا بهذه الترجمة لنضيف لمكتبتنا العربية مصدرًا أصيلًا من هذه المصادر التي تؤرخ لفترة من تاريخ الدولة العثمانية، وأيضًا لنضعه بين أيدي المهتمين بالدراسات التاريخية عامة والعثمانية بصفة خاصة.

وحقيق بالذكر أن التأريخ كان بابًا من الأبواب التي شغلت بال العثمانيين حتى السلاطين منهم، فأرادوا أن تكون لهم تواريخهم التي تحكي أمجادهم وبطولاتهم كما صنع الفرس والعرب، فأمر السلطان محمد الفاتح بأن تنظم له «شهنامه» عثمانية على غرار «الشهنامه» الفارسية للشاعر الفردوسي، كما أن السلطان «بايزيد» الثاني كلف «نشري محمد أفندي» بكتابة تاريخ عثماني، فدوّن له التاريخ المعروف باسم «جهانما»؛ وألف أيضًا «إدريس البتليسي» مؤلفه المعروف باسم «هشت بهشت» بأمر السلطان «بايزيد» الثاني،

وعلى مر العصور نجد أن السلاطين العثمانيين يصحبون معهم في حملاتهم المؤرخين؛ ليسجلوا لهم الوقائع والأحداث والفتوح والبطولات تخليدًا لذكراهم على مر الأيام، وفي هذا دلالة أكيدة على أنَ التأريخ تبوأ عند العثمانيين مكانة عظيمة، والدليل على ذلك أننا نجد أن أكثر مؤلفات العثمانيين في الفترة الممتدة من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي حتى القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي، كانت في ميدان التاريخ فهو يعد حقلا خصبا من حقول المعرفة الإنسانية عند العثمانيين.

ومنذ النصف الثاني من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، وبعد فتح القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣م، بدأ العثمانيون يهتمون بالتأريخ لدولتهم، وتسجيل أخبارها؛ حيث اهتم السلاطين برعاية أهل العلم وراحوا يشجعونهم على تسجيل أحداث الدولة وإنجازاتها، فكان غالبية الذين سجلوا لأحداث الدولة هم من رجالات السلطان وقواد الجيوش، أو من العلماء المقربين، فتعددت الآثار التي كتبوها وتنوعت خلال هذه الفترة إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ تواريخ عامة للدولة الإسلامية، ويتناول فيها المؤلف التاريخ بشكل عام منذ آدم عليه السلام، وتنتهي بسرد وقائع الدولة العثمانية حتى عصر المؤلف.
٢ ـ تواريخ خاصة بالدولة العثمانية أو بسلطان من السلاطين، وفيها يتناول مؤلفها الأحداث والوقائع، إما من بداية ظهور الأتراك على ساحة التاريخ وتأسيس دولتهم، ويستمر المؤلف في سرده للوقائع حتى عصره، أو يتناول فيها فترة معينة من فترات الدولة.
٣ ـ تواريخ خاصة بواقعة أو حادثة ما، أو بفتح بلد من البلدان.

وكان «بچوي إبراهيم أفندي» صاحب هذا المؤلف التاريخي يتمتع بالعديد من العلاقات مع رجال الدولة، سواء كان في الجيش أو في الولايات التي عمل فيها كدفتردار، إلا أن علاقاته هذه انحصر أغلبها خارج مركز السلطنة، وفي الواقع، فقد هيأت له خدمته بجانب خاله «فرهاد باشا»، ثم بجانب «لالا محمد باشا» التعرف على كبار رجال الدولة والاحتكاك بهم، وكان لأصله المجري ولمعرفته اللغة المجرية ولخدمته

في الجيش على جبهات المجر أثر بالغ في علاقاته بأمراء المجر، وقد أتاحت له خدمته بولايات الدولة كدفتردار فرصة التعرف على أمراء الولايات وقضاتها وأمراء أمرائها وقادة الحملات العسكرية الذين يمرون من هذه الولايات؛ كما كان «بچوي» على معرفة وعلاقة ببعض علماء الدولة ومشايخها، وقد أكسبته كل هذه العلاقات قدرات متعددة، أثّرت ميله لكتابة التاريخ، ومن ثم ساعدت على أن يكون مؤرخًا له مكانة بارزة بين مؤرخي الدولة العثمانية، فهو بحق من مشاهير المؤرخين العثمانيين في القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي، فما إن يذكر فن التأريخ في القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي، إلا ويذكر «بچوي» جنبًا إلى جنب مع مؤرخي هذا العصر؛ أمثال «مصطفى نعيما» و«كاتب جلبي» اللذين اعتمدا عليه في عرض بعض الوقائع والأحداث.

أما عن كتابه الذي قمنا بترجمته فهو مشهور بين المؤلفات والتواريخ العثمانية باسم «تاريخ بچوي»؛ وهو في حوالي ألف صفحة من القطع المتوسط، وهذا المؤلف يتناول في تضاعيفه التاريخ السياسي والعسكري، وبعضًا من ملامح الحياة الاجتماعية والإدارية في الدولة العثمانية اعتبارًا من عصر السلطان سليمان القانوني (٩٢٦ هـ - ٩٧٤هـ = ١٥٢٠م - ١٥٦٦م) وحتى نهاية عصر مراد الرابع (١٠٤٩ هـ = ١٦٤٠م)، وهي فترة تبلغ مائة وعشرين عامًا، وكانت مصادره حتى السنوات الأخيرة من عصر السلطان «مراد الثالث» (١٠٠٠ هـ/ ١٥٩٢ م) مصادر أصلية مما دونت خلال هذه الفترات وهي التي ذكرها في مقدمة أثره، كما أنه كان شاهد عيان لوقائع عصره السياسية والعسكرية، ومشاركًا في الكثير منها باعتباره واحدًا من رجال الدولة وإدارييها اعتبارًا من ذلك التاريخ وحتى نهاية وقائع أثره (١٠٠٠ هـ - ١٠٤٩ هـ = ١٥٩٢م - ١٦٤٠م)، وقد عرض «بچوي» التاريخ العثماني في عصر القوة والازدهار من خلال مصادره المعاصرة مطعمًا ذلك بما نقله عن جده الذي كان «أمير آلاي» في ذلك العصر، وبما سمعه من الشيوخ المسنين الذين عاشوا تلك الحقبة، رابطًا كل ذلك بما صارت عليه الدولة في عهد خلفاء «سليمان القانوني» من اضطراب، وما شاهده هو من أوضاع غير مستقرة في عصره وذلك في مقارنة فريدة من نوعها مستخدمًا فيها لغة بسيطة خالية من التكلف.

ومما لا شك فيه أن «بچوي إبراهيم أفندي» قد جمع بين دفتي أثره ما عجز عنه كثير من المؤرخين السابقين، مما جعل تاريخه يمثل مرحلة متميزة من مراحل الكتابة التاريخية في العصر العثماني، فقد امتاز «تاريخ بچوي» بجملة عناصر منها؛ أنه كان بمثابة رصد لحملات الدولة العسكرية منذ تولي «سليمان القانوني» الحكم وحتى وفاة «مراد الرابع» عام (١٠٤٩ هـ/ ١٦٤٠م)، أيضًا تتبع «تاريخ بچوي» معاهدات الصلح التي أبرمتها الدولة العثمانية مع أعدائها شرقًا وغربًا، كما أن إبراهيم بچوي قام بنقل أفكار أهل المجر بخصوص العثمانيين، وعلاوة على هذا يعد تاريخ بچوي مصدرًا تاريخيًا مهمًا للصراع العثماني الصفوي، ومن هذه العناصر التي ميزت تاريخ بچوي أيضًا أنه كان يعرض في عصر كل سلطان تراجم رجال الدولة من الوزراء العظام والوزراء وأمراء الأمراء والأمراء، والدفتردارية، والنشانجية (كتاب الديوان)، ومشاهير العلماء، وأيضًا أبناء السلاطين، كما كان يتناول في فترة كل سلطان الإنجازات الحضارية من أعمال خيرية وبنايات.

وقد حرصنا في هذه الترجمة على أن نأتي بالتواريخ الميلادية المقابلة للتاريخ الهجري، إضافة إلى التعريف بالتعبيرات والاصطلاحات الوظيفية التي أوردها المؤلف في كتابه، والتعريف ببعض الأماكن وموقعها الحالي من العالم، فحقيقة أن تاريخ بچوي يحتوي على كل البلدان والأماكن والدول التي خضعت للدولة العثمانية واستظلت براياتها، فهو نبع غزير، ومصدر معرفي لكل البلدان الموجودة في المنطقة الممتدة من الهند شرقًا إلى حدود البغدان وفيينا غربًا.

وبعد فإنني لا أعدو الحقيقة إذا قلت: إنني عانيت الكثير والكثير في ترجمة هذا العمل، ولا يدرك هذه المعاناة إلا الواقفون على صعوبة اللغة العثمانية التي تحتاج إلى صبر وأناة ودربة على التعامل معها، وكان عزائي في ذلك هو خدمة العلم وأهله ولا مبتغى لي غير ذلك، وأسأل الله أن يعينني في إخراج عمل آخر غير هذا، حتى أساهم في وضع مصادر أساسية للتاريخ العثماني بين أيدي الدارسين والباحثين ومؤرخينا العظام، حتى يعيدوا لنا كتابة تاريخنا الإسلامي من واقع مصادرنا الإسلامية دون الاعتماد على

المصادر الغربية، وأرجو ممن يمرر بصره على هذه الأوراق أن يعفو ويصفح عن سقطاتي وأخطائي، متوجهًا بالشكر لكل من يسدي لي نصحًا أو يصوب لي خطأً، فلكل شيء إذا ما تم نقصان.

والله أسأل أن يوفقنا إلى سواء السبيل فهو ولي ذلك والقادر عليه...

دكتور/ ناصر عبد الرحيم حسين

ربيع الثاني سنة ١٤٣٢ هـ

الموافق شهر مارس ٢٠١١م

الدولة العثمانية

خلال فترة حكم السلطان سليمان القانوني
٩٢٦ ـ ٩٧٤هـ = ١٥٢٠ ـ ١٥٦٦م

مقـدمـــة المؤلف

حمدًا لرب جليل من عبد ذليل، وسلامًا إلى حبيب فائق من محب صادق، وعلى صحبه وآله المهتدين بنور جماله أما بعد:

ينبغي ألا يكون خفيًا ومستورًا على خلان الصفاء وإخوان الوفاء أنه لما كانت فتوحات ديارنا، ديار المجر، صانها الله تعالى عن الأعادي المنحوسين، قريبة العهد بنا فإن الحديث والكلام يدور في أغلب الأوقات حول هذه الفتوحات، وحول غزوات المرحوم والمغفور له سليمان غازي رحمة الله تعالى عليه؛ ولهذا السبب خطر بخاطري الضعيف أنه ينبغي أن أقوم بتسجيل الأخبار المنقولة وتحريرها عن بعض التواريخ المسموعة من الثقات؛ وذلك على الرغم من قلة بضاعتي وعدم استطاعتي لإعداد دفتر لهذه المذكرات، وإذا كانت هذه الأخبار قد أحيكت من مائة رقعة؛ كملابس الدراويش البالية أو مختلطة بالألوان المتعددة كخرقة الصوفية الزرقاء، ومنقولة عن التواريخ التي كتبها الأشخاص الأفاضل، فإنني أرجو وآمل أن يستر ويتغاضى رجال الدولة من أصحاب البصيرة عن التقصير في هذا الخصوص.

وإني أعترف بأن عملي هذا خطأ في عمومه؛ وإذا كان الأمر على هذا النحو، فقد عقدت العزم والنية على تحرير مجموعة نافعة بلغة يومية بسيطة خالية من الاصطلاحات

والعبارات التركية المغلقة ومن السجع والقافية المتكلفة، وتأليفها من تواريخ المرحوم «جلال زاده نشانجي[١] مصطفى بك» وأخوه «جلال زاده صالح أفندي» والتوقيعي[٢] «رمضان زاده» والشاعر الماهر المرحوم «عالي أفندي» و«حسن بك زاده أفندي» و«حديدي» وكاتب «محمد أفندي» بحيث يتفق الجميع في النهاية في القصد، دون أي مقارنة بينهم، وبالله التوفيق نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) النشانجي: هو اسم لواحدة من الوظائف العليا فى عهد العثمانيين، وقد أطلق العثمانيون على صاحب الوظيفة الذى كان يسمى فى الحكومات الإسلامية السابقة باسم «صاحب قلم أعلى»، و«صاحب ديوان الإنشاء»، و«موقع»، و«طغرائي»، و«برفانه» أطلقوا عليه اسم «نشانجى» أو «توقيعى» كنية عن الوظيفة التى يشغلها وهى أمور الكتابة داخل الديوان الهمايوني.

- Mehmet Zeki Pakalın: Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü، C. II، İstanbul 1993، S. 697.

(٢) هو لقب أطلق على من يعملون في وظيفة «نشانجي» في عهد العثمانيين، وهذا اللقب كان يعرف في البلدان الإسلامية باسم «صاحب قلم أعلى»، «صاحب ديوان الإنشاء»، «موقع»، «طغرائي»، وقد أطلق العثمانيون هذا اللقب على من يشغل هذا المنصب، وكان يطلق على صاحب هذه الوظيفة اسم «نشانجي» وإذا ما ذكرت كلمة «توقيع» في الدوائر الرسمية كان يفهم منها الإمضاء أو التوقيع.

- Mehmet Zeki Pakalın: A. g. e.، C. III، S. 484.

مجمل سلطنة سليمان العصر وغزواته
المعروف بأبي النصر والجهاد «السلطان سليمان خان»

اكتب أيها القلم وصف سليمان العصر
هل شوهد نموذج عجيب في عظمته
كل ما في العالم خاضع ومنقاد لأمره وسلطانه
سجل الزمان علامة العنقاء (الرخ) التي هي خاتمه
في الظاهر والباطن يمضي حكمه
بأمر واحد يذعن الإنس والجان لحكمه
فبهمته أسند إليه ختم الكرم
وصار صاحب هذا الخاتم عبدًا له القبول

كان حاكمًا عظيمًا، وولد بأوصاف تليق بسلطان أتى من صلب أب ذائع الصيت ومن رحم أم عفيفة، وليس هناك مجال لجدال أو لريبة في أنه لم يسفك دم أي أحد ليس له ذنب ودون وجه حق في فترة الجلوس على العرش، وهو الأمر الذي كان يحدث نتيجة كثرة عدد ورثة العرش؛ وإن هذا يدل على إعماره لآخرته كما عمَّر دنياه تمامًا.

ـ **أوصافه الشريفة**: كان وجهه مستديرًا، وكان أشهل العينين، مفروق الحاجبين، أنفه مقوسة، وهذا، وفقًا لقول الحكماء والفلاسفة ـ علامة وأمارة بعد النظر (نفاذ البصيرة) ورجاحة العقل، وصاحب مروءة، وكان صدره مستويًا وأسنانه فلجاء، وقور المشية، طويلًا، معتدل القامة، رقبته كالدورق الفضي، وثيابه التي يرتديها مناسبة له وعمامته لائقة، وهيئته العامة وقامته حسنة، وأفعاله وأقواله تنال الاستحسان، وكان يميل لأرباب الأدب الرفيع ولأهل العرفان والفضل وللمتكلمين والعلماء والفضلاء والحكماء والشعراء من أصحاب العقول الراجحة، وعموما كان سلطانًا ذا شأن تجتمع فيه السمات الحسنة لدرجة أنه لا يجود الزمان بمثله حتى ولو دار الفلك أربعين ألف سنة مرات ومرات.

أحداث العمامة الحمراء

كان قد تقرر ارتداء العمامة الحمراء في عهده السليماني السعيد، ولهذا كثرت دكاكين بائعي العمائم حتى أواخر سلطنته، فكان كل شخص يلف عمامته بالطريقة التي يعرفها، وكان لا بد من تمييز الجند عن العامة من أهل السوق بالعمامة، وعلى الرغم من أن ارتداء العمامة في هذا العصر صار عادة فإنه لم يكن يتم في الديوان الهمايوني، وربما كان غطاء الرأس الذي من المفترض أن ترتديه الطائفة العسكرية على الدوام في الخلا والملأ هو العمامة.

وقد تفضل المولى العالم الفاضل المرحوم والمغفور له «خواجة أفندي»[1] ـ رحمة الله تعالى عليه رحمة واسعة ـ الذي كان أشرف علماء الروم، وأعظم الكتاب الفضلاء تفضل بتسجيل وتحرير تطور حال القلنسوة والتاج منذ البداية في الدولة العلية العثمانية، وارتداء غطاء الرأس الخاص بجنود الإنكشارية، وبفرسان السباهية المعروف باسم المجوزة[2] باهرة الابتهاج وذلك بأسلوب محبب، وبتعبير ليس له نظير في تاريخ آل عثمان، حيث ينقل من «تاج التواريخ» دون زيادة أو نقصان على النحو التالي:

لقد استعملت هيئات ملابس ممالك الفرنجة والروم كالملابس الصوفية، والعمامة المصنوعة من اللِّباد التي كانت تعرف بأسماء «صوف» و«سقرلاط»؛ وذلك بمقتضى العادات والتقاليد السائدة في تلك البلاد ذات الحدود المعلومة، حيث كانت تلبس العمامة الحمراء والصفراء والسوداء، ومع استبدال العمامة السوداء بالعمامة البيضاء استنادًا إلى القول المأثور «خير الثياب البيض»، غدت واجهة الدولة ناصعة البياض، وكانت تجري سياسة اللباس هذه حتى زمن السلطان المؤيد «يلدرم بايزيد».

---

(١) هو من مشاهير العلماء في عصر السلطان محمد الثالث (١٠٠٣- ١٠١٢هـ= ١٥٩٥ - ١٦٠٤م).
- بجوي إبراهيم أفندي: تاريخ إستانبول ١٢٨٣، ٢ / ٢٨٨ .
(٢) هي أحد أنواع القلنسوات القديمة، واستُخدمت أول مرة في عصر «يلدرم بايزيد» .
- Midhat Sertoğlu: Osmanli Tarih Lügati، 2. Basım، İstanbul 1988، S . 230 .

ولما كانت كثرة العسكر في عهد «بايزيد خان» سببًا للخلط والالتباس بينهم فقد اقترح تنويع اللباس، وبموجب اقتراح «تيمور طاش بك» الذي كان أمير أمراء أصبحت العمامة البيضاء خاصة «بسباهية» السلطان، وملازمي البلاط العالي، وخصصت القلنسوة المستديرة الحمراء للخدم من أعيان الدولة وأركان السلطنة، ولما كانت إقامة السنة السنية هي منتهى أماني أبي الفتوحات والمغازي السلطان «محمد خان غازي» سابع القياصرة العثمانيين وفاتح «إستانبول»، فقد أمر بتعميم هذه السنة ونشر العمامة البيضاء؛ حيث زينت القلنسوة المستديرة العادية بالعديد من الزخارف، وصدر الأمر بأن تكون خاصة بالإنكشارية، أما العمائم المستديرة الحمراء الخاصة بكبار خدم الدولة، فقد أضيف إليها أيضًا أنواع عديدة من الزخارف والتزيينات، وذلك بحسب رتبة كل واحد منهم ودرجته. أما العمامة ذات الذؤابة الخلفية المعروفة باسم «أسكوف» التي كانت منتشرة بين رؤساء بلوكات الإنكشارية، فقد كانت من ابتكار غازى «سليمان باشا» فاتح «بولاير»[1] حيث كان قد ارتدى تلك القلنسوة؛ نظرًا لمحبته لحضرة «جلال الدين الرومي» قدس سره العزيز، وفى زمن السلطان الغازى «مراد» الذي مأواه الجنة شاع استعمال هذه العمامة، حيث زينت بزخارف متكلفة وعُدت كسوة السلاطين وأصحاب الجاه والسؤدد في الدولة.

وكان السلاطين العثمانيون قد جعلوا العمامة تاجًا سلطانيًا في بعض الحروب وبعض المؤتمرات أيضًا، ولكن العمائم التي لُفت في شكل العمامة اليوسفية الملفوفة فوق تاج مطلي، والتي عادة ما توضع فوق المدافن المطهرة لأبناء العثمانيين في «بورصة»[2] الآن ليس لها مثيل في حسن منظرها، كما لُفت في طرز لا مثيل له في أي مكان، كما أن زخارفها الكثيرة وبهاء منظرها ومظهرها الذي يبعث على السرور، جعلت السلطان يأمر بلبسها في أيام إقامته في الديوان وفى مجالس العبادة والطاعات.

(١) وهي مركز قضاء في «گليبولي» بولاية «أدرنه».
شمس الدين سامي : قاموس الأعلام، إستانبول ١٣٠٦ ، ٢ / ١٣٩٣ .
(٢) وهى أول مدينة اتخذها العثمانيون عاصمة لهم، وتقع جنوب إستانبول بحوالي ثمانين كيلومترًا.
شمس الدين سامي، قاموس الأعلام ، إستانبول ١٣٠٦، ٢ / ١٢٩٥ .

نبذة عن عدله وإنصافه

قام السلطان «سليمان خان» بإطلاق سراح طائفة بلغ عددها ستمائة بيت ممن أحضرهم أبوه صاحب المقام العظيم المرحوم والمغفور له السلطان «سليم خان»، طاب ثراه وجعل الجنة مثواه، كأسرى إلى «إستانبول» عندما فتح «مصر»، وأذن لهم بالانصراف إلى بلادهم قائلًا: «من يرغب في العودة إلى وطنه فليعد، ومن يرغب في البقاء فليبقَ ويمكث في عاصمتنا».

ولما كانت الهمة العالية للسلطان المرحوم الذي موعده الجنة، موجهة لقلع طائفة القزلباش وقمعهم، ولما كان بعض التجار يمنعون من التردد على تلك الديار [أي إلى إيران] فقد كانت تصادر ممتلكاتهم؛ حيث كان يخزن بعضها لدى الباب السلطاني، وبعضها الآخر كان ينفق، فصدر الأمر باستردادها وحصّل السلطان ثوابًا عظيمًا بأن أمر الدفتردارية بردِّ هذه الأموال الخاصة كاملة إلى أصحابها، وعلى إثر تقديم كتخداه[1] دفترًا يتعلق بمظالم «قانلو جعفر بك» الذي كان قائدًا لسنجق «گليبولي»[2]، صدر الأمر بالتفتيش على شئونه، ولما ثبتت الحقيقة قاطعة على ما قام به من ظلم، أُعدم ليكون عبرة للحكام الآخرين.

ولما وصلت الأخبار بأن أمير «برزرين»[3] يقوم ببيع أولاد الرعاية مدعيًا أنهم أسرى وإرساله بعضهم إلى الآستانة صاحبة السعادة، ولأرباب الدولة

---

(١) وهو الشخص الذي يباشر أعمال رجال الدولة الكبار، وأعمال الأغنياء. وكان يعرف بين الناس باسم «كخيا».

-Mehmet Zeki Pakalın :Osmanlı Tarih Deyimleri ve Terimleri Sözlüğü ‹C.II ‹İstanbul ‹1993S.251 .

(٢) مركز قضاء في ساحل الروم إيلي في ولاية «أدرنه».

- İsmail Hami Danişmend : Izahlı Osmanlı‹ Tarihi Kronolojisi‹ C. 3‹ İstanbul 1995‹ S.591.

(٣) هي قصبة في «بولونيا».

- İsmail Hami Danişmend : Adı geçen eser‹ S. 467.

كهدايا، أُرسل «جاووش»[1] إلى تلك الجهات وأُمر بمحاكمته هو وكتخداه حيث قتلا.

ولما وصل إلى مسامع السلطان أن بعض السلحدارية[2] قد دخلوا على الوزراء، وأصحاب السعادة، وأنهم تجرءوا عليهم وتجاوزوا الحدود، عُزل أغواتهم وحُكم على خمسة أشخاص منهم، وكانت قد حدثت كل هذه الأمور أثناء اعتلاء السلطان سدة العرش.

وهكذا فإن الدعاء الذي كان نتيجة لهذا، وبكاء الفرح الصادر من هؤلاء المظلومين لم يدع لدى من أحاطوا علما بالأحوال المذكورة أية ريبة في أن ذلك سيكون باعثًا، لنيل السلطان صاحب السعادة ثمرة العمل الصالح الذي قام به في الدارين، وباعثًا لطول عمره المبارك.

وفي زمانه السعيد كان لا يعزل أي شخص من الأمراء والقضاة وسائر أرباب المناصب بلا ذنب أو سبب، وعلى كل حال فكان نادرًا ما يقع العزل، والذين كانوا يعزلون؛ بسبب ذنب عظيم كانوا لا يتولون منصبًا آخر فيما بعد بأية حال، ولذلك كان جميع الحكام يتصرفون بعدل وإنصاف ويخافون من العزل من مناصبهم، وكان الواحد منهم يقول: «لو عُزلت بسبب جرم ما، لا يمكن أن يوجه لي منصب مرة أخرى»، ولهذا كان الفرد ينسى الخصال المذمومة ويسعى لمحوها.

وكان قاضي «سيروز»[3] من أقارب المرحوم «جلال زاده توقيعي مصطفى بك»، وقد قرأت في مراسلاته أنه استمر قاضيًا لـ «سيروز» لمدة خمسة عشر عامًا، وكان قد

---

(١) الجاوش: وظيفة قديمة في الدولة العثمانية وكانت توجد عند البيزنطيين والسلاجقة، وهو لقب يطلق على موظف يقوم بأعمال مختلفة، حيث كانت المراسلات تجري على أيدي هؤلاء في بداية الدولة العثمانية، إلى جانب تتبع أحوال الإدارة والمملكة، وفي النهاية نقلت مهام هؤلاء إلى رؤساء خدم الباب.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser.، S. 332.

(٢) استحدث منصب سلحدار في زمن يلدرم بايزيد (١٣٨٩ - ١٤٠٢م) وكانت وظيفته المحافظة على جميع الأسلحة في السراي العثماني.

- Mehmet Zeki Pakalın: adı geçen eser، C. III، S. 221.

(٣) وهي مركز سنجق عثماني قديم في الشمال الشرقي لمدينة «سلانيك» بحوالي ثلاثة وسبعين كيلو مترًا وهي الآن تقع باليونان.

- İsmail Hami Danişmend : Adı geçen eser، S. 507

أرسل رسالة رجاء إلى «جلال زاده» قال فيها: «إن جو سيروز سيئ، وأنه لم يتيسر لي التلاؤم مع هذا الجو طيلة هذه الفترة، ونحن نحتاج إلى علاج في معظم الوقت»، ورجا نقله إلى مكان آخر، وأكثر من التهديد والتأكيد على احتمالية استقالته قائلًا: «وفي حالة عدم إمكانية تغيير المكان، فلن يحدث لي تلاؤم مع جوها [أي مع جو سيروز]».

وخلال هذه الفترة نادرًا ما كان يعزل الأمراء، فقد بقي المرحوم «خسرو بك» أميرًا على البوسنة لمدة ثلاثة وثلاثين عامًا كاملة، وفي ذات مرة حينما وجهت هذه الوظيفة إلى «أولامه باشا»؛ نتيجة لبعض الظروف، فقد ظل في هذه الوظيفة دون عزل، حيث انتقل إلى رحمة الله بينما كان «أمير سنجق» هناك، وكان «جندي حمزة بك» أيضًا قد عُزل؛ بسبب هزيمة ما مُني بها بينما كان متصرفًا على «كوله»[1]، أو في الوقت الذي كان فيه متصرفًا على سنجق «صونلق»[2]، ومن ثم صدر الأمر الشريف بحبسه في قلعة «بودين»[3]، فإنه قبل ذلك كان قد فتح قلعة «تاتا» وبيّض الوجه كثيرًا، وكان قد أخرج من دار الحرب في غزواته ما يقدر بثماني مائة فرد ممن تلقوا التربية والتدريب على يده، فلما وصل إلى مسامع السلطان المغفور له «سليمان» ذلك الأمر، عُيِّن على سنجق آخر، بينما كان لا يزال في القلعة، وعندما خرج من سجن القلعة تعثر وسقط على وجهه، ولم يعد يرى أي شخص منذ هذا اليوم، وكان قد وصل إلى سمعي[4] عن طريق حراس القلعة الذين كانوا يصطحبونه في ذلك الحين أنهم قالوا : «لقد أدى بقاؤه في السجن لفترة طويلة إلى ضعف بصره».

---

(١) مركز قضاء بولاية «مغنيسيا».
- İsmail Hami Danişmend : Adı geçen eser.، S. 496 .

(٢) مركز سنجق في «أردل»، وتقع على نهر «تيسه» جنوب شرق «بودين».
- İsmail Hami Danişmend : Adı geçen eser.، S. 524.

(٣) تقع على إحدى ساحلي نهر طونه تجاه مدينة «بشته» التي كانت عاصمة بلاد المجر، وقد فتح هذه المدينة السلطان سليمان القانوني عام ٩٣٢ هـ = ١٥٢٦م وظلت تحت الإدارة العثمانية حتى تاريخ ١٠٢٨م.
شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، ٢ / ١٢٥٦ - ١٢٥٧ .

(٤) مسامع المؤرخ بجوي.

وأيضًا كانت مقاطعة «أربالق» تعين للأفراد في حالة عزلهم؛ لسد احتياجات خيولهم وبغالهم وسائر حيواناتهم، وقد شاهدنا بأنفسنا أنه قد ألغيت الأربالق الخاصة بالأمراء في سناجق «صونلق» و«سكدين»[1]؛ وكنا قد شاهدنا بأنفسنا أنهم أعطوها لسد عجز خزينة «البوسنة»، والآن يصادف كتابة مقاطعات «الأربة لق» هذه في الدفتر المعروف باسم دفتر إجمال سنجق «سمندرة»[2]، ولقد رأيت البراءات[3] القديمة للمرحوم «خسرو بك» والمرحوم «قاسم باشا» و«طور على بك» وهي بمثابة حمل أو حملين أقچة لكل واحد منهم، وشاهدنا ما حُرر من أمتعتهم وأغراضهم الخاصة التي يقدر محصول كل واحد منها ما بين خمسة عشر وعشرين ألف أقچة، وفى هذا الوقت الذي يوافق عام ١٠٥٠ هجرية كانت أحوال هؤلاء الأمراء الذين ضاع اعتبارهم، قد أصبحت أسوأ ألف مرة من أحوال العمال اليهود؛ حيث كانت الرشوة ومال الالتزام الذي كان يدفعه هؤلاء، يُؤخذ في الاعتبار؛ ومن ثم يضاف على ديونهم، وكان لا يُطلب منهم ما لم تحل السنة الجديدة، ولكن محصول سنجق الأمراء المبتلين بهذا المرض الرشوة كان يؤخذ مضاعفًا بطريقة الرشوة في الوقت الذي كان هذا المحصول ما زال في أيديهم، ولم تنته سنة التزامه ولم يتم تحصيل خراج الأرض؛ وربما يكون قد تولى المنصب أو لم يتوله عندما يباع هذا السنجق مرة أخرى إلى أحد المبتلين بالرشوة قبل مرور شهر أو شهرين من ذلك [أي تعيين السنجق الأول]، ولا يمكن المطالبة بها دفعه المعزولون وحتى أسماؤهم قد لا يتذكرها أحد ولا يقال: إن الغدر والألم قد ألحقا بذلك الفقير، وإلى من ينبغي أن أشكو هذا الظلم والجور أو ممن أرجو الدواء، ورجاؤنا دائمًا أن يدفع الله رب العالمين

---

(١) وهي مدينة تقع على نهر تيسه في بلاد المجر.
شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، ٤ / ٢٥٣٧.

(٢) تقع في يوغسلافيا.

- Ismail Hami Danişmend : Adı geçen eser، S. 507 .

(٣) يقصد بهذه الكلمة الورقة أو الرسالة المكتوبة، وكانت اصطلاحًا يستخدم في التشكيلات العثمانية فيما يخص أوامر التعيين والأذون الصادرة من طرف السلطان للمعينين في بعض الوظائف أو الخدمات، ولم تكن البراءة مثل الأمر العادي أو التذكرة، وإنما كانت تكتب بالخط الديواني، وتختم بالطغراء.

-Mehmet Zeki Pakalın :Adı geçen eser، S. 205.

عن عباده ما يسبب لهم هذا الظلم والغدر، ولكن لو أمعن النظر في الأمر فسنجد أن الذين يظلمون ويغدرون ينالون عقابهم، وأن ما يفعلونه يرتد إلى نحورهم.

وقد عاصرنا «مصطفى باشا» الذي كان أيام طفولتنا، وبه أتم أمراء الأمراء الرقم خمسين تمامًا، وأربعة فقط من هؤلاء الأمراء كانوا لا يزالون موجودين على قيد الحياة؛ حتى إن فترة ولايتهم كانت قريبة جدًا، وكانوا لا يبلغون آمالهم طوال أعمارهم ما لم يستفيدوا من مال الأمراء الفقراء، ولكننا نرجو عناية جناب الباري في أكثر من هذا، ونلتمس المدد والهمة من روحانية المرحوم والمغفور له سلطان «سليمان خان غازي» الذي كان أعظم الغزاة؛ لينظم حال الفقراء، وأن يقدر سلطاننا صاحب السعادة والعظمة الأمراء الفقراء مع سائر المظلومين أيضًا، ويرحم الدموع الدامية - التي تنحدر إلى باطن الأرض والآهات المحترقة التي تصل إلى فلك «أثير» - للجماعة التي غُدر بها وعُزلت وصارت مديونة من أصحاب الطبل والعلم، وليتفضل عليهم بتوفير ما يكفي معيشتهم حتى يُكتب الأجر العظيم في دفتر أعمال بره عند الله تعالى، ولقد حُرر في هذا الموضوع على وجه التقريب كم ضئيل من الألم الذي زخرت به القلوب، وقدر قطرة من بحر الجور والظلم الذي كان يقع على عاتق فقراء الأمراء، وينبغي أن أعود إلى الموضوع الذي نحن بصدده مرة أخرى وأبدأ في ذكر الأخلاق الحسنة للسلطان المغفور له.

وفي عصر السلطان سليمان الشريف كان لا يوجد شيء اسمه الرشوة، وعندما أصبح المرحوم «رستم باشا» صدرًا أعظم، اتهم بصفة عامة بهذه التهمة، ولكن كل ما أخذه كان حوالي أربعة أو خمسة آلاف ذهبية من الإمارات الممتازة؛ مثل إيالة الأناضول والشام ومصر، وعلى الرغم من أنه كان قد تولى منصب إمارة الأمراء لمدة خمسة عشر عامًا، فإنه كان لا يُطلب منه أي شيء مصروفات؛ كما كان لا يخاف العزل؛ لأن هذا الذي أخذه ليس رشوة وإنما كان هدية فقط؛ حتى إن المرحوم «عالي أفندي» تصديقًا لهذا كتب في تاريخه قائلًا: «أرسل أمير أمراء «أرضروم»[1] إليه ذات مرة هدية خمسة آلاف ذهبية؛ فأعاد ثلاثة آلاف من هذه النقود قائلًا: ليس هناك قدرة لأرض الروم على هذا».

---

(١) تقع شمال شرق الأناضول وتحدها الحدود الروسية من الشمال الشرقي.
شمس الدين سامي، قاموس الأعلام، ٢ / ٨٣٠.

وكان المرحوم «محمد باشا الطويل» بريئا من هذه التهمة، ولكن كان قد اتهم بالقول: «إنه أضاع حقوق الكثير من أصحاب الحقوق بتفضيله لرجاله»، ولم أسمع أنه ارتشى وأخذ أقچة واحدة عند توجيه التيمار والزعامة إلى شخص غير «صوفي سنان باشا» المشهور بلقب «بتر صوفي سي»، وهو من أعيان الدولة وكان في درجة أمير أمراء، وكنت قد رأيته قبل عام ١٠٠٠ هجرية، وحتى إنه لما كان المرحوم «فرهاد باشا» الذي استشهد في «بودين» خالي، فقد كنت مطّلعًا على شئونه الداخلية بلا حرج، وكان يلازمه كل يوم أكثر من ثلاثمائة؛ حيث كانوا يأتون ليسلموا عليه، وإذا ظهرت الحاجة للقيام بمهمة حراسة الحدود، كان هناك ثلاثمائة أو أربعمائة فارس مغوار مع أسود خدمه جاهزون تحت لواء رئيس الملازمين يقومون بهذه المهمة، وفى أحد الأيام دخل هؤلاء مجتمعين على المرحوم الباشا، وأكثروا من الحديث إليه قائلين: «إنك تعطى التيمار المحلولة إلى خدمك، ونحن نجتهد لأجل سلطان العالم دون مقابل، ونقوم بتربية الخيول والخدم، ونأتي إلى الديوان كل يوم لنسلم عليك»، فأجاب المرحوم الباشا أيضًا بقوله: «لقد خرج رجالي معي لحملة بلاد الـ «عجم»، فهم الأشخاص الذين قاموا بكثير من الخدمات والغزوات؛ فإذا كانت ملازمتكم لي لذلك السبب، فملازمتهم أيضًا كانت لهذا السبب»، وفى النهاية قرر الباشا أن يمنح واحدًا من التيمارات الثلاثة إلى خدمه، والاثنين الآخرين إلى الملازمين الذين كانوا تحت لوائه، واستمر العمل على هذا النحو في زمن المرحوم.

وبعد ذلك حل «صوفي سنان باشا» محل «فرهاد باشا» وكان يأخذ قدرًا من المال علانية، ثم بدأ عام ١٠٠٠ هجرية، وبدأت حروب المجر؛ وعند عودتهم من الحرب، ظهر أمناء الإعفاء، فكان الـ «بيكباشي» (رئيس الألف) يأخذ من الذين لم يشتركوا في الحرب الذهبيتين أو الثلاثة، وكانت تُباع التيمارات المحلولة (أي التي خلت) بمزاد علني، ولهذا السبب لم يبقَ فرد واحد يريد أن يكون ملازمًا، ولم تعد هناك قدرة لدى أمراء الأمراء؛ بسبب هذا القدر من الطمع، ولم يجدوا السعة التي تتناسب مع نشأتهم وشرفهم لا من الخيل والحيوانات ولا من الجمال والبغال، ولا من الرجال الأبطال

والخدم الشجعان، فمثلًا؛ فإن النفوذ والسطوة التي كانت لدى واحد من الأمراء الذين ربيناهم، وتجهيزاته العسكرية ودروعه وجميع ثياب المواكب والتشريفات والباب السلطاني، لا تتحصل الآن لثلاثة من أمراء الأمراء مجتمعين، وحينما يكون أمير أمراء شاغلًا لمنصبه فإن الحاشية تحيطه، وعند عزله، لا يبقى ببابه أحد.

وإن القدرة والقوة التي كانت لدى الوزراء العظام ظاهرة إلى الآن من خلال آثارهم، وهناك «قيطاسى كتخدا» الذي تربى ونشأ في خدمة الوزير الأعظم «محمد باشا الطويل» كأحد خدمه، و«خادم حسن أغا» الذي كان «خازن دار» المرحوم الوزير الأعظم محمد باشا الطويل، والأمين على كل أموره الرسمية والخاصة والذي كان يدعو له المرحوم شخصيا قائلًا: «اللهم اجعل خاتمة وعاقبة هذا الغلام خيرًا، وفى كل وقت إذا تحيرت وأجبرت على عمل أمر ما فإنه يدفع حيرتي بتدبيره، ومشورته»؛ وسألت عن هؤلاء أي «قيطاسي كتخدا» المذكور و«حسن أغا» ؛ لشار إليه قائلًا:

«أنتم تقولون: إن المرحوم الوزير الأعظم كان لا يأخذ الرشوة، وتتفضلون بالقول: إن مقاطعة «الخاصة»[1] التي يتصرف فيها كانت لا تزيد عن ١٥٠ أو ١٦٠ حمل أقچة، فإن كان الأمر هكذا، فمن أين أتت الألف حمل أقچة للقصرين، و٣٠٠ حمل أقچة لعمارات «برغاز»، و١٥٠ حمل أقچة لعمارات «حفصة»، ومن أين جاءت مصاريف هذه الأوقاف والعمارات في «إستانبول» و«قاسم باشا» و«حلب» والـ «شام» و«مكة الله» و«المدينة المنورة» ؟، فأجابوا قائلين: «إن الهدايا التي كانت تصل إلى مرحومنا تزيد مرتين أو ثلاثة عن الرشوة التي كان يأخذها كبار الدولة الآن، وكانت معظم مصاريفه خلاف ما كان ينفق على أعمال البناء، كانت ترد بطريق الهدايا، وكان يوجد ألف خادم

(١) خاص: تعبير يطلق على التيمارات التي تحقق دخلًا أكثر من مائة ألف أقچة، وكان يوجد تعبير «خاص» عند سلاطين خوارزم، والمماليك، وسلاجقة الأناضول، وكانت الخواص التي تعطى للوزراء وأمراء الأمراء والأمراء الآخرين تسمى باسم «خواص وزراء»؛ حيث تم انقسام التيمارات إلى قسمين؛ «تيمار» و«زعامت» في عهد السلطان مراد الأول.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، S. 750.

من طائفة «فورسة»[1] يعملون في هذه العمارات، فمثلًا من أجل بناء «يكى سراى» الذي يقع بالقرب من جامع السلطان «أحمد خان» الجديد، أمد السلطان «سليم» أخته موفورة الحظ التي باشرت بناءه بنفسها بمائة ألف ذهبية، إلا أن المرحوم أي الصدر الأعظم لم يأخذها، وأهداها إلى السلطان مرة أخرى؛ أي أنه كانت لا توجد نهاية لما تم اكتسابه بلا جهد على هذا النحو، وبصرف النظر عن كل هذا، فقد بقي المرحوم وزيرًا أعظم لمدة ستة عشر عامًا، وكان دَخْل مقاطعة الخاص ١٦٠ حمل أقچة، وعلى هذا الحساب كان مجموعه أربع مائة ألف غروش كدخل سنوي، إذًا فما مقدار الذي كان يحصل عليه، بحسبة قلم سريع، من الأربعمائة ألف غروش في الستة عشر عامًا؟ وبالإضافة إلى هذا كان قد شغل منصب الوزارة لمدة تسع سنوات، وكان دخله مائة ألف غروش في السنة، سجل له هذا فقط، وبعد ذلك أسأل من أين جمع المال الذي أنفقه على هذه الإنشاءات الكثيرة، وفى الواقع كنا نحاسبه، فكان دخله يزيد على مائة ألف غروش سبعين أو ثمانين مرة، وكان يمزح الوزير الأعظم قائلًا: «حتى نصل إلى هذا القدر، فإن كل الحاصلات التي تتحصل نشترى بها درعًا لك!!».

وكانت أوضاع الأمراء أيضًا على هذا النحو، ووصل لمسامعي ما قرره على لسانه عدة مرات المرحوم «تيرياكي غازي حسن باشا» الذي كان من الأمراء المتأخرين قائلًا: «بينما كنت أميرا لـ «سكتوار»[2] كانت قوتي وقدرتي ورجالي الشجعان وخدم بابي كانوا كثيرين، وأصبحت أمير أمراء، ثم وزيرًا، ولكن لم أكن أملك ثلث ما كان يملكه أي وزير في هذا العصر، حتى إنني قد تساءلت بلا تأدب قائلًا: «ما سبب هذا؟» فكان الجواب: «إنه لا توجد البركة، وليس هناك ثبات ولا استمرار في بقاء الوظيفة، وقد صرت متصرفًا على سنجق «سكتوار» أكثر من عشرين عامًا، وكان حاصل دخلها

(١) تطلق كلمة «فورسة» على أسرى الحروب الذين كانوا يستخدمون في التجديف في السفن التي تسير بالتجديف.

- Midhat Sertoğlu : Adı geçen eser، S.115 .

(٢) تقع شرق «بودين» بحوالي ٢٣٠ كيلو مترًا في بلاد المجر.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 524.

السنوي خمسين أو ستين ألف غروش، وفى إحدى السنوات لما سقط في يدي عدد كبير من الأسرى زاد دخلي إلى سبعين ألف غروش».

وقد سمعت أيضًا عن لسان المرحوم «قره علي بك» أنه قال: «كنت أميرًا على «أستوني بلغراد»[1] لمدة خمسة عشر عامًا، وفى إحدى السنوات وقع أخي في الأسر، ولاسترجاعه، استبدلته بأسير تقدر قيمته بثلاثين ألف غروش؛ ولولا ذلك لكان دخلي قد ارتفع في هذه السنة إلى مائة ألف غروش».

وكان دخل هذه السناجق أيضًا يصل إلى ١٥ أو ٢٠ ألف غروش، إلا أن أموال الغنائم والأسرى التي كانت تتاح للأمراء في المناطق الحدودية، كانت تغني وتشبع الأمراء، بحيث كانت لا تجعلهم يمدون أيديهم للرشوة، وكان يرسل إلى الرِّكَاب الهمايوني مرة أو مرتين عشرين أو ثلاثين كافرًا محاربًا ممن وقعوا في الأسر، من أجل الإدلاء بمعلومات عن العدو وذلك بحسب نصيب كل واحد منهم في السنة، وكانت الرماح والسهام تزين بأي عدد يؤخذ من رءوس الأسرى، وكان يُرسل إلى كل وزير أعظم أعداد مختلفة من الأسرى ثلاثة وأربعة وخمسة وعشرة، ونحن شاهدنا أن المرحوم «حسن باشا» كان يعطي أسيرًا واحدا لكل فرد من طائفة «الأبدال»[2] و«الدراويش» الذين كانوا يحملون الأهلة، وكان نادرًا ما كان يهدى أسيرًا لأي من أحبابه الآخرين الذين يأتون إلى زيارته.

أما في المناطق الحدودية فكانت الهجمات تشن دون توقف؛ وهكذا كانت الغنائم لا تنقص أبدًا، وكان يقع في الأسر في كل مرة خمسة أو عشرة أو أربعون أو خمسون؛ وربما

---

(١) «أستوني بلغراد» تقع في المجر.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 597.

(٢) «آبدال» (فتوت): اسم أطلق بشكل عام على مجموعات الحرفيين والصناع والجماعات الدينية والاقتصادية التي بدأت تظهر في الأناضول منذ القرن الثالث عشر الميلادي والتي أصبحت فيما بعد منظمة وذات تشكيلات... ولكن نفوذ هذه التشكيلات على الدولة بدأ يقل بعد فتح الفاتح للقسطنطينية، ومع مرور الوقت، أصبحت هذه التشكيلات بمثابة رابطة للمهنيين.

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser، S. 116.

أكثر من مائة أسير، وكان الأفراد الذين يقومون بالأسر ينتظرون عند الخانات؛ حيث كانوا يخطفون الأسير الذي يقع بين أيديهم بسرعة، وفى هذه الفترة، كان الأمير يختار أسراه، فكان يأخذ نصفهم، ويوزع النصف الآخر على الغزاة، وكان جند سباهية القرية الذين يصيرون غنيمة، يقسمون عند أهل الإسلام إلى ثلاثة أقسام؛ أي على حساب الثلث في ذلك الوقت، ولو أسر الكافر المحارب من أي جنس، سواء من طائفة «قطانة» أو من طائفة «حيدود» أو كان صاحب قلعة وعسكر كان الأمراء يدفعون فقط عشرين غروشًا، ويأخذون الكافر الأسير، ولو كان يُؤسر مائة أو مائتا كافر، كانوا يؤخذون ويدفع ثمنهم بهذا السعر المذكور، وكان محظورًا على أي شخص عدا الأمراء في المناطق الحدودية القبض على الأشخاص كأسرى، والآن أيضًا قل عدد الأشخاص الذين يعرفون هذا النظام، وأحيانًا كان ينقل هذا النظام بعض سكان الحدود الذين نشأوا في تلك الجهات فيما بعد، وكانوا يتأسفون على ذلك بقولهم: «كم كان غدرًا عجيبًا بالشباب»، وكانوا يسعون لاستردادهم ما أمكن ذلك.

وكانت أمور الغنيمة في المناطق الحدودية على هذا النحو حتى عام ١٠٠٠ هجرية، وبعد ذلك، لما بدأت حملات بلاد المجر، ولما لم يبق اعتبار ورغبة في الأمراء لدى وزراء الدولة؛ سقط هؤلاء أيضًا من النظر، ليس في مناطق الحدود فقط، بل أيضًا بين الكفار ورعايا الدولة، والآن إذا كانت هناك رغبة لدى غزاتنا في أخذ الأسرى فإنهم يعطون العشر إلى الأمراء، ويختارون هم الضرير والعليل منهم، وكان قد وضع هذا النظام وذلك القانون الوزير الأعظم «قوجه سنان باشا».

وحكمة الله، أن أهالي المنطقة الحدودية كانوا متعطشين إلى الحروب بأرواحهم قبل أن تقع تلك الحملات، وكانوا يتمنون أن يكون كل شيء مثلما كان في عصر المرحوم والمغفور له سلطان سليمان رحمة الله تعالى عليه؛ إلا أن الأمر لم يكن على هذا النحو؛ بل أصبحت ولاية المجر بالكامل خرابًا ودمارًا، وأكل الناس الميتة والجيفة، وكان المرحوم «سنان باشا» هو المتسبب في هذا، مع أنه كان رجلا غازيًا وصاحب دراية في مختلف الأمور، وشيخًا وقورًا، وقائدًا لحملات الـ «يمن» و«خلق الواد»، ولكن كان رأيه وغرور ابنه يبعدانه عن الأمور النافعة للدين والدولة.

ومن جملة هذه الأخطاء التي ارتكبها «سنان باشا» عدم اهتمامه بضبط العسكر الذين ارتكبوا أخطاءً فاحشة، وكان يرد على الشاكين من هذا الوضع قائلًا: «لا تؤخذ بلد ما لم تُهدم بلد»، وأعطى حرية التصرف إلى التتار؛ حيث أغاروا على بلاد المجر كلها وأسروا أهلها، وأتى الملك الضال مع جنده، حيث جعله تصرف «سنان باشا» ينجز الأمر الذي لم يستطع فعله في عدة سنوات، ينجزه في شهر واحد، وبصفة عامة فقد عمّ البلاد القحط؛ بسبب نهب الجنود للرعايا، وكان أهالي «أردل»[1] و«بغدان»[2] والـ«أفلاق»[3] قد أعلنوا العصيان بسبب تصرفاته أيضًا، ولو فُصِّل الحديث في هذا الأمر لطال بنا.

فليتغمد الحق سبحانه وتعالى حضرة السلطان سليمان خان غازي برحمته؛ فقد كانت جميع تصرفاته وأوضاعه حكيمة، وبينما كان السلطان «سليمان» يكفى كنموذج للعسكريين الذين أتوا من بعده فإن أي شخص منهم لم ينهج نهجه، ولما خرج المرحوم والمغفور له إلى حملة «بدون» أول مرة، أخضع «أردل»، واستمال أهل الـ «أفلاق» و«بغدان» وأحسن معاملتهم، وبهذا انتصر السلطان «سليمان» بفضل الله تعالى؛ بسبب عدم تقديم هؤلاء - أي أهالي الأفلاق والبغدان - أي مساعدة لملك «بدون»، وأصبح سعيدًا بفتح بلاد المجر.

وكان السلاطين السابقون يسيرون على هذا النهج؛ وكانوا يعتبرون هذا السلوك، مقدمات للفتح، ولما تزوج المرحوم «يلدرم بايزيد خان» ابنة «ولق أوغلو» أمير «سمندرة»، فإن رغبته في الزواج من ابنة الكافر التي لا تحيط علمًا بآداب السلاطين، وذلك بينما كانت بنات الملوك الحسناوات تقف في النواحي الأربع في ذلك الوقت، كان بلا شك لأجل هذا الهدف، وبعد ذلك فإن زواج «مراد خان الثاني» من ابنة «ولق أوغلو ووجيه» مرة أخرى أيضًا كان من أجل أن ينتصر على ملك الـ«بوسنة» وعلى جميع الكفار

---

(١) وهي تعرف الآن باسم ترانسلفانيا وتقع في الجنوب الشرقي لبلاد المجر .
- Danişmend : Adı geçen eser، S. 840.

(٢) تقع شمال شرق شبه جزيرة البلقان .
- قاموس الأعلام، ٢ / ١٣٢٨ .

(٣) وهي واحدة من الممالك التي تشكل دولة رومانيا في شبه جزيرة البلقان.
- قاموس الأعلام، ٢ / ١٠٠٤، ١٠٠٥ .

فى «الروم إيلي»، وفى النهاية انتزع «سمندرة» من المذكور، وكلف «شهاب الدين باشا» ببناء قلعة محكمة في «بلغراد»، وكان يقوم بالهجوم وغزو الأراضي المجرية، وكلف ببناء قلعة «يركو» في مواجهة قلعة «روسجق» بحيث يفتح بابها من «سمندرة».

وبصرف النظر عن كل هذا ففي حروب المجر في هذه المرة التي التحقنا بها وشاهدناها لم تبق قلعة ولا مقاطعة دون أن يخربها وينهبها الكفار، وقاموا بإحراق قلعة «زمون» المواجهة لـ «بلغراد»، وأخذوا الخراج من طواحين «بلغراد»، وأن الإغارات والخسائر التي حدثت في المدن والأحياء والقرى الواقعة على سواحل «طونه»؛ نتيجة لعصيان أهالي الـ «أفلاق» والـ «بغدان» ربما كانت قد اقتربت لحدود «أدرنه»[1]، وقد جعل هذا الوضع الجميع في حالة من الحيرة والعجز، وفي ذلك الوقت كان ظهور الجلاليين على هذا النحو في الطرف الآخر؛ أي في الأناضول قد وصل إلى درجة عظيمة من الفوضى.

وقد نهج الوزير الأعظم «محمد باشا» الذي فتح «أسترغون» نهج المرحوم السلطان سليمان، فبحسن معاملته لكفار «أردل» في البداية، وبتعيين الكافر المعروف باسم «بوجبقائي» من بينهم ملكًا عليهم في النهاية، فُتحت «أسترغون» في أول تلك السنة المباركة وأصبح جميع الأمراء الكفار وحرس القلاع الذين كانوا ضده، مطيعين ومنقادين له، وقد عبر عسكره، أي عسكر «بوجبقائي» تحت قيادة قائد العسكر الذي يدعى بـ «نعمتي» إلى نواحي «بج» وقد وصل المرحوم الغازى «سرخوش إبراهيم باشا» الذي كان ابن أخت المرحوم الصدر الأعظم محمد باشا الطويل بصحبة هذا القدر من عسكر الإسلام إلى تلك النواحي، وأغاروا وخربوا نواحي «بج»؛ وأوقعوا الهزيمة بعسكر «نمچه»؛ أي النمسا الذين جاءوا على ثلاث أو أربع دفعات، وأسروا أمراءهم المشهورين وأمراءهم المعروف الواحد منهم باسم «غروف»، وعلى إثر هذا اضطرت «نمچه» [النمسا] إلى طلب الصلح، وبالفعل انعقد الصلح في العام التالي.

---

(١) تقع شمال غرب إستانبول بحوالى ٢٢٥ كيلو مترًا. قاموس الأعلام، ٢ / ٨٠٨.

والكلمة تجر الكلمة؛ فزادت كثرة الكلام عن الحد، وهذا الحال عند الشيوخ، من ضروريات السن والسنة، فمن له حظ فليقرأ ومن ليس له حظ، فليطو هذه الأوراق.

في ذكر حسن التصرف واستمالة الرعايا

يُروى عن بعض الثقات أنه لما فتحت «بلغراد» الحصينة البنيان، قام عسكر الإسلام بتكرار الهجوم على نواحى «سرم»[1] حتى خربت تمامًا، وبعد ذلك، توجه السلطان لحملة «موهاج» ولم يكن قد ترك أثرًا للعمران فى جزيرة «سرم»، وبعد عودة صاحب السعادة السلطان المؤيد بالنصر، سئم رعايا الأفلاق في ولاية «أصولين»؛ بسبب جور هذا الأفّاق الذي سيُعين أميرًا عليهم، وفي النهاية ثاروا عليه، وقاموا بقتل هذا الأمير بذيء اللسان، وبعد ذلك قالوا: «لم يمكن البقاء والاستقرار في هذه الديار». وفروا بجميع أغنامهم، وقطعان بهائمهم، وسائر حيواناتهم هاجرين منازلهم، ودخلوا الحدود العثمانية، وطلبوا تعيين موضع سكن لهم، وعندئذ، عرض والي «سمندرة» الوضع على السلطان، فيعين لهم السلطان صحراء «سرم»، وبعد ذلك كان السلطان صاحب النسب العالي متوجهًا في حملة جديدة إلى تلك الجهات، وعندما تفضل بالنزول لدار الجهاد «بلغراد»، أتى ستون فردًا ذميًا يمثلون الأمراء المذكورين واستقبلوا السلطان، وكانوا يتباهون بتقبيل حافر الحصان السلطاني، بينما كان السلطان صاحب السعادة يمتطي جواده في صحراء «زمون» في عزة وعظمة؛ وعندئذ، خلعت عليهم جميعًا الخلع الفاخرة؛ حيث سألهم السلطان «سليمان» مستفسرًا بقوله: «هل أنتم على دراية بمسالك الطرق؟» وبعد ذلك عينت لهم المواضع التي ساروا فيها أمام العلامات أو الطيوغات السلطانية، وبذلك سعد الستون فردًا بهذا الشرف لعدة أيام، ومن ثم تقرر في حملة «سكتوار» أيضًا أن يأتي الستون فردًا هؤلاء كما هم إلى الموكب السلطاني في «سكتوار» تحت اسم «كنز قولا غوزلق»؛ أي مرشدي الطرق.

---

(١) تقع تجاه بلغراد

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 613.

وبينما كان السلطان صاحب السعادة والمقام العالي يسير بصحبة جنده الذين كانوا في كثرة كثيرة أشبه بالنمل في العدد، في صحراء «سرم» وكانت المزارع تمتد على اليمين وعلى اليسار، قام بإغداق الذهب على الرعايا الذين خرجوا لبيع الخبز والدجاج والرقاق للجند، وأيضًا على نسائهم اللاتي كن يقمن بهذه التجارة .

ولكن في الوقت الحالي فإن معظم تصرفات قوادنا أصبحت متناقضة ومخالفة لهذا التصرف الذي طبع عليه السلطان المظفر صاحب السعادة،فمثلًا في أثناء تحصيل منطقة الروم إيلي في عنابر «بلغراد» في فترة الصدارة العظمى للمرحوم «لالا محمد باشا» سالف الذكر وفاتح «أسترغون»، سأل المرحوم «مالقوج بك» شقيق المرحوم «قره على بك» رئيس سباهية «سكدين» و الذي كان دفتردارًا في ذلك الوقت، قائلًا: «ما مقدار الحبوب التي تحصلت عن منطقة الروم إيلي؛ نتيجة لسعيكم وجدكم على هذا النحو؟»، فأجاب «أتمكجى زاده» قائلًا: «حوالي سبعين أو ثمانين ألف كيلة فقط»، ولما رد المرحوم رئيس السباهية قائلًا: «لما توجه السلطان محمد خان إلى حملة «أكره» اعلم جيدًا؛ نظرًا لرئاستي لسباهية الإيالة، ذخيرة الحملة وذخيرة القصر التي تكفي لذهاب الحملة وإيابها، والذخيرة التي نقلت إلى الجيش الهمايوني أثناء محاصرة «أكره»، غير الذخيرة المتروكة للوزير وأمراء أمرائه الذين كانوا في عنابر بلغراد ومحافظة «بدون»، والذخيرة الموزعة على قاده الوحدات، وقد زادت هذه الذخائر على أربعمائة ألف كيلة، ولو حسبت بالكيلة المتداولة بين أهل البلاد، كانت بلا شك ستتجاوز الخمسمائة ألف كيلة، ولم تستطيعوا حماية دار مؤنتكم ولا تخزنكم على هذه الصورة ولو بقدر إمكانكم، ولم تخرب لأنكم لم تسمحوا للجنود بنهبها، ولكن، بعد ذلك، وعلى إثر نقل التتار، سعيتم لخرابها خلال خمس أو ست سنوات من بدء الحملات بفرض أنواع الضرائب المؤقتة والالتزامات الشاقة، حيث كان يتحمل هذا الرعايا الفقراء فقط، ولم توزع على الجميع، وفى النهاية ففي أثناء العودة من حملة «وارات»، كان «أتمكجى زاده» في هذا العصر دفتردارًا لساطرجي محمد باشا وكان مدبرًا لأموره وأعماله المتعددة، أمضيتم الشتاء هناك معًا مع خان التتار، وجعلتموهم يغتنمون كل ما ملك الأهالي [في وارات]،

ويأسرون النساء والأطفال، وتمكنتم من تخريبها بصعوبة بالغة، ويا ترى هل كان هذا يحمى سنجق «سكدين»؟ أليس من الأولى أن تخفضوا بدل منطقة الروم إيلي من ٣٠٠ أو ٤٠٠ أقچة إلى ١٠٠ ألف أقچة؟» وعلى هذا صدق المرحوم الوزير الأعظم هذا الكلام.

وفي الواقع، كان الوضع قد صار على هذا النحو، وكان في سنجق «سكدين» اثنا عشر ألف بيت تدفع الخراج في ذلك الوقت، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك اثنا عشر ألف بيت محميًا من الخراج، وكانت تتم محاسبة السنجق مع الأربع والعشرين ألف بيت على الوجه المشروح، وكان محصل الجزية [جزيه دار] يجد ما يزيد عن ذلك فيجمعه، والله تعالى أعلم، لقد خربوها كما قال المرحوم «مالقوچ آلاي بك» دون قصد للمقارنة، ولم يحم هؤلاء الرعايا أي وزير ولم يستملهم أو يرعهم أي أحد.

ونحن شاهدنا عدة مرات، أن فقراء الرعايا تضرعوا بالدعاء واستغاثوا قائلين: «أيها الغازي السلطان سليمان ارفع رأسك المباركة، وانظر حال الفقراء الذين أسكنتهم تلك المناطق، والذين كنت تتولى حمايتهم ورعايتهم».

وكان المرحوم «مالقوچ بك» قد روى أنه شاهد الأمراء الذين أطلق عليهم لقب كنز قد صاروا مرشدين خلال حرب «سكتوار»، وأن السلطان صاحب السعادة ألبسهم الخلع.

في ذكر أبناء السلطان

- المرحوم الشهيد سلطان مصطفى:

ولد عام ٩٢١هجرية، امتاز هذا الأمير بين إخوته بأنه ذو قلب صافٍ، وصاحب مكانة عالية، وبالكرم والإحسان، ولما كان نجلُ سلطانٍ عالي المكانة، كان يسعى دائماً للمعرفة، وسبر أغوار الأمور.

وكانت تميل إليه قلوب الخاصة والعامة، وما إن بلغ سن الأربعين حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى في عام ٩٦٠ هجرية في «كرمان أركلي»، وأرسل نعشه إلى «بورصة»، وسوف يُفرد للحديث عنه في موضعه.

ـ سلطان سليم خان :

ولد عام ٩٣٠ هجرية، خلف والده صاحب الأمجاد، وتسلم عرش السلطنة دون أن ينافسه منافس، ودون أن يعيقه عائق.

ـ المرحوم سلطان محمد خان :

بينما كان هذا الأمير عند أبيه وأمه أعز من أعينهم التي ترى الدنيا ومن أرواحهم، وبينما كان من المقرر أن يتولى العهد في حياتهم، انقطع الأجل الذي ليس له أمان وانهار الأمل المقصود، وأثناء تواجده في ولاية «مغنيسا»، انتقل من دار الغرور إلى سراي السرور، وأحضر النعش المزدان بالرحمة إلى «إستانبول»، ودفن قرب الجامع الشريف الذي أشرف هو على بنائه، ويشتهر هذا الجامع الشريف بإلحاق اسمه الشريف إليه.

ـ الشهيد المرحوم سلطان بايزيد:

ولد عام ٩٢٨ [هجرية]، كان على شقاق وخلاف مع أخيه الأكبر السلطان سليم خان، وأخيرًا خرج بالجند على أخيه بتحريض أعوان السوء، وفرَّ إلى طائفة القزلباش مهزومًا، وأرسلت الرسائل الهمايونية مع السفراء عدة مرات لإعادته، وفي النهاية قُتل مع خمسة أفراد آخرين في «أصفهان» وأحضر نعشه إلى «سيواس» ودفن هناك، وستسجل أحواله بالتفصيل فيما بعد، وكان ذلك في ١٥ من المحرم الحرام ٩٦٩ [هجرية] .

ـ المرحوم السلطان جهانگير:

كان يوجد دائمًا في ركاب السلطان فاتح الممالك السلطان سليمان القانوني، لا يغادر مجلسه في الحرب أو السلم، وكان نور عين السلطان، وباعث سرور قلبه في تجواله ورحلات صيده، وبينما كان في «حلب» الشهباء، توفي، وأُحضر جسده إلى «إستانبول»، ودفن في تربة الأمير السلطان محمد.

- السلطان مراد، والسلطان محمود، والسلطان عبد الله:

وقبل أن يصل أبناء السلطان الثلاثة النجباء هؤلاء إلى آمالهم توفوا في ريعان شبابهم، ودفنوا، وستروا ككنز مخفي في تربة جدهم العظيم السلطان «سليم خان» المغفور له.

في ذكر الوزراء العظام الذين تقلدوا منصب الصدارة العظمى في زمنه الشريف

- الوزير الأعظم «پيري محمد باشا القرماني»:

هو من نسل الشيخ «جمال الدين آقسرايي»، كان وزيرًا أعظم في عصر المرحوم السلطان المنصور السلطان «سليم»، وبقي أيضًا في منصبه في عصر السلطان سليمان، وكان يتميز برجاحة العقل وكان عالمًا، وصاحب فضل وذكاء، وشيخًا وقورًا، ومدبرًا للأمور، وصاحب خبرة، حتى إنه كلما دخل على السلطان للعرض، كان السلطان صاحب السعادة يخجل منه، وكان يفرط في توقيره واحترامه، وبعد أن عُزل عن الصدارة، عينت له مقاطعة «خاص» للتقاعد. وعندما توفي، كان يحيا حياة عز وكرامة في «إستانبول»، وكلما كانت تخرج الحملات السلطانية إلى الحروب، كان يعين على محافظة «إستانبول».

- الوزير الأعظم إبراهيم باشا المقتول:

وكما كان المشار إليه مقربًا جدًا من السلطان صاحب السعادة خلال فترة إمارته، كان أيضًا مقربًا ومفضلًا بهذه الدرجة نفسها خلال زمن سلطنته، حتى كان يذكر أنه يريد أن يجعله وزيرًا أعظم، وكانت هذه الرغبة قد وصلت إلى مسامع «محمد باشا»، ولما سأل السلطان «محمد باشا» ذات يوم قائلًا: «إنك تريد أن تبعد خادمي؛ بسبب شكري الجزيل له على خدماته، لا أعلم أبعده بأي منصب»، أجاب «محمد باشا» قائلًا: «إن توجيه منصب خادمكم الصدر الأعظم محمد باشا إلى خدمكم المقربين والمفضلين على

هذا النحو أمر واجب»، ومن ثم أسند السلطان منصب الوزير الأعظم إلى «إبراهيم باشا» في الوقت الذي كان فيه في رتبة «أوطه باشى»[١].

- الوزير الأعظم إياس باشا :

أصبح وزيرًا أعظم بموجب تسلسل الترقيات؛ حيث كان وزيرًا ثانيًا عندما قتل «إبراهيم باشا»، وكان أرناءوطي الأصل[٢]، ولكن كان صاحب عقل راجح، وكان رجلًا يتمتع بحضور عند الآخرين، خرج من الحرم المحترم، وبعد ذلك، أصبح أغا فرقة الإنكشارية، ثم أمير أمراء «الروم إيلي»[٣]. وبعد ذلك أصبح وزيرًا، فإنه لم يكن صاحب رأي ولا تدبير صائب، وكان شديد الولع بالنساء، وقد حدث أن تحرك أربعون مهدًا - أي سرير طفل في قصره - مرة واحدة، وعندما توفي بقي من أولاده أكثر من عشرين فردًا.

- الوزير الأعظم لطفي باشا :

وهو أيضًا أرناءوطي الأصل، خرج من الحرم المحترم، وأصبح متصرفًا على بعض السناجق، وعمومًا استمر متصرفًا على سنجق «يانيه»[٤] لمدة طويلة، وبعد ذلك صار أمير أمراء، ثم وصل إلى مرتبة الوزارة، وكان قد تزوج أخت السلطان، ولكن انفصل

---

(١) هو أقدم ضابط بعد «باش أوضه باشي» في سرايا الأغا في معسكر الإنكشارية، وبعد «كتخدا الغرفة» في طائفة «جاعت أورته لري»، ويوجد في المشتى بصورة دائمة معًا مع طائفة «أورته» أو مع سريته، وفي وقت الحملة كان يجلس في الخيمة التي تعرف باسم «خيمة الوسط والسرية»، وكان أفراد حجرته يتجمعون من حوله بخيامهم.

- Midhat Sertoğlu : Adı geçen eser، S.239.

(٢) يقطن الأرناءوط في الأطراف الغربية من منطقة الروم إيلي في شبه جزيرة البلقان.

- قاموس الأعلام، ١ / ١٤٣.

(٣) كان يطلق اسم روم إيلي على الممالك التي تقع في منطقة أوربا، فهذا الاسم يشمل جميع الممالك الأوربية التي خضعت للحكم العثماني، في حين أنه كان يطلق على المناطق الموجودة تحت حكم الدولة العثمانية في جهة الشرق اسم الأناضول.

- قاموس الأعلام، ٣/ ٢٣٧٦ .

(٤) يقع هذا السنجق فى شمال اليونان.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 614.

عنها بعد ذلك لبعض الأسباب، ونظرًا لاطلاعه على قدر من قواعد النحو والصرف اعتبر نفسه علامة العصر، وكان يسأل عن الكلمة من الذين يأتون إلى مجلسه من كبار العلماء، ثم يقف، وبهذا الوجه كان يظهر السفاهة للخاصة والعامة، ثم عزل بعد ذلك من منصبه ومنح معاش التقاعد.

ـ الوزير الأعظم سليمان باشا:

أُرسل واليًا على الـ «الشام» مع رتبة الوزارة بينما كان من فرقة طواشي[1]، وبعد ذلك عُهد إليه بولاية «مصر»، وقام بتجهيز السفن الموجودة في ميناء السويس بناء على طلب السلطان ورغبته، وتوجه إلى المحيط الهندي، وفتح قلعة «عدن» فى الـ «يمن»، وبعد أن وصل حتى ميناء «ديو»[2] عاد سالمًا وغانمًا، وبعد ذلك أتى إلى الآستانة؛ حيث عُين صدرًا أعظم، وكان لا يعد عبيده الأقوياء وأصحاب القامات العظيمة وذوي الأحزمة الذهبية والذين كان يقدر عددهم بألف فرد عن ركابه، وأصبح مشهورًا بين الوزراء بهؤلاء الخدم والحشم، حتى إنه كان يتباهى بخدمه بدرجة زائدة، وكان يبذل قصارى جهده في رعايتهم، كما كانوا يتمتعون بمكانة عنده، وعزل في تاريخ ٩٤٧هجرية[3] ومات معزولًا.

ـ الوزير الأعظم رستم باشا :

وهو خرواتي الأصل[4] وكان من طائفة الخدم أيضًا، وفي الحقيقة، كان لا يوجد أحد

---

(١) هو تعبير يستخدم بدلًا من «خادم»، والطواشية تعنى: خصى الرجل وحرمانه من التناسل، والطواشية موجودة منذ القدم، فهي كانت عادة شائعة عند الأشوريين والبابليين والمصريين، وانتقلت من هؤلاء إلى اليونانيين، ثم انتقلت منهم إلى أهالي الروم والفرنجة، وعلى الرغم من أنهم خدم، فإن التواريخ سجلت أسماء بعض الرجال الذين نالوا الشهرة والبطولة منهم وشغلوا المناصب المهمة عبر العصور المختلفة.
- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. III، S. 422 – 423 .

(٢) وهو ميناء يقع فى مملكة كجرات على ساحل الهند.
ـ قاموس الأعلام: ٣/ ٢٢١٩.

(٣) الموافق سنة ١٥٤٠ـ١٥٤١م.

(٤) كانت إيالة خروات في بداية الأمر تابعة للمجر، وهي الآن في يوغسلافيا.
- Danişmend: Adı geçen eser، S.585.

يشبهه في شمائله، ولكن قبله السلطان كحاكم لرجاحة عقله وفكره، وخدماته، ولكماله وأدبه وحيائه وتدينه وزهده، فأتى به إلى مقام الصدارة، وكان يفكر في أن يزوجه ابنته، ولكن على إثر قول بعض الأعداء أنه مبتلى بمرض الجذام، استشار السلطان رئيس الأطباء، فأخبره قائلًا: «إذا وجدت قملة على قميصه، فإنه لا يوجد هذا المرض عنده»، وعندئذ أرسله السلطان إلى طبيب معتمد حاذق، وجعله يفحصه، وفي الواقع كان «رستم باشا» محظوظًا إذ كانت تظهر قملة صغيرة عند تغييره القميص كل يوم، ولما أزيلت هذه الشبهة، زوجه السلطان ابنته، وقد سجل المؤرخ «عالي أفندي» هذا الخبر في تاريخه وفقًا لما سمعه من هذا الطبيب أثناء تواجده متقاعدًا في الشام بعد ذلك، متصرفًا على مقاطعة «زعامت»[١] قدرها أربعون ألف أقچة.

وعمومًا، أصبح «رستم باشا» وزيرًا أعظم في عام٩٤٧ هجرية[٢]، ونتيجة لرأيه الصائب والتزامه بتحصيل الأموال الخاصة، تمكن من ملء الخزينة الداخلية والخزينة الخارجية، وربما امتلأت خزينة «يدى قله» أيضًا، وغدت فترة وزارته أيام سعادة للجميع حتى إن الناس جميعًا تفرغوا للعمل والكسب في حالة من الأمن والاستقرار العام، وفي هذه الفترة لم يغر على أي قرية، بل ولا على أي بيت في الحدود البعيدة للدولة، ولما كان «رستم باشا» واضعًا لبلاء الرشوة في هذه الدولة، كان أرباب المناصب الذين سجلت هداياهم في دفتره مرة، لا يعزلون أبدًا، وكان واحدًا من أكثر المرتشين إنصافًا، ويروى أنه في إحدى المرات يقوم أمير أمراء «أرضروم» بإهداء خمسة آلاف ذهبية قائلًا: «قيمة حصان»، إلا أن «رستم باشا» يأخذ منها ثلاثة آلاف فقط، ويرد الألفين الآخرين، ويقول: «إن هذا المنصب لا يطيق أكثر من هذا».

وبعد أن استمر وزيرًا أعظم لمدة اثني عشر عامًا، عُزل في واقعة السلطان «مصطفى»، وأعيد إلى منصبه مرة أخرى قبل مرور عامين من العزل، واستمر حوالي ست سنوات أخرى في الوزارة ثم توفي.

---

(١) هي مقاطعة من الأرض دخلها السنوي لا يقل عن عشرين ألف أقچة ولا يزيد عن تسعة وتسعين ألف أقچة.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. III، S. 549.

(٢) الموافق سنة ١٥٤٠-١٥٤١م.

وبينما كانت أفعاله الخيرية وحسناته بهذا الحجم، ومصاريفه في السفر والحضر وإخراجاته الخاصة بالسلطان كانت فوق الحصر، فقد قام المرحوم «عالي أفندي» بتحرير دفتر متروكاته عندما توفي قائلًا: «قد حُرر هذا من دفتر «محمد باشا الطويل» من مجموعة «سنان باشا» الذي توفي في «قبرص»».

مخلفات المرحوم رستم باشا

مصحف شريف بأحسنة خط		مصحف بجلد مرصع
عدد	٨٠٠٠	عدد ١٣٠

كتب متنوعة	عبد مملوك	خيول	جمال
عدد	نفر	رأس	رأس
٥٠٠٠	١٧٠	٢٩٠٠	١١٦٠
شاش تضمد به الجراح	سكه حسنة	خلع متنوعة	عمائم ذهبية
عدد	عدد	عدد	عدد
٨٠٠٠٠	٧٨٠٠٠٠	٥٠٠٠	١١٠٠

لباد ٢٠٠٩ حمل	جبة ودرع	سرج فضي	سرج مرصع بالذهب
عدد	عدد	عدد	عدد
٢٩٠	٢٠٠٠	٦٠٠	٥٠٠

ركاب مطرز بالذهب	سيف مرصع	خوذة فضية	آلة حرب فضية
زوج	قبضة	عدد	عدد
١٣٠	٨٦٠	١٥٠٠	١٠٠٠

مجوهرات قيمة ٣٠ قطعة	نقود وسبائك فضية وسبيكة فضية خام
عدد	تقريبًا حمل
٣٣	١٠٠٠

المزارع في الأناضول والروم إيلي	بطانة يد	طواحين
عدد	عدد	عدد
١٠٠٠	٤٧٦	٤٧٦

والقيمة تقريبًا حوالي ١١,٣٠٠,٠٠٠

ولم يدخل في الحسبان أشياء مثل السجاد المتنوع، والأواني والتحف الأخرى رحمة الله تعالى عليه.

ـ الوزير الأعظم المرحوم أحمد باشا:

وهو «أرناءوطي» الجنس، عرف بحسن الخلق، وبالشجاعة والشهامة، وهو على دين وعدل بلا نظير، خرج من الحرم المحترم وهو فى رتبة رئيس خدم الباب[1]، وبعد ذلك صار أغًا لفرقة الإنكشارية، ثم أمير أمراء «الروم إيلي»، فوزيرًا بعد ذلك، وقام ذات مرة بهجوم ليلي على جيش الشاه «طهماسب»[2] في الحملة التي وُجهت نحو «القزلباش»، ولم يكن قد وقع مثل هذا الهجوم حتى ذلك الوقت، وبعد ذلك أصبح قائدًا على حملة «طمشوار»؛ حيث وفق في فتح بعض الأماكن هناك، ثم قفل عائدًا، ولما كان قد وصل إلى رتبة وزير ثان، فقد ارتقى إلى الوزارة العظمى إثر عزل «رستم

---

(١) كانت تعطى هذه الوظيفة للموظفين القدامى من البوابين وإلى أبناء الوزراء وكان أقدم واحد منهم يطلق عليه «باش قبوجي».

- Midhet Sertoğlu : Adı geçen eser، S. 173.

(٢) وهو ابن الشاه إسماعيل مؤسس الدولة الصفوية، وقد خلف أباه في حكم الدولة عام ٩٣٠هـ وبعد أن حكم لمدة ٥٤ عامًا، توفي عام ٩٨٣ هجرية.

ـ قاموس الأعلام، ٤/ ٣٠٣٠.

باشا»، وكان يتصرف بالعدل والإنصاف بما يوافق رغبة الرعايا ورضاهم تمامًا؛ حيث كان يرعى مراتب الرعية ودرجاتهم، وقد قتل نتيجة كيد النساء، وقد بقي في منصب الصدارة العظمى ما يقرب من سنتين، وقد أوصله الأمر الذي لا يستحق حتى العزل وليس القتل بلا جريرة لمقام الشهادة، رحمة الله تعالى عليه.

ـ الوزير الأعظم «قالين علي باشا»:

وهو من حي «براجه» في سنجق الـ «هرسك»، ولما كان من أقارب «جشته بالى» كتخدا الوزير الأعظم «إبراهيم باشا»، فقد دخل بحسن تربيته للسراي العالي، وبعد ذلك خرج منه برتبة رئيس خدم الباب، ثم أصبح أغا لفرقة الإنكشارية، فأمير أمراء لإيالة الروم إيلي، ثم ارتقى، فصار أمير أمراء لإيالة «مصر» مع رتبة وزير، وبعد ذلك أصبح وزيرًا في الآستانة، وعلى إثر وفاة «أحمد باشا» أصبح وزيرًا أعظم نظرًا لأنه في رتبة وزير ثان، وكان رجلًا ضخمًا وطويل القامة وسمينًا بحيث لم يكن يوجد حصان يستطيع أن يسحبه، وكان رجلًا مازحًا جدًا، وقد كتبوا نوادره في بعض كتب النوادر واللطائف، فإنها لم تُذكر نظرًا لعدم تحمل هذا الكتاب المختصر لها.

ـ الوزير الأعظم صقوللى محمد باشا الطويل:

هو من عائلة «صقولو بك» من ديار البوسنة، وفى الحقيقة، أن وزيرًا في هذا المقام الجليل ومن أبناء «شاهين»، كان لائقًا بهذا الإجلال، خرج من الحرم السلطاني في رتبة رئيس خدم الباب، وبعد ذلك علا شأنه فصار قائدًا بحريًا برتبة السنجقية، ثم تولى إيالة الروم إيلي، حتى إنه كان أميرًا للأمراء عندما فتحت قلعة «طمشوار»، وكان سردارًا خلال الصدام الذي وقع بين الأمير «السلطان سليم» والأمير «السلطان بايزيد»، وبعد ذلك بينما كان وزيرًا ثالثًا، تزوج بواحدة من البنات المخدرات للسلطان «سليم» عالي المكانة والتي تعرف باسم «اسمى خان سلطان»، وأخيرًا بينما كان وزيرًا ثانيًا، وعلى إثر وفاة «على باشا»، أصبح وزيرًا أعظم للمرحوم والمغفور له السلطان سليمان لمدة عامين، واستمر في هذا المنصب أكثر من ثماني سنوات من عصر السلطان «سليم» وحوالي ست

سنوات من عهد السلطان «مراد»، وكان صاحب الأمر والنهي في الدولة في عصر السلطان «سليم»، وكان قد اختص باستقلالية لم تتيسر لأحد من الوزراء، وفي النهاية رحل عن الدنيا فرحًا بالشهادة.

ويروى عن خازنه «طواشي حسن أغا» أنه كان ينهض ليلًا في وقت التهجد كعادته، فيجدد الوضوء، وبعد أن يتهجد كان يجعل «حسن أغا» المذكور يقرأ عليه تواريخ آل عثمان، ولما قال «حسن أغا»: «من أى موضع ينبغي أن أقرأ هذه الليلة؟» تفضل قائلًا: «اقرأ من موضع استشهاد السلطان «مراد» في «قوسوا» [أي كوسوفا]»، فقرأ ذلك الموضع الذي بَيَّن أن أحد الكفار قام بضرب السلطان المجاهد على غفلة بالخنجر، ولما قرأ السطور التي تصور أنه استشهد، رفع «صقوللو محمد باشا» يديه، وانهمرت دموع عينيه، وقرأ الفاتحة لروح السلطان قائلًا: «اللهم اجعل لي نصيب الشهادة هكذا»، ومسح يديه على وجهه، وقضت حكمة الله تعالى أن سهم دعائه أصاب الهدف، ففي اليوم التالي وأثناء انعقاد الديوان قام أحد الحمقى بضربه بسكين، وفاز بمرتبة الشهادة قبل مرور ساعة وتغمده الحق تعالى برحمته.

وهكذا كان «محمد باشا» وكيلًا ووزيرًا أعظم جليلًا لثلاثة سلاطين عظام، ودخل الحرم السلطاني، ولم يذق مرارة العزل يومًا واحدًا منذ أن دخل الحرم الهمايوني، وحتى وصل إلى مقام الشهادة؛ حيث فاز بعلو المكانة وبزيادة النعم والعز يومًا بعد يوم، ومع أن المرحوم لم يذق ألم العزل ظاهريًا، فإنه ابتلي بالابتلاءات الزائدة عن الحد التي تمس العرض والشرف في عصر «مراد خان»، وكان المقصود من ذلك إلحاق الجفاء والعزلة به، ففي البداية عزلوا كاتبه «فريدون بك»، وقتلوا كتخداه، وبعد ذلك أُمروا بطرد كتخداه «خسرو كتخدا» و«سنان أغا» رئيس بوابيه من بابه أي (باب الصدارة)، وقتلوا ابن عمه «مصطفى باشا» أمير أمراء «بودين».

وأرسلوا رئيس الإسطبل الكبير «فرهاد أغا»، وجعلوا الدفتردار «أويس باشا» يحرر مقاطعات «زعامت» لتسعة عشر فردًا من الأغوات المفصولين قائلين: «إنها لائقة

بالخواص الهمايونية»، ومنحوهم مقاطعات «تيمار» ليس لها دخل وخصصوا لبراءاتهم مقاطعات لا تتحمل المصروفات، وعزلوا وبدلوا في إمارة الأمراء وقضاة التخت «تخت قاضي لري»، باقتراح من «قاض زاده» قاضي عسكر «الروم إيلي» وأصبحوا لا يسمحون للوزير الأعظم بعرض معروضاته.

كان المرحوم السلطان «مراد» سلطانًا عادلًا وصاحب كلمة حق، ولم يقدم على سفك دم المرحوم بلا جريرة، ولكن كان لديه غيظ عظيم؛ وسبب هذا هو ما سمعته من المرحوم «تيرياكي غازي حسن باشا»: «لما جئنا إلى ميناء «مدانيه»[1]، بينما كنا نحضر السلطان مراد لإجلاسه على العرش، لم نصادف السفينة من نوع «قادرغة» التي أرسلت للسلطان صاحب السعادة وكانت تنتظر في مكان آخر، ووجدنا في «مدانيه» قارب «نشانجي فريدون بك» فقط، فركبنا هذا القارب، وتوجهنا به إلى المكان المطلوب، حتى إننا واجهنا عاصفة عظيمة، وكان المرحوم إبراهيم باشا سلحدار وجراح محمد باشا چوقه دار والمرحوم حسن باشا مستقلين لهذه السفينة أيضًا، وقد أحاط البحر بهم جميعًا، وهكذا! أصبحوا في حيرة ولما كانت نشأتي على ساحل بحري، فقد ثبُتُّ أنا فقط من بينهم، واتكأ السلطان صاحب السعادة على ركبتي ونام، وكنت أدلك رأسه المباركة التي تلامسني وأمسح وجهه، وأخيرًا هبت العاصفة، ووصلنا بالسفينة إلى باب الإسطبل قبل منتصف الليل»، وصحنا قائلين: «فليُفتح الباب»، فأجابوا قائلين: «لدينا أمر بأنه إذا جاءت سفينة «القادرغة» فلا بد من إرسالها إلى باب الحديقة؛ ولذلك جئنا إلى باب الحديقة»، وقبل مرور مدة قليلة، وصل الصدر الأعظم ساحبًا قاربه، ومن ثم خرج إلى الشاطئ، ومد السجادة ودعا السلطان صاحب السعادة إلى الخارج قائلًا: «تفضل»، وكان القلب الشريف للسلطان صاحب السعادة غير مطمئن وكان يتشكك قائلًا: «ينبغي ألا يكون قد أجلس أخوه»، وبعد أن خرج السلطان من الزورق، منع السلطان الوزير الأعظم المرحوم الذي كان سيتقدم للمصافحة بانحناء وبالشكل المعتاد

---

(١) يقع في ولاية بورصة.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 501.

لتقبيل الوزير الأعظم، ليد السلطان وانحنى السلطان بنفسه وقبل يد الوزير الأعظم، وحتى يفتح باب الحديقة، وتجيء الجياد، جلس السلطان على السجادة، وجثا الوزير الأعظم أيضًا على ركبتيه، وجلس أمام السلطان، وقدم كأس شربات، وتناوله المرحوم «إبراهيم باشا»، وفى أثناء تقديمه إلى السلطان، طلبه الوزير الأعظم، وشرب قليلًا منه، ثم أمر بتقديمه إلى السلطان، وفى هذه الأثناء جاءت الخيول وامتطوها جميعًا، ودخلوا بها السراي العامرة، وأجلسوا السلطان صاحب السعادة على العرش الشريف الموجود في الحجرة الخاصة، وجثا الصدر الأعظم ثانية على ركبتيه؛ حيث بدءوا الحديث سرًا، وكان السلطان صاحب السعادة قد نبه علينا، فأمرنا بعدم إدخال الأغوات القدامى لخدمته الشريفة، وبعد قدر من المحادثة، توجه السلطان إلى الداخل ليقابل حضرة «والده سلطان»، ونحن أيضًا تعقبناه، فأراد الأغوات منعنا، ولكن المرحوم السلطان قال: «فليأتوا»، ولم نبعد من هناك إلا أننا لم نسمع حتى صوت حضرة «والده سلطان».

أي أن تملقه الذي أظهره تجاه الوزير الأعظم في مكان مقابلته أول مرة، قد أثر على قلبه الشريف بالتدريج؛ نظرًا لشرف السلطنة، وكان هذا سببًا للغيظ من الباشا المرحوم، وأخيرًا ففي يوم الأحد الثامن من شعبان ٩٨٧ هجرية[١] ضُرب الصدر الأعظم «محمد باشا» بعد صلاة العصر، وتوفي بعد صلاة المغرب، رحمة الله تعالى عليه رحمة واسعة.

الوزراء الذين لم يصلوا إلى مقام الصدارة العظمى

ـ الوزير مصطفى باشا:

قام بتشييد جامع وعمارة في «ككبوزة»[٢]، وكان وزيرًا جليلًا وبوسنوي الأصل، وذا قلب صافٍ، ويميل للعدل والإنصاف.

---

(١) الموافق ٣٠ من سبتمبر ١٥٧٩م.

(٢) وهى قصبة صغيرة تقع على ساحل «أزميد» فى منطقة «قوجه إيلي».
ـ قاموس الأعلام ٥/ ٣٨٧٠.

- الوزير فرهاد باشا:

كان رجلًا مغرورًا وطماعًا، وأرناءوطي الأصل، ووجهت إليه سنجقية «سمندرة» بعد العزل، ولكن لم تنقطع يد الطمع عنده، وكان بذيء اللسان، ولما جاء بعض الشاكين منه إلى الآستانة، أحضر إلى «أدرنه»؛ حيث قطعت رأسه في الديوان الهمايوني وكان ذلك في سنة ٩٣١ هجرية[1].

- الوزير قوجه قاسم باشا:

كان دفتردارًا في عهد إمارة المرحوم السلطان سليمان، وبعد ذلك، أصبح مؤدبًا وراعيًا له في وظيفة «لالا»[2]، ولما جلس السلطان سليمان على العرش، وجهت إليه رتبة الوزارة، ولأول مرة أصبح عدد الوزراء أربعة، ثم عزل عندما أصبح مسنًا، ومُنح سنجق «سلانيك»[3] كمرتب تقاعد، وتوفي بينما كان متصرفًا على هذا السنجق.

- خائن أحمد باشا:

كان أرناءوطي الأصل، وخرج من الحرم، ثم أصبح أغا فرقة الإنكشارية، وبعد ذلك صار أمير أمراء الروم إيلي أثناء فتح «بلغراد»، ومن ثم وصل إلى مرتبة وزير ثان، وعندما أُختير «إبراهيم باشا» صدرًا أعظم، طالب بمصر، وهناك رفع راية العصيان حيث قتل.

- گوزلجه قاسم باشا:

خرج من الحرم المحترم، وبعد ذلك أصبح وزيرًا، فإنه عزل، ثم وجه إليه سنجق «المورة» كمقاطعة، وحاصر قلعة «أنابولي» ثلاث سنوات، ثم فتحها بعد ذلك بعد إعلان أهلها الاستسلام، وينسب للمرحوم جامع وحي «قاسم باشا» الموجود بقرب «إستانبول».

---

(١) الموافق سنة ١٥٢٤ - ١٥٢٥م.
(٢) كان يطلق هذا الاسم على مربي ومعلم أولياء العهد.
(٣) يقع هذا السنجق في اليونان.

- Danişmend : Adı geçen eser‹ S. 506.

- حاجى محمد باشا:

«محمد باشا» هو رجل صوفي، وصل إلى رتبة الوزارة بحسب التدرج المعمول به، وبعد ذلك عزل، ثم أعطي «بدون»، وفي «بدون» انتقل إلى رحمة الله تعالى، ويروى أنه عندما توفي؛ بسبب إعطاء أحد الأطباء اليهود له شرابًا مسمومًا أثناء المرض الذي مات به، قُبض على اليهودي؛ وعندما سُئل عن السر اعترف قائلًا: «لقد قتلت بهذه الطريقة أربعين شخصًا يحملون اسم محمد».

- الوزير ديوانه خسرو باشا:

هو الأخ الأصغر للسردار «لالا مصطفى باشا»، في البداية كان «جاشنكير باشي»[١]، وبعد ذلك، أصبح كتخدا خدم الباب[٢]، ثم صار أمير أمراء الروم إيلي، وبعد ذلك فاز بإيالة «مصر» مع رتبة الوزارة، وبعد أن عاد إلى الآستانة السعيدة، ارتقى لرتبة وزير ثان، وفى هذه الأثناء كان الوزير الأعظم، «سليمان باشا»، وكان «رستم باشا»، وزيرًا ثالثًا، واعتقد بشكل قاطع أنه لن تتيسر له الوزارة العظمى ما لم يمت أو يعزل كلاهما، وأخيرًا دبر أمرًا، بأن يتوجه «خسرو باشا» بالخنجر صوب «سليمان باشا» أثناء انعقاد الديوان، فإنه يمنع نفسه عن ذلك ثانية، وعندما شعر السلطان صاحب الشأن بالأحوال، قام بعزل كلاهما؛ ومن ثم أصبح «رستم باشا» وزيرًا أعظم.

- يحيالو محمد باشا:

هو الابن العجيب لـ «يحيى باشا» الذي منح سنجق البوسنة كمرتب تقاعد، بينما كان وزيرًا أعظم في عصر السلطان «بايزيد خان»، وهو الأخ الأصغر لـ «كوجك بالى

---

(١) كان يطلق على الطائفة الخاصة بتذوق الطعام اسم «جاشنكير» وعلى أمير الطائفة اسم «جاشنكير باشي» وكان يطلق عليه أيضًا «سر ذواقينى خاصة»؛ أي رئيس الذواقين.

- Midhet Sertoğlu : Adı geçen eser، S. 70 - 71.

(٢) كان يطلق عليه أيضًا «كتخدا البوابين» وكانت وظيفته حتى النصف الأخير من القرن السابع عشر الميلادي هي أخذ الختم السلطاني من الوزراء المعزولين وحمله إلى الصدر الأعظم الجديد.

- Midhet Sertoğlu : Adı geçen eser، S. 171.

بك» الذي كان أمير «سمندرة» أثناء حملة «موهاج»، وعندما انتقل المرحوم «بالى بك» إلى رحمة الله تعالى في عام ٩٣٣ هجرية(١)، ومنحت «سمندرة» للمذكور في الوقت الذي كان فيه متصرفًا على سنجق «ودين»(٢)، وقد وفق في الغزوات العظيمة التي شنت على حدود المجر، وهزم فيلق «قوجيان» اللعين الذي زحف على «أوسك»(٣)؛ وجعل أكثر من ٢٤ ألف كافر حصادًا للسيف، حتى إنهم كتبوا في تواريخهم أن «محمد بك» الذي كان أشد وأقوى عدو لقوم النصارى قد ارتوى بدم النصارى الذي لم يتوقف عنه حتى تحل الرحمة والشفقة بقلبه.

وفي ذلك الحين، أرسل ما قدره ألف كافر بالتمام بمستلزماتهم ودروعهم، وبأعلامهم المعكوسة والمنكوسة مع «أوغلي أرسلان باشا» من أجل أن يدلوا بمعلومات عن العدو، وعلى إثر فتح «بوزغه»(٤)، في هذه الأثناء، عرض السنجقية على «أوغلي أرسلان باشا»؛ حيث أحسن بها عليه، وبعد ذلك لما وقعت قلعة « قرون» الموجودة في «الموره»(٥) في أيدي الكفار، وجهت «سمندرة» إلى «دوقه كين زاده محمد بك» ومُنحت الـ «موره» إليه أيضًا، وعندما كلف بفتح قلعة «قرون»، قام بفتحها بسرعة بفضل الله تعالى، ولما توفي «بالى باشا»، كان قد أحسن عليه بإيالة «بدون»، وفى ذلك الربيع فتح «ويشغراد»(٦)

---

(١) الموافق سنة ١٥٢٦-١٥٢٧.

(٢) يقع في الشمال الغربي لبلاد البلغار.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 513.

(٣) تقع فى المجر.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 590.

(٤) تقع في بلاد المجر وبالتحديد تقع جنوب شرق «أوسك» بحوالى ٨٠ كيلو مترًا.

- قاموس الأعلام: ٢/ ١٥٥٣ .

(٥) تقع المورة جنوب اليونان وهي عبارة عن شبه جزيرة.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 606.

(٦) تقع في بلاد المجر.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 499 .

و«نويغراد»[1] و«خطوان»[2] و«شموطورنه»[3] وبعض القلاع الأخرى حيث سيطر على بعضها وأحرق بعضها الآخر بالنار، والعمارة والمدرسة الموجودة في «بلغراد» من آثار وحسنات المشار إليه.

- خادم إبراهيم باشا:

كان شخصًا كاملًا، وصاحب حياء وأدب ووقار، وهو من طائفة الطواشي وعرج إلى صدر الوزارة، وظل في هذا المنصب فترة طويلة، وفي النهاية تقاعد، والجامع الشريف الذي يقع عند باب «سليوري» يعد من أعمال المذكور الخيرية.

- خادم حيدر باشا:

وهذا أيضًا كان أغا لخدم الباب «قبو أغاسى»[4]؛ وخرج للولاية برتبة الوزارة، وعندما قتل السلطان «مصطفى» عزل بتهمة التعاطف مع الأمير [أي السلطان مصطفى]، وعين على سنجق الـ «هرسك» كمقاطعة تقاعد له، وكان شخصًا حلو الحديث مع أصحاب المعارف ومنظمًا في كل أحواله.

- بلاق مصطفى باشا:

وهو بوسنوي الأصل، وكان يلقب في الحرم المحترم بلقب «بلاق»، ولم يعرف حتى الآن سبب هذه التسمية، وبعد أن وصل إلى رتبة أمير أمراء، أحسن عليه بامرأة من جواري الحرم الهمايوني تدعى «شاه خوبان»؛ وبسببها أحسن عليه بمنصب الوزارة.

---

(١) تقع في بلاد المجر.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 515.

(٢) تقع في بلاد المجر.

- Danişmend : Adı geçen eser، S.502.

(٣) تقع في بلاد المجر وفتحت في عصر السلطان «سليمان القانوني».

- Danismend : Adı geçen eser، S. 613.

(٤) كانت هناك طائفة تعرف باسم «آق أغالر» وكان رئيس هذه الطائفة يطلق عليه «قبو أغاسى» وكان يجلس في حجرة بجوار باب السعادة.

- Midhat Sertoğlu : Adı geçen eser، S. 10 - 11.

ـ فرهاد باشا:

سعد بالتزوج من ابنة الأمير السلطان «محمد خان»، وغادر القصر القديم، وشيد القصر الذي كان مطلًا على حرم السلطان «بايزيد»، وأحسن عليه بـ «قسطمونى»[1] بعد عمله كأغا لفرقة الإنكشارية، وأسندت إليه مهمة تربية وتأديب السلطان برتبة الوزارة، وكان صاحب خط جميل، وكثيرًا ما كان يكتب المصاحف الشريفة، ويبيع كل واحد منها بمائة ذهبية، وكان قد أوصى بتجهيزه وتكفينه من ذلك المال الحلال، وأحد هذه المصاحف الشريفة موجود الآن في تربة المرحوم السلطان «بايزيد».

ـ الوزير مصطفى باشا:

ينحدر من سلالة «خالد بن الوليد»، وهو شقيق «شمس باشا» وقد خرج من الحرم، ثم أصبح رئيس مربى الصقور من نوع «چاقر» «چاقرجي باشي»[2]، وبعد ذلك صار رئيسًا للإسطبل[3]، ثم أمير أمراء الروم إيلي، ثم ارتقى إلى رتبة وزير خامس وكان وزيرًا خامسًا أثناء حملة «سكتوار»، ثم صار سردارًا على الجيش لفتح جزيرة «مالطة»[4]، وعُزل عندما عجز عن أداء ما يكلف به، وفى النهاية أعطي مرتب التقاعد، وتوجه إلى الحج الشريف، وتوفي هناك.

---

(١) تقع في القسم الشمالي الغربي من الأناضول وتقع أيضًا شرق إستانبول بحوالي ٤٠٠ كيلو مترًا.
ـ قاموس الأعلام ٥/ ٣٦٦.

(٢) وهو واحد من مقربي السلطان الموجودين في معيته والذي كان يذهب معه إلى الصيد ويطلق لفظ «چاقرجي» على من يقومون بأخذ فراخ الطير التي تعرف باسم «شاقر» ويربونها كطيور صيد للسراي.
- Midhat Sert Oğlu : Adı geçen eser، S. 69.

(٣) «مير آخور» هو أمير الإسطبل.

(٤) جزيرة تقع في البحر المتوسط.

-Danişmend : Adı geçen eser، S. 604 .

أمراء الأمراء ذوو الشأن الذين لم يصلوا إلى مرتبة الوزارة

- بهرام باشا:

خرج من الحرم المحترم[1] بدرجة أغا، وبينما كان أمير أمراء الروم إيلي، اتفق غلمان الداخل مع بعض أغواتهم في إحدى حملات «المجر»؛ وهشموا رأسه بالحجر أثناء نومه، فأردوه شهيدًا، وبسبب ذلك أعدم ثمانية عشر من غلمان الداخل، واثنان من أغواتهم.

- داود باشا:

كان أمير أمراء على ولاية «مصر» واشتهر بكمال العدل والإنصاف، ولما ذكرت خصاله الحسنة وأحواله الطيبة فى مجلس السلطان، ففي الوقت الذي يحسن فيه عليه بمنصب الوزارة حال الأجل قاطع الأمل دون الوصول إلى الوزارة.

- أويس باشا:

كان المذكور يسلك طريق العلماء ويعمل مدرسًا من فئة الخمسين أقچة؛ وبسبب أن أجداده كانوا من الأمراء، فقد سلك هو أيضًا هذا الطريق، وانتقل إلى جوار الحق في الوقت الذي كان فيه واليًا على إيالة «الشام».

- دوقه كين أوغلو محمد باشا:

إن كلمة «دوقه» في لغة الأرناءوط والفرنجة تعني الأمير، ولما وصل إلى المسامع الشريفة للمرحوم السلطان «بايزيد بن السلطان محمد» أن لدى «دوقه بك» المذكور غلامين ليس لهما نظير في الحسن والجمال، وبينما كان يفكر: «يا ترى، كيف يخلص أطفال على هذا الحسن من الظلمة والكفر والضلال؟» انعكس ضوء الاهتمام العظيم للسلطان على هؤلاء الأطفال، فامتطى كل واحد منهما جوادًا سريعًا وأتوا إلى عاصمة الدولة العثمانية ودخلوا إلى الحرم المحترم، وأحيطوا برعاية المرحوم السلطان، وسمي

(١) هو قسم من القصور أو المنازل مخصوص بالنساء فقط.

- Midhat Sertoğlu : Adı geçen eser، S. 136.

كلاهما باسم واحد وهو اسم فخر الأنام؛ أي أصبح أحدهم اسمه «أحمد» والآخر اسمه «محمد»، ثم توفي «أحمد»، أما «محمد» فقد بقي وعلا شأنه بتوليته إمارة أمراء «حلب» و«مصر القاهرة»، وقد كان للمذكور ابنان، أحدهما دخل إلى سلك القضاء، والآخر ارتضى بمقاطعة «زعامت».

ـ أويس باشا:

بينما كان أمير أمراء اليمن، قام «بهلوان حسن» أحد قطاع الطرق في هذه الديار بتحريض بعض قطاع الطرق هناك، وهجموا على القصر فجأة، وألحقوه بزمرة الشهداء، ونهبوا وغنموا وأتلفوا كل ما كان يملك.

ـ أوز تيمور باشا:

وكان المذكور من بقايا الشراكسة الذين عاصروا فتح «مصر»، وعندما عين «خادم سليمان باشا» سردارًا على الجيش لفتح اليمن، كان من المقرر أن يذهب معه؛ حيث سعى لوضع حصانه في السفينة قائلًا: «لن أنفصل عن حصاني»، ومع أن جميع العسكر تضاحكوا عليه قائلين: «شركسي مجنون»، فإن «سليمان باشا» سر من تصرفه قائلًا: «شركسي مجنون»، وأمر قائلًا: «فليستقر حصان الشركسي إلى جوار حصاني»، وكان المذكور كلما تقرر الصعود إلى البر، يجعل حصانه يسبح حتى يصل [إلى البر]، وعندئذ كان يخرج على العدو بجسارة غير متوقعة، وقد سر «سليمان باشا» من حاله، فبمجرد أن وصل إلى اليمن، منحه رتبة أغا الخدم ثم أنعم عليه برتبة سنجق، ولما قام بقطع رأس «بهلوان حسن» الذي قتل «أويس باشا»، ذاع صيته، ولم يمض وقت طويل حتى أحسن عليه بإمارة أمراء اليمن، وقام بفتح بلاد الحبش أيضًا وكان يعين تارة أمير أمراء لليمن، وتارة أخرى أمير أمراء للحبشة، وبينما كان على هذا الحال، انتقل إلى رحمة الله.

ويروى أنه كان يُبدل السروال والقميص مرة كل ستة أشهر، وكان يلبس الجوخة المبطنة بالفرو صيفًا وشتاء في المواسم الشديدة الحرارة لهذه الديار، وتزوج في «مصر» بالمرأة «صالحة» التي يصل نسبها إلى حضرة العباس، وقد عزل مرة أو مرتين، وكلما

أتى إلى «مصر»، يقيم عندها، وأنجبت منه الصدر الأعظم «عثمان باشا» وأخته صاحبة العفة التي تدعى «هما»، وبإرساله إلى مصر ماله الذي كان يمتلكه في اليمن والحبش، يكون قد أحضر وادخر مالًا يكفي للمرحوم «عثمان».

ـ قاسم باشا غازي:

رحمة الله عليه، بينما كان يتجه لحملة «موهاج» كانت قلعة «أوسك» قد فُتحت، وتساوت بالتراب، وعندما وصل سعادة السلطان إلى مقر عرشه المقرون بالسعادة عند عودته من حرب «بج»، أصدر أوامره قائلًا:

يلزم تعمير قلعة «أوسك» لحماية ولاية «سرم» وسائر حدودها المنصورة، وعلى هذا تم تعميرها من جديد، ووُضع بداخلها ثلاثة آلاف رجل، ولما كان المشار إليه رجلًا شجاعًا، فقد عُين في رتبة أغا على خمسمائة عزب[1]، كما أنه كان منشغلًا دائمًا بالإغارة على حدود «بجوي» ونواحي «سكسار»[2] و«طولنه»[3]، حتى إنه استمال بحسن تصرفه الملك الضال، ومن ثم يقوم الملك الضال بإهداء الثلاثة قرى الموجودة تجاه «أوسك» إلى «قاسم باشا»، ويملكها له، وبعد ذلك، يحسن السلطان صاحب السعادة وحاكم العالم على «قاسم باشا» بسند ملكية هذه الأرض، والذي يدل على ملكيته لهذه القرى هو أنه كانت هناك سباهية لكل القرى والمزارع الموجودة في هذه البلدة عند الكفار، ولما أخرج الملك هذه القرى المذكورة من دفتر سجل مملكته، أصبح لا توجد لدى الكفار في هذه المناطق أي تلك القرى والمزارع سباهية، وبعد ذلك، عندما وضع الجند في قلعة

(١) كان يطلق لفظ عزب على الجنود المشاة خفيفي الحركة من عسكر الإيالة في الدولة العثمانية، كما أنه كان يطلق على الجند المستخدمين في الأسطول الهمايوني وظلت الطائفة في التشكيلات العثمانية حتى النصف الأول من القرن الـ ١٦م.

- Midhat Sertoğlu : Adı geçen eser، S. 26.

(٢) قصبة تقع في بلاد المجر.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 370.

(٣) وهي قصبة تقع على الساحل الأيمن من نهر «طونه».
ـ قاموس الأعلام: ٤ / ٣٠٢٥.

«سكچوي»، أحسن على المذكور «قاسم باشا» بسنجق هذه المنطقة، والآن فإن منطقة «موهاج» غير مسجلة في الدفتر السلطاني، وإنما يسجل فقط سنجق «سكچوى»، وبعد ذلك ألحقت «پچوي» و«سكسار» بسنجقه، ثم وجهت إليه «بدون» بدلًا من «يحيى باشا زاده محمد باشا»، وبعد ذلك أحسن عليه بـ «طمشوار»، وكان رجلًا مجاهدًا، وغازيًا، وقد توفي في «طمشوار» رحمة الله عليه.

- گوزلجه رستم باشا:

كان قد اشتهر في الحرم المحترم بحسن الجمال، وأخيرًا خرج للعمل في الولايات برتبة أغا، ثم صار أمير أمراء «بدون»، وهو جد مولانا «حسبي أفندي» المتقاعد في «مصر».

- سليمان باشا:

وهذا أيضًا خرج من الحرم، وبعد أن تدرج في بعض مراتب الأغاوية توفي، بينما كان أمير أمراء «قرميان»[1]، وفي الوقت الذي كان فيه رئيس فرقة لحامية «أستوني بلغراد» أثناء فتح «سكتوار»، والآن هو مدفون أمام بابه في «أستوني بلغراد».

- عثمان باشا:

وهذا أيضًا نشأ وتربى في السراي العامرة، ووصل إلى مرتبة الأغا، ثم إلى رتبة أمير أمراء «حلب»، وهو شركسي الأصل، وكان رجلًا في غاية الشجاعة، وذات مرة قام بربط أطباق النحاس المطلية بالقصدير في الخيول أثناء حملة «نخجوان»[2]، من أجل القيام بهجوم ليلي، وأرسلهم بسرعة على جيش الشاه ليلًا وأحدث فزعًا كبيرًا فيه؛ حيث هجم على الجيش من أحد جوانبه بثلاثة آلاف رجل شجاع بتار للرءوس والأرواح، فأسروا ألسِنةً كثيرة، وقطعوا الرءوس، وبتلك البطولة الفائقة، جذب انتباه السلطان صاحب السعادة إليه.

---

(١) إيالة تقع في الجنوب الشرقي لإيران.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 571 .

(٢) تقع في مملكة أذربيجان.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 501.

- غازي حسن باشا:

جاء المذكور من ولاية الـ «هرسك»، وتنقل للعمل في ولايات متعددة؛ فخدم في «الجزيرة العربية» و«مصر» و«اليمن»، وتلقى تعليمات في شئون الحرب، ثم صار أمير أمراء «طمشوار» ولقب بلقب غازي.

- صولاق فرهاد باشا:

كان أمير أمراء اليمن، وأثناء حرب ولاة العهد[1] [أبناء السلطان] في صحراء «قونيه»[2]، وكان أمير أمراء «قرمان»[3]، وقد جُرح في هذه الحرب، ثم صار أمير أمراء «بغداد»؛ حيث توفي هناك، وكان رجلًا صالحًا، وعلى دين، وزاهدًا وبعيدًا عن الطمع، ونافعًا ومشهورًا.

- بالطه جي محمد باشا:

هو «بوسنوي» الأصل، ولما كان صادق القول في الحرم الهمايوني، فقد لقب بلقب «بالطه جي» قائلين: «كل كلمة من كلامه بالطه»، وتوفي في «إستانبول» بينما كان معزولًا من «بغداد».

- خرم باشا:

كان «بوسنوي» الأصل، وخرج من السراي العامرة، وبعد أن كان متصرفًا في عدة ولايات وصل إلى إيالة «الشام»، وقام بحرب عظيمة مع الدروز وأوقع العقاب بهذه الفئة المنبوذة.

---

(١) المقصود هنا بحرب ولاة العهد، الحرب التي وقعت بين الأمير سلطان سليم والأمير سلطان بايزيد في عصر القانوني.

- تاريخ بجوى ج ١.

(٢) مركز ولاية «قرمان» في التشكيلات العثمانية.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 601.

(٣) محلة في إستانبول.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 491 .

- بيري باشا:

هو من عائلة أبناء رمضان، وقد استشهد والده أثناء فتح «حلب» و«مصر»، ومنحه السلطان «سليم» ممالك آبائه بقيمة مائة ألف أقچة أربعين مرة [أي أربعة ملايين]، وكان شخصًا مشهورًا برفعة الشأن، وبابه كان عامرًا بالنعم الوافرة، وكان صاحب كمال وأدب.

- قباد باشا:

وهو شقيق «بيري باشا» سالف الذكر من ناحية الأب، ولكن لم يعظم في الأوامر المرسلة إليه بلقب «جناب»، حينما تولى الأمر في ولايته، والقصيدة اللامية للشاعر المرحوم «باقي أفندي» كانت بخصوص هذا الأمر، ولكن لما كان «قباد باشا» لا يحيط علمًا بهذا الأمر، فقد أجهد المرحوم «باقي أفندي» نفسه بلا فائدة في هذا الخصوص، وكان شخصًا سفاكًا للدماء.

- موسى باشا:

بينما كان من أبناء «أسفنديار» وواحدًا من الأمراء الكبار الذين يعرفون باسم «قزل أحمد لو»، أصبح أمير أمراء إيالة «أرضروم»، وانهزم في حربه مع كفار «گورجى»[1] واستشهد، ولما كان يقضي معظم أوقاته في الصيد، فَقَدَ احترامه لدى الأعداء.

- خادم علي باشا:

تمت ترقيته من منصب كتخدا الروم إيلي إلى درجة أمير سنجق، ومنها عُين حاكمًا على «طمشوار»، ثم على «مصر»، وكان شخصًا صاحب شفقة ورحيمًا وكريمًا وتصرفاته كانت معتدلة، وعندما توفي في «مصر»، وُجد في خزينته ألفان ذهبية، ولأجل هذا عُرفت مرتبته بهذا المال.

---

(١) تمتد «گورجى» جنوب «قفقاسيا» من غرب «شروان» وحتى البحر الأسود.
- Danişmend : Adı geçen eser، S. 593.

ـ أرسلان باشا:

هو ابن «يحيى باشا زاده محمد باشا»، وكانت طبيعته تتسم بعدم اللامبالاة، وارتكاب التصرفات التي لا يرتكبها المجانين، وأحيانًا يكون سببًا لإنجاز آثار كثيرة، ومن جملة ذلك فقد حرر دفترًا لخزينة «بدون» لأول مرة ونظمها، وحتى ذلك الوقت فإن «الخزينة المصرية» التي كانت تقدر بثلاثة آلاف ذهبية في ذلك الوقت، كانت ترسل بحالها إلى «بدون»، وقد أقام «أرسلان باشا» في «بدون» مصنعًا للبارود، وبينما كان متوجهًا لحملة «سكتوار»، قطعت رأسه أمام خيمة السلطان في موضع يعرف باسم «مارشان»، وقد اتهم على ما يبدو بتهمة استيلاء الكفار على قلعة «تاتا».

ـ يولار قصدي باشا:

خرج من الحرم ويشاع أنه وصل أولًا إلى الإمارة، ثم بعد ذلك إلى الإيالة، وبصفة عامة فإنه كان رجلًا قائلًا للحق ومعتدلًا.

ـ إياس باشا:

وهو الأخ الأكبر للمرحوم الوزير الأعظم «قوجه سنان باشا»، وقد قتل بتهمة أنه أعطى إلى المرحوم السلطان بايزيد مسمارًا ونعلًا، والآن تواترت الأخبار بأنه قتل بلا ذنب وتربى في الحرم المحترم، وكان رجلًا مستوفيًا للآداب والمروءة وصاحب باب غير موجود عند الآخرين.

ـ بهرام باشا القديم:

كان ميل السلطان المغفور له في عنفوان شبابه للمذكور أمرًا مشهورًا، وعُين واليًا على «بغداد»، ثم على «ديار بكر»[1]، ثم على الروم إيلي، ولكنه كان شخصًا فاحشًا في الارتشاء ومتبعًا لهواه.

---

(١) تقع غرب نهر دجلة وتمتد حتى الجبل المطل على «نصيبين».
ـ ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢ / ٤٩٤.

ـ أولامه باشا:

بينما كان ابن أحد سباهية سنجق «تكه»[١]، ولكن على إثر ظهور «الشاه إسماعيل» قام بمبايعته وصار خادمًا للشاه، ونظرًا لما أبداه من شجاعة في بعض الحروب، كان مشهورًا بلقب «ياوز أوغلان»، وعندما وصل عمره إلى الأربعين تقريبًا، عاد إلى ديار الروم، وعندما وصل الصدر الأعظم «إبراهيم باشا» إلى حدود بلاد العجم في تاريخه ٩٣٨هـ، ترك «أولامه» مقام السلطنة الذي كان متصرفًا فيه وأتى إلى الصدر الأعظم؛ حيث وُجه له منصب، ثم وُجه له بعد ذلك سنجق البوسنة، ولما كان المذكور رجلًا شجاعًا وبطلًا ومدبرًا وصاحب تدبير فقد تحققت كثير من النجاحات في عهده. وبعد ذلك وبينما كان محاصرًا في قلعة «ليبور»[٢] خرج من القلعة مستسلمًا حيث غدر به الكفار واستشهد.

ـ جنابي أحمد باشا:

خرج من الحرم المحترم، ووصل إلى «إيالة» الأناضول بتسلسل تولية الولايات في الدولة، وقد حكم تلك الديار على مدى عشرين عامًا بالعدل، وكان رجلًا أديبًا وكاملًا، وكان يتصادف قوله للشعر أحيانًا، ولكن كان مبتلى بشرب الخمر فكان ذلك هو عيبه الفاحش، ويروى أنه لم يحدث أنه جلس متربعًا طيلة عمره، و لم تر أسنانه أثناء ضحكه.

ـ شمس أحمد باشا:

هو الأخ الأصغر للوزير الخامس «مصطفى باشا» من طائفة «قزل أحمدلو»، وقد خرج من الحرم برتبة «متفرقة»[٣]، وبعد ذلك أصبح «أغا بلوك»، ثم صار أمير أمراء

---

(١) يقع سنجق «تكه» في حدود ولاية «أنطاليا».

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 510.

(٢) تقع في بلاد الخروات.

ـ قاموس الأعلام: ٦ / ٤٠٤٧.

(٣) كان يطلق هذا الاسم على بعض الأشخاص الذين يستخدموا في مختلف الوظائف، وكانت طائفة متفرقة في البداية أربعة أقسام:

أ ـ متفرقة السلطان　　ب ـ متفرقة عسكر الإنكشارية　　جـ ـ رؤساء العزب

د ـ كان يطلق لقب متفرقة على بعض الأغوات الموجودين في معية الوزراء العظام.

- Midhat Sertoğlu : Adı geçen eser، S. 23 – 235.

الروم إيلي، ثم أمير أمراء الأناضول وكانت همته في غاية الضعف، كان صاحب تهتهة في اللسان وكثير التجاوز مع الندماء، وكان يرافق السلاطين العظام إلى رحلات الصيد، وصار نديمًا للمرحوم السلطان سليمان، والسلطان سليم، و السلطان مراد.

ـ حاجي أحمد باشا:

هو أيضًا من طائفة «قزل أحمدلو» أصبح في رتبة «مير آخور كبير»[1]، وبعد ذلك صار أمير أمراء على «الروم إيلي» والشام و«قرمان»، وبهذا وصل إلى مقام الرفعة، ولما كان فائق الأقران في فن تربية الطيور الجارحة؛ فقد كان يصحب السلطان صاحب السعادة إلى رحلات الصيد وذلك في الوقت الذي كان فيه عمره يتجاوز المائة.

ـ داماد حسن باشا:

بينما كان أمير أمراء للروم إيلي، صار صهرًا للسلطان «سليم»، ولما كان مقاتلًا مغوارًا ورجلًا كريمًا وعاقلًا وصاحب بيان؛ فقد أرسل برسالة إلى «شاه العجم» بخصوص السلطان «بايزيد».

ـ إسكندر باشا:

كان قد ارتقى من رتبة رئيس الجنائنية يعني «بوستانجي باشي»[2] وصار أمير أمراء «الأناضول»، ولكن لما كان عظيم الطمع، فقد كان منحه مقاطعة «التيمار» بالرشوة أمرًا ظاهرا للعيان.

---

(١) هو لقب يطلق على الموظف الموجود على رأس التشكيل المعروف باسم «إسطبل الأمير»، والمكلف بإدارة الإسطبل وطواقم هؤلاء وإعاشتهم، والأعمال المرتبطة بتنشئتهم. وكان يلقب بلقب «مير آخور أول» للتمييز بينه وبين الموظف الذى يشغل رتبة «مير آخور ثاني».

- Mehmet Zeki Pakalın : Adı geçen eser، C. II، S. 542.

(٢) وهو القائم برعاية من يقومون بالأعمال الخاصة بالحدائق والبساتين.

- Midhat Sertoğlu : Adı geçen eser، S. 55.

ـ جركس إسكندر باشا:

بينما كان رئيس خدم الباب لخسرو باشا، صار جاوشًا، وبعد ذلك أصبح «أورته دفتردار» عندما فتحت «وان»[1]، ولما كان البقاء في قلعتها غاية في الخطر، لم يقبل أي شخص هذه المهمة، إلا أن المذكور بقي في القلعة برغبته، وألحق خسائر كبيرة بـ «القزلباش»، ومنها نقل إلى «أرضروم»؛ وبسبب هزيمته لابن الشاه، أُحسن عليه بولاية «ديار بكر»، وأصبح متصرفا عليها لمدة تزيد عن خمس عشرة سنة، وبعد ذلك بينما كان معزولًا، توفي في «إستانبول» رحمة الله تعالى عليه.

ـ تمرد علي باشا:

وهو بوسنوي الأصل، خرج من الحرم، و كان رجلًا عالي الشأن بأدبه ووقاره، ومع أنه كان يبدو فيه الطمع أيضًا، فإنه كان صاحب خير ومتدينا.

ـ قره مصطفى باشا:

خرج من الحرم، ولقب بلقب «قره شاهين»، وهو والد «رضوان باشا» الذي عُرف واشتهر في حرب «إيران»، وكان وجود ابنه في خدمة الدولة دليلًا على علو شأن أبيه.

ـ خضر باشا:

وهو أيضًا خرج من الحرم، وأصبح واليًا على الشام وبغداد، وكان رجلًا قنوعًا.

ـ قره مراد باشا:

بينما كان من طائفة «خاصه سراجلر»، ارتقى إلى رتبة الجاوشيه، ثم إلى رتبة أمير الأمراء ومع أنه كان جاهلًا، فإنه كان يحسن التصرف.

---

(١) قلعة تقع بين «أخلاط» ونواحي «تفليس» بإيران.
ـ ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥ / ٣٥٥ .

ـ صوفي علي باشا:

خرج من الحرم، وبينما كان متصرفًا على بعض الألوية أصبح «لالا»[1] للسلطان «سليم»، ثم علا شأنه بتوليه إيالات مصر والشام.

ـ قبودان سنان باشا:

خرج من داخل الحرم، ثم صار واليًا على سنجق «الهرسك»، وبعد ذلك أصبح قبودانًا، و لكن كان شخصًا حاكمًا وغضوبًا ومذلًا وبارد الحديث وجبارًا.

ـ خسرو باشا:

خرج من الحرم برتبة «جاشنكير»، ثم ارتقى لدرجة الإيالة وصار أمير أمراء لمدة ثلاثين عامًا، ومن مساوئه بيع المقاطعات.

ـ مظفر باشا، وگل آبى باشا، غضنفر باشا، وشيطان مراد:

وكان هؤلاء الأربعة أيضًا أمراء متوسطي الحال.

ـ محمد خان:

بينما كان من أبناء «ذو القدرلو»[2]، كان قد فر إلى الشاه «إسماعيل» وبايعه، وبعد ذلك تحين الفرصة وراح يتذلل لبلاط السلطان «سليمان خان»، فوصل إلى المناصب الرفيعة في «الروم إيلي» والأناضول، وكان يُكتب له لقب «جناب» ضمن الألقاب التي تكتب له في المكاتبات.

---

(١) كلمة «لالا» تعني مدرسا أو معلما، وقد أطلق هذا الاسم على الذين كانوا مكلفين بتعليم أبناء السلطان وتربيتهم:

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser، S. 198.

(٢) وهي دولة تركمانية صغيرة امتد حكمها في «مرعش» ونواحيها من أواخر القرن الثامن الهجري وحتى أوائل القرن العاشر ومؤسسها هو «ذو القدر زين الدين قره جه»:

ـ قاموس الأعلام: ٣/ ٢٢٢٦.

- قبودان خير الدين باشا غازي:

كان آباؤه وأجداده من «واردار يكيجه»، ولكنه ولد في جزيرة «مدللو»[1]، وفي البداية كان أمير أمراء «الجزائر» وبعد ذلك أصبح «قبودانًا»، ثم أمير أمراء على بلاد «الجزائر» وقد سجل «عالي أفندي» سيرته إجمالًا على النحو التالي:

وصل إلى الآستانة سنة ٩٤٠ هجرية، ومن هناك توجه إلى الصدر الأعظم «إبراهيم باشا» في «حلب»، وضم الجزائر التي فتحها بحد سيفه مع ملحقاتها إلى كل الهدايا وقدمها إلى السلطان، ومن ثم أُعيد توجيه هذه الممالك مرة أخرى إليه كإمارة أمراء، ومنذ ذلك الحين عرف باسم «خير الدين باشا».

ولكن الشاعر عذب اللسان المدعو «يتيم على چلبي» ينقل على لسان «خير الدين» نفسه فيقول: إنه أحيانًا ما كان يعيد الذين وقعوا في الأسر لدى الكفار، وأحيانًا أخرى كان يغنم الكثير من سفن الكفار، وأنه كان موفقًا في مختلف غزواته الكثيرة، ثم إنه لما استولى الكفار الأذلاء على بلاد الأندلس قام بنقل المسلمين بسفنه من تلك السواحل إلى جهة «الجزائر» وحصن نواحي «الجزائر» وصار حاكمًا عليهم، وكلما وجد لديه القدرة على المحاربة، ألحق الهزيمة بالكفار، وبينما كان على سدة الحكم في تلك البلاد جاء ومعه العديد من الفتوحات الجميلة وعرض تبعيته لجناب السلطان لما علم أن خدمته له فيها عزه وجاهه.

ويدل المصراع «غاص القبودان في بحر الرحمة»[2] على تاريخ وفاته، وهو مدفون في ساحل «بشكطاش» في «إستانبول»، رحمة الله تعالى عليه رحمة واسعة، سنة ٩٧١ هجرية[3].

---

(١) تقع في بحر «اجه» وهي الآن تحت إدارة اليونان:

- Danişmend: Adı geçen eser، S. 500.

(٢) طالدى رحمت دكزينه قبودان.

(٣) الموافق سنة ١٥٦٣- ١٥٦٤م.

ـ صالح باشا:

بينما كان من جنود بحرية منطقة «قاز طاغى»، جهز سفنه من نوع «قاليته» ووفق في غزوات كثيرة، وفى النهاية مُنح رتبة «سنجاق» بترشيح من «خير الدين باشا»، وبعد ذلك صار أمير أمراء «الجزائر»؛ وحقق عدة انتصارات هناك.

ـ طورغود باشا:

بينما كان قبودانًا لفرق «اللوند» أي البحرية، وجه إليه سنجق «قارلي إيلي»[١]، ثم أصبح أمير أمراء لـ «طرابلس» و«الجزائر»، وبينما كان يقوم بإصلاح المدفع في الخندق أثناء حصار جزيرة «مالطة» انفجر المدفع واستشهد من انطلاق شظاياه، وستحرر كل سيرته إن شاء الله تعالى في مكانها.

ـ محمد باشا:

هو ابن «خير الدين باشا»، وكان أمير أمراء «الجزائر»، كما كان مثلًا لكرامة حكام البحر.

---

(١) يقع هذا السنجق فى شمال غرب اليونان.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 507.

في ذكر مشاهير الدفتردارية[1] والنشانجية[2]

الذين عاصروا العهد الشريف للسلطان المغفور له

ـ أولا: الدفتردار إسكندر باشا:

وهو أفضل هذه الطائفة، وعلى رأس الدفتردارية سواء من ناحية الشخصية أو من ناحية الشهرة، ونظرًا للكفاءة التي كانت مستقرة في ذاته وتربية «أحمد باشا الخائن» له، وبينما كان واحدًا من تلامذة الدفترخانه[3] وصل إلى رتبة رئيس الدفتردارية [باش دفتردار][4]، وعندما لوحظ أن لقب العسكر يليق بالوزير الأعظم «إبراهيم باشا» صدر الفرمان بتوجيه منصب كتخداوية العسكر إليه [أي إلى إسكندر باشا]، وفوضت شئون العسكر السلطاني لرأيه الرزين، وفى فترة وجيزة صار دفتردارًا عظيم الشأن وعالي الوقار، حتى كان لا يوجد دفتردار في هذه الدولة العلية في مثل شهرته التي عرف بها ليس بين أمراء الأمراء فحسب بل أيضًا بين الوزراء العظام.

ويروى أن المرحوم «أحمد باشا» الذي تولى صدر الوزارة بدلًا من الوزير الأعظم «محمد باشا الطويل» كان من خدمه، وكانت قدرات المرحوم «إسكندر چلبي»

---

(١) الدفتردار: هو لقب يطلق على الموظف القائم بالأمور المالية فى الدولة العثمانية، وهذا التعبير الذى يتشكل من كلمة «دفتر» و«دار»؛ يعنى من يمسك بالدفتر، وكان يقال على صاحب هذه الوظيفة فى الدول الإسلامية الشرقية: «مستوفي».

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. I، S. 411.

(٢) النشانجي: هو اسم لواحدة من الوظائف العليا فى عهد العثمانيين، وقد أطلق العثمانيون على صاحب الوظيفة الذي كان يسمى فى الحكومات الإسلامية السابقة باسم «صاحب قلم أعلى»، و«صاحب ديوان الإنشاء»، و«موقع»، و«طغرائي»، و«برفانة» أطلقوا عليه اسم «نشانجي» أو «توقيعي» كنية عن الوظيفة التى يشغلها وهي أمور الكتابة داخل الديوان الهمايوني.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. II، S. 697.

(٣) هو تعبير يستخدم بخصوص المكان الذى تجرى فيه الحسابات المالية وتحفظ فيه السجلات المالية، وتجرى فيه المعاملات المتعلقة بالأراضي، وتتم فيه أيضًا التسجيلات المتعلقة بأراضي التيمار والزعامت والخاص، وكانت الدفترخانه هي المكان الذى يتم فيه الفصل بين الخلافات المرتبطة بالأراضي.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. I، S. 419.

(٤) الباش دفتردار: هو الأمير الكبير للمؤسسة التي تدير كل الأمور المالية للدولة العثمانية.

- Midhat Sertoğlu : Adı geçen eser، S. 36.

وإمكانياته تزيد على قدرات سبعة من وزرائنا الذين يشغلون مقاعد في الديوان الآن بما فيهم المرحوم الوزير الأعظم، علمًا بأن قدراته كانت أكثر من قدرات عشرة وزراء في أي وقت آخر، وأثناء الإعداد لحملة العجم وعندما أحضر كتخدا الوزير الأعظم دفتره، قال الوزير الأعظم له: «عظم رجالنا الذين يتوجهون إلى الحرب معنا، كم رجل مقاتل مغوار أحصنتهم فتية وذوات حدوات متينة»، على هذا سجل ألفًا ومائتي رجل عدا الطائفة المعروفة باسم «قره قوللقجى»(١).

وصلب المرحوم «أحمد باشا» في حملة «بغداد» بتحريض من «إبراهيم باشا»، وأحاط السلطان بعد ذلك علمًا بأنه كان غير مذنب، وبعد صلبه وجد عنده مائة من طائفة غلمان الداخل أي «إيچ أوغلاني»، فأرسل «إبراهيم باشا» عشرة أفراد منهم إلى خزينة السلطان، ووزع ما تبقى منهم، بعضهم لنفسه وبعضهم [الآخر] لأرباب الدولة، وفي ذلك اليوم لما رأى السلطان عالي المقام أدب هؤلاء أحضرهم جميعًا في اليوم التالي، وأدخلهم إلى الحرم الهمايوني، وكان الوزير الأعظم أحمد باشا المذكور آنفًا، و«بياله باشا» الذي كان وزيرًا ثانيًا و«كلابي باشي» و«بهرام باشا» و«روس حسن باشا» كلهم من خدم المرحوم «إسكندر چلبي» الذين وزعوا عند وفاته، ووُجد مسجلًا في دفتره في ذلك الحين مائتان وستة آلاف عبد مملوك، حتى إن جواريه لم تدرج في هذا الحساب، وكانت تأتي في كل عام سفينة من القماش لخدمه من «طربزون»(٢) حتى إنها لم تكف لتفصيل السراويل والقمصان لهؤلاء، فأحيانًا كان يشتري من السوق لإكمالها.

ويحكى أنه في الليلة التي صلب فيها «إسكندر چلبي» جاء للسلطان في عالم الرؤيا، ويريد أن يدخل منديلًا إلى فمه محاولًا خنق السلطان قائلًا: «لماذا أعدمتني بلا ذنب؟»،

---

(١) وهو اسم يطلق على الأفراد الجدد في غرفة الإنكشارية، وكانوا مكلفين بكافة خدمات غرفهم، وعندما يتم ترقية أي فرد من هذه الطائفة يصبح في رتبة متفرقة.

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser، S. 176.

(٢) تقع على الساحل الجنوبي من البحر الأسود شمال الأناضول، وهي أيضًا تقع شرق إستانبول بحوالي ٨٩٠ كيلو مترًا وشمال غرب أرض روم بحوالي ١٤٠ كيلو مترًا.

ـ قاموس الأعلام: ٥/ ٣٥٢٣.

وعندما استيقظ السلطان سليمان مذعورًا، دعا بسوء قائلًا: «أرجو من الله أن تذهب يا إبراهيم أنت أيضًا بهذه الطريقة قبل نهاية عامه [أي قبل أن يمر عليه الحول]»، وفي الواقع توفي «إسكندر چلبي» على هذا النحو وكان ذلك في ٨ من رمضان المبارك رحمة الله تعالى عليه، سنة ٩٤٠ هجرية[١].

- حيدر چلبي:

كان من «گليبولى»، وكان رجلًا من أرباب القلم ومشهورًا بالحسن، وقد أُحيل للتقاعد، بينما كان كاتبًا لإخراجات الأمير السابق «إسكندر چلبي».

- لطفي بك:

خرج من الحرم، وكان قانعًا بمقاطعة «زعامت»، ولكنه ارتقى إلى مقام الدفتردارية برعاية «رستم باشا» و استمر زمنًا طويلًا في هذا المنصب.

- أبو الفضل أفندي:

وهو ابن «إدريس البتليسي» وهو صاحب فضل كأبيه، وبينما كان قاضيًا أجرى تحريرًا [أي مسحًا] لولاية «قرمان»، ومن ثم ارتقى من منصب «أورته دفتر دار» إلى رئيس الدفتردارية؛ أي «باش دفتردار».

- عبدي چلبي:

كان شقيق المرحوم «جوى زاده» وكان شخصًا خاضعًا لرغباته وهوى نفسه.

- مصطفى چلبي:

كان من طائفة أهل القلم وأصحاب الرقم [أي قائم بالأعمال الحسابية]، وفي البداية كان من تلاميذ «مقاطعة جي»[٢]، ثم أصبح دفتردارًا، وبقي متصرفًا في الدفتردارية لعدة

---

(١) الموافق ٢٣ من مارس ١٥٣٤م.

(٢) كانت تطلق على عطاءات أي دخل عائد على الخزينة كبدل أو التزام معين، وكان الشخص المستفيد من هذه المقاطعة يطلق عليه اسم «مقاطعة جي».

- Midhat Sertoğlu : Adı geçen eser، S. 229.

سنين، وبعد ذلك ابتلي بمرض النقرس، وكلما أراد التخلي عن الدفتردارية كان السلطان المغفور له لا يوافق على عزله قائلًا: «وجوده محض يمن وبركة»، وبعد ذلك عندما كان يريد عرض تذكرة على الديوان كان يحمل بالنقالة حيث كان يدخل حجرة العرض بها.

ـ محمد چلبي:

ويعرف باسم «أكرى عبدو أوغلي» وكان رجلًا من أهل العلم وعُين تارة في وظيفة دفتردار وتارة أخرى في وظيفة «نشانجي»، وتوفي بينما كان نشانجيًا في حرب «سكتوار»، وهو مدفون عند جامع «قاسم باشا» في «بچوي».

ـ إبراهيم چلبي:

وهذا أيضًا بينما كان من الكتاب، صار باش دفتردار، واشتهر بالاستقامة وحسن الخلق.

ـ حسن چلبي:

وهذا أيضًا من أهل القلم وكان رجلًا متفوقًا على أقرانه، وعزل من منصب الدفتردارية وصار من طائفة «متفرقة».

ـ مراد چلبي:

وهو من قلعة «كليد البحر»[1]، كان يشغل درجة ملازم عند الدفتردار الذي يدعى «نقاش علي بك»، وبعد أن صار «دفتردار عرب وعجم»[2] لمدة عشر سنوات تقريبًا، أتى إلى «إستانبول» ثم أصبح «باش دفتردار»، وكان رجلًا صاحب ذوق وسخيًا ومنفقًا على الرعايا.

---

(١) وهى حصن الروم إيلي الواقع على بوغاز «چناق قلعة».

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 494.

(٢) وهو من أقلام الديوان الهمايوني وهو المكان الذي تسجل فيه تذاكر الرءوس وتحفظ فيه الدفاتر الحاوية على قيديات الرءوس، وكان يطلق على أمير هذا القلم اسم «رءوس كيسه داري».

- Midhat Sertoğlu : Adı geçen eser، S. 287.

- جلال زاده مصطفى چلبي:

كان يخلص باسم «نشاني»، وكان رجلًا نادر المثيل والشبه في النظم والنثر، وهو ابن قاض اسمه «جلال» في «طوسيه»، وكان لديه ثلاثة إخوة وكانوا رجالًا أكثر تفوقًا وامتيازًا من بعضهم البعض، وفي زمن الوزير الأعظم «إبراهيم باشا» كان أمينًا وكاتب سر السلطان، وتولى تارة منصب «تذكرجي» وتارة أخرى «رئيس الكتاب»، وبعد ذلك، وفي أثناء حملة العراقيين أصبح «نشانجيًا»، وبعد أن أمضى في هذه الوظيفة ثلاثة وعشرين عامًا فضل التفرغ؛ وبسبب أن «رستم باشا» كان لا يحبه، فبعد أن قال له: «علينا أن نعين ابنكم مكانكم»، قام بعرض وظيفته على شخص آخر، وعندما عُرض عليه التقاعد، كان السلطان حامي العالم عالمًا بمكانة أهل الفضل؛ ولذا فقد أمر بأن تُوجه كل خواص رتبة «نشانجي» كمعاش تقاعد قائلًا: «لقد خدمنا في شبابه فهل نجعله محتاجًا لمد الأيدي في وقت المشيب»، وخرج إلى حملة «سكتوار» برتبة «رئيس المتفرقة» [متفرقة باشي]، وعندما توفي «محمد چلبي» رأى السلطان أن وظيفة «نشانجي» مناسبة له وصار يباشر هذه الوظيفة حتى وفاته.

واجتهد في تدوين المكاتبات الكثيرة، والآن فإن الوثائق والإنشاءات التي حررت في الديوان تعود إليه، وقد حرر أيضًا «قانون نامه»، وهي الآن في قلم «رءوس»(١)، وقد بدلت وغيرت أماكنها قليلًا، وإن التاريخ المعروف بـ «طبقات الممالك» في علم التاريخ هو من مؤلفاته، وقد حرره بنثر ممزوج بالنظم على نمط الشهنامه، والحقيقة فقد أضنى نفسه في جعل هذا الكتاب عجيب الحسن في نظمه وإنشائه، لكن التفصيل الزائد عن الحد يعد من عيوبه.

- رمضان زاده محمد چلبي:

لقد سلك طريق الكتابة بينما كان من طائفة العلماء، فكان أحيانًا «أمين دفتر» وأحيانًا

---

(١) وهي أكبر أقلام الدفترخانه التي يحفظ فيها دفاتر تحرير الأراضي.
- Midhat Sertoğlu : Adı geçen eser، S .81.

أخرى «رئيس دفتر»، وبعد ذلك عمل في وظيفة تحرير أراضي ولاية الـ «موره»، ثم وصل إلى رتبة «النشانجي»، وبعد ذلك صار مرة أخرى «أمين دفتر»، ثم انتقل منها إلى وظيفة «دفتردار العرب والعجم»، ثم عُزل، وأُعطي سنجق محافظة بمصر، وعندما أصبح منصب «النشانجية» شاغرًا بعد فترة صدر الخط الهمايوني المقرون بالسعادة: «لقد أُعطيت هذه الوظيفة إلى «محمد» الذي كان يحرر أراضي المورة».

ولما كان الصدر الأعظم يريد توجيه هذه الوظيفة إلى شخص آخر، أجاب على الخط الهمايوني قائلًا: «استقر المذكور «رمضان زاده» في «مصر» بالتنازل»، عندئذ لم يلتفت حضرة السلطان العارف بأقدار الرجال إلى إجابته، وعلى إثر تفضل السلطان بالتصريح قائلًا: «ما ضرورة انتقال أصحاب الكفاءات من بابنا إلى مصر؟! وربما يكون مناسبًا نقل الرجال أمثاله من «مصر» ومن الديار الأخرى إلى الآستانة»، عاد «رمضان زاده» من «مصر» وأصبح في وظيفة «طغراي غرا»؛ أي «نشانجي» أعوامًا كثيرة، ثم صار متقاعدًا، وكان يصلي الأوقات الخمسة في الجامع الشريف للسلطان «محمد خان»، وانتقل إلى رحمة الله وهو على هذا الحال، وقد حرر «تاريخ مختصر»، والحقيقة جاء هذا الكتاب جيدًا جدًا واشتهر شهرة عظيمة.

الأمراء الذين كانوا في عهده المقرون بالسعادة

ومع أن عددهم أكثر من أن يحرر، فإنه يرى أن من المناسب أن يذكر بعض المشاهير منهم.

- خسرو بك أمير البوسنة:

وهو ابن بنت المرحوم السلطان «بايزيد»، في البداية كان أميرًا على الإسكندرية، ثم صار أمير «سمندرة»، ثم أميرًا للـ «بوسنة»، وقد وفق في فتوحات عظيمة، واستمر متصرفًا على الـ «بوسنة» أكثر من ثلاثين عامًا، وقام بغزوات كثيرة، وإن شاء الله تعالى ستحرر كل فتوحاته وغزواته في محلها.

وقد شيد في «سراى البوسنة» جامعًا شريفًا وعمارات لطيفة وخانقاه، ومدرسة شريفة، وقبرًا لنفسه، وقد خرج المذكور على رأس حملة على قبيلة «قوچ» من عصاة «قره طاغ»؛ حيث استشهد أثناء المعركة وحُمل نعشه المزدان بالرحمة إلى حي «بود غوريجة»، وبعد ذلك أصبح دفين صندوق الغفران في قبره الشريف الذي وفق في بنائه في السراي، رحمة الله تعالى عليه رحمة واسعة.

- قره عثمان شاه بك:

وهو ابن «قره مصطفى باشا»، وهو ابن بنت السلطان المغفور له، ومع أنه كان في رتبة أمير لواء، فإن شأنه وشهرته كانت أكثر من شهرة الأمراء، وربما من الوزراء، وكان تارة يُعين واليًا على سنجق الـ «موره» و«إينه بختى»[1] في آن واحد، وتارة أخرى على البوسنة وحدها، وكان يجد المساعدة من جناب السلطان في أي شيء يريده مهما كان.

ويروى أنه ذات مرة، بينما كان يحصِّل جامع الجزية المالَ، ويحمل المال المتحصل من «قارلي إيلي» إلى الآستانة، يجده «قره عثمان شاه بك» في «إينه بختى»، فيعطيه سندًا قائلًا: «لم يكن لدي مصروف وحصلت على قرض مجبرًا»، وعندما يصل «الجزية دار»؛ أي جامع الجزية إلى الآستانة، يقومون بحساب هذا السند على دينه.

والآن يوجد لديه حمامات وآثار أخرى في بعض المصايف في ولاية الموره، وكان رجلًا صاحب مزاج عالٍ، وكان يعيش في نشوة وصحبة مع ندمائه في المصايف وفي بعض الأماكن المعتدل جوها، وكان لا يخرج إلى الحملات السلطانية، فكان رجلًا صاحب مكانة ومتبعًا لهواه، وكلما كان يضجر السلطان المظفر على أبنائه كان يقول: «عليَّ أن أحضر «قره عثمان» بسرعة، وأعينه مكانكم»، وإن بعض أوضاعه وتصرفاته مشهورة ومذكورة الآن بين الأهالي في ولاية الموره.

(١) وهي قصبة في ولاية «قسطموني»، وتقع على ساحل البحر الأسود.
- قاموس الأعلام: ٢/ ١١٧١.

- كوچك بالي بك:

هو ابن يحيى باشا، والأخ الأكبر لـ «محمد باشا» أمير أمراء «بدون» الذي ذكر بين أمراء الأمراء السابق ذكرهم، وعندما فتحت «بلغراد» أول مرة، كان قد نقل «خسرو بك» من «سمندرة» إلى الـ «بوسنة»، ونقل «كوچك بالي بك» الذي كان أمير الـ «بوسنة» إلى «سمندرة»، وأثناء معركة «موهاج»، كان قد عين كلاهما طليعة للجند، وعندما توفي، كان متصرفًا على سنجق «سمندرة»، وتوفي سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة هجرية[1]. رحمة الله عليه رحمة واسعة.

- علي بك بن مقلوچ بك:

كان رجلًا من أشجع غزاة الحدود ومجاهدًا وغازيًا، وقد كتب «عالي أفندي» بالنقل عن الثقات أنه: بينما كان «علي بك بن ملقوچ بك» أميرًا على «بوجغه» [بوزغه]، وصل بعض الرجال الأشرار إلى الآستانة صاحبة السعادة للشكوى من تجاوزه، وكان هذا في بداية وزارة «رستم باشا»، فقام «رستم باشا» بتعيين أمير وقاضيين وأرسلهم للتفتيش على «علي بك» مع تطبيق هذا على كل الأمراء، وقد أصدر هؤلاء بعض القرارات عندما تم تفتيشه.

أما علي بك نفسه فلا يعرف الدعوى المرفوعة ضده ولا يقدر على الإجابة، وفى الحال ينبه على رجاله ويقول: «عندما ألبس تاج النمر الخاص بي سلطوا السيف على الرعايا، وليكن ما يكون، وإن شاء الله تعالى لدي القدرة على جلب رعايا آخرين مكانهم»، ويفعل ما قاله؛ وفى اليوم التالي يأمر بقتل أكثر من ثلاث مائة من الرعايا الكفار، حتى إن الأمير والقضاة الذين أتوا من أجل التفتيش يشعرون بالخوف، ولكن «علي بك» يقوم بتسليتهم ويهدي لهم عدة أسرى ومقدارًا كبيرًا من الدنانير، وفى اليوم التالي، يأمر بالنداء لشن الهجوم، ويقوم أصحاب الدولة الذين أتوا من أجل التفتيش بإبلاغ هذا الوضع إلى الوزير الأعظم عن طريق ساعي البريد .

---

(١) الموافق سنة ١٥٢٦ / ١٥٢٧م

وبينما كان الوزير الأعظم أيضًا غارقًا في التفكير قائلًا: «يا ترى هل أصبح عاصيًا؟ أم ماذا يكون الحال؟» يأتي «علي بك» من الحملة في اليوم الخامس عشر، ويسوق حوالي ستمائة من الرعايا مع أهلهم وذويهم ويسكنهم مكان الرعايا الذين قتلهم، ويكتب إلى الوزير الأعظم يحيطه علمًا بحقيقة الوضع، ويلتمس عفوه لذنبه قائلًا: «إن اعتذار أهل السيف يكون على هذا النحو».

- نوبهار زاده:

كان قد اشتهر بهذا الاسم بسبب أنه كان ابن «داية» وأصبح «دواتدار»[1] لـ «جلال زاده نشانجي بك» لمدة طويلة، وبعد ذلك أحسن علية بالدفتردراية، وكان علو مقام الدفتردراية عن النشانجية قانونًا معمولًا به حتى ذلك الوقت، وعندما قال المذكور نوبهار زاده: «لا أتقدم على سعادته أي «جلال زاده» الذي أشعر بالاحترام نحوه والذي أقف أمامه مطبقًا الأيدي احترامًا وأرجح العزل على ذلك»، فلما عرض هذا الأمر على السلطان صاحب السعادة، وقع هذا التصرف منه موقع الاستحسان، وقام بالدعاء له بالخير، وبعد ذلك وعلى إثر صدور الفرمان: «ليبق الأكثر قدمًا في منصبه»، طُبق هذا القانون إلى الآن.

- جركس قاسم بك:

كان قد أحسن عليه بسنجق «كفه»[2] بينما كان «دفتردار شق ثاني»[3]، وقد وُجهت إليه بعد ذلك، تحت اسم «إيالت»، وبقيت «كفة» كإمارة أمراء إلى الآن، ولما كان من

---

(١) كان يطلق هذا اللقب على الشخص الذي يمسك بدواية وقلم الوزراء وأعيان الدولة وكل وسائل الكتابة المتعددة، وهو أيضًا الشخص الذي يكتب المسودات التي تملى عليه.
- Midhat Sertoğlu : Adı geçen eser، S. 89.

(٢) تقع في جنوب شرق جزيرة القرم.
- Danişmend : Adı geçen eser، S. 492.

(٣) كان يوجد خلاف الباش دفتردار اثنان من الدفتردارية أيضًا، كان يطلق على أحدهم «دفتردار الأناضول»، وعلى الآخر «دفتردار شق ثاني».
- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C.I، S. 416

المنتسبين إلى الوزير الأعظم «محمد باشا الطويل»، فإنه لم ير العزل حتى آخر عمره، وفي عصر السلطان «سليم» كان هو الباعث على حملة «أجدرهان»[1]، كما كان السبب في إلحاق كل هذه الخسارة والمصاريف بلا فائدة، وإضاعة بيت مال المسلمين.

- حاجي بك:

خرج من الحرم الهمايوني، وكان رجلًا نافعًا وباذلًا للكرم، وعندما أصبحت «صفد» و«عجلوان» و«لجوان» من توابع ولاية «الشام» ثلاثة سناجق، تصرف فيها جميعًا، وكان يرافقه خمسمائة أو ستمائة رجل كاملو العدة والعتاد، وفى عصره لم يبق لأشقياء الأعراب قيمة ولا شأن.

- قودر بك:

وهو ابن «دلى خسرو باشا» الذي كان وزيرًا ثانيًا سابقًا، وكان وافر الخدم والحشم، وكان رفيع المظهر والشهرة، ولما كان عمه «قره مصطفى باشا» يشغل وظيفة «لالا»، فقد أصبح المذكور قرينًا لابن السلطان، وبينما كان لديه حوالي ألف رجل، كان يسلك مسلكًا عادلًا في الولاية التي أصبح واليًا عليها، وفى إحدى المرات أظهر الاستهزاء بابن السلطان في «حلب»، ولكن الأمير ابن السلطان تمالك نفسه حيال استهزائه، وقد أسف المرحوم السلطان «سليم» كثيرًا على وفاة المذكور «قودر بك» وكان يقول: «كنا لا نعرف ارتداء الملابس المناسبة ولا نعرف كيف تكون الفروسية أو حتى ركوب الجياد، حتى جاء بالملابس المزدانة إلى بابنا»، رحمة الله تعالى عليه.

- جان بولاد بك:

وهو ابن «قاسم بك» أحد العصاة الأكراد، وعندما أتوا بالمذكور «جانبولاد بك» في طفولته إلى حضرة المرحوم السلطان، داعب الحلق الذي كان في أذنه بيده المباركة، وأدخله إلى الحرم المحترم.

---

(١) تقع شمال غرب بحر «الخزر»؛ أي بحر قزوين.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 589.

ولما قام لصوص الأكراد بتخريب نواحي «حلب» تمامًا، وجعلوها حطامًا، وجه للمشار إليه سنجق «كليس»[1]، وعندما وصل إلى هناك، أُجتثت جذور لصوص الأكراد.

ويروى أنه: بينما كان السلطان في طريقه إلى «حلب»، قام «جان بولاد بك» بصلب أكثر من أربعين لصًا على الطريق، وعندما رأى السلطان هذا، غضب وأمر بقتله، ولكن «رستم باشا» دافع عنه وخلصه من القتل بقوله: «إنه جانبولاد بك والي هذا المكان»، وبعد ذلك، لما سرق اللصوص أشياء ثمينة من الحرم السلطاني، أبقى مرة أخرى على إمارة السنجق؛ حيث استطاع إيجاد كل الأشياء المسروقة وسلمها، وكان يخرج إلى الحملة مع ثمانمائة رجل من حاملي البيارق، وبينما لم يعزل المذكور من منصبه، حصر همه في بذل الصدقات والإنعامات.

ـ حسين بك حاكم «جزرة»:

وهو من الأمراء الذين يذكرون بلقب «إمارت مآب»؛ أي صاحب الإمارة، وكان يسرع إلى الحملات مع خمسة أو ستة آلاف من الأكراد الأكفاء، وكان بحر جوده وكرمه يفيض أحيانًا على هذا النحو الذي كان يصل بأي فقير في لحظة واحدة إلى الغنى الأبدي.

وهناك «زينل بك» و«محمد بك» و«حسين بك»، وأمراء كثيرون ذوو شأن أمثال هؤلاء أيضًا في «حكارى» الموجودة على حدود «وان»، إلا أن هذا الأثر المختصر لا يحتمل الحديث بالتفصيل عن هؤلاء.

---

(١) يقع هذا السنجق في ولاية البوسنة.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 601.

في ذكر مشاهير العلماء والفضلاء والمشايخ العظام في عصره الشريف

ومع أن هؤلاء كثيرون كثرة لا تعد ولا تحصى، ولكن وجب أن يذكر بعضهم تبركًا وتيمنًا.

ـ مولانا خير الدين:

كان معلم السلطان أثناء فترة إمارته، وكانت ذاته الشريفة محفوفة بأنواع الفضائل، وبصفه خاصة كان صوفيًا صلاحه يفوق علمه.

ـ مولانا عبد القادر چلبي:

كان أفضل علماء عصره، وأصبح أيضًا «قاضي عسكر» ومفتيًا.

ـ سيدي چلبي:

هو من «قسطموني»، وصار مشهورًا بين العلماء، وقد شغل منصب شيخ الإسلام ومفتي الأنام.

ـ مولانا الشيخ محمد:

وهو مشهور باسم «جوى زاده»، وبينما كان شيخًا للإسلام، كان المرحوم «أبو السعود أفندي» قاضي عسكر «الروم إيلي»، ولما رفض «أبو السعود أفندي» بعض فتاوى «مولانا شيخ محمد» قائلًا: «غير شرعية»، قام «رستم باشا» بعرض تلك الحالة على الركاب الهمايوني، وبناء على ذلك وجهت مهمة الفتوى الشريفة إلى المرحوم «أبي السعود أفندي» ووُجه قضاء عسكر «الروم إيلي» إلى «جوى زاده»، وإنكاره لبعض المشايخ الكرام أمرٌ مشهور، وتم اختصار سيرته الذاتية؛ بسبب أنه لم تكن هناك حاجة إلى الإطناب في هذا الباب.

ـ مولانا الشيخ محمد بن قطب الدين:

كان منلا[1] مشهورًا بأنه صاحب حياء ووقار وفضل وصلاح، وبقطعه المراتب المعتادة في التسلسل الوظيفي، كان قد وصل إلى مرتبة «قاضي عسكر الأناضول».

ـ مولانا محمد بن أحمد بن عادل باشا:

كان ماهرًا في أكثر العلوم، وقادرًا على الحديث في التواريخ والمحاضرات، ومؤلفاته التركية والفارسية وافرة، وتصانيفه الكثيرة موجودة، وكان عالـمًا نحريرًا ونادر الوجود.

ـ مولانا الشيخ محمد التونسي:

حضر إلى منطقة «الروم إيلي» في أيام سلطنة «سليمان خان»، وبدت مهارته في أكثر العلوم، وبصفة خاصة ألم بالقراءات السبع، بل والقراءات العشر.

ـ مولانا عبد الفتاح بن أحمد بن عادل باشا:

وهو من مشاهير العلماء، كان رجلًا كثير العلوم ومعروفًا بحسن الخط، طيب الحديث وحسن الحوار، وقد ظهر في مدينة تعرف بـ «بردعى» في بلاد العجم.

ـ مولانا ظهير الدين أردبيلي:

كان شخصًا صاحب وقار وهيبة وفصاحة ووجاهة ونموذجًا لحسن الخط ومحبًا للاجتهاد، وأصبح موضع اهتمام السلطان «سليم خان»؛ وكان قد أتى من «تبريز»[2]، وفي النهاية قتل مع الخائن «أحمد باشا» في «مصر».

---

(١) هو لقب يطلق على العلماء الذين أحرزوا درجة المولوية، وكانت تكتب في صورة «منلا» أو «ملا»، وكان يستخدم لقب «منلا» بحق من يشغلون الوظائف العلمية والاجتماعية العليا، وكان يقال على الطبقة الأولى من القضاة: «منلا»، وكان المدرسون لا ينادون على طلبة المدرسة بأسمائهم، ولكن كانوا يخاطبونهم بالقول: «منلا».

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. II، S. 549.

(٢) هي أشهر مدن آذربيجان.

ـ شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان ٢ / ٣٦.

ـ مولانا علي الدين أصفهاني:

أتى إلى حدود الروم إيلي بعد أن أتم العلوم، وكان خطاط العصر، وكان مشهورًا جدًا في أكثر العلوم.

ـ مولانا شاه قاسم بن الشيخ مخدومي:

كان قد أحضره المرحوم السلطان «سليم» إلى «الروم إيلي»، بينما كان مقيمًا في «تبريز».

ـ مولانا محيي الدين قره باغي:

كان عالمًا مجتهدًا وشخصًا محدثًا ومفسرًا فاضلًا.

ـ مولانا ابن الشيخ ششتري:

جاء إلى بلاد «الروم إيلي» مع السلطان «سليم»، وكان مولانا شاعرًا ماهرًا.

ـ مولانا شريف عجمي:

بينما كان شافعي المذهب، اعتنق المذهب الحنفي، وكانت له اليد الطولى في علم التفسير.

ـ مولانا حسن چلبي آشجي زاده:

وهو من «گليبولي»، وكان فاضلًا وصالحًا وعاملًا، ومكتمل المهارة في أكثر الفنون.

ـ مولانا محمد بن محمد باشا القرماني:

تتلمذ على أيدي الصدر الأعظم المرحوم «كامل باشا زاده»، وبعد ذلك أصبح يؤدي وظيفة ملازم في إعادة وتكرار ما شرحه المفتي «علاء الدين كمال».

ـ مولانا يعقوب:

وهو من «حميد»، مشهور باسم «آجه خليفة»، وتوفي في عام ٩٢٩ هجرية بينما كان

مدرسًا في «مغنسيا»[1]، وكانت لديه مهارة في أكثر العلوم، وكانت له القدرة على النظم بالفارسية والتركية، وهذا النظم اللطيف في ترجمة الحديث الشريف: «أنا ولدت في زمن الملك العادل» يعود إليه (أي إلى مولانا يعقوب)؛ وذلك عندما قام مولانا «جامي» بذكر هذا الحديث وترجمته (إلى الفارسية) في كتابه المعروف باسم «بهارستان»؛ حيث قال «جامي»:

نظم

الرسول الذي ولد في عهد نوشيروان والذي هو نور الدنيا وسراجها
يقول: أنا معصوم ومنزه عن ارتكاب الظلم لأنني ولدت في عهد «نوشيروان»

ولكن المرحوم «يعقوب آجه أفندي» طعن في قول مولانا «جامي»، وقال ما يلي في تأويل الحديث الشريف:

أيها الفطن الظريف هل يليق أن يكون فيض العدل هذا من مجوس
حذار أن تتفوه بمثل هذا وإذا كنت تريد أن تقول صواب الكلام فلتقل
إن شاه إيران كان منزهًا عن الظلم ذلك لأن الرسول قد ولد في عهده
ليس لمثلي أن يتجاوز حده ويرمي شخصًا فاضلًا مثله بكلام قبيح كهذا
لكن ثمل من شراب الغيرة فمتى ساورني الفكر أو القلق من جامي وجم

ومع أن مولانا «علاء الدين بن يعقوب» وهو من الموالي الذين عاشوا في عصر السلطان «سليم خان» موجود الآن، ـ ولكنه معروف باسم «آجه زاده» ـ فإن الشاعر المذكور هنا هو «يعقوب حميدي» المعروف باسم «آجه أفندي» وليس واضح أو مصرح به أي شخص منهما قام بنظم هذا النظم اللطيف، ولكن لما كان هذا من النوادر الواجب ذكرها، فقد حررت، ووجب أن يشترك كلاهما في هذا الشرف.

---

(١) وهي مركز ولاية صاروخان في العصر العثماني.

ـ مفتى علي چلبي جمالي:

كان عالمًا عاملًا وفاضلًا، وكان صوفيًا صاحب ورع، وأصبح مفتيًا في «إستانبول»، وقد رقّاه السلطان صاحب السعادة على هذه الوظيفة براتب شهري يقدر بخمسين أقچة.

ـ مفتي «كمال باشا زاده»، عليه الرحمة:

كان أفضل علماء الدهور، وأكمل فضلاء العصور، وأعظم علماء العالم، وجامعًا للفنون، خصاله مجموعة رسائل قيمة، وهو مدار شمس الحقائق ومحيط بكمال الدقائق، وهو شمس الشريعة، ومشرق الفضيلة منذ زمن طويل لم نعرف أنه قد ظهر مثله عند العرب أو العجم، وعندما توفي كان مفتيًا.

ـ مفتي الأنام شيخ الإسلام أبو السعود أفندي:

هو حضرة «خواجة چلبي» وهو أعلم علماء المشارق والمغارب والمستحق بالاجتهاد في جميع المذاهب وهو بحر عظيم للمعاني في عصره، وربما يكون النعمان الثاني، وكتب تفسير القرآن العظيم في العهد الهمايوني المقرون بالعدل لحضرة السلطان ظل الله تعالى، والذي لم يُكتب تفسير شريف مثله في زمن أي سلطان قط، وهو يحوز على قبول كل العلماء والعظماء وراسخ عند الفضلاء ذوى الاحترام، وعندما قام المنلا المشار إليه بتبييض هذا التفسير الشريف حتى سورة [ص]، أرسل سلطان العالم خطًا شريفًا مع كتخدا خدم الباب وطلب التفسير الشريف، وبناء على ذلك كتب أبو السعود أفندي أيضًا تذكرة للأغا المومأ إليه مع صهره «معلول زاده أفندي» وأرسلها إلى جناب السلطان «سليمان خان».

وقد ظهر كرم وإحسان السلطان الزائد على المنلا الوسيط وعلى الغلام الذي حمل التفسير، وبصفة خاصة وبينما كان حضرة شيخ الإسلام يتقاضى يومية قدرها ثلاثمائة أقچة، فقد رقي أيضًا بإضافة مائتي أقچة، وبعد ذلك عندما أرسل الجزء الباقي من التفسير أُحسن عليه بترقية أخرى قدرها مائة أقچة.

أما والد حضرة المنلا المومأ إليه «أبو السعود أفندي» فهو حضرة الشيخ «ياوص»، وكان خليفة لحضرة الشيخ «إبراهيم التبريزي»، وقد تعلم المرحوم «أبو السعود أفندي» على يد أبيه «المختصرات وحاشية التجريد» و«شرح المفتاح» و«شرح المواقف»، وبعد ذلك أصبح ملازمًا عن «سعد چلبي»، ثم التحق بمدرسة «إينه گول» بثلاثين أقچة، وبينما كان في هذه الوظيفة عزل، ثم عُين في مدرسة «داود باشا» بأربعين أقچة، ولم يُعزل إلا في هذه المرة، وبعد ذلك عُين على مدرسة «ثمانية» ثم أصبح متصرفًا على قضاء «بورصة» ثم «إستانبول» ثم صار «قاضي عسكر الروم إيلي» لمدة ثماني سنوات وعقب ذلك غدا «شيخًا للإسلام»، وفي سنة اثنين وخمسين أصبح مفتيًا، وفي سنة اثنين وثمانين انتقل إلى دار الخلد وقد أدى «محشي سنان باشا» قاضي العسكر صلاة الجنازة عليه.

وعلى إثر كتابة «أبو السعود أفندي» رسالة عن جواز وقف النقود، أزال اختلاف العلماء في هذا الموضوع وقد حلت فتاويه المتعلقة بالأراضي مشاكل كل الناس، وكان «أبو السعود أفندي» طويل القامة خفيف العارضين، غير متكلف العمامة، وكان منلا ذا شأن، وأحواله كانت تدل على مكانته هذه، ولم يَبْهُجُهُ أي من العلماء على مر العصور حتى اليوم، وقال «عالي أفندي»: «كان قصوره ينحصر فقط في عدم انخراطه إلى الطرق الصوفية»، بينما كان المرحوم والده صوفيًا «صاحب إرشاد»، وفي الوقت الذي تعلم منه العلوم المتداولة آنذاك، فإن القول بعدم سلوكه مسالك الصوفية يكون افتراء، وفي الوقت الذي يهدي فيه «أبو السعود أفندي» تفسيره الشريف إلى جناب السلطان، يرسل إليه أيضًا تذكرة شريفة، وقد نُقلت صورتها تمامًا في هذا الموضوع تبركًا وتيمنًا، وهي على النحو التالي:

هذه هي التذكرة الشريفة

بعد تقديم وقود الدعوات الصافيات التي آياتها الإخلاص، وجنود التحيات الوافيات التي غاياتها الاختصاص بالآلاف المؤلفة من مواكب التفخيم والتعظيم وكتائب الإجلال والاحترام، وبعد إقامة مراسم الخدمة للمواقف الفسيحة الأكناف

للعتبة العلية، التي مدارها العظمة وحماية الخلافة، والتي يحف سدتها السنية الجلال والسلطنة صاحبة الاقتدار، التي هي موضوع تقبيل شفاه قياصرة العصور ومعقل جباه جبابرة الدهور، ما زالت بوارق رفعتها خافقة في الخافقين وشوارق شوكتها بين المشرقين، مؤيدة بالتأييدات الربانية وموفقة بالتوفيقات السبحانية، مقرنة بفنون العز والتمكين، ومصونة بالنصر العزيز والفتح المبين، فإن المعروض على ساحة العز والإجلال المشحونة بأقانين المجد والإقبال، هو أنه لما تفضل مشرق الشمس وشمس الجلالة والجاه ومركز المجد سلطان الملك قطب الأفلاك وخاقان العز خلد الله تعالى عز سلطانه وأيام عمره وأعلاه إلى غاية الدهر ومنتهاه، فائزًا بكل ما يؤمه ويهواه حائزًا بجميع ما يحبه ويرضاه جنابه شامخ الإيوان وراسخ الأركان، لما تفضل بالإشارة العلية لإرسال نسخه من التفسير الذي كتبه هذا العاكف الذي يتحمل الاعتكاف في الصوامع ومجاور للخانقاه الذي أصابه الضعف والذبول مع قلة البضاعة وعدم الاستطاعة، فقد تم ترتيب نسخة امتثالًا للأمر النافذ الميمون، ما زال جاريًا في أقطار الربع المسكون، نافذًا في مسالكه ومساربه مطاعا في مشارقه ومغاربه، وسلمت إلى كتخدا خدم الباب المزدان بالنعمة العظمى ورهين الخدمة العليا، وعندما يتشرف بشرف الحضور إلى المحافل السلطانية الرفيعة والجليلة المقدار وإلى الأندية الهمايونية المنيعة والجميلة الآثار، فإذًا وقعت هيئته على دقة نظر السعادة وإذًا وقع مظهره موقع القبول الحسن والرضا.

نظـم

فذلك مسئولي وعزي ومفخري   وأعظم أمالي ووهن عظام
هو المطلب الأعلى فمن ذا الذي له   سوى نبأ في العالمين مرام
لئن كـان لي من دون ذلك منيـة   فكل منى الدنيا علي حرام

فليربط الحق سبحانه وتعالى ظلال السعادة والإقبال لذلك الرجل الذي صفاته صفات الملك، وخيوط خيام جاهه وجلاله الممدود والمبسوطة على العالم بأوتار الخلود، وليحقق آماله الأولية والأخروية لجميع مقاصده الدنيوية بالخير والسعادة، وليجعل عتبته العالية مناط نظام العالم ومدار مصالح كافة الأمم، آمين يا رب العالمين عليك توكلت وبك نستعين.

العبد الداعي أبو السعود الفقير.

وإذا كان قد سبق الذكر بأن «أبا السعود أفندي» أرسل تفسيره الشريف مع صهره الذي كان يعمل تابعًا له إلى «عالى أفندي»، فإنه يفهم من هذه التذكرة الشريفة أن التفسير أُرسل مع كتخدا البوابين برغبة السلطان، بحيث لزم ذهاب المولى المذكور الذي كان صهره برفقة الكتخدا.

ـ مولانا محيي الدين عرب زاده:

وهو «عرب زاده» الذي عذره المرحوم «أبو السعود أفندي». ولما كانت سيرته تعد من النوادر، فقد وجب تسجيلها، فكان ملازمًا لدى «مولانا خير الدين أفندي» معلم السلطان المغفور له، ثم أصبح مدرسًا في إحدى مدارس «ثمانية».

ولما قام حضرة شيخ الإسلام بتعيين «منتشوى محيي الدين» الذي كان من العلماء العارفين معيدًا للدرس، أوقد المرحوم «أبو السعود أفندي» نارًا ذات لظى؛ بسبب أن «محيي الدين عرب زاده» خرج عن حدود الأدب، وكتب شكوى إلى «الوزير الأعظم، والوكيل المفخم» «رستم باشا» بدأها بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1]، وأشار فيها إلى طلبه، وأرسل أيضًا صورة لفتوى تقول: إن «من استخف بشيخ الإسلام فجزاؤه عند الأئمة العظام العزل إلى الأبد والضرب الأشد والنفي عن البلد». حتى إن «مولانا محمد بن عبد الأول» الذي كان مشهورًا باسم «صاچلى أمير»، وكان في ذلك الوقت من فحول العلماء الذين نما الحقد في قلوبهم لـ «أبي السعود أفندي»، ولكنه لم يظهر ذلك، بسبب الخوف، وكان قد جعل الفتوى ذات الثلاثة بنود أربعة بنود، وكان قد أسجعه بخطه، مما لم يقبل به أحد.

وصفوة القول: فقد وصلت الفتوى والشكوى إلى السلطان وأُحضر «عرب زاده» إلى الديوان، وعُذر وطُرد إلى البوسنة معزولًا، والغريب في هذا أن «بستان أفندي»

---

(١) سورة يوسف: بعض من الآية ٨٦.

الذي كان يعمل قاضي عسكر الروم إيلي في ذلك الوقت كان صهر «عرب زاده»، وفي ذات ليلة وقبل الديوان، يذهب «بستان أفندي» و«محشي سنان أفندي» قاضي عسكر الأناضول معًا إلى «أبي السعود أفندي» مرتين ويرجو كلاهما عفوه، ويمرغان وجهيهما بتراب قدمه ويتوسلان إليه كثيرًا قائلين: «إن جرح شرف المذكور «عرب زاده» يعود إلى حماه»، ولكن لم تؤثر كلماتهما فيه قط، ولما كان أبو السعود أفندي كردي الأصل وحاد الطباع لم تشفع بنوة الشيخ، ومخدوميته له، بل ازداد غضبه على المذكور شيئًا فشيئًا.

ويروى أنه كلما أورد الملا المشهور باسم «قوجه جوى زاده»، وعرض أقوال المرحوم «كمال باشا زاده» القوية كان يشير بلفظ «قيل»، وكان أحيانًا يطعن ويشنع به، فأخبر بعض أتباعه هذا الأمر إلى حضرة المنلا «أبي السعود أفندي» فثار قائلًا: «إنه لم يبق لكم مكانة ولا قدر بين العلماء»، فقام بعرض الموضوع على السلطان، وعلى هذا فوض المرحوم السلطان «سليمان خان» عليه الرحمة والغفران «المنلا» «أبا السعود أفندي» في الحكم على المذكور؛ يعني لو يريد أن يلقي به في البحر فليلق به، فلما سمع المرحوم «جوى زاده» بهذا الفرمان، ألقى هذا الحكم الروع في قلبه واختفى بسرعة في منزل أحد الجاوشية المعروفين وبعد ذلك يقرر ترك الديار عندما تحين الفرصة.

ولكن لما كان لذلك الجاويش معرفة بحضرة المنلا «أبي السعود أفندي»، يرجو عفوه عن ذلة «جوى زاده»، فيظهر حضرة المنلا «أبي السعود أفندي» الإحسان متبسمًا، ويقول: «عفوت عنه من أجل خاطرك»، وبهذه المناسبة أفرد أبو السعود أفندي الكثير من الحقائق اللطيفة من المعنى الشريف للآية الكريمة ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[1] وأدلى بكلام مثل الدر المنظوم.

والغريب في هذا أنه بينما كان هناك فرق كبير بين قلة أدب «عرب زاده» وذنب «جوى زاده»، فإنه مع هذا صفح عن أحدهما بتوسل الجاويش وحكم على الآخر بالتعذير على الرغم من توسل اثنين من قضاة العسكر وبالخاصة كان أحدهما صهره، وهذا يبين إلى

---

(١) سورة آل عمران: بعض من الآية ١٣٤.

أي درجة كانت طبيعة حضرة «أبي السعود أفندي» الشديدة، وبالجملة فقد انزوى «عرب زاده» إلى أحد القصور لمدة عامين بلا زاد أو زواد، ولما أشفق جناب السلطان عليه عفا عن ذنبه وأتى به ثانية إلى مدرسة «ثمانية» ثم إلى مدرسة «السليمانية»، وعلى إثر عرض الوزير الأعظم «علي باشا» أصبح قضاء «مصر» من نصيب المذكور.

حتى إن «عالي أفندي» قد نقل عن يعقوب أغا الذي كان في وظيفة رئيس حجرة؛ يعني «أوطه باشي» في ذلك الوقت قوله: «يشرف السلطان صاحب السعادة الحجرة الخاصة بعد الديوان، وعندما يظهر قليلًا من البرودة والألم»، يسأل يعقوب أغا قائلًا: «فليحزن ويغتبن أعداؤكم، ما سبب الاضطراب السلطاني؟»، ففصل حضرة السلطان ما أمر به قائلًا: «لقد أصبحت غير راضٍ عن الجاهل الذي جعلناه وزيرًا؛ حيث عرضت قضاء «مصر» على غافل وُبخ في ديواننا، وفي البداية ظننا أنه عرض «عادي»، ولو لم نعطه ذلك المنصب نكون قد حقرنا عرض الوزارة هذا، فمنحنا المنصب للمذكور ولكن جعلنا أنفسنا هدفًا لطعن وتشنيع علماء مصر وعلى أية حال، نسأل الله بألا يصل إلى «مصر» بالسلامة».

ويروى أنه في أثناء إقلاع «عرب زاده» بسفينته من «رودس»[1] إلى «أنكن» بتفاؤل المذكور بالقرآن العظيم، فتأتي الآية الكريمة ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾[2] في السطر الأول من الصفحة المفتوحة، ويخشى كل فرد من أن يكون ذلك غرقًا في البحر، أما «عرب زاده» نفسه فكان يقول وهو مسرور: «حرف الواو علامة وصل، وفألنا جميل جدًا»، ويعترض واحد أو اثنان من القضاة والعلماء العارفين بالفأل والذين كانوا موجودين معه في السفينة قائلين: «في الوقت الذي كان فيه هدف فألنا هو النجاة من الغرق، فليس من المناسب أبدًا تأويل لفظ الغرق هنا»، ولكن «عرب زاده» وجد مخرجًا ولم يقبل الاعتراض وطرد عالمًا - من الذين اعترضوا - من ذلك المجلس، وعندما لجأ «عرب

(١) جزيرة تقع في محاذاة ساحل الأناضول في الجنوب الغربي وتجاه «مرموس».
- Danişmend : Adı geçen eser، S. 504

(٢) سورة النازعات: الآية (١).

زاده» إلى الحدة، صمت الآخرون عن المعارضة، ويتوجه العالم الذي طرده من مجلسهم ويستند إلى قلع السفينة ويجلس متحيرًا ومندهشًا، وعندما يبحر «عرب زاده» بسفينته متوجهًا إلى «أنكن»، تهب بحكمة الله تعالى عاصفة عظيمة ويخيم الظلام الدامس حتى أصبح كل شخص يقول: «نفسي نفسي»، ويقطع الأمل في بقائه حيًا، وعندما يصبح الصباح تهدأ العاصفة أيضًا ولما أفاقوا لم يروا أثرًا من حجرة القبودان ولا خبرًا عن الذين كانوا في حجرة القبودان، وربما تكون كبينة القيادة غرقت في البحر من شدة العاصفة؛ حيث كانت الرياح تطوف بالمكان.

وكان «عرب زاده» المسكين رجلًا ينكر الأولياء، حتى كان يقول: «لم أرتكب أيًا من الكبائر طوال عمري، ولو كانت الولاية بصلاح الحال لكنت وليًا»، ويتوجه إلى حضرة الشيخ «إبراهيم گلشني» وكان يذهب بهذا الادعاء قائلًا: «أنا أحرق عظامك بالنار»، وها هو قد تلقى صفعة الأولياء وذهب عدة أشخاص ممن كانوا بجواره بلا ذنب.

تحقيق آخر: يروي المرحوم «عالي أفندي» قائلًا: «إنه أثناء تأليفه كتابه، جاء ابن المعيد المعهود «محيي الدين منتشوي» إلى هذا الحقير [المقصود عالي أفندي]، ونقل هذه القصةَ ذات العبرة العظيمة عن لسان أبيه على هذا النحو: «عندما وصلنا إلى «رودس» في ذلك الوقت، أتى «حسام بك» أمير سنجق «رودس» إلى المرحوم «عرب زاده» وقابله وقال: يوجد هنا ولي يطلقون عليه اسم «بوريزن على دده»، وهو مستجاب الدعوة وظهرت كرامته مرات عديدة فلا ترحل حتى تطلب منه المدد الروحاني»، فلما كانت هذه النصيحة مخالفة لاعتقاد «عرب زاده» فإنه يقوم بإعطاء المعيد الذي سبق ذكره دينارًا واحدًا كثمن للأضحية، ورعاية لخاطر أمير اللواء فقط ويرسله إلى الشيخ الولي قائلًا: «ينبغي ألا ينسوا الدعاء لنا»، ويصل المعيد «محيي الدين أفندي» إلى مكان الشيخ ويضع الدينار أمامه، وعندما يلتمس منه الدعاء، يرفع الشيخ يديه ويقرأ الفاتحة على روحه، ويتوقف المعيد قليلًا قائلًا: «غالبًا أنه لم يفهم؛ بسبب أن الولي شيخ كبير»، ويكرر رجاءه ثانية فتصدر عبارة الفاتحة على روحه من الولي مرة أخرى، وعمومًا يحدث ذلك ثلاث مرات على هذا النحو، ويذهب المعيد «محيي الدين أفندي» متعجبًا من هذه الحالة قائلًا: «لنر ماذا يخرج من نفس الشيخ».

وعمومًا ففي هذه الليلة التي يبحرون فيها إلى «أنكن»، يبدأ «عرب زاده» كعادة كل ليلة في كتابة «التفسير الشريف»، ومن حكمة الله تعالى يصادف في هذه الأثناء نقله موضوع «طوفان نوح»، وبينما كان يدقق في هذا الموضوع، تظهر سحابة في حجم المنديل أمامه وبالتالي يظهر المثال على ذلك الموضوع في الحال، وعندما قال: «هكذا تظهر قطعة سحابة صغيرة بهذا القدر وفي الحال تحجب العالم برداء الحجاب»، ويحدث في لحظة واحدة مثل «طوفان نوح» ويعطى علامة من علامات القيامة، ويقع الطوفان ويغيب «عرب زاده» المذكور عن وعيه، ولما كان المعيد المذكور غير موجود في مكان القيادة، وأن أجله كان مرهونًا بوقته، ينجو مع جميع أهل السفينة الآخرين، ويعود الذين تم إنقاذهم، وما إن أتوا إلى «رودس» حتى توجهوا إلى حضرة الشيخ، وقبلوا تراب قدميه، فيوضح الشيخ الولي أيضًا الحادثة التي تمت ويشرح سر الحقيقة قائلًا: «عندما جلبتم ثمن القربان إلينا، رأيت في مشاهدتنا كأننا كنا معًا في هذه السفينة وكان حضرة الخضر عليه السلام بيده منشار ويقوم بثقب الجوانب الأربع للسفينة دون توقف وأنا أقول للخضر عليه السلام «لماذا أنتم تفعلون هذا»؟ فيجيب بقوله: «إنه قد أريد إغراق هذا الظالم»، مشيرًا إلى «عرب زاده»، فأقول مرة أخرى: «أليس هذه خسارة على المسلمين؟ لو كان هلاكه هو الهدف فإنه يمكن أن يتم هذا بالقضاء على القيادة»، فيثني عليّ الخضر عليه السلام قائلًا: «لقد أحسنت قولًا»، وقطع الأربطة الخشبية للسفينة بالمنشار الذي كان بيده وهكذا تركه على حاله، وعلى هذا كنت عارفًا ما سيحدث، وكان قد صدر عن لساني كلمة «الفاتحة» لهذا السبب، وقد حرر «عالي أفندي» حقيقة الوضع على هذا النحو:

«إن «بوريزن على دده» المذكور أحضر الإرادة إلى الولي الذي اسمه «عبدي خليفة» من خلفاء حضرة الشيخ «إبراهيم گلشني»، وكان عزيزًا ـ أي وليًا ـ قد احتل مرتبة الولاية، والمرحوم «عرب زاده» أيضًا مع أنه كان ينكر الأولياء فإنه كان بلا نظير في علم الظاهر»، وكانت له فيها بعض المؤلفات، ولكنها لم تلق أية شهرة، وربما بقيت بخط المصنف حتى الآن.

ـ مولانا علي بن صالح:

وهو مؤلف كتاب «همايون نامه»، ولما كانت ترجمة حياته لا تخلو من المزايا، فقد

سُجلت هنا أيضًا، وكان «مولانا علي بن صالح» مشهورًا باسم «علي عبد الواسع»؛ بسبب أنه كان ملازمًا لـ «عبد الواسع» ممن شغلوا درجة «مولا»، فبينما كان مدرسًا في إحدى مدارس «ثمانية» ثم بعد ذلك مدرسًا للسلطان «بايزيد» في «أدرنه»، أصبح قاضي «بورصة» حيث توفى هناك.

وينقل «عالي أفندي» عن المرحوم المؤرخ «رمضان زاده محمد بك» مُوقِّع الديوان السلطاني أنه: «بعد أن أتم المنلا المذكور «المولى علي بن صالح» كتابه «كليلة ودمنة» بأسلوب بليغ، كتب منه نسختين من أجل أن يرسل إحداهما إلى السلطان ويهدى الأخرى إلى الوزير الأعظم، وأحضرهما إلى ديوان العصر، وأوضح أنه وجه قدرته وسعيه في هذا المجال لمدة تقدر بعشرين عامًا، وأنه كتاب مملوء بالعبر والنصائح الخاصة واللازمة لكل السلاطين وكان الوزير الأعظم في ذلك الوقت «لطفي باشا»»، والغريب أنه بينما كان لطفي باشا يعد نفسه مؤلفًا ومصنفًا ويعمل للعلم والفضيلة، لم يهتم بهذا المؤلف قط حتى إنه لم يتسلمه، ولامه قائلًا: «واأسفاه! لقد أضعت وقتًا بهذا القدر، وكان الأولى تحرير إحدى المسائل الشرعية بدلًا من هذين المجلدين».

وبينما كان المنلا «مولانا علي» مغمومًا ومتحيرًا من كلام الوزير الأعظم «لطفي باشا»، وذهنه مضطربًا وحيرانًا فيما سيفعل في هذا الأمر، ظهرت في النهاية شفقة الباشا «الصدر الأعظم» صاحب الشأن، ويأمر أحد خدمه قائلًا: «فلتستلم هذه الكتب»، ويرسل أحدهما إلى رئيس خدم الباب لإيصاله إلى جناب السلطان، واحتجز النسخة الأخرى إلى جواره إشارة إلى قبوله إياها، وعندما ذهب المنلا أهداها إلى نديمه المعروف باسم «سكبان على جاوش»، وكان «رمضان زاده» المذكور أمين دفتر في ذلك الوقت؛ حيث كان حاضرًا في ديوان الباشا «باشا ديواني»، فقال عندما خرج «علي جاويش» المذكور: أخذت الكتاب المذكور منه بخمسين ذهبية، ولكن النسخة الأخرى وصلت إلى سعادة السلطان؛ وفي هذه الليلة يُسرُّ السلطان كثيرًا من مطالعة هذا الكتاب، وفي اليوم التالي يُرسل «مولا علي» إلى قضاء «بروسه».

ويسعى الوزير «لطفي باشا» عديم الهمة إلى عزله قائلًا: «هناك هذا القدر من الملازمين المستحقين للاهتمام، والمدرسين الفقهاء المنتظرين لهذا المنصب، فلتحسنوا على أحد هؤلاء بقضاء «بروسه»، ولنبحث عن وظيفة أخرى للمذكور «مولانا علي»»، إلا أن السلطان صاحب السعادة لا يتراجع عن إحسانه ويتفضل بالرد قائلًا: «إنك لا تعرف فضل المولا، ولكنني أعرف فضله».

ويروى أن والده الذي ذكر ترجمة المرحوم «طاشكبرى زاده كمال أفندي» في كتابه المعروف باسم «موضوعات العلوم» يقول: «إن الفيلسوف الهندي الذي يدعى «بيديا» ألف الكتاب «كليلة ودمنة»، وأهداه إلى «دبشلم» من ملوك الهند الذي ظل سلطانًا على هذه البلاد لمدة مائة وعشرين عامًا، وقد قام «دبشلم» المذكور برفع مرتبة «بيديا» بوضع تاج مرصع على رأسه وبتعيينه في صدر وزارته، وكان «بيديا» قد ألف الكتاب المذكور على ألسنة البهائم والطيور، وبخل وضن بحكمته وفنونه لإخفائها عن عوام الناس». ويروى أنه عندما سمع «نوشروان» عن كتاب كليلة ودمنة ولمعت في قلبه أشعة شمسه ومحبته، أرسل حكيمه المعروف باسم «برزه ويه» إلى بلاد الهند، وبذل أموالًا طائلة من أجل الحصول على هذا الكتاب المذكور وأعطى إلى الحكيم المذكور «برزه ويه» خمسين جرابًا؛ أي «كيس» في كل جراب عشرة آلاف دينار، وعدا ذلك، وفر لوازم وأدوات السفر وأحضرها وسلمها جميعًا إلى الحكيم المذكور «برزه ويه»، وحصل «برزه ويه» على الكتاب المذكور من حكيم بلاد الهند وذلل صعوبة فهمه بنقله من الهندية إلى الفارسية، وبعد ذلك وفي زمن خلافة المهدي قام «عبد الله بن هلال الأموازي» بترجمة الكتاب المذكور من الفارسية إلى العربية لـ «يحيى البرمكي» الذي كان وزيرًا للخليفة المهدي وهارون، وكان في الجود والكرم أيضًا ليس له نظير في العالم، وفي مقابل هذا العمل كافأه «يحيى البرمكي» بجائزة قدرها ألف دينار.

وعلى الرغم من أن «كتاب كليلة ودمنة» قد قدر تقديرًا عظيمًا منذ سنين طويلة، فإن «لطفي باشا» يتصرف ببخل وخسة، وإذا كان لم يرع مولانا المشار إليه ورغب عن تأليفه له، فقد ظل هو فقط فاتر العزم، أما السلطان صاحب السعادة والعارف بقيمة الأشياء،

وذو الخلق الحسن، فقد كان له نصيب في رعاية هذا العمل ورغبة في إتمامه، كما كان يؤمل منه ذلك، وظل ذكره الجميل باقيًا إلى يوم التنادِ.

ـ مولانا شمس الدين أحمد بن أبي السعود العمادي:

كان عالمًا وفاضلًا ونبيهًا، انطبق عليه قول القائل: «الولد سر أبيه»، حتى إنه قد فاق كل فضلاء عصره وتمكن من فضيلة الحديث من خلال تفوقه في ميدان البلاغة، وكان ملازمًا بعد إعادة أبيه، وبعد ذلك أصبح مدرسًا في مدرسة «رستم باشا»، ثم صار مدرسًا في مدرسة «خاصكي سلطان»، ثم وصل إلى إحدى مدارس «ثمانية».

ويقول المرحوم «علي أفندي»: «إنني استفدت منه استفادة كبيرة في المدارس المذكورة على مدى أربع سنوات، واشتغلت بالعلوم الجلية»، وكانت محفوظات «مولانا شمس الدين» من القصائد العربية لا تحصى، وكان له التفوق على علماء عصره في حسن التقرير والتحرير، ولكن كان متكبرًا جدًا وفظًا ومؤذيًا ومعجبًا بنفسه، ولهذا السبب ترك العديد من العلماء المتفوقين على أقرانهم مطالعة دروس علمه، إذ كان يجعل العديد من الفضلاء أمثال «بوزن زاده محمود أفندي» الذي كان أستاذه و«إبراهيم أفندي» الذي كان معروفًا باسم «مولا العرب» يمسكون الجزء في أثناء الدرس، وكانوا يستمعون بصدق مثل طلابه؛ لخوفهم على شرفهم، وكان يأمر بسب الأشخاص أمثال «شاه چلبي» و«جنابي زاده علي چلبي» من فضلاء العصر المعاصرين له جهرًا في مجلسه، وقد تصدى لهذا الجفاء المرحوم «قره چلبي» الذي كان قاضي «إستانبول» في ذلك الوقت قائلًا: «بينما كنت حاضرًا في مجلسه، أستمع للدعوى لم يخجل من فضل حضوري ولم يجعلني وكيلًا ولم يقل لي ما دام أنكم موجودون فلتتفضلوا بالفصل في الدعوى».

وتصرفه الأغرب من هذا أيضًا هو أنه أمر بإلقاء سجادة الفاضل «محشي سنان أفندي» قاضي عسكر الروم إيلي والذي كان مثل أبيه، في الجامع الشريف للسلطان محمد، ووضع سجادته هو مكانها حتى إنه كان يدعو بالسوء على القاضي المشار إليه، فلم يعش طويلًا، وعلاوة على ذلك، فقد كان منهمكًا في أنواع الفسق والفجور مع بعض أهل الهوى، وإن تألم خاطر والده العظيم بشدة عليه يتضح من التذكرة الشريفة التي كتبها إليه على سبيل النصيحة، وهذه صورة منها تنقل بتمامها؛ تبركًا وتيمنًا.

صورة التذكرة

سيدي ليكن معلومًا أن التمتع بمال وآمال ومنصب وجاه الدنيا بالنسبة إليّ قد مضى أوانه، كما أنه مضى أوانها بأن تكون لائقة أو مناسبة لهذا الفقير [أبو السعود]، ولكن بهجتي وسروري متعلقان ببهجتك وسرورك، وقد شرحت وبينت المكائد التي يفعلها الأشرار، ومع ضعف حالنا هذا، فقد أُختيرت بعض الأمور منها، لتكون حائلًا وعائقًا بيننا، ومع تراجع الحال، أسأل الله ألا تحل عليكم دناءة قدي وقامتي المكشوفة، فإنني على مدى ثلاثين عامًا كنت قائمًا على قرع باب وتضرع ومناجاة في بلاط حضرة الحق سبحانه وتعالى، وكنت أتحدث بالكلمات فائقة الإفاضة واللائقة بكل مرتبة من المراتب السنية، ولم أرفع جبيني من مكان السجدة والابتهال، وغالبًا لم أقصر في مراسم الأبوة، وربما خلاف إنني سامحت، بقدر ما يمكن، بخصوص الحقوق وإضاعة الحقوق التي ظهرت منكم بحكم حداثة السن، فإنني هذا العبد الفقير [أبو السعود أفندي] أقوم بالتدبير والاعتذار والتوبة والاستغفار اللازم لكم في هذا الأمر، ولم أخلُ من التضرع لحضرة الحق بخصوصكم ليل نهار، حتى أتمتع بمشاهدة أفعالكم الجميلة في حياتي، وأنتفع بآثار طاعتكم ومغانم ألوان عبادتكم بعد موتي.

والحمد لله سبحانه، فقد تفضل عليّ من كمال لطفه بالنعم التي لم أستحقها، وألقى بمحبتكم في قلوب الناس، وذكركم على ألسنتهم بكل ما هو جميل، وعلى هذا، يسر لكم هذا القدر من المناصب الجليلة، وجعل هذا الفقير [أبو السعود] موضع اغتباط كافة الناس، ومحسودًا من الخواص، وإننا على مداومة ومثابرة لشكر وحمد كل واحدة من هذه النعم العظيمة بقدر ما أستطيع، أما أنتم فخلاف مداومة الدراسة، فإنكم لم تخرجوا من عهدة شكر واحدة فقط، خصوصًا إنكم لم ترعوا الحقوق الجليلة لأبي أيوب الأنصاري رضى الله تعالى عنه، وإنني أخاف من ذلك ليل نهار، ومع هذا، فقد عَفا عنك حضرة الحق سبحانه وتعالى، ولم يقطع عنك إحسانه، ورفعك إلى أعلى درجات التدريس، وعهد إلى ذمتكم بمقام، هو خلافة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وهي أعظم أمانة وأجل مراتب الأمة، وأُعطيت إلى أيديكم زمام الشريعة، والحمد لله تعالى، إن رأيكم الرزين وفكركم الرصين صار مرجع العقلاء.

فكروا وانظروا: حينما يكون مقامكم هذا المقام؛ فهل يكون لائق بكم أنكم لا تخافون ولا تخشون من جناب حضرة الحق تعالى، وأنكم لا تخجلون من الفقير [أبو السعود] ومن جمهور الأكابر والأصاغر، وتنهمكون في القبائح الشنيعة والفضائح الكبيرة، التي يرتكبها فقط البغاة أرباب الهوى والشرور، والطغاة أصحاب الفسق والفجور، مع الأفراد الذين كانوا معتوهين وبلا عرض وشرف، وتأخذون إلى جانبكم الشخصي الوضيع وسيئ الأصل، وتعرضون عن مصاحبة الأشخاص الذين ينشرون آثار فضائلكم النافعة للدين والدنيا بين محافل الأكابر والأصاغر، وإنكم مصرون على أصناف الفسق والفجور ليل نهار، وتصبحون بلا عزة عند الله تعالى وعند الناس، وأن مساوئكم مشهورة بين كافة الناس، وفي نهاية الأمر، ينبغي عليكم ألا تضعوا وجهي الذي يتجه إلى بلاط الحق، وعيني التي أنظر بها إلى وجه القوم في التراب.

وعلى كل حال، فبينما كان الأعادي يتربصون بي على هذا النحو، لم يصل الفساد سالف الذكر إلى سنا منصب مقام الرئاسة، وتجلت عناية حضرة الحق تعالى وعم خيره، والآن فإنكم في مرتبة لو صدر أمر بتوقيع جزء من العقاب بكم، ففي تقدير أنكم لم تتخلوا عنها جميعًا، فإن أثره باق لفترة من الزمن، وبينما يكن الحال على هذا النحو، فمتى تُمحى آثار الكبراء؟! والآن فلتتلطف وتحسن [على أبيك أبي السعود] وأن تبعد ذلك الملعون من جانبكم والكافر من مدرستكم، وأن تتوب توبة نصوحة إلى حضرة الحق تعالى وأن تكون على كمال زهد وتقوى، وخلاف أعمال البر والحسنات، لا بد وأن يكون لباسكم وسائر هيئتكم وأصحابكم ملائمين ومناسبين للورع والتقوى، وعلى كل، يجب عليك أن تختار لنفسك وضعًا يقتنع معه كافة الناس بأنكم على سداد ورشاد، فلو أنه تكون هناك مائة سنة من لطفكم، فإنكم تكونون قد أديتم حقوق البنوة، ونسأل الحق تعالى أن يديم عمركم ودولتكم، آمين يا رب العالمين، وإلا فلو أنكم لم تتخلوا عن مقتضى رأيكم؛ فليكن في معلومكم يا سيدي أنني أُشهد حضرة الحق تعالى عليكم،

وأشهد الكرام الكاتبين، وأتركك لحضرة الحق تعالى، وأتبرأ منكم تمامًا، فقد نفد صبري ووهنت طاقتي.

وعلى هذا، ينبغي ألا يُظن أن هذه الكلمات صدرت بحكم استيلاء الغضب والتهور، أو بناء على سماع أشياء غير واقعة أو من المبالغة في استعمالتكم، فينبغي ألا يصدر الحكم على هذه الكلمات إلا فيما بعد، فإن الرأي الذي عُرض إنما هو مقرر ومحقق بعد سماع القبائح الصغيرة والكبيرة التي اقترفتموها من الأشخاص الذين رتبوا أنواع فسادكم، وبعد تأمل وتدبر واستخارة، فتأمل وتدبر ذلك حتى صباح يوم الجمعة، فلو أن القبول جائز عندكم، اعملوا بهذا؛ وإلا فعدم تغير الحال هو علامة عدم القبول؛ والله المستعان ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾.

وكان قد اهتم حضرة صاحب السعادة السلطان حامي العالم بتربية المخدوم[1] المذكور بالذات، حتى إنه على إثر تذكير حضرة المنلا في إحدى التذاكر الهمايونية، قام حضرة المنلا أيضًا بتسطير جواب عرض فيه الإخلاص والعبودية وكُتب وحُرر إلى هذا الموضع من صورة تلك التذكرة الفريدة بعينها بهذا التعبير.

من تذكرة حضرة المنلا

لو توجه الخدمات والمكافآت وفقًا لحقوق العناية والإحسان وأصناف الحماية الجمة التي كانت زائدة لا سيما على هذا الفقير العاجز وعلى أقربائه، فإن حقوق بركم وإحسانكم لا يمكن أن نقابله سوى بالشكر كما ينبغي، وليس ذلك يكفي، فإن أي فرد يمكن أن يؤدي ذلك، ولا سيما أن ملاطفة الهمم العالية بمهد قواعد العبودية، وعلاج العزائم الماضية يعالج معاقد الصلاح، وقد ذُكر الخادم «أحمد» ربيب الخدمة العلية وغريق بحر الإحسان، المطيع للآستانة عالية الشأن والخادم العاجز المخلص لها

(١) تطلق كلمة مخدوم على ابن الرجل ذي المكانة العالية، وفي أثناء الحديث، فمن أجل التعظيم، يقال: مخدوم بك .... ـ راجع قاموس شمس الدين سامي، مادة مخدوم.

والمخصوص بالرعاية منها، ذُكر في زاوية كتاب كريم وليس ذلك بقليل حتى أُذكر في هذه التذكرة الهمايونية بديعة الفنون، وليست ذرة قليلة حتى أذكر باللفظ ناثر الجواهر [الخارج من فم السلطان]، وبعد ذلك، فكيف يُتصور الخروج من عهدة شكر عناية الله التي وصلت إلى هذا القدر، ولكن لا يوجد شيء أصلًا خارج القدرة الظاهرة لحضرة الله تعالى ومرتب أطوار كن فيكون، غدت بحار كماله عن أن تلاحظها العيون وجلت سرادقات جلاله عن أن تنالها أيدي الأفكار والظنون، وإننا في تطلع وتضرع للبلاط حامي العالم في كافة الأوقات ولا سيما أعقاب الصلوات.

أما «عالي أفندي» فقد كتب أنه ابتُلي فيما بعد بالأفيون، وفي النهاية أصابه سوء المعدة والإسهال، وبينما كان عمره فيما دون الثلاثين، توفي في جمادى الأولى سنة سبعين وتسعمائة.

ـ المولى الفاضل محمد ابن شيخ الإسلام أبي السعود عليه رحمة الودود:

بعد أن اشتهر بين العلماء بالذكاء الحاد والفضيلة المطلقة، صار ملازمًا لـ «محيي الدين فناري»، وبعد ذلك داوم على الذهاب إلى مدرسة السلطان «سليم خان»، ثم أصبح متقلدًا قضاء الشام؛ وقد صادفت علاقته مع «شمس أحمد باشا» الذي كان أمير أمراء في ذلك الوقت حالة صفاء في البداية، ثم حدثت المخالفات والمنازعات بعد ذلك من الطرفين؛ حيث شكا بعضهم بعضًا، ومن ثمّ عُزل كلاهما، وبعد ذلك وُجه إليه أي إلى «مولى محمد» قضاء «حلب»، وبينما كان ربيع عمره يربو على الأربعين قليلًا، ترك قضاء العالم الفاني في سنة ٩٧١هـ[1]، وأصبح متقاعدًا في العالم الباقي.

في ذكر الفتوحات والحروب التي كانت في زمن دولته إجمالا

لما طغا وبغى الجركسي الصاغر المسمى «جانبرد الغزالي» الذي كان «أمير أمراء الشام»، أرسل العسكر مع الوزير «فرهاد باشا» إليه؛ حيث قام بقطع رأس «جانبرد الغزالي»، وأصبح سائر رجاله طعمًا للسيف وهدفًا للسهام والحراب، وتفاءل الجميع

(١) الموافق سنة ١٥٥٣م.

بهذا النجاح الواقع في ٧ من صفر سنة ٩٢٧هـ[١]، واعتبروه بداية قوة طالع سلطاننا صاحب السعادة.

وكان أحد المفسدين المعروف باسم «إسكندر»؛ قد استولى على ولاية «اليمن» إلا أن رجاله الذين كانوا يؤيدونه قتلوه، وقاموا بإرسال رأسه التعيس إلى باب الدولة، وأصبحت ـ بحمد الله تعالى ـ ولاية «اليمن» المعمورة من الولايات المحمية [أي الخاضعة للدولة]؛ وضُربت النقود وقُرأت الخطبة باسم السلطان سنة ٩٢٧ هـ[٢].

إجمالي فتوحات «بلغراد» ونواحيها والعزيمة الهمايونية لسلطان الإسلام في التوجه إلى هناك في ١١ من جمادى الآخرة سنة ٩٢٧ هـ[٣]

فتح قلعة «بكوردلن»[٤]

كان ذلك في غرة شعبان سنة ٩٢٧ [هجرية][٥]، عندما عاد السلطان «محمد خان غازي»[٦] من حصار «بلغراد» دون فتحها من قبل، وعلى إثر توجيه سنجق «سمندرة» إلى الأمير «إسحاق باشا أوغلى عيسى» أو إلى الأمير «شعبان»، كان قد أمر ببناء القلعة المذكورة؛ لتضييق الحصار على قلعة «بلغراد»، وظلت في يد المسلمين حوالي خمس سنوات؛ وبعد ذلك كان قد أرسل الملك الضال عسكرًا عليها وحقق نصرًا فيها، والآن فقد أصبحت ضمن قلاع المسلمين مرة أخرى بمساعي «أحمد باشا» أمير أمراء الـ «روم

(١) الموافق ١٧ من يناير ١٥٢١م.
(٢) الموافق سنة ١٥٢٠-١٥٢١م.
(٣) الموافق ١٩ من مايو ١٥٢١م.
(٤) تقع في بلاد الصرب. و«بكوردلن» هو اسم قلعة «شباج» في اللغة التركية والتي أقامها العثمانيون في بلاد الصرب.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 621.

(٥) الموافق ١٧ من يوليو ١٥٢١م.
(٦) المقصود به السلطان محمد الفاتح، فاتح القسطنطينية.

إيلي» في ذلك الوقت، وهي مذكورة إلى الآن بالاسم الذي وضعه لها الكفار في لغة كفار «سرم» و«أوزرنيق» وهو «شباج»؛ حيث وجدته محررًا في تواريخهم، وقد سجلوا ذلك بقولهم: «وضع هذا الاسم مشتقًا من اسم الشخص الذي بناها ويدعى «شعبان».

فتح قلعة «زمون»[1]

تم ذلك في سنة ٩٢٧ هـ[2]، لقد قام الملك الضال بتعيين حوالي ثلاثمائة جندي مسلح بالبنادق لمحاصرة قلعة «بلغراد»، وعندما وصل هؤلاء إلى القلعة، رأوا أن الأمير «خسرو» أمير «سمندرة» قد حاصر «بلغراد» بموجب الأوامر السلطانية، فدخلوا قلعة «زمون»، ولما رأوا أنه جاء أيضًا المرحوم الوزير الأعظم وقام بمحاصرة «بلغراد»، يأسوا من حصار القلعة، وفى ذات يوم يأتي واحد منهم ويخبر أن الكفار فكروا في الخروج من القلعة والهروب إلى جانب الملك مرة أخرى.

وفى الحال، يدفع حضرة الوزير الأعظم خمسمائة جندي من الإنكشارية إلى «خسرو بك»؛ ويرسله لمحاصرة القلعة، وعندما قام بإطلاق عدة مدافع، وبينما كان قائد الأشقياء الذين أتوا يناقش أحوال القلعة مع «خسرو بك» من البرج، ينهار ذلك البرج بعناية الله ويسقط قائدهم إلى الخارج؛ وفي الحال يحيط به الغزاة ويأسرونه، وعندما يقف المحاربون وأمير القلعة على حقيقة الوضع، يسلمون القلعة، وعندئذ يُقتل معظمهم، وأخيرًا، يخرج الثلاثمائة كافر مستسلمين، وتعرض هذه التطورات على السلطان، ولكن لم يستحسن السلطان صاحب السعادة الأسرى قائلًا: إن تسليمهم من قبيل اليأس، ويُحملون إلى الجزيرة المواجهة لبلغراد وأصبحوا جميعًا طُعمًا للسيف .

---

(١) تقع تجاه بلغراد .

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 621.

(٢) الموافق سنة ١٥٢١م.

فتح قلعة «إسلانقمن»(١)

في سنة ٩٢٧هجرية، لقد فتحت في السنة المذكورة قلعة «قورنيك» و«إيرشوه» وقلعة «إين» وقلاع أخرى، فعلى إثر وصول أمير أمراء البوسنة «يحيى باشا أوغلى كوچك بالى بك» إلى «إسلانقمن»، وترك الكفار للقلعة وفرارهم منها، قام بوضع الجند بداخلها؛ حيث جعلهم يحكمون السيطرة عليها، وبعد ذلك وُجه للإغارة على نواحي «سرم» و«يوزعاه» مع فرقة من جند طائفة «آقينجي»؛ أي المهاجمين، وكانت فرقة المهاجمين في هذه الحملة التي دليلها النصر عبارة عن فيلقين، عبر فيلق منهم مع «مخال أوغلي محمد بك» من ولاية «الأفلاق»، وكلفوا بالهجوم على نواحي «أردل» وأطراف «طمشوار»(٢)، وأُمر الفيلق الآخر أيضًا بأن يكون مع الجيش الهمايوني تحت قيادة «عمر بك أوغلي حسن بك»، فجاءوا إلى الجيش الهمايوني مغيرين على الضواحي التي كانت في الأطراف والنواحي؛ وأسروا الحوريات البديعات البهاء والمستديرات المحيا كالمُشترى؛ حيث كان عددهن أكثر من أن يُحصى، وبإغارة جند فرقة المهاجمين على أطراف القلاع المذكورة، أخلى الكفار قلاعهم وفضلوا الفرار.

فتح قلعة «بلغراد» الحصينة البنيان

في يوم الخميس ٢٦ من رمضان الشريف سنة ٩٢٧هـ كان السلطان صاحب السعادة وعالي الوقار قد أرسل من قبل جاوشًا كسفير إلى الملك الضال، ولما أُهين الجاوش إهانة شديدة هناك، خرج السلطان إلى هذه الحملة الهمايونية بنية الإغارة على تلك البلاد حتى يصل إلى «بدون» التي كانت عاصمة للملك، وقد فُتحت «كوردلن» باقتراح أمير الأمراء، ثم أقيم بها جسر، ومن ثم اقترح على السلطان صاحب السعادة

(١) قلعة تقع في «سرم» تجاه بلغراد.
- Danismend : Adı geçen eser، S. 611

(٢) تقع فى القسم الجنوبي من بلاد المجر وهي أيضًا تقع فى جنوب شرق « بشته» بحوالي ٢٥٥ كيلو مترًا.
قاموس الأعلام: ٤ / ٣٠١٧.

الوصول بالفتوحات حتى «بدون»، وكان السلطان قد رجّح هذا الرأي؛ نظرًا لموافقة الوزراء الآخرين على هذا الاقتراح، ولكن عارض الصدر الأعظم «بيري محمد باشا» كثيرًا هذا الاقتراح بقوله: «قلعة حصينة مثل «بلغراد» خلفنا ليس بالرأي الحسن»، فإنه لم يصغ له أحد، وفي الوقت الذي كان فيه قد حاصر «بلغراد»، صدر الأمر الشريف والخط الهمايوني إلى الصدر الأعظم برفع الحصار مرة أخرى، والقدوم إلى «بكوردلن»، ولكن تأخر «بيري محمد باشا» يومًا أو يومين بأعذار واهية، إلا أن الوزير «مصطفى باشا» قام بعبور النهر لشن الهجوم، وما إن نزل أمام «بلغراد» حتى رفع الحصار عن القلعة على إثر وصول خط شريف آخر، وبينما كان الصدر الأعظم يقوم بسحب مدافعه ووضعها في السفن، وقف «مصطفى باشا» على الوضع، ولما كان «بيري محمد باشا» يرى أن تقديم فتح «بلغراد» على أي شيء ضرورة مهمة، أوقفه «مصطفى باشا» بقوله: «فلتتوقف حتى أصل إلى السلطان صاحب السعادة وأعرض عليه حقيقة الوضع»؛ وبعد أن وصل الوزير «مصطفى باشا» إلى حضرة السلطان، رضي السلطان بتدبير «بيري باشا»، وهكذا عبر السلطان صاحب السعادة من «بكوردلن» ونزل بالقرب من «زمون»، وبناءً على ذلك، دخل «مصطفى باشا» إلى الخندق الذي كان به الوزير الأعظم؛ أما الوزير الأعظم فقد قام بتلغيم الجانب الأعلى من القلعة، وأقام أيضًا «أحمد باشا» أمير الأمراء خندقًا في الجزيرة؛ وبدءوا بضرب القلعة بكمال الجد والإقدام، وبفضل الله تعالى فُتحت القلعة بطلب أهلها الأمان؛ وسُمح للذين يريدون الذهاب من أهلها بالانصراف، وأُبقي الذين قبلوا دفع الجزية في القلعة، وفي الممالك السلطانية.

ولكن الكفار كتبوا في تواريخهم: أنه كان هناك فردان عديما الدين من طائفة الفرنك[1] بيننا، هربا من القلعة والتحقا بأهل الإسلام، فدفع المسلمون هذين الشخصين لتلغيم القلعة، وضربها من الجزيرة، ولم يكن موجود بالقلعة أكثر من سبعمائة رجل، ونتيجة للحصار كان يتزايد بلاء المجاعة ونقص المؤن، وأُجبرت القلعة على التسليم، فإنهم

---

(١) هو الاسم الذي أطلق على أهالي أوربا في لغات الشرق وتعرف في العربية باسم «إفرنج».
ـ قاموس الأعلام: ٥/ ٣٣٩٧.

عادوا مرة أخرى ولم يرغبوا في التسليم وقدموا الأعذار قائلين: لقد أُسر المدافعون عن القلعة.

وبعد الفتح وجّهت «سمندرة» إلى «كوچك بالى بك»، والبوسنة إلى «خسرو بك»، وعلى هذا بُدّلت مناصبهم، وتم صرف عشرون ألف ذهبية من الخزينة العامرة نقدًا من أجل تعمير «بلغراد»، وتم تعميرها وبناء دفاعاتها في زمن وجيز، وقفل السلطان عائدًا من هذه الحملة إلى عاصمة الدولة في ١٧ من ذي القعدة سنة ٩٢٧هجرية(١).

إجمالي الحملة الهمايونية على جزيرة «رودس»

لقد كانت العزيمة الهمايونية لسلطان الإسلام للخروج لهذه الحملة في ٢٠ من رجب المرجب سنة ٩٢٨هجرية(٢)، وكان فتح قلعة «رودس» في ٥ صفر الخير سنة ٩٢٩هجرية(٣)، ففي البداية عُين الوزير الثاني «مصطفى باشا» سردارًا على الأسطول الهمايوني الذي كان مكلفًا بالتوجه لحملة «رودس»، فركب سفينة من نوع «قادرغة» قبل السلطان المغفور له والمنصور بعشرة أيام، ففي اليوم العاشر من رجب سنة ٩٢٨هجرية(٤)، قام الوزراء والوكلاء وأعيان العساكر والأمراء الذين أتوا لتوديعه، بتشييعه، ومن ثم توجه صوب المطلوب متوكلًا على الله تعالى.

وكان قائد «گليبولي» في ذلك الوقت هو «بلاق مصطفى باشا»، فعندما اقترب الأسطول الهمايوني من «گليبولي»، التحق المذكور والسفن التي أحضرها بالعساكر المنصورة؛ حيث وصلوا جميعًا إلى جزيرة «ساقز»(٥) طاوين المنازل وقاطعين المراحل، وكانت جزيرة «ساقز» حتى ذلك الوقت لا تزال في أيدي الكفار، فرست السفن تجاهها،

(١) الموافق ١٩ من أكتوبر ١٥٢١م.
(٢) الموافق ١٥ من مايو ١٥٢٢م.
(٣) الموافق ٢٤ من ديسمبر ١٥٢٢م.
(٤) الموافق ١٥ من مايو ١٥٢٢م.
(٥) تقع على «بحر الجزر»؛ أي بحر «إيجه» تجاه جزيرة «چشمه».

وأُكملت بعض المهمات خلال عدة أيام، ثم تحركت السفن، واصطف موكبها يمينًا ويسارًا، وأقلعت السفن بمساعدة الرياح منتج النجاح متوجهة إلى الجزيرة المذكورة.

وعندما نزل السلطان صاحب السعادة المؤيد بالنصر إلى «كوتهية» من ناحية البر، بينما كان متوجهًا صوب الهدف المقصود طاويًا المنازل وقاطعًا المراحل، استقبله «قاسم باشا» أمير أمراء الأناضول وأمراء الإيالة المذكورة والجنود المنتصرون، وفي اليوم التالي تظاهروا بتقبيل تراب قدم السلطان، وعبر جند الروم إيلي أيضًا من ممر «گليبولي»؛ حيث التحق «إياس باشا» الذي كان أمير أمراء الروم إيلي مع أبطال الروم إيلي بالجيش السلطاني في يوم ٩ من شعبان ٩٢٨هجرية[١]؛ وفي اليوم التالي سَعِدَ هؤلاء أيضًا بشرف تقبيل تراب قدم السلطان، وبعد ذلك عبروا واجتازوا جبالًا ووديانًا كثيرة، وعندما تم النزول إلى جوار الحي المعروف باسم «يكي شهر»[٢]، أتى رجال الأمير «محمود بك» أمير سنجق الهرسك الواقع على حدود البوسنة، وأعلنوا البشرى بأن قلعة «إسقرادين» الموجودة بقرب الحدود الإسلامية قد فُتحت.

فتح القلعة المذكورة المقصود «إسقرادين»

وقد تم ذلك سنة ٩٢٨هـ[٣]، وبينما كان البطل المشهور باسم «بكتاشي ويوده» [فيفوده] من رجال الأمير المشار إليه [المقصود محمود بك]، يقوم بالهجوم على قلعة «إسقرادين» مع بعض غزاة الحدود الأبطال، ومصرًّا على فتحها والاستيلاء عليها، فعلى إثر سماع «بكتاشي ويوده» أن فرقة من الملاعين قد جاءوا لمساعدة المشركين، فإنه يعدّ كمينًا ويضرب عليهم كلما تحين الفرصة، ويحارب ويقاتل بتلك الدرجة التي أثنت عليها ومدحتها ملائكة السماء، وأصبح عون الباري تعالى مؤيدًا للمسلمين؛ فشتتوا شمل

(١) الموافق ٤ من يوليه سنة ١٥٢٢م.
(٢) مركز قضاء في ولاية بورصه.

- Danişmend: Adı geçen eser، S. 514.

(٣) الموافق سنة ١٥٢٢م.

الكفار، ومن ثم وفقوا في فتح القلعة، وقد شاهد هذا الفقير كثير التقصير [المقصود إبراهيم بچوي] القلعة المذكورة، فهي تقع فوق صخرة على طرف ميناء، وهى ضيقة جدًا حتى إنها لا تسع حتى ثلاثة منازل، وكان يقيم فيها زمن الكفار حوالي مائة أو مائتين من اللصوص؛ حيث كانوا يهجمون بصفة دائمة على أهل الإسلام، أما الآن فلا يقيم بداخلها أي فرد سوى حارسها.

مقتل «شهسوار أوغلو علي بك» مع أولاده

وقع ذلك في سنة ٩٢٨ هـ، كان مقتل المذكور الخبر السار الذي وصل هذا المنزل؛ أي منطقة «يكي شهر»، فعندما توجه السلطان حامي العالم إلى الحرب، أُرسل «فرهاد باشا بحجة حماية الطرف الآخر أي الأناضول؛ ولكن كان الهدف الحقيقي هو القضاء على المذكور، وكان «شهسوار أوغلو علي بك» قد اغتر غرورًا عظيمًا؛ بسبب استقلاله بمملكة «ذو القدرية» ولرعاية السلطان الدائمة له، وكان كلما جاء الشاكون المرة تلو الأخرى، وأرسلت إليه الأوامر الشريفة لدفع هذه الشكاوى، لم ينصع أو يَنْقَدْ لهذه الأوامر؛ وربما كانت هذه الأوامر تبعث على ازدياد تجاوزاته، وهكذا عندما وصل الباشا المشار إليه «فرهاد باشا» إلى قرب «سيواس»، دعا المذكور «شهسوار أوغلو علي بك»؛ بحجة عقد المشاورة معه؛ حيث أُنهي أمره مع أولاده في خيمة «فرهاد باشا».

فتح قلعة «هلكه»

تم الفتح في ٢٣ من شعبان سنة ٩٢٨هـ[1]، قام «مصطفى باشا» فسيح القلب كالبحر، بطرح شراع النصر في البحر؛ وبينما كان متوجهًا صوب الهدف بسرعة، كُلف المجاهد الشجاع المسمى «محمود رئيس» من غزاة البحر بالاستيلاء على جزيرة «هلكه» من جزر «رودس»؛ نظرًا لأنها كانت تعترض طريق الأسطول العثماني، وكانت وكرًا

(١) الموافق ١٨ من يونيه ١٥٢٢م.

وموطنًا للكفار، فأقلع بالسفن التي عينت له، وعندما وصل إلى الجزيرة المذكورة، وبعد يوم واحد من الحرب والقتال، تيسر بفضل الله تعالى فتح هذه القلعة، وتسخيرها، وهكذا دخلت هذه القلعة أيضًا ضمن الحصون الإسلامية.

وعندما جعل «مصطفى باشا» صائب الرأي سفنه مجموعات مجموعات واقترب إلى جزيرة «رودس»، شدد على مجدفي سفنه بألا يبالوا بمدافع وبنادق الكفار، وليخترقوا نيران المدافع، وتمر حجارة المدافع المقذوفة من فوق صوار وشرع سفن المسلمين، ولم تلحق بها أي ضرر، ولما رأى الكفار أن مدافعهم ليست مؤثرة، صرفوا النظر عن إطلاق المدافع، وتجمعوا داخل أسوار القلعة وأبراجها؛ وانشغلوا بمراقبة الأسطول العثماني، وكانت الرياح في ذلك الوقت لها دور فعال، وفي لحظة واحدة طاروا كالطائر المحلق عاليًا واخترقوا الحصار؛ حيث دخلوا الميناء الذي يعتقد أنه مرسى سفن، وفي هذه الليلة، استراحوا هناك؛ ومن ثم انشغل كل شخص بذكر اسم الله الأعظم: «يا فتاح».

وفي الصباح الباكر لليوم التالي، أنزلت الزوارق والقوارب الخفيفة التي كانت موجودة في السفن إلى البحر؛ وبهذا وضع الغزاة أقدامهم على البر، وعلى الفور سعوا إلى إخراج المدافع من السفن؛ وأعدت أرصفة الموانى وأكملت الاحتياجات الأخرى؛ وعمل الباشا المرحوم في ذلك ليل نهار؛ وبدءوا في توجيه مدافعهم التي خرجت إلى البر صوب القلعة، وكانت دفاعات القلعة منيعة؛ حيث اضطر غزاة الإسلام إلى حفر الخنادق في الأرض، وحملوا المدافع إلى قرب القلعة.

ومن ناحية أخرى، سار حضرة السلطان حامي النصر والذي لطفه وإحسانه كالبحر مع العسكر الذين يشبهون البحر في أمواجه المتتالية في غير نهاية؛ وعندما تفضل بالنزول إلى المنزل المعروف باسم «بوزدوغان صويى»، عاقب بالإعدام في ذلك المنزل الشخص المعروف باسم «قره قاضي» على إثر رفع أصحاب الشكاوى شكواهم منه، وقد اغتاب «أحمد باشا» الذي كان واحدًا من الوزراء الذين جلسوا على صدر الوزارة العظمى، والذي كان قد حظي من قبل بمنصب وزير وصاحب نشان، وكان شخصًا متشبثًا برأيه

ومغرورًا، اغتاب «مصطفى باشا»؛ فاستصدر فرمانًا بأن يباشر بنفسه كل الأمور، وأن يكون سردارًا على كل الغزاة مدعيًا: «بأن مصطفى باشا ليس أهلًا بشئون القلعة التي كلف بها»، وبادر بإرسال الأمر الشريف في هذا الخصوص.

وبعد ذلك وصل غزاة الإسلام من هذا المنزل إلى ميناء «مرمروس»[1]، ومن هناك شرع في العبور إلى الجزيرة، وفي اليوم الرابع من شهر رمضان المبارك ٩٢٨ هـ[2]، دخل السلطان صاحب السعادة وسامي الوقار إلى الجزيرة، وكان اليوم التالي يوافق الخامس من رمضان الشريف؛ حيث عُمرت المدافع الموجودة في الخنادق بالنيران وبدأت في ضرب القلعة.

وصفوة القول؛ فليس هناك داع للدخول إلى التفصيلات هنا، فقد ضربت القلعة المذكورة لمدة خمسة أشهر كاملة، وقدّ كان المسلمون يحرمون على أنفسهم الراحة والنوم ليل نهار، وسعوا وجدوا بالقدر الذي لم يعلم حتى ذلك الوقت أن سعيًا واجتهادًا هكذا قد حدث في سبيل أي قلعة قط، حتى إنه مشكوك في أن يحدث مثله فيما بعد، وقد شنت أكثر من مائة هجمة، حتى أصبحت أبراج وأسوار القلعة مصبوغة باللون الأحمر القاني من دم الشهداء الذين كان يتزايد عددهم في كل هجمة عن العد والإحصاء، وفي النهاية زرعت الألغام في أماكن كثيرة، وبدأ غزاة الإسلام في هدم جدران القلعة بالكواريك وآلات الحفر.

وخلاصة القول؛ إنه لما تم التجهيز للهجوم على هذا النحو، طلب الكفار الذين مأواهم النار الأمان، ومن ثم ففي اليوم الخامس من صفر سنة ٩٢٩هـ[3]، اقتحمت فرقة الوزير الأعظم، وفرقة الوزير الثالث «أحمد باشا» القلعة، ودخل القلعة في ذلك اليوم أيضًا أغا الإنكشارية، ولم يتيسر هذا الفتح العظيم لأي من السلاطين المتقدمين،

---

(١) يقع في سنجق «منتشا» التابع لولاية «آيدين» وتقع تجاه «رودس».
ـ قاموس الأعلام: ٦/ ٤٢٦٦.
(٢) الموافق ٢٨ من يوليو ١٥٢٢م.
(٣) الموافق ٢٩ من ديسمبر ١٥٢٢م.

وبحمد الله تعالى يسر هذا الفتح لحضرة سلطان الإسلام، وأرسل المبشرون إلى أقاليم الربع المسكون، وأرسلت إليها جميعًا خطابات البشرى بالفتح لإبلاغها بأخبار النصر.

فتح قلعة «إيلكه»[1]

فتحت بعناية الله في ١١ من شوال سنة ٩٢٨هـ[2]، وقد نصبت رايات الإسلام على أبراجها، وأصبحت الجزيرة بكل توابعها ولواحقها من جملة أراضي الدولة، وكان «محمود رئيس» السالف الذكر قد أصيب برصاصة بندقية أثناء الهجوم على القلعة المذكورة؛ ودخل جنة الخلد مع سائر الشهداء، رحمة الله تعالى عليه.

فتح قلعة «أنجيرلى»

في ١٤ من شوال المكرم سنة ٩٢٨ هجرية[3]، كانت جزيرة واسعة من جزر «رودس» ومقرها وضياعها ورعاياها ومزارعها كانت كثيرة، وقلعتها كانت محكمة وذات أسس حصينة، وأبراجها كانت تعانق الأفلاك، وعلى إثر رؤية وسمع أهلها بالحروب التي وقعت في «رودس»، أسرعوا في طلب الأمان من السلطان حاكم العالم، وأحضروا مفاتيح القلعة وسلموها.

فتح قلعة «تختالى»

وهى حصن حصين يقع في جزيرة «رودس»، ولما كانت أحوال «رودس» موجب عبرة لأهالي هذه القلعة، فقد أحضروا مفتاحها، والتزموا بدفع الخراج.

---

(١) تقع شمال غرب «رودس».

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 487.

(٢) الموافق ٣ من سبتمبر ١٥٢٢م.

(٣) الموافق ٦ من سبتمبر ١٥٢٢م.

جزيرة «إستانكوى»

وقد أحضر أهلها مفاتيح قلاعها؛ حيث فتحت كافة قراها وضياعها وتمت السيطرة عليها.

قلعة «بودرم»

وهذه القلعة أعلنت أيضًا الطاعة والخضوع مع سائر الجزيرة؛ حيث فُرضت الجزية والخراج على رعاياها وسكانها، وبعد هذه الفتوح والغزوات، نزلت الخيمة السلطانية إلى ميناء «مرمروس»، وفى اليوم التالي قام اللعين المدعو «مقال ماستورى» الذي يحمل لقب أمير قلعة «رودس» بتقبيل يد السلطان في الديوان الهمايوني لمنحه الإذن بالرحيل، وقدم عددًا من السبائك الذهبية إلى الخزينة العامرة كهدية، وفى هذه الليلة ركب السفينة التي أنعم بها عليه بصحبة الكفار الذين مأواهم جهنم المأذون لهم بالرحيل؛ حيث اتجهوا إلى بلاد الكفر، وفى اليوم التالي الذي كان يوم الجمعة وعيد المؤمنين والموافق أربعة عشر من شهر صفر، الموافق الثاني والعشرين من موسم الأربعين[1]، أقام السلطان فاتح الجزر صلاة الجمعة في الجامع الجديد مع جمهور العلماء والوزراء وعامة الأمراء وأعيان الجند المؤيدين بالنصر، وبعد ذلك أعطي إذن الانصراف للجند الذين كان النصر دليلهم وشعارهم.

النزول الهمايوني إلى السراي العامرة

تم ذلك في أواخر ربيع الآخر سنة ٩٢٩هجرية[2]، وفى ٧ من ذي الحجة سنة

(١) هو تعبير استخدم بخصوص الأربعين يومًا التي تمتد من التاسع من كانون الأول إلى السابع عشر من كانون الثاني والتي تعد أبرد أوقات الشتاء، ويقال: «خماسين» على الخمسين يومًا التالية لذلك.
- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. I، S. 542.

(٢) الموافق ١٦ من مارس ١٥٢٣م.

٩٢٨هجرية[1] أُرسل «مصطفى باشا» إلى إيالة «مصر»، ففي أثناء حصار «رودس»، وفى اليوم الثاني من شهر ذي الحجة سنة ٩٢٨هجرية[2]، وعلى إثر مجيء زورق من «مصر» المحروسة، ووصول خبر انتقال «خير بك» والي القاهرة إلى دار القرار بأمر الحي ذي الجلال، أمدّ الوزير المشار إليه بعشر سفن من نوع «قادرغه»، وأرسل صوب «مصر»، وعندما دخل «قاهرة مصر» قاطعًا المنازل وطاويًا المراحل، استقبله أعيان المدينة؛ حيث عم الفرح والسرور.

ولكن الشراكسة الأبالسة، كانت العداوة والحقد والحسد قد استقرت في قلوبهم، فبينما يعيشون في حالة من السكون في عصر «خير بك»؛ بسبب كونه من جنسهم، فإن قدوم الوزير عالي الشأن من بلاد الروم إلى عرش «مصر» أكد حرمانهم تمامًا من ملك «مصر»، ومن ثـمّ اتفـق الأراذل المعـروفون باسم «قانصو» ـ رئيس الإسطبل الكبير ـ لـ «خير بك»، و«مهربابى» خازن «خير بك»، و«بوادق» رئيس فرقة التوفنكجية؛ أي صناع السلاح ومعمريه لـ «خير بك»، وأرادوا أن ينصبوا «قانصو» سلطانًا عليهم، وأغووا وأضلوا الكثير من أصحاب الفساد بحيث قرروا القيام بالهجوم أثناء عقد الباشا الديوان، فيقتلونه على حين غرة، ورأوا ضرورة قتل العثمانيين الموجودين في «أسواق مصر»، دون أن يمهلوهم الاجتماع في مكان ما، ولكن على إثر إفشاء أحد هؤلاء لهذا المخطط، قبض على المذكورين، وأعدم اثنان منهم على مسمع ومرأى من الناس.

كما أنه كان هناك فاسدٌ يعرف باسم «جانم كاشف» من الأعيان الذين اشتركوا في هذا التدبير وكان مشهورًا بكثرة الأتباع والأموال، حتى إنه أصبح أميرًا للحجاج عدة مرات، فما إن سمع أنه انكشفت خططهم من سر الخفاء حتى رفع راية الخيانة، وجمع ما قدره خمسة أو عشرة آلاف مفسد من عصاة الشراكسة، ومن أجلاف البدو، وأظهر أيضًا «خداويردى» كاشف «طنجة» خيانته التي كانت طبعًا فيه، والتقى بالخائن

(١) الموافق ٢٨ من أكتوبر ١٥٢٢م.
(٢) الموافق ٢٣ من أكتوبر ١٥٢٢م.

المذكور «جانم كاشف» مع الكثير من المفسدين، ومن ناحية أخرى، أعلن «إينال» كاشف الغربية العصيان في الحال أيضًا مع أربعة أو خمسة آلاف من أهل الفساد كان قد جمعهم من المركز المعروف بـ «المحلة الكبرى»، قاتلًا الرجال وسابيًا الأموال، وأرسل الخطابات إلى أعيان المشايخ الذين كانوا مشايخ العربان وإلى سائر أهالي الأمصار والبلاد، وأسقط عن الرعايا خراج عام كامل، وبتخفيضه الخراج الذي سيؤخذ من بعد إلى النصف، أغوى وأضل عامة الناس وقام بالعصيان كل من كان موجودًا من أصحاب الفتنة والفساد؛ الأمر الذي أدى إلى حالة من الضعف والاضطراب في مصر، حتى إنه أُغلقت جميع الطرق، وقطعت علاقة الولايات البعيدة والنواحي بمصر، وقُتل التجار والسباهية من العثمانيين الذين كانوا موجودين في القصبات والقرى، واستشهد أيضًا الذين أتوا لزيارة كعبة الله الشريفة وانتقل الهرج والمرج إلى خارج مدينة القاهرة، وفقد الأمن والأمان تمامًا.

وعلى هذا رأى مصطفى باشا صافي الضمير أن مواجهة العسكر الموجودة بمصر لهذا القدر من الأعداء وقتلهم إنما هو أمر عسير، فعمل على استمالة أعيان العربان وأمراء الأعراب لتفرقة أعوانهم وأنصارهم، وكتب لهم الكتب المتضمنة العهود والشروط؛ حيث أحضرهم إلى مصر المحروسة وأخلع على كل واحد منهم الخلع الفاخرة، وغمرهم بأنواع اللطف والاهتمام، وخفف الخراج عن كل واحد منهم؛ الأمر الذي أدى إلى اطمئنان أعيان العربان، وبعد ذلك حلفوا على القرآن الكريم بإعلانهم الطاعة والانقياد، وعدم العصيان.

ولما سمع جناب الباشا بوصول كل واحد من هؤلاء إلى بلاده، وأنه انقطعت سلسلة اجتماع العصاة، بتفريق أتباعه أي أتباع العاصي، عين «خضر أغا» أغا فرقة «خدم الباب» قائدًا عامًا للعسكر، وعندما أرسله مع حوالي ثلاثة أو أربعة آلاف من جند فرقة الإنكشارية المسلحين بالبنادق، بصحبة بقية العسكر على العصاة، وبعد جدال وحرب وقتال لعدة مرات، ألحقت بزمرة الأشقياء الهزيمة والانكسار بفضل الله تعالى، وتحقق النصر لرجال الدولة، وزين الرأس التعيس للشقي الذي ادعى السلطنة بالرمح والسنان، وكان ذلك في أوائل شعبان المعظم سنة ٩٢٩هـ[1].

(١) الموافق ١٥ من يونيه ١٥٢٣م.

تعيين المقبول والمقتول «إبراهيم باشا» وزيرًا أعظم

إن مساعي وجهود المرحوم «بير محمد باشا القرماني» الذي عين وزيرًا أعظم علاوة على إحسان إيالة «الروم إيلي» عليه في شعبان سنة ٩٢٩هـ(١) أثناء حرب «رودس» لم تقابل بالشكر بشكل مناسب؛ بسبب إحاكة أعدائه للفتن ضده، فبعد أن وصل إلى الآستانة السعيدة، صدر الأمر بإجراء تحقيق ضده؛ نتيجة لدسيسة الوزير «أحمد باشا» الذي ادعى أن «محمد باشا» أخذ أموالًا لا حصر لها من الفقراء الذين نفوا من «مصر» في وقت سابق، وأذن لهم بالعودة إلى أوطانهم أثناء جلوس السلطان على العرش.

ولما كان «فناري محيي الدين چلبي» قاضي عسكر، فقد قام بعملية التحقيق، وقد انخدع المذكور «فنارى محيي الدين» بوعود «أحمد باشا» الكاذبة، وفُتن برعايته واهتمامه الذي وعده بها «أحمد باشا» عندما يصير وزيرًا أعظم بحسب الطريق المعمول به في الدولة، فحطم نفسه في الدنيا والآخرة بإصدار العديد من الأحكام المخالفة للشرع، وعلى الرغم من كل هذا فإنه قد حُرم «أحمد باشا» من تحقيق هدفه، وأحسن بمقام الصدارة ومسند السعادة إلى «إبراهيم باشا» المشار إليه الذي أضيفت إلى وظيفته «رئيس حجرة» في الحرم الهمايوني وظيفة «إيچ شاهنجيلر أغاسى»؛ أي أغا مربي الصقور بداخل الحرم، وعلى هذا شمل العالم بشرى البشارة العظيمة، وأحاط الزمان والمكان السرور الكامل والسعادة العامة، وبذلك وجد، سرير السعادة وديوان العدالة رونقه وجماله .

إسناد إيالة «مصر» للخائن «أحمد باشا»

عندما صدر الأمر باستحقاق «إبراهيم باشا» لخلعة الوزارة السنية المناسبة لقامته في ٢ من رمضان سنة ٩٢٩هـ(٢) شل جواد فكر الخائن المذكور، وأصابه الغم وحزن حزنًا شديدًا، وبعد أن قضى الوزير الثاني «مصطفى باشا» على الأشقياء في «مصر» أعيد إلى

(١) الموافق ١٧ من يونيه ١٥٢٣م.
(٢) الموافق ١٥ من يوليو ١٥٢٣م.

الآستانة السعيدة؛ حيث عين مكانه «گوزلجه قاسم باشا»، ومن ناحية أخرى، لما خسر الخائن المذكور منصب الوزارة، فقد طالب بمصر، وكان كل أهل الديوان قد أصبحوا عاجزين ومتأذين من يده ولسانه، ولهذا أراد كل شخص إبعاده إلى «مصر»، ولما عرض الأمر على السلطان حامي العالم، قام بالإحسان عليه بإيالة «مصر».

وبعد أن وصل إلى «مصر» لم يكن مسلكه، وتصرفاته مشابهة لسلوك وتصرفات أمراء الأمراء الآخرين، فمنح الصلاحيات وأعطى الاهتمام لأشقياء الشراكسة، وحرص على إهانة، خدم السلطان واستحقارهم، وسعى لتغيير بعض القوانين وتبديلها، ولوائح المعاملات، فلما وصل هذا الخبر السيئ العاقبة إلى الآستانة، صدر الأمر الشريف بإحضار الخائن المذكور مع تبشير الأمير الكبير المدعو «قره موسى» من الأمراء ذوي الشأن في «مصر» بإيالة «مصر».

ولكن كان المذكور «أحمد باشا» يضع رجاله الذين يعتمد عليهم في كل الموانى؛ حيث يتحرون أمر القادمين إلى الإيالة والمسافرين منها، فيصادفون الجاوش الذي أتى بالأمر ويحضرونه، فيقوم «الخائن» بالقبض على ذلك المسكين، وعلى «قره موسى بك» أيضًا، ويرفع راية العصيان، ويأمر بضرب النقود وقراءة الخطبة باسمه، ويجعل الأمير المغوار المدعو «محمد بك» الذي يلازمه في تحركاته وزيرًا له، ولكن كان «محمد بك» المذكور رجلًا عاقلًا وعالمًا فلم يرض بالعصيان، وتحين فرصة وجود «أحمد باشا» في الحمام فقام بالهجوم عليه مع خدم السلطان الآخرين، وبينما كان يسعى للقبض عليه، يقوم الخائن عديم الدين بالهرب بطريقة ما؛ حيث يلجأ إلى مشايخ أعراب البرية، وتعقبه الأمير المشار إليه «محمد بك» بالعسكر مرة أخرى حيث قطعت رأسه بفضل الله تعالى ونال جزاءه.

حفل عرس الوزير الأعظم «إبراهيم باشا» السعيد

كان في ١٨ من رجب ٩٣٠هجرية[1]، لما كان أمر الزواج من الشعائر الإسلامية،

---

(١) الموافق ٢٢ من مايو ١٥٣٠م.

فعندما طلب «إبراهيم باشا» من السلطان صاحب السعادة وحامي العالم الإذن بالزواج من ابنته، تفضل بالإذن الخاقاني المناسب، وصدرت وعوده الكريمة بتشريف حفل العرس بقدومه المحفوف بالسعادة شخصيًا.

ولا جرم، فقد كلف أرباب الخبرة بأمور العرس المجلوبين من كل مكان بالبدء في تهيئة أمور العرس، وبعد ذلك زين الميدان المعروف باسم «آت ميداني» الذي كان ميدانًا واسعًا كما لو كان الفلك التاسع، بالخيام الراقية وبأنواع الزينة والزخارف، ونصب عرشًا سعيد الطالع مرتفعًا أمام مبنى «مهترخانة همايون» للسلطان المؤيد بالنصر، ووصل الوزير الثاني «إياس باشا» ورئيس الإنكشارية مع كل طائفة الخدم إلى السراي العامرة، ودعوا السلطان لتشريف العرس، وقد غمرت أنواع الضيافة والرعاية عموم طائفة الخدم وسائر أصحاب الحرف على مدى يوم لكل منهم، وظهرت هذه المرة أنواع السعادة والسرور التي لم تحدث في عرس أي أحد من السلاطين حتى الآن، ولما شرف السلطان صاحب السعادة العرس، فرشت تحت قدميه يمينًا ويسارًا المفروشات المطرزة بالذهب والديباج الفريد في بهائه، والأقمشة من نوع «أطلس» والقطائف والحرير، وجعلوا الشوارع المفروشة بأنواع القماش مثل المكان الذي يرسم فيه الفنان لوحته، وسار كل الوزراء وأعيان الدولة أمام السلطان كحجاب له حيث كانوا يقومون بخدمته.

ولما تفضل السلطان بشرف الجلوس على العرش المعد له، جلس على جانبه الأيمن «شيخ الإسلام ومفتي الأنام» «كمال باشا زاده» وعلى جانبه الأيسر معلمه «مولانا خير الدين»، وجلس أمام السلطان سائر الموالى العظام والأهالي الكرام وأرباب مدارس ثمانية على ترتيب درجاتهم؛ حيث تناقشوا مناقشة علمية، ووضع الذواقون مائدة طعام مختلفة الأصناف للسلطان صاحب السعادة، وبسطوا موائد أخرى لسائر العلماء، وقدم «مصطفى چلبي» الذي كان «باش دفتردار» الشراب إلى السلطان صاحب السعادة بقدح «بيروزه»، المشهور بأنه ذكرى من «نوشروان»، وبطبقه وصحنه الموجودين بالخزينة العامرة، وبعد ذلك عاد وجلس مكانه ثانية، وبعد الطعام قدمت الحلويات وأنواع

الشربات الحلو، وأُحسن إلى كل فرد من العلماء بمائدة من الحلويات السكرية ومثيلتها غير السكرية في صينية واحدة، حيث أرسلوا إلى منازلهم متمتعين بالرعاية الفائقة.

قتل الوزير «فرهاد باشا»

حدث ذلك في ٤ من المحرم الحرام سنة ٩٣٢هـ[1]، بينما كان «فرهاد باشا» في عهد المرحوم السلطان سليم أميرًا لأمراء الروم إيلي، عين سردارًا مع رتبة الوزارة، وكلف بالتحقيق مع بعض الأشقياء والتركمان، فأرسل بمقدار من الجند إلى هناك، وبحكمة الله تعالى، وعلى إثر تشتيت «شهسوار أوغلي علي بك» لشمل هؤلاء الأشقياء، وقبل أن يصل «فرهاد باشا» بنفسه كلف «فرهاد باشا» بأن يبقى في محافظة المصيف المعروف بـ «أكه جك» لمدة ما، ولكن أشيع على ألسنة الناس حكاية حول سبب هذه الرعاية الكبيرة التي كان يلقاها «فرهاد باشا»، وهو أن الأمير الذي يُدعى سلطان «مراد» وهو من الأولاد الكرام للمرحوم الأمير السلطان «أحمد» قد جاء من عند القزلباش، والتقى بأعيان «آماسيا»، وأنه كان يعتزم الخروج على الدولة في الحال، فقام «فرهاد باشا» بعرض هذا الوضع على السلطان.

ولما صدر الأمر بالتحقيق معه، قام «فرهاد باشا» بإهدار دم ما يقرب من ستمائة فرد بلا ذنب، وبهذه الحجة الواهية تمكن من جمع المال الكثير، وعلى إثر تعاقب الشاكين منه، عزل من الوزارة، ومنح سنجق «سمندرة» ولكن مع قدوم بعض الشاكين منه مرة ثانية، عزل من وظيفته هذه أيضًا على أن يحضر إلى «أدرنه»، فلما وصل إلى «أدرنه» قتل جزاءً على ما عمل.

توجه الوزير الأعظم «إبراهيم باشا» إلى «مصر»

في ذي الحجة سنة ٩٣٠هـ[2]، كانت قد وجهت إيالة مصر المحروسة إلى «گوزلجه

---

(١) الموافق ٢١ من أكتوبر ١٥٢٥م.
(٢) الموافق يناير ١٥٢٤م.

قاسم باشا» بعد حادثة الخائن «أحمد باشا»، ولكن لما رأى الضمير المنير للسلطان أن انتظام أحوال تلك الديار متعلق بوصول المشار إليه «إبراهيم باشا» إليها، فقد عين باش دفتردار «إسكندر چلبي»، وأغا طائفة العلوفة «خير الدين أغا»، ورئيس الجاوشية «صوفى زاده محمد أغا» وثلاثين فردًا من الجاوشية وكاتب الديوان «جلال زاده نشانجي مصطفى چلبي» وتوجهوا في التاريخ المذكور، بصحبة خمسمائة جندي من طائفة الإنكشارية مع بعض الكتاب وعدد من الرجال المتسبين للفرق العسكرية [بلوك خلقي] مع عشر سفن من نوع القادرغة.

وعندما وصلوا إلى جزيرة «ساقز»، قام الأمراء النصارى باستقبال الباشا «إبراهيم»، وقدموا إليه الهدايا واستضافوه، ومن هنا وصل إلى «رودس»، وبعد أن أقام بها عدة أيام، كان في هذه الأثناء قد أطل شهر المحرم ٩٣١ هـ وفى اليوم العاشر من المحرم تحركت السفن من الميناء، وذهبت مع الرياح الملائمة لمدة أربعة أو خمسة أيام، وفى اليوم التالي، وبينما كانوا يأملون رؤية قلعة الإسكندرية، هبت بتقدير الحي الذي لا يزال الرياح المخالفة التي يطلق عليها رياح جنوبية شرقية، فحملت السفن على العودة في الحال وغمرتها عناية الباري مرة أخرى، وعادت السفن بالسلامة إلى ميناء «رودس»، وبعد توقف دام عدة أيام، ولما ظهرت بوادر الرياح المرغوبة، تحركت السفن ثانية، ولما أتوا إلى المكان الذي ترى منه قلعة الإسكندرية، واجهوا الرياح الجنوبية الشرقية مرة أخرى، فقفلوا عائدين ثانية إلى «رودس» بعناء زائد ومشقة بالغة، وبعد ذلك، وعلى إثر ملاحظة أن ترك الذهاب بطريق البحر أولى، عقد العزم على الذهاب بطريق البر، وكانت توجد ستة جياد لدى أمير «رودس»، فأخذت من أجل الباشا، ووصل سائر الأعيان وطائفة الجند إلى المقاطعة التي تسمى «موغلة» سائرين على الأقدام بمحن جمة وبلاء عظيم، ومن هناك أرسل الرجال إلى كل جهة؛ حيث أحضروا الحيوانات المستأنسة المتوفرة من دواب ومواش، وعلى أية حال، فقد وصلوا إلى مدينة «اللاذقية»، ولكن جاء شتاء شديد جدًا، وفى ربيع الأول المبارك أتوا إلى «حلب» المحروسة وقام «إبراهيم باشا» هناك بتأديب الظلمة وأهل الفسق، وباسترداد حقوق الفقراء التي لا تحصى، فمن أجل

هذا، كان طريق البحر مسدودًا بقدرة الله تعالى، وهكذا أدرك حُسن تقدير المولى وسبب تيسيره الذهاب عن طريق البر، ومجمل القول: فقد دخلوا «مصر» في اليوم الثامن من شهر جمادى الآخرة ٩٣٠هـ[١] وعم الفرح العظيم، وقام «إبراهيم باشا» والذين كانوا معه بجعل ولاية «مصر» دار أمن بنشر العدل والإنصاف، وأتى الرعايا الفقراء أفواجًا أفواجا وجماعاتٍ جماعات من أطراف البلاد، ولما شكوا من الخراج المأخوذ منهم، ومن المظالم التي حدثت في معاملة الدراهم والدنانير، كان حضرة الباشا العادل مائلًا للحق، وقائلًا له في هذا الموضوع، فأمر بإحضار دفاتر القوانين التي كانت في السنين الماضية، فعلم أنه كانت هناك زيادات في عصر «قانصوه الغوري»، ومن بعد في أيام «خير بك»، ثم في أيام الخائن «أحمد باشا»؛ ووضع قانونًا جديدًا على أساس من العدل، ورضيَ كل الرعايا والمواطنين بهذا القانون قائلين: «سمعًا وطاعة»، وبعد ذلك لخص هذا القانون إلى الركاب الهمايوني، فلما صدر الفرمان بأن يعمل بهذا القانون تمامًا، واظب كل شخص على الدعاء لدوام عظمة وسلطنة حضرة السلطان حامي العالم، وأُرسل «سليمان رئيس» من قراصنة البحر المترامي النواحي الذي كان يشار إليه بالبنان في ذلك الوقت بعشرين سفينة من نوع «قادرغة» من ميناء «السويس» إلى أطراف «اليمن» و«عدن»، واقتص من بعض المتمردين الذين لم يخضعوا للطاعة في تلك الأطراف، وخضعت تلك الأطراف في ربقة الطاعة سنة ٩٣٢هجرية[٢].

خلاصة أحداث حملة «موهاج» والفتوح الأخرى

ـ خروج السلطان إلى الحملة :

في ١١ من رجب المرجب سنة ٩٣٢هـ[٣]، لما وصل الصدر الأعظم «إبراهيم باشا»، الذي عهد إليه بإيالة «الروم إيلي» ملحقة بمنصب صدارته العظمى في تلك الحملة

---

(١) الموافق ٢ من أبريل ١٥٢٤م .
(٢) الموافق سنة ١٥٢٦م.
(٣) الموافق ٢٣ من أبريل ١٥٢٦م.

المظفرة، إلى «أدرنه»، قـام أمراء « روم إيلي» باستقباله بجنودهم وقام أيضًا أمير أمراء الأناضول «بهرام باشا» بالعبور من «گليبولي»، والانضمام إلى الجيش الهمايوني في «أدرنه»، وفي «أدرنه» تم حصر جند الفرق الست، وبعد أن استكملت سائر المستلزمات، بدأ التحرك الهمايوني، وفى اليوم السادس عشر من شهر شعبان ٩٣٢ هجرية[١] تم النزول الهمايوني في صحراء «صوفيه»، وعند عقد العزم الهمايوني على التحرك من هذا المكان، صدر الأمر بحصر جميع عسكر الروم إيلي، وعلى هذا تم حصرهم عندما اتخذوا مواقعهم خلف الجياد، ومن هذا المنزل صدر الأمر بتقدم الصدر الأعظم مع جند الروم إيلي منزلًا آخر، وتم تعيين الكثير من أبطال فرقة «بلوك خلقي»، وألفين من الإنكشارية المسلحين بالبنادق ومائة وخمسين مدفعًا من نوع «ضربزن» معهم، وتم أيضًا حصر عسكر الأناضول في ٢٤ من شعبان ٩٣٢ هجرية، وعزم الوزير الثاني «مصطفى باشا» والوزير الثالث «إياس باشا» وأمير أمراء الأناضول «بهرام باشا» على الخروج مع سائر عسكر فرقة «بلوك خلقي»، وجند « الإنكشارية» في موكب السلطان صاحب السعادة، علاوة على طائفة الأعيان، وفي اليوم التاسع عشر من رمضان ٩٣٢هـ[٢]، نصبت خيام سرادقات الإجلال في صحراء «بلغراد» وفى ٤ من شوال ٩٣٢هـ[٣] تم العبور إلى ساحل «سرم».

فتح قلعة «وارادين»

لقد نزل السلطان عالي الوقار في ١٧ من شوال سنة ٩٣٢هجرية[٤] بجوار القلعة المعروفة باسم «إسلانقمن»؛ حيث كُلف حضرة الوزير الأعظم والسردار الأكرم «إبراهيم باشا» بفتح القلعة المذكورة، فوصل إبراهيم باشا بأبطال «الروم إيلي»، وبعد

(١) الموافق ٢٨ من مايو ١٥٢٦م.
(٢) الموافق ٢٩ من يونيه ١٥٢٦م.
(٣) الموافق ١٤ من يوليو ١٥٢٦م.
(٤) الموافق ٢٨ من يوليو ١٥٢٦م.

حصار دام سبعة أيام، قام في النهاية بتلغيم القلعة، ووفق في فتحهـا، وكان الملك الضال المعروف باسم «طوموری بال» حاكمًا لمالك ما وراء نهر «طونه» وقائدًا لجندهم، ولما كانت القلعة المذكورة تحت سيطرته، فقد أحضر الكثير من السفن، وملأها بعدد غفير من المسلحين، وكانَ يريد عدم السماح لأسطول أهل الإسلام بالمرور من أمام القلعة المذكورة، ولكنه لم يقدر على هجوم «سليمان رئيس» الذي كان قائدًا لثمانمائة سفينة تم تعيينها من الآستانة السعيدة، وفر «طوموری بال» بنفسه مكرهًا إلى صحراء «سكدين» وفرت سفنه صوب «إيلوق» عن طريق نهر «طونه»، وما إن وصلوا إلى «إيلوق» حتى قام بوضع عدد من المسلحين حوالي مائة أو مائتين فارس في القلعة؛ حيث لم يكن لديهم أي مجال للهرب.

فتح قلعة «إيلوق»

وبعد فتح قلعة «وارادين» في ٢٨ من شوال سنة ٩٣٢هـ[١] اهتم الوزير الأعظم عالي المقام بفتح قلعة «إيلوق» بجند الإسلام، وبفضل الله تعالى تم فتح تلك القلعة أيضًا بالاستسلام؛ حيث أحسن بالأمان إلى الملاعين، الذين كانوا بداخلها، كما فُتحت قلاع «قوتيك» و«مترفجة» و«إيريك» و«غوغورفجه» و«لوكاى» و«صوتين» و«دلقوار» وقلعة «أردود» و«جرونيك» و«راجة» وقلعة «أوسك»، وأصبح أهالي القلاع والضياع المذكورة حيارى في وادي الضلالة من صدى مهابة الجنود المسلمين، حيث هام أهالي بعضها في الوادي والجبال، ولجأ أهالي بعضها الآخر إلى عتبة السلطان طالبين الآمان.

وتم تسوية قلعة «أوسك» بالأرض تمامًا، وفى داخل المنطقة التي تقع خارج القلعة تم تشييد جسر واسع خلال ثلاثة أيام فقط، وذلك لعبور العساكر المكللة بالنصر إلى الساحل الآخر، وفى يوم ١٢ من ذي القعدة ٩٣٢هـ[٢] تم العبور والمرور إلى بلاد

(١) الموافق ٨ من أغسطس ١٥٢٦م.
(٢) الموافق ٢٠ من أغسطس ١٥٢٦م.

«المجر» عديمة الشرف، بكافة الأجناد الذين عادتهم النصر، و«بعد العبور» قُطع الجسر بأمر من السلطان الغيور، وقطعت العلاقة مع ديار الإسلام.

هزيمة الملك المنحوس في صحراء «موهاج»

كانت تلك الهزيمة في ٢٠ من ذي القعدة سنة ٩٣٢هـ[1]، ليعلم أولو النهى أنه لو كان نقل الكلام عن الآباء والأجداد موجبًا للوم، فليس هناك ثمة شك في أنني سأكون هدفًا لسهام أبناء الزمان الطاعنة، ولكن بسبب أنني وجدتُ أحداث غزوة صحراء «موهاج» في ستة أو سبعة كتب للتواريخ مطبوعة تختلف عن بعضها البعض، وعلاوة على مخالفتها لما سمع عن الثقات، فقد فضلت أن أنقل، ثم أوضح درجة صحتها التي وقفت عليها في كتابنا.

ففي تلك الغزوة الغراء، كان جدي في رتبة «آلاى بكى» البوسنة، وكان المرحوم والدي مع إخوته السبعة أبطالًا معتمدين، والآن فإن محل سكن كل واحد منهم في ناحية «بيخه» قرب سراى البوسنة معلوم لدى الأهالي باعتبارهم أبناء «آلاي بكى»، وعلى هذا النحو ينبغي ذكر نبذة عن أحوالهم، حتى إذا اطلع عليها أي شخص من أقربائهم يكون باعثًا للذكر الجميل وسببًا لقبول سائر أصحاب العرفان لعذرنا .

وما دام الأمر كذلك، فعندما رأى المرحوم والمغفور له أبو الفتح سلطان محمد خان غازي ـ رحمة الله تعالى عليه ـ الذي كان من السلاطين المسلمين وأحسن السلاطين الغزاة ضرورة فتح معظم ديار البوسنة في تاريخ ٨٧٧ هـ[2]، وضرورة تعيين أمير سنجق هناك، فإنه في البداية يقدم على أن يوجه السنجق إلى «منت بك أوغلى محمد بك»، وبينما كان جدنا الأعلى «قره داود أغا» سلحدار السلطان المغفور له، فإنه يصبح «آلاي بكي» البوسنة بمقاطعة «زعامت» قدرها خمسون ألف أقچة؛ وذلك بسبب

(١) الموافق ٢٩ من أغسطس ١٥٢٦م.

(٢) الموافق ١٤٧٢م.

قرابته للأمير المذكور، أو بسبب آخر، وعلى إثر ذلك يخرج من الحرم المحترم، حتى إنه أخذ مقاطعة «زعامت» الخاصة بالمرحوم «يحيى باشا زاده كوچك بالى بك»، الذي كان سردارًا للجند في تلك الحملة في عصر المرحوم السلطان «بايزيد»، واستخرج لها براءة، وهذه البراءة الشريفة موجودة الآن في يد هذا الحقير [بچوي] بعينها، وكان قد خطر لي أن أوردها بعينها في هذه المجموعة [تاريخ بچوي]، ولكن بسبب أنها ليست مناسبة هنا، فإنني سوف أنقل صورتها وأحررها فيما بعد إن شاء الله تعالى، ولكن ينبغي ألا يفهم أن انتقال السلحدارية إلى تولية مقاطعة «زعامت» بالنسبة إلى ذلك الوقت، هو من قبيل التحقير، فقد كانت درجة «زعامت» ذات راتب يقدر بخمسين ألف أقچة في ذلك العصر، وهذا يكون أكثر من عدة درجات في «رتبة الوزير» في هذا العصر، وسمعت عدة مرات من المرحوم الوالد ما يلي:

لقد حققنا بعض الانتصارات في عصر «قره ملقوج بك» أمير البوسنة؛ حيث اغتنم غزاة الإسلام غنائم كثيرة جدًا، حتى إن هذا الحقير أخذ غنيمة قدرها ستون ألف أقچة مع خادمي، وأرسل الأمير المذكور «قره ملقوج بك» الألسنة والرءوس؛ أي الأسرى المسلحين بالدروع إلى الآستانة السعيدة، وعرض الوضع على الباب العالي لترقية والدنا قائلًا: كان آلاي بكى [رئيس السباهية] مؤثرًا جدًا في هذه الغزوة، كما رشح هذا الحقير لأول وظيفة رسمية تعرف باسم «ابتداء»[1]، ولما كان والدنا في رتبة «آلاي بكى» فقد منح خمسمائة أقچة كترقية، أما ابتدائيتُنا فقد أُمر بتعليقها إلى غزوة أخرى، وبهذا التعليق التحقت بحملة العراقين وخدمتُ في شارع «قره قان»، وفى هذه الأثناء، صدر الأمر الشريف بترقيتي من وظيفة «الابتداء» إلى درجة «التيمار»، بدعوى «أن ابن رئيس سباهية البوسنة جاء إلى الحملة دون درجة»، وكان والدي يضرب بهذا المثل للذين يستحقون أمر «الابتداء» في زمانه قائلًا: «علم الله تعالى»، إذا أحسن عليَّ بسنجق «البوسنة» لكنت أقدم إلى منزلي الفقير بتلك السعادة فقط.

---

(١) هو اسم يطلق على أوراق الهوية لمن هم مقيدون فى معسكر الإنكشارية، وكانت تدون فى هذه الأوراق كنية الجند، وصورته، ومقدار علوفته.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. II، S. 14.

بدايات الحرب

عبر جند الإسلام نهر «دراوه» وهموا بالنزول في ذلك الموقع، وقاموا في هذه الليلة بعمل أسطول من الشمع كأن نجوم الكواكب التسعة اجتمعت في هذا المكان، فجعلوا العالم في حالة يحسده عليها يوم «النوروز»، ومن هذا المنزل، تم تعيين «يحيى باشا زاده كوچك بالى بك» الذي كان رجلًا صاحب تدبير؛ وكان قد خرج إلى الحرب بألف رجل من خدمه وخدم أبيه، وكان تحت قيادته عسكر «سمندرة» الذين يقدرون بأربعة آلاف مجهزين ومسلحين، تم تعيينه كعادته طليعة لعسكر الإسلام؛ يعنى كلف بأخذ الأسرى الذين يدلون بمعلومات عن العدو وكلف أيضًا بإجراء عمليات الاستطلاع أمام الجيش، ولما كان «خسرو بك» أمير سنجق البوسنة ابن ابنة المرحوم السلطان «بايزيد»، وكان تحت يده عددٌ كبير من الرجال الشجعان من خدم أبيه ومن خدمه هو أيضًا، وكان جند البوسنة أيضًا جندًا منظمين وكاملي العدة والعتاد، فقد عين ظهيرًا للجيش؛ أي مؤخرة للجند.

وهكذا ساروا من منزل إلى منزل، وعبروا من بحيرة «قرايشجه» من أسفل المكان الذي أقيم فعلًا فيه جسر بقرب «برنوار»؛ وبعد ذلك جهز الصدر الأعظم، وأعد طابورًا كاملًا مشكلًا من عسكر «الروم إيلي» وألفين من جند الإنكشارية المسلحين بالبنادق الذين كانوا تحت إمرته، ومائة وخمسين مدفعًا ميدانيًا، وعقب هؤلاء، كان يسير أبطال وأمراء «الأناضول» تحت قيادة «بهرام باشا»؛ بحيث كان جنود كل سنجق يتعقبون بعضهم بعضًا بشكل متكامل، ويقوم السلطان الذي كان العالم كله خدم له بتنظيم جيش يتشكل من سائر عساكر الإسلام المظفرين؛ وعسكر الإنكشارية وجند الفرقة المعروفة باسم «بلوك خلقي»، فيلقًا فيلقا كالجبال السود، ووضع على رأسه ثلاث طرات مزدانة لا مثيل لها؛ وكان جسده المبارك متذملًا بالدروع، كما لو كان متحصنًا بقلعة من حديد، وفى أثناء تحرك الموكب بالطالع السعيد، اتجه إليه كل الناظرين بالدعاء والثناء قائلين: عليك عون الله تعالى، وهكذا ذهبوا باحثين عن العدو الحقود.

وعقد المرحوم «بالى بك» العزم على التوجه إلى الجانب الأيسر بالقرب من كنيسة «پوسو» التي كانت على طريق «برتوار»، ويخترق الجبل، ويتجه صوب الحي المعروف باسم «ياجقا لوبه» في نهاية الصحراء، وما إن وصل سلطان الإسلام صاحب السعادة أيضًا إلى التل العالي الذي يطلقون عليه «خنكار دبه سى»؛ أي تبة السلطان، الذي يقع في صحراء «موهاج»، حتى تفضل بالنزول من على جواده وصعد إلى التل؛ وجلس على مقعد، والله تعالى يعلم أن هذا الحقير قليل البضاعة؛ أي «بچوي» صعد إلى التبة المذكورة مرتين أو ثلاث مرات للتبرك فقط باعتبار أنه: «موضع مناجاة السلطان الغازي لله تعالى»، وتجولت في أطرافها تلك قبل عام ١٠٠٠هـ، بحجة استنشاق هوائها المنعش وصيد الصقور، فكانت قمة مرتفعة جدًا، وكانت هناك صعوبة في الصعود إليها، أما الآن، فحينما كان المرحوم «مير علم حسن باشا» أميرًا لـ «بدون»، بنى فوقها قصرًا خشبيًا صغيرًا، وبالقرب منها أمر بحفر بئر ماء؛ وهى تعلو قليلًا عن سائر الصحارى، ورأينا هنا الأثر الواضح الذي يدل على أن العالم في تغير مع مرور الزمن.

وعلى أية حال، فقد سمعت من لسان المرحوم الشيخ «على دده» نفسه رحمة الله تعالى عليه شيخ التربة المباركة في «سكتوار»، والذي كان يُظن أنه صوفي صاحب ولاية وكرامة قوله: كان المرحوم «إبراهيم باشا» في هذه الأثناء، يقوم بتنظيم فرق «الروم إيلي» كل في مكانه؛ ولما أتى إلى مجلس السلطان صاحب السعادة الذي عرشه يعانق الفلك، يأمره السلطان بدعوة أمراء الحدود وبعقد مجلس الشورى، فيرسل الجاوشية إلى الأمراء بناءً على أمر السلطان، ويأتي «خسرو بك» أمير أمراء البوسنة قبل الجميع، ويصدر الأمر إليه بأن يصعد التل المعهود، وبينما كان «إبراهيم باشا» يقف أمام السلطان مع سائر الوزراء على الأقدام، يخاطب «خسرو بك» قائلًا: «أنتم أمراء الحدود وسلطاننا صاحب السعادة يريد أن يشاوركم، فها هي صحراء «موهاج»، ولا يوجد أى أثر للأعداء هنا بعد، فما التدبير؟»، وعندما أجاب «خسرو بك» قائلا : «سلطاني صاحب السعادة، نحن نقوم في الحدود بالمشورة مع مشايخ الحدود من أصحاب الخبرة والبصيرة، ولا نقضي أي أمر برأينا، فإذا صدر الأمر بذلك، كان لزامًا علينا أن نذهب إليهم ونتشاور معهم، ومن ثم نأتي للسلطان صاحب السعادة ونجيب على ما يريد».

وعلى هذا يأمر السلطان صاحب السعادة: «أن أحضر إلى هنا الرجال الذين ستتشاور معهم»، وهكذا يخاطب المرحوم «خسرو بك» من المكان الذي يقف فيه أحد الأغوات الذين يقفون أسفل هذا الموضع قائلًا: اذهب بسرعة، وليأتِ كل من «قوجه آلاي بكى» و«قره عثمان» و«محمد صوباشي» و«عدل طوجه» و«بلبان چرى باشي»، فقد أمر السلطان صاحب السعادة بعقد مجلس الشورى.

وما إن ذهب خادمه حتى ظهر الشيخ الشجاع الذي يدعى «عدل طوجه» حيث يظهر وذرعه خلفه، وخوذته فوق رأسه ومغلاقه في مؤخرة سرجه، وهو يبدو ذا لحية بيضاء، ولكن شاربه يبرز إلى خارج خوذته كما لو كان سهمًا مستعدًا لإراقة دم العدو، فيظن «خسرو بك» أنه أتى بناء على دعوته؛ فيقول: «احضر يا «عدل طوجه»، فقد أمر السلطان صاحب السعادة بعقد مجلس الشورى»، فيجيب قائلًا: «هل توجد هنا مشاورة سوى التشاجر، لقد أرسلني إليك «قوجه آلاي بكى»؛ لأنه شوهدت جيوش الأعداء، وبدأت فرقة فرسانا المتقدمة في التعامل معها، فاحضر وكن موجودًا داخل سنجقكم، وارفع الكسل عن الفرق»، وعلى هذا يركب جواده، ويتجه بسرعة صوب فرقته، وفى هذه الأثناء، يأتي الأسير الذي يدلي بمعلومات عن العدو من عند «كوچك بالى بك»، فيخبر بأن الكفار على وشك الوصول، وأنه رأى رايات الكفار في أركان متعددة من المرتفعات والقمم العالية، وربما يكون الذين في هذه القمم العالية عبارة عن فرقة مشاة مشكلة من الرعايا؛ حيث اجتمعوا ممسكين بالحبال والقيود الحديدية والسلاسل التي يمتلكونها واصطفوا فرقة فرقة في هذه القمم، بغرض أن يقبضوا على المسلمين ويربطوهم بها.

وهكذا، انتاب السلطان صاحب السعادة قلق من تصرف «عدل طوجه» ومما ذكره «كوجك بالى بك» من أنباء؛ وفى الحال ينزل من فوق التل ويمتطى جواده، ويكلف الجاوشية بالحفاظ على الأثقال؛ أي المؤن والذخائر؛ ويأمر بأن تقف الفرق العسكرية على مسافة من موضع الأثقال هذه؛ ويقتفى المرحوم «إبراهيم باشا» إثر السلطان صاحب السعادة مع خمسة أو عشرة رجال من الأعيان؛ حيث وصل إلى الموضع الذي تتجمع فيه

كل فرقه، وفى هذه الأثناء، كان الأمراء ينشرون أعلامهم ويأمرون عساكرهم بالتوجه إلى الحرب، ويرفع حضرة السلطان، ـ أعظم الغزاة والمجاهدين ـ، يديه المباركة تحت كل سنجق وتنهمر الدموع من عينيه المباركة قائلًا: «إلهي، الحول والقوة لك، يا إلهى منتهى الأمر والنصرة لك، فصاحب الغاية أنت، ومالك الحماية أنت، لا تجعل أفراد هذه الطائفة الضعفاء من أمة محمد تشعر بالندم، ولا تجعل السعادة حليفة هؤلاء الكفار المتجبرين والمتعاظمين»، وما إن شاهده عسكر الإسلام يجهش بالبكاء حتى تساقطوا من فوق جيادهم، كما يتساقط ورق الخريف من فوق الشجر ومرغوا وجوههم وأعينهم بالتراب وزرفوا دموع أعينهم وهم منكسرو القلوب، حتى لم يكن هناك أدنى ريب لدى الذين شاهدوا هذه الحالة في أنهم اختاروا تقديم أرواحهم بتمام الرضا، كما لو كان يتردد في فم كل شخص هذا المصرع: ما أحقر الروح التي نبخل بها في هذا الطريق، كما خطب الوزير الأعظم «إبراهيم باشا» في المعسكر بألف لسان، وذكر أنواع العطايا وأصناف الحماية التي يمنحها حضرة السلطان صاحب السعادة وحامي العالم لمن يبلى بلاء حسنًا في القتال، ويحرز مرتبة «يولداشلق»(١)؛ ووعدهم بآلاف الوعود، وجعلهم يصلون لدرجة من الوجد، حيث كان كل شخص يسارع في تقديم نفسه فداءً قبل الآخرين، وربما كان يسارع في تقديم روحه في سبيل الشهادة.

وعندما وجدت أمور الاستمالة والترغيب وتقوية العزائم والدعاء صداها [لدى الجند]، اتخذ «إبراهيم باشا» خير دعاء السلطان مرشدًا لطريقه؛ وأشار لفرقته الخاصة بالتقدم، وجاء السلطان عالي المقدار وصاحب السعادة أيضًا تحت الرايات الهمايونية واقفًا في مكانه مثل قطب العالم، وصدر الفرمان الذي يوافق جريانه القضاء، حيث سارت كافة وحدات العسكر التي هي في هيئة الفلك، صوب الكفار كالقضاء السماوي والسيل المباغت، وانطفئ اللهب وانتزع من أصوات الدفوف والطبول العالية، ومن أصداء المزامير، وأحيانًا من أصداء الناي ومن صيحات الرجال وصهيل الخيل ومن

(١) هى درجة التفوق فى القتال، كما أن أفراد الإنكشارية يقولون: «يولداش» لبعضهم البعض.

صوت رفرفة الرايات، وهكذا التحم الجواد بالجواد وتكاثفت الرجال مع الرجال حتى لم يكن من الممكن حصرهم.

وبينما كانوا يسيرون على هذا النحو رويدًا رويدًا، شوهدت فرق جنود الكفار التي مآثرها الهزيمة، بينما كانت تتسابق آتية على عجل وسرعة كما لو كانت سحابة سوداء تمر من أمام ريح عاصف، والضال المعروف باسم «طوموري بال» الذي يطلق عليه بعض المؤرخين «باباس»، ويذكره البعض الآخر باسم «پرني»، وفي الواقع، كانوا يطلقون فيما بينهم على حكومته ومنصبه الذي كان يتصرف فيه كمنصب «باباس» اسم «بشبوق»، وبحسب زعمهم الضال، أنه كان عازفًا عن الدنيا، وكان عاشقًا؛ أي يعرف باسم «قلندر»[1]؛ حيث يسمون أولئك القوم الملاعين فيما بينهم باسم «براط»، وقد شكل هذا الملعون عديم الدين، فرقة تتكون من عدة آلاف من الملاعين، ونظمهم وأتى بهم كما لو كانوا قطيعًا من الخنازير؛ حيث أصبح كل واحد منهم طعمًا للسيف، ولم يكن أمامهم أي حائل، وكان لا يلقي بالًا أصلًا إلى رجاله ولا إلى جيفة جياده الساقطة من فرقته؛ نتيجة قذائف المدافع التي كانت مربوطة بالسلاسل أمام جيش الصدر الأعظم، ورصاص البنادق، حيث كان يسرع ويفر من أمام المدافع، وأخيرًا فإنه وجد الفرجة والثغرة متمثلة في محل إقامة فرقة المشاة؛ فيمر منها، وبينما كان يسعى لشق واختراق العسكر المسلمين، يتتبعه الأمير «بالى بك» و«خسرو بك» أمير «البوسنة» بحشودهما، ولما نظر الملاعين أمامهم وجدوا أن فرق السلطان صاحب السعادة لا تزال تصطف كل في مركزه طبقات بعضها فوق بعض دون أن تهتز، فكانت حدودها وأحمالها ليست لها نهاية كالجبال، وذلك بدرجة لا يمكن أن تحيط بها عين البشر، وبسرعة علم عديم الدين ما سيواجهه، وقال في نفسه : «أتقهقر للخلف، ثم أحارب الذين يتعقبون إثري».

---

(١) لقب يطلق على من يقطع صلته بالدنيا، ويسلك طريق الحق. وهذه الكلمة فارسية ومعناها فى «قاموس عثماني»: المنصرف عن علائق الدنيا إلى طريق الحق، وأيضًا معناها الصوفي أو الدرويش.
- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. II، S: 147.

وهكذا زحفت فرق «الروم إيلي» من الجانبين، حتى إنه خلال لحظة واحدة لم يبق من فرق الكفار اسم أو رسم، وفي هذه الأثناء قطع رأس القائد مسلوب الدولة؛ حيث أحضروه إلى السلطان صاحب السعادة قائلين: «رأس الملك»، وفي الحال علق على الرماح، وسار المنادون أمامه؛ متجولين به بين العسكر، ومن هذا الجانب أيضًا، هجم الملك سيئ الفعال بنفسه مع جيشه، على عسكر الأناضول، وكان هؤلاء أيضًا يعتمدون على فرق الإنكشارية؛ وكان غزاة الإنكشارية يطلقون رصاص البنادق كلما تحينوا الفرصة؛ حيث هلك في ذلك الميدان؛ نتيجة لذلك خيرة جنود الملاعين، وشاهدت الفرق التي جاءت بعدهم ما أصابهم، وسرعان ما بدءوا في الهروب وانهزموا بفضل الله تعالى تمامًا، وما إن غربت الشمس، حتى إنه لم يبق أي فرد من الملاعين واقفًا على قدميه في الميدان.

وبينما يطرد ويهرب الملك الكافر من ميدان المعركة، فما إن وصل إلى موضع المستنقع الذي يقع في نهاية الصحراء والمشهور باسم «قرال كوبروسى»، توافد أمامه الفارون من الكفار الواحد تلو الآخر حتى إنه لم يبق بينهم أي فرجة يمكن أن تمرر كلبًا وليس بشرًا، وعلى إثر تزاحم الذين أتوا من خلفهم غرق عدد لا حصر له من الكفار في قاع المستنقع؛ وبدءوا طريق ديار العدم، وفي هذا الموضع غرق أيضًا الملك مع سائر الغرقى؛ واستودع روحه الخبيثة لزبانية جهنم، وبعد عودة السلطان صاحب السعادة قام الكفار بإخراج جيفة الملك من المستنقع وحملوه إلى مدفن سائر الملوك في «أستوني بلغراد»، ودفنوه.

وعندما خلا ميدان المعركة من الكفار، كان قد حل وقت المساء وحان وقت الراحة، فصدرت الأوامر بالنداء: «فليسترح كل شخص في المكان الذي يقف فيه»، وبحكمة الله تعالى، نزل مطر غزير حتى إنه لم يتيسر لأحد البحث عن خيمته ولم يستطع حتى نصبها، ووقفوا خلف جيادهم حتى الصباح، ولما انبلج الصباح، صدرت الأوامر بالتحرك من ذلك المكان الذي امتلأت نواحيه الأربعة بجثث الكفار إلى مكان يبعد عنه قدر رباط أو رباطي جواد، وبعد ذلك أُقيمت خيمة السلطان وخيام سائر جند المسلمين؛ ووضع عرش مرصع عالي الحظ أمام الخيمة الهمايونية للسلطان صاحب السعادة ومدار العرش، وحضر الوزراء العظام وأمراء الأمراء ذوي الاحترام والأمراء الكرام وسائر

عساكر الإسلام؛ وباركوا وهنئوا بهذه الغزوة، وتشرف الصدر الأعظم «إبراهيم باشا» بتقبيل طرف عرش السعادة؛ حيث مُيز عن الجميع وصار أعظمهم بوضع طرة مزدانة بالجواهر على رأسه، وأُكرم وكوفئ سائر الوزراء والأمراء أيضًا كلا حسب مرتبته بالخلع الفاخرة، وبالتشريفات الوافرة، وقرعت الطبول وحررت خطابات النصر (فتح نامه) إلى الممالك المحروسة؛ وصدرت لخزينة الدولة الثلاثمائة مدفع ميداني من نوع «ضربزن» وسائر الأسلحة والمهمات العسكرية التي تركها الكفار، وصدر الأمر بإحضار الكفرة الذين أسروا، فأحضر في الحال أربعة آلاف كافر وهم مكتوفو الأيدي ومغممون؛ فاحتُجز أربعة فقط من بين هؤلاء للإدلاء بمعلومات عن العدو؛ وصار ما عداهم حصيدًا للسيف؛ فسقطوا على تراب الهلاك، ولما أصبح هذا المنزل أيضًا مكتظًا بالجثث ومضرًا أو مؤذيًا لحاسة الشم لدى بني البشر؛ بسبب رائحة الجثث الخبيثة، صدر الأمر في اليوم التالي بالتحرك من هناك أيضًا إلى مكان آخر يبعد بالمسافة نفسها، وتفضل السلطان صاحب السعادة في ذلك اليوم بتفقد ميدان المعركة مع أعيان البلاط.

وطبقًا لما سمعته من المرحوم والدي أنه كانت عادة المرحوم جدي «قوجه آلاى بكى» أن يستخدم الخيمة من نوع الجوخ الأحمر في أكثر الحروب، وبهذه الإشارة كان يبدو كأنه أمير فيما بين الجند، وكان تميزه عن الآخرين بهذه الإشارة واضحًا.

وامتطى السلطان صاحب السعادة جواده ذا اللجام الذهبي وتفقد ميدان المعركة وشاهد قتلى الكفار الذين مأواهم جهنم، وعندما تفضل بالعودة إلى خيمته، وبينما كان «إبراهيم باشا» يذهب بجانب الركاب السلطاني، وفى أثناء العبور من أمام خيمة المرحوم «قوجه آلاى بكى» الموجود على بعد أربعين أو خمسين خطوة؛ رأى حضرة السلطان أن «قوجه آلاي بكى» يقف أمام خيمته ليسلم عليه، فيأمر «إبراهيم باشا» قائلًا: «استدع آلاي بكى، واسأله عما سيدبر بعد الآن»، فينادي «إبراهيم باشا» قائلًا: «تعال آلاي بكى»، وعندما تحرك المرحوم وحضر، يتواضع السلطان صاحب السعادة ويقف، ويخاطبه «إبراهيم باشا» قائلًا: «قوجه آلاي بكى، سلطاننا صاحب السعادة وفق بحمد الله تعالى في هذه الغزوة المجيدة، والسلطان صاحب السعادة يسأل عن

التدبير الذي يجب الأخذ به بعد الآن»، فسريعًا ما يجيب «آلاي بكى» بلا تكلف قائلًا: «سلطاني ينبغي ألا يكون للخنزير ابن في مضجعك»، فابتسم السلطان المنصور صاحب السعادة ابتسامة خفيفة أظهرت جماله المبارك، وبالإحسان عليه بحفنة من الذهب جعل الفقير «قوجه آلاي بكى» مشابهًا لأقرانه الممتازين.

واعتبارًا من هذا اليوم، أُعطي الإذن بالهجوم لفرقة المهاجمين ولسائر وحدات العسكر، وتفرقت العساكر المنصورة فرقة فرقة، وتوجهت إلى كل جانب، فكان يذهب كل يوم خمس أو عشر فرق؛ ويحل محلها خمس أو عشر آخرين؛ حيث كانت تلتحق بجيش السلطان، فلم تبق مدينة ولا قصبة ولا مقاطعة من النواحي والأطراف لم تتعرض للغارة، واغتنم غزاة الإسلام العذارى الحسناوات اللائي ليس لهن نظير وذوات الشعر الأصفر، والفتيان اللائقين والمرغوبين والدوارق والأكواب والصواني والشمعدانات الفضية مما لا يحصيه عدًا إلا جناب الباري تعالى فقط.

وهذه الغزوة العظيمة من أعظم الغزوات الإسلامية، وليس معلومًا حتى الآن أن مثلها تيسر لأي سلطان عالي الشأن، وإنني هذا الحقير قليل البضاعة [أي بجوي] قد صرفت كل عمري في تتبع حركة التاريخ، ولما لم يكن لعبد قاصر مثلي نصيب من العلوم العالية، فقد كانت رغبتنا الطبيعية تتجه نحو ميدان التاريخ، فنظرت في هذا القدر من التواريخ واطلعت وعايشت غزوات وفتوحات معظم سلاطين أهل الإسلام، فوجدت أن انهزام التجمعات الكافرة بهذه الدرجة من الكثرة وهلاك حكامهم من خصائص السلاطين العثمانيين المميزة لهم فقط، فقد خصهم جناب رب العالمين عن سائر السلاطين بهذا الإحسان وتلك الموهبة، فالغزوة التي وقعت في صحراء «قوسوه» كانت للسلطان «مراد خان غازي» الذي اشتهر بلقب «غازي خداوندكار»، وبعد ذلك غزوة «قوسوه» الثانية وغزوة «وارنه» للسلطان «مراد الثاني»، وغزوة «نيكه بولي» لـ «يلدرم بايزيد خان»، وغزوة حاكم البوسنة وحرب «أوزون حسن» لأبي الفتح السلطان «محمد خان»، وبعد ذلك غزوة الشاة إسماعيل وحروب «قانصوه الغوري» و«طومان باي» للمرحوم السلطان «سليم»، وغزوة «موهاج» المذكورة للمرحوم

السلطان «سليمان»، وغزوة «أكرى» للسلطان «محمد بن السلطان مراد»، ومع أنه أتى ومضى سلاطين ذوو شأن عظيم من سلسلة جليلة، فإنه لم تُهيئ لواحد منهم واحدة من تلك الغزوات المذكورة.

وإن غزوات الملوك وانتصاراتهم - مثل «الملك شاه السلجوقي» و«الملك محمد غازي» من ملوك الدانشمندية، وسلطان «مصر» السلطان «صلاح الدين يوسف» وغيرهم الكثير - على أعدائهم تعد من أعظم الغزوات التي اطلعت عليها، فإنه لم يكن لدى هؤلاء الملوك الأجناد الكثيرة بهذا القدر، ولم يكن لدى أعدائهم ذلك العدد الوفير بالقدر الذي كان في معركة موهاج، ولكن تلك الغزوات للسلطان المنصور «يعقوب ابن يوسف» من ملوك أسرة الموحدين في بلاد المغرب قد كتب عنها «جنابي أفندي» في تاريخه: «إن يعقوب بن يوسف قام بعبور مضيق «سبتة»[1]، وتحارب في الأندلس مع «فنش فلب» الذي كان ملك إسبانيا، وكان الكفار ثلاثمائة ألف جندي من الفرسان وجند المشاة؛ فانهزموا وقتل منهم خمسون ألف كافر؛ وأخذ وأسر ثلاثة عشر ألفًا؛ وتم اغتنام مائة ألف خيمة، ومائة ألف حمار وبغل وأربعين أو ستين ألف حصان»، وأما غزوة «عمورية» للخليفة المعتصم، فقد قُتل فيها ستون ألف كافر، وإذا قارنا هذه الغزوة بغزوة موهاج فقط، فالله تعالى يعلم أنه لو قيل: إنه قتل وأسر زهاء مائتي ألف كافر في غزوة «موهاج»، لم يكن هناك مبالغة في العدد؛ بل ربما يكون هناك نقص فيه.

وفي نهاية الأمر، فإن من غزوات أهل الإسلام؛ انتصار الصحابة في العصر الشريف لحضرة «أبي بكر» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على كفار الروم، وفي العهد الشريف لحضرة «عمر» رضي الله تعالى عنه هزموا «رستم بن فرخ زاده»؛ حيث تم اغتنام محتويات بلاطه، واغتنم إيوان كسرى عقب انتصار حضرة «سعد بن أبي وقاص» على «يزدجر» مع ستين ألف محارب، وعندما خلا ميدان المعركة من الأعداء، بعدها فصل خمس الغنائم، وأحسن

(١) المقصود به مضيق باب المندب.
- راجع قاموس الأعلام، مادة سبتة.

على كل شخص باثني عشر ألف درهم، خلاف الأشياء القيمة والمجوهرات الفاخرة التي أرسلها إلى حضرة «عمر بن الخطاب» الموجود في المدينة المنورة، ومن الأشياء القيمة المرسلة إلى المدينة، بساط من الديباج مساحته ستون ذراعًا طولًا وعرضًا، فما إن وقع نظر الخليفة على هذا البساط حتى أمر بتقسيمه على الصحابة الكرام؛ حتى أعطى حضرة علي كرم الله تعالى وجهه قطعة حجمها يقدر بشبر واحد؛ حيث باعها بما يعادل عشرين ألف أقچة، ولا يخرج عن الموضوع تلك الغزوات العظيمة التي قام بها «عمرو بن العاص» في فتح «مصر» و«الإسكندرية»، والفتوحات والغزوات الشريفة التى تمت في ديار العجم، وفي أفريقيا في الزمن الشريف لعثمان رضي الله تعالى عنه.

والأمل أن يحيط جناب الباري تعالى أهل الإسلام بعنايته، وألا يقطع بحرمة نبيه وآله سيف أهل الإسلام من فوق رءوس أعداء الدين الأذلاء.

فتح «بدون» عاصمة بلاد المجر وفتح «بشته»[1]

بعد أن استراح الغزاة ثلاثة أيام في صحراء «موهاج» في ٣ من ذي الحجة سنة ٩٣٢هـ[2]، تم إعداد الأمور اللازمة للحرب وإكمالها، وفي اليوم الرابع من الشهر المذكور، تحرك الصدر الأعظم سامي المقام بعسكر الإسلام الذين كانوا مخصصين له، وتوجهوا ليأخذوا منزلًا متقدمًا أمام العسكر، وفي اليوم التالي توجه السلطان صاحب السعادة وعالي المكانة أيضًا مع سائر الجند الذين هم في أعداد النمل صوب عاصمة الكفار، وعندما تفضل بالنزول عند منزل «قودوار»، أتي شخص أو اثنان معتمدان من الكفار بمفاتيح «بدون» و«بشته» وطلبوا الأمان؛ فأحسن عليهم بذلك امتثالًا للقول: «العفو زكاة الظفر»، وأرسل معهم الرجال؛ حيث توجهوا إلى جانب «بدون»، وفي

(١) تقع في بلاد المجر وهي أيضًا على الساحل الأيسر من نهر «طونه» وتقع تجاه «بودين»، وتعد «بشته» أكبر مدن المجر:
- قاموس الأعلام، ٢/ ١١١٦ .

(٢) الموافق ١٠ من ديسمبر ١٥٢٦م.

اليوم الثالث عشر من ذي الحجة ٩٣٢هـ عندما أصبحت صحراء «بدون» في وضع تحسد عليه بقدوم عساكر الإسلام، علق رجال القلعة وإناثهم سيوفهم وأكفانهم في رقابهم، ومرغوا وجوههم في تراب المذلة بأنواع التضرع والتذلل.

وفي هذه الأثناء، تم التنبيه والتأكيد على الالتزام بالانضباط؛ ولذا لم يلحق أي ضرر بمال أي كافر أو خسارة بأهله وعياله، وفي اليوم التالي وصل السلطان صاحب السعادة لتفقد القلعة، وغنم خزائن الملك الوفيرة، وأمتعته القيمة، وشعرت القصور والأراضي المحيطة بالعاصمة، التي كانت مزدانة بالأشجار والأبنوس المتراصة في ترتيب عجيب شعرت بسعادة عارمة بتقبيل قدم حضرة السلطان، وأقيمت المجالس والضيافات السلطانية الفائقة في هذا الموضوع المذكور على مدى عشرة أيام كاملة، حيث أنعم وأحسن علي أرباب اللعب واللهو والندماء والعازفين بالربابة، وبعد ذلك؛ صدر الأمر بالتوجه إلى المكان الذي كان موضع صيد الملك الكافر والذي كان محكمًا ومحاطًا بالصحارى الكثيرة والتلال والوديان والجبال والأسوار المحكمة؛ حيث تم صيد وحوش أكثر من أن تحصى أو تعد، ومن ثم الفوز بوقت شاعت فيه أنواع الصفاء، وشحن في السفن عدة آلاف من البيوت من الأهل والأولاد ممن كانوا مرغوبين لدى رعايا الكفار الذين طلبوا الأمان، ولدى اليهود، وحملوهم إلى دار الإسلام، فأسكن عدة بيوت من هؤلاء في ضاحية «يدي قله» وأرسلوا طائفة اليهود بعضهم إلى «سلانيك»، وبعضهم الآخر إلى الممالك الأخرى.

وقد حمل في السفن الكثير من الأشياء العجيبة التي ليس لها نظير في ديار الإسلام، ومن جملة هذه الأشياء: ثلاثة تماثيل غريبة وعجيبة مصنوعة من البرونز كانت موجودة خارج باب القلعة، والغالب أن أكبرها كان تمثالًا لملك كان يحكم كل الكفار في وقت ما، والاثنان الآخران كانا أصغر من الأول ولكن في الهيئة والقامة نفسيهما، كأنهما كانا تمثالين للأبناء الذين ارتقوا العرش من بعده، ولما كان هؤلاء ذوي هيئة غريبة وذوي صفة عجيبة، فقد حملوا في السفن من أجل أن يراهم الناس ونقلوا وأرسلوا إلى «إستانبول»، ووضع كل واحد من هؤلاء على كرسي حجري في الميدان المعروف باسم «آت ميداني».

وكان الناس جميعًا مندهشين مما شاهدوه، وكان مطلع قصيدة المرحوم «فغاني» - التي نظمها في حق هؤلاء التماثيل - «أتى إبراهيمان إلى كنيسة الدنيا» سببًا في إعدام الشاعر وصلبه، ومن الأشياء التي أرسلت أيضًا شمعدانتان كبيرتان وكانتا مطليتين ومزخرفتين كثيرًا، وهما موضوعان الآن على يمين ويسار محراب جامع «آيا صوفيا» الشريف، وكُتب عليهما تاريخهما.

وما إن تم أمر بناء الكوبري في اليوم العاشر حتى عبرت الجيوش إلى ساحل «بشته»، فصارت هذه الصحارى والبوادي تُطوى تحت أقدام العسكر المنصورة، وأضرمت النيران في كل المدينة ما عدا سراي الملك في «بدون»، فغدت رمادًا هنا وهناك.

فتح قلعة «سكدين»[١]

تم ذلك الفتح في المحرم الحرام سنة ٩٣٢هـ[٢]، عزم الوزير الأعظم على التوجه إلى نواحي «سكدين» بالجند الذين كانوا حوله، ولم يتوان قط في أن ييسر لطائفة الإنكشارية التي عُينت تحت قيادته غنائم القلعة المذكورة، ولكن كان «كوچك بالي بك» قد مكن غزاة «سمندرة» من الوصول أولاً إلى «سكدين»؛ حيث حصلوا على أكثر الغنائم، واغتنم جند الوزير الأعظم أيضًا القدر الذي وصلوا إليه، وعبر بعض الغزاة نهر «تيسه»[٣]، وشنوا في تلك النواحي أيضًا غارات كثيرة، وألحقوا بها خسائر عظيمة.

فتح قلعة «تبتل»[٤]

وقع الفتح في ٢٤ من ذي الحجة سنة ٩٣٢هـ[٥]، بعد أن قامت العساكر المنصورة

(١) وهي تقع على نهر «تيسه» في بلاد المجر.
- قاموس الأعلام، ٤/ ٢٥٣٧.
(٢) الموافق ١٠ من نوفمبر ١٥٢٦م.
(٣) هو نهر يصب في نهر «طونه» في بلاد المجر.
- Danişmend : Adı geçen eser، S.526.
(٤) وهي قصبة تقع على نهر «تيسه» الذي يصب في نهر «طونه» في بلاد المجر.
- Danişmend: Adı geçen eser، S. 526.
(٥) الموافق الأول من أكتوبر سنة ١٥٢٦م.

التي كانت تحت قياده الصدر الأعظم بفتح «سكدين» والإغارة عليها، حطوا برحالهم تجاه القلعة المذكورة «تبتل»؛ ولكن على إثر فرار الكفار الذين كانوا بداخلها وترك ديارهم خوفًا من صولجان السلطان ومهابته، عبر جند الإسلام نهر «تيسه»، ونهبوا وسلبوا القرى والضياع التي كانت في أطراف القلعة المذكورة ونواحيها، وألحقوا أضرارًا بالغة بالكفار الذين مأواهم جهنم في تلك النواحي، وبعد ذلك، نزلوا تجاه «وارادين»[1] قبل صاحب السعادة السلطان حامي العالم؛ حيث بدءوا في الاهتمام بأمر الكوبري والعمل فيه.

فتح مدينة «باج»[2] وكنيستها

عندما عقد الصدر الأعظم النية على التوجه لفتح «سكدين»، قام السلطان الغازي صاحب السعادة بالتوجه إلى ساحل «طونه» بجيش عرمرم، وما إن وصل إلى مدينة «باج»، كان قد هرب معظم الكفار، ولكن على إثر تحصن الكثير من الكفار مع أموالهم وأولادهم في الكنيسة الكبيرة، قام غزاة الإسلام بفتحها بإقدامهم ومساعيهم الجليلة؛ واغتنموا الغنائم الوفيرة جدًا إلا أن الملاعين تمكنوا من إيصال الكثير من أهل الإسلام إلى مرتبة الشهادة أثناء الفتح.

الحرب التي قام بها «خسرو بك» أمير لواء البوسنة

في سنة ٩٣٢هـ[3]، بينما كان «خسرو بك» قائدًا لفرقة حماية مؤخرة الجيش مع جند البوسنة، قام الكافر «دلو راديج» والملعون «ناطور أشباه» مع كثير من الأشقياء بخطف الكثير من جند الإسلام الموجودين في المؤخرة ومن جند خدمة المؤن، وقتلوهم، وعلى إثر تلك المفسدة، نصب الأمير المذكور كمينًا، وهجم عليهم وهم غافلون، فلم ينج

---

(١) وهي مدينة تقع شرق «بودين» في بلاد المجر.
ـ قاموس الأعلام، ٦/ ٤٦٥٥.

(٢) تقع في بلاد المجر.

-Danişmend : Adı geçen eser، S. 491.

(٣) الموافق سنة ١٥٢٦م.

منهم فرد واحد؛ إذ جعلهم جميعًا زادًا للسيف، واستحق بذلك خير دعاء السلطان حامي العالم؛ ونال عطفه؛ حيث أكرم بالخلع الفاخرة.

فتح قلعة «مجالينه» واغتنامها

لقد قام عدة آلاف من الكفار بحفر الخنادق في موضع به مستنقع وبحيرة في ناحية «طونه» بجوار «باج» و«وارادين»، وأحكموا أطرافها وتحصنوا بأعداد لا حصر لها من الأسرى، وبالمال الوفير.

ولما وصل هذا الخبر، هجم عليهم جند الإسلام؛ حيث دارت رحى معركة وحرب وقتال لم يحدث مثله في فتح أي قلعة حصينة، حتى شرب من كأس الشهادة كل من «شجاع أغا» أسد ميدان المعركة والذي كان أغا الإنكشارية في العتبة العليا، ورئيس مدربي كلاب الحرب، ورئيس الجاوشية، والكثير من رؤساء المشاة، وأيضا العديد من غزاة الحرب.

وحتى بعد الفتح، قام الكفار الذين مأواهم النار بتقديم أرواحهم فداء لأهلهم وأطفالهم ومالهم، فلم يكفوا عن القتال رغم أنهم كانوا يقتلون فردا فردا، ولكن على الرغم من ذلك فإنه تم الحصول على قدر من الغنائم ليس له حد ولا حصر، وبصفة عامة، فقد كانت الغنائم التي صارت من نصيب جند الإسلام في هذه الحملة الموفقة تزيد عن النصاب؛ حيث ملأ كل شخص حمله من الأواني الفضية والذهبية ومن الأقمشة النفيسة، وألقى الجل والخرقة التي كانت زائدة عن حاجته، وساقوا الأسرى أمامهم مثل قطيع الخراف، ولم يكن هناك شبهة لدى أي فرد في أنهم كانوا يزيدون عن أضعاف جند الإسلام.

عودة السلطان إلى دار السلطنة العلية

وصل حضرة السلطان عبر هذا الطريق في أواخر شهر ذي الحجة من هذه السنة[1]

---

(١) الموافق ٧ من أكتوبر ١٥٢٦م.

أمام «وارادين»، وبدأ عبور الكوبري، حيث عبر السلطان صاحب السعادة وعالي المقام الكوبري في اليوم الثالث من المحرم الحرام، وفى اليوم الخامس، وصل إلى «بلغراد» دار الجهاد، وفى اليوم الثاني والعشرين، أتى إلى «أدرنه» المحروسة، وفى اليوم الثامن من شهر صفر الخير[1] دخل بالعزة والإقبال إلى القسطنطينية دار السلطنة العلية.

تـاريخ

حضرة السلطان سليمان سلطان العصر وخاقان الروم
جرد الجند بشكيمة واستحوذ على شجاعة الكفار
استولى على عرش «أنكروس» وبتقدير الحق
كتب الكاتب تاريخ ذلك: فتحت المملكة وأيضًا «بودين»

صورة براءة سلطانية

هي صورة البراءة [سند الملكية] التي أُعطيت للمرحوم جدنا الأعلى «داود بك»، وقد وصلت هذه البراءة الشريفة على شكلها هذا إلى هذا الحقير [بجوى] متنقلة من أجدادنا يدًا بيد، وقد تم تحريرها للتعرف على قواعد وقوانين ذلك العصر والرجاء أن تكون وسيلة للذكر بالخير:

حكم النشان الشريف عالي المرتبة السلطاني والطغراء الغراء سامي المكانة الخاقاني، المنفذ بالعون الرباني والمن السبحاني، هو ما يلي:

الآن، تم تعيين مقاطعة «تيمار» لرافع التوقيع الرفيع الهمايوني وحامل الفرمان البليغ المنيع والميمون مفخر الآمال والأقران «داود» دام مجده؛ وذلك على وجه الاستبدال الذي تم من تحويل «يحيى باشا زاده بالي» الذي خلف الأعالي في سنجق البوسنة، ومن بعض تحويلات «أحمد» و«يوسف» اعتبارًا من يوم سبعة وعشرين من شعبان لسنة

(١) الموافق ٢٤ من نوفمبر ١٥٢٦م.

اثنتين وتسعمائة هجرية[1]، ويبلغ مقدار خراج مقاطعة الزعامة الخاصة بها خمسين ألف أقـچـة، وقد رأيت أنه لائق وأولى بها ومستحق لها بموجب تذكرة أمير الأمراء الكرام ظهير الكبراء الفخام «يعقوب باشا» أمير أمراء «الروم إيلي» دامت معاليه، ومن ثم قلدته وأعطيته إياها، وتذكر على النحو التالي:

قرية رشك

منزل	مقدار الأقچة في كل منزل	مطلقة	طفل	أعزب	ضريبة منفعة	حاصل
٧٧	٤	٢	١١	١٤	١٠	٦٥٣٨

قرية بارلت قاقنه

منزل	أعزب	حقل	مطلقة	يتيم	مجرد	ضريبة منفعة	حاصل
٨٧	١٣	٢	٤	١	٦	٢	١٥٨١٤

قرية كورنه ويدانجه

منزل	أعزب	حقل	مطلقة	طفل	ضريبة منفعة	حاصل
٦١	١١	٢	٩	٨	٦	٨٥٥٢

قرية غلو حجه

منزل	حقل	مطلقة	ضريبة منفعة	حاصل
٢٩	٢	٢	١٣	٨٧٣٢

(١) الموافق ٣٠ من أبريل سنة ١٤٩٧م.

مزرعة

حقل	مرعى	حاصل
٢	١	٤٥

وقد أخذ هذا التيمار عدا إضافات تحويل «يوسف» و«أحمد»، ومُنحت إلى «داود بك» المذكور، وبقيت في أيدي «يوسف» و«أحمد» القرى التي صرف النظر عنها «داود بك» المذكور برغبته، ووجهت إلى المذكورين مع تيمارهما، وعلى هذا ينبغي أن يتصرف «داود بك» على هذه القرى أيضًا علاوة على مقاطعة الزعامة في ٢٧ من شعبان المعظم.

قرية قوستان مقه غور

المجموع	الداخل
٥٠٠٠٠	٢٢١٤

قرية براق التابعة للمذكورة

الدخل الخارج عند الدفتر
٢٢٢٥

وكانت قد قيدت هاتان القريتان على خمسة أفراد، وأمر بأن تكون تحت يده بعد اليوم، وأن يكون متصرفًا عليها بحيث تكون مقابل للخدمات المبرورة والموفورة، وللمساعي المشكورة للعساكر المنصورة، ولتعطى له بموجب دفتر خاقاني، وينبغي ألا يحول دون تنفيذ ذلك وينازع هذا الأمر أي أحد كائنا من كان، وبأي وجه من الوجوه وبأي سبب من الأسباب، وليعلم أهل هذا المكان جميعًا، صغيرهم وكبيرهم أن «داود» المذكور هو «سوباش» السلطان؛ أي من يقوم بأمور الضبط والربط، وعليهم أيضًا أن يوقروه ويكرموه، وليرجعوا إليه في الأمور المتعلقة بالسوباشية، وألا يحيدوا عن كلمته، وليكن ذلك معلومًا لهم، تحريرًا في اليوم الحادي عشر من شهر جمادى الآخرة سنة اثنتين وتسعمائة بمقام «قسطنطينية».

كما توجد تحت أيدينا أيضًا براءة الابتداء لـ «جعفر بك» رئيس سباهية البوسنة والولد الأمجد للمرحوم «داود»، والذي كان أيضًا جدنا، وهي توجد لدي بشكلها نفسه، حيث كانت قد مُنحت في زمن «دلاك مصطفى باشا»، وسبب تحرير الخطاب وتسطير الكتاب

هو أنه لما كانت تلك القرى الخاصة بهذا التيمار الموجود في نواحي «ترغوشته» محلولة من تحويل «ويصال أوغلو علي بك»، ولما كان قد صدر الأمر في البلاط العالي بتوجيه مقاطعة التيمار إلى «داود بك أوغلو جعفر چلبي»، وهو من الذين لم يتصرفوا في مقاطعة التيمار التي يبلغ دخلها أربعة آلاف وتسعمائة وستة وثمانين [٤٩٨٦] أقچة، فقد منحت تلك المقاطعة للمذكور بالأمر الواجب الاتباع لحضرة سلطان الغزاة والمجاهدين خلدت سلطنته، ولتكن تحت يده وتصرفه بعد اليوم بموجب أمر السلطان حامي العالم، كمقابل للخدمات المبرورة للعساكر المنصورة، ولتنفذ بمقتضى الدفاتر، وينبغي ألا يحول دون ذلك وألا ينازع هذا أو يتدخل فيه أي أحد، تحريرًا بمقام «أدرنه».

قرية إيرانيك التابعة لبرغوسته

منزل	أعزب	مطلقة
١٠	٤	٣

حاصل

٣١٥٩

قرية ديبس التابعة لبرغوسته

منزل	أعزب	مطلقة
١٩	٢	١

حاصل

١٨٢٣

المجموع

٤٩٨٢

وفي هذه البراءة الشريفة توجد علامة أمير الأمراء ولا يوجد ختمه، وهذه أيضًا هي:

- صورة براءة المرحوم «جعفر بك»:

النشان الشريف السامي المكان السلطاني والطغراء الغراء والحاكم للعالم هو أنه: حاليًا لما قام صاحب الفرمان المنفذ «جعفر» بطلب براءة جديدة بموجب الدفتر الجديد، لمقاطعة الزعامة التي يتصرف فيها في نواحي «بليج» في سنجق البوسنة، قمت بتجديد البراءة له، وبموجب تذكرة الدستور المكرم والمشير المفخم وزيري «سنان باشا» دامت

معاليه، رأيت أنه لائق ومستحق لها، وأُعطيت له ما سيتم ذكره وشرحه على النحو التالي:

- فقد حرر على الشكل المذكور عدد ثماني قرى مجموع خراجها [١٤٣١٥] أقچة، وأمرت بأن تكون، بعد اليوم، تحت يده وتصرفه وذلك كمقابل للخدمات المبرورة والمساعي المشكورة للعساكر المنصورة.

ولينفذ ذلك بموجب الدفتر، وينبغي أن يعلم أهل هذا المكان وضيوفهم وشريفهم، وصغيرهم وكبيرهم أن المذكور مسئول عليهم، ومن ثم يجب أن يوقروه ويكرموه، وليرجعوا إلى المذكور في الأمور المتعلقة بالضبط والربط فيها، وينبغي ألا يعارض أو يمانع أي مخلوق كائنًا من كان في تنفيذ هذا الأمر، وليعلموا ذلك، وليعتمدوا العلامة الشريفة، تحريرًا بمقام «أدرنه».

ويفهم أنه كانت مقاطعة «زعامت السيف» [قليج زعامت] في هذا العصر عبارة عن عشرة آلاف أقچة، وهذه صورة أصلية للبراءة الشريفة.

في ذكر ورق الطباعة وصناعة البارود

فليعلم الباحثون الذين تجذب مجموعتنا المطبوعة هذه نظرهم الشريف أنه على إثر اطلاعنا على معظم التواريخ التركية المتداولة في عصرنا، خطر بالخاطر: «كيف كتب الكفار أيضًا الغزوات المبرورة للسلطان المغفور له في تواريخهم»، أما في بلادنا لما كان الكُتّاب والقراء المجريون متوفرين بأعداد كبيرة، فقد أقرأناهم بعض غزوات المرحوم «السلطان سليمان» من كتب الكفار، وترجمنا الكثير منها إلى التركية، ومن جملة تلك الترجمات ترجمة غزوة «موهاج» التي ستذكر فيما يلي، ولكن تم تنحية التفصيلات التي كتبها الكفار والزيادات التي لا تلزم لعملنا هذا [أي كتابة هذا المؤلف].

وبعد ذلك يتحدث الكفرة الفجرة في تواريخهم عن عدم تسجيل المبالغات والأحداث التي لا تقع، إلا أن هذا الحقير [بچوي] قد وقف على بعض مبالغاتهم، فإما

قارنتها بقصد هذه المبالغات أو أرجعتها إلى عدم فهمهم، ويعرضون ما يلي كدليل على ادعائهم هذا: إن المؤلف الذي يؤلف كتابًا ويدعي فيه أن يكون الهدف من أجل العلم يقوم بجعل أحد الجهال [الشباب] يوقع بأسماء عدة علماء، ثم يعطى الكتاب إلى القائم بأعمال الطبع، وعلى قدر تخمينه بعدد الكتب التي تباع، فإنه يأمر بطبع تلك الكمية بأجر قليل.

ولما كان الطابع لديه تصريح من المؤلف، فلم يثقل عليه في الأجر طمعًا في أن المؤلف ربما يرغب في الزيادة بعد ذلك، ويبيع المؤلف الذي طبع الكتاب بهذه المصاريف الزهيدة ما تم طبعه إلى التجار الذين يذهبون إلى المدن والممالك، طبقًا لما تظهره كل مدينة ومملكة من أهمية عنده، وبهذا يصل إليه بوفرة أجر وبدل تعبه واهتمامه بالعلم.

ووضع الكفار قانونًا من أجل الرغبة في تأليف كتاب والاشتغال بالعلم، فمثلًا لو طبع أي صاحب مطبعة كتابًا واحدًا دون إذن فإنه يستحق الإعدام، حتى ولو رأى الجهلة [الشباب] الذين يوقعون على الكتاب، الكذب والمبالغة والأشياء المخالفة لمعتقداتهم فيه، فإنهم لا يوقعون عليه، ويقولون: عندما لا يكون موقعًا عليه، فإنه لا يُباع ولا يُرغب فيه، والحقيقة فإن أدلتهم في مكانها.

ابتكار الكفار خط الطباعة

إن ابتكار الكفار للكتابة بخط الطباعة هو فن غريب، والحقيقة هو اختراع غريب، وقد ذكروا أنه في تاريخ ١٤٤٠م من ميلاد عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قام رجل حكيم معروف باسم «إيوان كوتنبرك» بهذا الاختراع في مدينة «مايانس»، وقد مضى منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا مائتا عام، وجميع كتب الكفار هي بخط الطباعة، وفي البداية، إذا كانت هناك رغبة في طبع أي كتاب، فإنه هناك صعوبة قد تظهر في وضع وتنظيم حروفه في مكانها بقدر كتابة [الكتاب] باليد، ولكن بعد ذلك، لو كانت هناك رغبة، فإنه يمكن طبع ألف كتاب في زمن يسير جدًا، ولا يحدث إرهاق في طبع الألف مجلد، قدر الإرهاق في كتابة مجلد باليد.

اختراع البارود الأسود لأول مرة

لقد ذكر الكفار أن «برتولوش» وهو أحد أساتذة النمسا قام باختراع البارود أيضًا في سنة ١٣٧٠م، وقد مضى ٢٧٠ عامًا منذ اختراعه في السنة المباركة، وكان الحكيم المذكور من طائفة «برات»؛ أي أنه كانت هناك طائفة مذمومة عند الكفار تسمى «برات» مثل طائفة العشق التي هي مذمومة عند أهل الإسلام، وقد كان «برتولوش» واحدًا من هؤلاء، ولكن كان رجلًا زاهدًا في الدنيا وذا عقل سليم، متفوقًا في كثير من الفنون على الحكماء القدامى، وذكروا أن الملك المعاصر له قام بفصل كل أعصابه وعروقه بعضها عن بعض جزاء على فعله هذا، قائلًا: بينما كنت في مكانة تدعو للاحترام، فإنك قمت باختراع شيء طرد الأمن والراحة عن جميع سكان العالم، ومن ثم قتله بهذا الشكل من التعذيب والمهانة.

ترجمة غزوة «موهاج» من تاريخ الكفار

كان قد ولد الملك «لاووش» في سنة ١٥٠٣م من تاريخ ميلاد عيسى عليه السلام وهو ابن الملك «لاصلو» الحادي عشر، وكانت أمه «عنه أصون» ابنة ملك مملكة «غليه»، وكانت قد ماتت أثناء ولادته، وعندما بلغ عمره عامين صار ملكًا على المجر، ولما كان في الرابعة من عمره، تمت مبايعته ملكًا على «چه»[1]، وكان بطلًا لين الطباع وذا قد موزون كوالده، ولكن كان غير حازم في إدارة الدولة؛ بسبب أن من قاموا بتنشئته كانوا غير موفقين في أسلوب تنشئته، فكان دائمًا مشغولًا بالشراب والمنادمة واللهو واللعب والصيد، ومن أجل هذا كان أهالي المجر غير راضين عنه، كما كانوا غير راضين عن أبيه، وكان أمير «أردل» «صبولايي يانوش» يخالفه في كل أمر؛ حتى إنه في إحدى المرات، شق عليه عصا الطاعة بالعسكر المجموعة من الشعب؛ سعيًا لخلعه عن العرش، أي أعلن النفير العام، ولكن عندما أُلحقت بهؤلاء الجند الهزيمة، زادت عداوته.

---

(١) تطلق كلمة «چه» على قوم من أقوام «السلاف»، وهم يقطنون شمال غرب النمسا.
ـ قاموس الأعلام: ٣/ ١٨٨٧.

وبينما كان الوضع على هذا النحو، وفي الوقت الذي بلغ فيه عمر الملك عام ١٥٢٦م أربعة وعشرين عامًا، توجه سلطان الترك السلطان «سليمان» مع جحافل جنده إلى ديار المجر، وفي ذلك الحين، كان يطلق على أمير «أردل» لقب «باطور أشبان» كما كانوا يطلقون على صاحب المنصب الذي يحمل معنى حاكم عام للمملكة اسم «باطوري أستوان» أو «باطوري أشبان»، أما «صبولايي يانوش»، فكان نائبًا لـ «أشباني» على «طمشوار»، وكان تاج الفرنجة الأوائل والمجر تحت نفوذه، وكان «بان قومورو» قسًا في درجة «إيرشك» لمدينه «قلاجه» التي تقع أمام «باقشه»، وكانوا يطلقون لقب «إيرشك» على القساوسة الذين في رتبه أقل درجة أو درجتين عند القس الملقب بـ «بابارين»، وعمومًا كانت بلاده الواقعة على الحدود خاضعة لرأيه وتصرفه، وكان بطلًا مغوارًا، وكان قد دخل أمير «قومورو» في حروب مع المسلمين مرات عديدة، وفي النهاية، صرف النظر عن منصب «إيرشك» وذلك لبعض الأسباب؛ حيث كان قد دخل طائفة «برات»؛ أي صار منعزلًا عن الدنيا، وأصبح درويشًا عاشقًا.

ولكن على إثر استيلاء الترك على «أشاغي بلغراد»، أصبح أمير «قومورو» قسًا بدرجة «إيرشك» على «قلاجه» مرة أخرى، وذلك بإصرار من الملك والشعب قائلين: «لماذا يكون رجلًا كهذا عاطلًا؟»، وعمومًا صار قائدًا لحماية الحدود، وقد كتب إلى «قرال لايوش» وأخبره أكثر من مرة بأن سلطان الترك على وشك القدوم، وفي النهاية، لما رأى أن خطاباته لا جدوى منها، أتى بنفسه إلى «بدون»، وأدلى بكافة الأحوال شفاهية، ومن ثم صار الملك متحيرًا؛ ولم يدر ماذا عساه أن يفعل؟! وأخيرًا، عقد الملك مجلس مشورة في يوم خضر[1]، حيث صدر القرار في ذلك الوقت بضرورة التدبير، وعندما عقد المجلس، أجمعوا على أنه ينبغي أن يتجمع كل أعيان المجر بجنودهم المجهزين، وجنود النمسا المسلحين والذين يحملون براءات، وجميع الرعايا عمومًا في قلعه «طولنه» في اليوم الثاني من شهر يوليو، وأن يصلوا لمواجهة الترك، وبعدما عقد مجلس المشورة،

(١) وفقًا لمعتقد المسيحيين هو يوم خاص بالنبي جرجس وهو يوافق ٢٣ من أبريل.

أُرسلت طلبات المساعدة والأوامر ونداءات الاستغاثة إلى القس الملقب بـ «بابارين»، وإلى مملكة «نمچه» و«چه» وإلى «أشلزيه»، و«مورو» والي «قارول جاسارين» وملك الفرنجة، ولكافة أعيان جميع المماليك، وقد قام الملك بهذه النداءات حتى ينبغي أن يمدوا الملك وأهالي المجر الذين في تعب وعناء شديدين؛ وذلك لإسعاد الدين، ولكن لم يشفق عليهم أي شخص، ولم يأت أي مدد بعد.

وكان أعوان الملك غير اللائقين قد بددوا خزينته، وعندما لم تعد لدى «قرال لايوش» وسيلة لتحصيل المال، اضطر أن يستولي على مال أوقاف الكنائس التي كانت في مملكته، وقام بتكليف شخصين هما «محادي لاصلو» و«غورندي مقلوش» بأمور سك النقود، وقال: «فليعط هؤلاء الأشخاص مرتبات الذين يأتون إلى الحملة»، وصدر الأمر بتحصيل الأموال للمساعدة من كل رؤساء الدفتردارية والشيوخ ومن الأقباط والصيادين ومن أعيان «أردل» ومن طائفة اليهود، وبينما كان يقوم بهذه التدابير، جاءت إليه الرسائل من والي «أردل» و«طومورو بالي» تفيد بأن سلطان الترك قد اقترب من «بلغراد»، وعلى هذا أرسل الملك أيضًا خطابًا إلى والي «أردل»، أمره فيه أن يجمع بجانبه كافة جنود «أردل» وفرق الـ «شاكل لر» والنمساويين، وكافة الجماعات ذوات المرتبات الدورية، وأن يتحرك من «طمشوار»، وأن يتعقب الأتراك، وأصدر الأمر لوالي «الأفلاق» بالدخول إلى مملكة «تراجيه» التي هي بلاد البلغار بعسكر الأفلاق، وبإحراق ونهب وتخريب كل نواحيها حتى مع اهتمام الترك بدفع ذلك الهجوم، وعلى كل حال؛ لا بد أن تنهب المملكة سواء أتى الترك أو لم يأتوا إلى هذا الجانب.

ولكن متى انتهى من أخذ هذه الاستعدادات، كان الوقت قد مر؛ ولم تظهر أصلًا نتيجة مساعيهم التي اتخذوها في مجلس التشاور، وفي ذلك الحين، كان قد أتى خبر يفيد بأن الأتراك حققوا انتصارًا في عدة أماكن، وعبروا نهر «ساوه»، وإنهم يقومون بضرب «وارادين» وقد رأى الملك أنه لا توجد أي مساعدة من الممالك الأخرى، كما أن أعيان المجر يتثاقلون عن الخروج للحملة، وأنه من الضروري أن يقوم بنفسه بجمع قوته بالقدر الذي يستطيعه ويتوجه لدفع العدو، وعلى هذا، تحرك في يوم ٢٤ من يونيه من

«بدون»، وتقدم خطوة خطوة على طول ساحل «طونه»، وكان كل الموجودين لديه ثلاثة آلاف رجل فقط، وأرسل الساعي تلو الساعي أمرًا بضرورة حضور «صبولايي يانوش» بعسكر «أردل» والالتحاق به، وبداية، أتى «باطوري أندراش» بقدر من العسكر.

وفي هذه الأثناء، وصل خبر آخر سيئ يفيد بأن الأتراك حاصروا قلعة «وارادين» و«إيلوق»، وفي هذه الأثناء، عبر «طوموري بالي» نهر «طونه» بصحبة ألفين من الفرسان والمشاة، وقام بوضع ألف من المشاة وقدر من الفرسان في قلعة «إيلوق»، ووصل لملاقاة الترك بعدد من السفن عن طريق نهر «طونه»، ولكن كان تعداد هؤلاء قليلًا جدًا بالقياس إلى الأتراك، وبينما كان الملك لا يزال عند نهر «طونه»، جاء إليه جنود الحي يعني جنود الناحية، وبعد ذلك، أتى «صبولايي كورك» بثلاثمائة فارس، وأحضر معه ألفًا ومائتين من المشاة، كما حضر عسكر الباب الذين يبلغون ألفًا وثلاثمائة من المشاة، وجاء أربعة آلاف من المشاة، أرسلهم «بابارين»، وكان هؤلاء جندًا في غاية الكفاءة، ووصل «بشبوق أكره»[1]، و«بشبوق وارات» بعسكرهم، وكلمة «بشبوق» تعني القسيس الذي أقل درجة من «إيرشك»، وفي هذا اليوم، أتى خبر يفيد بأن الترك استولوا أيضًا على «إيلوق»، وبدأ الملك في إجراء المشاورة كل يوم؛ حيث كان يقول: «ماذا ينبغي أن أفعل؟ هل يجب أن أتقدم؟ وإلى أين ينبغي أن أصل؟» وقد سقطت في أيدي الأتراك كل القلاع الموجودة في ساحل «طونه» حتى القلاع الكبيرة منها، وعندئذ، اتفق الجميع على أن ينتظروا عند نهر «دراوه»[2] ويقوموا بمنع الأتراك من العبور، وقام الملك بتكليف «ناطور أشباني» بهذه المهمة، وأرسله، ومع أنه كان مريضًا قليلًا فإنه أبدى الحماس، وضم العسكر؛ ولكنهم لم يذهبوا معه؛ حيث كانت قوانينهم تمنع الخروج من تحت راية الملك.

---

(١) تقع في بلاد المجر، وكان تابعًا لها سناجق «سكدين»، «صولتق»، «خطوان»، «فلك».
ـ قاموس الأعلام: ٢/ ١٠١٤م.
(٢) وهو نهر كبير يصب في نهر «طونه».

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 589.

وبينما كان الملك منشغلًا بهذه الأمور، يخرج نهر «دراوه» من تحت سيطرته، ولما سمع الملك بهذا، تكدر صفوه، وقال: «إنني أرى أننا لو بقينا على هذا الحال، فإن رأسي لا بد وأن تذهب، وتبقون أنتم سالمين؛ لأنكم لم تريدوا الذهاب لدفع العدو، ولكن أنا سأذهب وأحمل رأسي بنفسي بعون الله تعالى»، وقال: «يا رب أنت تعلم حالي، وما سيئول إليه هذا الأمر».

وفي اليوم التالي، نهض الملك من «طولنه» وحط رحاله في «سكسار»، وبعد ذلك عبر إلى الغرب؛ حيث عين قائدين أحدهما «طومورو بالي» والآخر «صبولايي كورك»، وجاء المذكوران بعسكرهم إلى صحراء «موهاج» التي تمنوا أن تكون في أيديهم، وفي هذه الأثناء، أتى القائد «بودونه لي مخال»؛ حيث أخبر بأن: سلطان الترك عبر نهر «دراوه» بجنده، وهكذا أصيب الملك وكل الأعيان والعسكر باضطراب عظيم؛ وفي الحال اجتمعوا في مجلس المشورة، وقالوا: «هل يجب أن نحمل على الأتراك، أم من الضروري التراجع»؛ وذلك لأن أمير «أردل» لم يصل بعد، كما لم يصل عسكر «خروات»، والإمدادات لم تأت من «نمچه» و«چه» حتى الآن، وقال «طومورو بالي» في هذا المجلس: «إنه من الواجب أن نحارب الترك، فمع أن عسكر الترك كثيرون، فإن العسكر الذين يستخدمون السيف قليلون جدًا»، فوقع رأيه موقع الاستحسان عند كل الأعيان والعسكر، واستقروا على هذا الرأي، ولكن يجيب «بيريني» بشبوق «وارات» أي أميرها مع ممثل الفرنجة قائلًا: «إنني أرى إنكم تريدون أن تحاربوا الترك، ولكن حتى الآن لدينا ما يقرب من عشرة آلاف شهيد من أهالي المجر نتيجة بأس السيف التركي، أما الآن فيمكن أن يكونوا عشرين ألفًا، فأرسل «بودوري أشتوان» حالًا إلى البابا، وليسجل العشرين ألف رجل بدفتر الشهداء»، وكان لا يوجد لدى الملك أكثر من عشرين ألف جندي مسجلين بالدفتر في ذلك الوقت.

وفي اليوم نفسه، أحضروا المدافع والبارود وسائر لوازم الحرب التي كانت معدة منذ عدة سنوات من «بـدون»، كما حضر أيضًا مائتان من المشاة؛ ووصل عسكر «طومورو بالي» البالغ عددهم خمسة آلاف كاملة، وجاء أيضًا أمير الـ «خروات» مع

ثلاثة آلاف جندي، وأتى الكثير من أعيان البلاد، والتحق أيضًا بجيش الملك ما يقرب من سبعمائة فارس، كما التحق بالجيش أيضًا «جل أشتوان» مع ثلاثمائة فارس، وأتى أمير «أسترغون» مع عسكره، وحضر «سرجي يانوش» مع ألفين من المشاة، وأيضًا أمير «پچوي» مع عسكره، حيث كانوا جميعًا من العسكر المسلحين بالأقواس والسهام والعسكر المشاة، وقد أتت ووصلت جميع هذه القوات في يوم واحد، حيث خرجوا يوم ٢٩ من أغسطس إلى صحراء «موهاج»، وشرعوا في ترتيب الطوابير، وظهر أيضًا عسكر الترك، وتجول «ناطور أشبان» مع الملك بين الطوابير والصفوف، حيث كان يشير «ناطور أشبان» للعسكر بإصبعه على الملك، وكان يقول: «إنه مستعد للحرب في سبيل المملكة، وسوف يحارب حتى الموت»، وكان الملك أيضًا يعطي الأمل للجند ويستميلهم، ويرغبهم في الحرب.

وفي هذه الأثناء، اقترب عسكر الترك، ودق ناقوس الحرب لدى الجانبين، وعُزفت الموسيقى الحربية وهجم عسكر الطرفين، واشتبكوا مع بعضهم، وفي أول الحملة، ولى عسكر الأتراك الأدبار، وتعقبهم عسكر الترك وطردوهم، وتقدموا حتى اضطر الأتراك للتراجع والاحتماء بمدافعهم، وفي ذلك الحين، فتحت كل المدافع الموجودة النيران فجأة، وكان عدد المدافع يزيد عن ثلاثمائة مدفع، وسقطت عساكر الكفار الكثيرة على الأرض، وبهذا السبب انهزم الجناح الأيمن، وبدأ الجنود في الهرب، أما الجنود الذين كانوا في الجناح الأوسط، كانوا يقاتلون بشجاعة لدرجة أنهم تقدموا حتى فرقة الإنكشارية، ويطلق جنود الإنكشارية النار بالبنادق كلما تحينوا الفرصة؛ فأهلكوا ما لا يُحصى من الرجال، وبعد ذلك سرعان ما انهزم عسكر المجر، وتقهقروا وولوا الأدبار، ولما رأى فرسان الترك هذا الحال، هجموا عليهم، وفي هذه الأثناء جاءت فرقة كبيرة وهجمت من أحد الأطراف، وعلى إثر هذا الهجوم، كُسر عسكر الكفار بدرجة لا يمكن وصفها، وتعقب الأتراك الجنود المنكسرين حتى نهر «قره صو»[1]، واضطر الملك

(١) نهر يصب في بحيرة «بيوك چكمه» في شبه جزيرة «إستانبول».
- Danişmend : Adı geçen eser، S.491.

إلى الهروب، وتقهقر لينجو برأسه، وبينما كان يهرب، التقى بـ «جتريز»، حيث أتيا معًا إلى هذا النهر، ويتقدم «جتريز» إلى الأمام، ويسبح النهر، وبينما كان الملك أيضًا يتبعه ويعبر خلفه، انزلقت أقدام جواده عندما أراد أن يسبق صديقه، فسقط وتدحرج في الماء، حيث غرق الملك في الماء؛ بسبب ثقل الجواد وآلات الحرب، واستودع الروح إلى جهنم، وبعد ذلك، وجدوا جثته في النهر، وقتل «طومورو بالي» في المعركة بعدما أضنى بها شجاعة بالغة، وحملوا رأسه إلى سلطان الترك وعلقوها على سن الرمح وتجولوا بها بين طوابير العسكر.

وفي اليوم التالي، أتوا بجميع الأسرى أمام السلطان، وقطعوا رءوسهم، وأُعدم في هذه الأثناء ألف وخمسمائة جندي من جند السواري والمشاة فقط، وقام «جاسار إبراهيم باشا» باحتجاز كل من «هرسك مقلوش» و «بالـچقي يانوش» اللذين كانا من «له»[1]، و«قره ميخال» خازن الملك، و«مارتين بارتلاني» ممن سقطوا في الأسر، وذلك من أجل الإدلاء بمعلومات عن العدو و الاستفسار عن وضع البلاد، وقتل كثير من أعيان المجر أمام السلطان بينما كانوا يهربون من ميدان المعركة، وسجل حوالي ثمانين فقط بالاسم، وكان مجموع الذين نجوا يقدر بخمسمائة من فرق «نمش»؛ أي أنه كان هناك حوالي أربعة آلاف من الفرسان والمشاة قد نجوا، ومن رؤساء المشاة ومن القادة تمكن شخصان فقط من النجاة، وبقيت جميع المدافع في ميدان المعركة، واستولى الأتراك على أموال وأرزاق العسكر التي لا حصر لها؛ وقاموا بشن الهجوم على الأراضي المجرية حتى اليوم الثالث بعد الحرب، ولا يُعرف مقدار الأضرار التي لحقت بالبلاد والأسرى والقتلى إلا الله تعالى فقط. فأغاروا وألحقوا الخسائر بنواحي «بلاطين» ونواحي «بچوي» وأطرافها.

وبينما كان الحال على هذا النحو، كان والي «أردل» «صبولايي يانوش» يشتعل نارًا مع جميع جنده في «سكدين»؛ حيث كان ينتظر هلاك «لاووش قرال» ليحل محله، وفي

(١) وهو اسم قوم مشهورين من أقوام «السلاف» ويطلق على المنطقة التي يسكنها هؤلاء اسم «لهستان».
ـ قاموس الأعلام: ٦/ ٤٠٣٨.

ذلك الحين، أتى سرًا عن العسكر، وتقابل مع السلطان، وربط طوق الكلب في رقبته بالمعاهدة التي أجراها في هذه الأثناء، وصار بعد ذلك يضرب به المثل بين الناس «من تفسد بدايته، تفسد نهايته».

ولما سمعت زوجه الملك «مارية أصتون» بهذه الهزيمة، غرقت في الحيرة، وسقطت في ظلام الخوف، فهربت من «بدون»، وذهبت إلى «بوژونه»[1]، وهكذا عم الخوف والفزع جميع أنحاء المملكة، حتى هرب الناس إلى أقصى الأماكن التى تراها أعينهم، وتخلوا عن جميع القلاع وتركوا أيضًا «أسترغون»، ومن ثم جاء بعد ذلك شخص من قطاع الطرق المعروفين باسم «حيدود» يدعى «حكمة ناك باني» مع بعض أتباعه من هذه الطائفة المنكوبة، واستولى على القلعة، وكانت «ويشغراد» تحت سيطرة القساوسة وطائفة الـ «أشق»، وعندما أتى السلطان إلى «بدون»، وجد القلعة فارغة، فأشعل فيها النيران وحرقها بالكامل، ثم عبر إلى ساحل «بشته»، وأغار على جميع ساحل «طونه» وساحل «بشته»، وبعد ذلك توجه صوب عاصمته تاركًا المجر طعامًا للنار والدخان.

سوف يفتح المسلمون حتى «قزل ألما»: ليكن معلومًا أن سبب هذا الكلام الذي قيل هو ما يلي: شاع بين الناس القول: «لو أن أهل الإسلام فتحوا حتى «قزل ألما» فإن ذلك أمر متوقع»، ولكن مصدر هذه المقولة وسببها لم يكن معلومًا، وفي أثناء ترجمة غزوات المرحوم السلطان «سليمان خان غازي» من تواريخ الكفار وباطلاعي على ما كتبوه، حدث أن قمت بترجمة ما ذكر عن هذا الموضوع؛ حيث طرح منه الكلام الذي لا حاجة إليه وأخذت نتائجه الخالصة:

كان قد أصبح «ماتياش قرال» صاحب قوة بين الملوك، وهو ابن القائد الذي حوصر بداخل قلعة «بلغراد» عندما حاصرها أبو الفتوح سلطان محمد خان، فعندما طرد «ماتياش قرال» أهالي «له» من مملكتهم، وأتى إلى «بدون» مظفرًا ومنصورًا، أراد أن يقبض على الذين كانوا مخالفين له في أطراف «بدون»، وبسبب أنه لم يكن على ثقة من

---

(١) تنطق بالعربية «بوجونه».

«أرشك يانوش» حاكم «أسترغون»، أرسل إليه إذن التسليم ودعاه إليه بحجة المشاورة، ومع أن «إيرشك» كان غير آمن من شر «ماتياش قرال»؛ لأنه كان رجلًا ماكرًا جدًا فإنه اضطر إلى المجيء، ومع أن الملك لم تكن لديه الجرأة على قتل «إيرشك» فإنه وضعه تحت الرقابة حتى لا يوقظ الفتنة، ومات «إيرشك»؛ بسبب ما أصابه من غم وحزن، وأصاب كل أهالي المجر اليأس والحزن على وفاته؛ لأنه كان رجلًا صالحًا جدًا، فهو الذي أمر ببناء قصور «أسترغون»، وكان قد أمر بإنشاء الدهاليز والقاعات والنوافذ والكمر العالي الغريب والعجيب، والحظائر والقصور من أنواع المرمر المزركش الصنع، وكان قد أمر بنقل صور ملوك دولة «ستيه» من الوجه الداخلي للسراي إلى الجدار بطوله، حيث كانوا يقولون: إن المجريين قد جاءوا منه.

وأمر بتزينها بمختلف النقوش والألوان وجعلها في حالة تبعث على الدهشة والحيرة، وكان قد أمر برسم صور ملوك «بدون» على بعض النوافذ؛ واستنبط أشياء كثيرة من إيحاءات الكواكب الثابتة والسيارة ومن كتب الحكماء القدامى؛ ووضعها بطريقة الإيماء والإشارة، وكان مقصده من ذلك بيان أنه صاحب معرفة عن هذا العالم، والتأكيد للراغبين أنه يقف على الأمور التي تجرى في هذه البلاد.

وكان قد رسم على النافذة الأولى: صورة يجلس فيها على العرش رجل نائم مغلقة عيناه، وهو يومئ ويشير في هذا، أنه يأتي ملك بعد «ماتياش» لا يهتم بتدبير أمور المملكة ولا يعاني بأحزانها ولا يستيقظ من نوم الغفلة، وفي الحقيقة كان «لاصلو قرال» في هذه الطبيعة، حيث كان غافلًا عن أمور الدنيا كلها، فمثلًا، لو أبلغوه خبرًا، بأن العدو استولى على مكان ما، كان يقول: «ما أعجب هذا ! هل حدث هذا فعلًا ؟» أي أنه كان لا يحدث أن يقوم بأي تدبير، كالسعي لإرسال العسكر ودفع العدو.

وفي النافذة الثانية، كان قد أمر برسم صورة ملك آخر، وكانت تشتعل النيران تحت أقدامه، وفي هذه النيران كان الرجال يشوون في الأسياخ، وهذا يشير ويومئ إلى أن «لااوش قرال» المريض كان ملكًا ذا طبيعة لينة ومشغولًا بالصفاء والحياة والاستهتار، وباللعب واللهو، وفي عهده حدث نفير عام ألا وهو غزوة «موهاج».

وفي النافذة الثالثة، أمر برسم رجلين عاريين كانا يتضرعان إلى تاج الملك وهما تحت أقدامه، والإشارة في هذا، أن ملكين سيقع بينهما نزاع وقتال لفترة طويلة من أجل تاج الملك، حتى تجرد كلاهما عن الملك، فيصيرا عاريان، وقد حدث ذلك تمامًا، حيث تنازع وتقاتل «يانوش قرال» الذي كان قد نصبه سعادة السلطان المنصور الغازي سلطان سليمان خان عليه رحمة الغفور ملكًا، تنازع وتقاتل مع «فرديناند قرال» الذي كان ملك «بچ» من أجل تاج المجر حتى صار كل منهما عاريا.

وفي النافذة الرابعة، كان قد أمر برسم صورة أسد صارم يرقد على الأرض، ويمسك تاجًا لف عليه شاشًا بمخالبه الأمامية والمعنى المقصود من هذا أيضًا هو: أن سلطان الترك سيخضع ولاية ملك المجر تحت أقدامه، ويظفر بالتاج؛ ولأنه كان لا يوجد رسم صورة على أي نافذة أخرى بعد هذه النافذة؛ حيث كانت هذه الصورة الرابعة نهاية الصور، فقد علم كل شخص أنه حدث وسيحدث هذا الأمر على هذا النحو تمامًا، وذلك لأنه خلال عدة أعوام كانت «بدون» عاصمة الملك وأيضًا «أستوني بلغراد» التي كان بها كرسي الملك الذي يرتدي التاج قد خرجت من أيديهم، وكان «يانوش بن يانوش قرال» حاكم مملكة «أردل»؛ وبهذا السبب اختاروا في تلك الآونة مدينة «بژون»[1] مكانًا للبس التاج وسرعان ما صارت في مقام ظل تاج المجر.

ولكن هذا معلوم أيضًا: إنه كان في يوم معين من السنة وفي المنطقة التي تقع خارج سور قلعة «قابونه»، كان يخرج صغير وكبير وشباب وشيوخ كافة الأطراف والنواحي خارج أسوار القلعة إلى الصحراء، ويقوم الخدم والقساوسة بإنشاد أناشيد التوركو القديمة عند «قزل قابونه» التي كانت في هذه الصحراء، و«قزل ألما» هي التي يطلق عليها «قزل قابونه»، وقد وُضعت لتكون علامة مثل حجر الحدود، ومعنى أناشيد التركو ومآلها: «إذا جاء سلطان الترك بكل القوة والعظمة إلى هذا المكان، فهو أمر واقع لا محالة؛ وإذا مات هنا بأمر الله تعالى، فهو محقق الوقوع، فليكن الاعتماد على الله تعالى

(١) تنطق بالعربية «بجون».

وليرتفع سلطان الترك عاليًا علي هذا النحو، حتى إنه ليصل إلى «قلونه»، فلا تبقى أي سعادة في مملكة النمسا؛ لأن مدينة «قلونه» تقع في مكان بعيد، وهكذا فإنها سقطت في الطرف الأسفل من العالم بجوار نهر «رود»؛ وهذا النهر يصب في البحر عبر مدينة «قلونه»».

عصيان «سوكلون أوغلو قوجه» و«ذو النون أوغلو»

كان ذلك في سنة ٩٣٢هـ[1]، بينما كان صاحب السعادة السلطان حامي الدين مشغولًا بالإغارة علي بلاد الكفار وتخريبها وبصحبته عسكر الإسلام المنصورين لفترة طويلة، أعلن الأشقياء المذكورون، وهم من تركمان «بوزاوق» العصيان؛ وقتلوا في بداية الأمر القاضي المعروف باسم «مصلح الدين» الذي عُين محررًا لهذه الديار؛ و«محمد» الذي كان كاتبًا له، و«مصطفى بك» الذي كان «ابن هرسك زاده أحمد باشا» والذي كان «أمير لواء» وهجموا على ولاية «سيواس»؛ وبدءوا في الإغارة على أموال وأرزاق الرعايا ونهبها.

وذكر المرحوم «عالي أفندي» سبب العصيان في تاريخه على النحو التالي: كان موظفو الدولة يحررون رسم مائتي أقچة على المزرعة التي كانت تحت تصرف «سوكلون» المذكور، وعندما التمس منهم أن يعفي عن مائة ويبقي مائة منها، لم يصدق على مطلبه، وفي النهاية، يتعرض لغضبهم؛ حيث يقوم الغاضبون منه بالقبض على أحد رجاله ويحلقون لحيته الطويلة، ويعاقبونه، وكما لم يقبل رجاؤهم والتماساتهم، أهينوا على هذا النحو أيضًا، وبسبب هذا يعلنون العصيان، ويغيرون على الذين لا ينقادون إليهم ولا يلتحقون بهم.

ومن حكمة الله تعالى أنه في اليوم الذي كان السلطان صائد الأعداء يحارب الملك الكافر صاحب شعار الضلال، قام أمير أمراء «قرمان» «خرم باشا بن إسكندر باشا»

(١) الموافق سنة ١٥٢٥-١٥٢٦م.

الذي كان رجلًا حسن التربية، وغيورًا وصاحب سعادة، ويعتمد على قوة العظمة قام بإحاطة أمراء النواحي علمًا بهذا الوضع، وبينما كان يجب عليه أن يتمهل، لم يصبر، وهجم على الأشقياء على حين غرة؛ وبسبب هذا، استشهد هو و«بوستانجي علي بك» أمير سنجق «إيچ إيل» و«بهرام بك» حاكم «قيصرية»[1]، وصار جمع غفير من أصحاب مقاطعات «زعامت» وأرباب «التيمار» بعضهم شهيدًا وبعضهم أسيرًا.

ومرة أخرى أُعدت قوة للخروج ضد الأشقياء، فبينما كان أمير أمراء «الروم إيلي» «حسين باشا» مجتمعًا في «سيواس» بكل عسكر «ذو القدرلو» و«محمود بك» حاكم «مرعش»[2]، أرسل «إسكندر بك بن يولار قصدى» أمير سنجق «ملاطيا»[3] مع حوالي ألف رجل للتجسس على الأشقياء؛ حيث وضع الخطة التي يراها مناسبة والتي تقضي بأنه في البداية لا بد من جعل السباهية يختبئون في كمين، ويتعقب هو الأعداء برجاله ويسعى لسحبهم إلى هذا الكمين، فإنه على إثر وقوع خوف بلا معنى بالعسكر من مكان الكمين، فروا من هذا الكمين وذهبوا، وكان المذكور «إسكندر بك» قد لحق بالأعداء وراح يتظاهر بالهرب والفرار حتى يسحبهم إلى الكمين بالمناورة، ولكن لم يكن هناك أحد في موضع الكمين، وفي ذلك الميدان يهلك أكثر من أربعة آلاف رجل من الرجال الأكفاء، وبعد هذا أراد أمير أمراء الروم إيلي «حسين باشا» مرة أخرى أن يتظاهر بالتفوق على أقرانه؛ فلم يستمع إلى نصائح «بيري بك» حاكم «أدنه»[4]؛ والتقى

(١) وهي مركز سنجق بولاية «أنقره» وتقع أقصى شمال جبل «أرجيش» الواقع جنوب شرق أنقرة بحوالي ٢٥٦ كيلومترًا.
ـ قاموس الأعلام: ٥/ ٣٨٠١ - ٣٨٠٢.

(٢) وهي إحدى السناجق الثلاثة التي تتشكل منها ولاية حلب.
ـ قاموس الأعلام: ٦/ ٤٢٦٣.

(٣) وهي إحدى السناجق الثلاثة التي تتشكل منها ولاية «معمورة العزيز» ويحدها من الجنوب حلب.
ـ قاموس الأعلام: ٦/ ٤٤٠٢.

(٤) وهي مدينة ومركز الولاية التي تحمل الاسم نفسه جنوب شرق «أناضولي» وتقع أيضًا شرق مدينة «طرسوس» بحوالي ٣٨ كيلو مترًا.
ـ قاموس الأعلام: ١/ ٢١٨.

بالطغاة المذكورين؛ وخاض هو من ناحية و«بيري بك» المشار إليه من ناحية أخرى حربًا ضروسًا لا يمكن وصفها، فسقط على تراب الموت أكثر من ألف من سوارية وجند مشاة الأعداء، ومات في ذلك الحين أيضًا، عديم الحظ المعروف باسم «ذو النون» الذي كان رئيسًا للطغاة، واستولى على كل أحماله وأثقاله وخيامه وسرادقاته.

ولكن اجتمع الملحدون الذين هربوا في منتصف الليل مرة أخرى، حيث هجموا بشجاعة بالغة على «حسين باشا» و«بيري بك» وشتتوا شملهم، وفر «حسين باشا» مجروحًا إلى «سيواس»؛ حيث توفي هناك، وفي هذه الأثناء، فتح «خسرو باشا» أمير أمراء «ديار بكر» أجنحة النصر كالصقر، ولحق بالعصاة، وخاض قتالًا وحربًا ضروسًا مع أبطال الأكراد الذين هم في شكيمة «رستم» حتى أثنت عليه الملائكة المقربون، ولم ينج فرد واحد من الأعداء، حيث أصبحوا جميعًا طعمًا لسيف المسلمين، ولما عُرضت نتيجة هذه الوقائع على الدولة، صدر الأمر بعودة كل فرد من الأمراء إلى مكانه.

عصيان «طوكوز أوغلان» و«بكجه» والقضاء عليهما

وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ٩٣٢هـ(١)، لقد قام من حقت عليهم الإزالة من الوجود «طوكوز أوغلان» في ناحية «برندي» من سنجق «أدنه»، و«بكجه» في ناحية «أولاش» من سنجق «طرسوس» برفع رايات العصيان والإغارة والنهب مع خمسمائة أو ستمائة من قطاع الطرق، وتم استئصال وجودهم الملطخ بالخبائث من وجه العالم على أيدي الأبطال الذين كانوا في لواء والي «أدنه» «بيري بك» المذكور.

عصيان «ولي خليفة بن مصطفى» وقتله

في سنة ٩٣٢هـ(٢)، لما كان «ولي خليفة» المذكور مشهورًا بالرافضية والإلحاد ومن

(١) الموافق ١٣ من فبراير - ١٤ من مارس ١٥٢٦م.
(٢) الموافق ٢٥ - ١٥٢٦م.

جماعة «قره عيسالو» التابعة لسنجق «أدنه»، وبعد أن أصبح يحمل لقب «خليفة» من قبل شاه «القزلباش» أي شاه إيران، اجتمع حوله الكثير من أهل السوء، و سار صوب مقاطعة «طرسوس»، ودارت معركة بينه وبين أمير لوائها، وبينما كان أمير السنجق يسعى ويجد في دفع الأعداء داخل شوارع المدينة الصغيرة، وصل «بيرى بك» سالف الذكر، فلم يعط فرصة للأعداء، وفي الحقيقة، سقط أشخاص كثيرون من بين جنوده، إلا أنه في النهاية، انهزم الأشقياء وتم إعدامهم جميعًا.

عصيان «قلندر» مقطوع الخلف والقضاء عليه

في سنة ٩٣٣هـ[١]، و«قلندر» هذا هو من أحفاد «حاجي بكتاشي ولي»؛ أي أنه من أولاد «حبيب أفندي» الابن الشرعي لـ «حاجي بكتاشي ولي» والمولود من «قاد نجق أنه» بعد طول صبر، وتعتقد هذه الطائفة أن اسمه هو «قلندر بن إسكندر بن بالم سلطان ابن رسول جلبي بن حبيب أفندي»، و«بالم سلطان» هو مظهر الكرامات العلية، وقد كتب المرحوم «عالي أفندي» في تاريخه نقلًا عن أحد الثقات ما يلي: عندما خرج الشاه إسماعيل واعتدى على بلاد الروم في عصر السلطان «بايزيد بن محمد خان» ونزل بجوار المرقد الشريف لـ «حاجي بكتاشى ولي»، يراه في منامه، ولما تفضل «حاجي بكتاشى ولي» بالحديث إليه قائلًا: «ياغلام، عد وارجع وإلا أفنيك»، استيقظ الشاه إسماعيل من هذه الرؤيا، وعاد واتجه إلى «أذربيجان»[٢].

وخلاصة القول: اكتسب «قلندرْ شاه» المذكور قوة ونفوذًا كبيرًا، ووصل إلى مقام رفيع لم يتح لأي عاص قط حتى الآن، وبالتفاف أصحاب العقائد الفاسدة كافة والمعروفين باسم «عشق وآبدال» حوله، تمكن من تشكيل عصابة تتكون من عشرين أو ثلاثين ألفًا من الأشقياء.

---

(١) الموافق سنة ١٥٢٥ - ١٥٢٦م.

(٢) وهي من توابع إيران في ذلك الوقت ومركزها مدينة «تبريز».

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 581.

ومهما يكن من أمر فقد عين الصدر الأعظم والقائد الأكرم «إبراهيم باشا» سردارًا للقضاء عليهم، حيث عبر إلى طرف «أسكدار» مع ثلاثة آلاف من مشاة «الآستانة» وألفين من فرسانها؛ واتجه صوب العدو، وما إن وصل إلى سنجق «آقسراي» حتى أرسل كلًا من أمير أمراء الأناضول «بهرام باشا» وأمير أمراء «قرميان» «محمود باشا» مع أصحاب مقاطعات «زعامت» وأرباب مقاطعات «التيمار» والأمراء ذوي شعار النصر الذين كانوا في إيالاتهم إلى هؤلاء الأشقياء؛ فالتقوا بهم في المكان المعروف باسم «جنجليفه»، ولكن انتصر الأشقياء وأخفق عسكر الإسلام، حتى إنه التحق بزمرة الشهداء كل من أمير أمراء «قرميان» محمود باشا سالف الذكر وأمير «علائية»[١] «سنان بك» وأمير «أماسيا» «قوجه بك» وأمير «بيره جك»[٢] مصطفى بك ودفتردار تيمار الأناضول «نوح» وكتخدا دفتر «قرميان» «الشيخ محمد».

ولما وصل هذا النبأ المفزع إلى مسامع قائد الجيش عالي الوقار، واصل الليل بالنهار وأسرع بالهجوم واللحاق بالأعداء، وما إن وصل إلى نواحي «البستان» حتى ترددت الأخبار بقدومه، وفي ذلك الحين أيضًا، وجهت إمارة أمراء «قرمان» إلى «عيسى بك ابن قوجه إبراهيم باشا» كما عُهد بالمناصب الشاغرة إلى من يستحقونها، ونُفذ اقتراحًا مستحسنًا لم يرد على خاطر أي قائد من قبل؛ حيث حذر بشدة ومنع دخول أي فرد من العسكر المنهزمين إلى جيشه؛ حيث قال: إذا جاء أي شخص من هؤلاء فمن يقبض عليه ويحضره إلى الديوان، يكافأ بالترقية، وليصلب ويعدم المقبوض عليهم حتى لا يكون حديثهم عن هزيمتهم سببًا في انتشار الخلل بين صفوف الجند، وعلى هذا صرف قائد الجند النظر عن كل جند أمراء الأمراء، مكتفيًا بقوات «القابوقولي»؛ أي جند خدم الباب، وقام بتدبير مناسب آخر، وهو أنه استمال المشاهير والأعيان المعروفين باسم

---

(١) وهي مركز قضائي في ولاية «أنطاليه» وتسمية «علائية» تأتي من اسم «علاء الدين الأول قيقود باد» سلطان سلاجقة الأناضول.

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 470.

(٢) مركز قضاء في ولاية «أورفه».

- Danişmend : Adı geçen eser، S. 583.

أمراء عشائر «ذو القدر»، وتعهدهم بأنواع الرعاية حتى يبذلوا الجهد الصادق لتفريق الأشقياء التركمان الذين كانوا من جنسهم؛ وذلك لأنه عندما فتح سلطان العالم ولاية «التركمان»، كان قد ألحق مقاطعات «تيمار» العديد من الأشخاص بمقاطعات خاص السلطان؛ فكان هذا سببًا في التحاق أكثرهم بعسكر «قلندر» صاحب المذهب الفاسد، ولما عمل الباشا صاحب الدراية على بعث السرور بين أمراء العشائر بتوزيع الخلع الفاخرة والإنعامات الكثيرة الوافرة، أخذوا على عاتقهم أمر تفريق تركمان «ذو القدر» وإبعادهم عن عساكر «قلندر»، وفي الواقع فقد ساعدوا على إبعاد الناس عن خدمة «قلندر» بشكل أكثر مما تعهدوا به، ونتيجة لهذا الإجراء انفرط عقد رابطة الأشرار، فلم تمر ليلة ولم يصبح الصباح على العديد من الفرق، وظل «قلندر» مع عدد من الأشقياء الأشرار وحيدًا.

ولما تأكد الباشا ذو الرأي الصائب من صحة هذا الخبر، قام بإرسال اثنين ممن يتصفون برجاحة العقل وصيد الأعداء، المعروفين باسم «بلال محمد أغا» و«دلي بروانه» من «جاشنكرية»؛ أي من طائفة طباخي البلاط العالي مع حوالي خمسمائة من الأبطال المدربين صوب الأشقياء، وبعناية الله تعالى ففي يوم اثنين وعشرين من شهر رمضان المبارك الموافق يوم الجمعة، التقوا في المصيف المعروف باسم «باش ساز»[1]، فعصفوا بآلات «الضالين» وأجبروا فرقهم على الفرار، وقُطعت رأس «قلندر» التعيس وعُلقت في مؤخرة السرج مع رأس «ولي دوندار» من أبناء أمراء دولة «ذو القدر»، وتم الاستيلاء على كل أسلحتهم وأمتعتهم، وأُرسلت أعلامهم المنكسة إلى دار السلطنة.

وفي مقابل هذا النجاح، أُحسن على السردار عالي الوقار بسيف مرصع وخلعة فاخرة وتشريفات كثيرة مزينة بالدبابيس ذات الجواهر.

---

(١) يقع ناحية جبال «طرسوس».

- Danişmend : Adı geçen eser، S.491.

التحقيق مع الذين فروا من المعركة وتصرفوا تصرفات مخزية

لقد قام الباشا المظفر «إبراهيم باشا» بعقد الديوان بعد الفتح، وشرع في استجواب هؤلاء الأمراء الذين انهزموا في مواجهة الأشقياء، ففي بداية الأمر استجوب «بهرام باشا» أمير أمراء الأناضول، فلما تحدث بعنف شديد إلى «بهرام باشا» قائلًا: «لماذا هربتم من أمام الأشقياء الذين ليس لهم عهد بالحروب»، ظل «بهرام باشا» صامتًا، ولم يقدر على التحدث أو الإجابة على الإطلاق، وبعد ذلك، عنّف الأمراء الآخرين، وعندما سألهم السؤال نفسه الذي سأله لـ«بهرام باشا»، ظل بعضهم صامتًا دون أن يدلوا بشيء، والبعض الآخر عارضوا وتذمروا فيما بينهم قائلين: «إنك هربت وتسببت في الهزيمة»، ونتيجة لهذا الضجر، ظهر التشاجر بالدرجة التي كانت ستؤدي إلى القتال، وعندما لم يصدر أي كلام يمكن أن يكون جوابًا على استفسار إبراهيم باشا من أي فرد قط، وفي الوقت الذي كان فيه يشير إلى الجلادين معدومي الأمانة الذين كانوا موجودين آنذاك، نهض «محمد بك» أمير سنجق «إيچ إيل» وهو الابن الأرشد للمرحوم «بير محمد باشا القرماني» الذي كان متقاعدًا عن منصب الصدارة العظمى سابقًا، وجاء أمام الوزير المشهور، وبعد أن دعا وأثنى على سلطان الإسلام أولًا، ثم أثنى على «إبراهيم باشا» قال: كان يجب أن يشرع في مثل تلك الأمور العظيمة - التي كانت تسمع من قدمائنا - بعد التوكل على الله وبعد التوصل إلى معجزات الرسول عليه الصلاة والسلام، وبعد التشاور مع أرباب التجارب وأصحاب البصائر، أما الآن فقادتنا لا يذكرون الله تعالى، ولا يتشاورون مع أصحاب العقول، بل ربما كانوا يذمون ويحقرون من يقوم بهذا الأمر، وكان هذا بسبب شؤم الغرور الذي حل على رأسنا، وهكذا، فإن ما عرضته على جنابكم هو الباعث على هذا الأمر أي الهزيمة.

وتحدث وذكر «محمد بك» بأسلوب مؤثر على هذا النحو، حتى سالت دموع عين «إبراهيم باشا» وأثنى على «ابن بيري محمد باشا»، وصرف النظر عن إعدام الأمراء

في مقابل هذا الكلام الصادق؛ وعُفي عن دمائهم، وأعطى إذن الانصراف للجند، ثم وصل الباشا جليل الشأن إلى العتبة العلية في أواسط ذي القعدة، مصطحبا «بيري بك» المشار إليه، حيث سعد كلاهما بتقبيل العرش السلطاني.

ادعاء الجاهل المعروف باسم «قابض» واقتصاص زمرة العلماء منه

كان هذا الحدث في ٨ من صفر سنة ٩٣٤ هجرية[١]، كان المذكور مرتكبًا للفسق والفجور؛ كما أنه فضل حضرة «عيسى» عَلَيْهِ السَّلَامُ على نبينا ببعض الادعاءات الباطلة، وراح يتجول في الخمارات ويضل عامة الناس، ولما رأى بعض العلماء الغيورين على الدين هذا الوضع، قاموا بالقبض عليه، وأحضروه إلى الديوان الهمايوني، ففوض الصدر الأعظم «إبراهيم باشا» هذا الأمر إلى قاضي عسكر الروم إيلي «فناري زاده محيي الدين أفندي» وقاضي عسكر الأناضول «مولانا قادري أفندي» في ذلك الوقت، فإنه كان كلاهما مغرورًا بحب الجاه والعظمة، ولم يستطيعوا أن يجدوا الإجابة التي تحمل «قابض» على السكوت، ولم يقدروا على الكلام إلا بقولهم: «حكمت بقتله»؛ وذلك دون إدانته وإقناعه بجرمه، ولكن الملحد أصر على دعواه، وأثبت وعضد دعواه ببعض الآيات والأحاديث.

أما الوزير الأعظم «إبراهيم باشا» فقد قام إزاء هذا الوضع بتوبيخ شديد لهما قائلًا: «لو أن هناك خطأ قام به هذا الشخص بينوا هذا الخطأ ووضحوا وقوموا بإظهار هذه الشبهات التي هي منعقدة في طبعه، وبعد إثبات جرمه، احكموا بقتله»، وبصفة عامة، فلم تقع أي إدانة لهذا الملحد؛ فيخرج من الديوان الهمايوني ويذهب، وعلى إثر هذا، فض الوزير الأعظم المجلس في ذلك الحين.

وربما كان السلطان صاحب السعادة قد استمع لهذا الحوار من خلف النافذة التي كانت تطل على المكان الذي يجلس فيه الوزراء، فلما دخل الوزراء للعرض، تفضل

(١) الموافق أواسط يونيه.

حضرة السلطان بالحديث قائلًا: «يأتي الكافر إلى ديواننا، وينقص من شأن حضرة نبينا عليه الصلاة والسلام، ويجرؤ على الهذيان، ولا يمكن إدانته بالأدلة القاطعة، ويخرج ويذهب فما سبب هذا؟»، وعندما يجيب الوزير الأعظم قائلًا: «ماذا ينبغي أن أفعل، وقضاة عسكرنا غير دارين بالمسائل الشرعية، حتى يستطيعوا إدانته ويحملوا هذا الملحد على السكوت بأدلتهم القاطعة؟»، يتفضل السلطان صاحب السعادة والقلب المنير قائلًا: إن العلم ليس مقصورًا على قضاة العسكر فقط، فليحضر في الصباح كل من المفتي والقاضي، ولتنظر دعواه بحسب الشرع.

وما إن خرج الأمراء من مكان العرض حتى أرسلوا الجاوشية، وقبضوا على الملحد سالف الذكر وحبسوه، ونبهوا على المفتي وقاضي إستانبول بالحضور إلى الديوان الهمايوني، وكان شيخ الإسلام في ذلك الحين هو المرحوم «كمال باشا زاده مولانا شمس الدين أحمد»، وكان قاضي إستانبول هو «مولانا سعد چلبي»، وفي اليوم التالي، عندما أتوا إلى الديوان الهمايوني، اعتبر قاضي عسكر الروم إيلي عدم تصدره المجلس حجة لتركه المجلس؛ فقام وذهب، ووُضع كرسي لشيخ الإسلام في مقدمة هؤلاء، وكرسي آخر للقاضي مقابل هؤلاء، وبعد ذلك، استفسر حضرة مفتي المسلمين بكمال حلم عن ادعاء «قابض»، وأصغوا واستمعوا بكمال صبر لما يقول، فذكر «قابض» براهينه ودلائله التي يستدل بها من الآيات البينات الربانية ومن الأحاديث النبوية، ويشرح شيخ الإسلام سوء فهمه وإدراكه لما أورده من آيات وأحاديث وذلك على قاعدة علمية، وأزاح الستار عما وقع فيه من شبهة وأفهمه الصواب، ولما بدا الحق وظهر، سكت «قابض» تمامًا، وأصبح على بينة من خطئه، ومبهوتًا من موقفه، وتحدث إليه شيخ الإسلام ثانية وقال: «ها هو قد ظهر الحق، هل لديكم كلمة أخرى، هل تعدل عن هذا الاعتقاد الباطل وتقبل الحق؟»، إلا أن الملحد استمر في اعتقاده الفاسد ولم يعد عما هو فيه، وقال شيخ الإسلام أيضًا: «لقد انتهى أمر الفتوى، واحكموا بما يلزم بالشرع»، وسأل القاضي أيضًا ثانية قائلًا: «هل عدت إلى الاعتقاد على مذهب أهل السنة والجماعة؟»، إلا أن «قابض»

لم يتدبر ولم يقر بالحق، ولما أصر على عناده في هذا الطريق، أقروا بقتله طبقًا لقواعد الشرع، وقُتل وقُهر الملحد المذكور بعد الديوان بالشرع القويم.

عصيان «سيدي» و«أنجير يميز» والقضاء عليهما

كان ذلك في جمادى الأولى ٩٣٥ هجرية[1]، كان قد ذُكر فيما مضى أن «بيري بك» حاكم «أدنه» قد جاء إلى باب الدولة برفقة الصدر الأعظم، ومن حكمة الله أنه على إثر ابتلائه ببعض الأمراض، لبث في إستانبول لفترة طويلة، ولما بقيت منطقة «أدنه» بلا حاكم لفترة، يقوم «سيدي» المذكور ابن أخ «أحمد بك» أمير سنجق «عزير» برفع راية العصيان، ويضع تاجًا أحمر على رأسه تقليدًا للقزلباش، وفي البداية، يقوم بقتل الأمير المذكور «أحمد بك» كما قتل الشخص المعروف باسم «يوسف» من أصحاب مقاطعات «زعامت» في تلك الناحية، ويقتل عامله المعروف باسم «حسين»، وينهب أموالهم، ويجمع إلى جواره حوالي خمسة آلاف من الأشقياء، فنهبوا ناحية «برندي» وأشعلوا فيها النيران، ثم فعلوا مثل ذلك بقصبة «إياس»، ومع أن «بيري بك» المشار إليه كان مريضًا وبلا قدرة، فإنه يبذل قصارى جهده، ويعد ألفًا وخمسمائة رجل من رجاله، وحوالي أربعة آلاف من المشاة ورماة السهام من الرعايا وأهالي الولاية، وبينما كانوا على وشك الهجوم عليهم، يغيرون على القصبة المعروفة باسم «قارض» التابعة لإيالة «ذو القدر لو».

وفي ذلك الحين، يأتي شخص مفعم بالكبر يعرف باسم «أنجير يميز» مع شرذمة من رجاله يملؤهم الغرور ويزيدون عن خمسمائة من الأشقياء، فيلتحق بالأشقياء المذكورين، ثم أتوا بعد ذلك معًا وأغاروا على قصبة «سيس»[2] واقتحموا قلعتها، وفي ذلك الوقت تمامًا، وصل «بيري بك» المشار إليه الذي كان أشجع أمراء الأمراء ومرشدًا

---

(١) الموافق يناير ـ فبراير ١٥٢٩م.

(٢) وهي تقع في «أضنه».

- Danişmend : Adı geçen eser، S.495.

للشباب، فقام بشن الهجوم على الملحدين المبغوضين واخترق صفوفهم، ولما أُضرمت نار الحرب والقتال، لم تقدر القوات التي أعدت من أهالي الولاية على الثبات، وهربت إلى الجبال وتفرقت، ولكن عدم ثبات المذكورين وهروبهم لم يؤثر في «بيري بك» قط، ولم تنكسر شجاعته؛ بسبب الوهن والضعف الذي دب في صفوف عسكره، وسرعان ما أرخى عنان جواده نحو الأبطال الذين كانوا في خدمته؛ حيث استمال قلوبهم بالوعود المتعددة، ثم هجم على الأعداء.

وبفضل الله تعالى، مزق شمل الأشقياء، وفي النهاية، انقسم الخائنون قسمين، تحصن قسم منهم في ناحية «عزير»، والقسم الآخر تحصن بجبال «سيس»، ولكن قام الأمير المشهور، بتدبير حسن؛ حيث قبض أولًا على العصاة الذين كانوا في جبال «سيس»، وبعد ذلك، قبض على الذين كانوا في ناحية «عزير»، وذلك دون قتال، ثم قام بإعدامهم.

الهجوم على منزل بالقرب من الجامع الشريف للمرحوم السلطان «سليم» وقتل كل أهله

كان ذلك في ٣ من جمادى الآخرة سنة ٩٣٣ هجرية[1]، قام بعض الأشقياء بالهجوم على منزل في التاريخ المذكور، وقتلوا كل الأشخاص الذين كانوا بداخله ونهبوا ما لديهم، ومع أنه أجرى البحث عن الذين قاموا بهذا الفساد، فإنه لم يظهر الدليل القاطع بالدرجة التي يمكن أن تدين أي شخص وفقًا للشكل الشرعي، وفي النهاية، أعتقد أن الذين قاموا بهذا الأمر، هم من طائفة الأرناءوط العاطلين الذين يطوفون بالأسواق والمدينة من أجل العمل، وعلى إثر ظهور بعض القرائن التي تؤيد هذه الاحتمالات، تم القبض على حوالي ثمانمائة رجل من طائفة الخبازين، وبائعي الشمع، ودلاكين الحمام؛ أي القائمين بأعمال المساج والطباخين وقاطعي الأخشاب وغيرهم من العاطلين عن العمل، حيث قُتل هؤلاء في الأسواق والشوارع وفي أماكن تجمعهم، وقد أوقع هذا

(١) الموافق ٢٤ من فبراير ١٥٢٨م.

الحدث الخوف والخشية في قلوب الأشقياء، حتى إنه لم يظهر بعد ذلك فساد على هذا النحو.

قتل قاضي «حلب» ومحتسبها الشهير بـ «قره قاضي»

كان هذا الحدث في ٥ من شعبان سنة ٩٣٤ هجرية[1]، لما كان مفتشًا للأمور المالية في «حلب» منذ عدة سنوات، كانت مساوئه وأفعاله المشينة التي يرتكبها بلا نهاية، وقد جاءت الشكاوى في حقه عدة مرات، ولكن حراسه كانوا يدفعونها؛ أي يبعدونها طمعًا في عطائه، وفي النهاية، ثار عليه الشعب يوم الجمعة في الجامع الكبير في «حلب»، ولقي حتفه مع تسعة أفراد من رجاله؛ وبسبب هذا؛ نفى أشخاص كثيرون من أعيان وسكان «حلب» إلى «رودس»، كما أصبحت أوضاع كثير من الأشخاص غير مستقرة.

صلب أمير لواء الإسكندرية «بالي بك»

وكان ذلك أيضًا في سنة ٩٣٤ هجرية، لما أصبح معلومًا للصغير والكبير أن الأمير المذكور قد تجاوز الحد في ارتكابه المظالم بدرجة تفوق قدرة أهالي هذا السنجق، وأنه أهدى أسيرين إلى الجاوش الذي وصل إلى الإسكندرية في إحدى المهام، أُرسل جاوشان، وتم إعدامه، وإعدام ثمانين رجلًا من ولاته وكتخداويته أمام أعين الناس في سنجقه.

أحوال براءة رئاسة العسكر الموجهة للصدر الأعظم «إبراهيم باشا»

أعطيت تلك البراءة في ٨ من رجب سنة ٩٣٥ هجرية[2]، كتب المرحوم «جلال زاده نشانجي مصطفى بك» هذا الموضوع في تاريخه بالنص على هذا النحو:

(١) الموافق ٢٥ من أبريل ١٥٢٨م.
(٢) الموافق ٨ من مارس ١٥٢٩م.

ففي ذات يوم، وبعد أن تحرك وزراء الدولة من الديوان إلى منازلهم، قام حضرة السلطان المتسم بالعطف ـ أيد الله الملك المنان ملكه ـ بدعوة عبيده الفقراء إلى مجلسه الموقر الموفور السعادة، واستهل حديثه بكلام بليغ كالدر المنظوم، وتفضل بالقول: «لقد اتسعت أكناف مملكتنا بالمشيئة الإلهية، ولم يعد هنا حد ولا نهاية لمهماتنا المتعلقة بمصالح المسلمين، وليس مناسبًا أن أباشر بنفسي كل أمر؛ ولذا، فإني وجهت قيادة الجند إلى «إبراهيم باشا» حتى يمكنه أن يهتم وينفذ أمور الدين والدولة، وعلى هذا ينبغي أن تكتب مسودة لصورة براءة شريفة حتى يتبعه جميع خدمي وينقادوا إليه»، وفي تلك الليلة، تم عمل مسودة البراءة المطلوبة، وعرضت في اليوم التالي على المقام الرفيع لجناب السلطان، وما إن وصل مضمونها إلى السمع الهمايوني، حتى قالوا: «إنه معقول»، وبعد أن كتبت بأنواع التكلف اللفظي، وزينت وزخرفت بالطغراء الغراء مضيء العالم، قُدمت إلى المجلس الموقر الموفور السعادة.

وبعد ذلك، دُعي أغا الإنكشارية في اليوم المذكور إلى العتبة العالية، فوصل عامة جند الإنكشارية إلى الباب الهمايوني، وأرسل إلى «إبراهيم باشا» مع الأغا المشار إليه خمسمائة ألف أقچة نقدًا مع البراءة عالية الشأن، وتسعة جياد والتي كان إحداها سرجه مرصعًا بالذهب وذا لجام، وسيفًا مرصعًا وأربعة قطع من الخُلع الفاخرة الشهانية وتسع لفائف من القماش الشاهاني، وطغراء مطعم بالجواهر، ولا داعي لإحصاء كل الهدايا التي أُرسلت إلى «إبراهيم باشا» مع البراءة.

وفوضت الأمور المتعلقة بالترقي العام إلى رأيه الرزين، علاوة على ما يمكن توزيعه من العطايا والإحسان، وبينما كانت مقاطعة الخاص يبلغ خراجها مائة ألف أقچة عشرين مرة، ألحق وأضيف إليها مائة ألف أقچة عشر مرات أخرى، فأصبحت مائة ألف أقچة ثلاثين مرة، وعهد إليه أيضًا بمنصب قيادة الجند، علاوة على منصب الوزارة العظمى، كما أحسن إليه بطلب العلم مع علامة النبوغ ناثرة ضوء السعادة، وبينما كان عدد ألوية سلاطين آل عثمان أربعة منذ القدم وحتى الآن، صدر الأمر ليكون عددها سبعة من بعد.

وفي هذا اليوم، اجتمع كل جند القابوقولي أي خدم الباب، والوزراء والعلماء وكافة رجال الدولة، وبعد أن قرأت البراءة الشريفة أمامهم، وهنئوا الصدر الأعظم بقولهم: «مبارك»؛ وقبلوا الأيدي، وبهذا ارتقى قدره الشريف أضعافًا مضاعفة، ووصل إلى درجة عالية.

وسُمع من بعض الثقات أن براءة مقاطعة «خاص» والتي تبلغ مائة ألف أقچة ثلاثين مرة لم تغن «إبراهيم باشا»، وعندما قال: «ومقارنة بالرعاية الهمايونية لسلطاني، فإنه قام المرحوم أبو الفتوح السلطان محمد خان بالإحسان على وزيره الأعظم «محمود باشا» ببراءة قدرها مائة ألف أقچة أربعين مرة، فلو يحسن إلى عبدكم هذا، على هذا النحو، فإن ذلك ليس بعيدًا عن عناية سلطاني»، تفضل السلطان صاحب السعادة وحامي العالم بقوله: «لقد وفق هؤلاء في فتح عرش القسطنطينية المحمية، ولو أحسن بزيادة أكثر من هذا لكان جائزًا»، ثم يرد «إبراهيم باشا» قائلًا: «إذا كان فضل «بغداد» أرض الجنان، ومقر عرش الخلفاء العظماء، وأيضًا «بدون» مقر عرش الملوك منذ قديم الزمان لم يزيدا عن فضل «إسلامبول» فإنهما ليس دونها مرتبة»، وعلى هذا تفضل السلطان صاحب السعادة العارف بأقدار الأشياء بقوله: «إن «إسلامبول» الآن هي عاصمتنا، فكيف يمكن أن ترجح تلك المدن على «إسلامبول»؟ وبصفه خاصة، فإنه ليس لدينا القدرة على تقليد السلطان محمد الفاتح فيما صنع»، رحمة الله تعالى عليه، [أي إبراهيم باشا].

فتح قلعة «يايجه»(١)

تم ذلك في سنة ٩٣٤ هجرية، فُتحت هذه القلعة المذكورة أول مرة في سنة ٨٦٦ هجرية في عهد أبي الفتح والمغازي السلطان «محمد خان غازي»، حيث وضع بداخلها حارس ومحافظون على القلعة، وظلت في أيدي المسلمين قرابة عامين، إلا أن الكفار قاموا بالهجوم على المسلمين بينما كانوا منشغلين بالصلاة في يوم الجمعة، وقتلوا وأسروا المسلمين، وربطوا الكثير منهم بالسلاسل.

---

(١) وهي قصبة تقع في يوغسلافيا وكانت عاصمة لبلاد المجر قديمًا.
- Danişmend : Adı geçen eser، S.514.

وبعد أن بقيت في أيدي الكفار الملاعين ثمانية وستين عامًا كاملة، جاء شخص من داخل القلعة إلى ولاة المرحوم «خسرو بك»؛ حيث قام بإرشاد المسلمين للدخول إلى القلعة من السلم والباب غير المستعمل، ويحيط الولاة «خسرو بك» علمًا بالوضع، ولكنهم لا ينتظرون مجيئه قائلين في أنفسهم: «حتى يأتي خسرو بك يمكن أن يحيط الكفار علمًا بالوضع»، ويفتحوا القلعة ليلًا، وبينما كان «خسرو بك» في الطريق، يعرف الخبر؛ فيهدي جواده وكل أمتعته التي عليه إلى البشير الذي أبلغه هذا الخبر.

إجمالي فتوحات الحملة الهمايونية على «بج» [أي فيينا]

ـ خروج السلطان المقرون بالنصر إلى الحملة:

في ٢ من رمضان سنة ٩٣٥ هجرية[1]، عندما فُتحت «بدون» قبل ذلك، كان قد عُهد بملكها إلى «يانوش قرال» أمير «أردل»، ولكن لم يستطع «يانوش» العيش في استقرار في «بدون»؛ بسبب خوفه من ملوك «نمچه» و«چه»، وجاء ملك «چه» «فرديناند»؛ فلما وجد «بدون» خالية بلا ملك، دخلها مع عدد كافٍ من الملاعين من عسكر «نمچه» وأيضًا من أهالي المجر، واستولى عليها.

ولما صار الحال على هذا المنوال، خرج «يانوش قرال» المذكور من «بدون»، واستنجد بملك «له»؛ نظرًا لأنه كان والد زوجته، وبعد ذلك، أحضر أمير «أردل» كفار «أردل»، وأرسل كافرًا من أعيان «أردل» كسفير مع الهدايا اللائقة إلى الركاب الهمايوني السلطاني بأمل تقديم العون له، وعبر حامل الرسالة نهر «طونه» من «سلستره»[2]، ووصل إلى الآستانة، ولما عرض الوضع على الركاب الهمايوني السلطاني، تفضل السلطان صاحب السعادة المحفوف بالعظمة بإعطاء إذن الانصراف لذلك السفير واعدًا إياه بتقديم المدد بعسكر الإسلام في الربيع، وفي تلك الأثناء، جاء الملعون الذي كان قبودانًا في

---

(١) الموافق ١٠ من مايو ١٥٢٩م.

(٢) وهي قصبة تقع على نهر «طونه» في رومانيا.

- Danişmend : Adi geçen eser، S. 508.

«سلقايايجه» كسفير من قبل «فرديناند» ملك «نمچه»، ومع أنه طلب الصلح، فإنه أظهر الغرور الزائد عن الحد حتى إنه قال: «لو تخلى السلطان صاحب السعادة عن كل المالك التي فتحها، نحن نتعهد في النهاية بإهداء بعض الهدايا من ممالك المجر».

ولما اطلع السلطان على غرور هذا الملعون، اشتعل غضبًا، وأمر بالبدء في اتخاذ الاستعدادات للحملة الهمايونية، وأحضر السفير وتفضل بإصدار مرسوم أو رسالة، قال فيه: «سأتوجه بفضل الله الملك العلام على ملككم بعسكر الإسلام المكللين بالنصر، فإذا كانت لديه ذرة من الرجولة، فليقابلني في «بچ»»، كما أرسل السلطان أيضًا رسالة همايونية أخرى إلى «يانوش قرال» أمير «أردل»؛ حيث نبه عليه بقوله: «عليك أن تجمع قدر ما تستطيع من العسكر إلى جوارك، ولتأت إلى بلغراد، أو أي مكان آخر يمكن أن تصل إليه، وتلتحق بالجيش الهمايوني، ولا تضايق نفسك أبدًا بخصوص الزاد والزواد وسائر المهمات واللوازم، ولا تقصر في توفير المهمات وأخذ الاستعدادات، ويجب ألا يكون هناك احتمال لأي تكاسل في الالتحاق بركبنا الهمايوني».

وفي العاشر من شعبان ٩٣٥ هجرية[١]، أرسل كل من أمير أمراء الروم إيلي «قاسم باشا» وسنجق رئاسة العسكر الخاص بـ «إبراهيم باشا» في مقدمة العسكر، ونصبت الخيام المزدانة بالألوان والسرادقات السلطانية في المكان المعروف باسم «داود باشا»، وفي هذا المكان أقام «إبراهيم باشا» الوزير الأعظم والسردار المعظم الضيافات اللائقة للوزراء والوكلاء والأعيان والأمراء وعموم العسكر الذين غايتهم الظفر، ثم أرسل إبراهيم باشا سنجق رئاسة العسكر مع أمير أمراء الروم إيلي المشار إليه في مقدمة الجند وعاد هو إلى المدينة.

وفي هذه الأثناء، وعلى إثر رحيل الوزير الثاني «مصطفى باشا» من الدنيا الفانية إلى الدار الباقية، عهد بمنصب الوزارة إلى «قاسم باشا»، أما إيالة الروم إيلي فقد أسندت إلى حضرة الوزير الأعظم وقائد العسكر «إبراهيم باشا» كما كان من قبل، وتوجه مع عامة

(١) الموافق ١٩ من أبريل ١٥٢٩م.

العسكر الذين كان النصر غايتهم في اليوم الثاني من شهر رمضان سنة ٩٣٥ هجرية[١]، واتفق في هذه الأثناء أن سقطت الأمطار الغزيرة ليل نهار، ولما أصبح من الصعب العبور والمرور من الطرق والوديان المملوءة بالمياه الجارية؛ بسبب الأمطار، أقاموا قرابة يومين في هذا المكان، وتفضلوا بالنزول إلى «أدرنه» المحمية في يوم ١٢ من رمضان، وإلى «فلبية»[٢] المحروسة يوم ثمانية وعشرين من شهر رمضان، وهَلَّ العيد السعيد، وأقيمت الضيافات الشاهانية كالعادة، وبعد ذلك توجه جملة الوزراء وأركان الدولة وأعيان السلطنة إلى خيمة الصدر الأعظم؛ حيث احتفلوا بالعيد عنده، ولكن المطر الكثير بهذه الصورة كان باعثًا على إحداث الضرر؛ حيث أطاح برأس الجسر، وكانت كل خيمة قد أصبحت وكأنها حباب ماء، وهكذا، فقدا اضطروا إلى البقاء عدة أيام في «فلبية»، وبعد ذلك، تقدم قائد العسكر عالي المنزلة مع جند الروم إيلي منزلًا إلى الأمام من أجل إزالة المعوقات الموجودة في الطريق، حيث تم تذليل بعض الصعوبات التي في الطريق؛ ونزلوا في يوم ١١ من ذي القعدة[٣] إلى نواحي بلغراد المحمية أرض الجنان، وكان قد صدر فرمان شريف من قبل ببناء جسر «أوسك»، وفي يوم ٨ من ذي الحجة، عبروا بسعادة وإقبال من هذا المكان، ودخلوا الأراضي المجرية.

ولما تفضلوا بالنزول إلى صحراء «موهاج» في يوم ١٣، استقبل «يانوش قرال» ـ سالف الذكر، الذي أحسن عليه بالملك ـ السلطان، ونزل إلى مكان قريب من هذا المكان مع عسكر المجر، واستراحوا اليوم التالي، وبعد ذلك أقيمت الخيام والسرادقات، وبعد أن اصطفت وتزينت كل مجموعة في مكانها المحدد، امتطى جند المجر جيادهم مع ملكهم، ومروا بين يدي عسكر الإسلام المنتظمين في صفين كالبحر، وتوجهوا إلى خيمة السلطان، ولكن كانوا في حالة من الصمت والدهشة من مشاهدة مهابة عسكر

---

(١) الموافق ١٠ من مايو ١٥٢٩م.

(٢) مركز سنجق قديم في بلاد البلغار.

- Danişmend : Adı geçen eser، S.591.

(٣) الموافق ١٧ من يوليو ١٥٢٩م.

الإسلام، حتى إن دهشتهم وحيرتهم كانت ظاهرة على وجوههم، ونزل ملكهم من فوق الحصان أمام خيمة الديوان الهمايوني، ومر من بين الجند المكلفين بحماية السلطان والمعروفين باسم «صولاق أسكوف» الذين يقفوا أمام باب السعادة، ولما وصل إلى مجلس حضرة سلطان العالم المقرون بالسعادة وهو يلقي السلام والترحيب على سائر الأعيان والأشراف تشرف بتقبيل يد السلطان، وبعد ذلك، وضع كرسيًا مذهبًا، وسعد بحسن رعاية السلطان، وبالسؤال عن سائر الأوضاع وتفصيل الأحوال، وتم تسليته بشتى الأوجه، ثم نهض وهو مغرق بأنواع الوعود السلطانية.

ولما خرج إلى الخارج، أُحسن عليه بأربع خلع مطرزة بالذهب عند باب خيمة السلطان، ثم دخل ثانية ليشكر السلطان على تلك الخلع، وقبل يد السلطان، وعند خروجه ثانية، أُحسن عليه بأربعة خيول ذوي لُجُم مرصعة بالذهب، وسروج مرصعة أيضًا، ثم قفل عائدًا إلى المكان الذي سيستريح فيه، بكمال الرعاية والإكرام ثم رحل من هذا المكان، وتوجه إلى نواحي «بدون» مع مرافقيه.

فتح قلعة «بدون» للمرة الثانية بعد معركة وهجوم ضارٍ

في ٤ من المحرم الحرام سنة ٩٣٦ هجرية[١]، لقد تم الوصول بالقرب من «بدون» في يوم ٢٩ من ذي الحجة[٢]؛ وحطت الرحال عند أطراف الغابات؛ حيث شرع في حصار القلعة؛ ونُصبت المدافع عند أطرافها ونواحيها، وبدأ الكفار في الدفاع والقتال؛ وفي يوم الأربعاء الموافق الرابع من المحرم الحرام من العام الجديد، صدر أمر الهجوم بأمر السلطان المقرون بالنصر، وقد قاوم الأعداء هجمات المجاهدين التي تواصلت على القلعة وعلى كل جانب منها حتى وقت الظهر فقط.

وبعد الظهر استسلموا منادين بالأمان، وخرج الملاعين الخاسرون أفواجًا أفواجًا من القلعة، وبينما كانوا يتجهون صوب «نمچه»، وعلى إثر قيام واحد من الكفار بسل سيف

(١) الموافق ٨ من سبتمبر ١٥٢٩م.

(٢) الموافق ١٥ من يوليو ١٥٢٩م.

على أحد المسلمين، أو على إثر سماع صوت من داخل العربة التي من نوع «قوچي» أثناء قيام الكفار بحمل واحد من أسرى أهل الإسلام في العربة على أنه أثواب، قُتلوا جميعًا وصاروا علفًا للسيف، وهكذا، تطهر العالـم من أبدانهم الخبيثة، وكُلف أمير سنجق «إيلبصان»[١] «حسن بك» بحماية القلعة مع قدر من جند الإنكشارية، ثم رحل حضره السلطان من «بدون» بالعز والإقبال، ونزل بالقرب من «بدون» القديمة وأقام الديوان في هذا المكان، وتم تقبيل العرش الذي ليس له نظير من أجل التهنئة بهذه الغزوة، وأحسن بالخلع الملكية على جميع الوزراء والأمراء والأغوات، وقُرعت طبول التشريعات السلطانية، وعمت السعادة والسرور كافة الأرجاء.

تولية «قرال يانوش» على مُلك «بدون»

في ١١ من المحرم الحرام سنة ٩٣٦ هجرية[٢]، لقد تمنى ورجا «يانوش قرال »، بعد الفتح، عناية ورأفة وشفقة السلطان، فلما طلب أن يُعطى له عرش «بدون» ثانية، لُبي طلبه، ولما التزم بدفع الخراج المقرر عليه، صحبه «سكبان باشي» مع قدر من جند الإنكشارية إلى القلعة؛ وأجلسوه على عرش الملك، وهكذا، استولى «يانوش قرال » على هذه الديار كما كان من قبل؛ وأصبح في عداد سائر خدم سلطاننا صاحب السعادة .

محاصرة قلعة «بچ» عاصمة إمبراطورية «نمچه» و«چه» و«ألمانيا»

كان ذلك في ٢٣ من المحرم الحرام سنة ٩٣٦ هجرية[٣]، عندما كان من الضروري أن يقطع حضرة السلطان عروق قوة وعظمة ملك «پچ» «فرديناند» عديم الدين بالسيف

---

(١) يقع هذا السنجق في بلاد الأرناءوط.

- Danişmend : Adı geçen eser ، S. 480.

(٢) الموافق ١٥ من سبتمبر سنة ١٥٢٩م.

(٣) الموافق ٢٧ من سبتمبر سنة ١٥٢٩م.

الذي حليفه النصر، وذلك بمقتضى غيرة وحمية السلطان حامي العالم، تم الرحيل من المكان المذكور[1] بقرب قلعة «أسترغون»، ومن هذا المنزل كلف «يحيى باشا زاده محمد بك» أمير سنجق «سمندرة» مع غزاة «سمندرة» بالقبض على بعض الأسرى الذين يمكن أن يدلوا ببعض المعلومات عن العدو، وبعد ذلك نزلوا بالقرب من قلعة «قومران»، ومنها وصلوا إلى قرب قلعة «كوله»، المعروفة الآن باسم «يانق»، حتى إنه يقال: إن سبب التسمية بهذا الاسم؛ لأنها أُحرقت بالنار في ذلك الوقت.

ودخل غزاة الإسلام إلى أراضي الأعداء؛ واستولوا على الغنائم الكثيرة جدًا، وشنوا الهجمات على الأطراف والنواحي؛ ونهبوا أقاليم الكفار الصاغرين وقفلوا عائدين إلى الجيش السلطاني بالغنائم التي كانت فوق الحد، وفي يوم عشرين من شهر المحرم الحرام عبروا إلى قلعه «بوژين»[2]، ونزلوا بها، وفي اليوم نفسه وصل «يحيى باشا زاداه» «محمد بك» إلى أمام «بچ»؛ كما نزل أيضًا السلطان المقرون بالنصر مع الجيش الهمايوني بالقرب من قلعة «بوژين».

وخرج الكفار المسلحون الذين لا حصر لهم من قلعة «بچ»؛ حيث أداروا رحى حرب عظيمة أمام القلعة، وقد أبلى غزاة «سمندرة» في هذه الحرب بلاء حسنًا بشجاعتهم التي اعتادوا عليها حتى محوا الملاعين رغمًا عنهم من ميدان المعركة، وأجبروهم على التحصن داخل القلعة؛ وأرسلوا عددًا من الملاعين من الكفار الذين سقطوا أسرى من أجل الإدلاء بالمعلومات عن الكفار.

وفي اليوم الثالث والعشرين من الشهر، نزل قائد الجيش المعظم مع غزاة الروم إيلي الذين غضبهم كنيران الأنجم قرب القلعة، كما تفضل سعادة السلطان مدار السعادة

---

(١) المكان المذكور: هو موضع قرب «بدون» القديمة ولم يشر المؤلف إلى اسم هذا الموضع سوى بقوله «في مكان ما» كما ذكر فيما سبق في مقال: «فتح بدون للمرة الثانية».

(٢) تنطق في اللغة العربية «بوجين».

بالنزول إلى مكان مرتفع قليلًا عن القلعة، وفى اليوم المذكور نفسه خرج جمع كثير من الأعداء من القلعة، وشنوا حربًا ضروسًا؛ حيث استشهد فيها بطلان ملتزمان بالدروع من رؤساء المشاة، و«إسكندر چاوش» المعروف باسم «فرفره»، وهو من جاوشية البلاط العالي، وكان يخرج الملاعين كل يوم على التوالي من القلعة ويديرون المعارك والمصادمات العنيفة والقوية.

أما القلعة المذكورة فقد كانت محكمة وفي كمال المتانة، وبصفة خاصة، كانت إحدى جوانبها محاطة بنهر كنهر «طونه»، وكانت محمية ببروجها المشيدة من ناحية البر، أما خنادقها العميقة فكانت مملوءة بالماء وكأنها نهر جار، وبصفة عامة، فقد كانت قلعة، مشهورة وتشبه الفلك في عظمتها، ومن المؤكد أنه كانت بها وفرة من وسائل الحرب ومستلزماتها؛ وكثرة في مدافعها، وبالخاصة المدافع المخصصة للدفاع عن القلعة ومن ثم كانت هناك صعوبة في فتحها وبصفة خاصة، فعلى إثر عدم إحضار المدافع التي يمكنها تجاوز الحصن وهدم القلعة؛ وذلك بسبب بعد المسافة، فإنهم قاموا باتخاذ تدبير، وهو ملء خنادق القلعة بالتراب، وتلغيم الطرق، فكلف كل أرباب التيمار بحفر جدران القلعة، وكُلف الأمراء المهاجمون بصنع السلالم، كما كُلف عموم جند خدم الباب، وعسكر الأناضول بملء الخنادق.

وفى اليوم الثالث من صفر خرج الكثير من الكفار ثانية من القلعة، وقاموا بمعركة عظيمة لم يحدث أن وقعت عين الملك على مثلها، ودارت رحى الحرب والقتال في ذلك اليوم؛ حيث اخترق غزاة الإسلام الكفار العصاة تمامًا وذلك على نحو لا يمكن فيه تمييز فرد عن الآخر، فلما رأى الكفار هذا الوضع، أغلقوا أبواب القلعة قائلين: «لا لا ينبغي أن يدخل الأتراك إلى القلعة من أي مكان»، وفي النهاية أصبح جميع الكفار الأقذار الذين كانوا في المعركة ملطخين بالدم والتراب، وفى الواقع، لم يكن الكفار يقومون بإغلاق أبواب القلعة حتى هذا اليوم، وبعد ذلك، لم يصدر من الملاعين أي تحرك يشعر بجرأتهم على هذا النحو، وفى ذلك الحين، جاء إيرشك «أسترغون»، مزينًا بطوق العبودية والطاعة، وهم يطلقون لقب «إيرشك» على القسيس أنيس إبليس، الذي يتبعه

القساوسة والذي تعلو رتبته ودرجته عنهم جميعًا، وفي اليوم السادس من الشهر نفسه أُشعلت النيران في الألغام بعد العصر من موضعين؛ فتطايرت في الهواء أبراج وجدران ذلك المكان، فهجم الغزاة الذين كانوا على أهبة الاستعداد للهجوم ظانين أنه قد فتحت ثغرة كافية، ولكن الثغرة كانت لا تكفى للعبور، ولما كان الكفار حاضرين ومستعدين في هذا المكان فقد هلك كثير من الرجال من كلا الطرفين.

ولم يقدر في تقدير الحق تعالى فتح هذه القلعة؛ وحل الشتاء القارص فجأة؛ وعم المطر والثلج كل الأطراف؛ وبسبب أنه لم تكن هناك قدرة ولا قوة على التحرك والإقدام لتنفيذ هذا الأمر، تحركت أمواج بحر رحمة وشفقة حضرة السلطان على خدمه، وتفضل بالإنعام والإحسان بألف أقچة على كل فرد من جنود الإنكشارية في مقابل الخدمة؛ وأمر بصرف النظر عن القلعة، ولكن الهجمات التي شُنت على ممالك الكفار حتى ذلك الوقت، والغنائم التي استولوا عليها، والدمار الذي لم يبق معه أي عمران خلال عدة أيام في ديارهم التي أشعلت فيها النيران كان أكثر من أن يُكتب ويُوضح.

ولولا القلاع المتصلة بعضها ببعض والبروج والحصون الحصينة والأسوار المحكمة والمقامة فوق القمم في تلك الولايات، ولولا كل كنائسها محاطة بالأسوار، لما بقي فرد من الكفار في تلك الأماكن؛ كما كان من المؤكد أن تخلو مملكة «الألمان» من الناس تمامًا، وبصفة عامة كانت تُباع في الجيش وفي الأسواق الحسناوات ذوات الوجوه الشبيهة بالياسمين والحواجب المقوسة كالكمان، وذوات الوجوه الحورية والرائحة الوردية، وكان لا يوجد نهاية ولا حد ولا حصر للغنائم الكثيرة المأخوذة.

وفي اليوم الثالث عشر من شهر صفر[1]، خرج كافر من القلعة؛ وطلب الأمان من حضرة السلطان، وأطلق الكفار سراح المسلمين المحبوسين، وتفضل حضرة السلطان حامي العالم أيضًا بإطلاق سراح ستين أسيرًا من الكفار الذين أُسروا من «بچ»، وكان قد أُسر في المعركة الثانية كلب كبير وهو حامل راية جند «بابا روما»، وكان «إبراهيم

(١) الموافق ١٧ من أكتوبر ١٥٢٩م.

باشا» قد أحضر المذكور، وأطلق سراحه قائلًا له: «لم يأت سلطاننا صاحب السعادة من أجل أن يأخذ «بيج»، إلا أن غرضه الهمايوني كان أن يعرف «فرديناند» قدره، وإذا لم يعرف قدره بعد ذلك، سيأتي بفضل الله تعالى وعندئذ لا يعجز عن أن يعرفه حده»، وذهب الملعون، وعندما قال هذا الكلام في مجلس الأمراء والأعيان، كتب الكفار في تواريخهم أنهم قالوا: «صدق فيما قال».

ولما ازداد تأثير الشتاء على الجند، تحركوا في ذلك اليوم من حول القلعة؛ حيث نزلوا بالقرب من قلعة معروفة باسم «بردغ»، وفي اليوم نفسه، أمطرت ثلجًا في كل طرف من بلاد الكفار كما لو كان طوفانًا، ولم تكن هناك قدرة على حمل الثياب، ولا استطاعة على إيجاد المؤن الكافية للحيوانات، والقصة، أنه تم المجيء إلى «بدون» في اليوم الثاني والعشرين من شهر صفر بآلاف المحن والصعوبات، وكان قد أُقيم جسر أمام «بدون»؛ حيث شرع في العبور إلى ساحل «بشته» على التوالي، وفي اليوم الرابع والعشرين من الشهر نفسه عبر ومر حضرة السلطان عالي الجاه مع طائفة الإنكشارية والسباهية، وفي اليوم الخامس والعشرين عقد الديوان الهمايوني في «بشته»، حيث جاء ملك المجر وتباهى بتقبيل يد السلطان، وتشرف بالخلعة الفاخرة الخسروانية، وبأنواع العناية السلطانية، وطلب أن يعطى له تاج «قرال لاوش» الذي انهزم في «موهاج»؛ لأن الذين صاروا ملوكًا، كان لا ينصاع أي شخص لأوامرهم ما لم يمتلكوا ذلك التاج.

وطبقًا لما يعتقدونه ويقولونه: «فإنه انتقل هذا التاج منذ ثلاثة آلاف عام؛ يعني من «إسكندر» إلى «نوشروان» بالتوارث، ومنه انتقل إلينا، فكان عندهم تاج باهر الابتهاج، وكان قد استولى على التاج من «قرال لاوش» وأودع في الخزينة العامرة، ولما طلب «يانوش قرال» أن يعطي له التاج، أرسل إليه مع ابن أمير «ونديك» ومع أمير «شقلوش»[1] «برين بتره» و«إيرشك» و«أسترغون»»، وبهذا اكتسب اعتبارًا كبيرًا «بين النصارى»، وبهذا تكون أمور مملكته قد تمت على أكمل وجه.

---

(١) وهي تقع في بلاد المجر، وجنوب «بيج» بحوالي ٣٥ كيلو مترًا.

وهكذا توجهوا، في اليوم التالي، من «بشته» صوب نواحي «إستانبول» المشمولة بالسرور، ولكن زادت برودة الجو؛ وتم الوصول إلى كوبري «وارادين» وهم في حالة اضطراب شديدة، وهنا أعطى إذن الانصراف إلى جميع العسكر؛ ووصلوا في اليوم الرابع عشر من ربيع الأول[1] إلى «القسطنطينية» المحمية قاطعين المنازل وطاوين المراحل.

ترجمة هذه الغزوة الغراء من تاريخ الكفار

لقد كتب الكفار الذين مأواهم النار هذه الغزوة الغراء للسلطان عالي المقدار في تواريخهم على هذا النحو، وقد تمت ترجمة خلاصتها إلى اللغة التركية العثمانية، وحررت في هذا الموضع على النحو التالي:

كان قد جلس «صبولايي يانوش» والي «أردل» على عرش الملك في سنة ١٥٢٦ من ولادة عيسى عليه السلام، وإن كان قد قبله بعض أصاغر أمراء المجر كملك على «بدون»، فإن أعيان الأمراء و«كبير أهالي المجر لم يرضوا به ملكا؛ حيث توجهوا إلى «فرديناند قرال» ملك «بچ»؛ وطلبوا منه أن يكون ملكا على المجر، وأحضروه إلى «أستوني بلغراد»، وألبسوه التاج بحسب العادة القديمة، وعلى هذا قام «فرديناند قرال» بإخراج «يانوش قرال» من «بدون»، واستولى على «بدون»، وكان «فرديناند» ملكا لـ «بچ»؛ كما كان شقيقًا للإمبراطور قارول فرنيطوقش الذي كان إمبراطورًا لـ «نمچه» و«چه» وسائر ملوك النصارى، وفي هذه المرة، صار ملكا على «بچ» و«بدون»، وهرب أمير «أردل» من «بدون»، وذهب إلى مملكة «له»، ولما كانت زوجته من «له» فقد كان أتباعه وأقاربه كثيرين في هذه المنطقة، ودعا إلى جواره أنصاره من أهالي «له» أبناء جنسه، ومن أهالي المجر وأعيان «أردل»، وناقش معهم أموره، فأجمعوا على أنه ينبغي أن يرسل سفيرًا إلى سعادة السلطان «سليمان» سلطان الترك، ويطلب منه المساعدة.

وعلى هذا أرسل «يانوش قرال» الشخص الذي كان أمير ولاية «أردل»، وأرسل معه الهدايا الكثيرة، وعبر السفير نهر «طونه» من «سلستره»، ووصل إلى الآستانة السعيدة

(١) الموافق ١٦ من نوفمبر ١٥٢٩م.

والتقى بالوزير الأعظم «إبراهيم باشا»، وتباحث معه حول هذه الأوضاع على مدى ثلاثة أيام، وطلب السفير من الصدر الأعظم أن يقابله بالسلطان، ولما قام «إبراهيم باشا» بعرض الوضع على السلطان، تفضل بقوله: «فليأت السفير، وليوضح هذه الأوضاع أمام جميع وزرائنا وأغواتنا وسائر أهل الديوان»، وعلى هذا جاء السفير إلى الديوان امتثالًا للأمر، وعرض كل أحواله، وكان السلطان يصغي إلى ما يقوله السفير من وراء النافذة. وعلى هذا، وعد السلطان السفير بتقديم المساعدة في العام القادم، وألبسه الخلع الفاخرة، وأرسله إلى «أردل» مرة أخرى بعظيم الرعاية والاهتمام.

وعندما سمع «فرديناند قرال» هذا الأمر، أرسل هو أيضًا الشخص المعروف باسم «إيوان» الذي كان قبطان «يايجه» سابقًا كسفير إلى السلطان؛ حيث كتب رسالة إلى السلطان، وطلب في هذه الرسالة بضرورة عقد الصلح بينهما، ولكن طلب الصلح بهذا الشرط: «وهو ضرورة رد السلطان قلعة «بلغراد» وسائر القلاع التي أخذها»، وما إن وصل السفير، وسمع السلطان هذا الكلام، حتى اشتعل غضبًا وقال: «فليكن «صبولايي يانوش» ملكًا على «بودين»، وليخرج «فرديناند» منها، وإذا عاند في هذا، سأصل بعناية الله بنفسي في العام القادم، وأخرجه من «بودين»، وإن لم أجده في «بودين»، سوف أجده في «بج»، فلو كانت لديه القدرة على قتالنا هناك، فليأخذ القلاع التي يريدها بعد ذلك. وإلا فإنني إذا قتلته، فسوف أستولي على سائر القلاع التي يمتلكها»، وفي هذه الساعة أيضًا أمر بما يلي: «فليخرج «صبولايي يانوش» بأي قدر من العسكر يستطيع أن يخرج به، وليأت إلى وادي «موهاج» وإذا لم يستطع الوصول إلى «موهاج»، فليأت إلى «بودين»، وإنني سوف ألبي كل ما يطلب، وأكمل كل نقص لديه، وينبغي ألا يتوانى في ذلك».

ولما عاد سفير «فرديناند قرال»، لم يجد «فرديناند» في «بج»؛ بل وجده في قلعة «أوشير» في مملكة «نمچه»، وقام بشرح الأوضاع التي أجريت مع سلطان الإسلام له، وما إن فهم «فرديناند» الوضع حتى بدأ في تجهيز قلعة «بج»، وأحكم تحصين الأماكن التي كانت من الضروري تحصينها، ووضع بداخلها ستة عشر ألفًا من عسكر «نمچه»،

ولكن قبل أن يدخل جميع الجنود المعينين إلى «بج»، كان السلطان «سليمان» قد حضر مع جند الإنكشارية والوزير الأعظم «إبراهيم باشا»، ومن ناحية أخرى، بدأ «صبولايي يانوش» في توفير العسكر بناءً على أمر السلطان؛ حيث احتشدوا في «واليوه»، وكان يوجد بجواره نحو ستمائة رجل فقط، ومن هذا المكان، أرسل الرجال إلى مملكة «له» وإلى «أردل» وإلى سائر أهالي المجر، حيث دعاهم لتقديم العون العسكري، وأتى السلطان «سليمان» أيضًا مع جنده، وكان عدد عسكره كثيرين جدًا، حيث يقول الناس: إن عددهم كان حوالي ثلاثمائة ألف جندي، وعبر السلطان النهر من «بلغراد»، وعبر نهر «دراوه» من «أوسك»، ونزل إلى صحراء «موهاج» وأتى أيضًا «صبولايي يانوش» مع ستة آلاف جندي من المجر، وكان قد جهز الهدايا التذكارية الكثيرة من الجواهر ومن كل نوع؛ وأهداها جميعًا إلى السلطان، والتقى مع السلطان، وسلم عليه، وقابله السلطان بحفاوة بالغة، وأمده السلطان بالزاد والمؤن وسائر متطلبات الحرب.

وبعد ذلك، تحرك «صبولايي يانوش» من هذا المكان أي صحراء «موهاج»، حيث وصل إلى «بودين»، وتفرق قسم من الرعايا والجنود الذين كانوا في «بودين»، وهاموا على وجوههم، ولما وصل السلطان، استولى على الحي الذي خارج قلعة «بودين»، وكان «نادازدي طماشي» قائدًا لعسكر المجر، وكان «كسبري فرشتو» و«إيوان» قادة لجند «نمچه»، ودخل هؤلاء بعسكرهم إلى القلعة الداخلية، وفى ذلك الحين، طلب الترك القلعة بالاستسلام دون قتال، ورأى أهالي «نمچه» أن الأتراك كثيرون جدًا، ولا يمكن مقاومتهم، وقالوا: «ينبغي أن نعطي القلعة»، ولكن لم يرض «نادازدي طماشي» بهذا القول. وفى النهاية، ثار عسكر «نمچه»، وقاموا بحبس المذكور «نادازدي طماشي»، وأبرموا بعض الشروط مع الأتراك من أجل تسليم القلعة، وبعد محادثة طويلة، قاموا بتسليمها.

وبعد ذلك قال الأتراك: «بينما يخرج أهالي «نمچه»، ويأتون أمام سور الكنيسة، عليهم ترك جميع أسلحتهم وأثوابهم، وليأخذوا ورقة التسليم، وليذهبوا آمنين وسالمين»، ولكن قام الأتراك ثانية بنقض أمر التسليم، وقتلوا جميع عسكر «نمچه»،

ووجد جند الإنكشارية «نادازدي طماشي» في السجن؛ فأخرجوه وحملوه إلى «إبراهيم باشا»، فتحدث إليه «إبراهيم باشا» بلهجة شديدة ووبخه كثيرًا وقال له: «لماذا تركت المجريين، واتحدت مع أهالي «نمچه»، ووقفت ضد السلطان وأغلقت القلعة؟» وأمر «إبراهيم باشا» بضرورة إلقائه في نهر «طونه» أو حمله إلى «صبولايى يانوش قرال»؛ ليقتله بالطريقة التي يريدها، وبالفعل دفع به إلى اثنين من الجاوشية ليقذفوه في نهر «طونه»، فرأى « نادازدي طماشي» قاربًا على ساحل «طونه»؛ فوثب إلى داخله بسرعة، وكان قد قبض عليه حارساه ثانية، فإنه تمكن من الإفلات منهما وهرب من أيديهما، وبعد ذلك، جاء إلى «يانوش قرال»، وبعد أن أقسم بالأيمان واستسمحه ورجاه، أبقاه «يانوش قرال» بجواره.

وهكذا، استولى السلطان على «بودين» بهذه الطريقة، حيث سلمها إلى «يانوش قرال»، وقال: إنه ينبغي أن يجلس «يانوش قرال» بصفاء خاطر، وليحكم سيطرته على «بودين»، وترك إلى جواره ثلاثة آلاف جندي تركي، حتى إنه ترك معه أيضًا «قاسم باشا»، و«مؤمن أغا» وأمير «طربزون»، وفى هذه الأثناء، قام السلطان بتوديع الذين كانوا مكلفين بحراسة القلعة في ناحية «طونه»، والذين كان عليهم أن يحافظوا على السفن من نوع «شيقة» وسائر سفن الأسطول التي كانت في «طونه»، وقال السلطان: «إنني عند العودة من «بچ» سأتفقد الأوضاع؛ وسأضع كل شيء في موضعه»، وفي ذلك الوقت، وُجه الأمر إلى «إبراهيم باشا» بأنه ينبغي أن يكون الجند جاهزين للتوجه صوب «بچ»، وأن يقوم «إبراهيم باشا» بتعيين جاوشًا عند كل منزل، كما أمر بأن يذهب «إبراهيم باشا» و«بهرام باشا» على رأس جميع الجند، وإذا استراحوا في وقت الظهر في أي مكان، فإنه يجب عليهم أن يوفروا في هذه الليلة جميع ذخيرة الجند، كما أمر السلطان بأنه ينبغي أن تذهب كل سفن الأسطول في إثر العسكر أيضًا، وكان الأسطول كله يتشكل من مائة وستين سفينة، خلاف السفن الصغيرة والمراكب من نوع «طونباز».

وأتى الغزاة في اليوم الثالث والعشرين من يوليو، وحاصروا قلعة «بچ»، وأمر السلطان صاحب السعادة بأنه على أمراء الأمراء أن يقوموا بمحاصرة القلعة من

كل جانب، وليقتلوا أي شخص يجدونه فيها؛ وبهذا يخيفون أهالي القلعة، وبينما هم مشغولون بتنفيذ هذا الأمر، حضر السلطان صاحب السعادة واقترب سائر عسكره، وكان قد أتى قبل ذلك حوالي ثمانين ألفًا من عسكر الكفار الفرسان والمشاة وتحصنوا بالقلعة، وخرج خمسمائة من هؤلاء والذين كانوا متزملين بالحديد الخالص، وأداروا رحى الحرب مع عسكر الترك، وكان ذلك في اليوم السادس والعشرين من الشهر المذكور [يوليو]، فإنهم لم يحققوا مقاصدهم، وأعدم بعضهم وأسر بعضهم الآخر، حتى قبض أيضًا على حامل رايتهم، وبعد ذلك، أطلق السلطان سراح حامل راية عسكر النصارى الذي كان شجاعًا ومشهورًا جدًا، ومنع عسكر النصارى أمير الأمراء وسائر العسكر الذين أتوا للمساعدة، منعوهم من الدخول إلى داخل القلعة، وكان «مقلوش غروف» و«روغن دور» قادة جنودهم، حتى إن «روغن دور» الذي كان قد اشترك في معركة «موهاج» كان بطلًا جسورًا جدًا، وبالإضافة إلى هذا، كان هناك الكثير من القادة، وكان هناك قادة أبطال من ذوى الخبرة من الذين شاركوا في الحرب، جاءوا من «إسبانيا»، وكان مائتان من جند الأفلاق يقومون بحراسة الجسر، ولكن الأتراك حرقوا هذا الجسر، ومن ناحية أخرى، بينما كان قادة «بوزون» يأتون من «آشقة»، أغرقوا سفينة تركية، وقتلوا الذين كانوا بداخلها، ومع هذا لم يستطع الكفار المقاومة، ودخلوا مرة أخرى إلى القلعة.

وقام القادة الموجودون بداخل القلعة والذين كانوا يتحاربون مع الترك في هذا المكان بالتشاور؛ حيث قرروا بضرورة حرق الأراضي التي كانت خارج القلعة، حتى لا يترك أي مكان يمكن أن يحتمي به الأتراك، وحتى لا ييسروا لهم الاقتراب أكثر نحو القلعة، و من ثم أحرقوها، وقد حرقت المزارع الجميلة والمنازل والقصور، فصارت متساوية بالتراب، وحاصر السلطان صاحب السعادة القلعة بدرجة لا تسمح بدخول أو خروج أي رجل، وتجول «إبراهيم باشا» في كل ناحية، وتفقد كل مكان، وحاصر القلعة حصارًا شديدًا، ولما وصل من «طونه» حتى إلى الجبل الذي يمتد حتى قلعة «قلندور»، ملأ المكان تمامًا بالعسكر، وأسرع في السيطرة على المكان من أجل أن يأخذ الماء له أي يجعل الماء خلفه، وتفضل السلطان صاحب السعادة بالنزول مع بلاطه

وغلمان السباهية في أطراف كنيسة «مارقو» و قصر «كاربان» بالقرب من «طونه»، أما أمراء الأمراء فكانوا أمام العسكر، حيث أرادوا أن يمكثوا، وينزلوا العسكر بالقرب من بحر «بچ» في الطرف الأسفل، حتى إنهم نزلوا إلى الموضع الذي يمتد بعد الباب والبرج وحتى الكنيسة، ونزل الطابور الثالث الذي كان تحت راية قاسم باشا والطابور الرابع الذي يتشكل من فرق العزب وبعض جند الإنكشارية والرعايا والعمال القائمين بأعمال زرع اللغم، ونزلوا عند مكان ذي مرعى كثيف وبعيد عن باب بائعي السوق، وكانت كل هذه الطوابير بعيدة عن القلعة على نحو لا يمكن أن تصل إليها قذائف المدافع.

وبعد ذلك، حاصر الأتراك القلعة، ولكن لم تكن معهم مدافعهم الكبيرة، ولم تكن المدافع التي في أيديهم بالقوة التي يمكنها أن تهدم الجدار، ولم يحضر الأتراك مدافعهم الثقيلة؛ بسبب أن «إبراهيم باشا» قال: «إن قلعة «بچ» ليست قلعة محكمة، وعندما يرى أهالة «نمچه» الأتراك بهذا القدر من العسكر الكثيرة تحت القلعة، سيعطون القلعة ولن يقاومون أبدًا».

وعندما ضرب الأتراك القلعة بالمدافع الصغيرة، لم تكن هناك أدنى فائدة منها، ولم يتمكنوا من تحقيق أي نجاح، وبعد ذلك، لجئوا إلى استخدام اللغم، حيث قاموا بتلغيم مكانين؛ أحدهما بجانب الباب، والآخر بجانب البرج، وملئوهما بالبارود.

ولكن أهالي «نمچه» كانوا على دراية تامة بأوضاع اللغم، فسرعان ما شرعوا في حفر لغم في مواجهة الأتراك، وقاموا بإقامة الأعمدة الكبيرة من الناحية الداخلية للقلعة، وذلك حتى لا يسقط الجدار للخارج، ولا يتمكن الأتراك من الدخول لداخل القلعة بعد ذلك.

وعندما أشعل الأتراك النار في اللغم، انهدم الجدار للخارج بأصوات وطرقات شديدة، وسعى الأتراك للدخول إلى داخل القلعة بالهجوم العنيف من الجدار الذي هُدم، ولكن أهالي «نمچه» خاضوا معركة ضارية وطردوا الأتراك للخارج، وبعد ذلك وقعت معركة عظيمة بين الطرفين مرة أخرى، حيث كان الأتراك يهجمون

على الجدار سريعًا ويسعون للدخول، ولكن منع أهالي «نمجه» الهجوم بأسلحتهم ومدافعهم الكبيرة، وسعى الأتراك وهجموا على هذا النحو مرتين أو ثلاث مرات، ولكن لم يحصلوا على شيء سوى الضرر لأنفسهم، وبعد أن تشاور «أمير نيقوله» مع سائر القادة، قام بإخراج ألفين من المشاة وخمسمائة من الفرسان ودفع بهم للهجوم على الأتراك؛ أملًا في أن تبعد هذه القوة الأتراك عن القلعة، وأن تفسد مدافعهم وتحطم عرباتهم، ولكن استمرت الحرب دون أن يستطيعوا فعل أي شيء للمدافع، وذلك لأنه كان هناك رجال كثيرون من جند الإنكشارية وفرق العزب يقومون بحراسة تلك المدافع، فإنهم استطاعوا أن يقتلوا مائتي رجل فقط من الترك، وهم أيضًا فقدوا قدرًا من الرجال، وقفلوا عائدين إلى القلعة، ومرة أخرى، خرج أكثر من مائة رجل من الإسبان، وتوجهوا من طريق آخر، وهجموا على الأتراك بينما كانوا يقطفون ثمار العنب في الحدائق؛ حيث قتلوا الكثير منهم، وعندما رأى الترك الذين يقفون في طابور الحرب هذا الوضع، هجموا عليهم، وقاموا بحرب ضروس، وقاتل الإسبان بشجاعة، حيث كان جميعهم مختارين من الماهرين في حمل السلاح، ولم يفقدوا من بينهم الكثير، حيث عادوا أدراجهم، ودخلوا إلى القلعة.

ولما رأى الترك أنه لا يمكن أن يحققوا أي نجاح بهذه الصورة ، قاموا بإرسال ثلاثة رجال من أهالي «نمجه»، الذين كانوا قد صاروا تركًا؛ أي اعتنقوا الإسلام قبل ذلك إلى داخل القلعة ببذل الوعـود الكثيرة لهم، وكان هؤلاء قد ارتدوا ثياب أهالي «نمجه»؛ يعني وكأنهم وقعوا في الأسر في يد الترك، ثم تمكنوا من الفرار منهم، وكان عليهم أن يدخلوا القلعة، ثم يشعلوا النار فيها، وكانوا قـد أوصوهم بالتوقيت الذي يجب عليهم فيه أن يشعلوا النار، وكانوا قد علموهم كيف يشعلون النار، ونبهوا عليهم بما يلي: «عندما نقوم بضجة عالية ونهجم، أشعلوا في تلك الأثناء النار في القلعة».

وكان يوجد في القلعة شخص كان قد ارتد إلى النصرانية بينما كان مسلمًا قبل ذلك، فسمع بهذا التدبير، وأحاط القادة علمًا به، وعلى هذا، قاموا بالقبض على هؤلاء في اليوم الثاني من شـهر «لستوبان» أي من شهر تشرين الأول، وتم استجوابهم؛ وقتلوهم بعد

تعذيب شديد، كما أخبر هذا المسلم الذي أصبح نصرانيًا: «بأن هناك أيضًا فكرة لدى الترك، وهي أن يحفروا الآبار تحت باب النصارى المقصود باب القلعة، ويسعون لملئها بالبارود، حيث يجربون حظهم هذه المرة بتلك الفكرة، وأنهم يسعون في ذلك الوقت لتنفيذ هذا الأمر بالعناء الشديد»، وما إن سمع عسكر الكفار بهذا الأمر حتى ملئوا الأواني الكبيرة بالماء ووضعوها في هذه المواضع، كما وضعوا أيضًا الطبول، فإذا اهتز الماء وجلد الطبل، يعرف بأنهم يقومون بحفر اللغم في هذا المكان.

وخرج بعض الرجال من «نمچه»، وقاموا بالهجوم من أجل هذا الأمر، وحتى يروا بأعينهم ما إن كانت هناك ألغام أم لا؟ وكان الأتراك في ذلك الحين لا حصر لهم، وكانوا يسيرون مطلقين نيران البنادق؛ وبسبب هذا اختار النصارى ثمانية آلاف «إسباني»، وأرسلوهم للخارج حتى يطردوا الأتراك من الأراضي المحيطة بالقلعة ومن الخنادق، وليروا هل هناك من يقوم بزرع الألغام أم لا؟ وما كاد الإسبانيون يخرجون إلى الخارج حتى هجموا على الأتراك من كل جانب، وصاح إسباني من بينهم بصوت عال: «لماذا تذهبون متفرقين؟ لا تتفرقوا»، وعلى هذا سرعان ما دبَّ الخوف في قلوب جميع الإسبان من هذا الصوت، ومن ثم عادوا أدراجهم ثانية إلى القلعة، ولكنهم أطاحوا بكثير من الترك كما أن الكثير من الإسبان هلكوا؛ بسبب فزعهم المفاجئ، وهلك أيضًا في ذلك الحين رؤساء قادتهم الذين مأواهم جهنم، وفى النهاية مع أن الإسبان لم يستطيعوا أن يحققوا هدفهم، فإنهم رأوا أن الترك قاموا بتلغيم موضعين، وفى هذه الساعة خرج الإسبانيون من القلعة وساروا صوب ذلك المكان الذي تم تلغيمه، أما الأتراك أيضًا فقد أشعلوا النيران في هذه الألغام، وهدموا الجدران من مكانين، وقاموا بالهجوم ثانية من الموضع الذي انهدم؛ بسبب اللغم الأول، ولكـن سعى واجتهد قادة النمسا والإسبان مع عسكر الكفار لدفع الترك، ودنا كل من الطرفين من بعضهما البعض على هذا النحو الذي كان يمكن أن يعطي انطباعًا بأنهم متحدون.

ووقعت في هذه المرة معركة عظيمة، حيث اشتبك جنود «نمچه» مع عسكر الترك في هذه المعركة، فترك جنود «نمچه» بنادقهم، وقاتلوا بالسيف والسكين، وطردوا

الأتراك من داخل القلعة، ولكن الأمراء والجاوشية دفعوا عسكر الترك للهجوم مرة أخرى، وبثوا فيهم روح الشجاعة، وساروا للهجوم ثانية براياتهم، ولكن عاد الأتراك ولم يستطيعوا الإقدام كما في المرة الأولى وبدءوا يقولون: «إن لم نمت على أيدي جنود «نمچه»، فإننا سنموت بعد ذلك بسيف الترك»، وفى ذلك الوقت، راح الترك يرمون سهامهم وقذائف مدافعهم، وبدءوا يعملون على إحراق القلعة، وأطلقوا نيران المدافع الكثيرة على الثغرات على النحو الذي أوقع الخوف الشديد بعسكر «نمچه»، وذلك لأنه أصبحت حماية جدران القلعة أمرًا بالغ الصعوبة، وبعد ذلك، بدأ جنود «نمچه» أيضًا بإلقاء النيران على الأتراك، حيث تمكنوا من إبعاد الأتراك خلال ثلاث ساعات، واستطاعوا أن يحموا جدران القلعة، واستشهد هنا أكثر من ألفي تركي، وهؤلاء أنفسهم؛ أي الأتراك قالوا: «لم يفقد رجال لهم بهذا القدر لا في «رودس» ولا في «بلغراد».

وفى اليوم الرابع من الشهر المذكور هجم الأتراك ثانية، حيث كانوا قد دفعوا بالعسكر الأقوياء إلى هذا الهجوم، وقام جميع الجند بإحضار السلالم وسحبوا التراب حتى يملئوا بها الخنادق، وفى ذلك الوقت، هجموا على عسكر «نمچه» و«إسبانيا»، وأطلقوا المدافع والبنادق، وشنوا عليهم هجومًا عظيمًا، ولكن قبل أن يلقي الترك التراب في الخنادق، قام جند «نمچه» بدفن الكثير من الأتراك في ذلك التراب، وفى اليوم التالي، ولما رأى السلطان أنه لا يمكن أخذ القلعة بهذه الطريقة، تملكته الحدة، وأحضر جميع أمراء الأمراء وأغا الإنكشارية و«إبراهيم باشا» أمامه، وأغلظ عليهم كثيرًا، وأمر بضرورة تقوية الجند خلال ثلاثة أيام، وفى اليوم الثالث، هجموا جميعًا بغتة، وفى ذلك الحين استدعى أحد القادة الذين بداخل القلعة، جميع الأبطال الشجعان من القادة، وخرج بهم وهجم على الجيش جميع الأبطال الشجعان من القادة، وكان قد وضع الرجال في كمين، فعندما هجم العسكر من جيش «إبراهيم باشا» على هؤلاء، قاموا باستدراجهم إلى الكمين، وقتلوا الكثير من الجند الأتراك بهذه الصورة، وأخذ بعضهم أيضًا أحياء، وعُرف من هؤلاء الأسرى أن السلطان سيجرب الحظ ثانية، وأنه سيقوم بالهجوم، وفي حالة عدم استيلائه عليها، فإنه من الضروري أن يتحرك ويذهب.

وكان فصل الشتاء يلوح في الأفق، وبدأ الجو يشتد برودة، وعلاوة على ذلك، كان قد وصل إلى مسامع السلطان أن إمبراطور الـ «نمچه» على وشك الوصول بجيش عظيم، وحشد أيضًا «فرديناند قرال» الجند، ولكن في اليوم الثالث عشر من الشهر المذكور، هجم بغتة كل من السباهية وسائر وحدات العسكر المجهزين بالعتاد والسلاح، حيث صعدوا فوق الجدران التي هدموها باللغم، وأرادوا أن يدخلوا منها إلى داخل القلعة، أما عسكر الكفار فقد أحكموا تحصين هذه الأماكن بالأشجار والأعمدة الكبيرة والحجارة، وربما كانوا قد أحكموها أكثر من ذي قبل، ولما رأوا أن الأتراك يهجمون عليهم بجيش عظيم، أصابتهم الدهشة والاضطراب، ولكن القادة الكفار ساقوا عليهم الأبطال المدربين، وأطلقوا مدافعهم بالقدر الذي أوقع الاضطراب بين الترك، وسرعان ما سعى «إبراهيم باشا» و«فرهاد أغا» أغا الإنكشارية و«بهرام باشا» لرفع الروح القتالية للعسكر بسيوفهم، وقادوهم للهجوم، ولما رأى عسكر الترك أنه لا يمكن التقدم، صرفوا النظر عن أخذ القلعة، وقالوا: «كلنا نريد الموت بسيفكم، وإلا فإننا نفنى من بنادق «نمچه» و«إسبانيا»»، ولم يهجموا على القلعة ثانية، وبصفة عامة، لم يستطيعوا الاقتراب من القلعة بهذا الهجوم، ولما علم السلطان صاحب السعادة ورأى أنه لا يمكن فتح هذه القلعة، تحرك من «بچ» في منتصف ليلة اليوم الرابع عشر من الشهر المذكور؛ أي بعد ثلاثة وعشرين يومًا من بدء محاصرة القلعة، وفي اليوم الخامس أتوا إلى «بودين» التي تقع على بعد ثلاثين ميلا، وأطلقوا منها سراح أسرى الكفار الذين وقعوا في الأسر، وأحضر «إبراهيم باشا» حامل راية جند النصارى أمامه وقال له: «لم يكن السلطان صاحب السعادة قد أتى من أجل أن يأخذ «بچ»، ولكنه كان قد جاء من أجل أن يعرف عدوه «فرديناند قرال» قدره، وها هو قد عرف الآن قدره، ولو لم يعرف قدره، فسيأتي السلطان بعد ذلك في وقت قصير، وعندئذ لا يتهاون في توقيفه عند حده»، وجاء حامل الراية المطلق سراحه، وذكر تلك الكلمات التي قالها «إبراهيم باشا» إلى جميع الأمراء والقادة.

وعندما حضر السلطان إلى «بودين»، ألبس «يانوش قرال» التاج، وقدم له عصا الملك وأعطى له حق التصرف في جميع أنحاء مملكته، وجمع جميع أعيان وأشراف الترك

في الديوان، وقال أمامهم: «قد وجدت العزة على رأسك، فقد لجأت إليّ وطلبت المدد مني، وإذا ظهرت لك أي مشكلة في أي وقت، فلن يكون هناك تقصير مني، وإنني قبلتك جارًا لي، وتصديت لأعدائك، فإذا لم يطعك أي شخص، أخبرني، وسأقدم بعون الله بخصوص هذا الأمر وأقتص منه»، كما تحدث أيضًا إلى كبراء المجر قائلًا: «اعلموا أن هذا ملكٌ عليكم، واحذروا من أن تخالفوا كلمته، وها هو ذا قد أُعطي له التاج وعصا الملك، وأُعطيت له سائر أسباب عظمة الملك»، وكان قد وصل التاج إلى يد السلطان، وكان التاج يلبس للملوك في مجلس مقامة فيه الطقوس منذ القدم، وبعد ذلك يحفظونه كأمانة في قلعة أحد الأعيان الذي يكون إما صاحب مملكة أو صاحب قلعة، وفي ذلك الحين، كان التاج محفوظًا في قلعة الأمير المعروف باسم «برين بتور» الذي كان أمير «شقلوش»، وعندما عبر السلطان من «دراوه» وبينما كان يتم حمل وتهريب التاج من «شقلوش» ، قام أمير «بچوي» بإرسال خمسين من أفراد طائفة الحيدود ومائتين من طائفة القطانة وأنقذوا التاج. وبعد ذلك وصل التاج إلى السلطان، فكان ذلك سببًا في أن يُلبس التاج بيد السلطان لـ «يانوش قرال».

وتحدث السلطان صاحب السعادة بقوله: «ليكن معلومًا لأهل المجر أن هذا ملكٌ عليهم، وأنه إذا خالفه أي شخص ولم يستطع القصاص منه، فإنني سوف أقدم بنفسي»، وبعد ذلك، ترك السلطان ثلاثة آلاف جندي مسلم في «بودين» للمحافظة، أما السلطان فقد سلك طريقه صوب عرشه عابرًا ساحل «بشته».

بيان كيفية وصول التاج إلى خزينة السلطان صاحب السعادة

كان أمراء المجر من قبل قد اجتمعوا مستنكرين «يانوش قرال » الذي ولاه السلطان صاحب السعادة على مملكة «بدون»؛ حيث توجهوا إلى «بچ»؛ وطلبوا من «فرديناند قرال» أن يكون ملكًا على المجر، فحضر المذكور «فرديناند»، وطرد «يانوش قرال» من

«بدون»، وجلس على المملكة بدلًا منه، وكالمعتاد ذهب كل أمراء المملكة وأعيانها إلى «أستونى بلغراد»؛ وألبسوا «فرديناند قرال» التاج، وارتضوا به ملكًا عليهم وبايعوه.

وكان التاج يُعطى منذ القدم لأحد الأمراء المشاهير، ثم بعد ذلك كان يرسل إلى خزينة «ويشغراد»، وهناك كان يختم بخاتم الأمير، ويقفل عليه بقفله ويحفظ هناك، وفى هذه المرة سلموا التاج إلى «برين بترو» أمير «شقلوش» و«البوه» نظرًا لأنه كان من مشاهير الأمراء في المجر، على أن يحمله بعد ذلك إلى « ويشغراد» للمحافظة عليه، ولكن «برين بترو» حمله إلى «شقلوش» التي كانت تُعد قلعة له، ولم يحمله إلى «ويشغراد» وذلك إما لأنه قد صادف عائقًا ما أو بغرض أن يحمله بعد ذلك إلى «ويشغراد»، وعندما علم في هذه الأثناء، أن السلطان صاحب السعادة سيأتي إليه؛ أخرج التاج من «شقلوش»؛ وخرج مع أهله وعياله، وتوجهوا صوب «بدون» لاجئين إلى «فرديناند قرال».

وفى ذلك الوقت، كان أمير «پچوي» تابعًا لـ «يانوش قرال»، وبمجرد أن سمع أن المذكور «برين بترو» سوف يذهب بالتاج، أرسل خلفه من «بچوي» مائتين من طائفة «القطانة» الأبطال وخمسين من طائفة «الحيدود»، وقد لحق هؤلاء بـ «برين بترو» أثناء نزوله عند قرية بساحل «شارويز» بقرب «سكسار»، وبينما كان فى حالة غفلة، هجموا عليه وقتلوا بعض رجاله، وأخذوه هو والتاج مع أهله وعياله؛ وحملوهم إلى «بچوى»، ولكن أمير «بچوي» لم يحتفظ به في قلعته، وفضل أن يرسله إلى أمير قلعة «شوبرون» الذي كان تابعًا لـ «يانوش قرال»، فأرسلهم جميعًا إلى «شوبرون» مع «يانقي يانوش» أمير «لندوه».

ولما نزل السلطان إلى صحراء «موهاچ»، علم بهذه الأوضاع، وبناءً على هذا أحضر أمير «بچوي»، وأحضر أيضًا «يانقي يانوش» وأغلظ عليهم القول، فاضطروا إلى إحضار التاج و«برين بترو» طوعًا أو كرهًا، فأخذ السلطان التاج وحفظه، وسلم «برين بترو» إلى «يانوش قرال »، حيث أوصى السلطان بأنه : «ينبغي ألا يؤذيه «يانوش»؛ بسبب مخالفته له»، وفى تلك الأثناء أصبح «برين بترو» تابعًا للسلطان، وبعد ذلك حبسه أثناء الحملة التي قام بها على ألمانيا، وتفصيل ذلك سوف يكتب في موضعه.

تعمير قلعة «أوسك»

في سنة ٩٣٦هجرية[١]، كانت قد هدمت قلعة «أوسك» أثناء فتحها حيث سويت بالتراب، وفي هذه المرة، وبعد أن دخل السلطان صاحب السعادة دار السلطنة إثر العودة من الحملة، بعث بالأوامر الشريفة والأموال إلى أمراء الحدود وكلفهم ببناء هذه القلعة من جديد، وحتى ذلك الوقت كانت هناك صعوبات بالغة في حماية وتحصين «سرم» وحدودها، وبناءً على هذا وضع ثلاثة آلاف جندي في قلعة «أوسك»، وعُين المرحوم «قاسم باشا» الذي كان قد شيد جامعًا شريفًا في «بچوي» أغًا على خمسمائة من جند العزب.

حفل ختان أبناء السلطان أصحاب الشأن الرفيع

أعني السلطان «مصطفى خان» والسلطان «محمد خان» والسلطان «سليم خان»، وقد شرع في الحفل في ٢١ من شوال سنة ٩٣٦هجرية[٢]، وتم إبداع واختراع متكأ مناسب وقصر مبارك من أجل السلطان عالي الجاه في «مهترخانه همايون» المطل على الميدان المعروف باسم «آت ميداني»، وضُربت السرادقات العالية، والخيام الكبيرة المزدانة من أولها إلى آخرها بالديباج من أجل الوزراء وأركان الدولة، واجتمع في الصباح الباكر الوزير الثاني «إياس باشا» والوزير الثالث «قاسم باشا» وأمير أمراء الروم إيلي وسائر أهل الديوان اجتمعوا في الديوان الهمايوني، وكالعادة حضر بعد قليل الوزير الأعظم وقائد الجيش الأكرم.

وبعد ذلك امتطى السلطان صاحب السعادة جواده، وخف صوب مكان الحفل تحفه الشوكة والإجلال، ولما اتجه نحو «أرسلان خان»، دنا الوزراء راجلين إلى الركاب الهمايوني، وعندما وصل إلى وسط المدينة، استقبله قائد العسكر «إبراهيم باشا» وأمير

(١) الموافق سنة ١٥٣٠م.

(٢) الموافق ١٨ من يونيه ١٥٣٠م.

الأمراء وأغا الإنكشارية وسائر أغوات الخدم الذين يقومون بتيسير الركوب لمن يركب الأحصنة، ثم تفضل حضرة السلطان بالنزول قرب عرش السعادة، وعندئذ علت أصوات الجاوشية بالمدح والثناء إلى عنان السماء، وبعد أن جلس السلطان فاتح العالم على العرش، قام الوزراء وسائر العظماء والأمراء بتقبيل يد السلطان كلٌّ حسب موضعه ومرتبته تهنئةً له بالحفل المملوء بالسرور، ثم اصطفوا كلٌّ في مكانه، وفى هذه الأثناء وزعت عليهم الهدايا والعطايا، وبعد ذلك قام أيضًا شيخ الإسلام ومفتي الأنام وسائر الموالي العظام والمدرسون والقضاة الكرام بتقبيل يد السلطان، وجلسوا في الديوان الهمايوني كلٌّ حسب مرتبته، وبدءوا في تناول الطعام السلطاني الذي تم إعداده لهم.

وفى اليوم الثاني من شهر ذي القعدة(1) انعقد الديوان الهمايوني وقبل أيدي السلطان كلٌّ من الوزير الأعظم «بير محمد باشا القرماني» الذي كان متقاعدًا، والوزير المتقاعد «زينل باشا» وبعض الأمراء الكرام للتهنئة بالحفل المملوء بالحبور، وقدموا إليه هداياهم، وفى اليوم الرابع أيضًا قُدمت الضيافة الخاصة إلى زمرة العلماء، وبذلت الرعاية البالغة لحضرة «مولانا خير الدين أفندي» معلم سلطان العالم، حيث أُجلس بجوار الوزير الأعظم، وبهذه الصورة قُدم على قضاة العسكر، كما قدمت الضيافة السلطانية الخاصة في يوم آخر إلى طائفة الإنكشارية، بعد إعداد الطعام لهم.

وفى اليوم العاشر، أُجلس في أماكن متفرقة من كان في درجة أدنى من مستوى المدرس ذات الخمسين أقچة في المحروسة إستانبول، والقضاة المعزولون والمشايخ والصوفية وأهل السوق ومتولو الأوقاف وأمثال هؤلاء ،حيث أُكرموا بأنواع الكرم.

وفى اليوم الرابع عشر من الشهر المذكور، وصل جملة أهل الديوان إلى «أسكي سراي»؛ وأركبوا أبناء السلطان على الجياد بعظيم الحفاوة والافتخار؛ وحملوهم إلى «آت ميداني» واستقبلهم الوزراء سائرين على الأقدام في اليوم الخامس عشر؛ كما أُعدت قاعة مملوءة بالصفاء أمام العرش الهمايوني تعلو مقدار شبر عن سائر الإيوان، والذي كان مفروشًا

(1) الموافق ٢٨ من يونيه ١٥٣٠م.

من أجل السلطان، وبعد أن جلس السلطان صاحب السعادة في هذا المكان المُعدّ له، جلس بحسب الترتيب التالي في جانبه الأيمن الصدر الأعظم «إبراهيم باشا»، و«إياس باشا»، وأمير أمراء الروم إيلي «بهرام باشا»، و«يعقوب باشا»، و«خواجه أفندي»، وقضاة العسكر وابن خان التتار؛ وفى جانبه الأيسر «بيرى باشا» المتقاعد من منصب الصدارة العظمى، و«زينل باشا»، و«فرخشاد بك» من كبار أمراء ديار الشرق، و«مراد بك بن بايندر»، و«محمد بك بن الغوري» سلطان مصر، و«عبد اللطيف بك» من أبناء «ذو القدر»، وبعد أن قُدمت إليهم الضيافة السلطانية، شربوا كالعادة المشروبات القيمة طيبة الرائحة، ثم قدم خدم «الباش دفتردار» «إسكندر چلبي» الشراب بكأس «بيروزه» المشهور إلى السلطان صاحب السعادة، وقدم أغوات خدم الركوب الشراب إلى الوزراء والأعيان حسب مرتبة كل واحد منهم.

وفي اليوم التالي، رُتبت الضيافة للعلماء مرة أخرى، وقام رئيس الجاوشية بدعوة شيخ الإسلام «مفتي أفندى» وبدعوة «خواجة أفندى» رئيس طائفة «الجبه جية»، حيث أحضروهم، وجلس على الجانب الأيمن للسلطان صاحب السعادة شيخ الإسلام ومفتي الأنام «كمال باشا زاده»، وقاضي عسكر الأناضول «مولانا قادرى»؛ وعلى جانبه الأيسر المعلم العظيم «مولانا خير الدين»، وقاضي عسكر الروم إيلي «مولانا فناري زاده محيي الدين»، وجلس سائر الموالي والفضلاء في مواجهة سلطان العالم، واستهل حضرة «شيخ الإسلام» الكلام أولًا بتفسير سورة الفاتحة الشريفة بإذن من السلطان، وبسبب أن الموضوع تناولته مطالعات أكثر العلماء، فقد تعادلت قدراتهم في الحديث عن هذا الموضوع، حيث تحاور في الحديث من كانت لديهم القدرة على حسن التقرير والتعبير، أما الذين كانوا على قدر يسير من العلم فقد غرقوا في بحر عرق الخجل؛ حتى صُرع في ذلك الحين مدرس من هذه الزمرة يعرف باسم «سليمان خليفة» حيث توفي بمجرد أن وصل إلى داره.

وفي اليوم الثامن عشر تم ختان أبناء السلطان في الـ «ديوانخانه» بسراي «إبراهيم باشا»، وفي اليوم العشرين تم الخروج إلى «كاغد خانه»؛ حيث شاهدوا سباق الخيول،

وفي هذه الأثناء سبق جواد صيد رشيق كل الجياد، وبالإضافة إلى ذلك أُطلقت السهام نحو القبة المصنوعة من الفضة التي كانت موضوعة على مكان مرتفع، ولم يكن هناك حد ولا حصر لأرباب الفن الذين أفيض عليهم بأنواع الإنعام والإحسان، كما أنه زائد عن حد التعريف والتوصيف أولئك الندماء الذين كانوا يأتون كل يوم من جميع أطراف المملكة، والمضحكين وأصحاب الطرائف، ولاعبي الجمباز والفروسية والخيالة؛ أما العوام الذين أُكرموا بأنواع الطعام والضيافة فقد تجاوزوا حد التعريف والتوصيف، ولهذا يُرى أنه لا حاجة للإطناب في هذا الموضوع؛ لأنه كان من قبيل تحصيل حاصل.

محاصرة «يانوش قرال» في «بودين» وقدوم «يحيى باشا زاده» وتخليصه له

كان ذلك في سنة ٩٣٧هجرية[1]، لما قام السلطان صاحب السعادة وعالي الجاه بالإحسان بمملكة المجر بالتاج على «يانوش قرال»، كان قد حقد عليه الأقران أرباب الطغيان، وبعد عودة السلطان صاحب السعادة إلى العاصمة تحفه العزة، قام «يانوش قرال» بدعوة أمراء المجر لطاعته، فأطاعه بعضهم، وأعلن العصيان عليه البعض الآخر، ومن جملة هؤلاء «ترك بالند» الذي كان أمير سنجق «سكتوار» حيث أعلن العصيان على «يانوش» وزرع بذور الفساد والإضلال لأهالي المجر، فكان لزامًا على «يانوش قرال» أن يؤدب المذكور حتى يجعله عبرة للآخرين ويذعنوا له، فحشد إلى جواره أغوات الإنكشارية الذين تركهم السلطان صاحب السعادة لحماية «بودين»، و«قاسم باشا» مع جنده الذين لا يتجاوز عددهم الثلاثة آلاف، ونحو عشرة آلاف جندي مجري، ثم أرسلهم إلى «سكتوار»، وأخذ هؤلاء بعض المدافع المخصصة لضرب القلاع والبارود والمهمات واللوازم الأخرى من «پچوي»، واتجهوا بها صوب «سكتوار»، واغتنم «فرديناند» الضال ملك «نمچه» هذه الفرصة، حيث أعد العسكر الكثيرة التي عاقبتها

(١) الموافق سنة ١٥٣٠م.

دائمًا الهزيمة من «نمچه» و«إسبانيا» والممالك الأخرى، وأرسلهم إلى «بودين»، وما كاد جاسوسية «يانوش قرال» يحيطونه علمًا بهذا الوضع، حتى أرسل الرجال على عجل إلى عسكر الإسلام وعسكر المجر الذين كانوا في محاصرة قلعة «سكتوار»، حتى يتم حضورهم إلى «بودين» بسرعة، وجمع أيضًا حوالي عشرة آلاف جندي من سائر الكفار؛ وأحضرهم إلى «بودين».

وفي الوقت نفسه، أرسل «يانوش قرال» خطابات الاستغاثة إلى «محمد بك بن يحيى باشا» أمير «سمندرة» والى الآستانة مدار السعادة من أجل طلب الإمدادات، وفي هذه الأثناء، تجمع أيضًا عسكر «نمچه» وأتوا من «بچ»؛ فتسنى لهم البدء في محاصرة «أسترغون» - التي كان قد حضر أميرها، بينما كان السلطان صاحب السعادة أمام «بچ» وأطاعه وأصبح تابعًا لـ «يانوش قرال» - حتى استولوا عليها، ثم وضعوا داخلها نحو ثلاثة آلاف حارس من جند «إسبانيول»[1] و«نمچه»، وبعد ذلك استولوا أيضًا على «ويشغراد» و«واج»، ثم جاءوا وحاصروا «بودين».

وفي ذلك الحين، حضر «قاسم باشا» مع عسكر الإسلام الذين كانوا في محاصرة «سكتوار»، وحضر أيضًا عسكر المجر الذين كانوا معهم، ولكن لما كانت قد حصرت «بدون» فإنهم لم يتمكنوا من الدخول إلى القلعة؛ فعادوا، وأتوا إلى «أستوني بلغراد»، وكانت هذه أيضًا تابعة لـ «يانوش قرال»، ثم قاموا بتجهيز المرشدين من «أستوني بلغراد»، وتحركوا ذات ليلة في الخفاء، ثم جاءوا ودخلوا القلعة، وفي اليوم التالي، خرجوا سريعًا وهجموا على المتاريس النمساوية؛ حيث قُتل رجال كثيرون من الطرفين، وهكذا دخل «يانوش» مع أهل الإسلام ثانية القلعة منتصرًا ومظفرًا، ولكن النمساويون كانوا قد ضربوا القلعة عدة أيام؛ حتى انهدم معظمها واستوى بالأرض، وأشعل هؤلاء الحمية الجاهلية بينهم وهجموا، ولكن بفضل الله تعالى عادوا ووجوههم مسودة،

---

(١) المقصود بها إسبانيا.

- Danişmend : Adi geçen eser، S. 481 .

وفي هذه الأثناء أخبر أمير سمندرة «محمد بك» المشار إليه وأمير البوسنة «خسرو بك» «وأمير آلاجه حصار»[1] «أحمد بك» وسائر عسكر الحدود أخبروا «يانوش قرال» بأنهم حضروا إلى «موهاج»، وأبلغوه أيضًا أن كل عسكر «إبراهيم باشا»؛ أي عسكر الروم إيلي والأناضول قد وصلوا، وهكذا شرع «محمد بك» المشار إليه في اتخاذ تدبير حسن يقضي بأن يجعلوا بعض الأسرى الذين أسروا من الكفار يهربون البعض تلو البعض، دون إظهار الحقيقة؛ فيقوم هؤلاء بالإشاعة بين الأعداء أن «إبراهيم باشا» قائد العسكر قد وصل»؛ ثم يشيعون أيضًا في «بودين» أن أهل الإسلام يستعدون لمحاصرة عسكر «نمچه» و«إسبانيول» على حين غرة من الطرف الجنوبي، وأن الوحدات العسكرية التي كانت في «بودين» تستعد لمحاصرتهم من الطرف الشمالي، وهكذا فبمجرد أن يسمع الكفار هذه الأخبار يصرفون النظر عن المحاصرة ويسحبون مدافعهم ويفرون بعساكرهم دون أن ينتظر بعضهم بعضًا.

وكان «يانوش» وأتباعه قد لبثوا سبعة وخمسين يومًا تحت الحصار، وعلى الرغم من العناء والمشقة التي كانوا يعانون منها، فإنهم بقوا في أماكنهم آمنين سالمين، وكان «محمد بك» قد وصل مع عسكر الإسلام بعد ثلاثة أو أربعة أيام، حيث بدأ في عبور ساحل «بشته» دون أن يضيع أي وقت، ثم تدبر الأمر قائلًا: «ينبغي ألا نعود صفر اليدين على الأقل»، وأخذ المرشدين من «بودين» و«بشته»، وعبروا من ناحية «نويغراد»، وقاموا بتنظيم الهجمات على البلاد التابعة لـ «فرديناند قرال» في ساحل النهر المعروف باسم «نتره» وفي نواحي وأطراف نهر «راغ».

وبفضل الله تعالى، عاد عسكر الإسلام مثقلين بالغنائم الكثيرة التي لا حد لها ولا حصر؛ حيث كان تعداد البنات اللائي ليس لهن نظير في الحسن والجمال والغلمان المحببين إلى القلوب وسائر الأسرى أكثر من خمسة عشر ألفًا، وكانت الحيوانات المأخوذة والأواني الفضية لا يسعها الدفتر حصرًا ولا يحيط بها عدًا.

---

(١) وهي تقع في بلاد المجر.

- Danişmend : Adi geçen eser، S. 579.

وصفوة القول: إن عسكر الإسلام قد قاموا بهدم تلك البلاد وأشعلوا فيها النيران على هذا النحو، ونهبوها وخربوها، حتى لم يبق منها أثر من حضر أو مضر، ويروى أن «يانوش قرال» نظر إليها وبكى؛ وهو يقول: «فليُسأل «فرديناند قرال» عن هذا أمام الله»، كما لو كان يشير إلى مضمون عبارة البادي أظلم.

استشهاد «بهرام باشا» أمير أمراء الروم إيلي

كان ذلك في ليلة ١٤ من شعبان المعظم سنة ٩٣٨هجرية[1]، وكان المرحوم المشار إليه صادقًا وتقيًا وعلى دراية بالأمور، وعالمًا بأرباب الحاجات بحيث كان يضفي السرور إليهم بلطفه، ويعطف على الفقراء والمحتاجين بكل شكل؛ كما كان صاحب عظمة وبهاء، وكان يرجو دائمًا الشهادة من جناب الباري، وقد لبى الله تعالى رجاءه؛ حيث قام شخصٌ ضال من طائفة غلمان الداخل بضرب رأسه بالسكين في الليلة المذكورة المباركة، وفي تلك اللحظة ذاقت روحه شهد الشهادة، وسلكت طريق الجنة، وفى اليوم التالي ربطوا جميع خدمه في السلاسل وأحضروهم إلى الديوان الهمايوني، وبعد الاستجواب تم إعدام رئيس البوابين ورئيس إسطبله وثمانية عشر نفرًا من طائفة غلمان الداخل بالسيف، وهكذا فقد أخذ كل فرد من الجنود درسًا وعبرة من هذا العقاب.

إجمالي العزيمة الهمايونية للحملة على «الألمان» باهرة البرهان

كان خروج السلطان في ١٢ من رمضان المبارك سنة ٩٣٨هجرية، وكان الباعث على تلك الحملة التي كان النصر دليلها؛ هو أن ملوك «نمچه» و«چه» والألمان والكلاب الكبار من الكفار الذين يلقبوا بـ«بان» و«غروف» و«جنرال» و«هرسك»، لم يعترفوا بـ«يانوش قرال» الذي أحسن عليه السلطان صاحب السعادة بمملكة «بودين»، وجعله

(١) الموافق ١٨ من أبريل ١٥٣٢م.

ملكًا عليها، وكانوا يسعون ويجدون أحيانًا في محاصرة «بودين» وهزيمته، وأحيانًا أخرى يقومون بتضليله بطرق مختلفة حتى يتنازل «يانوش قرال» عن هذا الملك، وعلاوة على هذا لم يعلن أمراء العشائر الذين استمرت طاعتهم لملوك «بودين» منذ القدم والأمراء الذين كانوا من أصحاب القلاع؛ لم يعلنوا الطاعة لـ «يانوش قرال»؛ وإنما أظهروا له العداء واتبعوا ملك «نمچه».

وما إن عرض «يانوش قرال» الوضع على السلطان صاحب السعادة حتى تفضل السلطان بالتوجه من دار السعادة إلى «بودين»؛ امتثالًا للوعود التي وعد بها أثناء توليته «يانوش قرال» ملكًا على «بودين» وإلباسه التاج على النحو المشروح سابقًا، ولما وصل السلطان إلى المكان المعروف باسم «نيش» في اليوم التاسع من ذي القعدة[1]، أتى سفراء الحقير المعروف باسم «جاسار» من ناحية البوسنة، ولما كان هذا الجاسار أخًا لـ «فرديناند» الكافر ملك «نمچه»، فقد عمل على تعطيل السلطان بإرسال خطابات الرجاء المتعلقة بالصلح، وما إن علم السلطان حامي العالم بمضمون رسالته حتى أرسل إليه الإجابة، ولما رأى السفراء ما عليه عسكر الإسلام من كثرة وما عليه الجيش السلطاني من وفرة وعظمة ومهابة سلطان الإسلام، أحاطت بهم الحيرة والدهشة.

ورحل السلطان من هذا المكان المقصود «نيش»، ونزل يوم عشرين من الشهر المذكور إلى «بلغراد» العامرة بالفتوح، حيث رُتبت في هذا المكان المواكب العظيمة وذلك على إثر قدوم سفير «فرنجه»؛ كما أقيمت السرادقات والخيام الكثيرة وتم تزينها وزخرفتها حتى بدت في عظمة ومهابة لم تظهر بها في أي وقت مضى قط، وبعد أن تجمع حوالي أربعين أو خمسين ألف جندي مهاجم، وأكثر من عشرة آلاف من التتار تحت قيادة «صاحبگراي خان» في جزيرة «سرم»، أحضروا إلى هذا المكان سفراء الجاسار الذين أذن لهم السلطان بالانصراف قبل ذلك، ثم تم تأخيرهم بعد ذلك، ومر السفراء من بين العساكر الكثيرة بهذا القدر، ومن بين صفوف الجنود هالكي الأعداء، وفي اليوم نفسه قام كل من أمراء

---

(١) الموافق ١٣ من يونيه ١٥٣٢م.

الأناضول وأمير أمراء الروم إيلي بتقبيل ذيل ثوب السلطان، كما تشرف السفراء أيضًا بتقبيل أنامل السلطان، وذلك بناء على أمره، وكانت قد قرعت الطبول، ورنت المزامير وآلات النفير، وبصفة عامة، فإن المهابة والقوة التي بدت في هذا اليوم لم يتم إعلانها في أي يوم قط.

وبعد ذلك وصل غزاة الإسلام إلى «أوسك»؛ ووصل الأمير المشهور المرحوم «خسروبك» أمير البوسنة مع عشرة آلاف من رجاله الأبطال علاوة على عسكر البوسنة؛ والتحق بالجيش السلطاني، وأتى إلى هذا الموضع أيضًا الكافر المعروف باسم «برين بتور» أمير قلعة «شقلوش»، الذي كان من أشهر أمراء كفار المجر مع ثلاثمائة أو أربعمائة جندي مجري، ولكن لما علم السلطان عن طريق «يانوش قرال» ملك «بودين» بتحالف المذكور «برين بتور» مع «نمچه»، قبض عليه في ذلك الحين مع رجاله معًا، وأرسل إلى سجن «بلغراد» بالسفن، ثم أُطلق سراحه ثانية بعد ذلك برجاء من «يانوش قرال»، وتم احتجاز ابنه رهينة، ثم اهتدى بعد ذلك وحظيَ بشرف اعتناق الدين الإسلامي.

وبعد ذلك عبر غزاة الإسلام نهر «دراوه»، حيث وصلوا إلى قلعة «أرشاك» التي تقع على جبل عالٍ، والتي تُرى منه على بعد منزل أو منزلين من نواحي «آلانه ولغوار» وهي معروفة للصغير والكبير، ولما كان أهلها قد أعلنوا الطاعة والانقياد، فلم يكن هناك ما يدعو للاستيلاء عليها، وهي الآن خرابة، ولكن أرسل أمير القلعة إلى بلغراد، وأعلن أيضًا أهالي القلعة المحكمة المعروفة باسم «شقلوش» الطاعة والانقياد، ومن ثم تُركوا على حالهم بشرط أن يتبعوا «يانوش قرال» ملك «بودين».

وبعد ذلك تعهد أهالي «قابولنه» و«شبليه» و«بوبوفچه» و«بلوار» و«برزنجه» و«وتوش» من القلاع والحصون الواقعة على جانبي الطريق الذي سلكه السلطان المقرون بالظفر، تعهدوا بالطاعة لـ«يانوش قرال»؛ طالبين الأمان، وأُحسن بالأمان على المذكورين بالقرب من قلعة «چيچو»، أما ما بقي معمور من تلك الحصون التي ذُكرت في هذا العصر، هو حصن «برزنجه» و«بوبوفچه» فقط؛ حيث يوجد في كل واحدة منها أكثر من مائة شخص من غزاة الإسلام.

وبعد ذلك استسلم أهالي «ذاقان» و«قنيژه» التي كانت في ذلك الوقت عبارة عن حصن صغير؛ أما الآن فهي على رأس القلاع الكبيرة للحدود الإسلامية؛ كما كانت تتصف بالمتانة والاستحكام، وبعد ذلك رحل السلطان من هذا المكان بالعزة والإقبال؛ وما إن وصل تجاه القلاع المعروفة باسم «قبورنوق» «باشكه» و«شاروار» حتى بادر أهلها بتسليم مفاتيحها؛ وأمنوا أرواحهم بالشروط المعهودة.

ووصل السلطان إلى أطراف الحصار المحكم المعروف باسم «كرمندوار» في اليوم الأول من شهر محرم الحرام الذي كان بداية الغرة المباركة لسنة تسع وثلاثين وتسعمائة[1]، ولم يقو الملاعين الخاسرون الذين كانوا بداخلها على هجوم عسكر الإسلام المقرونين بالنصر، وتفرقوا وتشتتوا، ولما ترك أهالي القلعة المعروفة باسم «روم» الديار وفضلوا الفرار، أُحرقت دورهم وديارهم، ونُهبت أموالهم وخربت ممتلكاتهم، ثم بعد ذلك فُتحت أيضًا القلعة المعروفة باسم «هدويك»، وبعدها فتحت القلاع التي تدعى «سونباتلى» و«مشتى» حيث قتل وذبح بعض أهالي هذه القلاع وطلب بعضهم الآخر الأمان لنفسه.

وبعد ذلك تفضل السلطان صاحب السعادة وجيشه بالتقدم في طريقهم، وبينما كان أمير سنجق «سمندرة» «محمد بك بن يحيى باشا ذاهبًا مع الجنود الذين كانوا تحت إمارته؛ حيث إنهم كانوا قد عُينوا كقوة متقدمة لعسكر الإسلام، وفى أثناء عبوره منطقة قريبة من قلعة «أوسك» التي كانت من القلاع المشهورة للكفار الذين مأواهم النار، نصب الملاعين الذين مأواهم الجحيم الكمائن في طريقه؛ حيث أداروا رحى حرب ضروس مع المشار إليه إذ كانت فوق ما يتصور البشر، وفى النهاية أغلق الملاعين أبواب القلعة، وقام عسكر الإسلام بنصب المدافع الكبيرة والمدافع من نوع «ضربزن» وضربوا القلعة بقوة تفوق العادة.

---

(١) الموافق ٣ من أغسطس ١٥٣٢م.

ولما لم تكن المساعي السلطانية في هذه الحملة المقرونة بالنصر تضع في الحسبان توفير المستلزمات المتعلقة بفتوح القلاع، لم تُحضر المدافع المخصصة بضرب القلاع حيث كان هدفه من هذه الحملة؛ هو نهب وتخريب ممالك «فرديناند قرال» الضال فقط، وإجباره على الطاعة لـ«يانوش قرال» ملك «بودين» طوعًا أو كرهًا، ولكن على إثر إطلاق أهالي القلعة المذكورة المدافع على العساكر المنصورة وإغلاقهم الطريق في وجوههم لفترة طويلة، كان من الضروري السعي لفتح تلك القلعة دون النظر إلى ما في أيدي الأعداء من أسلحة وتعريف الكفار الذين بداخلها قدرهم، وذلك بمقتضى الغيرة والحمية التي كان قد جُبل عليها السلطان؛ ولهذا نصب الباشا ذو الرأي الحسن المدافع من نوع «ضربزن» في المكان الذي كان مطلًا على القلعة، ووضع القائمين بأعمال اللغم أعلى هذا المكان، وشرع في اليوم الثامن من الشهر المذكور في الأسباب المؤدية للفتح.

وقام صانعو الأسلحة من الإنكشارية بإقامة المتاريس، وحاصروا السور، ولكن بينما كان الجنود على وشك الانتهاء من وضع بعض الألغام، علم الملاعين بالأمر؛ فاتخذوا التدابير اللازمة، وأبطلوا مفعول تلك الألغام، كما أن بعض الألغام لم يكن له التأثير المطلوب؛ نظرًا لأنها لمست الماء، ولكن انفجر واشتعل لهيب لغم واحد في اليوم التاسع عشر من الشهر المذكور، وأخذ عسكر الإسلام كالعادة بيارقهم وشرعوا في الهجوم حيث قاموا بمساع عظيمة واهتمام خارق للعادة، ولكن لم يُقدر فتح القلعة في هذا اليوم؛ بسبب سقوط مطر غزير حال دون تقدمهم، وفى اليوم الرابع والعشرين من الشهر المذكور اشتعل ثانية لهب لغمين في موضعين من السور، ومرة أخرى لم يتوان غزاة الإسلام دقيقة واحدة في السعي والإقدام بالهجوم، إلا أن الملاعين كانوا قد حفروا الخنادق العظيمة من الداخل، وبذلك حالوا دون دخول جند الإسلام إلى القلعة، ولم يتم فتح القلعة أيضًا في ذلك اليوم.

ولما أصبح ميئوس من الفتح بهذه الطريقة، رأى الباشا ذو الرأي السديد، أن يملأ الخنادق بالحطب ثم يهجم الجنود على هؤلاء بهذه الطريقة؛ فأمر أهل الإسلام أن يحضر كل واحد منهم حملًا من الحطب ويلقيه على حافة الخندق. وكان الحطب في أطراف

القلعة كثيرًا جدًا، وفى لحظة واحدة حوَّل السباهية والعسكر هذه الأطراف والنواحي إلى صحراء جرداء، وألقوا الأشجار المتراكمة المقطوعة إلى حافة الخندق، وبعد ذلك صدر الأمر إلى سباهية كل سنجق بأن يلقوا الحطب الذي جمع إلى الخندق مع إطلاق النفير، وبعد أن ملئوا هذا الخندق العميق من ثلاثة أماكن خلال يوم أو يومين، أقاموا عدة جبال من الحطب وصلت إلى ارتفاع أعلى من بروج القلعة.

ولما رأى الكفار هذا الوضع، لطخوا حزمًا من القمح والشعير بالكبريت والقطران وأشعلوا فيها النار، ثم أخذوا يقذفونها على الخشب، وهكذا قاموا بإحراق الخشب كله، واشتعل الخشب الكثير، وتأثر عسكر الإسلام كثيرًا من جراء هذه المقاومة، وبناءً على هذا اخترع بعض الشيوخ المسنين ذوي الخبرة ما يسمى بالمزراب، وجمعوا من يحترفون حرفة السقاء، ونجحوا في إطفائها، ولهذا لم تسفر تدابير الكفار عن أي نتيجة.

وهكذا كان الحطب والخشب المتجمع يشكل برجًا معقولًا، وبينما كان يفكر المسلحون في الصعود على هذه الأبراج حتى يطلقوا النار على الكفار؛ أقام الملاعين في الحال برجًا عشوائيًا من الداخل، ووضعوا جنودهم المسلحين عليه أيضًا؛ وأذاقوا شهد الشهادة إلى الكثير من غزاة الإسلام وبدأ عسكر الإسلام الهجوم ثانية مستخدمين السلالم.

ولما وعد حضرة الوزير الأعظم وقائد العسكر المفخم الغزاة الذين أبلوا بلاءً حسنًا في هذا المكان؛ بالعطايا الفائقة عن الحد، والترقيات وإقطاعات «زعامت» والتيمار، صار كل شخص يأخذ روحه إلى فمه مشمرًا عن ساعد الجد قائلًا : «إما أن آخذ رأسًا من الأعداء أو أعطى رأسي»، وحل الاضطراب العظيم والدهشة بالكفار، وفى النهاية وعندما لم يبق أدنى شك لدى الكفار أن القلعة ستؤخذ من أيديهم طوعًا أو كرهًا، طلب الكلب عديم العقل المعروف باسم «شقلوش» أمير القلعة الأمان، وخرج أيضًا من القلعة وسقط على أقدام الباشا صاحب الشفقة، ولما طلب الرحمة من تراب القبة العلية للسلطان حامي العالم، أحسن الأمان إلى أهالي القلعة امتثالًا لمضمون القول المأثور: العفو زكاة الظفر.

وكان قد تفضل السلطان صاحب السعادة وحامي العالم بالإقامة في مكان قريب من القلعة، وعندما أحاط حضرة الباشا جناب حامي العالم بنبأ الفتح المفرح، تفضل بالتوجه بالعزة للنزول على مقربة من القلعة، واستقبله أمراء الأمراء وكل العسكر المنصورة الذين كانوا مكلفين بمحاصرة القلعة، وبعد أن تفضل السلطان صاحب السعادة بالنزول إلى خيمته تحفه العزة والسعادة، شرف الجميع بشرف تقبيل عرش السلطان، وبعد ذلك أحسن على كل فرد بالخلع والترقيات والعطاءات الكثيرة، وبصفة خاصة فقد غرق السردار عظيم الشأن والوزير الأعظم الموفق في النعم السلطانية، وذلك بالإحسان عليه بالخلع دفعات دفعات وبطرة مزدانة بالجواهر وسيف مرصع والنقود أكياسًا أكياسًا لجنابه، وقد وقع فتح القلعة يوم ستة وعشرين من الشهر المذكور.

وبعد هذا القدر من المشقة والعناء، سُلمت القلعة المذكورة «أوسك» إلى الكلب الذي كان أميرها بشرط أن يطيع ملك «بودين»؛ وأُحسن عليه أيضًا بعلم؛ وأُبقي مكانه، وهذا العلم موجود ومحفوظ الآن في القلعة نفسها، حتى إنه كان قد وصل بعض الغزاة المتسمين بالنصر من عسكر الحدود في الحملة المعروفة باسم «نعمتى سفر» سنة ١٠١٢ (١)؛ لتقديم المدد لعسكر «بتلن غابور» الذي كان ملك «أردل» وإخضاع تلك الأطراف له، فشاهدوا ذلك العلم منصوبًا على برج القلعة كما هو، فافتخروا بهذا حتى إنهم كانوا يخرجون هذا العلم في بعض اجتماعاتهم وخلال أيام العيد، وكانوا يتبركون ويتيمنون به، وكان قد نصب المرحوم والمغفور له السلطان «سليمان خان غازي» العلم في القلعة المذكورة، وفي هذا الوقت ينبغي أن يعين حضرة السلطان حاكم الأقاليم السبعة ومانح التاج إلى «الخديوية» الذين كانوا في خدمة الخلافة.

نظم

روح العالم وباعث الأمن   ظل الله ومهدي آخر الزمان

---

(١) الموافق ١٦٠٣ ـ ١٦٠٤م.

أعني حضرة الغازي السلطان «مراد خان» خلد الله ملكه وسلطنته ينبغي أن يعين أمير سنجق مستقل على تلك القلعة؛ وينبغي أن يضم ويلحق القلعة المذكورة إلى الممالك الإسلامية، بحق الحق ونبيه المطلق.

ورحل السلطان صاحب السعادة مع جيشه من هذا المكان، وتفضل بالنزول في اليوم الثاني من صفر المظفر إلى المدينة المعروفة باسم «شوبرون» كثيرة السواد[1] والمحاطة بالأسوار العالية، ومن هذا المكان أيضًا نزل في اليوم التالي إلى القلعة الحصينة التي تسمى «ژلژنوار»، وبعد منزلين نزل إلى المدينة الكبيرة المعروفة باسم «بوفوندروق»، وقد طلب أهالي هذه الأماكن الأمان معلنين الطاعة والاستسلام، وفي هذا المكان كان بعض الرجال المشهورين من اتباع «مخال أوغلو محمد بك» يقومون بالهجوم على مدن الأعداء بشكل متتال، ويقومون بتخريبها، وكان البطل المعروف باسم «قاسم ويوده» الذي كان سردارًا للعسكر عمومًا وبصفة خاصة سردارًا لطائفة المهاجمين، يوجه مع خمسة آلاف رجل في إحدى الروايات، وفي رواية أخرى مع عشرين ألف رجل بعضهم من طائفة المهاجمين والبعض الآخر من الغزاة الأبطال الذين يبادرون إلى الحملات، للهجوم على الجانب الشرقي لجبل الألمان.

أما السلطان صاحب السعادة فقد اتجه مع عسكر الإسلام إلى الجانب الغربي حيث عبر جميع هذه الأراضي مع العسكر المنصورة، وكانوا يذهبون ليلًا بالمشاعل الموقدة، أما في النهار فيذهبون بدلالة الدخان الذي يصعد إلى السماء، وبعد أن عبر «قاسم ويوده» المذكور إلى ما وراء جبل الألمان من نقطة صعبة المرور، أغلق الكفار عليه الطريق بحيث لم يجدوا طريقًا للعبور أو المرور من أي مكان آخر قط، وبهذا لم يجد أكثر الغزاة طريق النجاة وشربوا شهد الشهادة وسلكوا طريق الجنة، وبعد أن أتى السلطان صاحب السعادة إلى المكان المعروف باسم «أوسك»، جاء بعض الرجال الذين نجوا، وقد سجل المؤرخون ما رواه هؤلاء الذين نجوا على هذا النحو [المشروح سابقًا].

---

(١) المقصود بكلمة «سوادة»: الأماكن التي ترى على هيئة قرى من كثرة الحدائق والبساتين والأشجار خارج المدينة.

ـ راجع قاموس شمس الدين سامي مادة «سواد».

وفي هذا المكان أيضًا وصل الخبر اليقين من الذين أُسروا، بأنه على إثر وقوع الخوف من سيف أهل الإسلام بقلب الملك الضال والمحتال الذي يسمى «جاسار»، فإنهم قاموا بتوزيع العسكر المتصفين بأفعال الشيطنة الذين جمعوهم، بحيث تحصنوا بالجبال، وأنه ليس هناك احتمال للمواجهة بعد ذلك، وشوهد جبل الألمان، حيث إنه لم يكن مناسبًا للتوجه إلى هذه الناحية، وسلك الجانب الغربي، وتم العبور من الممر الذي كان معروفًا باسم «لاينه برك» في ناحية جبل عظيم هناك حيث تم المرور إلى الداخل، وكانت قراها وبلادها وجميع أطرافها في حالة عمران بلا نظير، وكانت تحسد من حدائق إرم ذات العماد، بصحاريها وبساتينها وبحدائق ورودها.

وفى اليوم السابع من الشهر المذكور، تم النزول الهمايوني من ذلك المكان إلى قرب القلعة المعروفة باسم «كرح برك»؛ وبسبب تمرد الكفار الذي مأواهم النار الذين كانوا بداخلها وعدم إعلانهم الطاعة، أشعل بعض الأبطال النار في جميع جوانبها في زمن يسير وأحرقوها وخربوها، وفي اليوم التالي رحل حضرة السلطان من هذا المكان أيضًا ونزل بقرب قلعة تعرف باسم «راتناد»، ثم وصل إلى المدينة المعروفة باسم «قرد قونداز» إلا أن الكفار فيها أصروا على عنادهم؛ بسبب غرورهم بكثرتهم، فتحصنوا في كنائسها التي كانت محصنة بالأسوار والأبراج المتينة، وأطلقوا المدافع من نوع «ضربزن» و«شقالوس» على طليعة أهل الإسلام، وعزموا على الحرب والقتال، وفى الحال أشعل الغزاة النار في أبواب الكنيسة وأحرقوا كل أرباب الحقد الذين كانوا بداخلها مع أولادهم وعيالهم وقضوا عليهم.

وبعد ذلك، في الوقت الذي أصبح فيه المكان المعروف باسم «قلائيسى» مقامًا للسلطان، كان الأشخاص الكثيرون من رجال حضرة الباشا ذي الرأي الحسن قد اتجهوا إلى ناحية ما؛ ونزلوا هذه الليلة في صحراء قريبة إلى ذلك المكان، وأطعموا خيولهم هناك، وبعد ذلك، وبينما كانوا بصدد التحرك من هذا المكان، هجم عليهم في وقت الصباح الملعون المعروف باسم «أندوره» الذي كان أمير القلعة المعروفة باسم «بتوره»، وذلك بينما كانوا في غفلة من أمرهم؛ وقتل بعض الأشخاص، واغتنم خيولهم وحيواناتهم

وذهب بها؛ ومن ثم كلف الباشا صاحب التدبير عددًا كبيرًا من عسكر الإسلام بتعقب هؤلاء؛ وأرسلهم عليهم، فقام هؤلاء بتعقبهم في ذلك المكان، حيث قاموا بعظيم النزاع و الجدال والحرب والقتال مع هؤلاء الأعداء حتى وقت الضحى، فاستحقوا المدح والثناء، وبفضل الله تعالى انتصر أهل الإسلام وكسر وهزم الكفار اللئام، ولم يعط للكافر الذي كان يلقب بلقب «بان» الأمان وأسروه وربطوا يديه، وقيدوا أيضًا بعض الكفار بالسلاسل، وبينما كان حضرة الباشا المحاط بالسعادة والعظمة والإجلال يعبر من مكان الحدث شاهدهم، وجعل غزاة الإسلام يزينون بهم أسنة السهام والرماح.

وعندما تفضل حضرة سلطان الربع المسكون خلد الله ملكه إلى آخر القرون بالنزول إلى هذا المكان، وعرض عليه الوضع، أبلغ الغزاة مرادهم بالهدايا الغنية، وفي اليوم نفسه أضرمت النيران في المدينة المعروفة باسم «بشلوف»؛ حيث قتل معظم أهلها بسيوف الغزاة، وبعد ذلك أحرق في لحظة واحدة أرباب البغي والعناد الذين كانوا محصنين بكنائسها وأصبحوا كالرياح المنثورة.

وفي اليوم الحادي عشر من الشهر المذكور، تفضل حضرة السلطان بالنزول قرب المدينة التي ليس لها نظير المشهورة باسم «غرادجه»، وليس هناك الآن مدينة مثلها في ممالك الكفار إلا عاصمة الضال الذي كان ملكًا، ومن المؤكد أن والي هذا المكان إما أن يكون ابن الإمبراطور أو أخاه، وعندما يموت الملك والإمبراطور يصبح ملك «بچ» واليها، وهذه هي قوانينهم المتبعة بينهم منذ القدم.

وبعد ذلك نزل السلطان صاحب السعادة من المكان إلى صحراء قلعة «أشلومش»، وكانت بها كنيسة كبيرة ومتينة في حي كبير يسمى «لايتينجه»، وقد أُحرقت هذه مثل كل الكنائس، وأخذ الأسرى الكثيرين من الذين تحصنوا بداخلها؛ كما قتل أعيانها، وبعد ذلك نزل السلطان أمام القلعة التي تعرف باسم «ستهانى»؛ حيث خرج بعض الكفار الذين لا أصل لهم من الداخل، وقاموا بالحرب والقتال مع العسكر صائدي الأعداء، حيث أصبح معظمهم طعمًا للسيف الناصع، أما الذين نجوا ففروا ثانية إلى قلاعهم.

وفي اليوم السادس عشر من الشهر المذكور، بلغ حضرة السلطان وجيشه نهر «دراوه» الذي قد تم عبوره قبل ذلك قرب «أوسك»؛ وأقاموا في هذا المكان أربعة أيام، ثم أقيم في هذا الموضع جسر من أجل عسكر الإسلام، وقد كتب الكفار عن هذا الموضوع: أنه عندما تقرر أن يذهب السلطان صاحب السعادة إلى هذا الجانب قام الكفار بجمع السفن الكبيرة والصغيرة التي كانت في تلك السواحل وأحرقوها جميعًا، ولهذا السبب لم يجد عسكر الإسلام السفن، وبقوا عاجزين عن إعداد الجسر.

وفى النهاية قام غزاة الإسلام بتدبير على هذا النحو فعبر خمسة أو ستة آلاف جندي بالجمال والبغال وجنود السواري دفعة واحدة، وبينما كانوا يعبرون هكذا، قللوا اندفاع الماء قدرًا ما، فعبر السلطان صاحب السعادة مع الوزراء وخواص البلاط بسهولة؛ حيث وصلوا بعد ذلك إلى ولاية «أصلوين»، وأعلن الأمير المعروف باسم «رافيده» صاحب القلاع المعروفة باسم «طبوح» و«إسلانجه» و«رودوجك» الانصياع والطاعة لحضرة السلطان، وبعد ذلك ولما توجه السلطان وجيشه من هذه الأماكن إلى أطراف قلاع «بوغوفجه» و«زغرب»، جاء رجال «يانقي يانوش» الذي كان «بشبوق»؛ أي الأمير هذه القلعة وأعلنوا الانقياد والطاعة، ومن هذا المكان توجه حضرة السلطان ذي الجاه إلى ناحية قلعة «أوسك» بساحل نهر «دراوه» المذكور.

وكان قد أعلن الكفار الذين شعارهم الضلال في المنطقة المعروفة باسم مملكة «بوزغه» قرب الحدود الإسلامية من الجانب الأيمن أعلنوا العصيان، ولا جرم فقد عزم وتوجه حضرة الباشا فاتح الأقاليم بأبطال «الروم إيلي» مع الأسود الذين كانوا تحت إمرته من أجل فتح وإخضاع ذلك الجانب؛ حيث جاء أمام القلعة التي تعرف باسم «خربونيه»، وأجرى معركة عظيمة مع المشتركين الذين كانوا محاصرين هناك، وفى النهاية لم يعبئوا بمدافع الكفار ودخلوا القلعة من أبوابها، وكان قد استمر القتال والحرب حتى وقت الغروب، وفى النهاية، كانت تلك الليلة الظلماء ليلة غنائم حيث نقل إلى الجيش السلطاني حتى الصباح العذارى والغلمان ذوو الوجه القمري والغنائم الأخرى وأواني الفضة والذهب، فكانت هذه الأشياء بالقدر الذي لا يعد ولا يحصى.

وفى نهاية الشهر المذكور زحف حضرة السلطان من هذا المكان إلى قلعة «زاچنه»، واستسلم أهالي القلعة وعهد إليهم بالأمان؛ ثم تحرك السلطان من هذا المكان، وفي اليوم الذي نزل فيه إلى صحراء «بوژغه»؛ أي في اليوم الخامس من الشهر المذكور، اختبأ بعض الملاعين في مكمن بقرب القلعة المعروفة باسم «جزامور» التي كانت برج جبل «قاف»؛ وكانوا يترقبون عساكر المسلمين، وبينما كان جند الإسلام لا يعبئون بجبل أو حجر من كثرتهم؛ وبسبب أنهم كانوا يسيرون سادين ما أمامهم من طرق وصحارى كانوا لا يعرفون الطريق، وبينما كانوا يسيرون في الوادي الفسيح يصطدم بعض الغزاة بالبغاة الذين كانوا في الكمين، وأطلق الملاعين النار بالبنادق على هؤلاء الغزاة وألحقوا الضرر والخسارة ببعض الغافلين منهم، فهاجت في الحال هائجة العسكر الذين كانوا في الأطراف والجوانب مثل هياج البحر، حيث قتلوا قوم الكفار بالهجوم المضاد عليهم؛ حيث تعقبوا صفوف الجند التي تألف الهزيمة والتي نجت من السيوف، وذلك حتى باب القلعة وقتلوهم، وبعد ذلك تفضل حضرة السلطان وجيشه بالنزول قرب «بوژغه» عقب هذا الجهاد الذي حدث بتلك الصورة، وحضر أمير وسائر أعيان هذا المكان وأعلنوا الطاعة، وبعد ذلك أعلنت القلاع المعروفة باسم «بودغوراج» و«نمچة» الطاعة أيضًا، وتفضل حضرة السلطان حامي الخلافة بالإحسان على جناب قائد العسكر الأعظم وتمليكه هاتين القلعتين.

وفى اليوم الحادي عشر من ربيع الأول[1] وصل غزاة الإسلام تجاه «بلغراد» المحروسة، والتحقوا بالجيش المقرون بالظفر، وبعد أن عبروا إلى «بلغراد» المحمية والعامرة بالفتوح، أذن بالانصراف لكل من أمير أمراء الأناضول والأمراء التابعين له وأمراء الروم إيلي وذلك بإحسان الخلع الفاخرة إليهم.

وفى اليوم الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وتسعمائة هجرية[2]، وصل حضرة السلطان إلى «إستانبول» المحمية، وتشرف وسر العرش المقرون بالسرور

(١) الموافق ١١ من أكتوبر ١٥٣٢م.
(٢) الموافق ٢٢ من نوفمبر ١٥٣٢م.

بالسلطان جميل الخصال، وأحاطت البشرى والسرور «إستانبول» المحمية و«غلطه»[1] لمدة خمسة أيام وخمس ليالٍ حيث أُقيمت سائر أنواع الاحتفالات وكل ما يبعث على السرور.

وقد كتب الكفار في تواريخهم أن السلطان صاحب السعادة أعاد ثانية السفير الذي أرسله الإمبراطور من قبل، وذلك بعد فتح «أوسك»؛ وكتب أيضًا خطابًا بلغته[2] بما يلي: «إنك تدعي الشهامة منذ فترة، وتقول: إنني رجل الميدان، وقد سرت إليك حتى الآن عدة مرات، وأفعل ما أريد بملككم، ولا أجد أي ردة فعل منك ولا من أخيك، فإن ادعاء السلطنة والشهامة لكما لا يجوز، ألا تستحي من جندك أو من زوجتك؟ فلربما تكون هناك حمية عند المرأة ولكن لا توجد عندك تلك الحمية، فلو أنك رجل، عليك أن تأتي إلى الميدان، وليكن ما يريد الله أن يكون، فينبغي أن أتقاسم معك السلطنة في صحراء «بج»، وبهذا سوف يستريح أيضًا فقراء الرعايا وينبغي ألا تعتبر من الشهامة اقتناص الفرصة كالثعلب كلما وجد الميدان خاليًا من الأسد، فإن لم تأت هذه المرة إلى الميدان، عليك أن تمسك المغزل ودولاب المياه مثل النساء، ولا تضع تاج السلطنة على رأسك، وألا تذكر كلمة الشهامة على لسانك».

وما إن وصل السفير إلى الإمبراطور بهذا الخبر، وقرأ الإمبراطور الرسالة حتى شرع في الحال في جمع العسكر الذين أعدهم، وكانوا ثمانين ألفًا من المشاة وأربعين ألفًا من السواري، ولكن لم يتوجه إلى السلطان، بل ذهب إلى جانب آخر؛ نظرًا للقحط والمرض والضعف الذي أصاب جنده.

---

(١) تقع شمال إستانبول.
ـ قاموس الأعلام: ٥ / ٣٢٨٣.
(٢) أي بلغة الإمبراطور [جاسار].

تولية «صاحبگراى خان» ملكًا

في ١٠ من ربيع الآخر سنة ٩٣٩هجرية[١]، كان «سعاد تگراى خان» خان ولاية القرم لا يستطيع أن يندمج مع عساكر التتار الذين كانوا معروفين بالكر والفر الخفيف والسريع كريح الصبا، حيث قام أخوه «إسلام گراى» بإغواء معظم تتار «ميرزا»، وعندما سار على أخيه بجنده، وبينما كان أمير سنجق «كفه» يقوم بتقديم المدد إلى عسكر الخان سقط شهيدًا في هذه الحرب، وفى النهاية، عندما أحسن جناب السلطان بمقام الخان على «صاحبگراى خان» المشار إليه، حضر «سعادت گراى» المذكور إلى الآستانة مدار السعادة حيث قبل ذيل ثوب السلطان؛ وأحسن عليه وأُكرم بأكثر من منصب «الخان»؛ حيث وُجهت إليه مقاطعة «خاص» مقدارها خمسون ألف أقچة ويسليانة[٢] تقدر بثلاثمائة ألف أقچة.

موت والدة السلطان حامي العالم التي كانت امرأة عفيفة عملها عبادة وقولها صلاح وفاطمة الزمان وعائشة الدهر أعني بها والدة السلطان

في اليوم الرابع من شهر رمضان سنة ٩٤٠هجرية[٣]. إن جميع نفوس البشر مقبوضة في قبضة الأجل، فعندما يحين هذا الأجل لا يستطيع أي شخص أبدًا أن يجد الدواء لهذا الداء، فالسلطان والشحاذ متساويان في هذا الأمر، وسيمر الشاب والشيخ من هذا الجسر الجليل الشأن فالباقي الحقيقي هو الملك المستعان فقط.

---

(١) الموافق ١١ من أكتوبر سنة ١٥٣٢م.

(٢) والسليانة: هي المعاشات التي تعطى كراتب سنوي.

- Midhat Sert Oğlu: Adı geçen eser ، S. 301.

(٣) الموافق ١٩ من مارس ١٥٣٤م.

فتح قلعة «قرون» التي في ولاية الـ «موره» مرة أخرى

في ١٨ من رمضان المبارك سنة ٩٤٠هجرية[١]، كانت تلك القلعة المذكورة في عداد المالك المحروسة سابقًا منذ زمن المرحوم والمغفور له السلطان «بايزيد خان ولي» رحمة الله عليه، فإنه في أثناء ما كان السلطان صاحب السعادة ومدار العرش مشغولًا بفتح بعض قلاع الكفار في غزوة «پچ»، يأتي الملاعين أولًا إلى قلعة «متون» بنحو خمسين سفينة من نوع «قادرغه»، ويسعون لإخراج غزاة الإسلام الذين كانوا بداخل القلعة، وذلك بأنواع الحيل والإرهاب، ولكن قام غزاة «متون» بإطلاق المدافع والمدافع من نوع «ضربزن» من القلعة فأبعدوا سفنهم.

ولما يئس الكفار من تحقيق مقصدهم، اتجهوا من هذا المكان صوب «قرون»، وقاموا هنا أيضًا بمحاولات الهجوم التي قاموا بها في قلعة «متون» من قبل، ولما أكثروا من ضغطهم وهجماتهم، آثر حارس القلعة وواحد أو اثنان من القادة الجبناء ترك القلعة ورجحوا الفرار إلى مكان بعيد، وبهذا سقطت القلعة في أيدي الكفار.

وإنني هذا العبد الحقير كثير التقصير كنت قد ذهبت إلى القلاع المذكورة في عام ١٠٤٠هجرية[٢]، ورأيت أن غزاة «متون» لا يتوقفون عن طعن وتشنيع وتوبيخ تصرف أهالي «قرون» إلى الآن، وعلى الرغم من مضي قرن كامل على الاستيلاء عليها، فإنهم لم يكونوا قد تخلصوا من خزي تلك الأيام.

وبناء على هذا يقوم السلطان المغفور له في التاريخ المذكور بعزل «محمد بك بن يحيى باشا» من سنجق «سمندرة»؛ حيث يوجه إليه سنجق «المورة»، ويكلفه بفتح القلعة المذكورة، ولما وصل المشار إليه إلى مركز سنجقه، ينهى المسألة بتدبير حسن، كان على النحو التالي: كان هناك ثلاث طوائف من الكفار في القلعة، أحدهم «فرنك»، والقسم الثاني عصاة الروم في تلك الناحية، والقسم الثالث يمثله متمردي «أرنبود»[٣]، فأخذ أمير

---

(١) الموافق ٢ من أبريل ١٥٣٤م.

(٢) الموافق سنة ١٦٣٠ ـ ١٦٣١م.

(٣) أرنبود يعني بها المؤلف الأرناءوط.

السنجق يستميل كل قسم منهم على حدة، حيث أوقع الفرقة بينهم بحسن التصرف، وفرق أيضًا بين الكفار الذين كانوا يخرجون لخارج القلعة؛ لنهب القرى في النواحي، حيث أصبحوا في النهاية منقسمين لفرقتين، ولما كانت القلعة الخارجية في أيدي الروم والأرنبود فقد قاموا بتسليمها إلى الأمير المشار إليه؛ ومن ثم استسلم الـ «فرنك» الذين كانوا في القلعة الداخلية بلا قتال، بشرط إحسان الأمان عليهم، وهكذا حقق الأمير المشار إليه هذا النجاح الكبير، بحسن تدبيره ويكتسب عند السلطان صاحب العظمة مكانة مرموقة.

إجمالي حملة العراقين[1]

- العبور من ممر «قرمان» وفتح «بغداد» و«روان» وتخريب «همدان»:

لا ريب أن ذكر «بغداد» المعمورة بلقب حدائق إرم ذات العماد إنما هو لائق بها، فبعد أن انقضى حكم العباسيين راحت رءوس بعض السلاطين في سبيل الاستيلاء عليها؛ كما صار بعضهم الآخر صاحب تاج وعرش بوصولهم إليها، فقد قهر «تيمور» الجسور ملوك العالم ثم استولى على «بغداد»، وبينما كانت هذه المدينة تحت تصرف أولاده وأحفاده، انتزعها «قره يوسف» من حكام «قره قيونلو»[2] من أيديهم، ثم بعد ذلك دخلت تحت تصرف «أوزون حسن بك بايندرى» سلطان دولة «آق قيونلو» أو دولة الشاة البيضاء، وبعد ذلك أيضًا جاء الشاه إسماعيل صاحب الضلال وهجم على «علاء الدولة» الذي كان من أمراء «ذو القدرية» في ربيع الأول سنة ثلاثة عشر وتسعمائة هجرية[3]، ولما احتمى «علاء الدولة» بالجبال الوعرة هناك اكتفى الشاه بنهب بلاده فقط؛ ثم عاد أدراجه ثانية إلى جانب «أذربيجان».

---

(١) المقصود بالعراقين: عراق العرب وعراق العجم.

(٢) وهي دولة من دول التركمان التي ظهرت في زمن «تيمور لنك» ومؤسسها «قره يوسف تركمان» - قاموس الأعلام، ٥/ ٣٦٤٢.

(٣) الموافق ١٥٠٧م.

وقد أخضع «أمير بك» من «آق قيونلو» وكان واليًا على «ديار بكر» الموصل للشاه؛ كما سلمه أيضًا «ديار بكر»، وعهد أيضًا الشاه إسماعيل الضال بإيالة تلك المناطق إلى «محمد خان إستاجلو»، وقد اتجه الشاه الضال ثانية إلى ديار «عراق» العرب في سنة أربعة عشر وتسعمائة هجرية، ولما لم تكن لدى «بايندر باريك بك» والي هذه المناطق من قبل الأمير الكبير «أوزن حسن بك بايندر» القدرة على المقاومة، هرب إلى ديار الروم أي الأناضول والشام مع «سلطان مراد بن سلطان يعقوب»، وبهذا دخلت «بغداد وسائر بلاد «عراق» العرب تحت تصرف الشاه إسماعيل دون حرب وقتال؛ وعهد الشاه بحكم وإدارة تلك المنطقة إلى «خادم بك» أمير الديوان؛ وأمر بأن يلقب «خادم بك» بلقب خليفة الخلفاء، وبأن يذكر بهذا اللقب في مطالع الفرمانات والمحادثات، وعندما أسند حكم «بغداد» إلى «ذو الفقار خان» في عام تسعة وثلاثين وتسعمائة هجرية[1]، ارتد المذكور عن مذهب الشيعة، وأرسل مفتاح «بغداد» مع رجل من الثقات إلى العتبة العلية السلطانية؛ واستقدم العساكر المنصورة على عجل إلى «بغداد».

توجه قائد العسكر والوزير الأعظم «إبراهيم باشا»

في ٢ من ربيع الآخر سنة ٩٤٠ هجرية[2]، توجه حضرة المشار إليه صوب المرام مع الثلاثة آلاف جندي من جنود الإنكشارية الذين كانوا تحت أمرته وسائر خدم الباب، ولكن في هذه الأثناء عندما علم الشاه الضال بطاعة «ذو الفقار خان» لجناب السلطان، جرد عليه الجند، فقام «ذو الفقار» بالتحصن ببغداد، وبينما كان «ذو الفقار» يترقب ليل نهار منتظرًا وصول المدد من جانب السلطان، يقوم رجل أو رجلان بإراقة دم «ذو الفقار» على غرة بإغواء من الشاه، وهكذا، أصبح الشاه الضال مالك ملك «بغداد» والعراق مرة ثانية، وأما السردار عالي الوقار «إبراهيم باشا» فقد توجه صوب حلب الشهباء بالعسكر الكثيرة التي كانت تحت أمرته، حيث أمضى الشتاء هناك وفي هذه الأثناء قام بفتح بعض القلاع هناك بحسن تدبيره.

(١) الموافق سنة ١٥٣٢ ـ ١٥٣٣م.
(٢) الموافق ٢٢ من أكتوبر ١٥٣٣م.

طاعة «أولامه باشا» سلطان «أذربيجان» للسلطان

وكان ذلك في العام نفسه، كان «أولامه باشا» المذكور قد اتبع العاصي المعروف باسم «شيطان قولى»، الذي رفع راية العصيان قبل ذلك في عصر السلطان «بايزيد خان ولى» رحمة الله عليه بإغواء الشيطان، وترك مقاطعة «التيمار» التي أعطاها له السلطان في ولاية «تكه» وأصبح من القزلباش.

أما الآن فقد تخلى «أولامه باشا» عن هؤلاء، ولجأ إلى القبة السلطانية مرة أخرى، وفي هذه الأثناء، لما أضاع «شرف بك» حاكم «بتليس»[1] الذي كان من أمراء «كردستان»[2] أموال ديون أهالي «بتليس»، وارتدى تاج القزلباش وأتبعهم، وُجهت إيالة «بتليس» إلى «أولامه باشا» المشار إليه، وكان «أولامه باشا» قد أرسل أولًا على «شرف بك» قبل أن يذهب الوزير المكرم والمفخم الصدر الأعظم من الآستانة السعيدة؛ لدفع وإزالة عادية الأعداء، حيث قُطعت رأس «شرف بك» المذكور في المعركة التي نشبت بينه وبين «أولامه باشا» مع عسكر الحدود، وأرسل «أولامه باشا» المشار إليه الرأس الذليلة لمن انهزم جنده تمامًا إلى حضرة الوزير الأعظم والوكيل الأكرم، بينما كان في المكان المعروف باسم «جبارلو»[3]، وتاب وأناب الأكراد عدماء الإدراك، وعزموا على أنهم لن ينهمكوا بعد اليوم في الفساد على هذا النحو، وعلى هذا أحسن بإيالة «بتليس» ثانية إلى «شمس الدين بن شرف بك» الذي سعد بالمنشور باعث الحبور القاضي بهذا؛ كما أسعد خاطر «أولامه باشا» بصدور الوعود الكريمة بأنه سيوجه إليه منصب ذو قيمة عالية.

---

(١) تقع في القسم الشمالي من «كردستان» ويحدها من الشمال «أرضروم» وجنوبًا «ديار بكر».
ـ قاموس الأعلام: ٢/ ١٢٤٠.

(٢) يقع القسم الأعظم منها في غرب آسيا في الممالك العثمانية، وقسما منها أيضًا تابعًا لإيران. وسميت باسم الأقوام الذين سكنوا في أراضيهم المعروفين باسم «كرد».
ـ قاموس الأعلام: ٥/ ٣٨٤٠.

(٣) وهي قصبة صغيرة تقع بين «الموصل» و«شهرزور».
ـ قاموس الأعلام: ٣/ ١٧٦٥.

طاعة «خير الدين باشا» للسلطان وإهداء ولاية الجزائر والأراضي المتعلقة بها إليه

وكان ذلك أيضًا في العام نفسه، كنت قد ذكرت إجمالي أحوال الغازي «خير الدين باشا» في القسم المتعلق بالأمراء، لما حضر المشار إليه إلى الركاب الهمايوني بأسطوله، وقبل ذيل ثوب السلطان، وعلى إثر صدور فرمان بأن تعرض جملة أحوال الممالك والعباد على قائد عسكر الإسلام المعتاد المكارم وصاحب الآراء الصائبة، جاء المشار إليه «خير الدين باشا» أيضًا إلى «حلب»، فالتقى بالباشا قائد العسكر.

ولما رأى «إبراهيم باشا»، قائد العسكر، «خير الدين باشا» رجلًا قويًا وصادقًا وجديرًا بأنواع الإحسان، أنعم عليه بالضيافة والكرم على دفعات وألبسه الخلع الشاهانية الفاخرة، وأحسن إليه أيضًا بمملكة الجزائر بلقب أمير أمراء، وبينما كان لقبه حتى ذلك الوقت رئيسًا، أصبح لقبه منذ الآن أمير أمراء، وعلا قدره إلى عنان السماء.

استيلاء الوزير الأعظم والقائد الأكرم على بعض القلاع بحسن الاستمالة

كان ذلك أيضًا في السنة نفسها، لما بحث «إبراهيم باشا» فاتح الأقاليم في مشتى «حلب»، طرق فتح وتسخير قلاع القزلباش التي كانت قريبة للحدود الإسلامية بحسن تدبير، كان قد أعد رجلًا أو رجلين من الذين يعتمد عليهم، وممن لديهم خبرة، ويمتلكون القدرة على استمالة القلوب؛ وأرسلهم إلى حكام القزلباش الذين كانوا في قلاع «عاد لجواز»[1]، و«أرجيش»[2]، و«أخلاط»[3]، و«وان»[4]، وعمل كل واحد

---

(١) تقع شمال غرب ولاية «وان» ويحدها شمالًا «أرضروم»، وغربًا ولاية «بتليس».
قاموس الأعلام: ٤/ ٣٠٣٨.

(٢) تقع في ولاية «وان» وبالتحديد في الساحل الشمالي من «وان».
ـ قاموس الأعلام: ١/ ٩٨.

(٣) تقع في ولاية «بتليس» وفي الساحل الشمالي الغربي من بحيرة «وان».
ـ قاموس الأعلام: ١/ ٤٦.

(٤) وهي الولايات العثمانية على الجانب، ويحدها شمالًا «أرضروم» وغربًا «بتليس» وشرقًا الحدود الإيرانية.
ـ قاموس الأعلام: ٦/ ٤٦٧٣.

من الذين أرسلوا على جذب واستمالة قلوب الأمراء المذكورين إلى جانب السلطان بأنواع الاستمالة والتدبير الحسن، وعادوا إلى «إبراهيم باشا» بوعد أنه سيرسل الأمراء المذكورين مفاتيح القلاع ويسلمونها فور وصول قائد العسكر «إبراهيم باشا» إلى هذا الجانب بعسكر الإسلام الذين غايتهم النصر.

فتح قلعة «عاد لجواز» في سنة ٩٤٠ هجرية[١]
وفتح قلعة «أرجيش» وفتح «أخلاط» في السنة نفسها

ما إن هلَّ ربيع الأول وتحولت البراري إلى حدائق من الورد حتى وجه «إبراهيم باشا» عنان جواده السريع إلى جانب هذه الديار بعسكره الجرارة كالنمل، وبفضل الله تعالى، بمجرد أن وصل «إبراهيم باشا» قام كل واحد من المذكورين بتسليم قلعته إلى السلطان بناءً على تعهداتهم السابقة.

ولما سمع إبراهيم باشا أن الشاه الضال توجه من «تبريز» إلى «خراسان»[٢] بحجة الصيد في تلك الأثناء، قرر «إبراهيم باشا» التحرك من تلك الأماكن إلى «ديار بكر والموصل»؛ وبعد ذلك إلى بغداد ولكن رجح الدفتردار «إسكندر چلبي» صاحب الشرف والرفعة والملقب بلقب «كتخدا العسكر» الزحف على نواحي «تبريز»، ولم يستطع قائد العسكر مخالفته في هذا؛ حيث قرر أن يعمل برأي الدفتردار.

وقد ذكر «جلال زاده نشانجي» والمرحوم «عالي أفندي» في هذا الموضوع أنه: «كان يطلق على دفتردارية «حلب» في ذلك الوقت «دفتردارية العرب والعجم»، ولم تكن قد انفصلت بعد «دفتردارية الشام» و«ديار بكر» عن بعضهما البعض، وكان «نقاش على بك» الذي كان دفتردار حلب في ذلك الوقت رجلًا ماكرًا ومخادعًا ومنافقًا؛ ولما كان

(١) الموافق سنة ١٥٣٣ ـ ١٥٣٤م.
(٢) وهي من أكبر ولايات إيران، تقع شمال شرق «إيران» ويحدها شرقًا «أفغانستان». ـ قاموس الأعلام، ٣/ ٢٠٣٠.

على خلاف مع الدفتردار المشار إليه «إسكندر چلبي»؛ وشى به إلى الوزير عالي القدر أي الصدر الأعظم حيث نقل إليه بعض الأمور التي حدثت والتي لم تحدث، حتى جعل الوزير الأعظم «إبراهيم باشا» ينفر منه تمامًا، وكان قد ألقى «علي بك» الذي لم تكن هناك أي محبة بينه وبين الدفتردار ببعض هذه الأفكار السيئة في صورة أنه كلام صدق على نحو ما كان يفعل «أولامه باشا»، وكان مقصده أن يذهب سعي وجدُّ «إسكندر چلبي» هباء أو أن يوبخ من جناب السلطان، والعهدة على الراوي.

فتح قلعة «وان» جليلة الشأن

تم ذلك في ١١ من ذي الحجة سنة ٩٤٠ هجرية[1]، ما كاد الباشا أي الوزير الأعظم إبراهيم باشا فاتح القلاع يصل في اليوم المذكور إلى المكان المعروف باسم «خان سوار بك»، مع الأبطال الذين يتشكلون من جميع عسكر خدم الباب «وجند الأناضول» و«قرمان» و«ذو القدريه» و«روم» و«ديار بكر» و«حلب» و«الشام» وكافة «جند كردستان»، حتى جاء مبشرو الفتوحات التي عاقبتها المسرة بمفاتيح القلعة إلى الجيش الهمايوني بسرعة بالغة، وبلا توقف أو إهمال تم تعيين «خسرو باشا» أمير أمراء الشام الذي كان خبير حرب كمحافظ على القلعة حيث أُرسل إليها بسرعة عاجلة.

فتح قلعة «سياوان» في السنة نفسها

أحضر حاكم القلعة المذكورة «محمود أمين بك» الذي كان رجل حرب من الأمراء الأكراد مفاتيح القلعة المذكورة وضمها إلى سائر الهدايا، وسلمها إلى الوزير الشجاع الصدر الأعظم إبراهيم باشا، وأعلن الطاعة والانقياد، وتميز حكام قلاع «جرم» و«بيدكار» و«دوسي» و«حل» و«تنور» على سائر الأمراء في هذه المناطق بإعلانهم الطاعة.

---

(١) الموافق ٢٣ من يونيه ١٥٣٤م.

ولكن بينما كان عسكر الإسلام يعتادون على الخروج للحملات في كل وقت مع السلطان صاحب السعادة نفسه، فقد تضايقوا للاكتفاء بقائد العسكر فقط في تلك الحملة، فلما علم الوزير الأعظم بهذا الوضع، عرض الأمر على الركاب الهمايوني، وكان من المقرر أن يلحق المرحوم السلطان صاحب السعادة والغازي الغيور بتلك الحملة، إلا أن هذا القرار لم يكن قد وصل حتى ذلك الوقت إلى مسامع العسكر؛ وبسبب هذا، بدأت في اليوم الذي نزلوا فيه إلى أراضي الأعداء تنتشر الإشاعات المختلفة بين العسكر، حيث تملك الخوف من قلوبهم قائلين: «قد كان ينبغي أن يلتقي، الملك بالملك، وكان يلزم أن يكون هناك من يعتمد عليه العسكر في وقت اللزوم فإذا جاء الشاه فمن يخرج لمقابلته؟ وماذا سيكون وضع عسكر الإسلام عندئذ؟». ولما علم الوزير صاحب التدبير هذا الوضع، شرح الوضع بالكامل وأرسله ثانية إلى جناب السلطان بواسطة السعاة، وقد ندم هو أيضًا على ذهابه إلى هذا الجانب، ودون تأخير رفع التماسًا ورجاء بأنه ينبغي أن يتشرف عسكر الإسلام بحضور جناب السلطان.

توجه السلطان المعتاد الظفر إلى جانب «تبريز» وبغداد العامرة بالجنان

في ٢٨ من ذي القعدة الشريفة سنة ٩٤٠ هجرية[1]، لما علم السلطان ما دار بين جند الإسلام من وسوسة وشك، لم ينتظر قط، وأسرع للحاق بجانب العسكر المنصورة واضعًا نصب عينيه العديد من الاحتمالات، وفي هذه الأثناء، وردت الأخبار المتتابعة بأن الشاه الضال قد عزم على الهجوم فجأة على «تبريز» من «خراسان»، وعلاوة على أن هذا الخبر قد أوقع اضطرابًا كاملًا بالعسكر، قام من ناحية أخرى أصحاب البغي والعناد الذين كانوا أهل فسق وفساد، بإضرام نار الحماس في الباشا بالكلمات التي تبعث على الغيرة والحمية، وكان مقصدهم أن يدفعوا الباشا، ويجعلوه يتقدم عدة منازل

(١) الموافق ١٠ من يونيه سنة ١٥٣٤م.

تجاه الشاه قائلين في أنفسهم: «على أي حال، ينبغي أن نتسبب في زيادة الاضطراب والخوف الكامل بين الجند بتلك الدرجة»، وكانوا يقولون: «ما زالت رهبة حرب صحراء «چالدران»[1] عالقة بذهن الشاه، فلماذا نتوقع أن الشاه يمكنه أن يهجم علينا وأن يهزم عسكرنا وهو على هذا الخوف؟!».

وعلى هذا اشتعلت نار الحمية لدى الباشا بالاستماع إلى هذه الأساطير والخرافات، وتحرك من ذلك المنزل، ونزل إلى الصحراء المعروفة باسم «سعد آباد» قرب «تبريز»، وأشاع في الأطراف أنه سيهجم على الشاه، وفي ذلك اليوم استقبله سادات وعلماء وصلحاء «تبريز» بالعزة والإجلال، وسعدوا بمقدمه الشريف.

انهزام بعض العسكر في «قزلجه طاغ»[2]

وفي هذه الأثناء قام «أولامه بك» بإرسال الدفتردار «إسكندر چلبي» إلى الباشا، ولما اقتنع الباشا بكلامه الذي فحواه: «إن الفرقة الأساسية لجند القزلباش في هذه الديار موجودة في مصيف «قزلجه طاغ»، وأن الهجوم بقدر من العسكر، ومحو «قزلجه طاغ» والمعسكر أمر سهل»، تم إمداد «أولامه» بحوالي عشرة آلاف جندي مدرب حيث أرسل إلى ناحية «قزلجه طاغ»، وحمل ذلك المفسد الكبير هؤلاء الأبطال إلى أطراف هذا المصيف، وألقى بهم في الوديان والممرات الضيقة والمحكمة والتي كانت كقعر جهنم قائلًا: «إن الممالك المعمورة تأتي بعد هذا المكان، فادخلوا لتنهبوها، وأنا أقوم بحراستكم من الخارج»، وهكذا ضاع معظم العسكر وهلكوا، وأصبحت خيولهم وحيواناتهم التي كانت بلا مرعى أو علف هدفًا لسهام الأعداء.

(١) تقع «چالدران» شرق «قارص»، ويحدها جنوبًا «أرض روم» شمالًا الحدود الروسية.
ـ قاموس الأعلام: ٣/ ١٨٧٨.
(٢) تقع شمال «قارص» الواقعة في روسيا.
ـ قاموس الأعلام: ٥/ ٣٦٦٠.

قدوم شاه كيلاني أعني به
«مظفر خان» في السنة نفسها

وفي ذلك الأسبوع، أتى «مظفر خان» المشار إليه مع أكثر من عشرة آلاف جندي من رماة السهام الذين يجعلون النصر هدفًا لهم، والتحق بالجيش الهمايوني، وأقيمت الخيام الشاهانية والسرادقات العظيمة والمظلات على نحو يليق بشرف السلطنة؛ وأكرم بالضيافة الرفيعة الشأن وبأنواع الإحسانات والرعاية.

تعمير قلعة «شنب غازان»[1] وإصلاحها

سعى أرباب السوء الذين كانت قلوبهم المنكسرة مملوءة بأغراض الفساد إلى تشييد قلعة متينة في «تبريز»، ولما عرضوا هذا الاقتراح على حضرة الوزير صاحب الضمير الصدر الأعظم، لم يوافقهم قائلا: «إن هذا الأمر شيء من تصورات فاسدة، وأن هذا الأمر لا يتمخض عنه أي نتيجة»، وفي النهاية دعا الوزير الأعظم إلى جواره جمهورًا كثيرًا من أعيان وأهالي «تبريز»، وأصبحت هذه الديار الجميلة دار إسلام بالمساعي الجليلة، ولما كرروا ثانية وجهة نظرهم وسعوا في تنفيذها قائلين: «من المؤكد أن بناء مذهب السنة والجماعة مستقر في تلك النواحي ببناء قلعة محكمة»، ومن ثم قاموا بترميم التربة الشريفة ـ المشهورة الآن باسم «شنب غازان» ـ التي كانت قد بنيت من أجل «غازان خان»، الذي كان أول من شرف بشرف الإسلام وكان من نسل «جنكيز» عديم التمييز، وذلك بإنفاق الأموال الكثيرة عليها حيث جعلوا منها قلعة محكمة، وعهد بها إلى «ميرزا محمد» من نسل «توران شاه» مع بعض الأمراء وعدد من السباهية.

بعض مساوئ تدابير «دفتردار إسكندر چلبي»
و«أولامه باشا»

لما علم الشاه الضال بالوضع في هذا الجانب أي في «تبريز»، جرد العسكر حماة

---

(١) تقع جنوب «تبريز».

- Danişmend: Adı geçen eser‹ S.615.

السوء بسرعة إلى تلك النواحي، وما إن علم «أولامه بك» من أصدقائه الذين كانوا في ديار «صولاق بولاق» أن عسكر الشاه قد وصلوا إلى الولاية المعروفة باسم «صولاق بولاق»، حتى بادر إلى اتخاذ التدابير مرة أخرى مع الدفتردار «إسكندر چلبي»؛ وجاء ثانية إلى الباشا الوزير الأعظم وقالا له: «ليس هناك ضرورة للانزواء من وحدات الشاه، ينبغي أن تعين بسرعة قدرًا من العسكر ثم تحمل على «أردبيل»[1] وننهب الكثير والقليل من قلاع ومنازل الشاه في تلك النواحي»، وعناية الباري تعالى هي دائما المعين والمساعد لأهل الإسلام أصحاب العقيدة القوية.

وكان قد عين «مراد بك» من أبناء أمراء «آق قيونلي» ـ الذي كان معاونًا ومساعدًا للمسلمين، على أمل أن يُعهد إليه بإدارة إحدى الممالك إذا ما وفقت الفتوحات في هذه الديار، وكان شديد العداء للقزلباش- عين في وظيفة «قراول» [يعنى حارس] على طرق «خراسان»، وبعون حضرة الحق تعالى، قام «مراد بك» بالقبض على شخص ماكر كان يعمل حارسا وأرسله للإدلاء ببعض المعلومات عن العدو، وقد عُلم مما أدلى به هذا الحارس أن الشاه سيشن هجومًا مفاجئًا، وعلى هذا، صرف النظر عن إرسال العسكر إلى «أردبيل».

ولكن لما وصل الشاه إلى مكان قريب، من الجيش الهمايوني وضع الجيش في موضع حرج حيث وقعت بأفراد الجيش الفرقة، وعلى الرغم من وصول خبر من السلطان صاحب السعادة وعالي الهمم إلى جانب الباشا المحترم بأن السلطان على وشك الوصول، فإنه لم تعد الثقة إلى العسكر مرة أخرى، وفي ذلك الوقت، وبينما كان الباشا أيضًا في حالة حزن وحيرة شديدة قائلًا في قرارة نفسه: «يا ترى هل سوف يتيسر وصول السلطان صاحب السعادة والتحاقه بعسكر الإسلام قبل هجوم الشاه علينا؟»، كان يوجد بجواره آنئذ بالصدفة ديوان «خواجه حافظ» ـ رحمة الله عليه ـ فيستطلع الفأل في هذا الأمر. فيطالعه الشعر الذي يبدأ بالبيت:

---

(١) تقع في «إيران» وبالتحديد «تبريز».
ـ قاموس الأعلام: ١/ ١٠٤.

وصل البشير من جانب «آصف» وأتت إشارة الفرح من حضرة سليمان[1]

فيفرح الباشا فرحًا شديدًا ويشكر الله كثيرًا ويوزع الصدقات الكثيرة.

وبعد ذلك رحل من هذا المنزل وتفضل بالنزول إلى المكان المعروف باسم «أوجان يايلاغى»، ثم إن أتباع الشاه أيقنوا أن السلطان صاحب السعادة على وشك الوصول، وبعد ثلاثة أيام، شرف السلطان عالي الوقار مع جنده صائدي الأعداء «تبريز» في يوم ١٩ من ربيع الأول إحدى وأربعين وتسعمائة هجرية[2]، وشرع أهالي «تبريز» في بسط أنواع الأقمشة اللائقة تحت أقدام جواده الجاذب للأبصار، واستقبلوه، وفي اليوم التالي، نزل حضرة السلطان إلى صحراء «أوجان» التي يوجد بها عسكر الإسلام وذلك في صمت يشبه دخول النفس إلى البدن، واختلط جند الإسلام مع بعضهم البعض وصارت هذه الصحراء، كما لو كانت حدائق مكسوة بزهور «اللالا» وذلك بالخيام المتعددة الأنواع.

وفي اليوم التالي، عقدوا الديوان؛ وقبل قائد العسكر وأمراء الأمراء الذين كانوا جنودًا يؤثرون الظفر والأمراء الكرام وسائر أرباب الاحتشام، قبلوا يد السلطان حيث أحسن عليهم وأكرموا بالخلع الفاخرة، وفي اليوم التالي، عقد الديوان ثانية، وتشرف «مظفر خان» سلطان «كيلان»[3] والأعيان التابعون له و«مراد بك» سابق الذكر من أبناء سلاطين «آق قيونلو» وبعض أبناء الملوك من نسل «تيمور» ـ الذين تكبدوا المشقة والعناء في هذه الحرب على أمل تحقيق الفتوحات المناسبة لهم ـ تشرفوا جميعًا بتقبيل قدم عرش السلطان، وأكرموا إكرامًا كبيرًا، ونعود إلى موضوعنا، بينما كان الجنود كالجسد بلا روح، فإنهم في هذا اليوم بوصول السلطان استعادوا الحياة من جديد والسرور الذي ليس له حدود.

---

(١) دوش آز جناب آصف بيك بشارت آمد ∴ وآز حضرت سليمان عشرت اشارت آمد.

(٢) ٢٩ من سبتمبر سنة ١٥٣٤م.

(٣) تقع في شمال «إيران» وتمتد على طول الساحل الشمالي الغربي لبحر «قزم» ويحدها من الشمال الحدود الروسية.

ـ قاموس الأعلام، ٥/ ٣٩٤٣.

وكان قد عُلم اقتراب الشاه الضال إلى هذه النواحي، فإنه لن يستطيع الحضور لملاقاة عسكر الإسلام، وبهذا السبب تحرك عسكر الإسلام من هذا المنزل في اليوم السادس والعشرين من الشهر المذكور قائلين: «ينبغي التوجه إلى الشاه أينما كان وليكن ما يقدر به الله»، ونزلوا إلى الموضع المعروف باسم «بسرجم خاني»، وفي هذه الأثناء التقى بعض الأبطال من رجال قائد العسكر مع بعض القزلباش، وبعد قتال وجدال عنيف، هب نسيم الظفر على عسكر الإسلام، وزينوا أسنة الرماح والسهام بتعليق بعض رءوس الأعداء عليها، وأحضروا أيضًا بعض القزلباش من أجل الإدلاء ببعض المعلومات عن العدو.

وبعد ذلك، نزل عسكر الإسلام من هذا المكان إلى المدينة التي تعرف باسم «سلطانيه»[1]، وبينما كان يترقب «شاه رخ بك أوغلو محمد بك» من «ذو القدر» - الذي كان قد لجأ إلى شاه العجم من قبل ببعض الأسباب، وكان قد أصبح خان «طارم خلخال»[2] - الفرصة حتى هذا اليوم، فقد حضر إلى هذا المكان [سلطانيه] والتحق بعسكر الإسلام، حيث أُكرم بأصناف الرعاية. وبعد ذلك عُهد إليه بإمارة أمراء «أرضروم» وسنجق «نيكبولي».

وحينما كان عسكر الإسلام في هذا المنزل تبدل الطقس، وحلت البرودة الشديدة بالمنطقة حتى كان المطر ينزل من السماء في صورة ثلج دون توقف؛ وأصبح لا يوجد مكان للاستقرار والراحة فيه ولا طريق واضح ولا مرشد ولا طريق ولا علف أو عشب، ولم يكن هناك شيء سوى الثلج المؤلم للروح الذي أحاط الجبال والبوادي التي كانت تُرى للعيان.

---

(١) تقع جنوب شرق «أذربيجان».
- قاموس الأعلام: ٤/ ٢٦٠١.
(٢) يقعان في «إيران».
- قاموس الأعلام: ٤/ ٢٩٨٤.

وفي النهاية، وصل عسكر الإسلام إلى ممر «قره باغ»[١] بكثير من المحن والبلاء، وعبروا هذا الممر متكبدين الكثير من المشقة والعناء، وبعد ذلك استراحوا في «دركزينه» عند حدود «أصفهان»، ثم توقفوا أيضًا تجاه «همدان»، وبصفة عامة، فقد استراحوا في «قره باغ» وسائر الأماكن التابعة لها، وبعد عدة مواضع، أتوا إلى «قصر شيرين»[٢]، ثم وصلوا بعد ذلك إلى النهر العظيم الذي يعرف باسم «طقوز أولم»، ولما فاض هذا النهر وزاد، هجم على الجمال والبغال بأحمالهم وخيامهم حتى صاروا مثل التبن العائم في الماء، وهلكوا جميعًا، وصفوة القول: إن الذين كانوا يشتكون من أحمالهم الثقيلة شكروا الله؛ لنجاة أرواحهم من الغرق في النهر وكان الذين غرقوا في الماء أيضًا أكثر من أن يحصوا.

فتح بغداد العامرة كالجنة

في ٢٤ من جمادى الأولى سنة ٩٤١ هجرية[٣]، كان صاحب التدبير العقيم المعروف باسم «تكه لو محمد خان» حاكم ووالي بغداد من قبل الشاه الضال قد طلب الأمان من جناب السلطان، حيث جاء أحد رجاله قبل عدة أيام من الوصول إلى المدينة بمكتوب، ولكن بسبب أنه غلب عليه خوفه هرب إلى أطراف «فارس» بأهله وعياله وأحماله وأثقاله قبل هجوم عسكر الإسلام.

ولما عبر غزاة الإسلام من النهر المذكور أي «طقوز أولم»، تقدم الباشا لموضع أو موضعين كطليعة للعسكر كالمعتاد، وعلى هذا كان أول من دخل بغداد، وتم تزيين بروج وجدران قلعتها بأعلام المسلمين الذين غايتهم النصر، حيث استحوذ أنواع السرور على قلوب المؤمنين، وفي اليوم نفسه أرسلوا مفاتيح المدينة واستقبلوا السلطان صاحب

(١) تقع في منطقة «قفقاسيه» بين نهري «تور» و«آراى».
ـ قاموس الأعلام: ٥/ ٣٦٢١.
(٢) هضبة تقع في «إيالة» «أردلان» في «إيران».
ـ قاموس الأعلام: ٥/ ٣٦٧٠.
(٣) الموافق الأول من ديسمبر ١٥٣٥م.

السعادة، وبعد يومين يعني في يوم ٢٤ من الشهر المذكور، حضر حضرة السلطان منبع السعادة إلى صحراء «بغداد»، وقبل النزول إلى الخيمة السلطانية، تفضل بشرف النزول مع جميع الجند الذين غايتهم الظفر محفوفين بالسعادة والإقبال إلى القبر المأثور بالرحمة للإمام الأعظم رحمة الله عليه، وتفضل بزيارة قبره المشع نورًا، وكان مقصده من هذا أن يتشرف بالزيارة الشريفة لحضرة الإمام وأن يطهر هذه الأطراف من تلوث القزلباش، وبحمد الله تعالى والمنة بلغ حضرة السلطان عالي الشأن مراده، وبعد ذلك تشرف السلطان بزيارة القبر المأثور بالرحمة لحضرة الإمام «موسى كاظم» رضي الله تعالى عنه، ووزع الصدقات الكثيرة على الفقراء.

وبعد ذلك دخل السلطان صاحب السعادة في اليوم السابع والعشرين من الشهر المذكور إلى القصر عالي البهجة الذي كان داخل سور بغداد، والذي كان مأوى ومنزل الخلفاء السابقين، واستراح فيه وزار جميع مقابر الأولياء الكرام الذين كانوا مدفونين في بغداد، وأصدر الأوامر العالية بتعمير المقابر التي هدمت وترميمها؛ كما صدر الأمر بتأسيس تربة عالية وعمارات عامرة على المزار الشريف لحضرة الشيخ «عبد القادر كيلاني» رحمة الله عليه. وقد أنجز هذا الأمر في فترة وجيزة. وبعد ذلك تفضل حضرة السلطان بالتوجه لزيارة حضرة علي المرتضى وملك شهداء «كربلاء» رضي الله عنهما، وبلغ مراده أيضًا بالعزة والشرف، وبحمد الله تعالى والمنة، عندما أصبحت مدينة بغداد - بالوجود الشريف لحضرة السلطان ومعتاد الظفر - في حالة تحسدها عليها حدائق إرم ذات العماد، غدت هذه النواحي والبلاد من أولها إلى آخرها تحت تصرف نواب خسرو[1] فائق الأقران، وأعطى الإذن بالانصراف إلى جميع عسكر «كردستان» وإلى العسكر الذين جمعوا من أماكن قريبة، وبصفة عامة فقد أخذت التدابير بأن يمضي جند «خدم الباب»، وعسكر «الروم إيلي» الشتاء في بغداد ونواحيها.

(١) المقصود هنا بنواب خسرو: هم رجال السلطان صاحب السعادة هنا شبه الكاتب السلطان صاحب السعادة بخسرو.

اكتشاف القبر الشريف لحضرة الإمام الأعظم الكوفي رحمة الله عليه السراج الوهاج للأمة الإسلامية

كتب «جلال زاده» صاحب كتاب «طبقات الممالك» والمرحوم «عالي أفندي» أيضًا في تواريخهم: إنه قبل أن يدخل السلطان صاحب السعادة إلى حدود «همدان»، أخبر أحد الصالحين، أحد الجاوشية من أهل التصوف أنه لم يكن معلومًا حتى الآن المزار الشريف لحضرة الإمام الأعظم، وكان قد قص عليه ما يلي: عندما اتجه القزلباش الأوباش إلى بغداد، كان هناك حارس سني على تربة الإمام الأعظم؛ حيث كان حضرة الإمام يأتي إليه في منامه ويقول له: «انعقدت عزيمة الشاه الضال وجنده حماة الضلال الذين كانوا أتباعه على المجيء إلى هذا الجانب والإطاحة بأهل السنة، وهم مشتاقون لإحراق عظامي بالنار، فالآن ارفع الصندوق الموضوع فوقي، وضعه في مكان فلان بجواري، وهناك مدفون كافر ينبغي إحراقه؛ لأنني في ضيق من ظلمة ظلمه»، وبعد ذلك يلبي حارس التربة ما أراده حضرة الإمام امتثالًا لكلامه الذي يشبه الجواهر في قيمته.

ولما يتفضل الجاويش الصوفي بإبلاغ هذا الكلام في ذلك الوقت، لقائد العسكر جليل الشأن، يتفضل «إبراهيم باشا» قائد العسكر بالتنبيه عليه قائلًا: «لو وفقنا لفتح بغداد إن شاء الله تعالى، فلتذكرني بهذا الأمر»، وما إن دخل إبراهيم باشا إلى فضاء بغداد حتى يسعى قائلًا: «ينبغي البحث عن القبر المملوء نورًا للإمام، وينبغي أن تظهر آثار البناء التي شيدها سلاطين الإسلام الأوائل»، وبناءً على هذا يطلب فنان يعرف باسم «طاشقون خليفة» من المدرسين الخاصين به؛ أي بحضرة إبراهيم باشا أن يُكلف بهذه الخدمة ليتميز بها عن سائر المدرسين، وفي الواقع لبى قائد الجند ما رجاه هذا الشخص، وذهب المدرس المذكور وبعض الموظفين بسرعة واستعجال إلى مكان العمل.

وبعد فترة وجيزة، حضر المدرس سالف الذكر إلى جانب قائد الجند وهو في حالة منهكة حيث أخبر قائلًا: «بينما كان أحد الموظفين ينقب بقطعة من الحديد، بدت آثار بناء، فسعينا قائلين: «هذا هو البناء الذي يُبحث عنه»، وعندما انتزع حجرًا من هذا

البناء، هبت في الحال رائحة طيبة من الداخل وعطرت عقولنا بشكل بالغ، حتى أُغمي على عبدكم، أما الذي قام بحفر البناء فقد سلم روحه إلى بارئها»، فاتجه إبراهيم باشا إلى هناك بسرعة؛ فوجد العامل ميتًا، وقد امتلأت رأسه بالروائح الطيبة، ولما شم الذين كانوا بجواره الرائحة فلم يبق أدنى ريب قط لدى أي شخص في هذا الموضوع، فأعاد إبراهيم باشا هذا الحجر بيده إلى مكانه ثانية، وتفضل أيضًا السلطان صاحب السعادة بالنزول إلى هذا المكان المبارك؛ حيث طلب البركة بزيارته الشريفة، وبروائحه الطيبة؛ وأمر ببناء تربة عالية على هذا المكان، وقلعة متينة في نواحيه، وقد وُضعت المدافع الميدانية والمدافع من نوع «ضربزن» بداخلها، وعين عليها عسكر حراسة من أجل الحماية.

وتفضل حضرة السلطان بتعيين القائمين على العمارات العامرة والأوقاف الشريفة من أجل ضيافة الوافدين والذاهبين إليه.

وفي هذه الأثناء كان قد اعتنق «غازي خان» حاكم خراسان المذهب السني في الظاهر وأعلن الطاعة؛ حيث أُكرم بأكثر مما يتوقع، وذلك بإحسان مملكة «لور»[1] عليه مع منصب إمارة أمراء، ولكن شقاوته الأزلية التي جبل عليها ألقت به ثانية إلى جانب القزلباش؛ وترك المذهب السني وأطاع الشاه الضال، وبعد ذلك نال جزاءه، وقد أعدم أيضًا الدفتردار «إسكندر چلبي» في اليوم الثامن من رمضان المبارك رحمة الله تعالى عليه.

في ذكر توجه السلطان من بغداد صوب دار السلطنة

بينما كان السلطان صاحب السعادة وحامي العالم في مشتى «بغداد» المحروسة، ظهر شاه العجم من الركن الذي كان قد اختفى فيه، ولما حمل على «تبريز»، لم يستطع عسكر الإسلام الذين كانوا يحمون قلعة «شنب غازان» المقاومة، فتشتتوا وتفرقوا، وهرب

(١) تقع بين «خوزستان» و«أصفهان» في «إيران».
ـ قاموس الأعلام: ٦/ ٤٠١١.

أيضًا «أولامه»، ولجأ إلى قلعة «وان»، ثم توجه الشاه أيضًا وحاصر «وان»، وبشكل ظاهري راح «أولامه» يشرع في الحرب والقتال مع قوات الشاه.

وعندما علم السلطان صاحب السعادة بهذا الوضع، كان قد مضى فصل الشتاء، وأصبح وجه الأرض مسرورًا وضاحكًا بآثار الربيع، وقرر التوجه إلى نواحي «تبريز» دون تردد أبدًا، وأرسل السعاة بالأوامر الشريفة إلى العسكر الذين كانوا في المشتى، وتوجه العسكر من «بغداد» المحمية صوب ناحية «تبريز» يوم ثمانية وعشرين من رمضان المبارك، وعندما نزلوا إلى المكان الذي يعرف باسم «كوك تبه»، علم عسكر القزلباش الذين كانوا أمام «وان» الوضع؛ فتحركوا من «وان» وهربوا، وعلى هذا رحل جند الإسلام من المكان المذكور «كوك تبه» حيث عبروا جبال «كردستان»، وفي هذه الأثناء جاء عسكر الإسلام صائدو الأعداء الذين كانوا قد تفرقوا، والتحقوا بالجيش الهمايوني.

ومهما يكن من أمر فقد هل في هذه الأثناء شهر المحرم الحرام سنة اثنين وأربعين وتسعمائة، ووصل حضرة السلطان حامي الخلافة مع قائد العسكر صاحب مقام «آصف» إلى «تبريز» في اليوم الرابع من المحرم الحرام، وتجول في قصور الشاه، ورفع الأذان من مآذن الجامع الشريف للسلطان «حسن» الذي لم تُصَلَّ فيه صلاة الجمعة خلال هذا العصر المظلم، وكانت شريعة محمد عليه السلام متروكًا العمل بها تمامًا، وصلى فيه السلطان العيد مع المسلمين؛ وأدى أيضًا سلطان العالم صلاة الجمعة فيه مع جماعة المسلمين، وفي المكان نفسه تفضل حضرة السلطان بتوزيع العطايا والإحسانات على جميع جند «القابوقولى»؛ أي خدم الباب كالعادة، ثم قام بترقية أرباب التيمار بأسرهم، وغمرت البهجة العسكر المنصورة من إنعام وإحسان السلطان، حيث بقيت لذة هذا الإكرام في أسقف حلوقهم فترة طويلة.

ولم يكن هناك احتمال لعودة العدو للمواجهة مرة أخرى، وكان مقصد العدو من ذلك أن يستتر في ركن مخفي، ثم يستدرج عسكر الإسلام إلى الصحراء، ويلقي بهم

إلى المهالك بتركهم بلا زاد أو مؤن، وانخدع الباشا الغيور بالاستقبال الحافل الذي رآه من أهالي المنطقة وخرج من «تبريز» دون أن يعلم حقيقة الأمر؛ ونزل بالقرب من مدينة «درگزين» في اليوم الثالث من شهر صفر الخير بقصد أن يتعقب الشاه، وفي هذا المكان حضر سفراء الشاه ثانية، ورجوا منه الصلح، وبناءً على هذا الصلح، انعطف عنان عزم السلطان إلى أطراف «روم» المحمية حيث عاد إلى «تبريز» ثانية في يوم ٢١ من الشهر المذكور، وبعد أن مكث بها ستة أيام، خرج وزار القبر المشع نورًا لـ «شمس تبريزي» قُدس سره في «خوي»[١] وذلك في اليوم الرابع من ربيع الأول[٢]، ومن هذا المكان وصل إلى «أرجيش»، وبعد ذلك إلى «آمد» المحروسة، ثم بعد ذلك عبر نهر الفرات، ونزل إلى حلب المحروسة في اليوم الثامن والعشرين، ثم دخل السلطان إلى السراي العامرة بالعزة والإقبال في ١٤ من رجب[٣]، ولما كان السلطان السعيد في سفر بعيد لمدة طويلة، كان أهالي الديار صغارًا وكبارًا قد اشتاقوا إليه كثيرًا، فلما رأوا طلعته، راحوا يحتفلون وكأنه يوم عيد سعيد، فزينوا وجمّلوا جميع شوارع المدينة وجميع الأسواق والبازارات، وقاموا بزينة عظيمة بالأضواء والأعلام.

غضب السلطان على قائد العسكر والوزير الأعظم إبراهيم باشا

في ٢٢ من رمضان المبارك سنة ٩٤٢ هجرية[٤]، كان حضرة السلطان حامي العالم قد ضاق ذرعًا من جراء بعض تصرفات المذكور «إبراهيم باشا»، ولكن رغم ذلك لم ينقصه ذرة من احترامه في الصورة الظاهرة، وكانت إحدى تصرفاته التي أغضبت السلطان أنه أمسك بالعسكر في تلك الحملة حتى فصل الشتاء.

---

(١) هي قصبة تقع في شمال غرب «تبريز» بحوالي ١١٠ كيلو مترات، وكانت تبعد عن الحدود العثمانية بحوالي ٣٨ كيلو مترًا.
ـ قاموس الأعلام: ٣/ ٢٠٧٠.
(٢) الموافق ٢ من سبتمبر ١٥٣٥م.
(٣) الموافق ٨ من يناير ١٥٣٦م.
(٤) الموافق ٢٢ من فبراير ١٥٣٦م.

وكانت إحدى زلاته الأخرى أيضًا أنه قام بإعدام الدفتردار «إسكندر چلبي» مع أنه كان قد نبه عليه السلطان صاحب السعادة أثناء الذهاب من «إستانبول» قائلا: «إن إسكندر چلبي رجل صاحب خبرة وإدراك للأمور فينبغي ألا تخالف رأيه»، كما أن «إبراهيم باشا» ألقى ذنب تأخير العسكر إلى فصل الشتاء على عاتق «إسكندر چلبي»، ثم عرف السلطان بعد ذلك أنه كان بريئًا من هذا الأمر، وإرهاقه للعسكر بلا فائدة مقابل استيلائه على «عاد لجواز» وقلعة أو قلعتين من الأمور التي لم تستحوذ على رضا السلطان صاحب السعادة.

ومن جملة أخطائه أيضًا أنه لما ألقى «أولامه» وبعض المرتدين من القزلباش بأسلوب مدح إلى مسامع إبراهيم باشا المقولة التالية: «في الوقت الذي كان حكام كثيرون للشاه يحملون لقب «سلطان»، فإنه ينبغي أن تكون عظمة وسلطنة السلطان صاحب السعادة أكثر من هذا اللقب عدة مرات؛ وخصوصًا أن لقب «سلطان» أطلق في زمن الخلفاء على الكبراء الذين كانوا في مقام وزير أعظم، فلماذا لا يجوز إطلاق لقب «سلطان» عليك أيضًا؟»، قام قائد العسكر «إبراهيم باشا» بتكليف المنادين بأن ينادوا له قائلين: «أمر السلطان»، وكان ذلك قبل وصول السلطان صاحب السعادة إلى عسكر الإسلام في «تبريز»، ولما كان «إسكندر چلبي» يمنع هذا، بدأ قائد العسكر يحقد على «إسكندر چلبي»، وعندما أتى «إبراهيم باشا» مع السلطان صاحب السعادة إلى «تبريز» ثانية، أصبح يأمر بكتابة لقب «سلطان» لنفسه في الأوامر والأحكام، وكان يأمر المنادين بالنداء به في أوامره.

وبصفة عامة، فقد كانت بعض تصرفاته على هذا النحو، سببًا في نفور السلطان صاحب السعادة منه، ولكن على الرغم من ذلك فإنه لم ينقص ذرة من اعتباره ورعايته في ظاهر الأمر، ولكن يفهم من التقرير التالي للمرحوم «جلال زاده» أن «إبراهيم باشا» كان يستحق الجزاء من قبل جناب الباري عز شأنه.

حكاية إبراهيم باشا

كان «جلال زاده» كاتب الديوان السلطاني منذ بداية انتقاله إلى مجال العمل وظهور عنفوانه حتى حملة بغداد، ولم يكن «إبراهيم باشا» مفرطًا في الخدمة ولا مقصرًا في

عبوديته للسلطان لحظة واحدة في أي زمن قط. وكانت دائمًا نيته مصروفة إلى جانب الخير وتصرفه متجه في كل وقت إلى كمال العدل، وفي الديوان الذي عنوانه العدالة كان لا يقدم «إبراهيم باشا» على أمر في كافة أمور السلطنة وعامة أحوال الخلافة دون مشاورة الوزراء العظام والوزراء ذوى الخبرة العالية على غرار ما كان معمولًا به في عصور السلاطين العثمانيين السابقين المقرونين بالمغفرة، وكان يتشاور مع أهل القانون، وكان يهتم بكل أمر.

وكان «إبراهيم باشا» حريصًا على أن يسأل عن الأوامر العلية الإلهية والشرائع السنية لحامي الرسالة في كل موضوع، وعن القانون السلطاني في كل مادة فيعرفها، ثم يعمل بموجبها، وبصفة خاصة، كان «إبراهيم باشا» يهتم بالقرآن العظيم والفرقان الكريم بأنواع التعظيم والإجلال، فلو أهدوا إليه مصحفًا شريفًا، كان يأخذه بيده ويضعه على رأسه ثم صدره، وبعد ذلك كان لا يضعه في مكان منخفض.

وبعد فتح «بغداد»، رافق «إبراهيم باشا» بعض أهل السوء، وأخذ يجالس بعض الجهال؛ فتبدلت أخلاقه بصحبة هؤلاء، ونسي تمامًا أمور العدل والإنصاف، فكانت أذنه الصاغية تصم عند سماع قول الحق، نعوذ بالله تعالى، فقد تؤدي مصاحبة الأشرار ومقارنة الفجار والاختلاط والمكالمة مع أرباب الجهل إلى عاقبة الغم والألم، وقد تأثر «إبراهيم باشا» تمامًا بصحبة هؤلاء الأراذل، فكان لا يقبل النصح، حتى إنه كان يهرب من المكان الذي يرى فيه من يحملون إليه المصحف الشريف، وهكذا أصبح لا يقبله أي المصحف الشريف.

ولا جرم أنه لما صارت الأحوال المتردية للباشا ظاهرة ومعلومة لدى السلطان أصبح مظهر غضب السلطان، فبينما كان يسترخي بمفرده في الحجرة المخصصة له في الحرم السلطاني، ختمت يد الجلاد على دائرة حياته بخاتم الموت، رحمه الله تعالى.

الهجوم على ولاية «گورجستان»

في يوم ١٥ من المحرم الحرام سنة ٩٤٣هجرية[1]، نادى «محمد خان» الأمير عالي المكانة وحاكم «بايبورد» بجمع عسكر تلك الديار من أجل الهجوم، وبعد أن جمع العسكر، دخل إلى ولاية «گورجستان»، وحينها بدأ الهجوم، كان كفار «گورجي» حاضرين ومستعدين، حيث التقوا مع عسكر الإسلام؛ فهبت رياح النصر على جانب المسلمين بعد حرب ضروس، وسقط كثير من الكفار الصاغرين على تراب الموت صرعى، وما إن فرَّ وتفرق ما تبقى منهم، حتى انكب جند الإسلام على الغنائم؛ حيث اغتنموا الغنائم الكثيرة التي تزيد عن حدود الوصف، وبعد أن ضُرب كفار «گورجي» بقوة على أيديهم، أعلنت ثلاثة أو أربعة سناجق الطاعة والانقياد؛ فأمر جناب السلطان بتعيين الولاة والحكام عليهم.

فتح قلعة «قشتليه» التي تقع في ولاية «بوليه» بيد الغازي خير الدين باشا

في ٢ من ربيع الآخر سنة ٩٤٣هجرية[2]، وصل حضرة الغازي «خير الدين باشا» من قراصنة البحر الهائج إلى ديار «بوليه» بالأسطول الهمايوني، فقام بتخريب هذه الأطراف، وجعلها كومة تراب بإحراق مدنها المعمورة وقراها، وقام عدد من جند الكفار باتخاذ القلعة المتينة المعروفة باسم «قشتليه» حصنًا لهم؛ فبسبب تحصن الكفار بهذه القلعة، توجه إليهم «خير الدين» وحاصر القلعة حيث أخرج المدافع من الأسطول، وأطلق نيرانها لفترة، وبعد أن فتح بها عدة ثغرات، قام بفتحها ـ بفضل الله تعالى ـ بالهجوم عليها. وغنم جند الإسلام الغنائم الكثيرة.

(١) الموافق ٥ من أغسطس ١٥٣٦م.
(٢) الموافق ١٨ من سبتمبر ١٥٣٦م.

محاربة عظيمة قرب قلعة «صولين» وانتصار الغزاة وفتح قلعة «كليس» في ولاية البوسنة

في سلخ رمضان سنة ٩٤٣هجرية[1]، كانت قلعة «كليس» الواقعة على حدود البوسنة، موضع تجمع اللصوص، ووكرًا للكفار الذين يدعون الشجاعة، وكان إيذاء هؤلاء وضررهم يقع على المسلمين في معظم الأوقات، ولما كان من المتعسر جدًا سحب المدافع والاستيلاء عليها بطرق أخرى؛ نظرًا لأنها كانت تقع في مكان صعب المرور، قام المرحوم «خسرو بك» والي سنجق «البوسنة» الذي كان من أشرف الأمراء وحاكمًا ذا خُلق قويم في هذا السنجق، قام بتعمير قلعة «صولين» التي كانت قرب قلعة «كليس» والتي كانت خرابًا منذ فترة طويلة، ووكرًا للبوم والغربان، حيث وضع بداخلها غزاة الإسلام، ولما عرض الأمر على السلطان قائلًا: «إذا قاموا بهجوم على الكفار، فإن هذا الهجوم قد يؤدي إلى فتح قلعة «كليس»، وبذلك تنضم إلى قلاع الإسلام بلا عناء»، يقع عرضه موقع الاستحسان عند السلطان.

وهكذا، بعد أن قام المشار إليه بتعمير القلعة كما ينبغي، وضع بداخلها قدرًا كافيًا من الغزاة الذين كانت علامتهم الظفر، وعلى هذا يقوم عسكر الإسلام بإشعال النيران في أماكن الكفار الذين مأواهم النار والتي كانت عند قلعة «كليس»، إلا أن أبوابهم كانت مغلقة بصورة دائمة، وعندئذ يقوم الكفار بإبلاغ ملكهم سيئ العاقبة بأنه لا يمكن البقاء في هذا الوضع كثيرًا، قائلين له: «إذا كانت هناك ضرورة لقلعة «كليس»، عليكم بإخراج المسلمين من داخل قلعة «صولين»»، وعلى إثر هذا يقوم الملك الضال بإرسال عشرة آلاف من الكفار ذوي العاقبة السيئة مع قادتهم وأمرائهم.

ولما علم المرحوم «خسرو بك» بالوضع، قام بتعيين أميره الشجاع المعروف باسم «غازي مراد» نادر الأقران ـ الذي كان قد أثبت وجوده في مواطن كثيرة كهذه ـ أميرًا على خمسة آلاف من الرجال المدربين، وأرسله إلى هناك، وعندما التقى المسلمون مع

---

(١) الموافق ١٢ من مارس ١٥٣٧م.

المشركين أمام قلعة «صولين»، دارت رحى الحرب والقتال الذي أثنت عليه أعين الفلك قائلة: «لم أر مثلهم»، وربما يكون القول إنه لم ينجُ واحد من الملاعين هو قول حقيقي، وهكذا يتخلى الملاعين الذين كانوا داخل قلعة «كليس» عن القلعة؛ بسبب خوفهم ورعبهم، وراحوا ينجون برءوسهم، وقد اغتنمت الغنائم الكثيرة من هذه القلعة، ومن الكفار الذين كانوا منهزمين على نحو نادرًا ما يتكرر مثله في هذه الأيام، ولما أخبر «خسرو بك» السلطان بهذه الغزوة وهذا الفتح، أحسن عليه بترقّي وعلى «مراد غازي» بمقاطعة «زعامت».

وسيُرى في الترجمة التي تأتي فيما بعد، كيف كتب الكفار هذه الغزوة في تواريخهم.

فتح قلعتي «إيوارينه» و«نادين»

في سنة ٩٤٤ هجرية[١]، قام الغازي «خسرو بك» المشار إليه، بتجريد العسكر على القلاع المذكورة، وفتحها واستولى عليها قهرًا واغتنم الغزاة الذين اشتركوا في الحرب الأموال والغنائم، ولما أحاط المرحوم «خسرو بك» حضرة السلطان حامي العالم علمًا بهذه الغزوة الغراء عن طريق واليه «غازي مراد» المشار إليه، وطلب منه أن تنضم قلعة «كليس» ونواحيها لبعض الأراضي المنفصلة من سنجق «البوسنة» والقلعتين سالفتي الذكر، ونواحيهما، بحيث تصبح سنجقًا مستقلًا، وأن يوجه هذا السنجق إلى «مراد غازي»، قبل السلطان هذا العرض وأحسن عليه بما تمنى.

فتح قلعة «قادين» وقلعة « أوبروجه»

في سنة ٩٤٤ هجرية[٢]، لقد فتحت القلاع المذكورة أيضًا؛ نتيجة المساعي الجليلة «لخسرو بك» و«غازي مراد بك»، وأُلحقت بالممالك السلطانية، وإنني هذا الحقير كثير

(١) الموافق سنة ١٥٣٧ ـ ١٥٣٨م.
(٢) الموافق سنة ١٥٣٧ ـ ١٥٣٨م.

التقصير رأيت هذه القلاع سالفة الذكر؛ حيث إن اتساع الواحدة منهما قدر برج كبير فقط، والآن انفصلتا عن «كليس» وأُلحقتا بسنجق «قرقة»، وقد انفصلا أول مرة، حينما كان المرحوم «محمود بك يحيالو بن أرانيذ» و«صولاق محمد بك»، أمراء لـ «كليس»، حتى شاع هجو «ولى بك» لـ «محمود بك»؛ بسبب هذا، وبعد ذلك كانا قد انضما وأُلحقا ثانية بـ «كليس» فإنه فصلهما مرة أخرى «أرنبود مي بك» والد المرحوم «سرخوش»، و«غازي إبراهيم باشا»، وأطلق على هذا السنجق الجديد اسم سنجق «قرقة» على أن تكون الحدود الفاصلة نهر «قرقة».

خلاصة حملة السلطان على جزيرة «كورفس»

ـ توجُّه السلطان:

في ٧ من ذي الحجة سنة ٩٤٣هجرية[1]، تقع «ونديك» على ساحل البحر، وهي عبارة عن مدينة كبيرة، وبالإضافة إلى ذلك، فإنها مملكة جذورها وقلاعها وقراها كثيرة، ويشتهر أهلها بكثرة المال، ووفرة الرجال، وأربابها من أصحاب السفن الكثيرة والأسطول، ومعروفون بالحيلة والمكر، وهي موطن ومنبع «الجوخ» والقماش من نوع «القطيفة» وسائر الأمتعة اللطيفة، وهي تعتبر عدوًا قويًا في صورة صديق تفرضه الظروف، نظرًا لأنها كانت تحتاج إلى المسلمين في وسائل المعيشة، وفي التجارة والعمل، علاوة على أن معظم أراضيها، كانت متاخمة لممالك السلطان، وهي عدوة للدين الإسلامي الذي تشتد عداوة سائر الكفار له، ويُروى عن بعض الثقات، أنه لو قابل بعض الملاعين أحد المسلمين صدفة في مدنهم، ولو وقعت عيناه على عين المسلم يلج إلى مكان ضيق ومغلق، ولا يخرج منه إلى ضوء النهار لعدة أيام، كأنه يعاقب عينيه قائلًا: «ليكن ذلك كفارة لذنب النظرة إلى المسلم»، وبصفة عامة، فإنهم كانوا يصادقون المسلمين بشكل اضطراري فقط، ولا يتأخرون عن مساعدة أعدائهم من أهل الإسلام بأي وجه ممكن، حتى يظهروا لهم الصداقة ويخفوا العداء.

---

(١) الموافق ١٧ من مايو سنة ١٥٣٧م.

وهكذا، لما علم حضرة السلطان صاحب السعادة وحامي العالم أوضاع أهالي «ونديك»، قام بتعيين الوزير «لطفي باشا» قائدًا للجيش؛ وأرسله إلى مملكة «بوليه» مع القبودان «خير الدين باشا» حتى يضرب على أيدي هؤلاء، بفضل الله تعالى، وكان قد وصل «گديك أحمد باشا» وهو من مشاهير الوزراء، إلى تلك المملكة بالأسطول الهمايوني في عصر أبي الفتح والمغازي سلطان محمد خان غازي عليه الرحمة؛ وقام ببعض الهجمات والتخريب هناك، ووفق في فتح بعض القلاع. ولكن بسبب رحيل السلطان الذي مأواه الجنة من دار الفناء إلى دار البقاء، عاد المشار إليه «گديك أحمد باشا» بالأسطول الهمايوني ثانية، والآن أراد سلطاننا صاحب السعادة التوجه بنفسه إلى هذه الأطراف لقضاء ما فات، واصطحب السلطان صاحب السعادة معه في هذه الحملة التي دليلها النصر، حضرة السلطان «محمد» والسلطان «سليم» من أبنائه المحظوظين واللائقين بأن يكونا أصحاب التاج والعرش.

وبعد أن أمضى السلطان العيد المبارك في المكان المعروف باسم «إينجوكز»، هلَّ شهر المحرم الحرام سنة أربعة وأربعين وتسعمائة هجرية[1]، وفي اليوم الخامس من شهر المحرم تفضل السلطان صاحب السعادة بالنزول إلى صحراء «صماقو»، وبعد ذلك عبر إلى «أسكوب»، ولما نزل إلى أطراف قلعة «البصان» في اليوم التاسع والعشرين، وكانت هذه الأماكن، غنية جدًا بحيوانات الصيد، اختفى أهالي المملكة؛ نظرًا لأنه لم تكن هناك نهاية لأنواع الصيد المتعددة، وامتد الصيد الذي لم يحدث شبيه له في أي وقت قط على هذا النحو إلى الصحارى والتلال والجبال والوديان التي كانت على بعد مسيرة يومين أو ثلاثة. وأصبح حضرة حامي الخلافة وأصحاب السعادة أبناء السلطان ذوي الجاه مسرورين ومحظوظين وبشوشين بالقدر الذي لا يمكن وصفه، أما حيوانات الصيد التي أرهقت لدرجة عظيمة فقد اضطرت للألفة مع الإنسان، وطلبت بلسان حالها الشفقة والمرحمة والأمان، وشعر كل فرد بمقتضى الطبع الإنساني، بالشفقة والمرحمة على

(١) الموافق ١٤ من يونيه سنة ١٥٣٧م.

حالها، وفي النهاية أطلق السلطان صاحب السعادة سراح الحيوانات التي كانت مجتمعة في الميدان والتي كانت أكثر من أن تعد أو تحصى، وصدر الفرمان السلطاني المحفوف بالرحمة بألا يؤذي أي شخص هذه الحيوانات.

وفي اليوم الخامس من شهر صفر الخير[1] تفضل السلطان صاحب السعادة بالنزول إلى صحراء «أولونيه»، وكانت إحدى أطراف حدود «أولونيه» محاطة بالبحر، أما الأطراف الأخرى، فكانت محاطة بجبال «الأرنبود» [أي الأرناءوط] الذين كانوا يتصفون بالعناد، والطائفة المذكورة المقصود أهالي الأرناءوط كانت معروفة بالصداقة والاستقامة، لكنهم، لم يقبلوا الإذعان لأي فرد معتمدين على شجاعتهم؛ وكانوا لا يتوانون لحظة قط في ارتكاب الفساد والجرائم؛ وكانوا قد تجاوزوا الحد في نهب وتخريب أراضي المسلمين المحيطة بهم، دون أدنى اعتبار لقرب أو بعد هذه النواحي والأطراف، وكان من الواضح والمؤكد أن طغيانهم سيمتد إلى الممالك الإسلامية، ومن أجل هذا، بعث السلطان صاحب السعادة وحامي العالم بـ«إياس باشا» الذي كان وزيرًا أعظم في ذلك الحين ـ نظرًا لأنه كان من جنسهم أي جنس الأرناءوط ـ بعث به على رأس تلك الحملة، ولما وصل «إياس باشا» إلى تلك المملكة تنفيذًا للأمر الذي كلف به، استفاد كثيرًا بتحصيل المنافع والعوائد من هذه البلاد.

ومن مساوئهم أنهم كانوا ملجأ ومأوى للكفار الذين كانوا يأتون من البحر، حيث كان الكفار يظفرون بكثير من الأراضي بمساعدة هؤلاء الأرنبود [الأرناءوط]، فكانوا يعكفون دائمًا على أعمال الفساد، أما الآن، فقد زالت تلك المسألة، بعودة أهل الطغيان الذين كانوا منتشرين في مناطق جبلية وعرة، حيث أعلنوا الطاعة بواسطة الوزير الأعظم المشار إليه، وبالإضافة إلى ذلك فقد فتح «إياس باشا» المنطقة التي عُرفت باسم سنجق «دلوينه»، حيث عين أمير لواء وقاضيًا وحارسًا على هذا السنجق؛ وأصبح من عداد الممالك المحروسة.

---

(١) الموافق ١٤ من يوليو ١٥٣٧م.

تفصيل الغزوة التي قام بها «لطفي باشا» والقبطان «خير الدين باشا»

وصل المشار إليهما إلى ديار «بوليه» بأمر سلطان الأقاليم السبعة، وأنزلا خسرانًا عظيمًا بالكفار الصاغرين، وبينما كان كتخدا الترسانة العامرة «علي كتخدا» يتوجه في هذه الأثناء باثنتي عشرة سفينة من نوع «القدرغة» للالتحاق بالأسطول الهمايوني، وفي أثناء عبوره من أمام قلعة «كورفوز»، كان «أندريه طورى» قبودان الكفار وقرصانهم المشهور موجودًا في ميناء «كورفوز»؛ فحمل على سفن المسلمين، حيث دارت رحى جدال عظيم وقتال أليم، ولكن لما كان الكفار في وفرة وكثرة، فإن «علي كتخدا» لم يستطع المقاومة؛ فهلك جميع المسلمين في هذه الحملة، حيث أُسر بعضهم، واسُتشهد بعضهم الآخر وغرق بعضهم أيضًا في البحر الهائج.

وبعد ذلك بينما كان «كتخدا» الترسانة «بوستان كتخدا» متوجهًا إلى جزيرة «كورفوز» برسالة من قبل الوزير المومأ إليه «لطفي باشا»، تصادف بأربع سفن من نوع «القادرغة» من أسطول البنادقة، ومع أنه أبلغهم قائلًا: «إنني متوجه في مهمة كسفير»، فإنهم لم يطمئنوا له؛ فأطلقوا عليه المدافع، وفي النهاية، ينتصرون عليه؛ ويأسرونهم جميعًا، ويسخرون بعضهم معهم في بعض الأعمال، وفي النهاية، يقوم الكفار بإغراق الزورق في البحر؛ خوفًا من إشاعة هذا الحدث، ويقتلون الغزاة المأسورين، الواحد تلو الآخر بطريقة مهينة.

وفي هذه الأثناء يتمكن شاب يافع من الإلقاء بنفسه في البحر، بينما كانت يداه مربوطتين وكذلك قدماه قائلًا: «الغرق في البحر أهون عليّ من الموت على هذا النحو»، ولكن ترعاه عناية حضرة الباري عزّ اسمه؛ فيصادف قطعة خشب، فيركب عليها بعناء شديد، وبينما كان حاله مضطربًا من الأمواج المتلاطمة فوق سطح البحر، صادف إحدى السفن وكانت متجهة لنقل بعض مهمات الحرب إلى الأسطول العثماني، فيقوم البحارة بإنقاذ هذا الشاب ونقله إلى سفينتهم قائلين: «يا ترى هل هذا واحد من رجال

البحر؟ وإلا فمن يكون؟»، ولما وقفوا على هذا الوضع، يقومون بحمله إلى السردار الوزير «لطفي باشا»، فيرسله «لطفي باشا» بدوره إلى الركاب الهمايوني، ويعرض الشاب على السلطان في الحال حقيقة الأمر، وبمجرد أن علم السلطان عالي الجاه بهاتين المفسدتين، صدر أمره الواجب الانقياد؛ لكي يصل الأسطول الهمايوني متوجهًا إلى قلعة «كورفوز»، ثم أتى السلطان عالي الشأن بنفسه، حيث تفضل بالنزول تجاه «كورفس»، وعمومًا فقد تمت محاصرة قلعة «كورفس» بموجب الأمر السلطاني، وعين الجنود الكثيرين من الأجناد الذين كانوا بجوار السلطان صاحب السعادة وصاحب الجاه العظيم كجاه «جم»[1]؛ حيث أرسلوا إلى الجزيرة المذكورة فحاصرها الأسطول من ناحية البحر، والعسكر الذين غايتهم الظفر من ناحية البر، وأوقعوا ضجيجًا عظيمًا في انقلعة ليل نهار، حيث أطلقت المدافع عليها، ففتحت الثغرات المناسبة جدًا لشن الهجوم وكانت الجزيرة المذكورة مملكة واسعة، ولذلك امتدت الهجمات امتدادًا واسعًا إلى كل جانب منها، وأشعلت النار في كل قراها وأُخذت الغنائم والأسرى التي كانت بلا نهاية، وهكذا، لم تبق زاوية واحدة من القلعة التي حوصرت قرابة شهر، إلا وقد نُهبت وخُربت.

وفي هذه الأثناء، كان موسم البحر قد انتهى فاستولت البرودة الزائدة على الجو واشتدت قسوة الطقس، ولم تبق هناك قدرة على البقاء في هذا المكان حيث لم يعد هناك وقت للحرب، حتى إنه في اليوم الذي نزل فيه الغزاة من «أولونيه» إلى «كورفس»، كان المطر ينهمر حتى لم تبق أي خيمة، بل لم يبق رجل ولا جواد، ولما علم السلطان صاحب السعادة وحامي العالم بهذا الأمر، أرسل الصدر الأعظم «إياس باشا» إلى الجزيرة ليخبر الجند هناك: «إنه ينبغي تأخير هذا الهجوم»، فصدر الفرمان الهمايوني قائلًا: «إنه من المستحسن صرف النظر عن فتح القلعة، في الوقت الحالي»، ومع أن «لطفي باشا» والقبودان خير الدين باشا عارضا بغيرة شديدة عدة أيام قائلين: «ينبغي ألا يذهب

(١) هو أحد الأبطال الأسطوريين الذين ورد ذكرهم في المؤلَّف المعروف باسم «شهنامه» للشاعر الإيراني الفردوسي.

مجهودنا العظيم هذا هباء، فلقد أصبحت بوادر الفتح ظاهرة والثغرات مفتوحة»، إلا أن السلطان لم يقبل ذلك.

ولكن ذكر المرحوم «عالي أفندي» في تاريخه نقلًا عن بعض الثقات سبب صرف النظر عن الاستيلاء على القلعة على هذا النحو: «أن أربعة غزاة كانوا قد رزقوا منزلة الشهادة في لحظة واحدة من دانة مدفع، فلما علم السلطان بذلك، أمر بصرف النظر عن الاستيلاء على القلعة قائلًا: «لا أضحي بخادمي المجاهد مقابل ألف قلعة كهذه»، وعلى الرغم من أن السلطان صاحب العظمة، وأعيان الدولة قد أشفقوا على حال غزاة الإسلام الذين تعرضوا لمواقف صعبة متعددة على هذا النحو الذي شاهدناه في حصارهم وهجماتهم على القلعة، والذين أصابهم الأعداء بالجراح الدامية، وعلى الرغم من أن السلطان قد أنعم عليهم بالإنعام والإحسان، فإن الأجر والمقابل الحقيقي إنما يكون بنيل درجات الجنان التي كانت أعظم الوعود الكريمة من جناب رب العالمين، وليس بأي وجه آخر، وقد شاهدنا بأعيننا الأشخاص المجروحين والمصابين بالصدمة من الغزاة الذين التحقوا بالحملة.

واتفق أنني هذا الحقير المملوء بالتقصير قد شاهدت أمرًا من العجائب: وهو أن «ساطورجى محمد باشا» كان سردارًا عظيمًا أثناء حصار قلعة «وارات» في تاريخ سبع وألف هجرية[1]؛ وكان في صحبته «غازي گراى خان» خان القرم مع عسكر التتار صائدي الأعداء، وكان المرحوم «محمد باشا» فاتح «أسترغون» متصرفًا على إيالة «الروم إيلي» في ذلك الوقت؛ وكان قد كُلف بضرب البرج الكبير الذي كان في الجانب الأيمن لقلعة «وارات»، حيث ألقى لغمين مرة واحدة على هذا البرج؛ فأطاح اللغم الأول بجزء فقط من وجه الجدار، ولم يلحق أي ضرر بأسوار البرج، ولما فُجر اللغم الثاني تطاير سور القلعة في الهواء في هذه المرة وفتحت ثغرة بالقدر الذي يكفي لشن الهجوم. وصعد الغزاة فوق القلعة ونصبوا أعلامهم ورفع الأذان، ولكن لما علم الكفار

(١) الموافق سنة ١٥٩٨ ـ ١٥٩٩م.

بالهجوم الذي وقع على تلك القلعة، قاموا بتنظيم الصفوف في الناحية الداخلية من القلعة، وحفروا الخنادق وأحكموا خط الدفاع، بحيث لم تكن هناك قدرة على الدخول إلى داخل تلك القلعة، وكان الكفار قد وضعوا السلال لمنع الوصول من خلال الخندق إلى القلعة أثناء المعارك، ولدفع ضرر المدافع والبنادق المقذوفة من برج البوابة، وكان قد وضع لوح كبير من الخشب خلف هذه السلال، وبينما كان يجلس ثمانية رجال من الغزاة على هذه الخشبة، وبينما كانوا يقفون مترقبين الفرصة للهجوم، أطلقت إحدى المدافع من برج الباب؛ فجرحت الأقدام اليمنى للثمانية رجال الذين كانوا يجلسون على هذه الخشبة في لحظة واحدة، فكسرت ضربة المدفع هذه ركبة وفخذ بعضهم وكعب قدم وعظمة ساق بعضهم الآخر وقد استشهد خمسة من هؤلاء، أما الثلاثة الآخرون فقد أصبحوا غزاة سعداء متقاعدين، وكان جرح الأقدام اليمنى للثمانية رجال في لحظة واحدة من ضربة مدفع، من غرائب الأحداث، وقد ذكرتُ هذه الأحوال في هذا الموضع بمناسبة شهادة الأربعة غزاة الذين استشهدوا في غزوة «كورفس».

وخلاصة القول فقد عاد السلطان من أمام «كورفوز» في أواخر ربيع الآخر[1]، حيث وصل إلى «أدرنه» المحروسة مقر العرش المحفوف بالسعادة وقوة الجاه، في العشرين من شهر جمادى الأولى[2]، واستراح هناك فترة من الزمن، حيث أمضى وقته في الصيد والقنص والتجوال في هذه النواحي، كما أنه شغل خاطره بمناقشات الندماء وحديثهم الحلو في قصر «أدرنه»، ولكن أثناء العودة من «كورفس»، جرد الوزير الشجاع «لطفي باشا» المشار إليه والقبودان «خير الدين باشا» العسكر إلى الجزيرة المعروفة باسم «كفالونيه» وهي من جزر البندقية؛ فأسروا ونهبوا وخربوا كثيرًا، وأصبح الغزاة المقرونون بالظفر في غبطة من الغنائم التي كانت أكثر من أن تعد، فمثلًا بيعت العذارى الحسناوات بثلاثمائة ذهبية لكل واحدة منهن، والصبيان ذوو الوجوه الحسنة بثلاثمائة أقجة لكل واحد منهم.

---

(١) الموافق الأسبوع الثاني من أكتوبر سنة ١٥٣٧م.

(٢) الموافق ٢٥ من أكتوبر سنة ١٥٣٧م.

فتح قلعة «بوژغه»

في عام ٩٤٣ هجرية[١]، كان قد عين «محمد بك بن يحيى باشا» أمير سنجق «سمندرة» سردارًا وقائدًا للجند من غزاة الإسلام والأمراء الكرام الذين كانوا على الحدود المنصورة بأمر من سلطان الأقاليم السبعة، وبناء على هذا، توجه إلى القلعة المذكورة مع عسكر الإسلام حيث وفق بفضل الله تعالى في فتحها والاستيلاء عليها، ووضع بداخلها حارسًا وأفرادًا من الجند بالقدر الكافي.

هزيمة الأمير الكافر «قوجيان إيوان بان» بالقرب من «أوسك» و«غوريان»

سنة ٩٤٤ هجرية، كان قد حزن «فرديناند قرال» حزنًا شديدًا من انتصار «محمد بك» في «بوژغه» ومن نجاح «مراد بك» في فتح ثلاث أو أربع قلاع في البوسنة ، فجمع العسكر وأرسلهم إلى كنيسة «وصولين» والتي كتبت فيما سبق خلاصتها، ووضح أنه لم ينج فرد واحد من اثني عشر ألف كافر، والآن أصبح «فرديناند» مضطربًا جدًا من نجاح «محمد بك» من ناحية ومن نجاح «خسرو بك» في البوسنة و«مراد بك» من ناحية أخرى، والثلاث قلاع التي فُتحت في «خروات» هي؛ «أوبروجه» و«بوداق» و«درسلاق»، ومع أن كل واحدة منها في حجم برج صغير والتي كنت قد رأيتها حينما كنت واليًا على سنجق «قرقه»، ولكن حزن الكفار حزنًا شديدًا على فتحهم، ومع أن تلك القلاع تدخل تحت حكم الخروات فقط؛ ولكن فإن ضررها الفاحش لن يلتحق بالخروات فقط، وإنما من المقرر أنه سيلحق بمملكة «ونديك»، وبصفة خاصة فإن هذه القلاع كانت تشكل خطرًا عظيمًا بالنسبة إلى القلاع المجاورة لها التي لم يستولِ عليها المسلمون حتى الآن في حدود البوسنة، وكانت «بوژغه» أيضًا سدًا منيعًا لمملكة «خروات» و«أصلوين»، فبسقوط «بوژغه» يتم سقوط هذه الممالك أيضًا .

---

(١) الموافق سنة ١٥٣٥ ـ ١٥٣٧م .

والآن فبسبب أنه توجه السلطان صاحب السعادة إلى غزوة «كورفس» مع عسكر الإسلام فقد عين «فرديناند» الأمير «قوجيان» المذكور على رأس جيش؛ لاسترداد «بوزغه» وتدمير «أوسك» و«لقوار» و«أردود»، وسائر القلاع الإسلامية قائلًا في نفسه: «أصبحت الحدود خالية، وليس هناك ما يعترض عسكرنا»، كما جمع فرديناند ثمانية آلاف فارس وستة عشر ألفًا من عسكر المشاة وذلك بتمام الدفتر من «چه» و«نمچه»، والمجر، والفرنك، والخروات، وأسند قيادتهم إلى «إيوان قوجيان» المذكور، وأرسلهم صوب مقصدهم، ولما وصل إلى مسامع «محمد بك بن يحيى باشا» المشار إليه أنه احتشد هؤلاء بقرب قلعة «قوبرو نيجه»، أرسل سريعًا الرجال إلى «خسرو بك» أمير البوسنة، وجعفر بك أمير «إيزورنيق» وإلى أخيه «أحمد بك» أمير «آلاجه حصار»، ومراد بك أمير «كليس».

وفي ذات يوم، جاءوا بعظيم الإقدام، وتجمعوا واحتشدوا قرب «ولقوار»، وفي هذه الأثناء نزل الملعون المذكور قرب القلعة الحربية المعروفة باسم «والبو»، وذلك بعدد ثمانية مدافع من نوع «باليمز» المخصصة لضرب القلاع، وحوالي ثلاثين أو أربعين مدفعًا من «ضربزن» وأمر ببناء كوبري على نهر «قوزا شيجه»، وتوجه إلى «أوسك».

وفي الوقت الذي كان قد نزل فيه إلى المكان الذي يبعد عن أسفل القلعة حوالي ميل، قام محمد بك بإرسال فرسانه الأبطال والتقوا في ذلك المكان مع طابور الكفار، والتحم فرسان الكفار مع محاربي محمد بك الأبطال وتقاتلوا، وقد رزق بعض الغزاة من أهل الإسلام شهد الشهادة، ولكن قتل من الكفار ضعف ما قتل من أهل الإسلام واستودعوا أرواحهم الخبيثة إلى زبانية جهنم .

وفي اليوم التالي، نزل الكفار بالقرب من «أوسك»، وبدءوا في إقامة المتاريس، وعقدوا العزم على ضرب القلعة وأتى محمد بك المشار إليه مع سائر الأمراء والغزاة ومن دون سابق إنذار من «ولقوار»، ووصل إلى العدو، ولم يمهلهم الفرصة قط، ولم يعط لهم الفرصة لضرب القلعة، وقام محمد بك المشار إليه بتدبير حسن على هذا النحو:

فكل ما كان يوجد من أشقياء ولصوص من «الأفلاق» وسائر المحاربين، قام محمد باشا بتأليبهم على الأعداء وذلك بكثير من الوعود والاستمالة، وأمرهم بسرقة الثيران التي تجر المدافع والخيول والحيوانات الأخرى، وقد صار الأمر كما دبر له حتى إنه لم يكن هناك كافر يقدر على الخروج ولو خطوة واحدة خارج طوابيرهم، وقطعت مؤخرة الذخائر، وكانوا يأملون في المجيء من «والبوه»، ولكن دخل قدر من اللصوص خفيفي الحركة في تلك الطرق، وهكذا قطعت عليهم طرقهم، وفي نهاية الأمر، تم إرسال بعض فرق الكفار من الجيش قائلين: «إننا نأخذ بعضًا من الذخيرة»، ومع أنهم انتصروا على اللصوص والأشقياء فإنهم لم يجدوا حبة ذخيرة، وعادوا إلى طوابيرهم، ثم تحركوا إلى دار فجورهم وذهبوا وأمروا ببناء كوبري على نهر «ودقه»، وفي الوقت الذي يجرون فيه المدافع من ذلك الكوبري انهار الكوبري تحت المدفع الكبير وسقط في الماء، وفي ذلك الحين تعقبهم عسكر الإسلام وتجمعوا على رءوسهم، وفي هذه المرة صرف الكفار النظر عن المدافع وتركوها جميعًا في ذلك المكان وسعوا لإنقاذ رءوسهم، وبعد ذلك قاموا بصف عرباتهم ومدافعهم من نوع «ضربزن» في شكل طابورين وقاموا بوضع عسكرهم بين عرباتهم، وكانوا يعبرون على هذه الهيئة وأحيانًا يقاتلون.

ولما وصلوا إلى صحراء واسعة قاموا بترتيب جنودهم، ولكن عسكر الإسلام لم يعطوا لهم الفرصة مرة أخرى حيث قاموا بالهجوم عليهم، ودارت رحى حرب ضروس، ونشب القتال في كل طرف حتى سقط قادة الكفار المشهورين وأكثر القادرين على الحرب منهم على التراب، ولكن نزلوا قبل أن يقدموا كثيرًا، وهرب أمير «زاغرب» مع طليعة عسكره وذهب صوب «والبوه» معهم، وعرف أيضًا أنه سيذهب.

وفي اليوم التالي، أحاطوا بالكفار وقذفوهم بالمدافع وأسروا منهم قدرًا لا يحصر ولا يعد، وكتب الكفار في تواريخهم وأفصحوا بأنه أي محمد بك كان من أشد أعداء النصارى، وقام محمد بك بقطع أنوف وأذن عدة آلاف من الكفار وأرسل إلى الركاب الهمايوني الكثير من الأسرى الذين بلغوا آلافًا مؤلفة مكبلين بالسلاسل برفقة ابنه «أرسلان باشا»، وبينما كان السلطان في «أدرنه» تم إحضار الأسرى إلى الديوان

الهمايوني، وفي مقابل هذا أحسن بسنجق «بوزغه» إلى أرسلان باشا، وفي هذه اللحظة صارت «بوزغه» سنجقًا وصار أرسلان باشا أميرًا عليه، وكتب الكفار نهاية أمر «قوجيان» على هذا النحو: ونجا «قوجيان» من هذه المعركة بصعوبة ووصل إلى الملك، وأراد أن يوضح له الأمر ببعض الأعذار، ولكن الملك وبخه وحبسه، فإنه هرب من السجن إلى قلعة «قوستاينجه» وأرسل خطابًا إلى محمد بك وطلب منه الأمان، وتعهد بأداء الخدمات الجمة للسلطان.

إجمالي الحملة الهمايونية على الـ «بغدان»

ـ توجُّه السلطان إليها:

في ١٠ من صفر الخير سنة ٩٤٥هجرية[١]، لما فتح المرحوم والمغفور له السلطان «بايزيد ولى» رحمة الله تعالى عليه قلاع «كلى» و«آق قرمان»، صارت حدود ممالك الإسلام متجاورة بولاية «بغدان»، وبينما كان أمراء البغدان قد تعهدوا بعدم التجاوز عن هذه الحدود من بعد ذلك، وبإرسال الخراج المقرر عليهم مع الرجال الثقات في السنة الأولى، وأن يحضروه بأنفسهم في السنة الثانية ويسلموه إلى الخزينـة، وبينما كانت تُراعى هذه الشروط المذكورة في زمن المرحوم السلطان بايزيد، فإن السلطان «سليم» لم يكن يهتم كثيرًا بناحية « البغدان» إثر انشغاله كثيرًا بفتوح القزلباش ومصر واعتلائه عرش العرب والعجم والروم.

وبعد ذلك أعطى السلطان «سليمان» الأولوية لفتح أطراف «بودين» واهتم بالاستيلاء على ممالك «بغداد» و «العجم»، ولكن كان قد استقر في قلبه الشريف أن كفار «بغدان» لا يطيعون الأوامر السلطانية التي تصل إليهم تمامًا وفي الوقت نفسه لا يجرءون على البغي والعصيان علانية، فإنه لم يحط أي فرد علمًا بهذا الوضع ولم يشعر أي شخص بمراده الشريف، بل بدأ في الإعداد للحرب، وأصدر أوامره في البداية بالاهتمام الزائد بالأسطول الهمايوني وبعد أن تم تجهيزه كما ينبغي، أرسله صوب الأعداء.

---

(١) الموافق ٨ من يونيه ١٥٣٨م.

وصدر الأمر بتوجه السفن من نوع «قادرغه»، وسائر السفن التي تم بناؤها في ميناء السويس منذ عدة سنوات إلى جانب «اليمن» و«عدن» تحت قيادة «خادم سليمان باشا» أمير أمراء مصر لإمداد «بهادر شاه» الذي كان سلطان ممالك «كجرات»[1] من ملوك الإسلام، وكان قد عهد إلى حضرة الـ «قبودان باشا» بإرسال بقية اللوازم والمهمات مع عشرين قطعة من سفن الأسطول الهمايوني، وكُلف «محمد خان» من عشيرة «ذو القدرلو» الذي كان أمير أمراء «أرضروم» والذي أصبح فائق الأقران بانفصاله عن القزلباش وتقبيله ذيل ثوب السلطان عندما تشرف بالنزول أول مرة إلى مدينة «سلطانية»، كلف بحماية وحراسة ورقابة وصيانة هذا الجانب؛ حيث أُرسل إلى هناك، وكلف أمراء «روم» و«ديار بكر» بصرف ما في وسعهم في حماية إيالاتهم، وكُلف «أبناء رمضان» وأمراء «قرمان» و« أدنة» و«إيچ إيل»[2] بحماية مناطقهم، وأقام «ولي بك» أمير سنجق «سيس» في محمية «أنقره»، حيث كلف بحماية وحراسة ولاية الأناضول.

وأُرسل الخط الهمايوني المقرون بالسعادة إلى الشاب المحظوظ الشهزاده «سلطان مصطفى خان» طال بقاؤه من أجل بذل المزيد من الجهد والاهتمام بحماية سنجق «صاروخان»[3] الذي كان سنجقه؛ وبسبب تكليف أحد الوزراء العظام « قاسم باشا» ـ الذي كان قد أحسن عليه كيفما يشاء بإقطاعية ولاية المورة ـ بفتح قلعة «أنابولي» وهي من أعمال «ونديك»، كان يقيم تجاه القلعة المذكورة منذ عام أو عامين، وكان قد بدأ مقدمات الفتح والاستيلاء عليها، فإنه نظرًا لعدم قدرته على فتح القلعة في ذلك الوقت، عين له [أي لقاسم باشا] قدرًا من جند الإنكشارية وبعض الجنود.

---

(١) وهي مملكة كبيرة في غرب الهند وتقع عند ساحل بحر عمان .
ـ قاموس الأعلام : ٥ / ٣٨٢٦ .
(٢) يقع في الساحل الجنوبي للأناضول.
ـ قاموس الأعلام : ٢ / ١١٢٨ .
(٣) هو أحد السناجق الخمسة التي تشكل ولاية «آيدين».
ـ قاموس الأعلام : ٤ / ٢٩١٣ .

وكلف «فرهاد باشا» أمير سنجق «آيدين إيلي»[1] بحماية إستانبول، كما كلف «محمد باشا» أمير أمراء الروم إيلي بأن يجمع عسكره ويحتشد بجوار «فلبه»، وأرسل إلى أمير أمراء الأناضول «خسرو باشا» الأخ الأكبر للمرحوم «لالا مصطفى باشا»، الجاوشية بسرعة لإبلاغه بضرورة أن يعبر بعسكر إيالته من معبر «گليبولي» ويلتقي بالجيش الهمايوني، واتفق أنه في الوقت الذي اكتملت فيه كل الاستعدادات التي تليق بشرف السلطنة، وأثناء التوجه السلطاني المحفوف بالعظمة انتقل الوزير «مصطفى باشا»، بتقدير العلي القدير، من دار الفناء إلى دار البقاء، وبسبب هذا أحسن بحسب الطريق المتبع في تولية المناصب بمنصب الوزارة التي انحلت عن «مصطفى باشا» على «محمد باشا» أمير أمراء الروم إيلي، وبولاية الروم إيلي على «خسرو باشا» أمير أمراء الأناضول، وبولاية الأناضول إلى «رستم باشا» أمير أمراء «ديار بكر»، وبديار بكر إلى «بالي باشا» أمير أمراء «أرضروم»، وعُهد بمكانه إلى «حسين باشا» أمير أمراء «حلب»، وتمت هذه السلسلة الجليلة من تغيير الوظائف على هذا النحو، وبعد ذلك خرج السلطان عالي الجاه للحملة بالعزة والإقبال مصطحبًا إلى جواره في هذه الحملة التي آثارها النصر، ابنيه الاثنين العظيمين الشأن [يعني سلطان سليم وسلطان محمد خان] طال بقاؤهما، حيث تفضل حضرة السلطان بشرف النزول إلى «أدرنه» المحمية يوم عشرين من الشهر المذكور.

الاستيلاء على ولاية البصرة وإخضاع وإطاعة حاكم تلك الولاية

سنة ٩٤٥ هجرية[2]، بداية لما فتح حضرة السلطان صاحب الفتوحات بغداد «دار السلام»، في البداية أظهر حاكم ديار البصرة الأمير راشد بن مقاس - الذي كان أجداده من الملوك الذين تقرأ الخطبة وتضرب السكة بأسمائهم في تلك المملكة منذ زمن

---

(١) يقع هذا السنجق في ولاية «آيدين» وهي واحدة من أكبر وأهم الولايات العثمانية في الأناضول.
- قاموس الأعلام: ١/ ٥١٢.

(٢) الموافق سنة ١٥٣٨ - ١٥٣٩م.

طويل - الإخلاص والطاعة لحضرة السلطان؛ حيث أُجريت المراسلات والمكاتبات بين الطرفين، وبعد ذلك تصرف السلطان بسلوك حسن مع أمير أمراء بغداد، وفي النهاية أرسل الأمير راشد ابنه المعروف باسم «مانع» ووزيره «مير محمد» وقاضي عسكره إلى حضرة السلطان.

وكان قد ضم مفاتيح «البصرة» إلى تلك الهدايا التي تتكون من: الخيول البدوية الظريفة وذات الأصل العربي، والأقمشة المتعددة الأنواع والصدف واللؤلؤ والمرجان عالي القيمة، والعمائم القندهارية والأقمشة الهندية المزركشة بالذهب، والمتعددة الأنواع، والأشياء القديمة المتعددة، والعطور والبخور والعنبر والمسك، وأهدى هذه الأشياء كلها إلى الركاب السلطاني، وقد أُكرم القادمون من عند «الأمير راشد» في الديوان الهمايوني بمقتضى شرف السلطان في يوم سبعة وعشرين من الشهر المذكور [شهر صفر]، وتشرفوا بتقبيل قدم الركاب الهمايوني السلطاني، وقد أُحسن على «أمير راشد» بحكومة البصرة ثانية بلقب «إيالة»، وتفضل حضرة السلطان بالسماح للسفراء بالانصراف إلى جانب «البصرة» بعد أن تشرفوا «بالبراءة الهمايونية» والسنجق[1] المقرون بالسعادة وبأنواع الالتفات والخلع.

ذيوع خبر توجه السلطان إلى ناحية «قره بغدان»

كان حضرة السلطان حامي الخلافة يعمل حتى ذلك الوقت بموجب مضمون المثل القائل: «استر ذهابك»، حيث كان يخفي ويستر توجهه إلى أي جانب، ولم يطلع أي شخص على مقصده، واعتبارًا من هذا اليوم أصبح واضحًا أنه سيذهب إلى «قره بغدان» حيث أرسل الجاوشية إلى أمراء «سلستره» و«نيكبولى» و«ودين» حتى يقيموا جسرًا في المكان المعروف باسم «إيساقجى» وأرسل السعاة بالأحكام المؤكدة إلى كل جهة حيث تم التنبيه والتأكيد على ضرورة جمع الجنود الذين شعارهم النصر.

(١) المقصود بالسنجق هنا: العلم أو الراية.

وقد تحرك حضرة السلطان تحفه العزة من «أدرنه» في اليوم الثامن والعشرين من الشهر المذكور [شهر صفر]، وعندما نزل إلى المكان المعروف باسم «سلطان جايري»، قدم عليه الكافر الذي كان يعمل كرئيس بوابين لـ«بتره ويوده» أمير «بغدان»، والملعون الذي كان ترجمانًا له وقدما له بعض الهدايا، ولما علموا أن عزيمة السلطان ستكون موجهة إليهم، رجوا العفو عن الذنب الذي ارتكبه أميرهم، وأوضحوا له بأن أميرهم تعهد بأنه سيمتثل للأوامر الهمايونية بعد اليوم، وقد استُجيب لمطالبهم وأُرسل معهم «سنان چلبي» محافظ «كفه» نظرًا لأنه كان واقفًا على أحوال تلك الديار، وكان رجلًا من أرباب البصيرة وأصحاب الخبرة، وقد أرسلوا بالجواب الذي جاء فيه: «لو أعلن الأمير الطاعة وأتى وقَبّلَ تراب بلاط حامي العالم، وتعهد بالطاعة والانقياد بعد اليوم، سيُعفي عن ذنبه وذلته وعفا الله عما سلف».

وبعد ذلك لم يسترح سلطان الربع المسكون في أي موضع لمدة يومين، وتفضل حضرة السلطان بالنزول إلى ميناء «إيساقجي» يوم اثنين وعشرين ربيع الأول[1] وكان أمير سنجق «سلستره» قد أنهى أمر بناء الجسر، وتم إقامة الجسر على أساسات محكمة جدًا حتى أصبح لا يدانيه أحد من الجسور التي أسست حتى ذلك الوقت، كما أن العسكر التي تم جمعها في هذه الحملة المكللة بالنصر، لم تكن قد جُمعت في أي حملة أخرى أيضًا، وتم عبور الكوبري خلال يوم أو يومين، وجاء «سنان چلبي» المذكور ووصل إلى هذا الموضع، حيث أبلغ حضرة السلطان أنه التقى اللعين المذكور في المدينة المعروفة باسم «ياش بازاری»[2] وأنه أخبره بأمر السلطان المطاع في العالم، فإنه امتنع عن إعلان الطاعة، بل إنه راح يدبر لاختراع حيلة أو مفسدة من أجل أن يلتقي مع عساكر الإسلام الذين يشبهون كوكب «الثريا» في الكثرة، وأنه لم يدل إليه بحوار شاف، وبعد ذلك نزل السلطان مع جيشه إلى قرب النهر الكبير المعروف باسم «بروت». وكان قد

(١) الموافق ١٨ من أغسطس ١٥٣٨م.

(٢) وهي مقر إمارة البغدان في رومانيا وتقع شمال شرق «بكرش» بحوالي ٣٢٥ كيلو مترًا. ـ قاموس الأعلام: إستانبول ١٣١٦، ٦ / ٤٧٨٣.

كلف حضرة الوزير صاحب التدبير «لطفي باشا» ببناء جسر في ذلك المكان، وكان قد أتم الوزير ما كُلف به في زمن وجيز، وبدأ العسكر المكللون بالنصر في المرور والعبور إلى الشاطئ الآخر ليل نهار.

انهزام بعض كفار «الفرنك» أو الفرنجة في محاصرة «بروزه»

جاء سعاة «حسين شاه بك» أمير سنجق « قارلى إيلى» في المكان المذكور، وأخبروا بأن الكافر الذي كان جنرال «ونديك» جاء بثلاث وثمانين قطعة سفينة صغيرة وكبيرة، ووصل إلى قلعة «بروزه» الموجودة على حدود السنجق المذكور، وهجم على القلعة عدة مرات بالسلالم الكثيرة، وفي النهاية، أخرج المدافع من أسطوله وأقام المتاريس في موضع أو موضعين وبدأ في ضرب القلعة، وعلى هذا يقوم «حسين بك» المشار إليه بجمع الجنود من تلك الأطراف ويهجم عليهم ويوقع الهزيمة بالملاعين الذين كانوا يحتمون في تلك المتاريس، فركبوا سفنهم طوعًا أو كرهًا؛ طلبًا للفرار، ولما أرسل «حسين بك» الأسرى الذين أخذهم مع أعلامهم إلى حضرة السلطان وعرض عليه ما جرى؛ فرح عسكر الإسلام كثيرًا، كما سُر السلطان صاحب السعادة الذي نهايته النصر دائمًا سرورًا عظيمًا، وعدّوا هذا مقدمات للفتوحات.

قدوم خان التتار مع العسكر الجرارة أعني «صاحبگراى خان» والتحاقه بالجيش الهمايوني

كان ذلك في السنة نفسها، كان قد أُرسل من قبل الأمر السلطاني المطاع في العالم إلى جناب «صاحبگراى خان» وكان قد نُبّه عليه بأن يتواجد في هذه الحملة المأثورة بالنصر، فأتى إلى الموضع المذكور، وتفضل بالنزول قرب الجيش الهمايوني، وفي اليوم التالي، عبر النهر المذكور [نهر بروت]، وبعد أن نظم موكبه بأبناء الخانات وبأبناء الملوك وبالأمراء الكرام، جاء وصدر الأمر بأن يتشرف بشرف تقبيل يد السلطان.

وفي الصباح الباكر قام بتنظيم العساكر الجرارة التي آثارها النصر طوابير على اليمين واليسار، كما اتخذ سعادة سلطان المكان والزمان مكانه بينهم مشعًا الضوء اللامع

كالشمس، ووقف أمام أبنائه أصحاب المكانة الرفيعة ووزرائه الذين يتميزون بلقب «آصف» وجملة الأعيان والأركان، كلٌ في مكانه المحدد له، كما قام الكبراء الذين في مرتبة أمير أمراء الغزوة وأمراء السناجق مع جندهم قاموا بترتيب الجيوش في نظام كامل وفقًا للقواعد المتبعة عند العثمانيين.

وكانت تسير إلى الأمام عربات المدافع والطوبجية وسائقو العربات المسلحون يرتدون الزي الكامل، وكانت تسير خلفهم وحدات الإنكشارية، وفي البداية لمّا تم العبور من جسر «طونه»، أُمر بسنجق[1] الإنكشارية، والقائمين بأمور الطبل والنقارة أن يسيروا خلف مفخر الأعيان «أحمد أغا» زِيدَ مَجْده الذي كان أغا الإنكشارية، وعلى هذا النحو كانوا يمرون في نظام كامل، وعندما أتوا إلى الموضع الذي وقف فيه الخان عالي الشأن للسلام، ضُربت ثلاث نوبات بالبنادق، ثم ثلاث نوبات بالمدافع فأحاط العالم في ذلك الوقت ضوضاء عظيمة حتى عض كل شخص شفتيه من الدهشة، وبصفة خاصة كانت قد استولت الدهشة التامة على طائفة التتار الذين لم يشاهدوا العادات العثمانية على هذا الطراز من قبل حتى ذلك اليوم، وذهبت عقولهم واستولت عليهم الدهشة والحيرة.

وبعد ذلك ظهرت طلائع وحدات التتار وقت شقشقة الطيور حيث وقفوا في الجانب الأيمن أمام أبناء الأمراء وأبناء الخان وانتظروا قدوم حضرة السلطان، ولما وصل السلطان تجاههم، سلموا عليه، وبعد ذلك تمت دعوتهم، وعندما اقتربوا منه صاروا في غاية السعادة بحديث السلطان معهم، وبعد ذلك ودَّعوه وذهبوا إلى موضعهم، وفي هذا اليوم انعقد الديوان الهمايوني وقت العصر، ووصل أمير أمراء الروم إيلي مع بعض أمراء السناجق معًا وقد دعوا كل أمراء التتار وأبناء الأمراء مع الخان وأحضروهم إلى هذا الاجتماع، وهناك تشرفوا بشرف تقبيل يد السلطان، وقدموا له الهدايا القيمة، وغُمروا كما ينبغي بأنواع النعم السلطانية، حيث أُكرموا وأُنعم عليهم بالضيافة السلطانية.

(١) المقصود بالسنجق هنا: هي الراية أو البيرق؛ أي الجنود الذين يقفون تحت هذه الراية وهي راية الإنكشارية.

تحديد أراضي «كلى» و«آق كرمان» وتعيين والٍ جديد عليهما وإلزام كفار «بغدان» بالجزية

وفي هذه الأثناء كان والي «بغدان» الملعون قد احتمى مع عدة آلاف من المشركين بالجبل الوعر المعروف باسم «بوطشان»، وأحكم تحصين أطراف ذلك المكان والطرق ومجاري السيول بإنشاء موانع ومتاريس، وكان قد أيقن أن المواجهة بين الطرفين لا بد وأن تكون في هذا المكان، لكن أمر السلطان صاحب السعادة وحامي العالم، الجند المسلحين بالفأس من جند الأفلاق بأن يفتحوا طريقًا واسعًا في هذا الجانب، وبهذا لم يكن هناك أي مانع لعبور عسكر الإسلام، ولما أصبح الوضع على هذا النحو، بادر الملعون بالهرب سرًا من طريق سري دون أن يدري العسكر، وانشغل جنده أيضًا بإنقاذ أهلهم وأولادهم، وراح كل واحد منهم إلى ناحية، وفي هذه الأثناء، أُحرقت مدينة «ياش بازارى» حيث سويت بالتراب، وكُلف غزاة «سمندرة» وفرقة من عسكر التتار بتعقب الملعون المذكور.

وبعد ذلك، حط السلطان صاحب السعادة رحاله عند مدينة «سنجاو» التي كانت دار ملك الولاية المذكورة [بغدان]، وكان قد اختفى جميع أهلها؛ لخوفهم من عسكر الإسلام، ثم تفضل السلطان صاحب السعادة وحامي العالم بالإحسان بالأمان على كل أهالي «بغدان»، وأمر بمجيء جميع أمرائها وأبناء أمرائها وأعيان النصارى ورهبانها وقساوستها إلى البلاط حامي العالم على مدى أربعة أيام، ولما أحاط السلطان علمًا بأن ممتلكات «بتره ويوده» ـ الذي كان قد أعلن العصيان ثم فر ـ موجودة في القصر الذي كان في المدينة المذكورة، كُلف «حسن أغا» رئيس الإسطبل الكبير بالبحث والعثور على هذه الأشياء، فأخرج الأواني الفضية والذهبية المتعددة والصلبان المرصعة والمنمقة والسيوف المرصعة، وأيضًا السيوف من نوع الشيش واللؤلؤ المرصع بالذهب وبصفة عامة فقد أخرج أمتعة متعددة ومجوهرات وأقمشة، وكانت هذه الأشياء أكثر من أن تُعد أو تُحصى وقد تمت مصادرة كل هذه الأشياء للخزينة العامرة، وجاء أعيان ولاية البغدان

وأمراؤها الذين أعلنوا خالص عبوديتهم للسلطان، وأقسموا بالأيمان على صلبانهم، وأعلنوا أنهم سينصاعون ويخضعون لكل ما يأمر به السلطان، وفي هذه الأثناء، رجوا أن يُعين «إستفان ويوده أوغلو جتنه» واليًا عليهم، وتم قبول طلبهم بشرط دفعهم الجزية.

وكانت هناك خلافات كثيرة حول تحديد حدود قلاع «كلي» و«آق قرمان» وحتى يتم حل هذه الخلافات، أخذ قدرًا من الأراضي من وسط ولاية «البغدان» ووضعت كمنطقة فاصلة بين القلعتين تمتد من نهر «بروت» سالف الذكر من طرف «آقرمان» حتى نهر «تورلى» الواقع تجاه مدينة «قليج»، وتم التقرير والالتزام بهذا الحل بشرط بناء قلعتين على جانبي الحدود المذكورة، والانصياع لأي أوامر عُليا أو فرمانات همايونية بخصوصهما، وأن يأتي الوالي بنفسه إلى الآستانة السعيدة مرة كل عامين محضرًا معه خراج مملكته، وقد أُعطيت البراءة الشريفة إلى الوالي وأُلبس العمامة الحمراء والعمامة الذهبية والخلع الخسروانية على غرار العادة القديمة للعثمانيين، ثم وصل الوالي بعد ذلك إلى مدينة «سنجاو» التي كانت عاصمة «بغدان» حيث استُقبل بالطبل والنقارة وبالأعلام والسناجق على عادتهم القديمة، وقد دخلت في هذا اليوم ولاية «بغدان» تحت حكم الممالك العثمانية، وفي ذلك المكان أُذن للعسكر التتار بالانصراف، وجاء الخان مع كل أعيانه وأشرافه إلى الحضرة السلطانية حيث أُكرموا بالخلع الفاخرة ووقروا واحتُرموا كما ينبغي، ثم اتجهوا بعد ذلك إلى عاصمة مملكتهم، ومن قبل كان قد أتى سفير الملك الضال ملك «له» وكان موجودًا في الجيش الهمايوني، فأُعطيت له الرسالة السلطانية وأعيد إلى مَلِكِه، ولما كان هناك احتمال أن يكون والي «البغدان» ـ الذي هرب قبل ذلك ـ قد ذهب إلى جانب «بودين»، أرسل جاويشًا برسالة همايونية إلى «يانوش قرال» ملك «بودين» للقبض عليه، وبعد ذلك قفل السلطان عائدًا من «سنجاو» في اليوم الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر[1]، ولما أتى إلى الجسر العظيم الذي كان يقع بالقرب

---

(١) الموافق ٢٢ من سبتمبر ١٥٣٨م.

من «إيساقجى»، كان ينتظر في هذا المكان السعاة الذين قدموا من الأسطول الهمايوني وسائر الممالك السلطانية، وقد أبلغ هؤلاء الكثير من الأخبار السارة، ثم تفضل حضرة السلطان بشرف النزول إلى دار الخلافة «أدرنه» المحروسة في اليوم التاسع والعشرين من شهر جمادى الأولى[1].

خلاصة الأمور التي تعرض لها الأسطول الهمايوني

لما أصبح مقررًا توجه السلطان صاحب السعادة والمقرون بالظفر إلى تلك الحملة، كان قد تم إعداد الأسطول الهمايوني بصورة كاملة، وعُهد به إلى القبطان الغازي «خير الدين باشا» وعين لهذا الأسطول الهمايوني أولًا ثلاثة آلاف من جند الإنكشارية المدججين بالسلاح، كما عين أمير سنجق «قوجه إيلي»[2] «علي بك»، وأمير سنجق تكه «خرم بك»، وأمير سنجق «صيدا» «ديكر علي بك»، وأمير «علائية» «مصطفى بك»، وجميع أمراء السناجق مع عسكرهم.

وتوجه هؤلاء جميعًا في اليوم التاسع من شهر صفر المظفر سنة خمسة وأربعين وتسعمائة من «خليج قسطنطينية» صوب الغزوة في ثلاثمائة قطعة سفينة نادرة النظير، ووصلوا إلى القلاع التي كانت أوكارًا للكفار في جزر «إستنديل» و«أندره» و«سيرقو» من جزر «ونديك»، فأعلنت جزيرة «إستنديل» الطاعة والإذعان، وتعهدت بأن تسلم كل سنة ثلاثة آلاف وثلاثمائة سكة إفرنجية إلى الخزينة العامرة، أما الجزيرتان الأخريان فقد فر أهلهما، وتم نهبهما وتخريبهما، وبعد ذلك اتجهوا إلى جزيرة «كريد» وقبضوا على سفينتين كبيرتين كانتا تذهب من قلعة «قندية» من قلاع جزيرة «كريد»، وعندما هجموا على القلعة الحصينة المعروفة باسم «ميلو سومو» في المنطقة نفسها، فر أهلها، وعلى إثر ذلك قام الغزاة بنهب قلعتهم وتخريبها وعشرين قرية كانت تابعة لهم في هذه الجزيرة، وبعد

---

(١) الموافق ٢٤ من أكتوبر ١٥٣٨م.

(٢) يقع هذا السنجق شمال غرب الأناضول.

ـ قاموس الأعلام: ٤ / ٣٧١٤.

ذلك وصل الغزاة إلى قلعة «إيارقوتو»، وعلى إثر فرار أهل تلك القلعة أيضًا، قام الغزاة بنهب ثلاثمائة قرية في تلك الأطراف، ثم نهبوا قلعة «إستبيد» والحصون العالية المعروفة باسم «إسقلايه» و«إستيلو» وتوابعها وقراها، ثم أتوا بعد ذلك إلى جزيرة «كريد»، وعلى إثر فرار أهالي الثلاث قلاع التي كانت في تلك الجزيرة ولجوئهم إلى الجبال، قام الغزاة بنهب تلك الجزيرة على مدى خمسة أيام، وقبضوا على الأهالي الذين كانوا قد فروا.

ولما وصلوا بعد ذلك إلى ميناء «رودس»، ثم إلى جزيرة «إستانكوى»، جاءت إليهم الأنباء بأن أسطول الكفار يتجول في الميناء القريب، وأنه يتشكل من أكثر من ثلاثمائة سفينة مرسلة من طرف البابا والبندقية والفرنجة و«إسبانيا»، فقام القبطان الغازي «خير الدين باشا» باتخاذ التدابير اللازمة، حيث نصب بعض الكمائن بالقرب من قلعة «بيروزه»، واختار عددًا من السفن القوية والمحكمة من الأسطول، وبينما كان يضعها في بعض المواضع خلف الصخور، واضعًا نصب عينه احتمال إخراج الكفار جندهم إلى هذا المكان، جاءت بعض سفن الكفار الكبيرة، ولكن لما كانوا قد علموا بالتدابير المتخذة، صرفوا النظر عن إخراج العسكر إلى البر، وألقوا بمرساة سفنهم في مسافة تبعد عشرة أميال عن «بيروزه»، إلا أن القبطان «خير الدين باشا» يتحرك متوكلًا على الله تعالى ومتوسلًا إلى روح رسول الله عليه السلام، فتقرع الطبول ويلقى بمرساة السفن على مسافة تبعد سبعة أميال من «بيروزه» تجاه الكفار، ثم انتظر حتى تتجمع كل السفن، ولكن اضطر إلى تأخير القتال إلى اليوم التالي نظرًا لحلول المساء وهجوم الظلام عليهم.

وفي تلك الليلة وبينما كانت سفن الحراسة من نوع «القايق» و«القادرغة» لكلا الطرفين تقوم بمراقبة بعضها البعض يتحرك الكفار بسفنهم في نصف الليل بلا صوت أو صدى، حيث أدركوا أن الفرار هو سبيل النجاة وذهبوا مختبئين خلف حجاب الظلام، ولما أبلغت سفن الحراسة هذا الخبر، أسرع القبطان باشا بتعقبهم بالغزاة المؤيدين بالنصر، فإنه لم يستطع أن يعثر على أي إثر لهم أو يحيط بأي خبر عن هؤلاء الملاعين، وفي اليوم التالي الذي كان يوافق يوم الجمعة صعد المراقبون على صواري السفن في وقت السحر، وأخبروا بأنه شوهدت بعض السفن بناحية «كفالونيه»، وفي الحال توجه الغزاة إليهم.

وبعد ذلك علم الكفار أيضًا بأن الغزاة يتقدمون نحوهم، فرتبوا طوابيرهم ونظموا سفنهم صفوفًا، وانزووا مع اتجاه الرياح، وذهبوا، أما الغزاة فلم يمهلوا الأعداء الفرصة وهجموا عليهم، ومن حكمة الله تعالى أن الريح قد سكنت وأصبحت سفنهم الصغيرة تحتاج إلى سحب سفن القادرغة لها، ووصل الغزاة أيضًا إلى هذا المكان وأطلقوا المدافع على الكفار، وكان القبودان الكافر المعروف باسم «أندريه دورى» في مؤخرة السفن مع سفينته الفائقة من نوع «قادرغة»، وكان يهرب تحت ستر النيران المتبادلة مع الغزاة، وفي النهاية، لما علم أنه لا يستطيع المقاومة، رجح الفرار مع «قادرغته»، وانزوت سائر السفن من ميدان المعركة، وذهبوا متتبعين إثر قائدهم، حتى إنهم أطلقوا مدافع سفنهم من نوع «قادرغة» على سفنهم التي لم تستطع أن تسلك طريقها، فأصابوا معظمها، وقام غزاتنا أيضًا بإصابة بعض تلك السفن بنيران المدافع، فأغرقوا بعضها واغتنموا ما كان بداخلها.

وبحمد الله تعالى أصيب الكفار ـ الذين كانوا يتمتعون بالكثرة إلى حد ما ـ بالانكسار بينما كانوا يأتون بالادعاءات الكاذبة حول قدرتهم، وهبت رياح الظفر والانتصار على عسكر الإسلام، وأصبحت الفتوحات الجميلة التي قام بها السلطان صاحب السعادة ومبعث الوقار التي كانت في ولاية «بغدان» وهذه الغزوة العظيمة التي قام بها القبودان الغازي «خير الدين باشا» باعث سرور لجميع أهل الإسلام.

فتح ونهب وتخريب قلعة «تيره» في ولاية البوسنة

عندما استولى الغازي «خسرو بك» أمير سنجق البوسنة الذي كان أفضل غزاة الإسلام، على القلعة المذكورة التابعة لكفار «ونديك» أي البندقية والواقعة على ساحل البحر، ولّى الكفار الذين كانوا بداخلها الأدبار، وعلى إثر هذا، استولى على مدافعهم وبعض أمتعتهم القيمة، وأضرم النار في المدينة وقلعتها، وساوى أطرافها ونواحيها بالتراب، ونهبها وخربها من أولها إلى آخرها.

وفي هذه الأثناء، جمع جنرال قلعة «زادره» وكانت من أعظم حصون «ونديك» المخذولة في ذلك الجانب والتي كانت مشحونة بالكفار، جمع عدة آلاف من الملاعين من قلاع «إسبلت» و«أتره» ومن سائر القلاع المنحوسة ومن الأسطول، وأتى بهم إلى ذلك الجانب على أمل أن يستولي على قلعة «كليس»، فنصب الكمائن في عدة أماكن ليلًا، وبينما كان يتحين الفرصة علم الغازي «مراد بك» أمير «كليس» بتدبير الكفار هذا من قبل، فطلب المدد والمساعدة من «خسرو بك» المشار إليه، ولما أمد «خسرو بك» الغازي «مراد بك» أمير «كليس» بقوات كافية، وقع الكفار أنفسهم في كمائن المسلمين، وبفضل الله تعالى أصبح معظمهم طعمًا لسيف الغزاة كما أُسر الملعون الذي كان في منصب رئيس سوارية قلعة «زادره»، واستولى الغزاة على الغنائم الوفيرة.

وبعد هذا ولما توجه الأمير المشار إليه «خسرو بك» إلى ناحية «غراد شقه»[1] قام الكفار بجمع خمسة أو عشرة آلاف ملعون قائلين في أنفسهم: «هذه هي الفرصة»، وخرجوا من «زادره» بالمدافع وحاصروا قلعة «نادين»، وبينما هم في وجهتهم هذه على أمل أن يحققوا النصر، عاد «خسرو بك» من «غراد شقه»، وجمع بسرعة عسكر الحدود إلى جانبه، وبمجرد أن وصل إلى مسامع الكفار أن «خسرو بك» سيحمل عليهم، عادوا في الحال؛ حيث رأوا أن الوصول إلى قلاعهم بالسلامة هو عين الغنيمة، وجاء المشار إليه «خسرو باشا» ونزل أمام قلعة «زادره» وأرسل قدرًا من الغزاة مع الغازي «مراد بك» أمير «كليس»؛ حيث أوقعوا الملاعين في الكمين، وبفضل الله تعالى، قضوا على كثير من الكفار بالسيف، ووفقوا في تحقيق انتصار عظيم؛ حيث قيدوا رئيس السوارية المذكور بالسلاسل من رأسه، كما قيدوا الكثير من أعيان الكفار أيضًا، وجمعوا الآذان والأُنوف في الحبال كعلامة تدل على الرءوس المقطوعة، وأرسلوها إلى باب الدولة أي العاصمة. وهكذا فاز الغزاة بدعاء السلطان، حيث أُكرموا وأُنعم عليهم بالخُلَع الفاخرة.

---

(١) تقع على الساحل الأيمن من نهر «صاوه» في البوسنة.
ـ قاموس الأعلام: ٥ / ٣٢٥٨.

استرداد قلعة «نوه» في لواء الهرسك

في ٩ من ربيع الآخر سنة ٩٤٦ هجرية[1]، عندما قام الكفار الذين مأواهم النار، والذين كانوا ضمن الأسطول المأثور بالهزيمة، بالحرب والقتال ضد الغازي «خير الدين باشا»، بينما كانوا يهربون ويتراجعون بالهزيمة والانكسار، توجهوا صوب قلعة «نوه» المذكورة والواقعة على ساحل البحر وحاصروها، فوصل «بالي بك» أمير سنجق «الهرسك» مع عسكر سنجقه، وعلى الرغم من قيامه بما في وسعه لدفع عادية الأعداء، وإنقاذ القلعة، فإنه لم يستطع إدخال الجند إلى القلعة؛ نظرًا لأنها كانت محاصرة، وكانت أعمال أهالي القلعة المذكورة السيئة وهجومهم وتعديهم على الرعايا الذين كانوا يعيشون في أطرافها وجوانبها؛ سببًا لجزائهم من عند الله تعالى حيث دخل الأعداء القلعة في اليوم الثالث وقتلوا جميع المسلمين الذي كانوا بداخلها.

ومن حكمة الله تعالى أن أحوالهم الآن في هذه الأيام، الموافقة لتاريخ ١٠٥٠ هجرية كانت أسوأ ألف مرة مما سبق، فهل ذلك كان بتأثير أرض تلك المملكة أم هناك ما سيأتي على رءوسهم جزاءً لهذا من جانب الحق تعالى؟ وبينما لم تكن هناك مصيبة أشد من قتل بعضهم لبعض، فإنهم صاروا يَقتلون ويُقتلون بلا سبب ولم يتم محاكمتهم أو القصاص منهم، وحتى إذا توجه أمراؤهم إلى قلاعهم، فإنهم كانوا لا يتدخلون بينهم، ولو أرادوا أن يتدخلوا ويقضوا بالحكم، فإنهم يحكمون عليهم بأنهم أشخاص سوء ويطردونهم.

وصفوة القول، عندما وصل إلى مسامع السلطان أن القلعة المذكورة قد سقطت في أيدي الكفار، أرسل أمير أمراء الروم إيلي «خسرو باشا» إلى «صوفيه»، وأمره أن يتوجه إلى القلعة في أول فصل الربيع، ولما حان موسم البحر، أرسل الغازي «خير الدين باشا» بالأسطول الهمايوني، وبفضل الله تعالى لم يمهلوا الأعداء أي فرصة وفتحوا القلعة.

---

(١) الموافق ٢٤ من أغسطس ١٤٣٩م.

حفل ختان الأمير السلطان بايزيد المملوء بالحبور

في ١٥ من رجب سنة ٩٦٤ هجرية[١]، لقد تم تنظيم وتزيين الميدان المعروف باسم «آت ميداني» الذي كان ميدانًا مخصصًا لإقامة الحفلات منذ القدم، ثم دُعي كلٌ من أمير أمراء «الأناضول» و«قرمان» إلى الآستانة السعيدة من أجل خدمة الحفل، وقُدمت الضيافات الكثيرة جدًا إلى «لطفي باشا» الذي كان وزيرًا أعظم في تلك الآونة، وإلى الوزير الثاني «سليمان باشا» و«محمد باشا» و«رستم باشا» وأمير أمراء الأناضول «ديكر سليمان باشا» وأمير أمراء قرمان «فرهاد باشا» وسائر الأعيان ورجال الدولة وعموم أهل الديوان، كما شوهد أهل الفكاهة، وأنواع الفنانين على غرار ما كان يجرى في حفلات ختان سائر أبناء السلاطين، واستمر الحفل ثلاثة عشر يومًا وكانت الضيافات والمسرات في الماضي تستمر لأربعين يومًا وقد اختصرت وقت الاحتفالات في هذه المرة بمساعي الصدر الأعظم، ومع أنهم كانوا يحملون هذا الاختصار في وقت الحفل على كسل «لطفي باشا»، فإنه ليس هناك شك في أن ذلك تم «من عند الله تعالى» لمواجهة الشهزاده أي الأمير ابن السلطان الذي أعلن العصيان على والده.

فتح ولاية اليمن وعدن وتوجه الوزير «سليمان باشا» بالأسطول الهمايوني إلى جانب الهند وميناء «ديو» و«دامن»[٢]

في أواسط المحرم الحرام سنة ٩٤٥هجرية[٣]، إنني هذا الحقير قليل البضاعة لما كنت قد قرأت هذه الفتوحات والتوجه إليها بصيغة مختصرة في بعض التواريخ، فإنني لم أستطع أن أقف على حقيقة الأمر، إلا أنني بعد ذلك وقفت على هذه الحقيقة من الإثر التاريخي الذي تناول الغزوات الجليلة للسلطان صاحب السعادة حتى سنة

---

(١) الموافق ٢٦ من نوفمبر سنة ١٥٣٩م.

(٢) يقعان في منطقة «سوراته» بالهند.

ـ قاموس الأعلام: ٣/ ٢٠٩٩.

(٣) الموافق أواسط يونيه سنة ١٥٣٨.

٩٤٦هجرية[١]، ولكن مؤلف هذا الكتاب غير معلوم الاسم؛ لأن رجلًا ظالمًا كان قد سكب الحبر على المكان المكتوب فيه اسم المؤلف في الكتاب، ولكن حسبما استُدل عليه مما كتبه أنه كان رجلًا من أهل العلم وكان ماهرًا في علم التنجيم بصفه خاصة، وتفصيل ذلك هو أنه على الرغم من أن «سليمان باشا» كان رجلًا خادمًا وملتحيًا فإنه كان عظيم الهمة والشجاعة التي بلا نظير، وكان رجلًا عظيمًا ومدبرًا حكيمًا، حتى إنه كان لديه نحو ألف خادم من ذوي الأحزمة الذهبية والمسلحين بالخناجر، وكانوا أبطالًا مدربين وشجعانًا أصحاب قوة صارمة وكان «سليمان باشا» يفتخر في كل وقت بخدمه هؤلاء وبحبهم واحترامهم له.

ولما توجه الوزير الأعظم «إبراهيم باشا المقتول» إلى مصر، وعند مغادرته لها يقوم بإسناد «إمارة أمراء مصر» إلى «سليمان باشا» الذي كان أمير أمراء الشام، وقد استمر أميرًا لأمراء مصر لمدة عشر سنوات بالتمام، وكان «سليمان باشا» يسعى دائمًا لفتح اليمن وعدن، فأذن له السلطان صاحب السعادة بذلك؛ حيث يرسل إليه سنة ٩٣٧هجرية[٢] أدوات ومهمات السفن التي سيتم بناؤها في السويس بستين سفينة، وعلى هذا النحو يقوم «سليمان باشا» ببناء وإعداد نحو ثمانين قطعة سفينة في ميناء السويس بعضها من نوع «قادرغة» وبعضها الآخر من نوع «بارچة» و«ماوونه» وفرقاته.

وبعد ذلك، عُهد بإمارة أمراء «مصر» إلى «ولي خسرو باشا» أثناء حملة «بغداد» وصدر الأمر بأن يلتحق «سليمان باشا» بالحملة الهمايونية أي بحملة بغداد ومعه خزينة مصر، وبعد تلك الحملة أي حملة «بغداد»، بينما كان «سليمان باشا» متوليًا لمنصب الوزارة في الآستانة السعيدة، أُحسن عليه «بمصر» ثانية وذلك من أجل أن ينهي هذه المهمة التي بدأها وذلك قبل مرور عامين، وفي ذلك الوقت، عطف السلطان صاحب

---

(١) الموافق سنة ١٥٣٩ ـ ١٥٤٠م.

(٢) الموافق سنة ١٥٣٠ ـ ١٥٣١م.

السعادة عنان العزيمة إلى حملة «البغدان»، ولما كان قد أُرسل القبطان «خير الدين باشا» إلى مياه البحر الأبيض بالأسطول الهمايوني، أرسلت مهمات الأسطول إلى الوزير المشار إليه «سليمان باشا» بعشرين قطعة سفينة من نوع «قادزغة»، وهكذا تم تجهيز الأسطول الموجود في ميناء السويس كما ينبغي.

واتفق في هذه الأثناء أن سلطان ولاية «كجرات» كان يمتلك سبعة أو ثمانية مواني من المواني التجارية الباقية له عن آبائه وأجداده التي كانت تقع على ساحل المحيط الهندي، وعندما جلس السلطان «باير أوغلو همايون» سلطان الهنود الذي كان والد «جلال الدين أكبر» على عرش الهند، ازدادت قدرته وقوته حيث استرد المدينة الكبيرة المعروفة باسم «قند هار» و«أكره» و«دهلى» التي كانت «دار ملك» الهند استردها من أيدي الطغاة، واستولى أيضًا على بلاد «بهادر شاه» الذي كان سلطان ولاية «كجرات» في ذلك الحين، وعلى هذا اضطر «بهادر شاه» إلى إرسال حرمه وخزينته مع وزيره إلى الحرمين المحترمين مكة والمدينة، وفي الوقت نفسه أرسل سفيرًا بالهدايا الجميلة إلى السدة السلطانية، وطلب منه المدد والمساعدة، ووصل سفيره إلى «أدرنه» سنة ٩٤٣ هجرية[١] بينما كان السلطان صاحب السعادة موجودًا بها، وتشرف السفير بتقبيل قدم العرش مصير العالم، وكانت إحدى الهدايا المقدمة، حزامًا قيمًا تقدر قيمته عند الهنود بنحو ستين «كرور»، وكانت كل «كرور» تساوى مائة ألف ذهبية، وقد نقل الكاتب الفاضل الذي لم نعرف اسمه هذا الحدث في تاريخه على لسان هؤلاء وقال العهدة على الراوي.

وبصفة عامة بينما كان «بهادر شاه» منشغلًا مع «همايون بادشاه» تارة بالمواجهة العسكرية وتارة أخرى بالمصالحة، يقوم كفار «بورتقال»[٢] بالاستيلاء على ميناء «ديو» الذي كان من أفضل مواني «بهادر شاه» حيوية، وعندما عاد «بهادر شاه» إلى عاصمته، يجد ميناء «ديو» في يد الأعداء، ومع أنه كان قد طلب المدد والمساعدة من السلطان

(١) الموافق سنة ١٩٣٦ ـ ١٥٣٧م.

(٢) المقصود بها البرتغال.

صاحب السعادة، فإنه دبر أمر الصلح مع الكفار الذين استولوا على ميناء «ديو» قائلًا في قرارة نفسه: «ربما أستطيع أن أنتصر على أعدائي بحجة الصلح»، وفي هذه الأثناء يأتي أسطول الكفار العظيم، ويدخل ميناء «ديو»، فيدبر «بهادر شاه» تدبيرًا يقضي بأنه عندما يحضر قائد هذا الأسطول بحجة الضيافة يقوم بقتله، ولكن الكفار يدبرون تدبيرًا يقضي أيضًا بأن يقومون بدعوته إلى سفنهم أو إلى القلعة التي شيدوها هناك، ثم بعد ذلك يقتلونه، وبالفعل يركب «بهادر شاه» الزوارق مع وزرائه، وبينما كان يذهب إلى مكان الدعوة، أسرع بالعودة في الحال؛ نظرًا لأنه شك في أوضاع الكفار وتصرفاتهم.

ويقول المرحوم «جلال زاده نشانجي» في تاريخه: إن «بهادر شاه» قام بقتل قائد الكفار أولًا، ثم بعد ذلك يلحق «بهادر شاه» أيضًا في هذه الأثناء بزمرة الشهداء، وما إن علم الوزير «سليمان باشا» في مصر بهذا الوضع حتى أحضر خزينة «بهادر شاه» التي كانت في الحرمين؛ نظرًا لأنه لم يكن معروفًا أي أحد من ورثته، ثم أرسلها إلى الآستانة السعيدة، وكتب «جلال زاده» في هذا الموضوع بأسلوب مبالغ فيه حيث ذكر أن هذه الخزينة التي جاءت إلى إستانبول تشمل ثمانية صناديق مغلقة ومحكمة بالرصاص مملوءة بالسبائك الذهبية الصافية وبالفضة والنقود، خلاف سائر التحف والهدايا التذكارية الأخرى، وبعد أن تم حصرها ووزنها سُلمت للخزينة العامرة .

والآن شرع الوزير المشار إليه في بذل المساعي الجليلة، حيث جمع وجهز عشرين ألف عربي من مصر والشام، وأتم بناء الأسطول بعظيم الرعاية من طوائف مصر وغيرها، ثم تحرك من ميناء السويس في اليوم الخامس عشر من شهر المحرم الحرام سنة خمسة وأربعين وتسعمائة هجرية[1] بثمانين قطعة سفينة مزدانة في صورة كاملة، وأرخى عنان عزمه إلى جانب اليمن وعدن والهند و«كجرات» وميناء «ديو» و«دمن»، وبعد أن أقام عشرة أيام في ميناء الطور، وصل إلى ميناء جدة خلال أسبوع، حيث أقام في هذا الميناء أسبوعًا آخر، وبعد ذلك تحرك من ذلك المكان وعبر من ناحية مدينة «زبيد»، ووصل

(١) الموافق ١٣ من يونيه سنة ١٥٣٨م.

إلى الجزيرة المعروفة باسم «كمراه»، فمكث هنا أيضًا بضعة أيام، حيث وصل إلى ميناء عدن في أواخر صفر المظفر، وتقع عدن على صخرة من المرمر شديد الصلابة، وكان العروج إلى أبراجها أمرًا محالًا كالعروج إلى أبراج السماء، كما كان الولوج إلى أبراجها على نفس صعوبة الولوج إلى البروج التي في السماء، فقام سليمان باشا باستمالة أمير العرب المعروف باسم «عامر بن داود» حاكم القلعة، فأصبح ميسرًا فتح القلعة بلا حرب وقتال تفاؤلًا بطالع السلطان السعيد، وأعلنت جميع الأراضي المحيطة بالقلعة الطاعة والخضوع، وأحسن بسنجق هذه القلعة على «بهرام بك» من الأمراء.

وبعد ذلك عُطف عنان العزيمة إلى ناحية الهند مع الرياح المناسبة، حيث رست السفن في غرة ربيع الأول[1]، أمام القلاع المتينة المعروفة باسم «كوله له» و«كات» اللتين في أيدي «البورتقال» الضالين بالقرب من ميناء «ديو» في مملكة «كجرات»، ثم دفع بالعسكر إلى البر وأخرجت المدافع، وعندما شن الهجوم على القلاع المذكورة، فُتحت واستولى عليها بسهولة بفضل الله تعالى، وبعد أن تم قتل حوالي ألف كافر ممن كانوا بداخل القلاع، قصد الرجل إلى ميناء «ديو» حيث أرسل رسول ومعه خطاب إلى «ملك محمود» الذي تولى السلطنة في تلك الأثناء بدلًا من «بهادر شاه» وطلب منه إرسال المواد الغذائية والمجيء بالمدد للالتحاق بجند الإسلام؛ وفي الوقت نفسه شرع في محاصرة القلاع التي شيدها الكفار في ميناء «ديو».

أما الملاعين فقد أقاموا قلعة محكمة كانت جهاتها الثلاثة محاطة بمياه المحيط الهندي، أما جهة البر فكانت محكمة بالأسوار والجدران العظيمة وبالأبراج القوية الحصينة، وهكذا أحكموها بشكل لا يمكن التفكير في أفضل منه، وبناءً على هذا أخرج «سليمان باشا» صاحب الرأي الحسن حوالي عشرين ألف جندي والمدافع المخصصة لضرب القلاع بالقدر الكافي أخرجها من الأسطول، وأقام المتاريس. وبعد محاصرة للقلعة دامت قرابة شهر صار الكفار غير قادرين على المقاومة.

---

(١) الموافق ٢٨ من يوليو سنة ١٥٣٨م.

وقد كتب المرحوم «جلال زاده» أيضًا أن «سليمان باشا» حاصر القلعة وضربها على مدى شهرين ونصف بالكامل؛ وقال أيضًا: «إنه لما قام سليمان باشا بإعدام الأمير عامر حاكم عدن بعد أن استولى عليها، خاف الأمير محمود من أن يُعاقب بمثل ذلك؛ ولذلك أعلن أنه لن يمده بالمواد الغذائية ولن يعلن الطاعة له؛ ولذلك عاتب السلطان صاحب السعادة «سليمان باشا» بسبب هذا التصرف».

ولم يستطع الكفار الذين كانوا بداخل هذه القلعة المقاومة، وفي النهاية فتح الغزاة المظفرون القلعة الخارجية، ثم بعد ذلك صرفوا جهدهم إلى القلعة الداخلية، وبينما كان سليمان باشا ينتظر قدوم المواد الغذائية من «الملك محمود» المذكور حاكم الولاية المذكورة، أجرى الملك محمود عقود الصلح المتعددة مع الفرنجة الأشقياء؛ ولم يقدم على مساعدة المسلمين؛ نظرًا لأنه كان يخادعهم بالحيل والخدع، ولم يرسل إليهم المواد الغذائية؛ وخالفهم في سائر الأمور، وبينما كان من المقرر أنه إذا أخذت المدينة، فإنها ستؤخذ من أجله ثم تسلم إليه، كان لا يدرك في أن أي خسارة تقع ستعود عليه، ولهذا السبب أحس سليمان باشا بضرورة العودة، وعلى هذا النحو، قام الغزاة بإخراج مدافعهم من المتاريس، حيث وضعوها بانتظام في سفنهم، ثم قفلوا عائدين سالمين غانمين.

وبعد أن قاموا بالغزو ثلاثة أشهر كاملة في تلك الديار البعيدة، وبعد أن أوقعوا أنواع الأذى بالكفار الذين مأواهم النار، وصلوا في اليوم العشرين إلى ميناء المدينة المعروفة باسم «شهر» التابعة لقلعة عدن، وأتى حاكم تلك القلعة إليه حيث أعلن الطاعة والانقياد له، وأصبحت تلك الديار من ضمن الممالك المحروسة، وبعد ذلك أتوا إلى ميناء قلعة عدن، ورسوا بسفنهم هناك، وبعد أن قاموا بإكمال احتياجاتهم من المواد الغذائية والمياه الكافية، أقلعوا بالسفن ودخلوا إلى المضيق المعروف باسم «باب سد»، ثم وصلوا إلى ميناء المدينة المعروفة باسم «دربند»، وكان قد استولى بعض الأراذل من الروم على تلك الديار حيث تفشت شرارة ظلمهم وجورهم بدرجة زائدة زمنًا طويلًا في تلك الديار.

أرسل الوزير صاحب التدبير عندئذ الرجال الثقات بالوعود المتعددة إلى الحقير الذي كانوا يطلقون عليه «الأمير أحمد» وكان رئيسًا للطائفة المذكورة، ودعاه إلى طاعة السلطان مقدمًا له آلاف الوعود إن هو أعلن الطاعة، والوعيد إن رفع راية العصيان، ولكن غطت غشاوة الشقاوة وحجاب الضلال عيني «الأمير أحمد» وخالف أمر الباشا وتحصن بقمم الجبال، وفي النهاية أرسل الباشا ذو الرأي الحسن، الرجال خلفه حيث استطاع هؤلاء أن يقبضوا عليه بحسن التدبير حيث قيدوه بالسلاسل وأوقعوا به العقاب المناسب.

وبعد ذلك عهد الباشا بإمارة أمراء ديار اليمن إلى المرحوم «بيقلو محمد باشا أوغلو مصطفى بك» أمير أمراء «ديار بكر» سابقًا، ثم إن الباشا مكث واستراح قرابة شهر من الزمان في تلك الديار الجميلة؛ وبعد أن نظَّم أمورها ومشكلاتها المهمة كما ينبغي، أقلع بالسفن ووصل إلى ميناء جدة المعمورة في اليوم الثاني والعشرين من شوال المكرم للسنة المذكورة[1]، ومن هناك أحاط باب الدولة علمًا بتلك الفتوحات عن طريق السعاة، ثم اتجه سليمان باشا إلى مكة المكرمة من أجل أداء مناسك الحج الشريف وأرسل الأسطول الهمايوني إلى ميناء السويس، وبعد الحج، وصل إلى مصر عن طريق البر مع سائر الحجاج، ثم اتجه صوب الآستانة السعيدة، حيث أصبح مسرورًا بشرف تقبيل أنامل السلطان، وبلغ مرامه بجلوسه في مقام الوزارة، وبعد ذلك أصبح وزيرًا أعظم بدلًا من «لطفي باشا».

في تقييم الحملة المذكورة

من المعلوم عند أرباب العلم واسعي المعرفة والإدراك أن تلك الحملة التي تمت بالمساعي الجليلة لذلك الوزير الشجاع، إنما هي منحة إلهية تمخضت عن السعي الحثيث للغاية في ظل العارفين بعلوم الخرائط وعن الهمة العالية لسلطان الإسلام، وعن العناية

(١) الموافق ١٣ من يناير ١٥٣٩م.

العالية من جناب رب العالمين، ونظرًا للمسافة البعيدة التي تفصل بين السويس وميناء «ديو» و«دامن» فقد تم العبور من السويس ثم جدة المعمورة، والخروج من باب البوغاز، وبعد ذلك عبر الغزاة إلى سواحل «عدن» المطل على المحيط الهندي حيث وصلوا إلى سواحل «شجر» و«ظفار» التي كانت تعتبر حدود أراضي اليمن، وبعد ذلك، تم عبور خليج «هرمز» الذي يمتد حتى قرب البصرة وهو بحر عظيم أوسع وأكبر من خليج السويس. ومن ثم جعل الغزاة فارس[1] و«شيراز»[2] وراء ظهورهم، ثم اتجهوا ناحية المشرق راخين عنان العزم صوب الميناء المعروف باسم «ديو» و«دمن».

وهكذا كان من الضروري فتح القلاع في تلك الأراضي البعيدة؛ فقتل الكثير من الكفار؛ حيث قام الغزاة بالنهب والتخريب والغزو قرابة شهرين أو ثلاثة في تلك الديار دون أن يلحق بهم رعب أو خوف، وحيث كان عليهم أن يبرزوا قوة وقدرة وإمكانية سلطان الإسلام ـ المعتاد النصر ـ في تلك الديار، فما أجملها همة، وما أحسنها هبة إلهية! وليتغمد حضرة الحق سبحانه وتعالى غزاة الوزير بوافر بحر الرحمة، وليسكنهم جنات عدْن، بحق الحق ونبيه المطلق.

إجمالي حملة السلطان على «أسطبور»
وتعيين أمير أمراء على «بودين»

كان التوجه لتلك الحملة في ٢٥ من صفر سنة ٩٤٨هجرية[3]، لما فتحت بفضل الله تعالى قلعة «بودين» كان قد أحسن بملكها على «يانوش قرال» أمير «أردل»، والآن على إثر وفاة الملك المذكور؛ أرسل الملك «فرديناند» ملك «بج» جيشًا عرمرم لإعانة

(١) تقع جنوب إيران.
ـ قاموس الأعلام: ٥/ ٣٣٢٤.
(٢) وهي مركز منطقة فارس بإيران تقع جنوب «اصطخر» بحوالي ٧٠ كيلو مترًا.
ـ قاموس الأعلام: ٤/ ٢٨٩٥.
(٣) الموافق ٢٠ من يونيه ١٥٤١م.

ومساعدة أخيه «قاردل» إمبراطور «نمچه» و«چه» ولإعانة ومساعدة الإمبراطور «نيقوش»، ولما لم يعد هناك ملك على «بودين» وأن «بودين» صارت تحت تصرف زوجة الملك المتوفي، استولى عليها «فرديناند» بسهولة قبل وصول الإمدادات إليها من السلطان صاحب السعادة.

ولما وصل هذا الخبر الموحش إلى المسامع الشريفة للسلطان صاحب السعادة، أصدر بلا إهمال أو إمهال الأوامر الهمايونية بخصوص توجيه أمير أمراء الروم إيلي بعسكر الروم إيلي، وحضرة الوزير الثالث «محمد باشا» بثلاثة آلاف من جند الإنكشارية، وبلوكين من جند خدم الباب مع أغواتهم إلى ديار «بودين»، وبعد أن توجه هؤلاء بسرعة بالغة، لم يتوان السلطان صاحب السعادة لحظة قط؛ حيث تحرك في اليوم المذكور عاليه، تحفه العزة والإقبال والوقار والعظمة مع الأجناد المعتادين الظفر على غرار ما كان يحدث في كل مرة قبل ذلك، ولكن وصل الوزير المومأ إليه «محمد باشا» مع جنده إلى «بودين»، قبل ركب السلطان صاحب السعادة؛ فأقام خيامه الكثيرة بانتظام تجاه الكفار الذين مأواهم النار، وهكذا سقط الكفار الصاغرون ما بين القلعة والجيش، حيث قاموا بالحرب والقتال ليل نهار، ولما كانت أعداد الكفار كبيرة، لم تتراجع فرقة منهم لحظة قط عن قتال المسلمين الذين كانوا بداخل القلعة، كما لم تتوان مجموعة أخرى عن قتال عسكر الإسلام الذين كانوا يعملون كمدد للمسلمين الذين بداخل القلعة، وكانت إحدى أطراف طوابيرهم قد بلغت حافة الجبل، حيث كان جنده من الفرسان والمشاة الذين خرجوا للقتال يديرون رحى الحرب والقتال مع جند الإسلام دون أن يبعدوا عن ستر نيران المدافع، وكانوا كلما اضطروا إلى الفرار، يلجئون إلى الطابور، فيسحبون عسكر الإسلام إلى مواقع المدافع.

وهكذا دار القتال بهذه الطريقة أكثر من شهر، ولكن كان أهالي القلعة قد أصيبوا باضطرابات كثيرة، وضاقت أحوالهم، أما حضرة حامي الخلافة، فلم يتوقف في أي منزل قط كالشمس التي تضيء العالم، حيث عبر بسرعة نهري «صاوه» و«دراوه»، وعندما اقترب من القلعة بثلاثة أو أربعة منازل، أذهلت هيبة عسكر الإسلام الجرارة

مثل النمل، الجو العام، ودب الخوف والاضطراب في قلوب الكفار المأثورين بالهزيمة، ونتيجة لهذا، لجأ الكفار سرًا إلى سفنهم بعد العشاء ليلة التاسع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٩٤٨ هجرية(١)، وما إن علم عسكر الإسلام بأن الكفار قد هربوا، وقد عزموا على العبور إلى الشاطئ الآخر لنهر «طونه»، حتى هجموا على طوابيرهم المقهورة بجسارة فائقة، وقد تزاحموا ازدحامًا شديدًا في سفنهم؛ بسبب خوفهم من جند الإسلام حتى أصبح بعض الكفار طعمًا للسيف قبل أن يرفعوا أقدامهم من البر وغرق بعضهم الآخر في نهر «طونه»؛ نظرًا لأنهم تكدسوا في السفن لخوفهم من جند الإسلام وبصفة عامة، كان الذين نجوا أقل القليل وفي هذه الأثناء جرح الحقير الذي كان قائد جندهم وسلم روحه إلى زبانية جهنم قرب «قومران».

وفي الصباح الباكر، أتى الوزير الشجاع إلى مكان الطابور؛ حيث تم الاستيلاء على مدافع الأعداء التي كانت بلا مثيل ولا نظير، والمدافع من نوع «ضربزن» والدروع والأسلحة وسائر آلات الحرب التي كانت أكثر من أن تحصى وتم إيداعها جميعًا في الخزينة العامرة للسلطان المقرون بالنصر، وأتى أيضًا حضرة السلطان المقرون بالسعادة إلى المكان المذكور في اليوم الرابع من شهر جمادى الأولى(٢) حيث أحضر الذين تم القبض عليهم أحياء من الكفار الصاغرين مجموعة مجموعة، وكانت أعلامهم منكسة، وكانت الفرقة القائمة بأعمال الطبل وسائر أسباب الزينة منكسة الرءوس؛ فصدرت الأوامر الهمايونية بقتلهم جميعًا؛ فأصبحوا علفًا للسيف باتر الأعداء، وهكذا تم انتزاع هذا النصر العظيم الذي أصبح عنوان التواريخ والسير بفيض من العناية البالغة لحضرة الحق سبحانه وتعالى، وبفيض المعجزات كثيرة البركات لفخر الموجودات عليه السلام. وصفوة القول، اللهم اقهر أعداء الدين واجعل النصر حليفًا لعسكر الإسلام، آمين.

---

(١) الموافق ٢٤ من يوليو ١٥٤١م.

(٢) الموافق ٢٦ من يوليو ١٥٤١م.

تولية أمير أمراء على «بودين» عاصمة المجر

تم ذلك في ٨ من جمادى الأولى سنة ٩٤٨ هجرية[١]، لما انتهى بعون الله جل شأنه أمر الغزوة بالظفر على هذا النحو، وبعد أن شكر سلطان الربع المسكون الله تعالى كثيرًا، كان قد حان تنظيم أمور المجر، وكانت زوجة الملك المتوفي تدعى «آصون»، وتلقب بلقب «قراليچه» تعني في لغة البوسنة و«خروات» زوجة الملك، وكانت هذه الـ «قراليچه» ابنة ملك «له»، فأراد السلطان صاحب السعادة أن يخفف عنها أحزانها؛ وكان مطلبها ورغبتها أن تتولى مقاليد حكم «أردل»، فأحسن حضرة السلطان بإمارة «أردل» على ابنها الصغير واليتيم الذي يدعى «سيمون يانوش» الذي كان قد ولد في ذلك الحين، وأمر بأن يصبح بعض الأمراء من أرباب الدراية بالأمور «كتخدا»[٢] و«لالا»[٣] له على أن يدير هؤلاء أمور المملكة حتى يبلغ الطفل أشده.

وبناءً على هذا خرجت عائلة الملك مع جميع أمتعتهم ورجالهم من «بودين»، وتوجهوا صوب «أردل»، ونصبت أعلام النصر السلطانية على أبراج وأسوار قلعة «بودين» التي كانت أمنية «فرديناند قرال» الضال، وأمل حكام النصارى سيئي الفطرة، وتم تطهير الكنيسة الضخمة من الأصنام المكروهة ومن الرسومات والنقوش والتماثيل، وحولت إلى مسجد، حيث أقيم في موضع الأصنام كرسي ومنبر جميل المنظر ومحراب بديع الأثر، وأدت جماعة المسلمين الصلاة والأدعية فيها، وفي يوم الجمعة المبارك اجتمع حضرة السلطان ـ ظل الله تعالى ـ وجميع رجال الدولة الوجهاء وجميع الوزراء عظماء الجهات، وشرفوا الجامع الجديد.

---

(١) الموافق ٣٠ من يوليو ١٥٤١م.

(٢) هو الشخص الذى يباشر أعمال رجال الدولة الكبار، وأعمال الأغنياء. وكان يعرف بين الناس باسم «كخيا».

- Mehmet Zeki Pakalın : Adı geçen eser، C. II، S. 251.

(٣) كان يطلق هذا الاسم على مربي ومعلم أولياء العهد.

ـ حكايـة:

وقد سمعنا من بعض الثقات: أن المرحوم أبا السعود أفندي كان قاضي عسكر في تلك الحملة المأثورة بالظفر، وكان عنده اثنان من طلبة العلم بليغان وجميلا الألحان، وكان السلطان صاحب السعادة، وحامي العالم والغازي صاحب الشأن يعرف كليهما شخصيًا، فيقوم قاضي العسكر بطلب الإذن من السلطان قائلًا: «فليؤمر أحد هذين بقراءة الخطبة الشريفة»، وتفضل المرحوم الغازي السلطان صاحب السعادة بالرد بقوله: «ليس هناك ما يميز أحدهم عن الآخر ولكن فليكتب كل منهما خطبة شريفة تتعلق بالفتح، ومن ترجحه منهما فليقرأ»، وفي الواقع استحسنت الخطبة التي كتبها أحدهما كالشعر، وبهذا تقرر أن يكون هو الذي سيقرأ الخطبة، وفي هذه الأثناء أحسنوا عليه برتبة الملازمة[1] وبحفنة من الذهب.

وعند العودة من الحملة وأثناء وصولهم إلى بلغراد عرض المرحوم أبو السعود أفندي على السلطان أن تمنح رتبة القضاء إلى هذا الطالب نفسه، ولكن لم يقبل السلطان عرضه قائلًا: «إنه ليس منلا إنما هو شاب»، وبعد أن عادوا إلى الآستانة، تمر فترة من الوقت ولكن المرحوم لا يكرر عرضه ثانية، ولما دخل ذات يوم للعرض، تفضل السلطان بالحديث إليه قائلًا: «إنك نسيت الملازم الجديد، وبعد ذلك، انتهت فترة ملازمته»، فليغرق الحق سبحانه وتعالى ذلك السلطان الغازي العادل في لجة بحر الرحمة، فإنه كان يعلم رتبة «الملازمة» والقضاء وكان يديرها بهذا الأسلوب.

ولما صعد الخطيب البليغ على المنبر وبيده سيف مجرد من غمده، وذكر اسم السلطان المقرون بالظفر، بعد أن حمد الله تعالى وصلى على الأنبياء، أصبح جملة عساكر المسلمين وكافة الموحدين الذين كانوا أكثر من أن يحصوا ويعدوا، أصبح كل واحد منهم في حالة من الوجد تارة وفي حالة من الهياج تارة أخرى، حتى سالت دموع أعينهم مثل السيل

(١) كان يعين خريجو المدارس دون أي انتظار لشغر وظيفة مدرس أو قاض وذلك حتى عصر القانوني، وبعد ذلك وضع أبو السعود أفندي نظامًا جديدًا، حيث كان يسجل خريجي المدارس بدفتر وفقًا لترتيب تخرجهم، وكان كل واحد يأخذ اسم ملازم. ولما تخلو وظيفة كان يتم التعيين وفقًا للترتيب الذي بالدفتر.
- Midhat Sert Oğlu: Adı geçen eser، S. 232.

الجاري، وتضرعوا بالقدر الخارج عن حد البيان والتوضيح راجين أن يعين جناب الباري تعالى سلطان الإسلام الذي كان هو الباعث على هذه الغزوة، ويرجى أن تكون تلك الأدعية مستجابة عند رب العزة.

ويذكر المرحوم «جلال زاده نشانجي» بأسلوب جميل في كتابه «طبقات الممالك» الذي ألفه ما يلي: «إن حضرة حامي الخلافة كان موجودًا داخل الجامع بالسعادة والإقبال في مقام الصلاة المملوء بثمار البركة، وكان موجودًا في الركاب الهمايوني أي مع السلطان جميع الأغوات على عادتهم الجميلة، واتفق أنه بينما كان ذلك الجامع الشريف كنيسة قبل ذلك، كانت ملاصقة لأحياء المدينة، وكانت منازل الكفرة الفجرة تطل على باب الكنيسة، فاجتمعت طائفة النساء والبنات أمام أبواب هذه المنازل لمشاهدة حضرة السلطان حامي الخلافة بينما يؤدي الصلاة، وكن كثيرات جدًا، كما كن يتحدثن ببعض الكلمات في دهشة»، ولما استفسر عن معانيها بواسطة الترجمان: «ماذا يقلن هؤلاء؟»، كانت الإجابة بأنهن كن يقلن: «كان يأتي في الليل وبعد أوقات السحر، وأيام الجمع من الداخل صدى الأصوات التي نسمعها الآن، وكنا نسمع تلك النغمات، حتى اضطر بعض قساوستنا إلى ترك هذه الكنيسة لهذا السبب، حيث ذهبوا إلى أديرة أخرى».

وقد كتب الكفار في تواريخهم أن السلطان صاحب السعادة قد أتى تحفه العزة، وتفضل بالنزول إلى صحراء «بودين» القديمة، وأرسل الهدايا والهبات العظيمة إلى «القراليچه» والطفل الصغير الذي هو ابن الملك المتوفي، وكانت الهدايا عبارة عن ثلاثة جياد كاملة العدة وذوات سلاسل ذهبية، وثلاثة خلع مزركشة قيمة، وسيف ودبوس مرصع بالذهب، وأمتعة شاهانية كهذه بلا حصر وخواتم قيمة للقراليچه وحلي وذهب للنساء، وخواتم قصيرة من اللؤلؤ وبالإضافة إلى ذلك كان الشهزاده أي الأمير السلطان «سليم» والسلطان «بايزيد» موجودين في الركاب السلطاني في هذه الحملة المقرونة بالنصر، حيث أرسلت من طرفهم أيضًا الهدايا المختلفة.

وقد أحضر «علي أغا» رئيس الجاوشية كل هذه الأشياء، وسعى «علي أغا» في إرسال الطفل للقاء السلطان قائلًا للملكة: «إن السلطان صاحب السعادة وحامي العالم يريد

رؤية ابن الملك»، وعلى الرغم من أن «قراليچه» ترددت في إرساله، فإن وكلاءها قالوا لها: إنه لا يمكن مخالفة ذلك بأي وجه كان، وهكذا تقدم جميع قادة «بودين» وأمراؤها والأمراء الكفار الذين كانوا في مقام وكلاء ابن الملك تقدموا مع ابن الملك واتجهوا إلى الركاب الهمايوني، واستقبلهم من طرف السلطان صاحب السعادة أغوات خدم الركوب مع جميع أفراد الفيلق المعروف باسم «بلوك خلقي» بأنواع الزينة، ولما وصلوا إلى الخيمة السلطانية، دخل ابن الملك مع مربيته وبعض معلميه المعروفين إلى الحرم الهمايوني، وتم حمل الكفار الآخرين إلى خيام الوزراء لإكرامهم، حيث استقبلوا بالترحاب الزائد.

وفي هذه الأثناء، ملأ الإنكشارية الذين كانوا متجمعين كل جماعة منهم خمسة وعشرة أفراد، وبعض الأعيان ملئوا القلعة بغرض التجوال والمشاهدة واحتلوا أبواب القلعة، وبعد ذلك جعلوا الدلالين يطوفون منادين: على الكفار الذين في «بودين» ضرورة ترك أعلامهم، والبقاء في منازلهم آمنين سالمين، ثم شرعوا في النداء قائلين: ينبغي على أفراد الإنكشارية الذين دخلوا إلى الداخل أن يقيموا كل خمسة أو عشرة منهم في منزل، وبهذه الطريقة كان سلطان العالم قد استولى على ملك «بودين»، والحقيقة فإن هذا كان تصرفًا حسنًا وتدبيرًا قيمًا، حتى إنه لائق لأن يكتب كديباجة في تواريخ الفتوحات، ومع أن السلطان كان يستطيع إتمام هذا الأمر أي الفتح بأي وجه آخر، ولم يكن هناك الأعداء الذين يمكن أن يواجهوه فإن الظلم هو إبعاد آلاف الكفار عن ممتلكاتهم التي كانت ذات خراج يقدر بخمسة أو عشرة آلاف غروش، فكم هو أمر صعب جدًا، ويريق كثيرًا من الدماء، وكان من الممكن أن يقولوا: «الموت لنا يتساوى مع الحياة بهذه الصورة»، ومن اليأس الذي بداخلهم كان من الممكن أن يتواجد الذين سيقومون بالمواجهة، ولما لم يكن ممكنًا إسقاط أي كافر في المصيدة على هذا النحو، كان سيلزم القول إن السلطان صاحب السعادة قد أفسد أمر التسليم دون أن يوفي بعهده وأمانه، وبصفة عامة فهناك بعض النواحي الإيجابية لهذا التدبير ولا حاجة لتفصيلها والذين يعرفون وضع أمراء الحدود يعلمون هذه الأمور جيدًا.

وفي هذه الأثناء أتى السفير من قبل الملك «فرديناند» ملك «بج» وأحضر بعض العطايا والهدايا، وكان الملك «فرديناند» يرجو منح «بودين» له بشرط التزامه بدفع الخراج على نحو ما كان مفروضًا على الملك «يانوش» من قبل، فأجاب السلطان صاحب الجاه السامي على جناب السفير المذكور بقوله: «فليسحب فرديناند يده من مملكة المجر، وليلتزم بدفع الخراج كل سنة عن «نمچه» الكائنة تحت يده حاليًا، فإذا كان هناك صلح ممكن عقده فليكن بهذه الصورة، ولن يكون بأي حال آخر»، وعاد السفير أدراجه إلى وطنه بهذا الجواب الباعث على الأسى.

وحضر الدفتردار والنشانجي باشا إلى «قراليچه»، وحملا إليها وثيقة العهد «عهد نامه» مطلية بالذهب و«اللاجورد»، وأقسم السلطان صاحب السعادة فيه بالأيمان المغلظة أنه عندما يبلغ ابنها السن الذي يمكنه فيه إدارة أمور الملك فإنه ينبغي إعادة الملك له ثانية، وغالبًا أن «جلال زاده» كان في وظيفة «نشانجي» في تلك الفترة. والغريب أنه لم يصرح بهذا في أثره التاريخي، فربما لم يكن قد أصبح ناشنجيًا حينئذ وصار ناشنجيًا بعد ذلك، ولم ير لزومًا لذكر هذا الموضوع وقد كتبت سيرته الذاتية في موضعها، فمن أراد، فليرجع إليها.

وعلى هذا لما صار مهمًا ولازمًا تواجد أمير عظيم الشأن لحماية وحراسة «بودين»، عهد بإيالة تلك الديار في البادية إلى «سليمان باشا» أمير أمراء دار الخلافة «بغداد» الذي كان فائق الأقران بأوصافه وأخلاقه المحمودة وذلك برتبة وزير، وأكملت الاحتياجات كما ينبغي، وأحضر قاضيًا فاضلًا ومستقيمًا يعرف باسم «خير الدين» علاوة على قدر كاف من الحراس والوزراء وسائر المستلزمات، وتم تعيين «سكبان باشي»[1] مع نحو

---

(١) هو اسم يطلق على واحد من الضباط الكبار في معسكر الإنكشارية. وكانت يومية السكبان باشي في العهود الأولى تبلغ ثمانين أقچة، ثم زادت بعد ذلك. وكان السكبان باشي من الأعضاء التابعين للديوان الذى يُعقد تحت رئاسة أغا الإنكشارية وكان سكبان باشي يرافق أغا الإنكشارية أثناء توجهه إلى الديوان بالمراسم، وكان يسير بجانبه الأيمن. وقد ألغيت رتبة «سكبان باشي» فيما بعد من معسكر الإنكشارية.
- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. III، S. 147.

ثلاثة آلاف من جند الإنكشارية، وأُرسلت أيضًا مهمات ومستلزمات مدينة «بشته» التي تقع تجاه «بودين».

وبعد تلك الأمور عاد حضرة حامي الخلافة في اليوم الرابع من الشهر المذكور، حيث قطعت وطويت المنازل والمراحل حتى وصل إلى دار السلطنة العلية المحروسة «القسطنطينية» في اليوم الثامن من شعبان المعظم[1] وبالقدوم الشريف لحضرة السلطان، أصبحت العاصمة في وضع تحسدها عليه حدائق «إرم».

محاصرة قلعة «بشته» وقتل «قره هرسك» وانهزام عسكر الكفار الذين شعارهم الهزيمة

سنة ٩٤٩هجرية[2]، على الرغم من أن تلك الغزوة من أعظم الغزوات الإسلامية فإن معظم المؤرخين لم يكتبوا عنها، ولكن «جلال زاده» كان قد أومأ وأشار إليها باختصار شديد في تاريخه «طبقات المالك» قائلًا: كانت محاصرة «بشته» الدافع لخروج حملة «أسترغون» و«أستوني بلغراد»، أما رمضان زاده وعالي أفندي وغيرهما من المؤرخين لم يتناولوا هذا الموضوع على الإطلاق، وقد كتب «كاتب محمد أفندي» فقط عن تلك الغزوة، ولكن بعبارات مختصرة جدًا، وفي ذلك الحين كان المرحوم «خضر باشا» أمير سنجق «كوستنديل» أحد الأمراء الذين كانوا داخل هذه القلعة المحاصرة فنقل عنه «كاتب محمد أفندي» بعض الأحداث، ولكن كان المرحوم جدي[3] رئيس سباهية البوسنة قد حُصر في القلعة مع عسكر سنجقه. وكنت قد سمعت هذا من المرحوم والدي وعمي، وبعد ذلك اطلعت على حقيقة الحال في تواريخ الكفار الذين اتخذوا الهزيمة لهم شعارًا، وخلاصة تلك الأحداث على النحو التالي :

---

(١) الموافق ٨ من نوفمبر سنة ١٥٤١م.

(٢) الموافق سنة ١٥٤٢ـ١٥٤٣م.

(٣) المقصود به جد المؤلف «بجوي».

لما نصب السلطان صاحب السعادة ومدار العبودية أعلام الإسلام على قلعة «بدون» وجعلها إمارة أمراء، قام «فرديناند قرال» ملك «بچ» في ذلك الحين، بإرسال سفير إلى إيالة «بدون»، وكان يرجو أن يمنح ملك المجر على منوال ما أحسن به على «يانوش قرال» بشرط إرسال الخراج المقرر على مملكة المجر كل سنة، وكان السلطان صاحب السعادة وحامي العالم قد استقبل سفير «فرديناند قرال» بأنواع الرعاية والاهتمام كما ينبغي، وأعاده إلى بلاده بالهدايا كمقابل للهدايا التي أحضرها، وكان حضرة السلطان قد تفضل بتوجيه الحديث إليه قائلًا: «لو يريد فرديناند عقد الصلح معنا فإن «بدون» كانت ملكًا لنا من قبل ذلك، وإن أهالي المجر تابعون لـ«بدون»، ولم توجد له أي علاقة سابقة بها، ولكن فليلتزم بإرسال خراج «نمچه» كل عام، وبهذه الصورة فقط يمكننا أن نتصالح، ويستريح في مملكته»، وكان قد سلم إلى سفير «فرديناند» خطابًا سلطانيًا «نامه همايون» بهذا المضمون.

وهكذا استقر في قلوب الكفار هذا الكلام وهذا الخبر ـ الذي هو من كلام الملوك ملوك الكلام ـ حتى حرمت أعينهم من النوم والراحة واضطربت قلوبهم المنكسرة، وبدءوا يبحثون عن دواء لهذا الداء ليل نهار، وتبادل «فرديناند» الرأي مع الإمبراطور الذي كان سيئ الخلق ومع «رين بابا» [بابا روما] وملوك «له» و«چه» و«إسبانيا» و«دانسقه» و«إسوجه» و«حولانديه» و«ونديك» و«فلمنك» و«أنقون» و«نابولي»، وذلك بواسطة الهرسك[1] والأمراء الذين كانوا في ممالكهم، وقد حضر من هؤلاء من أمكن مجيئهم، كما أرسل «فرديناند» وكلاءه الثقات، حيث التقوا جميعًا في «طوروني» وقاموا بتعيين مدينة «إسبرته» التي هي من أعظم مدن «نمچه» كمكان للتجمع، ولما علم ملك الفرنجة ـ الذي كان صديقًا للسلطان صاحب السعادة والذي كان يأمل في أن يستولي على ملك «إسبانيا» بمساعدة سلطان الإسلام ـ لما علم هذه الأحوال، أرسل السفراء إلى السلطان صاحب السعادة وأطلعه على واقع الأمر وبالإضافة إلى هذا، سعى

(١) لقب ويعني أميرًا.

ملك الفرنجة لمنع بعض أعيان «نمچه» الذين كانوا أصدقاء له، وبعض ملوكهم أيضًا على الانضمام لهذا الحلف والامتناع عن تقديم المساعدة له، فامتنع بعضهم ولم يمتنع البعض الآخر، ومهما يكن من أمر فقد أتوا من الطريق الذي يستغرق مسيرة شهرين أو ثلاثة، واجتمعوا في المكان المذكور.

ولم يجدوا حيلة ولا مخرجًا لهذا الأمر سوى ما فعلوه، ولكن كان عليهم تقوية قوتهم التي يمتلكونها وحشد الجند بكثرة تفوق كل مرة، وبهذا لا يكون هناك أي عناء في استرداد كل القلاع المفتوحة وليست «بدون» فقط وإنما بلغراد أيضًا، وحتى إذا أتى السلطان صاحب السعادة فإنه لن يستطيع المقاومة، وقرروا هذا باتفاق رأيهم جميعًا وقدم هؤلاء الكلاب الذين كانوا يتشكلون من جميع الملقبين بلقب «هرسك» والأمراء والملوك، العسكر والمهمات والمأكل والملبس والنقود ومستلزمات الحرب بحسب قدرة كل منهم، وهكذا تم حشد أكثر من مائة ألف جندي.

ومن حكمة الله أن الوزير «سليمان باشا» الذي كان أمير أمراء «بدون» قد أصيب في ذلك الحين بالطاعون وذلك بحسب مضمون الآية الكريمة ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾[1]، ثم توفي بهذا الوباء، وأحسن بوظيفته على أحد أمرائنا وهو «بالي باشا» حيث حضر ودخل «بدون»، وعلى إثر الإحاطة علمًا بتدبير الكفار من سفير ملك «فرانچه»، تم تكليف والي البوسنة «أولامه باشا» بالإشراف على نقل الإمدادات إلى «بدون». وصدر الأمر إلى أمير أمراء الروم إيلي بأن يكون متواجدًا في «صوفيه»، كما تم تكليف أمير «سمندرة» «دوقه كين زاده محمد بك»، وأمير «بوژغه» «أرسلان بك بن يحيى باشا زاده محمد بك»، وأمير «كوستنديل» خضر بك، ومراد بك أمير «كليس» و«كژد دهان محمد بك» أمير «آلاجه حصار» بالاشتراك في الدفاع عن «بدون» بعسكر سناجقهم مع «أولامه باشا». ولما نزل الكفار إلى صحراء «بشته»، دخلوا جميعًا قلعتها.

وفي اليوم نفسه وقع قتال ضار مع طليعة قوات الكفار ومع من يقومون بالحراسة حتى سقط الكثير من الكفار على ثرى الموت، وشرع الكفار في إعداد المتاريس خلال

---

(1) سورة آل عمران: الآية (٢٦).

يوم أو يومين؛ حيث بدءوا في ضرب القلعة، ولكن كانت المسافة بعيدة؛ ولذا لم يستطيعوا أن يلحقوا أي ضرر بجدران القلعة، وحملوا مدافعهم من هذا المكان ثانية وأحضروها إلى مكان قريب، وبدءوا الضرب في هذه المرة بشكل مؤثر، حتى كانوا يطلقون النار بأربعين مدفعًا من نوع «باليمز» مرة واحدة، ففي اليوم الأول تم إطلاق ثلاثة آلاف وستمائة دانة من المدافع؛ حيث ساووا الجدار على طول مائة ذراع بالتراب، وكان «سكبان باشي» مكلفًا بالدفاع عن «دون» مع ثلاثة آلاف من جند الإنكشارية؛ وكان قد دخل إلى «بشته» مع معظم أفراد الإنكشارية، وكان «أولامه باشا» قد اعتذر في البداية قائلًا: «إن التحصن في القلعة مع أمير الأمراء يخالف شرف السلطنة»، ولكن بعد ذلك دخل هو أيضًا وأبلى بلاءً خارقًا للعادة، وتم حفر خندق واسع عميق من الناحية الداخلية للجدار الذي هدمه الكفار، وهكذا تم إحكام تحصين القلعة بصورة أكثر من قبل أن يهدم الجدار، وفي اليوم الذي كان قد جمع فيه الكفار كل طاقتهم وهجموا، فمع أنه كان قد دخل عدد من الكفار إلى القلعة فإنه لم ينج منهم حتى فرد واحد، حيث قتلوا جميعًا بالسيف، وقد كتب الكفار في تواريخهم موضحين أنه لو كان الأتراك قد هجموا في ذلك اليوم لكانوا قد هزموا الجيش، واغتنموه وأخذوا رجاله جميعًا كأسرى.

وطبقًا لما ذكره «كاتب محمد أفندي» في تاريخه، ولما سمعناه من أسلافنا أنه في اليوم التالي بينما كان «قره هرسك أوغلو» الذي كان سردارًا للفجار يتقلد السيف في خيمته استعدادًا للهجوم ثانية، أطلق مدفع من سراي «بدون»؛ فانقسم الملعون بأمر الحق إلى نصفين من خصره، وسلم روحه الخبيثة إلى زبانية جهنم، ولهذا السبب صرف الكفار النظر عن الهجوم، وقاموا بإطلاق المدافع على سراي «بدون»، وبعض أحيائها بحمية جاهلية من أجل أن يخفوا هذا الوضع، وفي ليلة ذلك اليوم تحركوا ولاذوا فرارًا، وبناءً على هذا خرج جنودنا أفواجًا أفواجًا من القلعة، وبدءوا في تعقب الأعداء حيث أوقعوا الهزيمة بأعداد كبيرة من الكفار في ثلاثة أو أربعة مواضع واستولوا على كثير من الغنائم الكثيرة الخارجة عن حد الحصر.

ولكن كتب الكفار: أنه عندما دب الضعف بهذا القدر بين عسكرنا؛ بسبب هذا الهجوم، وعندما أصبح الاستيلاء على القلعة بشن الهجوم عليها أمرًا ميئوسًا منه، أتى في تلك الليلة حاكم مملكة «براندە برق» الذي كان سردارًا على أمراء «نمچه» و«فرنك» و«المجر» وسائر الكفار الفجار أتى إلى «يواهم هرسك»؛ حيث تشاوروا معًا، ومع أن المجار والفرنك قد أظهروا الهمة بمقتضى حميتهم الجاهلية قائلين: «ينبغي أن نقدم على فتح القلعة وألا نتركها»، فإن أعيان وسردار «نمچه» تحركوا بالسلامة، ورجحوا التوجه صوب «بچ»؛ وقاموا بتحميل مدافعهم وسائر أحمالهم وأثقالهم في السفن وذهبوا، وبينما كانوا يذهبون، قام عسكر الترك بتعقبهم؛ حيث وقع قتال وجدال ضار فيما بينهم، حتى إن باش قبودان «نمچه» الذي كان في المرتبة الأولى بعد السردار أصيب جواده في تلك المعركة بدانة مدفع، فهجم الأتراك عليه، وقطعوا رأسه وحملوها إلى «أولامه باشا»، أما جيفته فقد أنقذناها وحملناها ودفناها في «أسترغون» وفي ذلك الحين أراد جميع أهل «نمچه» أن يتركوا أثوابهم وأمتعتهم ويهربوا، ولكن ثارت غيرة قبودان الـ«فرنك» وقائد قواد المجر وأوقفوهم، وبعد تلك المعركة حملوا ما تبقى سليمًا منها بالسلامة إلى «بچ».

والاحتمال الغالب أن حقيقة الأمر كانت على هذا النحو؛ لأنه من المؤكد أنه لم ينظم جيش «نمچه»، وبصفة خاصة لم تنصب خيمة السردارية في المكان الذي يمكن أن تصل إليه دانة المدفع من «بدون» أو «بشته»، وعلى هذا الحال فإن الادعاء بسقوط السردار وإصابته بدانة المدفع وقائد القواد الذي كان ملعونًا مثله، يكون خطاء لهذا السبب، والشكر لله فقد جاءت الأعداد الغفيرة من الكفار يملؤهم الغرور قائلين: «لا يستطيع أحد مقاومتنا حتى السلطان شخصيًا»، إلا أنهم اضطروا إلى الفرار من أمام أهالي القلعة الصغيرة والعودة بالهزيمة، فما أجملها هذه العناية الإلهية وما أعظمها تلك المعجزات النبوية وما أجمله ذلك الطالع السلطاني إلى أبد الآباد بحق آل الأمجاد.

سبب تسمية تبة «كرز إلياس» بهذا الاسم

إن الإشاعة التي كانت شائعة بين أهل الإسلام هي أن «كرز إلياس» كان رجلًا شجاعًا في بلدة «يانيه»، فبينما كانت بلغراد لا تزال في أيدي الكفار، أسرع نحو القلعة

دون توقف ليفتح بتبخت، وأحيانًا كان يأسر بعض هؤلاء الكفار، وأحيانًا يقطع رءوسهم واستمر على هذا النحو حتى إنه لم يترك شخصًا على قيد الحياة، وبعد ذلك اقتنص الكفار فرصة وقتلوه حيث سلك طريقه إلى الخلد السعيد وتذكر سيرته الآن على ألسنة الكفار بأناشيد التركو[1]، ويطلقون على التركو هذا في لغة أهالي البوسنة والأفلاق اسم «داوري» حيث راحوا ينقلون بعض الخرافات في شكل حكاية أو قصة ذكروا فيها: لما قتلوا «كرز إلياس» قطعوا رأسه وحملوها إلى ملك «بدون» فقام الملك بدفنها عند ربوة «كرز إلياس» قائلًا: «إنها رأس أشهر بطل»، وهكذا أصبح هذا سببًا في اشتهار تلك الربوة بهذا الاسم، ولكن كتب الكفار أنه في تواريخهم التي سجلوا فيها أحوال مملكتهم سببًا آخر لاشتهار تلك التبة بهذا الاسم؛ حيث ذكروا أنه لما كان أهالي المجر لا يعتنقون الديانة النصرانية، كان بعضهم يعبد النار وبعضهم الآخر يعبد الماء، والبعض يعبد الحيوانات؛ وبينما كانوا على هذا الضلال، ظهر بينهم الملك الذي كان يعرف باسم «أشتوان قرال»، وكان طبقًا لاعتقاداته الفاسدة أنه رجلًا من الأولياء، وكان يوجد في زمنه قسيس من الفرنك من نسل «باتاجان» وكانوا يطلقون على اسمه في لغة «نمچه» «كراز دوس»، ولما علم الملك المذكور الذي يشعر بأنه رجل من الأولياء بهذا القسيس، أحضره إلى جواره وقام بتعيينه معلمًا لابنه، فقام القسيس أيضًا بتعليم ابن الملك وتربيته، وهكذا أصبح هذا الابن واحدًا من الأولياء مثل أبيه ومعلمه وأطلقوا على اسمه «سنده إيمبره».

وبعد ذلك غلبت على القسيس «كراز دوس» المذكور الشطحات؛ فخرج إلى البرية والفيافي، وعاش في الصحراء التي تدعى «بل» سبعة أعوام للتفرغ للعبادة والرياضة الروحية، وبعد ذلك تأثر أعيان المجر بتجول القسيس على هذا النحو حيث قاموا بإحضاره والتوسل إليه وجعلوه قائدًا عليهم، وصار أميرًا على مملكة «قنادين» التي تقع في «أردل» وعاش بورع وصلاح حال قل نظيره. وبعد ذلك توفي الملك المذكور

(١) التركو: نوع من الأغاني الشعبية.

«أشتوان قرال»، ولم يقبل ابنه المُلك، ولهذا السبب بدأت تظهر الفتنة العظيمة والفساد بين أهالي المجر وأُهدرت كثير من الدماء في سبيل الدين والدولة، وأصبح كل الناس في حالة من الاضطراب، ومن ثم ارتد معظم الناس عن الديانة النصرانية التي كانت غير مستقرة بمفهومها التام بينهم، وكانوا مترددين في عقيدتهم، حيث راحوا يقتلون النصارى؛ ومعظم الذين قتلوهم كانوا من القساوسة، وهكذا وقع القول: لم يبق هناك أي قسيس.

وكان «كراز دوس» المذكور قد جاء إلى كنيسة «أستوني بلغراد» كسياحة حيث مكث بها زمنًا طويلًا كان مشغولًا فيه بالعبادة، وقد أُلهم ذات يوم أنه ينبغي أن يقتل في سبيل الديانة النصرانية، وقام بشرح هذا لمريديه فقالوا جميعًا: «إننا نعلم أن موتنا جميعًا معك في سبيل الدين أمنية للروح»، ثم تحركوا من «أستوني بلغراد» حيث جاءوا إلى «بدون»، وكان قائد الذين ارتدوا عن الديانة النصرانية يدعى «يانوش». فهجم هؤلاء على «كراز دوس» المذكور ورفاقه وتعقبوهم قاذفين إياهم بالحجارة وأخرجوا «كراز دوس» من عربته وأصعدوه إلى الربوة وألقوا به من هذا المكان إلى أسفل من ناحية نهر «طونه»، ولما نزلوا إلى السفح ليروا موته كانت لا تزال به الروح فطعنوه بالحراب، ثم أمسكوا به من رأسه وأخذوا يضربونه بشدة في الصخور حتى تكسر رأسه قطعًا قطعًا والتصق دمه بهذه الصخور، وعلى الرغم من أن هذا الحجر قد بقي سنين طويلة في مياه نهر «طونه» فإنه لم ينمح هذا الدم، وبعد سبع سنوات أتى القساوسة ورأوا هذا الحال، فمسحوا الدم عن الحجر ووضعوه في مكان ما من كنيسة «قنادين»؛ تبركًا به، ووضعوا أيضًا هذا الحجر في موضع لا تطؤه الأقدام، وبعد ذلك وعندما اعتنق أهالي المجر الديانة النصرانية، قاموا ببناء كنيسة عند تلك الربوة لتكون ذكرى له، وهكذا صارت تلك الربوة تنسب إلى القسيس «كراز دوس» وبعد ذلك، صارت تذكر بهذا الاسم.

الغزوة الغراء التي قام بها حضرة السلطان صاحب السعادة يعني وضعه عسكر الإسلام في «بدون»

ذكرت تواريخ الكفار [هذا الحدث] على هذا النحو:

فليعلم أولو النهى أن خلاصة هذه الترجمة قد ذكرت من قبل، ومع أنني كنت قد قررت وضع هذه الترجمة في هذا الكتاب كما هي، إلا أنني رأيت أن هذا لن تكون له أي فائدة، فقمنا بتبييض الأمور المهمة فقط بأسلوب مختصر تاركين التفصيلات في المسودة، وسوف نوردها على النحو التالي:

في أثناء موت «صبولاي يانوش قرال» - الذي كان قد عينه السلطان صاحب السعادة ملكًا على «بدون» - في قلعة «شيش»، وضع رأسه على وسادة الأجل وجمع إلى جواره أمراء وأعيان المجر؛ واستودعهم جميعًا، فسالت دموعهم وأوصاهم قائلًا لهم: «احذروا أن تخرجوا رأسكم من تحت حاشية ثوب سلطان الإسلام، فلو أخرجتموها، فإنكم بالتأكيد ستشعرون بالندم، فإنني جربت ذلك أكثر من مرة، وأنتم أيضًا جربتم ذلك، فينبغي ألا تغفلوا عن ذلك»، وكتب الملك أيضًا خطابًا إلى السلطان عبر فيه عن أنواع العبودية، وقال فيه: «بينما كانت لا توجد لي قيمة أو اعتبار بين الناس فقد جعلني السلطان صاحب السعادة ملكًا على ملك «بدون»، وجعلني فوق الملوك أصحاب العظمة والجاه والجند الأقوياء، ولم يدع الأعداء تعتدي عليّ، والآن فإني أودع هذه الدنيا الفانية بأمر الله ولذلك ألتمس في هذه اللحظة من سلطاني صاحب السعادة أن لا يدع طفلي اليتيم الذي لم ينبت شعره بعد وزوجتي الأرملة التي لا أحد لها لعادية الأعداء، وأرجو ألا يعطى ملكي لأعدائي»، واختتم خطابه بالكلمات المؤلمة والمؤثرة وبدموعه الدامية، وقام بإرساله مع أمير «بچوي».

وما إن سمع «فرديناند قرال» ملك «بچ» بموت «يانوش قرال» حتى قام بإعداد سفيرين حيث أرسل أحدهما إلى السلطان صاحب السعادة والآخر إلى ملكة «بدون»؛ وأراد بالكلمات الجميلة توجيه «بدون» له، ولكن ملكة «بدون» أمهلت السفير الذي طال مقامه عندها لفترة طويلة وتحججت أحيانًا بأنها مريضة وأحيانًا أخرى أنها في مأتم زوجها، وفي النهاية لما التقت بالسفير الذي كان رجلًا عاقلًا وصاحب مقام رفيع، وأظهر الاحترام الزائد لها وقابلها بعظيم الأدب والرعاية على عادته في مقابلة الملوك بالتعظيم والتكريم، وقدم لها الأدعية والطاعة الجمة، وبعد ذلك رفع لها خطاب

«فرديناند قرال»، ووضح ما أوصى به «فرديناند» واحدة واحدة شفويًا، ولكن أخذت الملكة تجيبه على هذا النحو:

هذا أمرٌ عظيم جدًا، وليس من الممكن إعطاء الجواب السريع لهذا الأمر؛ فهذا أمر عظيم يحتاج المشورة مع جملة أمراء المجر، وبالإضافة إلى هذا فإنه يوجد كبير وهو والدي ملك «له»، وهو أيضًا صديق «فرديناند قرال»، فينبغي أن أرسل إليه رجلًا وأشاوره، ووالدي رجل يريد الخير للطرفين، ولنر ما رأيه وكيف يقرر، ولو قال «فرديناند»: أجرد العسكر عليهم وأستولي على المجر بالقوة؛ ولا يخجل من الخروج على امرأة أرملة وعلى طفل يتيم لم يكتمل نماء شعره بعد، ربما لا يعتبر أي شخص هذا التصرف شجاعة منه، وهذا هو الجواب الذي أستطيع أن أبعثه إليه الآن، فلو جرد العسكر وهجم عليّ، فلسوف يعلمون ماذا سيأتي من يدي؟

ولما وصل السفير إلى «فرديناند قرال» بتلك الإجابات، قال: «لو كان هناك ضرورة لاحتلال «بدون» عليك إرسال العسكر بسرعة قبل وصول المدد العسكري من السلطان؛ لأن مقصد هذه المرأة تعطيلك»، وفي الحال جهز الملك الجند وأرسلهم إلى «بدون»، واستولت تلك القوات في بداية الأمر على «ويشغراد» و«واج» و«بشته»، ووضعوا كثيرًا من عسكر «نمچه» داخل تلك القلاع، وبعد ذلك توجهوا وحاصروا «بدون»، ولكن في هذه الأثناء تعدى جند «نمچه» على رعايا المجر، ولذلك خرج جند المجر الذين كانوا في «بدون»، وقاموا بقتل الكثير من أهالي «نمچه»؛ أي النمساويين، وفي النهاية تحرك النمساويون؛ لخوفهم من المجريين، وتوجهوا صوب «بچ».

وفي تلك الأيام عاد أمير «بچوي» من عند السلطان صاحب السعادة والذي كان قد أرسله «يانوش قرال» المتوفي سفيرًا إلى السلطان، وأخبر بالوعود والإحسانات الكثيرة من طرف السلطان صاحب السعادة، وأحضر وسلم البراءة إلى الملكة وذؤابة الملك التي بعث بها السلطان إلى الطفل الصغير ابن الملك، كما أخبر بأنه أمر «خسرو بك» أمير البوسنة و«محمد بك» أمير سنجق «سمندرة» و«مراد بك» أمير «كليس» بإيصال

الإمدادات إلى «بودين» قبل حلول الشتاء، وقد تعهد حضرة السلطان وأقسم بالمساعدة في كل وقت، ووعد بأنه سيحضر شخصيًا في أول موسم الربيع، وفي اليوم الذي خرج فيه السفير المذكور من «إستانبول»، التقى بسفير «فرديناند قرال»، وبمجرد أن وصل، قام السلطان صاحب السعادة بحبسه في قلعة «يدي قله»؛ لأن هذا الرجل كان من أمراء المجر الذين يخضعون لـ «يانوش قرال» المذكور، حيث خان سيده وأصبح تابعًا لـ «فرديناند قرال».

وقدم العسكر والأمراء المكلفون بالإمداد حتى وصلوا إلى «طولين» مع العسكر الكثيرة، ولكن زحفت جيوش الشتاء، وتجمد نهر «طونه»، وما إن وصل الخبر إلى «بدون» حتى قامت الملكة بإرسال «ترك باليوز» مع ألفين من السوارية لاستقبال العثمانيين، ولما قابل « ترك باليوز» الأمراء، أخبرهم بما تريد الملكة، وبناءً على هذا اتجهوا إلى المشتى، وتعهدوا بأنهم سيصلون أول موسم الربيع قبل قدوم الأعداء، وفي الواقع حضروا في يوم «روز خضر»[1] موفين بعهدهم، واستولوا على «واچ» و«ويشغراد»، ولكن لم يستطيعوا أن يستولوا على «بشته»؛ لأنه كان يتحصن بداخلها أعداد كثيرة جدًا من النمساويين، وهناك سقط الكثير من الرجال، وفي النهاية ولما لم يكن هناك عسكر مشاة كافية من أجل إتمام الهجوم، صرفوا النظر عن الاستيلاء على «بشته».

ولهذا اشتعلت غيرة «فرديناند قرال» وأخيه الإمبراطور الضال، وقاموا بإرسال الحملة ثانية على «بدون». وجاءت جحافل عظيمة وحاصرت «بدون»، وطلبوا تسليم «دون» مستخدمين العبارات الجميلة وآلاف الوعود، ولكن لم يصغ المجريون لهم قط، ولم يعطوا لهم أي شيء. وبناءً على هذا أقاموا المتاريس في موضعين وبدءوا في ضرب

---

(١) روز خضر: هذا التعبير يعني «يوم الخضر» وهو يقابل السادس من مايو من السنة الميلادية ويعتبر بداية الأقساط والديون الآجلة. وكان يستخدم بين الناس بدلًا من اليوم الشهري، وكان يحدد الدين الآجل من «يوم خضر» إلى شهر نوفمبر، ومن شهر نوفمبر إلى «يوم خضر»... ولكن ألغي ذلك النظام بعد التنظيمات.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. III، S. 59.

القلعة، وكان السلطان صاحب السعادة قد أرسل قبله الوزير «محمد باشا» و«محمد بك» أمير «سمندرة» و«أولامه باشا» الذي حل محل «خسرو بك»، و«مراد بك»، وأتى هؤلاء ونزلوا بالقرب من الجبل، وكان لديهم أعداد كثيرة من الجند، وكانت أعداد النمساويين أيضًا كبيرة، وكانوا أحيانًا يضربون القلعة بالمدافع وأحيانًا يقومون بالهجمات على عسكر المسلمين، ولكن في النهاية لما جاء وقت قدوم السلطان صاحب السعادة بدأ النمساويون بنقل جندهم إلى ساحل «بشته»، فلما علم عسكر الترك بهذا الأمر، قاموا بالهجوم عليهم وأغرقوا معظم سفنهم، وقتلوا الكثير من العسكر وأسروا معظمهم، وهكذا انهزم كل الجيش، واستولى الترك على الغنائم الكثيرة منهم، وبعد ذلك جُرح «الهرسك» أي الأمير الذي كان سردارًا لجند «نمچه»، وتوفي في اليوم الذي وصل فيه إلى «قومران»، أما الذين بقوا سالمين فقد ذهبوا صاغرين وبسمعة سيئة، وتركوا أيضًا «بشته».

ولما وصل السلطان صاحب السعادة إلى «دون»، نزل إلى صحراء «بدون» القديمة، وهناك أنعم بالمناصب إلى الأبطال من العسكر، وأنعم عليهم بالعطايا الغنية وبالرعاية الخاصة، وأحضر أمامه أسرى «نمچه» والمجر وقام بقتلهم جميعًا، وترك قائدين فقط أحياء، وكان قد أحضر إلى جواره أربعة وعشرين ألفًا من عسكر التتار وأرسلهم للهجوم من هذا المكان، وجعلهم يغيرون على نواحي «أستوني بلغراد» وعلى الساحل المواجه لـ «أسترغون» وساحل «نتره»، من أولها إلى آخرها؛ حيث أسروا أهالي تلك الأماكن، ولا يعلم عدد الحيوانات والأسرى المأخوذة منهم إلا الله تعالى فقط.

ومن هناك أرسل حضرة السلطان الهدايا القيمة للطفل الصغير ابن الملك، وكانت الهدايا عبارة عن ثلاثة جياد من ذوات الأطقم المرصعة بالذهب الخالص والمزدانة وسيوف مرصعة وآلات حرب من نوع «طوبوز» وخلع مزركشة بالذهب الصافي، كما كان لا يوجد نهاية للهدايا الأخرى التي أرسلها، وبالإضافة إلى هذا فقد أرسل إلى «الملكة» الخواتم القيمة والسلاسل الذهبية والأثواب القيمة جدًا التي لم تكن موجودة في أي مكان سوى خزينة السلطان، وأُرسلت من الأمير السلطان «سليم» والسلطان

«بايزيد» أيضًا الهدايا الأخرى القيمة التي كانت لا يعرف قيمتها أي شخص، وحمل «رئيس الجاوشية» كل هذه الأشياء وسلمها، وأبلغ سلام السلطان صاحب السعادة مع حبه واحترامه وقوله: إنني أريد أن أرى ابن الملك، وأضاف: فليأت معه معًا أعيان وأمراء المجر الذين أنقذوا القلعة من النمساويين ولا يخافون من أي شيء، فقد قال السلطان: إنني سأعامل هؤلاء بأحسن مما يتوقعون، وأنتم تعرفون السلطان صاحب السعادة، فإن قوته وعظمته تفوق جميع سلاطين العالم، وهو صديق لصديقه وعدو لعدوه، وهو يعتبر «الملكة» وصيفة له ويعتبر ابنها ابنًا له.

وفكرت الملكة كثيرًا، وكانت لا تدري بما ستجيب؛ لأنها كانت لا تريد أن ترسل ابنها. ولكن قال وزراء الطفل ابن الملك وأمرائه: إنه لا يمكن مخالفة ذلك، وفي النهاية أركبوا ابن الملك العربة مع مربيته وبعض النساء وسط كثير من الأفكار والأوهام وأرسلوه، وظلت هي في دارها باكية، وذهب جميع أفراد المجر؛ حيث قاموا بتزيين رماة بنادقهم وجميع عسكرهم وتقدموهم هم وتوجهوا، واستقبل عسكر الترك هؤلاء العسكر في طرز مشرف حيث أغرقوهم في الذهب والفضة الخالصة حتى كانت أعين الناظرين تغمض من بريق ذلك، وبعد ذلك أخذوه مع عربته وبعض معلميه إلى حرم السلطان، وحملوا أيضًا الأمراء والعسكر إلى خيام الوزراء وأمراء الأمراء والأغوات، وعاملوهم بالمحبة والمودة.

وربما كان السلطان صاحب السعادة قد أمر بدخول أفراد من الإنكشارية سرًا إلى داخل قلعة «بدون» في شكل خمسات وعشرات بحجة مشاهدة القلعة، وهكذا دخلوا إلى «بدون»، ولكن بالطريقة التي لم يشعر بها قط الذين كانوا في «بدون»، وفي بداية الأمر عبر «بلوك» أي كتيبة من باب الصيادين سريعًا، وجلسوا بالداخل، وبعد ذلك وصل جمع من أفراد الإنكشارية إلى كل باب من أبواب القلعة، وفي فترة وجيزة امتلأت جميع الشوارع والأسواق بأفراد الإنكشارية. وبعد ذلك سرعان ما بدأ المنادون بالنداء قائلين: «فليدع كل شخص سلاحه وليسلمه إلى الأتراك، وليجلس أمام بابه آمنًا وسالمًا، ولو عاند أي شخص هذا الأمر ستذهب رأسه»، وبعد ذلك فهم أهالي «بدون» لماذا

كانت مقابلتهم على هذا النحو، ودخل أفراد الإنكشارية إلى منازلهم في شكل خمسات وعشرات وأقاموا بها.

ولما علم السلطان أن أفراد الإنكشارية قد دخلوا «بدون»، أرسل ابن الملك مع مربيته وعربته إلى أمه ثانية، ولكن دب خوف عظيم بقلب الملكة؛ نظرًا لأنه لم يحضر أمراؤها وقادتها، وتألمت جدًا حيث أرسلت خطاب رجاء إلى «رستم باشا» رجته فيه بإطلاق سراحهم، وتم إطلاق سراحهم جميعًا وقت العشاء وأرسلوا إليها ثانية، فإنه احتجز «ترك باليوز» فقط، وكان «فراطالي كوارين» - الذي كان في مقام باش وزير؛ أي رئيس وزراء - قد نزل عند «رستم باشا». وبعد ذلك قام السلطان بعقد مجلس للمشاورة. لكنهم لم يستطيعوا أن يتفهموا كلماته ولم يفهموا ما يريده السلطان، وقال الوزير «محمد باشا» و«أولامه باشا»: «ينبغي أن تحمل الملكة مع ابنها إلى إستانبول، ولما يبلغ الطفل أشده ويصير قويًا، يتم تعيينه على إثر رؤية إنه جدير بالمسئولية»، أما «يحيى باشا أوغلو محمد باشا» الذي كان أعظم عدو لأهالي النصارى والعدو اللدود لجميع المجر فقد عرض وجهة نظره قائلًا: «ينبغي قتال الملكة وابنها مع جميع أعيان المجر، كما ينبغي أسر أولادهم وعيالهم، وهدم جميع قلاعهم حتى تتساوى بالتراب، فما لزوم عناء عسكر الإسلام والسلطان صاحب السعادة شخصيًا بهذا القدر في كل وقت من أجل هؤلاء، فإذا كانت هناك رغبة لحماية الملكة، فلترسل إلى ملك «له» يعني إلى أبيها وليعط «بدون» لأحد خدمه»، أما رستم باشا فعرض وجهة نظره قائلًا: «ينبغي ألا ينقض السلطان عهده، وأن يعهد بالملك إلى ابن الملك، وأن يشرف ويراقب ما سيفعله باستمرار في كل وقت».

وبعد ذلك أرسل السلطان صاحب السعادة رئيس الجاوشية إلى الملكة ليخبرها بهذا الخبر: «إنني سأضع عسكر الترك في «بدون» حتى يكبر ابنك، لأن الطفل ليس لديه قدرة على حماية «بدون» وإن أعداءه كثيرون، وإننا نتواجد أحيانًا على بعد مسيرة شهرين أو ثلاثة وعندئذ لا يمكن القدوم والوصول للنجدة. وستكفيه مملكة «أردل» حتى يكبر وسوف تكفيه أيضًا معادن الذهب والفضة في «أردل»، ومملكة «أردل» أيضًا قريبة

لملك أبيك، وسوف تحكمينها بلا منازع، وليبق القبودان المعروف باسم «زنجيوش» في «بدون» وليكن هذا حاكمًا على جميع أهالي المجر، كما ينبغي ألا يتدخل أمير أمرائنا بعسكر المجر، وسوف يُعين له السلطان من «بدون» «علوفة» قدرها خمسمائة في اليوم، وليبق جميع رؤساء القلعة في أماكنهم آمنين سالمين، ولتعط عربات بالقدر الكافي للملكة، وينبغي أن يقوموا بتوصيلها إلى «لبوه»؛ حيث تكون هذه مقرًا لها، فعليك أن تعيشي بذهن صاف وبلا غوغاء أعداء»، ولما أخبر رئيس الجاوشية هذا الخبر صاحت الملكة بألم وحزن وبكت، وبدأت تمزق في ثيابها، وفي اليوم التالي، حضر الباش دفتردار ونشانجي باشا إلى جوار الملكة، وأحضروا معهم تذكرة تسليم السلطان.

وفي هذه الأثناء، أتى سفراء «فرديناند قرال» بالهدايا العظيمة، والعطايا، وكان «فرديناند» قد طلب «بدون» بشرط دفعه الخراج المقرر على المجر، وقال: إنه أذن ببيع أي عدد موجود من النمساويين والمأسورين، أما السلطان فأجاب على هذا العرض قائلًا: «لو يريد صلحًا معنا فعليه أن يرسل الخراج المقرر على «نمچه» وليسحب يده من ملك المجر؛ ولو لم يسلم النمسا برضاه، فلسوف آخذها بالسيف بعون الله وأحرق جميع ممالكه وأهدمها، ولو يرضى أسراهم بالصلح على هذا الشرط، أطلق سراحهم بلا أقچة أو فلس، وإن لم يرضوا، فلن أطلق سراحهم لا بالأقچة ولا بالبديل». ومرة أخرى أرسل السفير بخطاب بهذا المضمون وبالهدايا كبديل للهدايا التي أحضرها.

وهكذا فتح السلطان سليمان صاحب العزة والعظمة مدينة «بدون» التي لا نظير لها في العالم والتي كانت دار ملك السلاطين منذ قرون طويلة وكانت موضع رغبة الملوك، فتحها بهذه الصورة السهلة على هذا النحو، وألحقها بسائر ممالكه، وليبكِ الملوك والأباطرة الذين سيأتون بعد ذلك إلى يوم القيامة.

خلاصة حملة السلطان وفتح «بچوي» و«أسترغون» و«أستوني بلغراد»

ـ خروج السلطان:

في ١٨ من المحرم الحرام سنة ٩٥٠ هجرية، أدى تحرك الكفار الذين شعارهم الهزيمة

والذين استولوا على قلعة «بشته»، ثم انهزموا أدى إلى ازدياد حدة غضب السلطان مدار النصر؛ ولهذا السبب قام السلطان بإصدار الفرمان ساري المفعول بتجهيز الجند المأثورة بالنصر.

وفي تلك الأثناء حضر سفير ملك الفرنجة حيث أوضح أنه يمكن القضاء على الإمبراطور سيئ الأصل الذي برزت خصومته وعدواته لملك الفرنجة، وذلك بحسن مساعدة السلطان عالي الوقار، ورجا إرسال السلطان الأسطول الهمايوني من أجل هذا، وبناء على هذا صدر الأمر ببناء السفن الكثيرة من نوع «قادرغة»، عدا السفن التي كانت موجودة في الترسانة العامرة، وقدم السلطان أيضًا الوعود الكريمة للسفير بأنه سيرسل القبودان الغازي «خير الدين باشا» بأسطول منظم وكامل العدة والعتاد للمساعدة.

وفي هذه المرة توجهت عزيمة السلطان في اليوم الثامن من شهر شعبان المعظم سنة تسع وأربعين وتسعمائة هجرية[1] من إستانبول المحروسة سالكا طريق «أدرنه» بالسعادة والإقبال؛ حيث كان ينوي الذهاب إلى مقر عرش «أدرنه» التي كانت العاصمة القديمة للسلاطين، وبالفعل أمضى الشتاء في حاضرة الدولة «أدرنه»، وحيث قضى وقته أحيانًا بالتجوال والصيد وأحيانًا بمجالسة الندماء ذوي الحديث الحلو وحقق رغباته الباطنة والظاهرة، وفي منتصف الشتاء القارص جدًا أرسل «أحمد باشا» أمير أمراء الروم إيلي الذي أتى على رأس الغزاة إلى أطراف الروم إيلي لجمع الجند من هناك.

ولما حل الانكسار بجند الشتاء من سلطان النوروز وجند ذلك الربيع، اتجه في بادئ الأمر الـ «قبودان باشا» بأسطول عظيم من خليج القسطنطينية صوب الأعداء، وبعد ذلك تفضل حضرة السلطان مدار العرش بالتوجه في اليوم الثامن عشر من الشهر المذكور الذي كان يوم «خضر»[2] توجه بالعسكر المأثورة بالنصر من «أدرنه»

---

(١) الموافق ٨ من ديسمبر ١٥٤٢م.
(٢) روز خضر: هذا التعبير يعني «يوم الخضر» وهو يقابل السادس من مايو من السنة الميلادية ويعتبر بداية الأقساط والديون الآجلة. وكان يستخدم بين الناس بدلا من اليوم الشهري. وكان يحدد الدين الآجل من «يوم خضر» إلى شهر نوفمبر، ومن شهر نوفمبر إلى «يوم خضر»... ولكن ألغي ذلك النظام بعد التنظيمات.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. III، S. 59.

وفقًا لقاعدة السلاطين والعادات الحسنة الخسروانية، آخذًا معه الأمير السعيد سلطان «بايزيد»، وكان منزله الأول عند «چرمن» حيث وصل بعد ذلك في غرة ربيع الأول من السنة المذكورة[١] إلى بلغراد قاطعًا المنازل وطاويًا المراحل، واستظل بالقرب من نهر «صاوه» بظل أجنحة السعادة، وفي هذا المكان التقى أمير أمراء الأناضول «إبراهيم باشا» بجنده مع الجيش الهمايوني، وكان «أحمد باشا» أمير أمراء الروم إيلي في طليعة العسكر المظفرة، وقد توجهوا من ذلك المنزل صوب الجسر الذي يشبه درب التبانه[٢] والذي كان بمكان قريب من «بكوردلن» من أجل عسكر السلطان، وتفضل جميع الجند المأثورين بالنصر والسلطان صاحب السعادة وعالي المكانة بالمرور والعبور من فوق هذا الجسر خلال ثلاثة أو أربعة أيام.

فتح قلعة «والبوه»

في ١٩ من ربيع الأول سنة ٩٥٠ هجرية[٣]، لما صدر الفرمان بمحاصرة القلعة المذكورة قبل وصول العساكر المنصورة، قام «خضر بك» أمير سنجق «كوستنديل» الذي أحسن عليه بسنجق في الوقت الذي كان فيه في وظيفة أمير إسطبل ثان، و«مسيح بك» أمير «أولونيه» و«أحمد بك بن يحيى باشا» أمير سنجق «إينه بختي» قاموا بإخراج المدافع من قلعة «أوسك» وبمحاصرة قلعة «والبوه»، ولما كان «أحمد باشا» المشار إليه أمير أمراء الروم إيلي في طليعة العسكر المظفرة، فقد وصل هو أيضًا إلى تلك القلعة وشرع في فتحها بعسكر الروم إيلي، ولكن بسبب أن القلعة المذكورة كانت ملجأ وموطنًا لكثير من الأشقياء، وهي عبارة عن قصر صغير، فقد ضحى الذين بداخلها بالروح والجسد وشنوا الهجمات المتعددة على عسكر الإسلام، وأتى السلطان صاحب السعادة وعالي

(١) الموافق ٤ من يونيه ١٥٤٣م.
(٢) بياض يرى في السماء والعرب تسميها أم النجوم لاجتماع النجوم فيها.
(٣) الموافق ٢٢ من يونيه ١٥٣٤م.

الجاه شخصيًا تحفه العظمة إلى هذا المكان؛ وبسبب عدم رؤية الكفار له، فإنهم لم يعلنوا الطاعة والانقياد، وفي اليوم الثامن عشر شن غزاة الإسلام هجومًا ضاريًا على القلعة، ولكن استشهد كثير من الغزاة وذاقوا شهد الشهادة، وأصبحت أيضًا أسفل سافلين أي جهنم مأوى لكثير من الكفار، ولكن لم يتيسر فتح القلعة والانتصار عليها، ولما صارت نواحي القلعة تحسدها جنة الخلد بالمقدم الشريف لسلطان العالم، ولما شاهد الكفار الضالين الذين كانوا محاصرين مواكب الوزراء العظام المقسمة درجات ومواكب أمير أمراء الروم إيلي وأمير أمراء الأناضول المظفرين والمواكب الأخرى للأمراء الآخرين التي تثير الدهشة، نفدت قوتهم وطاقتهم وطلبوا الأمان.

ويقول المرحوم «كاتب محمد أفندي» مؤلف الإثر المعروف باسم «جامع التواريخ»: كانت تلك الحملة أول حملة لي، وكان أخي رئيسًا للبوابين لـ «يحيى باشا زاده أحمد بك» وكان بطلًا يعامل بكرم واحترام، وقد جرح في الهجوم على تلك القلعة، وبعد ذلك جرح أيضًا في الهجوم على «أسترغون»، وقد قام بقطع رأس كافر مشهور وأحضره، فلما عرض «أحمد باشا» أمير أمراء الروم إيلي بطولاته على السلطان، أُحسن عليه بترقية قدرها أربعمائة أقچة، وفي هذا العصر لو كان يُحسن على أي فرد ليس بأربعة آلاف بل بعشرة آلاف، كان لا يستحسنها وربما كان لا يقبلها، ولما كان ممكنًا الوصول إلى رتبة الزعامة بطريقة سهلة، لم يكن لدى أي شخص رغبة في إيذاء أحد، ولهذا سقطت قيمة هذه الرتبة من الاعتبار بين أرباب التيمار.

فتح قلعة «شقلوش» والاستيلاء على «بچوي» بطلب الكفار الأمان

تم ذلك في سنة ٩٥٠هجرية، كانت القلاع المذكورة قد أعلنت الطاعة والانقياد في عصر «يانوش قرال» ملك «بدون» من قبل، ولما توفي المذكور، أصبحت تابعة لـ «فرديناند قرال»، ومن أجل ذلك أصبح من المقرر توجه السلطان المقرون بالظفر عليهم.

إذ تفضل حضرة السلطان في اليوم السادس والعشرين من شهر ربيع الأول[1] بعبور الجسر العظيم، الذي كان قد أقيم بالقرب من «والبوه» على نهر «دراوه» مع جحافل الجند الذين كانوا كالنمل، وقلعة «بچوي» هي عبارة عن مدينة قديمة وأن أطرافها ونواحيها تشبه حدائق الورد والبساتين وأن كل زاوية فيها توحي برياض الجنة، كما تذكر الشخص بحدائق «إرم»، وهي قلعة زاخرة بالأشجار الشاخة المتراصة، وأنها ترى من على بعد كأنها سوداء، ولما وصل «مراد بك» أمير سنجق «أوسك» و«قاسم بك» أمير «موهاج» إلى «بچوي»، لم يقدر أهالي القلعة على الحرب والقتال، وأعلنوا الطاعة والانقياد، وأبلغ مبشرو الفتح والظفر، أخبار هذا الفتح من المنزل المذكور إلى السدة السلطانية للسلطان ناشر العدالة.

وفي اليوم التالي تزينت صحراء «شقلوش» بخيام الغزاة الهائجين كالبحر حيث شرع في محاصرة القلعة في الساعة التي نزلوا فيها، ثم أقيمت المتاريس في كل مكان، وفي يوم الأربعاء الموافق غرة ربيع الآخر عقد الديوان الهمايوني بعون الله الملك القادر، وكان الوزراء العظام يستطيعون مشاهدة الحرب والقتال الذي كان يقع بين الغزاة والمدافعين عن القلعة وهم جالسون في خيمة السلطان التي تورث السعادة، وعرج غزاة الأناضول إلى بروج القلعة، ونشبت هناك ملاحم ومواجهات، وتم فتح القلعة الخارجية في نهاية هذا النزاع وفر الأنجاس من بقية السيوف إلى القلعة الداخلية، وبعد ذلك استمرت الحرب والقتال ليل نهار، وفي اليوم الرابع عشر من الشهر المذكور، طلبت القلعة الأمان، وتم فتحها والاستيلاء عليها بالكامل، وفي اليوم السادس عشر قام السلطان صاحب السعادة وصاحب الشهرة بالتجول في ذلك الحصن الحصين مع جملة الوزراء وأركان الدولة، وفي اليوم التالي، أُحسن في الديوان الهمايوني بالخلع للذين كلفوا بفتح الحصار، وسعدوا بتقبيل العرش الذي يخضع العالم، وتم ضم وإلحاق القلاع المذكورة مع نواحيها على سنجق «قاسم بك» أمير سنجق «موهاج».

(١) الموافق ٢٩ من يونيو ١٥٤٣م.

وفي اليوم التالي، عزم السلطان على العودة، فما إن وصل السلطان المقرون بالنصر إلى صحراء «بدون» حتى استقبله أمير أمراء «بدون» مع المجاهدين والـ «سكبان باشي»[1] الذي كان مكلفًا بحماية «بدون» مع أفراد الإنكشارية المبارزين استقبلوه بالرايات التي هي علامات الفتح وأصبحت أطراف «بدون» بخيام العسكر دار سلام.

فتح قلعة أسترغون التي هي مثال للعبرة

في ٢ من جمادى الأولى سنة ٩٥٠ هجرية[2]، كانت أسترغون قلعة بلا نظير ولا يمكن إقامة قلعة تشبهها؛ حيث إنها مقامة على ربوة عالية بساحل «طونه» وهي غنية عن التعريف والتوصيف، وبصفة خاصة كان يوجد بها دير عجيب المنظر كانت جدرانه وبابه مزدانين بالرخام الملفوف والنقوش وأنواع التصاوير والتماثيل، واتفق أن كانت توجد قبة عجيبة لهذا الدير كانت تشبه المحراب عند أهل الإسلام، وكانت مطلية بالماس، فكانت هذه الكنيسة بناء عجيبًا لم ير أي شخص مثلها أو نظيرها في أي مكان من العالم.

وتوجد على أطراف الربوة التي تقع عند القلعة المذكورة «عين ماء» ساخنة يمكنها أن تدير ساقية، وكانت على بعد أربعين أو خمسين ذراعًا من نهر «طونه»، وقد قام أستاذ ماهر بإقامة سد وقناة لمياه تلك العين التي لم يكن معلومًا كيف أقيمت ومتى، ومن قِبَل مَنْ، وقد ظلت في أيدي المسلمين قرنًا كاملًا وحتى هذا اليوم لم تكن تحتاج للإصلاح والترميم حتى إنه يعلم منبع وقناة تلك العين، وقد مد الأستاذ الذي شيد ذلك أي تلك

(١) سكبان باشي: هو اسم يطلق على واحد من الضباط الكبار في معسكر الإنكشارية. وكانت يومية السكبان باشي في العهود الأولى تبلغ ثمانين أقچة، ثم زادت بعد ذلك. وكان السكبان باشي من الأعضاء التابعين للديوان الذي يُعقد تحت رئاسة أغا الإنكشارية وكان سكبان باشي يرافق أغا الإنكشارية أثناء توجهه إلى الديوان بالمراسم، وكان يسير بجانبه الأيمن. وقد ألغيت رتبة «سكبان باشي» فيما بعد من معسكر الإنكشارية.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. III، S. 147.

(٢) الموافق ٣ من أغسطس ١٥٤٣م.

القناة إلى عمق الربوة التي تقع عند القلعة ثم أخرجها لارتفاع مقداره طول رجلين، وأقام في هذا المكان خزان ماء ووضع ساقية كبيرة في عمق هذا الخزان، وعمل على إخراج الماء بتلك الساقية إلى أعلى القلعة بالمواسير البرونزية الضيقة الموضوعة في الماء، وأقام في تلك الربوة عين ماء يجري منها الماء ليل نهار، والمسافة الممتدة من عمق الساقية وحتى هذه العين التي يصعد إليها الماء إلى أعلى بصعوبة أربعمائة وستون ذراعًا كاملة، وإننا شاهدناها أربع أو خمس مرات، ورأينا الرسومات الكثيرة للملك الضال التي كانت موجودة في السراي التي كان يمتلكها ويسكن فيها، والدهاليز العجيبة المبطنة بالرخام الصافي ذي اللون الأحمر والأبيض والكمر وحجرات الجلوس المزركشة، وذلك قبل الحصار وقبل أن تخرب بالمدافع والألغام، وهذه الأشياء لا يمكن وصفها أو الكتابة عنها.

وكان الحي الصغير المجاور والملاصق للقلعة، والحي الكبير الموجود خارج القلعة مملوئين بالأبنية المتعددة وبالكنائس الفريدة التي لا يمكن وصف واحدة منها ولو بعبارة مختصرة.

وفي البادية لما ضيق سلطان العالم على الكفار بمحاصرة «بج»، حضر الأرشك؛ أي الأمير صاحب تلك القلعة آنئذ أمام «بج» وأعلن الطاعة للسلطان؛ وكان قد أبرم الاتفاق أو الوحدة مع «يانوش» ملك «بدون» وكان الكفار يطلقون لقب «أرشك» فيما بينهم على أراذل الرهبان الذين تقل رتبتهم درجتين أو ثلاثة عن «ريم بابا»، وإن شاء الله تعالى ستوضح أحوال هؤلاء في موضعها المناسب، وعندما حضر «فرديناند قرال» ملك «بج» لمحاصرة «يانوش قرال» في «بدون» كان قد تم الاستيلاء على «أسترغون» من الأرشك المذكور؛ حيث وُضع بداخلها الكفار بالقدر الكافي من رماة البنادق من الإسبان وأقيمت المتاريس، ومنذ ذلك الحين كان «فرديناند قرال» قد أصبح مالكًا لـ «أسترغون».

وفي اليوم الثاني والعشرين من الشهر المذكور لما نزل الجيش المقرون بالظفر عند صحراء «أسترغون» امتلأت الجبال والتلال بعسكر الإسلام، وكان الكفار الذين

بداخل القلعة من خيرة جند كفار «إسبانيا» و«نمچه» وكان كل واحد منهم يدّعي الشجاعة، فقاموا بإطلاق مدافعهم وبنادقهم بغزارة بقصد ألا يجعلوا الغزاة المسلمين يتفوقون عليهم، وألا يجعلوهم يقيمون المتاريس وألا يجعلوا الغزاة ينظرون إليهم باحتقار، معتمدين على شجاعتهم وكثرتهم، واستحكام قلعتهم ومتانتها، حتى صارت نواحي القلعة لا يستطيع أي شخص فيها أن يرفع رأسه أو إصبعه، ولكن المسلمين فسروا تصرفات الكفار الذين مأواهم النار هذه إلى أنها تعود إلى عظيم خوفهم ومهابتهم من جند الإسلام، وأقام كل واحد من الوزراء المتاريس في أحد الأطراف، وفي الليلة نفسها وضعوا كل مدفع من المدافع الكثيرة في مكانه، وقاموا بحفر خنادق تحت الأرض من أجل تأمين حركة ذهاب الغزاة وإيابهم بأمان؛ حيث انشغلوا بتلك الأمور حتى الصباح، وفي الصباح الباكر، بدأوا بعون الله الملك الأكبر بضرب القلعة، وفي اليوم الرابع من شهر جمادى الأولى، جعلوا المنادين ينادون بالهجوم؛ وحيث توجه الغزاة صوب الثغرات التي فتحوها ثم هجموا عليها، وخرجوا كما لو كان يوم القيامة وزمزمة الحشر حتى كان حزب الشيطان الرجيم يُشق نصفين بسيف الغزاة وبأصوات الله الله جل شأنه، ومهما يكن من أمر فقد سقط الكثير من القتلى والجرحى من كلا الطرفين، ولحق بزمرة الشهداء في تلك المعركة كل من «جندي سنان بك» أمير «بولى» و«زهرمار محمد بك» قائد الأسطول، ولكن هجوم الأبطال الذي كان في هذه المرة أوقع الضعف في قلوب الكفار؛ حيث طلبوا الأمان في اليوم السادس من الشهر المذكور، وقد أحسنت العناية السلطانية بالأمان عليهم، ونصبت الأعلام والسناجق(١) على قلاعهم، وأصبحت «أسترغون» منذ ذلك اليوم دار إسلام.

وقد كتب الكفار في تواريخهم: بعد أن تم تطهير كل جيف وقاذورات ونجاسة جميع الناس التي كانت موجودة في القلعة، أُحسن عليهم بإذن الانصراف، والحق فإن

(١) المقصود بالسناجق هنا: الرايات أو البيارق.

هذا التصرف الطبيعي هو فطنة خاصة بالحكام الذين يتسمون بالشجاعة ومن السمات الفائقة التي لا تصدر عن أي سلطان ذي جاه حتى الآن.

وتم تحويل الدير عظيم البنايات الموجود وسط القلعة الذي لم يُرَ مثله، تم تحويله إلى جامع جليل البرهان، وفي اليوم التالي الذي كان موافقًا يوم الجمعة امتطى السلطان حامي العالم جواده مع نواب البلاط، وتجولوا وشاهدوا أولًا السراي الباعثة على الابتهاج، ثم القلعة الملفتة للأنظار، وبعد ذلك أدوا الصلاة في الجامع الجديد، وحمد الأهالي خالق البرايا جل وعلا بقلب مسرور، وتم تعيين قاضٍ من أجل تطبيق قواعد الشرع الشريف هناك، وحارس وحماة أمن من أجل حماية القَلعة، كما تم تعيين سائر المستلزمات والاحتياجات لإكمالها، وقد توفي «بالي باشا» أمير أمراء «بدون» إلى رحمة الله، وأصبح دفين صندوق الغفران في ميدان «بالي باشا»، وقد وجهت «بدون» في ذلك الحين إلى «محمد بك بن يحيى باشا» أمير سنجق «سمندرة»، وكلف المشار إليه بضم القلعة المذكورة إلى سنجق «بدون»، كما كلف أيضًا بإصلاحها وترميمها، حيث وفر له الأموال والمستلزمات اللازمة من الخزينة العامرة.

تخريب قلعة «تاتا» وقلعة «ويلان»

في السنة نفسها تحرك حضرة السلطان في اليوم الرابع عشر من الشهر المذكور من «أسترغون» تحفه العزة والإقبال، وما إن نزل بالقرب من القلعة المشهورة التي تعرف باسم «تاتا» حتى أخلى الكفار هذه القلعة التي كانوا موجودين بداخلها؛ بسبب خوفهم من شهرة وصدى صيت جند سلطان الأقاليم السبع وفضلوا الفرار، وبعد نهب واغتنام الأمتعة النفيسة الموجودة بداخل القلعة بأمر السلطان المظفر، خربت وهدمت. ولما كانت هذه القلعة غير ممكن الإقامة فيها، فإنه لم تكن هناك ضرورة للاستيلاء عليها.

وبعد نهب قلعة «ويلان» التي كانت مقامة على جبل مرتفع وبلا مثيل يعرف باسم «ياقون طاغي»، والتي كانت دائمًا وكرًا للأشقياء وملجأ للصوص، تم تخريب القلعة

حيث هدمت بعض أبراجها، ولم يتم تعمير تلك القلعة بعد ذلك، فهي خراب إلى الآن، ولكن قام الكفار الذين شعارهم الضلال بعد ذلك بتعمير القلعة المذكورة وإصلاحها، وقاموا بوضع أشقياء بالقدر الكافي بداخلها؛ وبسبب أن هؤلاء لم يتورعوا عن ارتكاب المفاسد والهجوم على قلاع الحدود الإسلامية، قام السلطان صاحب السعادة بإرسال واحد من الأسرى الذين كانوا محبوسين في قلعة «تاتا» إلى «جندي حمزة بك»، الذي كان «أمير لواء» في «أستوني بلغراد» في زمنه الشريف، ويحيطه علمًا بأنه من الممكن المجيء ليلًا من مكان كذا والدخول إلى القلعة سرًا، وينجح الأمير المذكور «حمزة بك» في الدخول من هذا المكان إلى القلعة مع غزاة «أستوني بلغراد» بإرشاد الأسير المذكور، حيث غنموا الغنائم التي تزيد عن الحد والحصر، وبعد ذلك وفي أثناء خروج السلطان «سليمان خان غازي» رحمة الله عليه إلى حملة «سكتوار»، أتى الكفار بعسكرهم واستولوا ثانية على القلعة المذكورة.

وكان أمير أمراء «بدون» «أرسلان باشا» المشهور والذي كان «ابن محمد باشا بن يحيى باشا» كان رجلًا لا يأبه بأي شيء، وذا قلب صاف، حتى إن بعض الأمور التي تروى عنه لا يمكن أن تصدر من مجنون، فقد كان شخصًا توصف تصرفاته بالجنون، ولهذا السبب ففي أثناء توجه السلطان صاحب السعادة إلى «سكتوار»، وعندما نزل بالقرب من الربوة العالية التي تعرف باسم «حارشان»، ألحق بزمرة الشهداء بسيف القهر السلطاني أمام خيمة السلطان، رحمة الله عليه.

حكاية مضحكة

لقد سمعت بعض النوادر المضحكة عن «أرسلان باشا» المومأ إليه من الذين كانوا معاصرين له، وليس هناك قدرة لهذه المجموعة - أي لهذا الأثر - على تفصيل تلك النوادر، ولكن علينا أن نورد هنا أحد لطائفه لنعلم كيفية أحوال «أرسلان باشا» وتصرفاته.

في أحد الأيام أمر السلطان المقرون بالنصر بإقامة الزينة؛ حيث يتم تزيين الأسواق والبازارات كالعادة، وأظهر كل شخص قدراته في تنظيم مجالس الإقامة والشراب، وفي ذلك الحين، بينما كان الباشا [أي أرسلان باشا] نادر الأطوار يتجول في القلعة، كان رجل يقلي الكبدة على كومة من الكناسة بالقرب من «أورته جامع» الذي كان يقع في وسط السوق، ولما رأى هذا الرجل أن الباشا يأتي ناحيته، ترك ما كان يفعله وذهب، وحضر الباشا، وبمجرد أن يرى ذلك الرجل قد ترك مكانه، يتوجه إلى الكبدة ويجلس قائلًا: «هذا المكان هو أجمل مكان للجلوس أوجدوا وأحضروا صاحب ذلك، وكان صاحب ذلك عاملًا كافرًا فقيرًا، فعثروا عليه وأحضروه، وراح الباشا يمزح معه كثيرًا ويهتم بأمره ويأخذه إلى جواره، ثم ينظم المجلس كالعادة، وفي أثناء حوار هذا الرجل مع الباشا، حيث لقي منه تمام الكرم، ينهض الباشا على أقدامه، ويقف تجاهه، وعندئذ لم يغض أفراد «اللوند»[1] الطرف عن هذا الوضع المثير، وأصبح هذا الوضع سببًا لأن يتوجه أرسلان بالرجاء إلى هذه الطائفة، فيقول «أرسلان باشا» راجيًا: «إنني أرجو منكم جميعًا، إننا استهزأنا بالرجل على هذا النحو، فليعفو عن ذنبنا، ويعفو الكافر الفقير لما قال الباشا»، وبعد مرور فترة، يكرر الفقير نفس فعلته مرة أخرى ويقول الباشا: «إنني أرجوه أن يقبلني أخًا له»، ويعفو الكافر الفقير عما قاله مرة أخرى ويقطع كلاهما إصبعه، ثم يتلاعقان دم بعضهما البعض، ويصيران إخوة وينهض أرسلان باشا بعد ذلك على أقدامه مرة أخرى، ويدعو الكافر للإسلام قائلًا: «ولدي رجاء أيضًا، وهو أنه لا بد وأن تكون مسلمًا هذه المرة، فلا يليق أن يكون أخي كافرًا، وينعم ويحسن عليه، ثم يحضر الجراح، ويجعله يقوم بختانه في المكان الذي يجلس فيه بجواره، ويقرعون الطبول ويقيمون الأفراح والتسالي»، فإنه بعد ذلك يجعل الباشا الفقير يقوم، قائلًا له: «ما زال لدي رجاء، فيلعب أخي لعبة «طانجة» من أجل خاطري»، وكان المسلم الجديد لا يرتدي سروالًا، كما كان قميصه قصيرًا ولا يمكن أن يستر العورة فينهض على يده التي ستحميه ويلعب لعبة الطانجة.

---

(١) هو اسم يطلق منذ القدم على صنف من الجنود العاملين في البحرية.

وكانت معظم تصرفات الباشا غير لائقة على هذا النحو، حتى إنه كلما كانت تصل بعض هذه التصرفات إلى مسامع السلطان صاحب السعادة، كان يتفضل بالحديث قائلًا : جميع حكامنا عقلاء، فلا يكن أبله مثل هذا موجودًا بينهم.

ومع كل هذا فإن إقامة مصنع البارود في «بدون» واكتشاف المعدن الذي يستخدم في صناعة البارود يعد من آثاره الجميلة، وحتى ذلك الوقت، كانت خزينة مصر لا تُحل في «إستانبول» وكانت تأتي إلى «بدون» بالصناديق كما هي، ويغيِّر المشار إليه «أرسلان باشا» هذا النظام، ويقوم بتحرير دخل المقاطعات وأموال الجزية، ويسرح حوالي اثني عشر ألفًا من الأفراد باعتبارهم «زيادة» ويقلل حساب اليوميات التي تعد كبيرة في الحملة؛ حيث قرر قانونًا بأن تكون يومية طائفة «بشلو» ثماني أقچات ويومية المستحفظين ست أقچات ويومية العزب خمس أقچات ويومية حراس الصحراء أربع أقچات، ولما أصبح المرحوم «سنان باشا» قائدًا، وأتى إلى حملة «يانق»، كان أمراء حدود المجر على هذا النحو. أما في البوسنة فكان يعطى حتى ذلك الوقت خمس أقچات لـ «بشلو»، وأربعًا للمستحفظين، وثلاث أقچات للعزب الذين تم تعيينهم من قبل المرحوم أبي الفتح سلطان محمد خان غازي رحمة الله عليه، كما أن الوضع في بعض القلاع التي تم فتحها في ذلك العصر، كان على هذا المنوال وتقريبًا الكلمة جرت الكلمة، وخرجنا عن الموضوع والآن ينبغي علينا الرجوع إلى الموضوع الأصلي.

فتح قلعة «أستوني بلغراد» دار الجهاد

في ٣ من جمادى الآخرة سنة ٩٥٠ هجرية[١]، في اليوم التاسع عشر من الشهر المذكور أقيمت الخيمة السلطانية لحضرة سلطان الأقاليم على مكان مرتفع أمام القلعة المذكورة، ثم تفضل حضرة سلطان العالم بالنزول إلى هذا الموضع بكامل العظمة والإجلال والسعادة والإقبال، ومن ثم أقام سائر العسكر الكثيرين كالنجوم خيامهم على جوانب القلعة وأطرافها، حيث حاصروا جوانبها الأربعة.

(١) الموافق: ٣ من سبتمبر ١٥٤٣م.

وقد كانت القلعة المذكورة تقع وسط صحراء واسعة، وتحيط جوانبها وأطرافها بحيرة عظيمة بحيث كان لا يسمح الطين والغاب الموجود في البحيرة بعبورها لا بالدواب ولا بالسباحة، و«أستوني بلغراد» هي قلعة قديمة ومتينة ومبنية فوق موضع حصين وكانت الكنيسة ذات القبة العالية الموجودة في وسط القلعة، لا نظير لها في العالم، كما لو كانت تتكئ على فلك مكون من تسع طباق، وكانت قد بنيت قبة عظيمة في الجانب الجنوبي للقلعة؛ لتكون مدفنًا للملوك وكانت هذه القبة ملاصقة للكنيسة المذكورة، وربما كان مدفونًا هنا عشر جيف قذرة لهؤلاء الملوك، وبعد الفتح كانت قد أبقيت هذه الكنيسة في أيدي الكفار أيضًا، حيث كان يتم جلوس الملوك فيها، ومن ثم تتم فيها مبايعتهم بالملك حتى إن لفظة «أستوني» معناها في لغة الخروات العرش، ومن أجل ذلك كانت هناك أهمية عظيمة لـ «أستوني بلغراد» بين الملوك؛ نظرًا لأنها كانت مكان مدفنهم ومبايعتهم بالملك.

وعلى أية حال، لما أصبح من المقرر توجه السلطان إلى «أستوني بلغراد»، أرسل أمير أمراء «أناضولي» إبراهيم باشا مع بعض الأبطال فاتحي الأقاليم، وصدر فرمان بإحضار المدافع، ولما أحضرت المدافع، شرع في ترتيب المتاريس، وقام الوزير الثالث «محمد باشا» مع أغا الإنكشارية بحفر الخنادق على شكل قنوات تحت الأرض ليلًا بالأماكن القريبة من القلعة وقام الوزير الرابع «خسرو باشا» بالحفر من طرف آخر، وأمير أمراء الروم إيلي «أحمد باشا» من ناحية ثالثة، وفي الوقت نفسه أكملت سائر مستلزمات الحرب؛ حيث نشب حرب وقتال وجدال عظيم بتلك الدرجة التي لم ترَ عين الدهر حربًا مثلها، ولما كان فتح القلعة متوقفًا على دور المدافع، فإن الغزاة كانوا يترقبون وينظرون بلهفة وصول المدافع، وما إن وصل خبر اقتراب وصول المدافع حتى امتطى جميع الغزاة جيادهم، واستقبلوهم بالمواكب، ووزعت المدافع في ذلك اليوم على كل المتاريس، وانشغلوا بوضعها في أماكنها.

وفي اليوم التالي أطلقت نيران المدافع في وقت السحر بالدعاء والثناء، وملئوا العالم بالدخان وأحرقوا مواقع الكفار الذين مأواهم النار، وبعد أن استمر الضرب على هذا

النحو لعدة أيام، فتحوا الثغرات في القلعة، ولما كان الوزير «خسرو باشا» صافي القلب ولا يعبأ بأي شيء، كان يتقرب من الغزاة، ويتلاطف مع كل شخص منهم ولذلك كان يجتمع الأبطال بكثرة في فرقته أكثر من الأمراء الآخرين، وفي اليوم التاسع والعشرين من الشهر المذكور وعلى إثر فتح ثغرة بالقدر الكافي قام خسرو باشا بترغيب الغزاة على الهجوم، ولم يتبادل الأخبار مع الوزراء الآخرين حتى إنه لم ينتظرهم أيضًا، وما إن وصل الغزاة إلى الثغرة حتى رأوا أن الوضع ليس كما يُعتقد، وأن الثغرة المفتوحة ليست واسعة بالقدر الكافي. فواجه عدد كبير من الكفار الغزاة، وأسقوا عددًا كبيرًا من الغزاة شهد الشهادة أمام الجدار، وعمومًا فقد كان فتح هذه القلعة مقررًا أن يكون في يوم أحد، فإنه لم يتيسر الاستيلاء عليها في ذلك اليوم، وراحوا يضربون القلعة على مدى خمسة أو ستة أيام ليل نهار، ودخل الغزاة إلى عمق جدران القلعة، حيث أعدوا الأماكن التي سيحتمون بها، وراحوا يتربصون بالعدو ويتحينون الفرصة.

وفي اليوم الثاني من شهر جمادى الآخرة الموافق يوم الأحد صدر الأمر بالهجوم من قِبَل السلطان صاحب السعادة وحامي العالم، وكلف المنادون بالنداء بين الجنود قائلين: «مال الغنائم سيكون غنيمة»، وأمضى غزاة الإسلام تلك الليلة منشغلين في العبادة ولم يستريحوا حتى الصباح كما لو كانت ليلة القدر، ولما كان مقدرًا فتح تلك القلعة في اليوم المذكور، فقد سقط ضباب كثيف بأمر حضرة الحق تعالى بحيث لم تكن الرؤية فيه ممكنة على بعد حوالي خمس خطوات، وكان ذلك مصداقًا لمضمون القول «إذا أراد الله شيئًا هيأ أسبابه». ولهذا تمكن الغزاة من المجيء وملء الثغرات، وعندما أطلقت نيران المدافع بغتة في وقت السحر دون أن يدرك الكفار ما الأمر، ودون أن يروا أي شخص، وعندما أحدث صدى أصوات «الله الله جل شأنه» ضجيجًا في العالم، وزلزلة في تلك الصحراء الواسعة، اقتحم الغزاة تلك الثغرات متعقبين بعضهم البعض حتى ملئوها، ولكن لما أدرك الكفار الوضع في النهاية، أعدوا أرواحهم وحملوا رءوسهم وقاتلوا حتى صار معظمهم معفرين بالتراب، كما وضع أيضًا رجال كثيرون من أهل الإسلام أقدامهم على عتبة الشهادة واستمرت الحرب والقتال زمنًا طويلًا وحمي وطيسها.

وفي هذه الأثناء، دمعت عينا حضرة حامي الخلافة المباركتان، وسالت الدموع على وجنتيه اللامعتين متضرعًا لجناب الله جل شأنه حيث سجد لله تعالى حتى إنه لم يرفع رأسه المباركة، حتى تم له الفتح، ولا جرم فقد كانت مساعدة عناية الباري من خالص بركات ذلك الدعاء، وانتصر غزاة الإسلام على الكفار اللئام، ودخلوا إلى القلعة، حتى إن الوزراء والأمراء تعاقب دخولهم خلف بعضهم البعض، فأسرع الكفار الذين كانوا بقية السيوف إلى باب القلعة بأمل التحصن بالقلعة الداخلية، ولكن الملاعين الذين كانوا بالداخل أغلقوا الباب دونهم، وفي ذلك الحين تمكن الغزاة من إهدار دم الذين تراكموا عند الباب والذين دخلوا الخنادق بالسهام وبطلقات البنادق، كما سفكوا دماء بعضهم أيضًا بالسيف، وقال المرحوم جلال زاده: إنهم تساقطوا وتراكموا فوق بعضهم البعض بشكل كثيف، حتى إن جثثهم قد صارت كالتباب، وبينما كانت تنظف القلعة بعد ثلاثة أيام، عثر على شاب مجروح، كان قد بقي تحتهم كل هذه الفترة حيث أخرج حيًا. وهكذا تم فتح القلعة التي اشتهرت بعد ذلك باسم «بشلو واروشي» في هذا اليوم بهذه الطريقة.

وفي اليوم التالي الموافق اليوم الثالث من شهر جمادى الآخرة طلب الكفار الذين كانوا في القلعة الداخلية الأمان، وتفضل السلطان صاحب السعادة بالإحسان بالأمان على الكفار الذين كانوا من «نمچه» وفرنك؛ وتفضل بالقول: «لا يوجد أمان لكفار المجر المحليين، فينبغي أن أراهم أولًا، ففي الوقت الذي كان فيه هؤلاء خاضعين لملك «بدون» «يانوش قرال» لماذا انقلبوا وصاروا تابعين لـ «فرديناند قرال» دون أن يتعرض جند الأعداء لهم ودون أن يضطروا إلى ذلك قط؟»، فلما علم كفار المجر بهذا الفرمان، علقوا سيوفهم وأكفانهم في رقابهم، فإنه على إثر توسلهم بعد ذلك قائلين: «إننا رعايا للسلطان صاحب السعادة في القلعة، وإننا نقبل الجزية»، أُحسن عليهم بالأمان، وأبقيت الكنيسة الكبيرة التي كانت مدفن الملوك في أيديهم؛ واستقر وبقي كل واحد منهم في داره وأحسن بإمارة سنجقها على «أحمد بك» شقيق أمير أمراء «بدون» محمد باشا بن يحيى باشا الذي كان أمير سنجق «إينه بختي» والذي كان قد عين قائدًا على

الأسطول بدلًا من «زهرمار محمد بك» وذلك مقابل مقاطعة خاص[١] يقدر خراجها بستمائة ألف أقچة، ووضع ألف جندي من الإنكشارية وثلاثة آلاف كاملة من العسكر الذين يعرفون باسم «يرلو قولو»[٢] في مهمة الحراسة.

ولكن كفار المجر الذين قبلوا أن يكونوا رعايا، وقبلوا دفع الجزية يقومون بوضع بعض المهمات الحربية وبعض الأشقياء الذين يعرفون باسم «حيدود» في براميل ويحملونها إلى القلعة، كما لو يحملون مياه شرب بالبراميل، ثم يخفونهم إما في منازلهم أو في الكنيسة الكبيرة، وبالإضافة إلى هذا راحوا يعملون كمرشدين لعدة آلاف من الكفار ويدخلونهم إلى القلعة، ولما علم أمير السنجق وبعض الغزاة بالوضع، قاموا بالهجوم على منازلهم وعلى الكنيسة المذكورة، ولما تحققوا من الأمر ظهرت الحقيقة، وفي الحال يقوم الغزاة بقتل جميع الكفار والاستيلاء على كل ما يملكون واعتبارها غنيمة، وبعد ذلك يبيع أمير السنجق منازلهم، ويبني بتلك الأموال برجًا كبيرًا على البوابة التي تؤدي إلى الحي الخارجي للقلعة، ثم يقوم بتطهير الكنيسة الكبيرة وتحويلها إلى جامع، وكان يوجد برجان يصلان إلى عنان السماء على جانبي باب الجامع، وكان يوجد أسفل الأبراج مخزن بارود أسود، وكان يرفع الأذان من أحد هذين البرجين، أما البرج الآخر فقد اعتُبر برجًا للساعة، وفي تاريخ ألف وعشر هجرية، لما استولى الكفار على القلعة

(١) خاص: تعبير يطلق على التيمارات التي تحقق دخلًا أكثر من مائة ألف أقچة. وكان يوجد تعبير «خاص» عند سلاطين خوارزم، والمماليك، وسلاجقة الأناضول. وكانت الخواص التي تعطى للوزراء وأمراء الأمراء والأمراء الآخرين تسمى باسم «خواص وزراء». حيث تم انقسام التيمارات إلى قسمين «تيمار» و«زعامت» في عهد السلطان مراد الأول.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C.I، S. 750.

(٢) هو اسم يطلق على صنف من جنود الحراسة الموجودين في معية الحراس المكلفين بحراسة القلعة، وكان يوجد بين هذه الطائفة المعروفة باسم «يرلى قولو» في القلاع المهمة أفراد من الإنكشارية والمدفعجية والعاملين بمخازن السلاح من الطائفة نفسها، وكما كان يطلق لقب «قابى قولو» أي خدم الباب على الجند الموجودين في الركاب الهمايوني، فإنه كان يقال «يرلى قولو»؛ أي الخدم المحليين على الجنود الموجودين في الخارج وكانت توجد تشكيلات «يرلى قولو» من الإنكشارية في الأماكن البعيدة والمهمة مثل: بغداد، الشام، مصر، أرضروم، بودين، بلغراد، البوسنة.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. III، S. 634.

المذكورة في زمن سردارية «يمشجي حسن باشا» أشعلوا النار في ذلك البارود حتى راحوا يهدمون الطرف الجنوبي من الجامع والبرجين حتى بدا وكأنه جبل من الأحجار، وبعد ذلك شيد بتلك الأحجار خمسة أبراج كبيرة، ربما كان الواحد منها ارتفاعه أكثر من مائة ذراع.

وإنني هذا العبد الضعيف[1] كنت واليًا على هذا المكان في الفترة من اثني وأربعين وألف حتى خمس وأربعين وألف، وذلك بحسب الظروف التي اقتضاها ذلك الوقت، وكان لا يوجد بتلك القلعة المذكورة سجن يوضع به الأسرى؛ فهرب كثير من أسرانا؛ بسبب هذا، كما فقد كثير من الأسرى الآخرين، وكان جدار البرج الذي كان في الطرف الشمالي لا يزال قائمًا، وكان يوجد أسفله مكان يتسع لأن يكون طابقين وكان ممكنًا أن يصبح سجنًا بإنفاق قليل من المال، فصدر الأمر بتوسيع داخله قدرًا ما وصار سجنًا، وفي الواقع صار مكانًا مناسبًا جدًا، ولكن انهدام ذلك الجدار الذي بقي مكانه مهدمًا جعله في حاجة إلى مجهود شاق، وبناءً على هذا أحضروا المعماريين والبنائين واتخذوا آلاف التدابير، وفي النهاية قرر بضرورة إحضار ثلاثة ألواح خشبية من شجر الأرز لطول يكفي للوصول إلى أعلى التبة، وضرورة إقامة رصيف، ولكن هذا كان يحتاج زمنًا طويلًا ويحتاج مصروفات كثيرة، وفي النهاية، تذكرت حكاية مشابهة لذلك، فجعلتهم يأتون بحبال مفتولة من قشور نباتات الفرنكي، ويمسكون بها ثم يربطون قطعة من الرصاص في حجم يملأ تجويف باطن اليد يربطونها في طرف الحبل، وكلف بعض الأبطال الجسورين والأقوياء بقذف قطعة الرصاص المربوطة في الحبل إلى الناحية الأخرى من جدار تلك القلعة فأجهد هؤلاء كثيرًا، فإنهم لم يوفقوا في ذلك، ولكن نجح في إتمام ذلك الأمر واحد من رجالي، ثم قمت بوصل مجموعة حبال قوية بها عقد، وجعلتهم يحملون هذا الحبل المفتول من قشر نبات سجيم إلى جدار الطرف الآخر للقلعة، وبعد ذلك جعلتهم يسحبون هذا الحبل الضخم بالصورة نفسها، ثم يربطونه بإحكام من الطرف الآخر وجعلت من هذا الحبل الضخم سلمًا على شكل السلم نفسه

(١) المتحدث هنا هو المؤرخ: «إبراهيم بجوي».

الذي به عقد الموجود في السفن من نوع «القاليون»، ثم جعلتهم يسحبونه إلى أعلى ويربطونه بإحكام من الطرف الآخر، ويصعدون عليه، ويبذلون العطايا إلى المعماريين.

وأصعدوا آلة لكسر الأحجار والصخور وإزميلًا لثقب تلك الصخور، وخلال أسبوع واحد استطاع أربعة أو خمسة رجال أن يهدموا الجدار إلى المكان المطلوب، وبعد ذلك جعلتهم يحفرون داخل القلعة إلى الخارج، فلما وصل الحفر إلى أقل من قدر قامة إنسان، ظهرت خزانة مبنية بالجير والخراسانة، وكان غطاؤها عبارة عن قطعة واحدة من المرمر الأحمر، وكان قد نقش عليها تمثال امرأة؛ حيث كتبت عليها بعض العبارات، ولكننا لم نستطع العثور على الشخص الذي يمكنه أن يقرأ هذه العبارات، ولما رفعوا ذلك الغطاء، انكسر المرمر من ثلاثة مواضع قضاءً وقدرًا، وصار ثلاث قطع، وخرجت من داخل الخزانة جمجمة إنسان عليها شيء من التراب.

ولقد خرجنا مرة أخرى عن الموضوع، وعلينا الآن الرجوع إلى أصل المقصود؛ ففي النهاية، بعد أن وفق السلطان عالي الجاه بفضل الله تعالى في هذه الفتوحات العظيمة، عطف عنان عزمه على التوجه إلى ناحية «بدون»، وفي اليوم السابع والعشرين من الشهر المذكور، تفضل السلطان بالعبور من نهر «طونه» ونزل إلى صحراء «بشته»، وبعد ذلك تفضل السلطان بالتشريف والنزول على مقربة من «وارادين» في اليوم الرابع من شهر رجب، ثم توجه إلى المحروسة «بلغراد» في اليوم العاشر، وأخيرًا شرف دار السلطنة العلية طاويًا المنازل وقاطعًا المراحل.

وفاة الأمير السلطان محمد خان عالي الشأن

في ٨ من شهر شعبان سنة ٩٥٠ هجرية[١]، كان سلطانًا عالي الجاه، وعلى الرغم من أن التوفيق في تلك الفتوحات الجليلة لم يتيسر من قبل في زمن قليل على هذا النحو كما تيسر في تلك الجملة المنتهية بالنصر، فإنه من المسلم به أن السنة المقررة في تلك الدنيا

(١) الموافق ٦ من أكتوبر ١٥٤٣م.

الزائلة أن الحرمان هو نهاية كل عزة، والحياة الأليمة هي نهاية كل لذة، فما إن تفضل السلطان صاحب السعادة وحامي العالم بالنزول بالقرب من «أدرنه» بالصفاء والسرور حتى حزن حزنًا شديدًا بوصول هذا الخبر الموحش إلى مسامعه الشريفة، وأمر السلطان بنقل النعش المزدان بالرحمة من «مغنيسا» وإحضاره إلى إستانبول حيث تم ذلك بناءً على أمره الشريف، وفي اليوم الثامن عشر من الشهر المذكور، وصل الجثمان إلى إستانبول؛ وأدى جمهور أهل الإيمان وبالذات السلطان عالي الشأن صلاة الجنازة في الجامع الشريف للسلطان بايزيد، وبعد ذلك دفنوه في المكان الجميل المخصص له في «إسكي أوطه لر باشى» رحمة الله تعالى عليه رحمة واسعة.

وكنا قد سمعنا من بعض الشيوخ المعمرين: أنه كان قد شرع في بناء ذلك الجامع الشريف، وبرز أساسه على وجه الأرض، فلما وصلت جنازة المرحوم ودفنوه على مقربة منه، أتم البناء حيث أطلق اسمه عليه، ولما كان «جلال نشانجي» و«عالي أفندي» من مشاهير ذلك العصر فقد كتب «جلال زاده» في تاريخه عن هذا الأمر أنه بعد أن دفن الأمير السلطان في ذلك المكان، قام السلطان بإصدار الفرمان الهمايوني ببناء جامع شريف وعمارات لطيفة، وقال عالي أفندي: إن بناء ذلك الجامع الشريف المذكور تكلف مائة وخمسين حمل أقچة، والله تعالى أعلم بمدى صحة ذلك المبلغ.

فتح قلعة «ويشغراد»

تم ذلك في سنة ٩٥١ هجرية[1]، لما هل موسم الربيع مع موسم الحرب، أحضر المرحوم أمير أمراء «بدون» يحيى باشا زاده محمد باشا، في يوم «روز خضر» الأمراء التابعين لـ «بدون» مع عسكر سناجقهم إلى «بدون»، وبعد أن حضر من هؤلاء «أحمد بك» شقيق أمير «أستوني بلغراد» و«درويش بك» أمير «سكدين» شقيق المرحوم «بالي

(١) الموافق ١٥٤٣م.

باشا زاده»، و«قاسم بك» أمير سنجق «مهاج» و«مراد بك» كتخدا المرحوم «خسرو بك» أمير «بوزغه»، أبقى نصف أفراد الإنكشارية الذين كانوا في «دون» و«أسترغون» و«أستوني بلغراد» أبقاهم في تلك القلاع؛ ثم قام بتنظيم النصف الآخر حيث قاموا بإخراج المدافع من نوع «باليمز» من «بدون»، وحاصروا قلعة «ويشغراد»، فهدموا الجانب الجنوبي من القلعة السفلية تمامًا وفتحوها بطلب أهلها الأمان، وبعد ذلك شرع في سحب المدافع إلى القلعة العليا، ولكن نظرًا لأنها كانت تقع في موضع مرتفع جدًا حيث كانت مثل الحجاب الذي يستر السماء، عانوا كثيرًا في إصعاد المدافع إليها، وبعد ذلك دخلوا إلى المتاريس، وأقاموا المدافع، وبدءوا يضربون القلعة بشجاعة وإقدام خارق للعادة، وبعد عشرة أيام سلم أهلها أيضًا، ولكن غدر جند الإنكشارية بهم، حيث كان هناك حوالي مائتي كافر، جعلوهم طعمًا للسيف وقتلوهم جميعًا إلا أن عديم الدين الذي كان قائدهم وكان كافرًا مشهورًا، تمكن «محمد باشا» من تخليصه من أيدي الإنكشارية. وأكملت مستلزمات القلعة وتحركوا ورحلوا عنها.

فتح قلعة «نويغراد»

تم الفتح في ١٠ من ذي الحجة سنة ٩٥١ هجرية[١]، لما تم عبور نهر «طونه» والنزول بالقرب من «واج»، علم الكفار الذين كانوا في «نويغراد» بقدوم عساكر الإسلام عليهم، ففروا جميعًا من القلعة وأخلوا القلعة وتركوها، ثم وصل «محمد باشا» أيضًا بعسكر الإسلام إلى القلعة المذكورة، حيث أكمل مهماتها واحتياجاتها ومستلزماتها العسكرية، وعين أحد أمرائه الأبطال المشاهير في القلعة كأمير سنجق، وبعد ذلك اتجه مع عسكر الإسلام صوب قلعة «خطوان».

---

(١) الموافق ٢٢ من فبراير ١٥٤٥م.

فتح قلعة «خطوان»

تم الفتح عام ٩٥١ هجرية ، كان هناك سفير أو اثنان من أبناء الكفار يعرفان باسم «باوال» و«غبروش» متصرفين على تلك القلعة المذكورة «خطوان»، فلما إن علموا بتوجه أهل الإسلام عليهم حتى أشعلوا النار في القلعة وتوجهوا صوب قلعة «أكره»، وأتى المرحوم «محمد باشا» مع جند الإسلام، وأنقذ ما يمكن إنقاذه من النار، وكان قد أعلن الحي الذي خارج القلعة وسائر الأحياء والقرى الطاعة والانقياد لأهل الإسلام، والتزموا بدفع الخراج، وقام «محمد باشا» بالتنبيه بشدة بتعمير القلعة وترميمها، وتعيين واليه المعروف باسم «دلي قورد» على القلعة، وأمده بجنود بالقدر الكافي حيث عهد إليه بتحصين القلعة، ثم قفل عائدًا إلى «بدون» وبعد ذلك عرض هذا السنجق على «ولي بك» المشهور في «بدون»؛ حيث أصبح أمير السنجق بالأمر الشريف الصادر من السلطان.

فتح قلعة «شمو طورنه»

سنة ٩٥١ هجرية، كان أمير القلعة المذكورة هو عديم الأخلاق المعروف باسم «مارقوجي طوماش» وكان عديم الأخلاق هذا يرسل باستمرار قطاع الطرق إلى طرق عابري السبيل القادمين والذاهبين إلى «بدون»، وكان لا يتوانى عن ارتكاب الضرر والفساد، ومن ثم وعلى إثر إصرار «قاسم بك» أمير «موهاج» توجهت الحملة إليه، فخاف من الصيت والسطوة الإسلامية وأخلى القلعة وهرب، وبناءً على هذا استولى المرحوم «محمد باشا» المشار إليه على القلعة، وأكمل سائر احتياجاتها وضمها إلى ممالك حضرة السلطان.

فتح قلعة «وليقة» في لواء البوسنة

في السنة نفسها ٩٥١ هجرية، كان «أولامه باشا» أمير سنجق البوسنة، و«مالقوج

بك» أمير سنجق الهرسك قد ضربا الحصار على القلعة مع أبطال البوسنة، ولكن بسبب أنه لم تكن هناك قدرة ولا قوة كافية لدى عسكرهم، فقد عرض الأمر على باب الدولة وطلب المدد، ووصل الأمر الشريف في أثناء فتح «شمو طورنة»، وتم تعيين قدر من العسكر لـ «أولامه باشا»؛ حيث اختير عسكر «بوزغة» و«سرم» و«سمندرة»، وأرسلوا إلى ذلك الجانب، وما إن وصل هؤلاء بفضل الله تعالى حتى انتصروا وأتموا فتح تلك القلعة، وقد كتب الكفار في تواريخهم: لو أن «محمد باشا» خصص بعضًا من عسكره وأرسلهم إلى البوسنة، ولو سار صوب قلاع المجر في تلك الناحية لكان من المؤكد فتحه لها واستيلاؤه عليها جميعًا.

فتح قلعة «چوقه» وقلعة «أندريك»

تم ذلك الفتح سنة ٩٥١ هجرية، لما كان «أحمد بك» ـ شقيق حضرة محمد باشا المشار إليه ـ أمير «أستوني بلغراد» لا يتوانى ومعه غزاة الإسلام عن التشديد والتضييق باستمرار على الكفار الذين كانوا في القلاع المذكورة، فقد أجبرهم على ترك تلك القلاع حيث عين عليها من بينهم أفرادًا بالقدر الكافي، وعهد إليهم بضبطها كما ينبغي، وبحمد الله تعالى والشكر لله لم يكن أمراء الأمراء التابعون لسلطان الإسلام وأيضًا أمراؤه الذين كانوا يرابطون على الحدود يتوقفون عن مثل هذه الفتوحات العظيمة باستمرار، وعليهم ألا يتوقفوا أبدًا عن مثل هذه الغزوات وعن الظفر والانتصار.

لجوء «القاص ميرزا» الأخ الأصغر للشاه «طهماسب» والي ممالك العجم إلى باب الدولة

تم ذلك سنة ٩٥٤هجرية[1]، بينما كان حضرة السلطان عالي الجاه يمضي وقته في أدرنه المحروسة أحيانًا بالتجوال والصيد، وأحيانًا أخرى بالجلوس مثل قطب الأفلاك

(١) الموافق سنة ١٥٤٧ ـ ١٥٤٨م.

في حديقة قصره الشاسع، عُين «القاص ميرزا» الأخ الأصغر للشاه «طهماسب» واليًا على ولاية «شروان»، ولكن بسبب أن بعض تصرفاته كانت مخالفة لما يتمناه الشاه الضال، فقد قرر تجريد العسكر عليه، فلما سمع «القاص ميرزا» ذلك، ترك ملك «شروان»، وطاف لفترة بلا فائدة مع بعض أحبائه، وبينما كان في حيرة عما سيفعله، ساقت الأقدار عنان عزيمته من صحراء «قبچاق» إلى جانب القرم حيث ركب السفينة من القرم، ولما علم السلطان عالي الوقار بوصوله إلى مضيق البحر الأسود، أمر بإنزاله إلى السراي الجميل والاهتمام بزاده وزواده، وتحرك السلطان أيضًا من «أدرنه» بالعزة والإقبال حيث توجه صوب دار الدولة السنية القسطنطينية المحمية.

وكانوا قد حملوا السلطان إلى مكان لمشاهدة «القاص ميرزا» أثناء دخوله إلى إستانبول، ولما رأى «القاص ميرزا» أغا خدم التشريفات الذين يمرون من أمامه وأيضًا أغوات جند «عربة جي» و«طوبجي» مع رجالهم بالزينة والجمال طبقًا للمراسم العثمانية، نهض قائلًا: «هل هذا هو السلطان»؛ وسلم بانحناء تعظيمًا وتكريمًا، وبعد ذلك رأى أغا الإنكشارية وأمراء الإسطبل، وفي النهاية الوزراء العظام، وازدادت دهشته وحيرته تمامًا حتى جاء وقت عبور حضرة السلطان صاحب السعادة وحامي العالم تحفه العزة حيث أصبح مندهشًا لا يدري بشيء من حوله، وبصفة عامة وبعد عدة أيام وصل «جاوش باشي» و«جبه جي باشي» إلى موضع استراحة «القاص ميرزا» بموجب العادة الهمايونية، وحملوه إلى الديوان الهمايوني بالتعظيم والتكريم، وكان قد جلس الوزراء كل في مكانه وكانت قد رتبت ضيافة عظيمة لا يمكن تخيلها، وبعد الطعام قام مولانا «سيد عزيز الله شرواني» أشهر العلماء الذي كان وزيرًا ووكيلًا جليلًا للميرزا المذكور وبعض أمرائه وأعيانه بتقبيل ذيل ثوب السلطان حيث ألبسوا الخلع الفاخرة، ثم توجهوا إلى أماكن استراحتهم بكمال السعادة والسرور.

وفي ذلك اليوم كانت الهدايا التي خرجت من صاحب السلطنة عبارة عن عدة أكياس من الذهب والغروش والهدايا المتنوعة والنادرة، التي لم ترها أعيننا والأواني الذهبية والفضية المختلفة، والخلع المذهبة التي كانت صررًا صررًا، والجبة المبطنة بفرو

السمور، وبفرو حيوان الدوبية الجارحة والشبيهة بالقطة، والقطائف والأقمشة من كل نوع، والألبسة القيمة المتعددة من الجوخ، والصناديق المملوءة بالقماش والجوخ من كل نوع، وبعض الخيول العربية اللطيفة، وطاقم من الخيول المزدانة بالجواهر والمرصعة، والسروج الذهبية والفضية، والسيوف المرصعة والذهبية، وبعض الأحذية الذهبية اللامعة الهيئة، وسائر التحف والأمتعة القيمة التي تزيد عن الحد والحصر، وتم تعيين النعم السلطانية للعالم الفاضل الذي كان وزير «القاص ميرزا» وسائر رجاله الصغير منهم والكبير، كل على قدر مرتبته؛ حيث أُرسلت من خلفهم.

وفي اليوم التالي أتى «القاص ميرزا» مرة أخرى من أجل تقديم الشكر على تلك النعم، حيث قبل الأيدي السلطانية، وفي الواقع زالت رهبته بإبداء أنواع الرعاية والاحترام من جانب السلطان، فوجد في نفسه القدرة على الحديث، فراح يشكو من أخيه الأكبر الشاه «طهماسب» ويحرض السلطان صاحب السعادة على القيام بحملة صوب بلاد العجم، وبعد ذلك صدر الفرمان من جانب السلطان إلى الوزراء والوكلاء لتقديم الضيافة لهم ورعايتهم، وفي البداية كانت نعم وتشريفات الصدر الأعظم «رستم باشا» غنية عن التعريف والتوصيف، وقد كتب «عالي أفندي» في تاريخه نقلًا عن الثقات أن الأشياء مثل بعض الأثواب المرسلة من جانب السلطانة كريمة الشأن التي كانت حليلة السلطان صاحب السعادة ووالدة أبنائه في هذه الأثناء، والثياب المزركشة والمزدانة الخاصة بالنساء كانت قيمتها تزيد عن عشرة آلاف ذهبية، وبذل كل واحد من الكبراء أمثال الوزراء والوكلاء والدفتردار والنشانجي وغيرهم وحتى نصل إلى أغوات البلوك بذلوا جهدًا عظيمًا في تقديم الإنعام والإكرام، وهكذا نال «القاص ميرزا» العناية التي لم يرها ولم يسمعها طوال عمره حيث أنعم عليه بالنعم الزائدة عن الحد لإتمام شرف السلطنة، وأصبح ملكًا لخزينة عظيمة، وحتى إنه أصبح صاحبًا لكنز عظيم من فرط ما قدم له.

وبعد ذلك وفي أثناء توجهه للسفر، تم إعطاؤه عددًا من الأوتاقات والخيام والمظلات علاوة على مطبخ ومخزن للمؤن وفراش كامل ومرتب، كما أُعطيت إلى سائر رجاله

وذلك طبقًا لمراتبهم الخيام والأوتاقات التي لم تكن قد استخدمت بعد وعددًا من البغال وعددًا آخر من الجمال والتي كانت بكثرة تكفي سلطانًا عالي الجاه، حتى إنه شاع في ذلك الوقت بين الناس ذلك القول: «لماذا ينبغي صرف كل تلك المصاريف بلا فائدة، فلم يأت هذا الرجل محبة في أهل السنة، ولكن لينقذ رأسه، ومع هذا فإنه يضمر جوهر الرفض والإلحاد، ووجوده بين أهل الإسلام ضرر محض»، ولما وصل ذلك القول إلى مسامع جناب السلطان، تفضل بالقول: «إننا فعلنا ما يتناسب مع شرف السلطنة، فلو يفعل أية خيانة فإننا نفوض جزاءه لجناب الباري تعالى».

إرسال «القاص» المملوء بالوساوس قبل السلطان إلى «تبريز»

كان ذلك في العام نفسه، قام السلطان صاحب السعادة وعالي الجاه بالضرب على يد الشاه الضال عدة مرات، حيث دمرت «تبريز» التي كانت دار ملكه بحوافر الخيول الصفراء السريعة الحركة وبالجنود الأقوياء، وفي الوقت الذي كتبت فيه الغلبة والانتصار بفتح «روان» و«أرجيش» و«عاد لجواز»، وكتبت الهزيمة والانكسار للرأس الفاسدة للشاه بالاستيلاء على بغداد العامرة بالجنان والتي كانت دار ملك الخلفاء، لم يكتف الخاطر الطيب للسلطان بهذا القدر، فربما كان لا يهدأ خاطر السلطان المبارك بأي شيء سوى بمحو أجساد الرافضين والملحدين المليئة بالخبائث من على وجه العالم، وعلى هذا النحو أمر في الحال بالخروج للحملة قائلًا: «إن مجيء «القاص» سيحقق هذه الأمنية، ورأى أن من الصواب إرسال «القاص» إلى إيران قبله بعدة أيام، وعلاوة على هذا لما كان «أولامه باشا» ـ الذي مكث عدة سنين في الأراضي الخبيثة للقزلباش ـ صاحب تدبير وبلا نظير في إيجاد مختلف الحيل، فقد قام السلطان بتعيينه في وظيفة «لالا»؛ أي معلم لـ «القاص» في الوقت الذي كان فيه واليًا على سنجق البوسنة، حيث رفع قدره بالإحسان عليه بإيالة «أرضروم»، كما تم تعيين أغا أحد البلوكات وأرسل مع جنود الفرقة المعروفة باسم بلوك خلقي التابعين له، وأرسل أيضًا طبل وعلم وخدم وحشم.

خلاصة أحوال حملة السلطان على دار ملك العجم وفتح قلعة «وان» للمرة الثانية

- تَوَجُّه السلطان:

في ١٨ من صفر الخير سنة ٩٥٥ هجرية[1]، قام السلطان بالعبور من البحر بالعزة والسعادة، وكان الشهزاده أي ابن السلطان فائق الأقران؛ أعني به الـ «سلطان جهانگير» متواجدًا في ركاب السلطان صاحب العرش، ولما نزلوا بالقرب من منطقة «سيد غازي» قاطعين المنازل، أتى والي ولاية «صاروخان» حضرة الأمير السلطان سليم عظيم الحظ واللائق بالتاج والعرش إلى الجيش الهمايوني، وبعد أن تشرف بتقبيل أنامل السلطان حاكم العالم، رُشح لتولي أمور «الروم إيلي»، ومن ثم أرسل إلى «أدرنه» دار السلطنة.

وبعد ذلك لما وصل السلطان بالعزة إلى «آق شهر»، أتى الأمير السلطان «بايزيد» المؤيد بظلال الإقبال إلى «قونية» دار الإمارة، وسُر سرورًا عظيمًا يشبه فرحة العيد بشرف تقبيل يد السلطان السعيد، وبعد ذلك وعندما تم النزول الهمايوني إلى صحراء «سيواس» أتى الأمير عالي الجناب السلطان «مصطفى»، الذي كان ظل عدله بلا نهاية ومنتشرًا في سنجق «أماسيه» وكان أكبر أبناء السلطان، وقلبه مملوء بالصفاء، أتى وسعد بشرف مقابلة السلطان، وبعد ذلك تفضل السلطان بالنزول إلى «أرضروم» الموفورة البهجة ثم انتقل منها إلى قرب «عاد لجواز»، وكان عساكر السلطان عالي الشأن قد فتحوا قبل ذلك قلعة «وان»، ولكن بسبب عدم التزام بعض الحكام الذين كانت قلوبهم مريضة، وذوي الأصول الرديئة؛ وبسبب إهمالهم، سقطت هذه القلعة مرة أخرى في أيدي القزلباش الأوباش، وانطلاقًا من المنزل المذكور كلف «أولامه باشا» أمير أمراء «قرمان» و«بيري باشا» بمحاصرة قلعة «وان»، حيث أُرسلا إلى ذلك الجانب.

---

(١) الموافق ٩ من مارس ١٥٤٨م.

قيام «برهان علي سلطان بن خليل بادشاه»
بفتح ممالك «شروان» واستيلائه عليها

تم ذلك في العام نفسه، في المنزل المذكور «عاد لجواز» وصل الخبر بأن المشار إليه «برهان علي سلطان» قد وصل إلى مملكة «شروان» بناءً على الأمر السلطاني لحضرة السلطان حامي العالم، حيث قام بإخضاعها، والاستيلاء عليها كما كان من قبل وتفصيل ذلك بيانه فيما يلي:

كان «خليل بادشاه» والد المذكور من الأسر القديمة لسلاطين «شروان»، وعلى إثر زواجه بينت الشاه «إسماعيل» الضال أصبح ملكًا على ممالك «شروان» بلا منازع، وبعد ذلك عندما توفي؛ فبسبب أن ابنه «برهان علي» كان صغيرًا، اعتلى ابن عمه «شاهرخ ميرزا» حكومة «شروان»، ولكن استولى عليها الشاه طهماسب، وكان «شاهرخ ميرزا» موجودًا في قلعة «شماخي»، وبعد أن حاصره «طهماسب» سبعة أشهر خرج «شاهرخ» بطلب الأمان فإنه لم يحسن عليه بذلك الأمان وقتله، ثم عهد بحكومة «شروان» إلى أخيه المذكور «القاص ميرزا»، وفي ذلك الحين قام المذكور يعني «برهان علي سلطان» بجمع العسكر عدة مرات، حيث دخل في حرب وقتال مع «القاص»، ولكن بسبب انتصار «القاص» في كل مرة، لجأ إلى «آستانة» السلطان حامي العالم، حيث تم تعيين «ساليانة»[1] و«أربه لق»[2] له، والمرتبات لرجاله، وبينما كان يعيش مرفه البال في ظل

---

(١) وهي تعني السنوية، وهو اصطلاح يستخدم بخصوص الأجر أو الراتب الذي يُعطى كسنوية لقسم من الموظفين أو المكلفين بأعمال. والإيالات التي كانت تدار أو تحكم بنظام الساليانة هي: مصر، بغداد، اليمن، الحبشة، البصرة، لحسا، الجزائر، طرابلس غرب، تونس. ولكن بعد ذلك عمم هذا النظام تدريجيًا، وازدادت الأماكن التي كانت تدار بنظام الساليانة. وكان قد ورد تعبير ساليانة في قانون نامه السلطان «محمد الفاتح». ولكن ألغي نظام الساليانة بعد فترة التنظيمات.

-Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser‹ C. III‹ S. 111- 112.

(٢) هو شيء يُعطى كمعاش عزل أو تقاعد للموظفين المدنيين والعلماء المعزولين أو المتقاعدين. ووفقًا لتعريف «شمس الدين سامي» في «قاموس تركي»: هي المخصصات التي تعطى عينًا أو نقدًا لرجال الطريق العلمي.

-Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser‹C. I‹ S. 84.

الرعاية السلطانية، أتى أيضًا «القاص» إلى «آستانة» السلطان يرجو المساعدة، وفي تلك الأثناء أرسل المذكور «برهان علي» إلى «شروان» بناءً على الأمر السلطاني حيث تحرك بالسفن من البحر الأسود ودخل إلى «شروان»، فانتصر على القزلباش الذين استولوا على «شروان» من أجل ابن الشاه «طهماسب» بعد أن غادرها «القاص»، واستولى على ملك «شروان» كما كان قبل ذلك، واستمر مالكًا لملك «شروان» لمدة عامين، حتى قصد روضة الجنات أي توفي. ولما كان ابنه الذي كان من المقرر أن يكون ولي عهده صغيرًا وغير قادر على الحكم، فقد أخذه مربيه وفر به إلى «القرم»، وحتى بعد ذلك ظل في صحبة «لالا مصطفى باشا» أثناء فتح «شروان»، وكان قد عهد إليه بسنجق لائق في «شروان»، وبعد ذلك لم يعثر على إثر لأي شخص من تلك الأسرة.

توجه سلطان العالم إلى جانب «تبريز» و«شنب غازان»

في العام نفسه، بينما كان من المقرر توجه السلطان شخصيًا بالرايات التي هي إشارات السعادة، من المنزل المذكور «عاد لجواز» إلى أطراف «وان»، انصرف عنان فاتح العالم صوب «تبريز»، وذلك بناءً على طلب «القاص» الغارق في الوسواس، وفي يوم عشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة[1]، ضربت خيام الغزاة العثمانيين في أطراف «شنب غازان»؛ حيث أرسل الحراس من أفراد الإنكشارية ومن أفراد أغوات البلوك وأيضًا من جاوشية البلوك، وهكذا فتحت على نحو لم تفقد معه بيضة من أي فرد ولم تدَّعِ زوجة أي شيخ بسوء على أي أحد قائلة: «سرقت دجاجتي».

وكانت نية السلطان منصرفة لتنصيب «القاص ميرزا» سلطانًا على عرش «تبريز» ومده بالقدر الكافي من العسكر والخزينة ومخزنًا للأسلحة ومدافع وجميع مستلزمات النصر، وكان يفكر بأن يجعل «القاص» يقوم بإمداده بالعسكر من هذا الجانب وأن يجعله أيضًا يخضع رعايا تلك النواحي وبعض خاناتهم وأمرائهم، ولكن لم تكن طبيعة

---

(١) ٢٩ من يوليو ١٥٤٨م.

«القاص» تليق بذلك الإحسان، وفضلًا عن هذا إنه بينما كان واليًا في «شروان» من قبل ضاق فقراء وأغنياء هذه البلاد ذرعًا بتعدياته المتعددة، والآن أيضًا فرض على أهالي «تبريز» الأموال الباهظة وقام بإيذاء بعض الفقراء وتعذيبهم، ولما علم السلطان أنه كان دائمًا يجالس الأراذل ويحبهم، وأنه ضعيف يعجز عن السيطرة على الأوباش الذين كانوا تحت قيادته، فقد صرف النظر عن ذلك التفكير أي عن تولية «القاص» حكومة «شروان».

ثم إن عددًا من أصحابه من ذوي الأغراض الفاسدة قاموا بإيقاع مجزرة بأهالي «تبريز» وبنهبهم والإغارة عليهم، مما أغضب السلطان، وبعد ذلك صرحوا بقولهم: «علي كل حال ينبغي أن يطرد الصناع والتجار، ويجب سلب الأموال ونهبها من الذين بقوا»، وعندئذ ظهرت الرحمات السلطانية؛ حيث لم يسمح بالتعدي على أي شخص بأي وجه من الوجوه، فإنه أمر بنهب قصور الشاه وتخريبها، وبإحراقها وهدمها حتى تتساوى بالأرض.

وفي ذلك الحين تم التحري عن أحوال الشاه الضال، وصار مؤكد عدم احتمال خروجه للمواجهة واستحالة العثور عليه بالتفتيش عنه في الجبال والبوادي التي اختفى بها، وفي اليوم الخامس اتضح أنه من المناسب التحرك من «تبريز» إلى «وان»، حيث عقد العزم على التوجه إلى تلك الجهة.

فتح قلعة «وان»

تم ذلك الفتح في ١٠ من رجب سنة ٩٥٥هجرية[١]، تمت العودة من «تبريز» حيث ضرب الأوتاق الهمايوني؛ أي الخيمة السلطانية في صحراء «وان» في اليوم العاشر من شهر رجب، وعلى إثر صدور الفرمان لحضرة الوزير الأعظم الجليل «رستم باشا» ليبدأ في فتح القلعة، أقيمت المتاريس على الفور في ذلك اليوم، واتخذت التدابير اللازمة ـ التي

(١) ١٥ من أغسطس ١٥٤٨م.

لا حاجة لتفصيلها ـ والمتعلقة بالفتوحات، وبعد أن ضربت القلعة ليل نهار على مدى أسبوع، هرع القزلباش لإنقاذ رءوسهم، ففي اليوم التاسع، قام «عالي خان» الذي كان محاصرًا بإنزال بعض القزلباش الأوباش الذين كانوا داخل القلعة بالحبال، حيث طلبوا الأمان بواسطة «القاص ميرزا» وفي اليوم العاشر تم فتح القلعة وعهد بإمارة أمرائها إلى «چركس إسكندر باشا» الذي كان من خدام السلطان سامي المكان، والذي كان «دفتردار» الأناضول في الآستانة المحفوفة بالسعادة، وأُكملت سائر لوازمها ومهماتها واحتياجاتها التي تلزمها كما ينبغي، ولما اقترب موسم الشتاء عقد العزم على التوجه إلى جانب المشتى، فتشرفت المنازل والمراحل بحوافر جواد السلطان ذي الخصال الجميلة؛ حيث أقيم في اليوم الخامس والعشرين من شعبان المعظم[1]، سرادق السلطان ذي المحامد بصحراء «آمد».

تولية الوزير الثاني «أحمد باشا» قائدًا على جانب «أرزنجان» و«عاد لجواز» و«أرجيش»

كل ذلك في العام نفسه. لما علم الشاه الضال أن قلعة «وان» قد أخذت، خرج وهجم على فقراء الرعايا الذين كانوا في نواحي قلعة «عاد لجواز» وصحراء «موش» ونواحي «أخلاط»؛ حيث إنه كان يعتقد عدم القدرة على مواجهة عسكر الإسلام، فيقوم بقتل الضعفاء والفقراء والأرامل الذين وقعوا تحت يده في تلك النواحي قتلًا جماعيًا، ثم راح يسوق ويدفع أمامه الحيوانات والأغنام والبقر والجاموس التي استولى عليها كأنه راعٍ، وكان السلطان صاحب السعادة قد تفضل بتعيين عدد من البنائين والعمال لـ «ياسين علي بك» أمير لواء «ذو القدرلو» من أجل تعمير قلعة «قارص» التي كانت خرابًا ووكرًا للبوم والغربان منذ القدم، وهكذا جردت فرقة من الشرذمة المذمومة أي القزلباش للهجوم على المذكورين، فيهجمون عليهم على غرة، ويقتلونهم وينهبونهم

(١) ٢٩ من سبتمبر ١٥٤٨م.

جميعًا، ولما عرض هذا الخبر على جناب السلطان في أثناء تعمير قلعة «وان»، عقد في الحال عنان العزيمة الهمايونية على التوجه إلى ناحية «عاد لجواز» بجند مثل موج البحر، ولكن هرب الشاه مثل الثعلب من وكر إلى وكر؛ حيث لم يظهر منه أثر ولم تر له شجاعة قط سوى تمزيقه للحيوانات التي اغتنمها بسيف الحقد قائلًا: «ينبغي ألا تبقى في منازل جيشهم».

وفي النهاية تم التوجه إلى جانب «ديار بكر» على إثر حلول موسم الشتاء كما ذكر من قبل، ولما امتدت ظلال إقبال السلطان على «ديار بكر»، هجم القزلباش ثانية على «أرزنجان» و«ترجان»، وارتكبوا الظلم والجور في حق فقراء «أرجيش» و«موش» و«أخلاط»، وعندما عرض هذا الخبر الموحش على بلاط السلطان عالي الهمة مثل الإسكندر، قام بإمداد الوزير المشار إليه أي أحمد باشا بعدد كاف من العسكر حيث قام بإرساله نحو الأعداء ذوي الأفكار الفاسدة.

الهجوم الليلي الذي قام به «عثمان باشا»

لم يسترح الوزير المشار إليه «الوزير الثاني أحمد باشا» ليل نهار مع الجنود الذين كانوا تحت إمرته، فلما عبر جبال «كردستان» ونزل بجوار قلعة «كماخ» قام بتعيين البطل الخبير في ميادين القتال الشركسي الأصل المدعو «عثمان باشا» في طليعة عسكر، وفي تلك الأثناء، أرسله لجمع بعض الأسرى الذين يمكن أن يدلوا بمعلومات عن العدو، وما إن سار «عثمان باشا» لمسافة بسيطة مع الغزاة الذين كانوا معه حتى شاهدوا جمعًا من القزلباش قد نزلوا بخيامهم في أحد الأماكن منفصلين عن جيشهم، وفي الحال يقوم بإحضار نحو أربعين من حيوانات المرعى التي كانت موجودة في تلك الناحية وحوالي خمسين من الحيوانات المستأنسة وغير المستأنسة، ويجمع من قرى تلك النواحي ما يجده من المراجل والأواني النحاسية ويقوم بإعداد هذه الأشياء حتى المساء، وعندما جن الليل قام بربط المراجل والأواني النحاسية في ذيول الحيوانات التي أتى بها وساقها بالسياط في اتجاه خيام القزلباش، ثم شن الهجوم صائحًا الله الله جل شأنه، وخاض المعركة ولم

يعلم ولم ير أي شخص من القزلباش من قام بالهجوم، وفي الحال يضرب القزلباش بعضهم بعضًا بالسيوف في ظلمة تلك الليلة قائلين: «هجم العثمانيون»، عندئذ يهبط أهل الإسلام في تلك المعركة من فوق جيادهم ويقاتل معظمهم كجند من المشاة، حتى إن «عثمان باشا» راح يقاتل كأنه جندي من المشاة أيضًا ويدير معركة عظيمة، فإنه جرح فيها أيضًا، وفي النهاية، يمتطي جواده، ويخرج من ميدان المعركة، وكان جيش القزلباش الأوباش في مكان قريب من ميدان المعركة، فرأى أنه من الصواب أن يبتعد قليلًا عن هذا المكان على سبيل الاحتياط ، ويتراجع ثم يذهب. أما هؤلاء القزلباش فيهربون ليلًا ويقولون حتى الصباح: «هجم العثمانيون»؛ حيث هرب معظمهم حتى وصلوا إلى «قره باغ» دون أن يتوقفوا في مكان أبدًا.

ومن حكمة الله تعالى أن «أحمد باشا» كان موجودًا مع بقية العسكر والأركان، وقد أوقع بالقزلباش الانكسار العظيم الذي كان يحكى إلى الآن[١] على لسان جميع سكان العالم، وإزاء هذا العمل العظيم رفع مقام «عثمان باشا» المشار إليه بين أقرانه بإحسان إيالة «حلب» عليه.

توجه «القاص ميرزا» لتخريب ولاية «أصفهان» و«قم» و«كاشان»

سنة ٩٥٠ هجرية[٢]، ولما علم «القاص» الجاهل بخوف وفزع الشاه الضال على هذا النحو، طلب من السلطان صاحب السعادة أن يعين له قدرًا كافيًا من العسكر وأن يرسل على الشاه الضال قائلًا: «إن قصور رياض وحدائق الشاه الضال، وقصور أخويه «سام» و«بهرام ميرزا» البديعة على النحو نفسه ومخازن ومنازل بعض خانات وسلاطين «أصفهان» و«قم» و«كاشان» معروفة لجميع سكان العالم، والأمتعة القيمة والمتعددة والأواني الكثيرة من الفضة والذهب في كل واحدة منها لا يعلم حدها ولا عددها إلا رب العالمين فقط، والآن هو وقت الفرصة وأوان الغنيمة».

(١) المقصود بتعبير «إلى الآن»: هو إلى العصر الذي كان يعيش فيه المؤرخ «إبراهيم بجوي».
(٢) الموافق ١٥٤٨م.

ومع أن المذكور أي «القاص» كان محفوفًا بالرعاية والحماية من جانب السلطان، فإنه لما علم السلطان صاحب السعادة وحامي العالم ببعض أوضاعه غير المناسبة التي كانت مخالفة لثقة السلطان به، دبت حالة من النفور منه في قلب السلطان الشريف، ولم يكن عسكر الإسلام يندمجون معه، ولم يألفوه على الإطلاق وكان الصغير والكبير منهم ينفرون منه، فمثلًا كانوا يعدون تواجده مع عسكر الإسلام شؤمًا عظيمًا، واعتقدوا أن عدم رؤية وجهه بأي عذر نعمة عظيمة، وهكذا ، قُبل رجاؤه من جناب السلطان، وأُعطى له الإذن الهمايوني بالتوجه إلى تلك النواحي، ولكن لوحظ أنه ليس من المناسب أن يصحب معه أي شخص من جند خدم الباب ومن أرباب التيمار أو من الأمراء، ومن ثم أذن له فقط بإحضار القدر الكافي من الأكراد والأوباش واللوندات وبعض من لديه القدرة على ركوب الخيل وإمساك السيف من الرعايا، وأحسن عليه بعدة أحمال أقچة كمصروف طريق، وهكذا تحرك «القاص» إلى جانب بغداد مع عدة آلاف من الرجال، وراح جنده ورعاياه يزدادون يومًا بعد يوم حتى وصل إلى بغداد دار السلام بجيش عرمرم دليلهم الظفر.

ويروى أنه لما وصل لزيارة الإمامين رضي الله عنهما في كربلاء، قام خدام الآستانة بمنعه قائلين: إنه ليس لديهم الإذن ليسمحوا لهم بزيارتهم، حتى يرتد عن مذهب الشيعة ويعتنق مذهب السنة، وكتب المرحوم «جلال زاده نشانجي بك» و«عالي أفندي» في هذا الموضوع عن طريق السماع: «إنه اعتنق مذهب أهل السنة ثم عاد إلى مذهب الشيعة مرة أخرى بعد ذلك». والعهدة على الراوي.

توجه السلطان فاتح الأقاليم إلى جانب مشتى حلب الشهباء

في ٢٣ من شوال المكرم سنة ٩٥٥ هجرية، كان السلطان صاحب السعادة وعالي الجاه قد أمضى رمضان المبارك في صحراء «جولك» حيث أقيمت في غرة شهر شوال المبارك ـ الذي يوافق العيد السعيد المبارك الفأل ـ أقيمت الأوتاقات والمظلات العالية

طبقًا لقواعد المراسم العثمانية، وقد قرعت طبول السعادة الخسروانية وعلت أصوات الأبواق الخاقانية، وجلس سلطان العالم على كرسي من الذهب، وأمضى الوزراء العظام وكافة أركان الدولة، وعظماء الملك والملة والعلماء رفيعو المقام والأغوات الكرام أمضوا العيد بتقبيل قدم العرش الذي مصيره السعادة على تفاوت درجاتهم، وبعد ذلك قدمت الخيرات السلطانية والأطعمة التي لا نهاية لها، حيث أكل وشرب الصغير والكبير والغني والفقير قدر معدته، وبعد العيد اختصرت فترة الإقامة في الصحراء، ولما كان من المحتمل أن يتقلب الجو وتنزل الثلوج وتحدث الاضطرابات فقد عينت المشاتي المناسبة لأمراء الأمراء والأمراء وسائر الجنود المظفرين، وساق السلطان عنان التوجه إلى ناحية حلب المحمية مع الوزراء أصحاب الشأن الرفيع وجميع جند خدم الباب وسائر أركان الديوان المشهورين بالعدالة، وفي اليوم الثالث والعشرين من شهر شوال المكرم أصبحت حدائق «إرم ذات العماد» تحسد مدينة حلب التي هي شرف مدن العرب بقدوم السلطان الذي فطر على العدل، وبعد أن استراح عدة أيام في حلب المحمية توجه في اليوم الخامس من شهر ذي القعدة إلى أطراف «حما»؛ للصيد والقنص والتجوال والترحال للترويح عن خاطره الغارق في دوامة الفكر، ودعي حضرة الأمير السعيد «سلطان بايزيد» إلى هناك، حيث أمضى السلطان من الدهر عدة أيام على هذا النحو، ثم عاد مرة أخرى إلى جانب «حلب» مقضي المرام.

قدوم وزير «القاص ميرزا» بغنائم «قم» و«أصفهان» و«كاشان»

في سنة ٩٥٥ هجرية، وفي هذه الأثناء عبر «القاص» حدود «همدان» مع الأشخاص الكثيرين التابعين له، حيث قام بنهب وسلب قصور الشاه الضال وأخيه «بهرام ميرزا» في مدينة «أصفهان» و«قم» و«كاشان» وذلك كالبلاء النازل من السماء والقضاء المفاجئ وجعلها مأوى وموطن للبوم والغربان، وعلاوة على هذا قام بإحراق منازل بعض الخانات وهدمها؛ أي الحكام أصحاب الشهرة والمقام الرفيع، كما هدم منازل بعض الحراس، والسلاطين أصحاب القدرة والقوة حيث جعلها متساوية بالأرض،

وأحاط «القاص ميرزا» الآستانة حامية الخلافة علمًا عن طريق الوزير «سيد عزير الله شرواني» بأنه أخذ بثأر فقراء نواحي «موش» و«أخلاط» و«أرزنجان» كما ينبغي، بنهبه وسلبه الخزائن وسائر الأموال.

ومن هذه الأمتعة النفيسة الغالية الثمن التي اغتنمها «القاص ميرزا»؛ مصاحف شريفة ذات مرصع وذات غلاف مزخرف ومكتوبة من قِبَلِ خطاطين مشهورين، وعدة مجلدات من كتب التفاسير اللطيفة والأحاديث النبوية، وكتب منقوشة ومذهبة من الكتب الشرعية المتنوعة، ومن الكتب الدينية والتاريخ وكتب العلوم، ومن كتب «الشاهنامه» والمنظومات، ومجموعة من الكتب الفاخرة اللائقة بالملوك وسيوف وخناجر وتروس وحراب مرصعة، وخواتم من الماس والياقوت واللؤلؤ وقدر من المسك والعنبر وأحمال من العود القماري، وأكياس من الأحجار الكريمة التي لا يزال عالقًا بها التراب، والعقيق البخشاني، والخيام الخاصة بحضرة السلطان مصنوعة من قماش مزدان بالذهب، وقماش مزركش وضفائر مذهبة ومطلية وسجاجيد حرير مما تفرش على الأرض ولباد خراساني لطيف وجميل، وبصفة عامة كان بها أثواب شاهانية وأمتعة خسروانية لا حصر لها، وقام «القاص» بتحميل بعضها على البغال، وبعضها الآخر على الجمال قافلة قافلة، وقدمت إلى السلطان مدار العرش بيد المشار إليه الوزير «سيد عزير الله»، وعلى إثر ذلك، أُعلي قدر الوزير «سيد عزير الله» بالخلع الفاخرة، وأُنعم وأحسن على «القاص» أيضًا بسيف مرصع وأوتاق وخلع لائقة بالملوك وجُبَّة لائقة بالأمراء، وتوجه سلطان العالم إلى جانب «كوندزلو» للصيد والقنص برفقة الوزير الكبير؛ أي الصدر الأعظم الذي ليس له نظير.

قتل «دونبوللو حاجي خان» وانهزام عسكر «خوي» ذي الطبيعة الشيطانية

لما استولى المجاهدون على قلعة «وان» في السنة المذكورة، كان قد أحسن بسنجق إلى «دونبوللو حاجي خان»، الذي كان من عشائر الشرق وممتازًا بين الأقران بعظمته

وشهرته وشجاعته، وذلك بسبب أنه كان تابعًا للآستانة حامية الخلافة قبل ذلك، ولكن بعد ذلك لما سار في طريق الارتداد، أعطى له الشاه الضال ملك «خوي» قائلًا في نفسه: «إنه قادر على مواجهة المجاهدين الذين في «وان»، ولديه القدرة على فعل أنواع الحيل، والقتال»، وبناءً على هذا جاء «دونبوللو» إلى «خوي»، ولما كان أمير أمراء «وان» «إسكندر باشا» يسعى دائمًا بلا توقف للاطلاع على النية الفاسدة لـ «دونبوللو» فقد علم أحواله كما ينبغي، ومن ثم حمل «إسكندر باشا» عليه على الفور، وهجم على المذكور في «خوي» مع عشائره وأطلق السهام، وشد الأقواس، وبعد حرب ضروس وجدال وقتال، لم يجد «دونبوللو حاجي» مجالًا للهرب، فتحصن هو ورجاله بـ «خوي»، ولكن في النهاية، وبفضل الله تعالى يقطع المجاهدون رأس «دونبوللو حاجي» المذكور وأيضًا رءوس بعض رجاله، ويغتنمون أموالهم وحيواناتهم.

وزينت أسنة الرماح بالرءوس المقطوعة، وأصبحت هذه الغزوة التي ستصل أخبارها إلى الديوان الهمايوني في حلب مبعث سرور العسكر والسلطان الذي في هيئة الغضنفر، وهكذا رُفع مقام إسكندر باشا بالإحسان عليه بخلعة فارهة وسيف قبضته قيمة.

بعض فتوحات وغزوات أمير أمراء «أرضروم» محمد باشا

في العام نفسه، لما توجه سلطان العالم من قبل لإخضاع الـ «أرنبود»[1] أرباب العناد كان قد قام عدة آلاف من الملاعين من «أرنبود» «كورجي» بالهجوم على أمير أمراء «أرضروم» «موسى باشا» على غرة، وألحقوه بزمرة الشهداء، كما قتلوا أيضًا بعض الغزاة الآخرين، ومنذ ذلك الحين أصبح أخذ الثأر من الملاعين في أي فرصة هدفًا لسلطان الإسلام.

وهكذا كلف أمير الأمراء المشار إليه محمد باشا بهذا الأمر في تلك السنة المباركة [٩٥٥هجرية]، والقلاع التي توجه إليها وفتحها «محمد باشا» بمساعي السلطان هي:

(١) المقصود بها الأرناءوط.

قلعة «بركان» وقلعة «كومكه» وقلعة «بناك» وقلعة «برناك» وقلعة «كوچك» وقلعة «صماغار» وقلعة «أخا».

ولما أحيطت الآستانة دار السعادة علمًا بأنه تم فتح القلاع المتينة المذكورة، بعضها بالقتال وبعضها بالأمان، غمر السرور والحبور قلوب المسلمين هناك.

قدوم الأمير السعيد أي «سلطان بايزيد» إلى مشتى «حلب»

في السنة نفسها، لما كان الخاطر الطيب لسعادة السلطان حامي العالم منصرفًا دائمًا للصيد والقنص، فعلى إثر وصول الأمير الطيب الخصال إلى العتبة العلية، حُصرت براري الصيد التي كانت تقع في أطراف حلب، وربما كانت بعض حيوانات الصيد تأتي من الصحارى والبوادي، وجاء إلى هذا المكان بعض الصيادين المهرة من أصحاب الدراية بفن الصيد. وتم صيد حيوانات كثيرة ومختلفة لا حد لها ولا حصر، وكان قد غمر السلطان عالي الجناب والأمير ابنه مقضي المرام سرور لا حد له، بمشاهدتهم الصيادين وهم يوقعون الاضطرابات بالطيور الوحشية ويوقعون بعضها في الشراك، وبعد أن استوفى السلطان حظه من هذا النوع من التسلية، عطف عنان العزم الهمايوني إلى مدينة حلب.

ولما انقضى فصل الشتاء، أصبحت النية الهمايونية متعلقة بالحملة المقرونة بالظفر، فكلف الجند الذين مآثرهم الظفر بالاستعداد للحملة.

توجه السلطان صاحب السعادة وحامي العالم من مشتى حلب إلى الحملة الهمايونية

في ١٠ من جمادى الأولى سنة ٩٥٦ هجرية[1]، لما حان أوان الحملة ووقت الفتح والظفر، تم التوجه الهمايوني من مدينة حلب وفقًا للمراسم الخاصة بالسلاطين والعادات

(١) الموافق ٦ من يونيه ١٥٤٩م.

السنية الخسروانية أو الملكية، ففي اليوم الخامس عشر من الشهر المذكور نزلت الحملة إلى المنزل المعروف باسم «درسكن»، حيث أذن لحضرة الأمير السعيد، أعني به سلطان بايزيد بالتوجه إلى سنجقه الهمايوني وسار معه الوزراء العظام وجميع أصحاب الاحتشام لمسافة منزل واحد مودعين إياه؛ وبعد ذلك سعد الأمير بشرف تقبيل يد السلطان وعاد مرة أخرى إلى سنجقه، وفي اليوم العشرين عبر السلطان بالزوارق من نهر الفرات، وفي اليوم السابع من شهر جمادى الآخرة تفضل بالنزول إلى المنزل المعروف باسم «المالي».

دعـوة «القاص» النسناس، وعدم طاعة المذكور ونهايـة أمره المملوء بالشؤم

سنة ٩٥٦ هجرية، في هذا المنزل المعروف باسم «المالي» أُرسل رجل بالخطاب السلطاني إلى «القاص ميرزا» حيث طُلب منه المجيء لمقابلة السلطان، ولكن لما كان لديه نوع من الخوف من السلطان صاحب السعادة وحامي العالم، بسبب الوسواس الذي كان راسخًا في قلبه، قدم الأعذار، وكان الوزير الثالث «صوفي محمد باشا» ـ الذي كان السلطان صاحب السعادة قد عينه وأرسله إلى محافظة بغداد بينما كان متوجهًا إلى حلب الشهباء ـ يحترز من «القاص»، وقد خشي «القاص» من البقاء والاستقرار في بغداد، ووجد أنه من الضروري أن يكون في ظل حماية أمير مشهور من أمراء الأكراد، وبينما كان «القاص» يقيم مع شرذمته الضالة التي كانت مجتمعة في خيمته، وسرادقه في المكان المعروف باسم «كسك جنار»، أُصيب بالحمى، وفي أحد الأيام بينما كان يرقد في فراشه غافلًا ومسلوب الإرادة هجمت عليه فرقة شقيق الأمير المذكور والمعروف باسم «سهراب»، فشتت وفرق عسكر «القاص» وقبض عليه ثم أرسله إلى أخيه «شاه طهماسب»، وفي مقابل هذا أخذ مالًا وذهبًا وفيرًا وذلك بناءً على ما وعد به «شاه طهماسب»، ولما كان الشاه قد وعد بذلك من قبل فإنه لم يستطع أن يخلف وعده، وبعد ذلك أرسل «القاص» إلى قلعة «قهقها»؛ حيث تم الإعداد لقتله في هذا المكان.

في ذكر تكدر مزاج السلطان صاحب السعادة وحامي العالم الشبيه بالزجاج في رقته

في العام نفسه، لقد قدر الله جل شأنه في سنته السنية أن يبتلي عباده أحيانًا بالهزيمة، وأحيانًا أخرى بالغم وأحيانًا بالعشق، وأحيانًا بالألم حتى يعترفوا بعجزهم وفتورهم وتقصيرهم وقصورهم، وهذا تنبيه وهدية ونعمة لعباد الله الذين تابوا وكان إيمانهم بجناب الخالق جل شأنه قويًا وسلكوا طريق الله الواحد، وأن هذا الابتلاء قد يصبح باعثًا على الدرجات الأخروية وسببًا لفتوحات العالم.

والمقصود من هذا التشبيه أن المزاج الشريف للسلطان حامي العالم قد انحرف قليلًا في المنزل المذكور «المالي»، ولما بلغ مسامعه الشريفة أن ماء وهواء المصيف المعروف باسم «قره جه طاغي» والقريب لهذا المنزل قد يعطي الحيوية، وأن ربيعه وأزهاره تضفي الصفاء وتحيي الفؤاد، توجه إلى ذلك الجانب مع الخواص المقربين؛ وبفضل الله تعالى استعاد مزاجه في خلال عدة أيام، وأصبح من السهل ممارسة حياته بالصحة والسلامة التي اكتسبها من دار الشفاء الإلهية جل شأنه.

في ذكر توجه الوزير الثاني «أحمد باشا» إلى جانب «گورجستان» وفتوحاته وغنائمه في تلك الغزوة

تم ذلك سنة ٩٥٦ هجرية، وفي هذه الأثناء، لما سمع السلطان عالي المكانة أن كفار «گورجستان» أعلنوا الطغيان والعصيان، وأن بعض تصرفاتهم غير لائقة، قام بتعيين حضرة الوزير الثاني أحمد باشا مع أمراء أمراء «أرضروم» و«قرمان» و«ذوالقدرلو» و«سيواس» وأمراء سناجقهم وكتخدا الإنكشارية مع عدة آلاف من جند الإنكشارية وأغوات بلوك الغرباء «غربا بلوكي»[١]، وفي غرة شعبان المعظم تباهوا بتقبيل أنامل

(١) هو اسم لفرقتين من الفرق الست التي تشكل سوارية خدم الباب. وغربا: جمع غريب. والمعنى اللغوي لغريب هو: الأجنبي، أو من لا شخص له، أو الضيف. والغربا هم في الأصل: من تركوا أوطانهم من العرب والعجم ولجئوا إلى الدولة العثمانية، وهذا الاسم الذي لقبوا به موافقًا للمعنى اللغوي.
- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. I، S. 680.

السلطان، وسلكوا طريقهم إلى «گورجستان»، وفي البداية فتحت قلعة «تورتوم» بعد معركة عظيمة، وبعد ذلك استسلمت قلعتا «نجاح» و«أمير أخور»، وفتحت قلعة «أقچة» عنوة، وأعلنت قلاع «تپكرد» و«أشرد» و«ديكر أقچة» وخمس عشرة قلعة أخرى خلاف هؤلاء، أعلنت الطاعة والانقياد، كما وقع الهجوم على النواحي المعروفة باسم «ديوان»؛ حيث سقط الكثير من العذارى والشبان الذين كانت نظراتهم كنظرات الصقور، في قبضة صيد غزاة الإسلام، كما سقطت قلعة «بر تكرك» والقلعتان التابعتان لها ضمن بقية الفتوحات الأخرى، وضمت منطقة «داد إيلي» مع قراها المعمورة إلى المالك المحروسة، وقد أبقى على الخمس عشرة قلعة الواقعة في المنطقة المذكورة على حالها، وما عداها أصبح مساويًا للتراب، وبعد ذلك ألحقت «تورتوم» و«تلخيص» و«أقچة قلعة» و«ديوانه دره سى» ببعضها، ووجهت كمنطقة سنجقية، وعُهد بها إلى أحد الأمراء، وبعد ذلك عاد الغزاة أدراجهم سالمين غانمين، حيث التقوا في اليوم الثاني من شهر شوال المكرم[1] بالجيش الهمايوني في المكان المعروف باسم «چولك»، وغُمر الغزاة بأنواع السرور والخلع السلطانية والإنعامات والاحترام السلطاني، وأصبحوا فائقي الأقران ومفخرة لهم.

عزيمة السلطان عالي الجاه إلى جانب دار السلطنة

في ١٤ من شوال سنة ٩٥٦ هجرية[2]، لما استقرت حالة الأمن والنظام في الحدود الإسلامية بالشكل الذي يتفق وعلو شأن الدولة، فإنه في اليوم الثالث عشر من الشهر المذكور على إثر زيادة برودة الجو، ومطالبة ورغبة كل شخص في العودة إلى أوطانهم الأصلية، تفضل السلطان في اليوم التالي بالتحرك بالإقبال والعظمة والإجلال اللائق بالسلاطين من المحروسة «آمد» إلى ناحية الروم المحاطة بالبهجة، وفي الغرة المباركة

(١) الموافق ٢٤ من أكتوبر ١٥٤٩م.
(٢) الموافق ٥ من نوفمبر ١٥٤٩م.

لشهر ذي الحجة[1] نال شرف النزول إلى القسطنطينية المحروسة، وتفضل بتشريف عرشه الهمايوني بالعظمة والسعادة.

فتح قلعة «پچي» و«بجكرك» و«وارات» و«چناد» و«لبوه» ومحاصرة «طمشوار»

تم كل ذلك سنة ٩٥٨ هجرية[2]، تقع القلاع المذكورة تجاه بلغراد المحكمة الأساس على الجانب الأيسر لـ «بدون»، وكانت تعتبر من القلاع المنحوسة لـ «فرديناند قرال» ملك «بج»، ولما كانت حدودها تجاور حدود الممالك الإسلامية، لم يتوان أشقياؤها في معظم الأحيان عن التعدي على الحدود الإسلامية، وبصفة خاصة، كانوا يتعدون على السفن المحملة بالمؤن التي كانت تأتي إلى بلغراد و«سمندرة»، ولذلك اقتضت الهمة السلطانية ضرورة تجريد العسكر عليهم وضمها بفضل الله تعالى إلى الممالك المحروسة الشاهانية، ومن أجل تحقيق ذلك، عُين «محمد باشا» أمير أمراء الروم إيلي يسره الله تعالى لما يشاء والذي كان سردارًا أعظم وقائدًا للجند ذوي الرايات المنصورة، وأرسل إلى تلك النواحي.

وفي اليوم السادس من شهر رجب من السنة المذكورة[3] وصل «محمد باشا» إلى بلغراد وعبر من نهر «ساوه» إلى ساحل الـ «سرم»، وفي تلك الأثناء، وصل ألفان من الإنكشارية، ومائة وخمسون مدفعًا من نوع «ضربزن» المخصصة لقصف الأعداء ومن المدافع المخصصة لضرب القلاع، حيث أرسلت جميعها من الآستانة السعيدة، وبعد ذلك عبر من نهر «طونه» في اليوم السادس من شهر رمضان[4] ومر من صحراء «سكدين»، وكان قد أعد جسرًا قوي البنيان على نهر «تيسه» فعبر أيضًا منه؛ حيث حُصرت القلعة

(١) الموافق ٢١ من ديسمبر ١٥٤٩م.
(٢) الموافق سنة ١٥٥١م.
(٣) الموافق ١٠ من يوليه ١٥٥١م.
(٤) الموافق ٧ من سبتمبر ١٥٥١م.

المتينة المعروفة باسم «بجي» بعشرة من المدافع المخصصة لضرب القلاع، وشرع في ضربها ليل نهار على التوالي؛ حيث فتحت خلال عدة أيام الثغرات بالقدر الكافي، وهجم الغزاة الذين يتسمون بالظفر هجومًا شاملًا، ودخلوا إلى القلعة وحيث وفقوا في فتحها بفضل الله تعالى، وتتبعوا الكفار في شوارع القلعة شارعًا شارعًا وقتلوهم حتى إنهم عثروا على الذين اختفوا منهم، وبعد ذلك وضع «محمد باشا» صاحب الرأي الحسن أفرادًا وأغوات بالقدر الكافي بداخلها، ثم توجه بعد ذلك إلى قلعة «بچرك» وحاصروها، وأقام المتاريس هناك، وطلب الكفار الذين كانوا بداخلها الأمان قبل أن يشرع في الضرب، فنجوا سالمين من السيوف الصادقة لأهل الإسلام، وبعد أن تم تنظيم هذا المكان أيضًا، عقد العزم على القلعة المعروفة باسم «وارات»، وبعون الله تعالى سلم أهالي هذه القلعة أيضًا مفاتيح قلعتهم وأنقذوا أرواحهم.

وبعد ذلك تم الوصول إلى القلعة المعروفة باسم «قنلاق»، فسلم هؤلاء أيضًا القلعة بالأمان، وتوصلوا بأن سمح لهم بالذهاب إلى أوطانهم دار الفجور، وبعد ذلك توجه عسكر الإسلام مظفرو الأعلام إلى القلعة المعروفة باسم «چناد» وكانت مأوى وملجأ أجناد الكفار، ولما رأى الكفار سحب المدافع المخصصة لضرب القلاع بالجاموس ونقلها إلى المواضع اللازمة لم تبقَ لديهم قدرة ولا قوة على المواجهة، حيث غلب عليهم الخوف والفزع فطلبوا الأمان، وأعطي الأمان لهم وضمت قلعتهم إلى الممالك المحروسة وأكملت مستلزمات القلعة ومهمتها كما ينبغي.

وبعد ذلك، عقد العزم على التوجه لقلعة «لبوه»، ولكن كان قد سُمع أنه اجتمع هناك حوالي عشرين ألفًا من الكفار تحت قيادة الحقير المعروف باسم «باتورى أندراش» وأن هؤلاء يعدون العدة لمواجهة عسكر الإسلام، ومن أجل ذلك تم اختيار عدد من العسكر المدربة من الغزاة، وأرسلوا إلى هناك لأسر بعض الأعداء الذين يمكن أن يدلوا بمعلومات عن العدو، ومن حكمة الله أن بعضًا من فرسان الكفار يتوجهون إلى الغزاة للحصول على الأخبار عن أهل الإسلام، وقد اتفق أنهما التقيا في أثناء الطريق، حيث اشتبك أهل الإيمان وأصحاب النيران ودارت بينهما حرب ضروس، وبفضل الله تعالى

انتصر المسلمون، وأصبح معظم الكفار طعمًا للسيف ورُبط بعضهم بالسلاسل، وعاد الغزاة المظفرون والمنصورون إلى الجيش الهمايوني، كما عاد بعض الخنازير الذين كانوا قد نجوا من سيف الغزاة إلى جيشهم، ولما شرحوا وأوضحوا ما حدث لهم بالكامل، عمل جميع الكفار الذين كانوا في جيوشهم والذين كانوا في القلعة عملوا بمضمون القول: «من نجا برأسه»؛ وفروا إلى دار الفجار متعقبين بعضهم بعضًا دون أن ينظروا خلفهم، وجاء بعض الرعايا الذين بقوا بالقلعة، حيث قبلوا دفع الخراج والجزية وأعلنوا الخضوع للسلطان، وتم تنصيب «أولامه باشا» أمير سنجق على القلعة المذكورة؛ بعد أن اكتملت المستلزمات التي كانت تحتاجها.

وبعد ذلك، تم الوصول إلى «طمشوار»، ودخل الغزاة في المتاريس وسعوا واجتهدوا في فتحها، ولكن تقلب الجو، وحلول موسم البرد وكثرة الأمطار والاضطراب، جعل قدرتهم على الصبر تنفد حيث امتلأت متاريسهم وقنواتهم التي تحت الأرض بالماء، وكان الرأي أنه من الأولى صرف النظر عن فتح القلعة، نظرًا لأنه أصبح واضحًا أن فتحها مرهون بالوقت المناسب، وعرض واقع الأمر على الركاب الهمايوني؛ فأذن للعسكر المنصورة بالانصراف، وصدر الأمر بأن يمضي أمير الأمراء المشار إليه؛ أي «محمد باشا» الشتاء في بلغراد وأن يتم مستلزمات الحرب ومهماتها للموسم القادم.

معركة «خادم علي باشا» في صحراء «سكدين»

في سنة ٩٥٨ هجرية[1]. كان العصاة المعروفون باسم رعايا الحي الخارجي لقلعة «سكدين» قد اتفقوا مع الكفار البغاة الذين كانوا موجودين في الحدود، فلما أتى الكفار واستولوا على القلعة، ضمن الرعايا هناك المساعدة الكافية لهم، بهذا الأمل والرجاء كان قد أبرم المضل والضال المعروف باسم «طوت ميخال» الذي كان صاحب القلعة سابقًا أبرم عهدًا وميثاقًا محكم الاتفاق مع الرعايا على أن يأتوا على غرة بالعسكر المأثورة بالهزيمة وأن يتجمعوا داخل القلعة في الوقت الذي يكون فيه غزاة الإسلام غافلين.

(١) الموافق سنة ١٥٥١م.

وكان «ميخال أغلو خضر بك» والي السنجق المذكور خبيرًا بكيد العدو وشجاعًا صاحب تدبير، ولذلك؛ راح يشك في بعض تصرفات الرعايا، ودخل القلعة بينما كان لأمراء في الحي الخارجي لها وبذل ما في وسعه للدفاع عن القلعة حيث حصن بعض الأماكن التي يرى من الواجب تحصينها، وفي تلك الأثناء جاء الكفار أيضًا بأكثر من عشرة آلاف من جند المشاة والفرسان ودخلوا إلى الحي الموجود خارج القلعة، وراحوا يحتشدون حول القلعة يومًا بعد يوم ويهجمون عليها.

ولما علم جناب أمير الأمراء المظفر الذي كان في بلغراد بهذا الخبر الموحش، فمع أنه كان قد أذن لمعظم العسكر بالانصراف والعودة إلى أوطانهم، فإنه استدعى إلى جواره جند الحدود طوعًا أو كرهًا وأمير سنجق «سمندرة» «رستم بك» الذي هو توأم لرستم الأسطوري مع عسكر سنجقه، حيث توجه نحو الكفار في هذه الأثناء، وكان قد وصل هذا الخبر الموحش أيضًا إلى «خادم علي باشا» أمير أمراء «بدون» فأخذ قدرًا من العسكر من قلاع الحدود مع عسكر «بدون» واتجه نحو الكفار بلا تأخر أو توقف، فلما علم الكفار أيضًا بذلك؛ خرجوا من الحي الخارجي للقلعة ونظموا طوابيرهم وتحركوا لمواجهة عسكر الإسلام.

وكان هناك شخص يعمل كرئيس جاوشية للمرحوم «علي باشا»، ثم أصبح بعد ذلك صاحب مقاطعة زعامة في «بچوي»، وكان حافظًا لكلام الله ومن مجودي القرآن، ويتحدث بلباقة وكان هذا الشخص يعرف باسم «حمزة أغا» وقد سمعت هذه المعركة من لسانه.

لما نظم الكفار طوابيرهم وأتوا لمواجهتنا، كان المرحوم «علي باشا» قد وضع ستة مدافع من نوع «ضربزن» على يمينه وستة أخرى على يساره، وكان قد نبه علينا بشدة بقوله: «ينبغي ألا تطلق المدافع دون أن تصدر الإشارة مني»، ونزل «علي باشا» من فوق جواده وسجد على الأرض وقام بالدعاء والثناء والمناجاة وبكى بكاءً عظيمًا حتى لم يبقَ

شخص من العسكر دون أن يبكي، وبعد ذلك امتطى حصانه وأخذ بيده سيفًا مجردًا من غمده ثم أعد الفرق للحرب، ولم يقبل اعتذار أي فرد وجاءت طوابير كلا الفريقين وواجهت بعضها البعض، ولما تقاربوا بالقدر الذي يمكن أن تصل معه ضربات المدافع إلى الأعداء أمر «خادم علي باشا» بإشعال نيران المدافع، ولما قامت مدافع «ضربزن» بتشتيت طوابير الكفار وإفسادهم، قمنا على الفور بالهجوم بصيحات الله جل شأنه، وهجمنا على الأعداء فجأة وبعون الله تعالى لم يستطع الكفار المقاومة لحظة واحدة حيث انهزموا في أول ساعة، وولوا مدبرين، وأصبح معظمهم طعمًا للسيف، بعضهم في ميدان المعركة وبعضهم الآخر بينما كان يطارد بعد ذلك.

وتعتبر هذه الغزوة من أعظم الغزوات الإسلامية، وفي ذلك الحين وصل خبر البشرى إلى أمير أمراء الروم إيلي، فعاد مع عسكر الإسلام بينما كان على وشك العبور من نهر «طونه»، وعاد مع رفاقه، حيث أخبر وعرض هذه الغزوة على الركاب الهمايوني، فأحسن عليه بسيف مذهب وخلعة فاخرة من جناب السلطان.

استيلاء الأعداء على قلعة «لبوه» واستشهاد «أولامه باشا»

في سنة ٩٥٨ هجرية[1]، جمع الحقير المعروف باسم «باطوري أندراش» - الذي هُزم في معركة فتح «لبوه» قبل ذلك - العسكر المأثورة بالهزيمة، وحاصر القلعة المذكورة مرة أخرى، وكان تحصين القلعة المذكورة ليس بهذا القدر الكافي، حتى إنه لما حُصرت فإنه لم تعد لدى الأفراد الذين كانوا بداخلها القدرة على البحث عن أي شيء خاص بهم، فمن لديه القدرة على حماية القلعة في هذا الوضع، ومع أن «أولامه باشا» سعى واجتهد بالقدر الذي كان في حد إمكانه فإنه في النهاية فضل الخروج مستسلمًا، والتزم «باطوري أستوان» المذكور بعهده وشرطه في التسليم حيث أطلق سراح الباشا بالسلامة من القلعة، ولكن قبل ذلك، كان قد حدث حادث ما وهو أنه لما أحس السلطان صاحب

(١) الموافق سنة ١٥٥١م.

السعادة وحامي العالم، بالحيلة والمكر من الكافر المعروف باسم «تورك بلند» الذي كان في مقام وزير ومشير للملكة في أثناء فتح «بدون» كان قد أمر بأسره عندما خرج من «بدون»، وأتى مع ابن الملك إلى السلطان صاحب السعادة في ذلك الوقت، فإنه قتل في «يدي قله»، فجاء في هذه الأثناء الشقي المعروف باسم «تورك فرنج» ابن عديم الدين الذي توفي في «يدي قله» معترضًا طريق «أولامه باشا» بخمس أو ستمائة فارس، فاستشهد «أولامه باشا» في أول وهلة، وألحق المسلمون الذين خرجوا من القلعة بزمرة الشهداء ولم ينج منهم غير القليل.

المعركة التي وقعت قرب «بچي» وأسر «قيطاس أغا»

في العام نفسه ٩٥٨ هجرية، جاء عديم الدين المعروف باسم «لوشانجي» الذي كان قبودان «طمشوار»، مع بعض المشركين إلى أمام القلعة المعروفة باسم «بچي» وراحوا يأخذون الأسرى الذين يمكن أن يدلوا بالمعلومات ثم يقطعون رءوسهم، ومن ثم بدأ «قيطاس أغا» الذي كان أغا للغزاة المظفرين والفرسان الذين كانوا في القلعة، بدأ يتعقب الملاعين، إلا أن «لوشانجي» المذكور كان قد أعد كمينًا له فيهجم مع بعض المشركين على الغزاة، ويقومون بقلب حصان «قيطاس أغا» المذكور ويأسرونه، ولما كان المذكور أي «قيطاس أغا» من مشاهير وأبطال الحدود، فقد أصبح هذا الحدث أيضًا باعثًا على ازدياد غضب السلطان.

فتح قلعة «سيرم» بمساعي المرحوم «خادم علي باشا»

في سنة ٩٥٨ هجرية، أحسن جناب حضرة السلطان بسنجق «أستوني بلغراد» على «حمزة بك» وكان من قدماء أبطال الحدود، وبينما كان قد عين له عدد من جند الإنكشارية وبدأ يتحرك للإتيان معهم إلى منطقة العمل، يقوم بعض أشقياء طائفة الـ «حيدود» من كفار «سيرم» بالهجوم عليهم فجأة بالقرب من الموضع المعروف باسم «قودوار»، فألحقوا المذكور حمزة بك والبطل المعروف باسم «إلياس أغا» الذي كان في

مقام أغا الإنكشارية بمرتبة الشهادة، وغنموا جميع ممتلكاتهم، وبعد ذلك فما إن ترددت تلك الأخبار في «بدون» حتى جمع علي باشا الشجاع عسكر الحدود بحسن تدبيره، وتوجه لمحاصرة القلعة المذكورة، وشرع في ضربها بعشرة مدافع من نوع «باليمز» على مدى عشرة أيام مما أجبر الكفار على التسليم وطلب الأمان.

وكان هذا هو الفتح الأول للقلعة المذكورة، وقد بقيت تحت تصرف أهل الإسلام حتى حملة «سكتوار»، وبينما كان السلطان صاحب السعادة والمغفور له متوجهًا إلى «سكتوار» أرسل الملك الضال الجنود التي أعدها، واستولى على القلعة المذكورة وقلعة «تاتا»، وقد أعدم المرحوم «أرسلان باشا» بتهمة التفريط.

تولية الوزير الثاني «أحمد باشا» قائدًا على جانب «طمشوار» وفتح قلعة «طمشوار»

سنة ٩٥٩ هجرية[1]، لقد كان تأخير فتح قلعة «طمشوار» قبل ذلك واستيلاء الكفار على قلعة «لبوه» سببًا لازدياد غيظ السلطان، ولذلك عين الوزير الثاني «أحمد باشا» قائدًا للجيش، كما عين أيضًا «سكبان باشي» مع عدة آلاف من جند الإنكشارية وأربعة من أغوات البلوكات مع بلوكاتهم وطوبجي وجبه جي وعسكر كثيرة من سائر الفرق، وخرجوا من «أدرنه» في اليوم السابع والعشرين من ربيع الآخر من السنة المذكورة[2]، وفي بلغراد كان أمير الأمراء المظفر قد جمع حوله عسكر الروم إيلي وسائر أهل الحملة وأمر ببناء جسر قويم وصراط مستقيم على نهر «طونه»، وبمجرد أن وصل المومأ إليه مع العسكر الذين كانوا تحت إمرته، عبروا جميعًا من فوق الجسر، وفي اليوم الخامس من رمضان المبارك حاصر العسكر الذين كان النصر لهم شعارًا قلعة «طمشوار»، ونصبوا ستة عشر مدفعًا من نوع «باليمز» في أماكنها المطلوبة وشرع في الضرب.

(١) الموافق سنة ١٥٥٢م.
(٢) الموافق ٢٢ من أبريل ١٥٥٢م.

وكان قبودان القلعة هو عديم الدين المعروف باسم «لوشانجي» الذي كان محاصرًا في السنة الماضية، وكان يوجد بداخل القلعة حوالي ثلاث أو أربعمائة مسلح من «إسبانيول»، أي من إسبانيا ومائة أو مائتا مقاتل من الـ «نمجه» خلاف المجر والخروات وسائر من كانت قلوبهم قاسية.

وقد كتب الكفار في تواريخهم: «إنه في اليوم الذي نزل فيه أهل الإسلام أمام القلعة أتى هو أيضًا أي لوشانجي ودخل القلعة»، وكان الملك الضال في «طورين»، وشكا «لوشانجي» إليه قائلًا: «إنني قد أديت واجبي في العام الماضي، والآن فإن عسكر الإسلام مهيئون للهجوم على القلعة، ولا توجد نية معكم للمساعدة في بناء أو إتمام سائر المستلزمات، وإن الذين يتحصنون في القلعة إنما يتحصنون خوفًا من الموت»، إلا أن جميع أمراء النصارى والحكام والملك الضال نفسه قاموا بتشجيعه ببذل بعض الوعود له، وعلى هذا تبادل القبلات مع الأهل والأولاد وودعوا بعضهم، وظنوا أنهم لن يروا بعضهم بعد ذلك، وذكر الكفار: «أن «لوشانجي» جاء إلى القلعة بتلك الوعود وأحصى العسكر الذين كانوا محاصرين فوجد أنهم ألفين وخمسائة محارب».

والحق فقد قام الملعون ببطولة فائقة في تلك المحاصرة ولم يقصر في بذل السعي والجهد، ولكن أظهر أمراء المسلمين وسائر الغزاة - الذين اتخذوا الظفر أنيسًا لهم - الشجاعة والبطولة الفائقة التي لا يمكن أن يتصور أن هناك أفضل منها، ويتسابق الغزاة في الهجمات في التقدم على بعضهم من أجل الموت في سبيل الله ولم يترددوا في ذلك قط، وكانوا يذهبون إلى المعركة كما يذهب الضأن إلى الطعام، وضرب جواد أمير الأمراء المقرون بالظفر ببندقية على غرة فامتطى في الحال جوادًا آخر، ولم يتأخر عن الهجوم، ودارت رحى الحرب والقتال على هذا المنوال لمدة خمسة وثلاثين يومًا، وفي النهاية طلب الكفار الأمان، وفتحت القلعة بالاستسلام. ولكن بعد ذلك نُقض عهد الاستسلام حيث أسر معظمهم وقتلوا.

والسبب في نقض عهد الاستسلام أنه حينما خرج «أولامه باشا» من «لبوه» مستسلمًا نقض «تورك فرنج» أمر الاستسلام، ولهذا نقض الأتراك أيضًا عهد استسلام «طمشوار»،

فلما تصدى أحد أفراد الإنكشارية لأحد جنود «لوشانجي» المعروفين باسم «أنيوشا» وتعني في لغتهم غلمان الداخل، وذلك بينما كان الكفار يخرجون من «طمشوار»، لم يحتمل «لوشانجي» الموقف وقام بضرب ذلك الجندي من جنود الإنكشارية بالسيف، وهكذا نقض عهد الاستسلام. وأحضروا «لوشانجي» ـ الذي كان مجروحًا في موضعين من جسده جرحًا شديدًا ـ أمام «أحمد باشا» فقال لـ «أحمد باشا»: «ماذا ينبغي أن أفعل، فلم يتركني الرعايا على حالي، وكنت قد أقسمت على أن أموت معهم، فإنه عندما أخذتم «طمشوار» راح بعض رجالكم يقتلون أعدادًا من رجالنا»، وكان «لوشانجي» قد جمع ما يزيد على سبعة آلاف دانة مدفع في داخل القلعة وذلك عدا ما خبئ داخل الجدار ولم يستول عليه، حيث كان في زعمه أنه يمكن إنقاذ «طمشوار» وإهدائها للملك، وأوضح الكفار في تواريخهم أنه بسبب عدم تحسن جرح «لوشانجي» قام أحمد باشا بقطع رأسه وإرسالها إلى السلطان صاحب السعادة.

وبسبب أن القلعة المذكورة كانت تمثل شرف تلك المملكة وأنها كانت لائقة بأن تصبح إمارة أمراء لحماية المملكة وحفظها، فقد عهد بإمارة أمرائها في البداية إلى الغازي «قاسم باشا» الذي كان محاصرًا في «بدون» في زمن ملك والذي شوهدت بطولته في معظم فتوحات المجر، حتى قام الملك في ذلك الوقت بتمليكه الثلاثة قرى والتي أصبحت وقفًا للمرحوم تجاه «أوسك»، وبعد ذلك أقر السلطان صاحب السعادة ذلك وهي الآن من أوقافه.

معركة «طورخان بك» أمير لواء «دلوينه»

تم ذلك في العام نفسه، وبينما كان الأمير المشار إليه يأتي مع عسكر سنجقه من بلغراد للالتقاء بالجيش الهمايوني، يخرج ألف كافر فاجر من الكفار بقصد أن يوقعوا ضربة بأهل الإسلام، فتصادف أن التقوا بالأمير المشار إليه بعناية الحي الباقي جل شأنه، فيشتبك الطرفان، ويتحاربون ويتقاتلون على نحو لا يمكن وصفه وكتابته، وفي النهاية ينهزم

الأعداء بفضل الله تعالى، ويُقتل معظمهم، ويحصد الغزاة بالسيف شرايين حياة الأعداء بدلًا من عشب صحراء «طمشوار».

انهزام «طوت ميخال»

لم يتأدب هذا الملعون المذكور من الضرب على يده أمام «سكدين» من قبل؛ فيجمع مرة أخرى بعض قطاع الطرق من طائفة «قطانه» و«حيدود»، وعندما أشيع أنه يأتي لإيقاع الضرر بعسكر الإسلام من إحدى الجهات، يرسل إليه بعض الرجال من الغزاة، فيتقابلون بالملعون وتقع بينهما حرب ضروس، وبفضل الله تعالى يقتلون الملعون ويقتلون معظم أتباعه، ويأسرون ابنه ويحضرونه في اليوم التالي إلى الجيش الهمايوني، وأصبح هذا الحدث باعثًا على زيادة البهجة وسببًا في تضاعف حمد الخالق الرب الشكور.

فتح قلاع «لبوه» للمرة الثانية و«صولمش» و«برناق» و«أبراش» و«إيلنه» و«يانقوته» و«مورشوار» و«مارچنه» و«فاچد» و«بيوك ساج» و«كوچك ساج» و«چاليه» و«نابلاق» و«قنلاق» و«شقوه» و«سمعلوش» وغيرهم

وقعت تلك الفتوحات في السنة المذكورة، بعد فتح قلعة «طمشوار» التي كانت ماء وجه تلك الديار، عقد العزم على التوجه إلى قلعة «صونلق»، ولما كانت القلاع المذكورة يقع بعضها على طريق «صونلق»، فقد صار أهلها متعجبين من الهيبة الإسلامية فنسوا ديارهم ومنازلهم وهرب كل واحد إلى أقرب مكان تراه العين، وأما رعايا تلك الأطراف الذين كانوا قد تواروا في الجبال والغابات والمستنقعات المكسوة بالغابات، فقد أرسلوا رعايا من بينهم بوساطة أمراء الحدود حيث أعلنوا الطاعة والانقياد، وبهذا فقد أخذ ما يقرب من ثلاثين ألف منزل من الرعايا وثيقة الأمان.

فتح قلعة «صونلق»

وبعد أن رحل عسكر الإسلام المظفرون عن «طمشوار»، نزلوا في اليوم السابع أمام «صونلق»، إلا أن «خادم علي باشا» أمير أمراء «بدون» كان قد تقدم وأتى إلى القلعة

المذكورة وحاصرها، وكان على وشك إقامة المتاريس عليها كما كان الملاعين المحاصرون خائبين وخاسرين من جراء هجوم عسكر «بدون»، ورأوا أنه قد أتى هذه المرة أيضًا قدر من العسكر واستولوا على قلعتهم وأصيبوا بمرض إنقاذ رءوسهم، وفي تلك الليلة، بعد العشاء، وفي ظلام الليل فر قادتهم وفرسانهم إلى إحدى النواحي وأفراد جنودهم المشاة إلى ناحية أخرى، فلما علم عسكر الإسلام بذلك تعقبوهم في الحال ولحقوا بهم وفتكوا بمعظم أجسادهم الخبيثة وحملوا قائدهم فقط بطبله ومزماره إلى السردار المحفوف بالوقار، ونال كل شخص مرده بأخذ المكافأة التي يتمناها.

محاصرة قلعة «أكري» والرجوع بلا فتح

تم ذلك في العام نفسه، كان فتح قلعة «أكري» مقدرًا في تقدير الباري للمرحوم السلطان «محمد الثالث» رحمة الله تعالى عليه، وقد تمكن المرحوم والمغفور له السلطان سليمان خان غازي من فتح كل جانب وناحية اتجه إليها بفضل الله تعالى، باستثناء قلاع «بچ» و«أكري» و«مالطة»، أما قلعة «أكري» فقد كانت مرهونة إلى وقت مناسب، وكان فتحها مقدرًا للمرحوم السلطان «محمد الثالث»، ويرجى من القلب من جناب الباري أن يكون وقت فتح «بچ» و«مالطة» قد حان وأن يكون من نصيب وقدر حضرة سلطاننا صاحب السعادة أعز الله تعالى أنصاره، وأيضًا أن يكون من نصيب آله وأصحابه والغزاة الذين يفدون بالروح والرأس في سبيل الله بحق الحق ونبيه المطلق.

وهكذا، ففي ذلك الوقت ـ أي بعد فتح قلعة صونلق ـ وصل السردار ذو الشأن وأمير الأمراء والأغوات وجملة الغزاة وصلوا إلى القلعة المذكورة وقاموا بحصارها، وبذلوا على مدى خمسة وأربعين يومًا بالتمام الجهد الجهيد الذي لم يبذل في أي قلعة قط، حتى ذاق قدر من الغزاة شهد الشهادة وهذا القدر لا حد له ولا حصر، ولكن بسبب أنه لم يحن وقت فتحها بعد، فإن كل هذه المساعي والجهود لم يتمخض عنها أي شيء. فإنه شنت الهجمات على كل جانب، وغنم الغزاة الغنائم الوفيرة، وهكذا، كان يوجد

في كل خيمة واحد أو اثنان من الأحبة والمحبوبات وكان لا يوجد حد للأواني الفضية والأمتعة المرغوب فيها، ومن موانع فتح القلعة، أنه تبدل الهواء، وحلت أيام الشتاء وغطت الثلوج الخيام، وبالإضافة إلى هذه العوائق، فإن المعاناة والمشقة التي واجهت الغزاة في المحاصرات التي تمت طوال السنة، أجبرت الغزاة على العودة، ورُفع الحصار عن القلعة في السابع عشر من شهر شوال.

في ذكر استيلاء الشاه الضال على قلاع «عاد لجواز» و«أرجيش» و«أخلاط» واتخاذ السلطان صاحب السعادة ذلك حجة لحملة «نخجوان»

كان ذلك في سنة ٩٥٩ هجرية[١]، لقد نزل السلطان صاحب السعادة وحامي العالم إلى عرش «أدرنة»، ولما سمع الشاه الضال بأن السلطان قام بإرسال عسكر الإسلام إلى قلاع حدود المجر، عزم إلى حدود «وان» بالعسكر المأثورة بالشؤم قائلًا: «إن هذا هو وقت الفرصة»، وقام بالإغارة على فقراء نواحي «عاد لجواز» و«أرجيش» و«أخلاط» وإيقاع الضرر بهم، وقاموا بحصار قلعة «أرجيش»، وقام «أمير إبراهيم» من أمراء الأكراد والذي كان والي القلعة بإبعاد القزلباش عن القلعة بالمدافع والبنادق وسائر آلات الحرب حتى إنه لم يكن هناك أمل لدى القزلباش في فتحها، وبعد ذلك، أتوا على «عاد لجواز»، وكان والي القلعة هو «أمير مصطفى بن يوار قصدي سنان باشا»، وكان بطلًا مغوارًا ولائقًا بالفروسية، فلم يغلق باب القلعة، بل استقبل طوابير الأعداء بمقدار من الرجال من الغزاة الأبطال الذين كانوا محاصرين، وأداروا رحى حرب ضروس حتى أثنت عليهم ملائكة السماء.

وهكذا، عاد الملاعين خائبين وخاسرين من هذه القلعة؛ ولما كانت قلعة «أخلاط» صغيرة وحراسها غير أكفاء، فإن الملاعين قاموا بمحاصرتها، ومع أن هؤلاء أيضًا؛ أي

---

(١) الموافق سنة ١٥٤٣م.

حراس القلعة بذلوا أكثر مما في طاقتهم، إلا أن الملاعين سلكوا طريق الحيلة، وظهرت بعض الخطابات الممزوجة بالكذب، فقاموا بتخويف بعضهم وباستمالة بعضهم الآخر، قائلين لهم: «سلطانكم في مكان بعيد، وأنتم وقعتم في الفخ، فاخرجوا واذهبوا بالسلامة. وإلا فإنكم ستقاومون حتى متى».

ولما خرج حراس القلعة من القلعة بالأمان، قام الملاعين بقتلهم جميعًا مع أطفالهم وزوجاتهم، وقاموا بهدم القلعة وساووها بالتراب، ولما بدت الأحوال على هذا المنوال، فقد دب عدم الألفة والنفور بين الأشخاص الذين كانوا في «أرجيش» مع الذين كانوا واقعين تحت إمرة «أمير إبراهيم»، وقتلوا «أمير إبراهيم» فيما بينهم، وتركوا القلعة وذهبوا؛ فأتى القزلباش، وهدموا هذه القلعة أيضًا وساووها بالتراب.

وبعد ذلك أتى «شاه أوغلو إسماعيل ميرزا» إلى أطراف «أرضروم» مع عدة آلاف من القزلباش، وقام بتنظيم طابور أو طابورين، وخلاف هؤلاء، فإن البعض يترقبون الفرصة في الكمين، ويستدرجون «إسكندر باشا» إلى هذا الكمين ويدبرون محاولة إسقاطه في الشراك والقبض عليه بهذه الطريقة، ومع أن «إسكندر باشا» كان رجلًا خبيرًا بالحروب، فإنه لما رأى العدو، ترك من يده عنان إرادته وصبره، وهجم عليهم، حيث جعل القلعة خلفه واشتبك معهم، وأوقع الكثير من القزلباش على تراب الموت.

وفي البداية؛ لما عرض على السلطان ما تعرض له فقراء «أخلاط» و«أرجيش»، كان قد عين مقدارًا من جند الإنكشارية وبعض الأمراء للحفاظ على حدود «أرضروم»، وبحكمة الله تعالى، حلت أيام الشتاء، ولما لم يعد ممكنًا أن تكون القلعة مكانًا للإقامة لهؤلاء الجند الكثيرين، فقد أذن «إسكندر باشا» لبعضهم بالانصراف، والذين بقوا كانوا الأمراء فقط، والذي بقي من العسكر كان أقل القليل، ولما لم يتمكن الذين أتوا للقتال من مقاومة العدو، وقعت الهزيمة بجند الإسلام، واستشهد أمير «طربزون» وأمراء «ملاطيه»، و«بوزاق» و«قره حصار شرقي»، وسقط في الأسر «محمود بك» أمير سنجق «بيغا»، وأغوات فرق اليمين واليسار لولاية «أرضروم».

ولكن في الحقيقة، لو كان أي سردار خلاف «إسكندر باشا»، لكان من المؤكد عدم نجاة أي فرد، ولما عرضت هذه الأحوال على السلطان، ظن كل فرد أنه سيحل الغضب على «إسكندر باشا»، ولكن طيب خاطره بإرسال خلعة وسيف مذهب ودبوس مرصع إليه، وأرسل إليه خطا شريفًا ورد فيه: «ليكن وجهك ناصع في الدارين، فليس ابن الشاه بجنده في كفاءتك، ولكنك أثبت وجودك، ولم تقصر في بطولتك؛ فالنصر والهزيمة بمشيئة الله، فطيب خاطرك».

وكان قد نبه السلطان على الوزراء بقوله: «أرسلوا الخطابات إلى «إسكندر باشا» حتى تطيبوا روحه، وتذهبوا الغم عن خاطره»، ويروى أنه لما روى «الباشا» المومأ إليه ذات ليلة إلى جلسائه أنه رأى في عالم الرؤيا أنه يمسك بثعبان، قال أحد جلسائه: «إن الإمساك بالثعبان معناه بلع السم، وصورة الغم والألم»، وفسر أحد الجلساء الرؤيا بقوله: «إنه شائع مجيء ابن الشاه عليكم، وإن شاء الله تعالى ينبغي عليكم أن تمسكوا به»، ولما وافق التفسير الثاني مراداته في الدارين والتي كان يتمناها من جناب الباري تعالى ليل نهار، قام بتلك البطولة الفائقة.

وعلى كل فقد كانت هذه الأحوال هي السبب الذي جعل السلطان صاحب السعادة يتجه إلى الحملة الهمايونية، وهكذا، قام السلطان بإرسال الوزير «أحمد باشا» فاتح «طمشوار» إلى محافظة «بدون» مع قدر من الجند، وعبر أمير أمراء الروم إيلي «محمد باشا الطويل» مع عسكر الروم إيلي من «گليبولي»، وأمر بقضاء الشتاء في «توقات»، وأرسلت الأوامر العلية إلى حضرات أولياء العهد عالين المكانة، وإلى عموم أمراء الأمراء والأمراء الذين في ساحل الأناضول «وإلى سائر العساكر المنصورة وذلك من أجل أن يستعدوا ويجهزوا للحملة.

ولما تردد بعد ذلك على لسان الناس أنه لا بد من سردار مشهور للعسكر الذين في الساحل الآخر أي الأناضول، عهد إلى الوزير الأعظم وعالي الهمم «رستم باشا» عموم أغوات الإنكشارية وبلوك خلقي مع أغوات البلوك، وأرسلوا إلى ذلك الجانب،

وتم الوصول إلى جانب «آقسراي» بقطع المنازل وطي المراحل، ولما كان الأمير المرحوم السلطان مصطفى، الذي بلغ عمره المبارك الأربعين، عالي الشأن وصاحب شهرة ومحسود من أولياء العهد في العلوم والمعارف والسخاء والعطاء وأن أكثر عسكر بلوك خلقي متفقون في محبته، فإن بعض السفهاء والأراذل أغروا الأمير النجيب، وفتنوا قلبه الصافي ببعض هذه الكلمات الفارغة قائلين له: «إن والدكم قد بلغ من السن مبلغه، وتوقف عن السفر والتحرك، فلابد وأن تعين وزيرًا أعظم وترسله إلى الحملة، فإن السلطان كانت نيته أن يستخلفكم مكانه، ولكن «رستم باشا» مانع ذلك، فليتكم تصلون عليه وتقطعون رأسه وتتقدمون الجند، فإن جملة الجند يريدونكم، وينبغي أن يصرف السلطان الأعظم بقية عمره في الطاعة والعبادة في قصره»، وتجمع هؤلاء الأراذل ورفعوا الأعلام والتيوغات.

ولكن لما انعكست هذه الأحوال على الوزير الأعظم، قام «شمس باشا» الذي كان في ذلك الوقت أغا لطائفة «سباه أوغلنلري»؛ أي أبناء السواري في الحال وبلا تأخير وإهمال بإرسال «چاوش باشي علي أغا»، حيث لخص الأمر إلى الركاب السلطاني، وكان «شمس باشا» قد سجل في منظومته هذا الأمر على هذا النحو:

لما قرأ السلطان التلخيص، كذب ذلك قائلًا: «حاشا أن يجرُؤ مصطفى ابني يجرأ على السفالة، وأن يرتكب تصرفًا غير معقول كهذا في حياتي، فإن بعض المفسدين أوقعوا الشهزاده في حب الملك»، كما أن السلطان نبه قائلًا: «احذروا أن تذكروا هذا الكلام، وأن تظهروا هذا النوع من المفاسد»، وكان قد كتب السلطان التلخيص الذي يوجب استدعاء الجند وأن السلطان صاحب السعادة سوف يتوجه شخصيًا إلى الحملة الهمايونية.

وعقدت العزيمة والنية على التوجه إلى الحملة - إن شاء الله تعالى - في أول الربيع، وعلى هذا صدر فرمان بأن يعطى إذن الانصراف إلى الإنكشارية وسائر جند خدم الباب، وأن يعود السردار إلى الآستانة السعيدة، وأحسن عليه بخط شريف، وبموجب

الفرمان الهمايوني، أعطى إذن الانصراف للعسكر، وأتى ودخل الوزير الأعظم الآستانة السعيدة.

ولما أحاط الشاه الضال علمًا بالتدبير الهمايوني للسلطان صاحب السعادة، انشغل بإفساد عزيمة السلطان، فمن قبل كان قد قبض على «محمود بك» أمير «بيغا» حيًا في واقعة «إسكندر باشا»، وكان قد غمر بالرعاية والاعتبار وذلك لما شاهده القزلباش من بطولاته، وفي الحقيقة، فخلاف بطولته، كان رجلًا بليغًا في تعبيره وحسن الأسلوب ونادر الأقران، وقد وصل إلى مجلس الشاه عدة مرات، وفي النهاية، يتشاور معه أمور الصلح والصلاح ويرسل الأمير المذكور بالخطاب ليستأذن في إرسال سفير إلى بلاط حامي الخلافة.

ولما عرض الأمر على العرش السلطاني الأعلى، أرسل جوابًا مضمونه: «إن بلاطنا حامي العالم مفتوح للأحباء والأعداء، ومكشوف للصديق والعدو»، وفي الحال بلا إهمال أو إمهال قام الشاه بتعيين سفير من السادات صحيح الأنساب، وأرسل صوب البلاط مخلد الأركان، ولكن السلطان صاحب السعادة قال: «إن مقصد الشاه هذا هو تأخير العسكر».

خلاصة حملة السلطان المقرون بالنصر على «نخجوان»

ـ توجه السلطان:

في ١٨ رمضان المبارك ٩٦٠ هجرية[١]، لما حل أوان الحملة وجاء وقت تحرك العسكر، تفضل السلطان حامي العالم بعبور البحر مع جميع خدم البلاط وفقًا للقاعدة السلطانية المتبعة والعادة الشاهانية المستمرة، وتفضل بالمرور بصحراء «إسكدار»، وكان الأمير أو ولي العهد الشاب المحظوظ قرة العين الأمير السلطان «جهانگير» غصنًا غضًا وبرعمة للوردة التي لم تتفتح بعد في حديقة السعادة السلطانية، حيث امتطى جوادًا

(١) الموافق ٢٨ من مارس ١٥٥٣م.

جميلًا أمام السلطان وقام بإلقاء السلام على النفوس الكثيرة التي كانت مجتمعة هناك، وكان دعاؤهم عليك عون الله تعالى قد وصل إلى السماء، ولما كان يتحرك كل يوم من منزل إلى منزل آخر كالقمر الذي يضيء العالم، كان يضفي على كل الصحراء والبوادي، التي يحل بها، سمة من حدائق إرم ذات العماد، وقام الأمير المؤيد «سلطان بايزيد» باستقبال السلطان السعيد قرب «يكي شهر» حيث كلف بحماية الروم إيلي وأرسل إلى أطراف المحروسة «أدرنة».

ولما تفضل حضرة السلطان سليمان بالنزول في اليوم الثاني عشر من شهر شوال إلى المكان المعروف باسم «بولاودين»، التقى ولي عهد السلطان الكريم الأمير السلطان «سليم» الشاب الكريم المحظوظ، والذي لا يزال في العز الكريم، مع عسكر سنجق «صاروخان» المأثورين بالنصر، بوالده السلطان سليمان، وفي اليوم التالي، وصل جميع الأعيان والوزراء رفيعي المقام إلى العتبة العلية للأمير أو ولي العهد وقبلوا يده، ثم لبسوا الخلع، وحملوا الأمير عالي الجاه إلى البلاط السلطاني، فتشرف ولي العهد أو الأمير بتقبيل أنامل والده السلطان سليمان المتصف بخصائل «جم»، ومن ثم أمر بأن يتوجه إلى الحملة الهمايونية.

ولما تم العبور في اليوم السادس والعشرين من الشهر المذكور من «أركلي» وتفضل السلطان سليمان بالنزول إلى المكان المعروف باسم «آق أبوك» بالقرب من «أركلي»، كان الشهزاده أي الأمير السعيد السلطان مصطفى الشهيد قد أقام خيمته وبلاطه والأوتاق الخاصة به وسرادقه في مكان قريب للموضع المذكور بتمام العظمة والعزة، وفي اليوم التالي وصل عامة أركان الدولة على بلاط الشهزاده أي الأمير، وفقًا للعادات القديمة السلطانية وقبلوا يده وخلعت عليهم جميعًا الخلع الفاخرة، وبعد ذلك امتطى الأمير النجيب جواده، وأتى على بلاط السلطان مدار السعادة ونزل من فوق جواده في مكان قريب من مقر الديوان الهمايوني وتقدم أمام الوزراء وسلم على الذين أمام الخيمة الهمايونية، وبمجرد أن دخل الشهزاده إلى الداخل كانت هذه آخر لحظة في حياته بتقدير الحق جل شأنه، وانتهت أيام عمره في تلك الساعة، وحمل أيضًا رئيس الإسطبل

وأحد أغوات الخارج إلى ميدان الإعدام حيث ضربت رقابهم في اللحظة نفسها، وفي هذه الأثناء كان الوزراء قد جلسوا في الديوانخانة[1]، وأتى كتخدا البوابين «قبوجى لر كتخداسى» وأخذ الختم الهمايوني من «رستم باشا» وأخبر الوزير «حيدر باشا» بعزله قائلًا: «اذهبوا إلى خيامكم». وأحضر الختم الهمايوني ثانية وأعطاه إلى الوزير الثاني «أحمد باشا» وأبلغه ببشرى منصب الصدارة العظمى، وتم التنبيه على العلماء الذين كانوا ملازمين لقضاة العسكر بأن يذهبوا إلى «أركلي» لأداء صلاة الجنازة وحمل نعش الأمير أو ولي العهد «سلطان مصطفى» من «أركلي» إلى «بروسه» وتبدلت العزة والعظمة التي كانت قبل ساعة إلى قدر عظيم من الحزن والهم في لحظة واحدة، كما لو كانت قد قامت قيامة ليس خدمه فقط، بل قيامة جميع عسكر الإسلام. فسبحان العزيز المتعال بيده الملك لا يزول ولا يزال.

وعمومًا فبعد أن أصبح الأمير ضحية الغضب السلطاني، وصل دفتردار الخزينة العامرة إلى جيشه وصادر خزينته وخيامه وحيواناته وغلمانه لبيت المال وأظلت العناية السلطانية خدمه، فنال معظمهم مراده بمقاطعات التيمار والزعامة، وعلى أي حال علم كل شخص أن كل ذلك كان من تحت رأس «رستم باشا» ونظم شعراء ذلك العصر التواريخ والمراثي التي تعبر عن أنواع الفرقة والحزن وجميعهم نسبوا ذلك بوضوح إلى «رستم باشا»، وأصبح القول «مكر رستم» عنوانًا لأحد التواريخ، وهناك تاريخ آخر أيضًا تحت عنوان وقد قتل شهيدًا سنة ٩٦٠ هجرية، وهناك أيضًا مرثية المرحوم «يحيى بك» ناظم الإثر المعروف باسم «شاه وگدا» وهي مسطورة الآن في معظم المجموعات القديمة، وصرف النظر عن ذكرها؛ بسبب أنها ستبعث على الإسهاب في هذا الحديث.

ولقد ذكر المرحوم «عالي أفندي» قوله: «لقد سألت المرحوم «يحيى بك» ذات مرة «ألم تخف من غضب السلطان حتى تجرأت على النظم بتلك الصورة»، فرد عليَّ قائلًا :

(١) هو اسم يطلق منذ القدم على الأقسام التي يتشكل منها الديوان. وكان يقال: «ديوان خانه» على الردهة الواسعة والكبيرة التي بين الحجرات. كما كان يقال «ديوان خانه» على المكان الذي به وزارة الخارجية.
- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C.I، S.462.

«لقد أخرجني فراق الأمير عن وعيي واضطرني إلى ذلك فنظمت ما لاح للقلم دون اختيار مني، ولكن كان مقصدي عدم نشره في عصري، وأن يخفى حتى أموت، فأتى أحد أصدقائي القدامى إلى خيمتي صدفة فوجدني نائما، ولما لم يكن بيننا تكليف فقد قلَّب في حافظة أوراقي فرأى مسودة المنظومة، فنسخها في الحال وذهب»، وفي اليوم التالي ذهبت لمشاهدة الجيش الهمايوني فوجدت أن المنظومة تُقرأ في كل زاوية، وأن بعض الجنود يبكي وبعضهم يتأوه قائلًا: «إنها ستكون سببًا للمغفرة ليحيى بك»، ومهما أنكرت فإن ذلك لم يفد، ولما عزل «رستم باشا» الذي كان يَكِنّ لي العداوة رغم أنني كنت مجرد شاعر، اعترفت قائلًا في قرارة نفسي: ليس لي دخل في هذا، ولكن بعد عامين اعتلى مقام الصدارة العظمى مرة أخرى وشمر عن ساعديه لقتلي، وعرض أمري على الركاب الهمايوني مرة أو مرتين قائلًا: «ينبغي محو وجود هذا النوع من الناس من أجل نظام العالم، إلا أن السلطان صاحب السعادة والخصال الجميلة لم يأذن بقتلي بسبب أنه كان يقول الحق ويميل إلى الشعر والشعراء، وكان هو أيضًا؛ أي سليمان القانوني شاعرًا فحلًا له أشعار تحت مخلص[1] «محبي»». وأمره بقوله: «لا تستمع إلى الأقوال ولا تسعى للانتقام»، وفي أحد الأيام أرسل «رستم باشا» جاوشًا حيث حملني إلى الديوان، ووجه إليَّ بعض التوبيخات بخصوص وقف المرحوم «سلطان بايزيد» الذي كان في عهدتي وغضب قائلًا: «ما مرتبتك؟» إن السلطان عالي الجاه يتصرف وفقًا لما يقتضيه الشرع من أجل نظام العالم، وأنت تطعن وتشنع بالسلطان صاحب السعادة شخصيًا وبوزرائه وتنظم هذا الهذيان وتعطيه للعوام وتسعى إلى الفساد»، وعندئذ ألهم قلبي بالرد على ذلك بقولي: «نحن قتلنا المرحوم مع الذين قتلوه ونبكي عليه مع الذين يبكون، ولكني رأيت بدلًا من القول: أخطأ سلطاننا؛ أن أقول: إن السلطان راعي الآداب العامة للدولة، وأن أصحاب الأغراض هم الذين حرضوا على هذا الفساد»، وفي الحال أدار «رستم باشا» وجهه غاضبًا وأغلق ذلك الموضوع. وقبل مرور عدة أيام عزله من منصب متولي الأوقاف، وبعد ذلك كان المرحوم «يحيى بك» قد تولى مقاطعة الزعامة [زعامت]، واكتفى بها حتى وفاته.

(١) مخلص: تعنى الكنية.

وخلاصة القول فبعد أن أصبحت نهاية أحوال المرحوم «سلطان مصطفى» في ذلك الموضع المنحوس، على هذا النحو، تفضل حضرة السلطان بالتوجه إلى جانب حلب، وألبس سفير الشاه الخلعة السلطانية وأذن له بالعودة حيث أرسل إلى مملكته بالخطاب السلطاني الذي كان مضمونه: «أمضي هذا الشتاء في حلب، وإن شاء الله تعالى سأتوجه إلى حدود العجم في أول الربيع وسوف نحصد في ذلك الجانب نتيجة البذور الفاسدة التي زرعوها في هذا الجانب»، وأمر الأمير الكريم أعني السلطان سليم بأن يمضي الشتاء في «مرعش» كما أمر أمير أمراء الروم إيلي بقضاء الشتاء في «توقات» مع جنده، وأصبحت حلب المحروسة التي تعد شرف الممالك العربية في حالة من الهدوء والاستقرار بقدوم السلطان عالي النسب في غرة شهر ذي الحجة[1] حيث قدمت إليه الفضة والذهب.

وفاة السلطان «جهانگير» ابن السلطان مدار العرش والوردة الندية لحديقة السلطنة

سنة ٩٦٠ هجرية[2]، لما كان الأمير النجيب صافي الضمير في الأمور الدنيوية، وكان أصغر أبناء السلطان، فقد تعلق به السلطان حاكم العالم بدرجة كبيرة جدًا، وكان مؤنسًا ومخففًا للأحزان عن السلطان في الحرب والسلم، وصديقه ومشاركًا لأحزانه ليل نهار، وفجأة فقد تغير مزاجه الصافي ولم يفد فيه علاج الحكماء الحاذقين، وفي النهاية لم ينج من قبضة الأجل وصعدت روحه المباركة كالطائر للجنة، وأصبح رفيقًا وأنيسًا للملائكة العليين، وقد أديت صلاة الجنازة عليه في حلب الشهباء، وأرسل نعشه إلى إستانبول.

رفع بعض المظالم عن حلب الشهباء

سنة ٩٦١ هجرية[3]، لما امتدت أيدي الشراكسة الأبالسة وبعض الظلمة والطاغين

(١) الموافق ٨ من نوفمبر ١٥٥٣م.
(٢) الموافق سنة ١٥٥٤م.
(٣) الموافق سنة ١٥٥٤م.

لبعض الأوقاف الباقية عن السلاطين السالفين في حلب المحروسة، فإنهم اخترعوا بعض الحجج والدوافع، وقد انتزع معظمها تحت اسم الأعشار الشرعية لخزانة الدولة، وربما كانوا لا يتركون حتى العُشر للأوقاف، كما وضعوا عليهم رسومًا غير مشروعة بدعوى إقامة بعض المباني الحديثة على أرض الدولة، ولما وقعت أيضًا بعض المظالم أمثال هذه، قدَّم العلماء والفضلاء وسائر السكان والفقراء عريضة شكوى للركاب الهمايوني، وبناءً على ذلك فقد كُلِّف قاضي عسكر الروم إيلي في ذلك العصر ومولانا «مؤيد زاده عبد الرحمن أفندي» الذي كان أعلى مقام يرجع إليه المجاهدون، كُلِّفا بتنظيم أمورها وفقًا للقواعد الشرعية.

وهكذا، فحتى تمنع وترفع التصرفات غير المشروعة هذه ويذكرا بخير الدعاء في تلك الممالك إلى يوم القيامة قاما بوضع النظام عالي الشأن الذي سيكون إن شاء الله تعالى باقيًا وخالدًا إلى يوم القيامة.

قدوم ولي العهد «السلطان سليم» إلى مشتى حلب الشهباء

لقد دُعي حضرة المشار إليه من «مرعش» لتطييب خاطره الذي اضطرب بفراق ولي العهد المغفور له سلطان جهانگير، وبعد أن أتى الأمير تحفّه العزة، توجه إلى أطراف «حما» و«سيرز» و«معرة النعمان» و«سلمية» من أجل الصيد والقنص وقضى بها عدة أيام حيث استوفى حظه من أنواع الصيد وأصناف التسلية، ثم عاد مرة أخرى، ووصل ودخل حلب الشهباء. وأذن لحضرة الأمير بعد ذلك بالانصراف إلى «مشتاه».

توجه سلطان الإسلام إلى جانب ممالك القزلباش اللئام

كان ذلك في جمادى الآخرة سنة ٩٦١ هجرية[1]، لما قدم سلطان الربيع وجعل جنة الخلد تحسد الصحارى والبوادي بأزهارها وزينتها وتجملها وبساطها الزمردي، توجه

(١) الموافق ٧ من مايو ١٥٥٤م.

حضرة سلطان الأقاليم السبع بعسكره الذين اتخذوا النصر لهم دليلًا حيث نزلوا في اليوم المذكور إلى الموضع المعرف باسم «گوك ميدانى»، وكان قد كلف الوزير الثاني إبراهيم باشا بحماية إستانبول، حيث غادر في ذلك الحين الجيش الهمايوني، وكان السلطان الغازي عالي الجاه ينزل كل يوم في وادٍ، فعبر الجسر المقام على نهر الفرات، وفي المنزل الثالث مر من مدينة «رها»[1]، وفي اليوم التاسع من شهر جمادى الآخرة أصبحت الصحراء التي تقع بجوار «آمد» في المكان المعروف باسم «چولك» تشبه جنة المأوى بقدوم السلطان.

في ذكر منح السلطان عالي الجاه كـ «جم» الإذن العام بعقد الديوان الهمايوني واهتمامه واستمالته للعباد معتادي العناية

لما شرفت صحراء «آمد» بقدوم السلطان صاحب المحامد، أمر في اليوم الثالث بعقد الديوان الهمايوني؛ فأقيم الأوتاق والمظلة السلطانية، ونصب بداخلها العرش الهمايوني المقرون بالبهجة وجلس السلطان بالعزة والسعادة على العرش الذي هو مصير الدولة ورفعت الستائر وأذن لكل شخص بالدخول واجتمع وفقًا لقاعدة الديوان العالي على الترتيب أولًا أغا الإنكشارية وكتخداهم وكتابهم، وبعد ذلك أغوات الأوجاق ورؤساء المشاه ورؤساء البلوك وجميع رؤساء الغرفة الذين يعرف الواحد منهم باسم «ضبطجى»، وخرج الوكلاء ومشايخ البلوكات، حيث بلغ عدد ذلك بأسرهم عدة آلاف من الرجال فدخلوا حسب مراتبهم ووقفوا أمام السلطان، واستمعوا لكلامه الذي يشبه الدر من بدايته إلى نهايته، وتفضل السلطان صاحب السعادة وحامي العالم بالاستفسار أولًا عن أحوالهم بلسانه المبارك، وبالاستخبار عما واجهوه من مشقة في الحملة حيث قال: «إن تجاوزات الشاه الضال على الممالك الإسلامية كانت هي الباعث على الخروج لتلك الحملة وذلك بموجب شرف السلطنة وبمقتضى الحمية الإسلامية

---

(١) رها: هي المعروفة باسم «أورفا».

وقد بذل غزاة الإنكشارية حتى الآن ما في وسعهم في سبيل الدين المبين تقديرًا لغيرة أجدادنا العظماء وبعد ذلك يرجى منكم أكثر من ذلك»، كما وعد السلطان بأنه سوف تتم رعاية الذين قاموا بالخدمات والبطولات بما هو زائد عن الحد، وهكذا استمال قلوبهم بآلاف الوعود حتى ذرفت عيون الجميع، الصغير والكبير والشاب والشيخ الدمع ، ودعوا جميعًا بلسان واحد من القلب والروح لسلطان الإسلام قائلين: «لو أنك ذهبت بنا إلى الهند والسند وحتى سرت بنا إلى جبل قاف فإننا لن نتراجع فنحن نعلم أن التضحية بالرأس في سبيل السلطان عز الدارين وكل ما تأمر به سننفذه». وتشرفوا بالدعاء بالخير للسلطان صاحب السعادة، وسلموا عليه ثم خرجوا.

وبعد ذلك دخل قضاة العسكر وعرضوا قضاياهم التي لا حاجة لتفصيلها هنا، ثم رجعوا، وبعدهم الوزراء العظام، وسائر أصحاب المقامات الرفيعة وأغوات البلوك ونوابهم وسائر ضباطه، وكبار فرق بلوك خلقي، حيث دخلوا جميعًا ووقفوا أمام السلطان وانتظروا إكرام السلطان العالي لهم وأوامره الهمايونية، وتفضل حضرة السلطان بالحديث إلى هؤلاء حديثًا مستطابًا، وبرعايتهم رعاية تبعث البهجة مثل رعايته الهمايونية التي كانت لطائفة الإنكشارية، ولما وعد السلطان الذين حرصوا على الاشتراك في الغزوة والذين أظهروا البطولة بالوعود المتعددة شعر جميع «عسكر خلقي» بالسعادة في ذلك اليوم كأنه يوم العيد وقويت قلوبهم جميعًا بالالتفاتات السلطانية، حيث رفعوا الدعاء للسلطان والثناء عليه وتجمعوا ثم خرجوا وذهبوا.

في ذكر تحرك السلطان بالعزة من «آمد»

في ١٧ من جمادى الآخرة من السنة الهجرية نفسها [1]، كان قد أصبح من المقرر التوجه السلطاني من المحروسة المذكورة؛ أي من «آمد» إلى ناحية «أرضروم»، ولكن بسبب أن الطريق كان ضيقًا جدًا فقد أمر أفراد الإنكشارية أن يتحركوا قبل الركوب السلطاني بيوم، وتفضل السلطان حامي العالم بالتحرك في اليوم التالي، ونزل بالمنزل

(١) الموافق ١٢ من مايو ١٥٥٤م.

الرابع المعروف باسم «چباقچور»، وبعد ذلك تم العبور من الجسر العظيم المقام على نهر «مراد» حيث تم النزول في اليوم التاسع والعشرين من الشهر المذكور في المكان المعروف باسم «قارغه پازاري»، وبعد ذلك وزعت الذخيرة على العسكر؛ وأكرم أفراد خدم الباب والإنكشارية والجناح الأيمن والأيسر لبلوك خلقي، وقام حضرة السلطان بتزيين قلوب خدمه وأسلحتهم ومعداتهم الحربية بالنقود الذهبية أكياسًا أكياسًا، وبعد ذلك أتوا في اليوم الثالث من شهر رجب إلى مرعى «طويلة» وهناك أحضر رجال «زينل بك» أحد أمراء الأكراد من أصحاب الحيل الأسرى الذين يدلون بالمعلومات عن العدو، وفي اليوم الرابع أتوا إلى المكان اللطيف ذي العشب والماء والمعروف باسم «صو شهري».

وقام الوزراء بتنظيم المواكب في ذلك المكان حيث زين الوزير الأعظم أحمد باشا طوابيره في الجناح الأيمن، وزين الوزير الثاني «علي باشا» طوابيره في الجناح الأيسر على النحو الذي أصبح كل العالم مندهشًا وحيران عند مشاهدتهم، وفي اليوم نفسه وصل «محمد باشا» أمير أمراء «الروم إيلي» إلى الجيش الهمايوني بجيوش الروم إيلي ذوي جلود النمر وتيجان الذئاب وإشارات النجابة متذملين بالدروع وبأيديهم أساور من حديد ومزدانين بالأعلام البيضاء والحمراء، وفي اليوم السادس وقف معلمو وخدم باب صاحب العرش والتاج؛ أعني السلطان سليم مع رؤساء سباهية عسكر «صاروخان» تحت علمه المكرم وطابوره المشهور عالي الشأن والمزدان بأنواع الزينة، ووقف «أحمد باشا» أمير أمراء الأناضول مع عسكر الأناضول ووقف مقابل هؤلاء عسكر «قرمان» وأبطال «اليونان» مع أمير أمرائهم «خادم علي باشا» وخلف هؤلاء وقف أبطال «سيواس روم» مع أمير أمرائهم «تمرد علي باشا»، كما وقف خلف هؤلاء عسكر «ذو القدرية» وأبطال «بوزاوق» وعسكر «تركمان» مع أمير أمرائهم «حيدر باشا» ورتبوا طوابيرهم وأظهروها بصورة لائقة وحسنة ومناسبة وجديرة بالاستحسان، وصدر في هذا المكان الفرمان المطاع في العالم حيث جاء فيه: ينبغي أن يكون عسكر «ذو القدرية» و«سيواس روم» في المؤخرة وعليهم أن يسيروا من الخلف ويعينوا ويساعدوا من يسقط

من الجند ويوصلوا من يتخلف منهم إلى العسكر وعليهم أن ينزلوا في المنازل بعد جميع الجنود ويرحلوا بعدهم وأن يلاحظوا ويراقبوا جميع العسكر، كما ينبغي أن يسير أمير أمراء الأناضول وقرمان في الجناح الأيمن ضمن الركاب السعيد لحضرة الأمير أو ولي العهد عالي الحظ واللائق بالتاج والعرش، وأن يسير عسكر الروم إيلي مع أمير أمرائهم في الجناح الأيسر وأن يكون أمير أمراء أرضروم «إياس باشا» الذي كان رجلًا جسورًا جدًا بصحبة «إسكندر باشا» أمير أمراء ديار بكر، ومع الأمراء عالي الشأن من حكام كردستان وأن يكون أمير أمراء الشام «محمد علي باشا» مع عسكر بلاد العرب ، وينبغي أن يكون هؤلاء جميعًا طليعة للعسكر الذين اتخذوا النصر دليلًا لهم، وفي اليوم الرابع من شهر شعبان المعظم، أتوا إلى صحراء «قارص» بهذا النظام والترتيب حيث أرسل الخطاب السلطاني - الذي يلي ذكره - إلى الشاه الضال:

الرسالة الهمايونية التي أرسلت إلى جانب الشاه المقرون بالضلال

«طهماسب» الجسور أرشده الله الملك القادر عندما يصل المثال الواجب الامتثال فليكن معلومًا أنه بسبب قيامك بتحريف مراسم الدين وتزييف لوازم الشرع المبين مع أصحاب الرفض والإلحاد وأرباب الشناعة والفساد والتابعين والخاضعين لك، وبسبب قيامك بسب الشيخين المحترمين، فقد أصبح واضحًا وجليًا في المذاهب الأربعة أن ذلك كفر وضلال؛ ونظرًا لأنك سلكت طريق الخطأ فقد أفتى العلماء الأعلام وشيوخ دين الإسلام قواهم الله إلى ساعة القيام بأن دماءكم مباحة ومالكم حلال، والآن قد حملنا عليكم الجند طالبين المساعدة والمدد من الروح الطاهرة لمحمد المصطفى عليه السلام ومن الأرواح الصافية للخلفاء الأربعة المملوءة بالصفاء، وقد تم التوجه إليكم بعناية الله تعالى بحسن نية للقضاء على وجودكم الضار؛ نظرًا لأنكم مصرون على مذهبكم الباطل واعتقادكم الضال، ولا جرم فلما كانت الدعوة للتوبة والعودة للإسلام تأتي قبل استخدام السيف والحسام وهي سنة سنية لسيد الأنام، فقد أرسل إليك هذا الفرمان

اللازم الامتثال، فقد علمت أحوالك المضطربة والمشوشة، والآن ينبغي على الذين يدعون الشجاعة ألا يهربوا ويختفوا من الميدان كالمرأة الخائفة، كما أن قيادتك لأحد البلوكات الضالة والسعي لتخريب ونهب وسلب أموال العجزة والرعايا والمساكين، الذين هم في الحقيقة ودائع خالق العالمين والعمل على قطع أنسابهم وأنسالهم بعد أن تنسحب الأسود المتعطشة للدماء والأبطال الآخذين بالثأر أمر لا يليق بأهل الإسلام وبالذين يؤمنون بيوم الحشر والقيام، فلو توجد ذرة من نور الإيمان في قلبك أو ورقة غضة من العقائد الدينية في حديقة وجدانك، ينبغي عليك أن تتبع أهل الإسلام، وأن تتوب عن رفضك وإلحادك وضلالك الذي فعلته حتى الآن، وإلا فينبغي أن تترك قيادة العسكر لعدماء الحياء والملحدين الذين هم بلا حدود، وللحشرات عدماء العقول وسيئ الظن الذين بجوارك وأن تأتي لمواجهة العسكر المأثورة بالنصر، وأن تترقب لظهور الحوادث والأفعال الخفيفة التي سوف تأتي فيها وراء الكون من القدرات الإلهية، فلو أن المدافع والبنادق هي السبب في هربكم خائفين مفزوعين فلا داعي لذلك؛ لأنه لم نأت بمثل هذا النوع من الآلات الحربية من أجل الرافضين والملحدين، فإن السيوف اللامعة التي في أيدي أسود الحرب والوغى كافية لدفع الجماعة المكروهين والمعلومة أحوالهم، وبصفة خاصة فإنه بمقتضى النص القرآني المجيد: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[1]، أصبح ظاهرًا وواضحًا أن السيف والخنجر ورمح الحديد كافون لإزالتكم، والسلام بالنصح التام على من اتبع عساكر الإسلام.

نهب وسلب «روان» و«قره باغ» و«نخجوان»

تم ذلك سنة ٩٦١ هجرية[2]، وصفوة القول، فقد تم النزول بعد ذلك إلى المنزل المعروف باسم «شوره كل»، ولما كانت تلك المملكة عامرة وكل جانب منها عبارة عن قرى ومزارع ومناطق جبلية، فقد قام العسكر المحفوفون بالنصر بتخريب ومحو عمرانها حتى زالت آثار العمران منها، وأصبحت كومة من التراب، وبعد ذلك تم النزول إلى

(١) سورة الحديد الآية : ٢٥.
(٢) الموافق سنة ١٥٥٤م.

موضع يعرف بـ «شراب خانه»، ثم إلى المنزل المعروف باسم «نيل فراق»، وفي السابع عشر من شعبان المعظم، تم النزول إلى بلدة «روان» التي هي في الحقيقة بمنزلة الروح من الجسد بالنسبة إلى مملكة العجم؛ فأضرمت النيران في القصور المنسقة والجميلة وفي حدائق وبساتين الشاه وابنه وبعض الخانات والسلاطين المشهورين، وبصفة خاصة أضرمت النار في الحديقة الواسعة والجميلة التي كانت تعرف باسم «باغ سلطانيه»؛ حيث أصبحت مساوية للتراب، وفي اليوم الثالث والعشرين، تم النزول إلى المكان اللطيف المعروف باسم «أربه چايي» ونهبت وخربت أطراف ذلك المكان بالكامل وفي هذا المكان التقى أمير أمراء «ديار بكر» مع بعض القزلباش[1]، ودارت رحى الحرب والقتال، وأحضرت بعض الألسن والرءوس من القزلباش.

وفي اليوم الرابع والعشرين، لما تم النزول في «قره حصار» على ساحل نهر «أرس»، وعلى إثر رؤية بعض الأشخاص من أرباب مقاطعات الزعامة في «قرمان»، وبعض الأشخاص من سائر عسكر خلقي، بعض القرى على بعد مسافة، توجهوا إليها، ولكن أعد بعض القزلباش الأوباش كمينًا وراحوا يترقبون الفرصة حتى تمكنوا من إيقاع بعض الخسائر بهؤلاء الغزاة، وفي اليوم الخامس والعشرين، تم الدخول إلى «قره باغ» التي هي من ممالك الأعاجم المشهورة وهي منطقة عامرة بحدائقها وجبالها، لكن أحاط بالعالم غبار كثيف بحيث أصبح الرجل لا يرى الرجل وتحول النهار المضيء إلى ليل مظلم وكان سكان تلك النواحي قد تفرقوا وتشتتوا على نحو لم يتم العثور فيه على أي أثر لهم، ولكن عثر على معظم الأشياء المختلفة التي كانوا قد دفنوها في بعض الأراضي وخزنوها في بعض المغارات واستُولي على الغنائم التي لا حد لها، وأضرمت النيران في كل ما لا يمكن حمله من تلك الأشياء.

---

(١) أطلق هذا الاسم على صنف العسكر الذين عملوا على تأسيس الدولة الصفوية في إيران، وعلى قبائل الترك والتركمان الذين يشكلون هؤلاء العسكر، وأطلق عليهم هذا الاسم لأنهم كانوا يرتدون غطاء رأس أحمر.
ـ قاموس الأعلام: ٥ / ٣٦٥٩.

وفي اليوم السابع والعشرين أصبحت صحراء «نخجوان» مضربًا لخيام السلطان فاتح العالم، إلا أن المدينة وقراها وضياعها وبقاعها صارت، بسبب الخوف من ضجيج العساكر المأثورة بالظفر خالية على النحو الذي أصبحت فيه خرابًا وموطنًا للبوم والغربان حتى كان منظرها يبعث على دهشة من يشاهدها ووحشة من يدخلها، وفي الحال قام جند طائفة «آت أوغلنلري»[1] المغرمون بالغنائم والقنص من بين سائر العسكر قاموا بالهجوم وبالإغارة على منازل وقصور الشاه وابنه وبعض الأعيان الآخرين؛ حيث اغتنموا الأموال التي كانت مدفونة بها، ثم قاموا بإحراقها وهدمها حتى لم يتركوا حجرًا على حجر، ولم يبق في تلك الأطراف والجوانب أي أثر من العمران سواء في القرى أو المراكز أو المزارع أو العمارات، وقد امتد هذا الخراب مسافة طول طريق يبلغ مسيرة أربعة أو خمسة أيام.

ولا يعلم عدد وحصر القزلباش الذين قتلوا أو ذبحوا في ممالك العجم - التي أتيحت فيها الفرصة للعساكر المأثورة بالظفر وتمكنوا من تحقيق النصر طوال تلك المدة - لا يعلم ذلك إلا جناب الباري تعالى فقط، كما أن أنواع الأمتعة النفيسة التي جمعت واغتنمت أيضًا أكثر من أن تحصى وتعد، وأن القلم عاجز عن عد وحصر الأحياء الذين كانت أفواههم كبراعم الورود الفضية اللون والأطفال حديثي الولادة والعذارى ذوات الخدود الوردية والشمائل الطيبة والشكل الجميل والعرائس حديثي الزواج اللائي كن بلا نظير في الحسن والبهجة، وقد اتفق المخمنون على القول: «إن عدد العسكر الذين كانوا مجتمعين في هذه المرة لم يحدث في أي حملة أخرى»، وفي تلك اللحظة لم تعد هناك خيمة قط لا يوجد فيها فردان على الأقل من المحبوبين والمحبوبات المذكورين كما لا يمكن حصر الخيام التي كان بها ما يتجاوز عدد الخمسة والعشرة.

---

(١) هو تعبير كان يطلق على ساسة خيول القصر. وكان قسم منهم يخدم في الإسطبلات الداخلية والخارجية للقصر في إستانبول، وقسم يخدم في سائر الإسطبلات. وحينما كان يتوجه السلطان للحملة، كان هؤلاء يقومون برعاية الخيول سواء الموجودة لدى السلطان أو لدى معيته. وكان مقدار «آت أوغلنلري» حتى أواخر القرن الثامن عشر حوالي ستمائة.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. I، S. 112.

وهكذا نضجت ثمار البذرة الفاسدة التي زرعها القزلباش في أطراف «موش آباد» و«أخلاط»، فحصدوها ومزجوها بالماء المسموم وشربوها غمًا وكدرًا.

عودة السلطان عالي الشأن بعد تخريب مملكتي «روان» و«نخجوان»

في العام نفسه أي في سنة ٩٦١ هجرية[1]، لما هل شهر الصيام المبارك الواجب الاحترام، تحول الخاطر الطيب المبارك للسلطان من القهر والانتقام إلى الرحمة والرأفة، وعندما تم الاستخبار عن أحوال الشاه الضال من القزلباش الذين أسروا، عُلم بأنه تحصن معتمدًا على طريق جبلي ضيق صعب المرور يعرف باسم «لور»، ولكن لو قدر الهجوم عليه لما كانت الجبال والتلال بفضل الله تعالى حائلًا دون هجوم غزاة الإسلام، ولكان تفريق العسكر المأثورين وتشتيتهم بالهزيمة سهل المنال، ولكن اكتفى بالضرب على يده بهذا القدر، وعلاوة على ذلك، فإنه لما أصبح ظاهرًا أن الشاه بعيد عن صفة الشجاعة فقد رؤى أنه من المناسب صرف النظر عن ذلك التقدم إلى الأمام، وفي اليوم السابع من رمضان المبارك ٩٦١ هجرية[2]، تم النزول إلى قرب القلعة الخربة المعروفة باسم «بايزيد قلعه سى»؛ أي قلعة بايزيد قاطعين المنازل وطاوين المراحل.

ولما علم الشاه الضال بعودة السلطان صاحب البصيرة، فبينما كان متحيرًا في دوامة بحر الحيرة وغارقًا في البحر المتلاطم، أصبح راضيًا وشاكرًا على بقائه في صحراء السلامة؛ أي بقاؤه على قيد الحياة، وفي هذه الأثناء، أُرسل خطاب من طرف خواص الشاه إلى جانب الوزير الأعظم، ووصل في هذا المنزل عن طريق أحد سباهية الجيش الذي كان أسيرًا لديهم، وقالوا في ذلك الخطاب تلك المقولة التي بلا معنى: «إذا كان الشاه قد ارتكب تصرفًا مخزيًا بهذا القدر واحتمى بالجبال صعبة المرور مثل الثعلب فإنه لم يدع في الوقت نفسه حميته الجاهلية، وبعد ذلك فإن حاكمنا أي الشاه سوف

(١) الموافق سنة ١٥٥٤م.
(٢) الموافق ٦ من يوليو ١٥٥٤م

يتوجه ثانية إلى ممالككم المحروسة فماذا عليكم أن تفعلوا؟ وعندما يكون أخذ الثأر من الرعايا فلسوف ترون منا أضعاف ما فعلتموه فإن مهارتكم ليست في استعمال السيف والخنجر، ولكنها تنحصر في المدفع والبندقية والنار والخداع ولا يمكن مواجهة النار؛ فتلك الشجاعة البالغة ليست شجاعتكم وإنما شجاعة النار»، وأضافوا قائلين: «فلو افترضنا أنكم حملتم على ممالك العجم عشر مرات، فلن يقع الشاه في الشراك على حين غرة مثل العصفور؛ وبذلك فإن العمل دائمًا بمضمون «الصلح خير سوف يكون مفيدًا للطرفين».

هجوم «سلطان حسين بك» حاكم «عمادية»[1]
وانتصاره على عساكر القزلباش

تم ذلك في العام نفسه، كُلِّف الأمير المشار إليه من قبل بالهجوم على ناحية «تبريز»، فقام بهجوم خاطف مع الأكراد الذين يألفون خوض الجهاد، وعبر من «تبريز» ووصل إلى أطراف «مراغه»[2] و«سهند»[3] حيث لم يبق أثر لعمران في تلك الأطراف، وقام بنهب وتخريب جميع قراها ونواحيها، وبعد ذلك أشعل فيها النيران وساواها بالتراب، وبعد ذلك لما دخل «عماديه» كان قد سمع أنه اجتمع عدة آلاف من الأشقياء في المكان المعروف باسم «تخت سليمان» متحالفين مع «خميس أوغلو حمزه سلطان» و«سيفي بك» من أمراء «بتان» و«على سلطان» و«أوشارلو أبو الفتح سلطان» و«كوزى بيوك خضر سلطان» و«إبراهيم قولى سلطان» وأمراء القزلباش الملقبين باسم «ديكر خليفة» باعتبارهم أصحاب قبائل وأمراء عشائر، وذلك بقصد الهجوم على بغداد العامرة كالجنة،

---

(١) هي قصبة ومركز قضاء في سنجق «حكارى» في ولاية «وان» وتقع شمال الموصل بحوالي ٨٠ كيلو مترًا.
ـ قاموس الأعلام: ٥ / ٣٢٠٦.

(٢) تقع في أذربيجان، وهي أيضًا تقع جنوب تبريز بحوالي ٨٠ كيلو مترًا.
ـ قاموس الأعلام: ٦، ص ٤٢٥٦.

(٣) تقع في أذربيجان، وبالتحديد جنوب شرق تبريز.
ـ قاموس الأعلام: ٤، ص ٢٧٠٦.

وعلى هذا هجم السلطان «حسين بك» عليهم في اليوم الثالث من شهر رمضان المبارك وقام بحرب ضروس وقتال عظيم حيث جُرح وذُبح أشخاص كثيرون من الطرفين، وفي النهاية هب نسيم النصر من جانب الأكراد السنيين؛ حيث هزم القزلباش وقهرهم واختفى «حمزة سلطان» الذي كان رئيسًا بينهم، وانحط شأنه وصيته؛ وأخذت أعلامهم وتيجانهم المرصعة وطبولهم وإشاراتهم ونقاراتهم، وبشر بلاط سلطان الإسلام بأن عسكر الإسلام قد صاروا بفضل الله تعالى منصورين ومظفرين.

صورة الخطاب المرسل من جانب الوزير الأعظم

لقد وصل خطابكم الآن إلى تلك النواحي، ولما كان هذا الخطاب نتيجة للحالة التي طرأت على الأذهان الخائفة من الخطاب السلطاني الذي يتضمن العبر، والذي تفضل سلطاننا حضرة «سليمان» فاتح العالم أعز الله تعالى أنصاره بإصداره إلى تلك النواحي، فإن خطابكم بلا شرف وناموس، وهذا الخطاب هو: كان قد ورد بأن إعلان حاكم أرضروم «إياس باشا» بأمر الصلح والصلاح، ثم إعلان السلطان مقر الخلافة - خلد الله تعالى ملكه - الحرب والعداوة إنما هو أمر متناقض، وأن سلوك أحد الطريقين بين السلاطين يعد قاعدة مستمر تطبيقها بين السلاطين رفيعي المقام، وليس هناك من شك في أن شروط الصلح وقواعده بين الملوك المقرونين بصفات الشجاعة هو العمل بمقتضى «الصلح خير» وذلك لراحة الرعايا ورفاهية البرايا، ولهذا السبب أرسلت الخطابات المتتالية وقد أوضحت هذه الخطابات: «بأن مقر سلطنة حضرة سلطاننا أعز الله تعالى أنصاره مفتوح لكل شخص في كل وقت وحين، وأنه لا ينفر من صداقة أي شخص ولا يهرب من أحد ولا يهرب من الصلح والصلاح»، وبالتأكيد لم تراع من هذا الجانب أسباب رفاهية البرايا وإنما بذل الجهد والسعي لإشاعة نار الفساد في كل وقت، وأن المظالم والتحديات التي وقعت ضد رعايا الممالك المحروسة في السنة المذكورة والتي برزت وظهرت من تلك النواحي كانت الباعث على تلك الأحداث الظالمة، وأصبح من الواجب بمقتضى غيرة وحمية الدين المبين أن ترى نيران القهر والعدوان التي أذقتها الرعايا أن تراها بعينها في ولايتكم.

وبناءً على هذا فمنذ عدة شهور تتجول العساكر المأثورة بالهيجاء في أكناف «أذربيجان»، ولم يظهر أي أثر لك، فأحيانًا تأوي إلى قمم الجبال مثل الثعلب، وأحيانًا تتحصن بالجبال الوعرة؛ بسبب الخوف من العسكر المتخذين النصر مظهرًا لهم، فهل هذه هي قواعد السلطنة وقانون حماية الحكومة والمملكة لديك؟ فلو أنك شاه حقًا، فلتأتِ إلى الميدان ولترَ عقاب وجزاء المظالم التي ارتكبتموها ضد الرعايا وليظهر ما قُدِّر في المشيئة الأزلية لحضرة الحق سبحانه وتعالى، فقد أصبح لديكم قصور ونقصان في منصب السلطنة وفي قيادة العسكر؛ فإنكم تفضلون الكسل في كل وقت؛ وليس لديكم القدرة على الوقوف وجهًا لوجه مع العسكر الذين اتخذوا الظفر لواءً لهم، فلو سلكت طريق العبودية وطلبت المعذرة وتنازلت عن مقام السلطنة تصبح رفيقًا للسلطان، فلقد سحقت ممالك الشرف لمرات عديدة بحوافر خيول العسكر المنصورة، إلا أنكم لم تظهروا في أي وقت قط وفضلتم سوء السمعة والهرب، وقد لوحظ في الخطاب السلطاني المرسل من قبلكم من أن الخوف من المدافع والبنادق هو السبب والباعث على اختفائك في زاوية الاختفاء بهذه الدرجة، ولذلك فقد أشير في الخطاب السلطاني على أنه لن تحضر المدافع والبنادق التي تخيفكم، حتى إنه قيل: إن تلك الكلمات التي تبعث بالسعادة إنما ناشئة من حالة الاضطرابات، وأنه معلوم من أي جانب يكون مصدر الاضطراب، فقد أتى حضرة حامي الخلافة من مسافة بعيدة إلى تلك الأطراف بعسكر بلا حدود كالبحر من أجل إحياء مراسم الدين الأحمدي وإشاعة ناموس الشرائع المحمدية عليه الصلاة والسلام، وقد تم استكشاف أحوال الطريق والمسالك التي ستتخذها هذه المرة؛ وقد عقدت النية بقضاء موسم الشتاء في حدود الممالك المحمية من أجل تهيئة أسباب إخراجك إن شاء الله الأعز الأكرم إلى الميدان طوعًا أو كرهًا حتى لو دخلتم في جحور الأرض كالنمل الذي لا حصر له.

ولما رجعنا بالسعادة والإقبال من ناحية «نخجوان»، تجرأتم بمقتضى مضمون المصرع «لا يخرج الثعلب أمام البطل» وأظهرتم أنكم موجودون في دائرة الوجود، وليكن معلومًا أن تلك الديار مستظلة الآن بظلال أعلام فاتح الأقاليم؛ فلو جئتم

إلى ميدان الوغى ستنحى مدافع وبنادق عسكرنا جانبًا بحسب ما أشير إليه، وسيلمع السيف قاصم الأعداء في الميدان وسيتلألأ ويسطع السيف المأثور بالظفر وفاتح الأقاليم مثل الشمس التي تضيء العالم.

وقد أرسل هذا الخطاب مع أحد أفراد القزلباش، وبعد أن وصل هذا الخطاب إلى الشاه، أرسلوا خطابًا آخر إلى الوزير الأعظم، وقد قاموا ببعض التجاوزات، ثم حرروا الكلمات المزخرفة المتعلقة بالدين وتحدثوا عن أحوال الصلح والصلاح، ومرة أخرى كُتب ردٌ على ذلك الخطاب، ثم أرسل:

الخطاب الثاني من جانب الوزير الأعظم

لقد جاء خطابكم على التو، وقد كتب في مقدمته: إن خطابات الصلح قد وصلت من هذا الجانب من قبل، وبعد ذلك صرح بصدور الأعمال المخالفة لذلك، فينبغي ألا يخفى عليكم أن خدم الوزراء الذين كانوا في الخدمة عالية المقام لحضرة حامي الخلافة وصاحب السعادة سلطاننا أعز الله أنصاره لم يرسلوا أصلًا الخطاب المتعلق بالصلح والصلاح مع ذلك الجانب؛ لأن طلب الصلح والصلاح من طرفنا مع ذلك الجانب يقتضي أن يكون هناك ضرورة له، والحمد لله والشكر لله أن القدرة والقوة وكمال الهيبة والعظمة التي كانت من نصيب حضرة حامي الخلافة، بالعناية العظيمة لحضرة الحق سبحانه وتعالى وبمعجزات فخر العالمين التي أظهرت طريق الصواب وبمدد الأرواح المقدسة لآله الكرام وأصحابه العظام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين لم تتيسر حتى الآن لأحد من السلاطين أصحاب القوة، كما أنه لم تكن لدينا حاجة حتى نضطر إلى إرسال الخطابات طالبين الصلح والصلاح معك، فهذا الأمر خلاف الواقع، وقد صُرح مرات ومرا ت في الخطابات المرسلة إلى ذلك الجانب بأن الخصال الحميدة لحضرة حامي الخلافة تبذل في المكارم والألطاف ولم ترد رغبات الذين يريدون الصلح والصلاح، وقد أجيز أمر الصلح لتأكيد هذا المعنى، وهذا لا يعني بالضرورة الرغبة حاليًا في المصالحة من هذا الجانب مع تلك الجهة، كما لا يعني ضرورة تبادل الخطابات، فقد حررت جميع

تلك الموضوعات في الخطاب المستطاب الذي دفع إلى السفير الذي كان قد أتى قبل ذلك إلى الآستانة السعيدة.

ثانيًا: فقد ذكر موضع الفتوى الذي أفتى به مفتونا والذي يقول: «إن جميع السباهية والرعايا الذين كانوا في ولاية العجم كفارٌ وأن دماءهم وأموالهم حلال»، وقد قيل: كيف يكون المقرون بوحدانية حضرة الخالق جل وعلا والمعتقدون بنبوة حضرة حامي الرسالة ﷺ كيف يكونون كفارًا؟ وقد وضح أنه ليس هناك خوف من العذاب والعقاب الذي يمكن أن يقع بمقتضى الآية الكريمة التي وردت في القرآن الكريم: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾[1]. وفي الواقع ليس هناك شك في أن جزاء من يقتل مؤمنًا هو جهنم والطائفة التي أفتى علماؤنا في حقها لم يثبت أنهم أهل إيمان، وأنكم تدعون الإيمان والإسلام، فتكتبون الآيات القرآنية في خطاباتكم وترسلونها، ولكن، توجد الجوامع والمساجد في ممالك السلاطين الذين كانوا أهل إيمان، ويؤدون الصلوات الخمس مع الجماعة ويرفعون الأذان؛ وتؤدى فيها صلاة الجمعة؛ وتقرأ فيها الخطب على المنابر، ويصلى على سيد الكائنات، ويدعون لآله العظام وأصحابه الكرام رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. فانظروا بإنصاف إلى هذا الأمر، هل توجد آثار للإسلام والدين في أعمالكم وتصرفاتكم؟ إنكم تدعون السيادة؛ أي الانتساب بالنبي في حين أنكم مصرون على الرفض والإلحاد، وتسبون وتلعنون الخلفاء رفيعي المقام لحضرة محمد عليه الصلاة والسلام، الذين كانوا عن يمينه وعن يساره في عهد نبوته وأيضًا أصحابه الكرام، الذين كانوا أصدقاءه وأصحابه في مرقده المبارك؛ وترضون بالفساد والمساوئ الظاهرة لطائفة «تبراي»[2] الذين لا شك أنهم مخلدون في النار ولم تمنعوهم وتدفعوهم عن ذلك، أليس أصحاب كل بلد لا يطبق

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٣ .

(٢) وهو اسم مشتق من التبرؤ وهو عكس التولي، وهو يطلق على الطوائف والمذاهب التي تلعن أهل بيت النبي.

ـ أحمد جودت: قاموس ترك، دار سعادة ١٣١٧، ص ٣٧٧ .

الشرع الشريف والذين يقيمون في ذلك البلد ويرتضون بالكفر أليسوا جميعًا كفارًا؟! وإلا فعلى من يطلقون لفظة «كافر»؟ إذا كان يطلق على من لديهم كنيسة، فلا توجد لديكم حتى كنيسة، ولا تعملون بما يأمركم به الإيمان والإسلام، فهل يكون الرجل مؤمنًا بمجرد القول: إننا مسلمون؟ وفي الواقع أنه إذا كان لديكم علماء يعتقدون أنكم مؤمنون ومسلمون ويفتون بكم، فأرسلوهم إلى ذلك الجانب أي إلينا، وليأتوا وليناقشوا علماءنا، عندئذ سيظهر فساد معتقداتهم، فلو كنتم منصفين، لعرفتم عندئذ أن الحق في أي طرف، فقد مضى على ظهور الدين المحمدي تسعمائة وواحد وستون عامًا، أما العادات التي أوجدتموها فلم يزد عمرها عن الخمسين عامًا، فهذا الدين الذي تعبدونه أين كان حتى الآن؟، وهو مخالف لشرع الرسول الطاهر، فالذين يتبعون دينًا مستحدثًا وباطلًا كهذا أليسوا بكفار؟ ألم تخجلوا وتستحوا من حضرة الحق جل وعلا؟ فماذا يكون جوابكم يوم القيامة؟ إنكم تخترعون الأقاويل الباطلة في حق العلماء الذين قضوا بكفركم طبقًا للشرع، وتكشفون أموركم المستورة بالأقاويل الفارغة تلك.

ثالثًا: فقد ذكرت أحوال يوم القيامة والحشر والنشر والصراط والميزان، والحمد والمنة لله رب العالمين، فإن حضرة حامي الخلافة أعز الله أنصاره قد وضع دائمًا نصب العين سرعة زوال الدنيا الفانية، فلا حاجة لنا إلى الوعظ والإرشاد في ذلك الموضوع وخصوصًا إذا كان الواعظ والناصح أنتم.

وقد أشير أيضًا أن أهل الروم اشتهروا بالغش والتزوير، إلا أن ممالك الروم كانت معسكرًا للغزاة في الأيام المقرونة بالعدل لحضرة ظل الله؛ وهي معمورة بالشرائع النبوية وقواعد الدين المصطفوية، أما أرباب التزوير فهم أهالي العجم، وقد استمرت فتنتهم وفسادهم منذ ظهور الدولة المحمدية إلى هذا الأوان. وقد قهروا بقهر ذي الجلال الباقي تعالى شأنه. وأن ادعاءهم على سيدنا خير الكائنات وخلاصة الموجودات عليه أفضل التحيات مشهورة ومتواترة في أحوالهم.

وقد ذكرت أحوال الصلح في نهاية الخطاب، وباب السلطان المملوء بالسعادة دائمًا مفتوح ولا يغلق ولا يمنع عنه أي شخص على الإطلاق سواء كان صديقًا أو عدوًا، فلو

أنكم تريدون الصلح مع ذلك الجانب أي معنا فإنه يجب عليكم أن تقيموا في ممالككم؛ ولا تبدءوا بالفتنة والفساد، وفي الواقع إنه إذا أردتم الصلح فينبغي ألا ترسلوا أحدًا من أراذل الناس، بل ينبغي أن يُرسل رجل جسور حتى يستطيع الإجابة، وإلا سنمضي الشتاء في تلك المناطق الحدودية ويكون ذنب الرعايا هناك في رقبتكم، وإن عطف ورحمة السلطان لن تقصر في حق أرباب الحاجات، وإنكم تعلمون أحوالكم جيدًا والسلام على من اتبع الهدى.

وقد أُرسل هذا الخطاب أيضًا مع أحد القزلباش المحبوسين، ولكن بسبب ذكر تلك المقولة: «إنه نظرًا لأنكم لا تجدون القدرة في أنفسكم على مواجهة عسكر الإسلام وتنزوون إلى زاوية الفرار، فقد عقدت النية على تخريب «أردبيل» من ديار العجم والمؤسسة على الضلال والتي هي منبع الفساد الأصلي ورأس نهر الإلحاد وذلك في أول الربيع إن شاء الله تعالى»، بسبب ذكر ذلك خافوا خوفًا عظيمًا من ذلك الكلام، وأرسلوا خطابًا إلى أمير أمراء أرضروم «إياس باشا»، ولهذا كُتب أيضًا خطاب من طرف أمير الأمراء ـ المشار إليه ـ إليهم، وما ذكروه في خطابهم يفهم من هذا الخطاب التالي:

صورة الخطاب المكتوب من طرف «إياس باشا»
أمير أمراء أرضروم إلى سفراء الشاه الضال

قد ورد خطابكم في هذه الأيام، وكان قد أجيب على الخطاب المرسل قبل ذلك، وكانت قد حررت في خلاصة مضمونة بعض الكلمات في صورة وعظ ونصيحة، وذلك لتسكين وإطفاء النيران الناجمة عن سماع أخبار تخريب «تبريز» و«أردبيل»، وبالفعل انطفأت نار الغيرة التي كانت مشتعلة في موقد القلب؛ بسبب ذلك الموضوع العسير والصعب؛ لأنه إذا تفضل سلطان البرين وخاقان البحرين حضرة سلطاننا ظل الله على الأرض وحامي العالم أعز الله تعالى أنصاره وضاعف همته، إذا تفضل باقتحام ديار الشرق في أي وقت بالجند الذين لا حد لهم ولا ساحل كالبحر فإن أثركم يختفي، وأحيانًا تهربون إلى الجبال

والصحارى وأحيانًا أخرى تفرون إلى البوادي وتهربون كالثعالب، ولما يتفضل بالعودة تحفه السعادة والإقبال، تخرجون من المكان الذي تختفون فيه، وتظهرون أنواع البطولة والشجاعة، وقد بدأت تظهر الآن أموركم غير المحمودة وأقوالكم الباطلة، فأين كنتم حتى ذلك الزمان؟ فقد حاصروا مدينتي «تبريز» و«أردبيل»، ولم يكن ممكنًا جعل من بداخلها يفرون إلى الأحياء الخارجية وممراتها، وإن شاء الله تعالى الأعز الأكرم سيتضح لمن تكون القوة والقدرة في هذا الخصوص، وستكون تلك اللحظات قريبة بعناية الحق سبحانه وتعالى وسترونها أيضًا قريبًا، ومن الشجاعة أن تكونوا ثابتي الأقدام وواقفون على كلامكم الذي ترددونه الآن.

وفي الوقت نفسه، فقد ذكر في خطابكم الكلام المنظوم مثل الدر والجواهر والصادر عن أسد الله الغالب، مطلوب كل طالب أمير المؤمنين وإمام المتقين ويعسوب المسلمين حضرة الإمام علي كرم الله تعالى وجهه ورضي الله تعالى عنه بخصوص الموضع المقدس في «أردبيل»، وتلك الكلمات صادقة، ولكن ما علاقة تلك الكلمات بكم، وما دخلها بالموضع المقدس؟ وواضح تمامًا أن انتسابكم للبلاط العالي محض تزوير، وأن الأرواح الطيبة للخلفاء الأربعة قد اضجرت منكم؛ فليس المقربون لحضرة الله يقبلون النقود غير الرائجة والمزورة أي لا يقبلون إلا الطيب من القول.

وقد وضح في خطابكم أيضًا أنكم قمتم بتوسيع دائرة الميدان التي تحت حكمكم، وتوزيع وتقسيم أطراف وجوانب المالك المحروسة السلطانية على قوم ممن لا نسل لهم، كما وضح الترتيب العجيب الخاص بإرسال النواب المقضي المرام من هذا الجانب وبعث الأعيان من جانب آخر، والخانات وخليفة الخلفاء من طرف آخر إلى كل مملكة من ممالكنا، فما أغربه تصور باطل وما أعجبه خيال محال، فإن عروض التخيلات الفاسدة أمثال هذه ينشأ معظمها عن فساد الشعور وعن التخيلات الجنونية، كما أنها تظهر كنتيجة لكيف الأفيون على القلوب المقلبة للذين لا يعرفون معنى العار أو العيب، وتلك هي القضية، فلو أن أي شيء يظهر، ويبدو بتأثير أحد هذين السببين، عندئذ سيكون ذلك غاية مقصودنا ومرامنا ونهاية مطلبنا المنتهي بالظفر، فإلى يد من منكم تقع

تلك الفرصة هذه والغنيمة، حتى يكون من الضروري أن تخرجوا من جبال العجم، وتأووا إلى صحارى الممالك المحروسة حيث لا يبقى لكم مجال للهرب؟ فإن ذلك اليوم سوف يكون عيد نوروز للخدم رفيعي المقام للسلطان المقرون بالظفر عز نصره، فيا ليت يكون الوصول إلى تلك الدرجة من السعادة من نصيبنا.

وقد ذكر أيضًا في خطابكم: «إن حيوانات العساكر المنصورة السلطانية ستضعف، وتتفرق؛ بسبب عدم وجود الزاد والعلف اللازم لها وإن الجند المنصورين سيتحولون إلى جند من المشاة»؛ وليس من العجب أن الطائفة مسلوبة العقول غفلت عن مضمون الآية الكريمة: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[1]، وإن الزاد الذي يكفي عدة شهور سيكون معدًا ومجهزًا على الجمال التي سيصحبها الجند المنصورون فاتحو العالم، فلو امتد زحف الأبطال فائقي الأقران حتى إلى أطراف خراسان[2] وسمرقند[3] فلا يمكن أن يحل الملل بالفرسان الذين فتحوا العالم، فمن قصور العقل وفتور الإدراك، أن يرى الأعداء ضعف وعدم قدرة أراذل العسكر الهمايونية وهلاك الدواب الضعيفة على إنه فتور في الجيش، فإن هذا القول فارغ ويبعث على الجرأة على إبداع الكلمات المزخرفة.

وقد قيل: إننا في انتظار أخبار الصلح أثناء وجودنا في المصيف الذي كان يقع في أطراف قلعة «غوك»، فلماذا هذا الانتظار؟ فإذا أردتم طلب الصلح والصلاح معكم عن طريق خدم بلاط حامي العالم، فذلك الباب مغلق ومسدود، فطلب الصلح هو سبيل عدماء الغيرة والحمية المضطرين إلى ذلك، والحمد لله فقد تفضل حضرة حامي الخلافة بقضاء فصل الشتاء في مكان قريب لحدود الممالك المحروسة مع جميع المتخذين

---

(١) سورة هود: الآية ١١ .

(٢) هي من أكبر إيالات إيران، ويحدها من الشرق أفغانستان ومن الشمال روسيا.
ـ قاموس الأعلام : ٣/ ٢٠٣٠ .

(٣) من أشهر مدن آسيا الوسطى وتقع في بلاد التركستان، وهي جنوب شرق «بخارى» بحوالي ٢٢٢ كيلو مترًا.
ـ قاموس الأعلام : ٥/ ٣٦١٤ .

الظفر دليلًا لهم، وسيحضر إن شاء الله العزيز في أول الربيع سعيد الآثار مئات الآلاف من البنائين الذين يتعاملون مع الجبال وكثير من الأساتذة الذين يزلزلون القواعد مع الجند الذين تكفي قوة الواحد منهم لصرع الأسد على الأرض؛ وسيعلو الغبار في ممالك العجم، بعظمة الأسود التي تتخطى الصعاب، وسيتحول شكل «أردبيل» و«تبريز» إلى وضع آخر بمقتضى القول ﴿ فَجَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلَهَا ﴾[1]، ولكن لو تدبرتم العاقبة في أمر الصلح والصلاح، وتضرعتم، وتوسلتم إلى بلاط حامي الخلافة لدفع الغوغاء، فلن يكون هناك أي مانع أو نفور من قبول الصلح، فإن الرحمة والشفقة السلطانية مبذولة في كل وقت لأرباب الحاجات، والسلام على من اتبع الهدى.

وفي أثناء التوجه من طرف أرضروم، كان بعض القزلباش الذين يقطنون فيما وراء نهر «أرس» يقومون بالهجوم على عسكر الإسلام بالمكر والخديعة كلما تحينوا الفرصة، فيقوم أمير «قرق كليسا» «فرهاد بك» بسحب الأشقياء المذكورين إلى كمين، ثم يشتبك في حرب ضروس معهم ويتجه إلى الجيش الهمايوني ببعض الرءوس الحقيرة للقزلباش، وفي ذلك الحين، عندما تم النزول إلى الموضع المعروف باسم «قوتلوجه»، فقد أوقع أيضًا «طورخان أوغلو عمر بك» الهزيمة ببعض القزلباش، وأحضر رءوسهم وألسنتهم، وقد لاقى الاثنان؛ أي «فرهاد بك» و«طورخان أوغلو عمر بك» كل أنواع الرعاية من جانب حضرة السلطان.

في ذكر إعطاء السلطان إذن العودة لبعض العساكر المأثورة بالظفر وإرسال الوزير الأعظم إلى جانب «كورجستان»

لما تم العبور من كوبري «جوبان»، والنزول بالقرب من قلعة «حسن»، ألبست الخلع لأمير أمراء «ديار بكر» ولأمير أمراء «كورجستان» ولـ «فرهاد باشا» أمير أمراء «وان» ولأمراء سنجقه، حيث سعدوا جميعًا بتقبيل يد السلطان، وبعد ذلك أعطوا

---

(١) سورة الحجر: آية ٧٤.

الإذن بالعودة إلى أوطانهم، وقد زينت الرماح والسهام بالرءوس التي قطعها «سلطان حسين بك» أمير «عماديه» في الموضع المعروف باسم «تخت سليمان» الذي ذكر من قبل، وأحضرت طبولهم ونقاراتهم وأعلامهم المنكسة وتيجانهم المرصعة إلى الجيش الهمايوني، وغُمر الذين أحضروا هذه الأشياء بأنواع العناية السلطانية.

وقد هل العيد المبارك وهم في ذلك المنزل، حيث أديت مراسم العيد بموجب العادات الحسنة السلطانية، وبعد ذلك تحركوا ونزلوا إلى المنزل المعروف باسم «سازلق»، وفي ذلك المكان سمع السلطان فاتح العالم أن الشاه الضال قد استولى على بعض القلاع السلطانية في «كورجستان»، وعلي هذا، نصب الوزير الأعظم المشهور سردارًا على أربعة آلاف من الإنكشارية وعلى عموم جنود الروم إيلي والأناضول و«قرمان» وجميع أفراد «بلوك أغالرى» و«بلوك خلقي»، وأرسل عليه، ولما وصلوا إلى القلعة التي تعرف باسم «أولتى»، أخبروا بأن الشاه قد أتى إلى تلك الأطراف من أجل توفير معيشته؛ بسبب أنه خربت بعض الممالك التي كانت مقر حكمه وأن القحط قد استولى على بعضها، وأنه قال: «إنني أتحين الفرصة في هذه الأثناء لأستولي على بعض قلاع السلطان»، ولكن لما علم أن الوزير الأعظم يأتي بعسكر الإسلام وأن الجند المظفرين دخلوا تلك المملكة أي «كورجستان»، عاد في الحال وولى الأدبار، وبناء على هذا، التحق الوزير الأعظم بالعسكر الذين كانوا تحت إمرته بالجيش الهمايوني.

في ذكر مجيء سفير الشاه الضال راجيًا الصلح

وفي هذه الأثناء، أرسل الشاه الضال أحد رجاله الثقات المعروف باسم «شاه قولى أغا» بخطاب ليرجو الصلح والصلاح، وأتى هذا السفير وتوجه إلى الجيش الهمايوني، ولما عُرض الوضع على الركاب الهمايوني، أحضر السفير إلى الديوان الهمايوني وفقًا للعادات الحسنة السلطانية والقاعدة المستحسنة الملكية، وتشرف بتقبيل قدم العرش الذي مصيره السعادة وسلم رسالة الشاه، وأُعطى الإذن الهمايوني بتدبير أمور الصلح وبتنظيم وضع الحدود بين الطرفين؛ وأذن للسفير بالعودة بموجب الأمر العالي، وأرسل إلى جانب الشاه بالرسالة عالية الشأن.

فتح وإخضاع مملكة «شهر زول» وقلعة «ظالم» والأراضي التابعة لها

وفي أثناء توجه حضرة السلطان مدار السعادة قبل ذلك إلى الحملة الهمايونية المقرونة بالظفر، لما شاع فتح وإخضاع القلعة المحكمة المعروفة باسم قلعة «ظالم» وهي من أعمال دار الخلافة بغداد ـ والتي كانت أطرافها وجوانبها عبارة عن منطقة جبلية، وكان الوصول إليها ودُخُولها أمرًا غير ممكن، وأن داخلها وخارجها يستقر به الأكراد الذين كانوا أمثال الجبال في القوة، وكانت تقع في وسط مملكة «لوزر» ـ لما شاع أن هذا الفتح مقدمة لفتح مملكة «شهر زول»، كلف «عثمان باشا» و«بالطه جي محمد باشا» أمير أمراء «بغداد» بهذا الأمر، وكانا قد جمعا العسكر من بغداد و«لورستان» وبعض المناطق الجبلية الأخرى؛ حيث ضربا الحصار على قلعة «ظالم» لمدة مديدة، حتى إن «عثمان باشا» توفي في أيام الحصار، وفي النهاية انكسرت بعناية رب العباد جل شأنه جسارة الأكراد الذين كانوا محاصرين، وفي إحدى الليالي يدبر الأمير المعروف باسم «سهراب» ، والذي كان قائدهم، لإنقاذ رأسه فيترك القلعة ويهرب، ومن ثم يقوم «محمد باشا» المشار إليه بتعيين حماة للقلعة بالقدر الكافي لها، ويعين أيضًا حارسًا عليها.

وفتحت أيضًا في الوقت نفسه القلاع المعروفة باسم قلعة «هاوار» وقلعة «نقود» وقلعة «باسكه» وقلعة «شميران» وقلعة «فرنجة» وهي من الحصون التي كانت تابعة لقلعة «ظالم»، وخلاف الفتوحات المذكورة، يعلن «أغورلو بك» و«أمير يساق بك» وهما من أمراء القزلباش مع ألفين من أصحاب المنازل، يعلنا التبعية للسلطان، وقام أيضًا «أمير محمد سيف الدين بك» أمير «بانه» و«يوسف بك» أمير «ستاره» و«بداق بك» أمير «بروجه» و«جهانشاه بك» أمير «أورخان» قاموا بتسليم مفاتيح قلاعهم، وأعلنوا الطاعة والتبعية لبلاط سلطان الإسلام. ولما كُتب وأُعلن في جميع أنحاء مملكة «شهر زول» وناحية «بلقاص» أنهما قد أصبحا من عداد الأراضي المحمية السلطانية، وأنهما يريدان تنصيب حاكم عليهما من جانب السلطان، شملت عساكر الإسلام سعادة جديدة وسرور بلا نهاية؛ وعين «مراد بك» من الأمراء وأُرسل إليهما.

إعطاء الترقي لأرباب التيمار وتبديل بعض الكبار من رجال الدولة في الوظائف

تم ذلك في سنة ٩٦١ هجرية، وبعد ذلك بدأ يظهر عطف السلطان عالي الجاه؛ حيث استحوذ على قلوب العساكر المأثورة بالظفر وذلك بالإحسان على أرباب الزعامة وأرباب التيمار، كما أحسن بمنصب الوزارة على «محمد باشا الطويل» أمير أمراء الروم إيلي، وأحسن بمكانه؛ أي إمارة أمراء الروم إيلي على «برتو باشا» أغا الإنكشارية، وأغاوية الإنكشارية على «إسكندر أغا» من الذين كانوا يشغلون رتبة «قبوجي باشي» أي من رؤساء خدم الباب.

وفي اليوم الثالث من شهر ذي الحجة، دخل إلى السراي الواقع في «أماسيه»، ولم يخلُ من تطييب خاطره العاطر حتى أوان الربيع، وذلك بالصيد والقنص وأحيانًا بالتجوال في الصحراء والمزارع المخضرة.

مجيء سفير شاه العجم راجيًا إصلاح نظام العالم

في ٩ من جمادى الآخرة سنة ٩٦٢ هجرية[1]، لقد أوحت إقامة حضرة السلطان صاحب جحافل العسكر الذين هم كالنجوم في السماء، في حدود الممالك المحروسة بحجة قضاء الشتاء، أوحت بأنه سيتوجه إلى حملة العجم مرة أخرى في أول الربيع ذي الآثار الحسنة، ولهذا فكر الشاه، رغمًا عن إرادته، في علاج المرض المهلك الذي أصاب مزاجه بالكدر إثر سماعه أخبار تخريب «أردبيل» وذلك بالصلح والصلاح، فأرسل سفيره بأنواع الهدايا والتحف لهذا المقصد، ولما أخبر والي إيالة «أرضروم» بأن سفير الشاه قد وصل إلى أرضروم المحمية، صدر الأمر الشريف من أجل إرساله إلى البلاط العالي بكمال الرعاية والإكرام وغاية الإعزاز والاحترام، وبموجب الفرمان الشريف، ما إن وصل السفير إلى «أماسيا» حتى أحضروه إلى الديوان الهمايوني وفقًا للعادة والعرف

(١) الموافق ١ من مايو ١٥٥٥م.

السلطاني، وبعد أن استضيف السفير، قدم الهدايا والتحف عالية القيمة التي أحضرها إلى السلطان، وتشرف بتقبيل قدم العرش الذي بيده مصير العالم، وقام بتعظيم خطاب الشاه الذي أحضره بإظهار الإخلاص والود له، ثم قدمه إلى السلطان.

ومع أن تحرير صورة الخطاب في هذا الكتاب غير مناسبة وتبعث على الإطناب في الحديث وعلى التفصيل، لكن بسبب أنها قد تظهر أحوال الصلح في ذلك العصر مع الشاه الضال، فقد وجد أن وضعها ضروري وهذا هو الخطاب:

خطاب الشاه «طهماسب» شاه العجم

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(1) صدق الله العظيم.

وله الحمد قبل كل كلام
بصفات الجلال والإكرام
فحمده تاج كل كلام
وصدر كل خطاب جديد أو قديم
فالقلم الذي يزين الخطاب كالتاج
لو أطلق على الحمد درة التاج فهو مناسب

فالحمد المصفى من شائبة الانقطاع والانتهاء لائق بالسلطان مدار الفلك الذي رحمته ظل ظليل، وظل عطفه وإحسانه عالي المرتبة، ومنتشر عدل القوانين على عرشه مدار الفلك وعدل الخواقين [الملوك]؛ ولتصديق ذلك قال النبي في حديثه «السلطان العادل ظل الله في الأرض»، ولما كان مقصده إصلاح الحال وإنجاح الآمال، فإن جميع الخلائق يمتثلون لأمره، كما قال: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾، وتفضل بالأمر اللازم الاتباع: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾.

---

(1) سورة الجاثية: ٣٧.

إنـمـــا اللــه إلـــه واحـــد	بصـــفات الجـــلال والإكـــرام
مانــح شــكــر الفــم بالفـــم	وصـــانع شكــر العطاء باللسان
وسواء كان الشكر لطفًا من فضله	أو باعـــث حمـــده وثنـــائه
فهو في نظر العارفين هدية من الدر	ولابدأن يقترن الشكر والحمد في الذكر
فإن الفترة التي بقيتها الروح في البدن	حتى لو بقيت قدر شعرة الرأس
فمن أجل أن يفصح لسانه بوضوح	ينبغي على كل شعرة أن تشكر مائة مرة
فـــإن حـــمــد أبـــد الدهـــر	فـــلا يـــكـــون كـــافـــيـــا
ولا يمكـــن أن يكفـــي أيضًـــا	شكـــر الشـــعرة علـــى كـــرم الله

«سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» والصلوات الوفيرة بإدراك عقول أولي النهى لائقة ببلاط حضرة حامي الرسالة الذي راية كرامته الآية: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وقد قال في ميدان أحاديثه التي جمعت مجامع الكلم: «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين»، وقد رفعه الله وأعلى عزته وقدره «لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك»، وأبلغ الله أوامره إلى سيد الأنبياء وسند الأصفياء المرشح والمزين الشكل بطريق الوحي ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾، وأسرى بعبده كالطائر المحلق في السماء ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ﴾. والرسـول الـذي أرسـل إلى كـافـة الأمـم من عرب وعجم ﴿طوبى للصالحين أولئك هم المقربون﴾؛ يعني يوم القيامة بشارة من كمال الحلم وسيرته الكريمة ﴿إنك لعلى خلق عظيم﴾، تهدون كل شخص إلى طريق الصلاح والسداد وإلى أعلى عليين من إصلاح ذات البين التي هي شعبة من شعب النبوة.

سلطان العرش الذي مع الله	أسس خيمة وأوتاقًا في التسع سموات
وعرشه وتاجه من لولاك ولعمرك	وجعل فلك الأفلاك تاجًا على رأسه
فما أجله، صار ملك الشفاعة في فص خاتمه	ولو خطب بكلمة [رحمة] فهي للعالمين
وجـــعـــله اللـــه ســـيـــد أنبيـــائه	ومـــنـــحـــه خـــاتـــم النبـــوة

والسلام على آله وأولاده الذين مآلهم الهداية وبصفة خاصة المغمور برحمة الرحمن

والمحفوف بالفيض والكرامة الإلهية والمخصوص بالآية الكريمة التي نزلت من أجله بسورة ﴿هَلۡ أَتَىٰ ...﴾ والمشهور بكشف حجب الأسرار وصاحب لواء: «أنا مدينة العلم وعلي بابها».

«علي» الذي هو سيد سلطان المجد
الذي وضع قدمه على كتف رسول الله
ولأنه أركب نبي الله على كتفه
فقد أطاح بقدمه أصنام الكعبة
فلا يستطيع أي شخص الوصول لتلك المرتبة
فعلو الرفعة بعون الله تعالى مثل هذا

وباقي الأئمة الأطهار والأعزة الأخيار الذين هم نجوم برج الإمارة والهداية والكواكب السيارة لسماء الكرامة والاقتداء.

فهم الآمنون والمقتدون بالشرع والدين
وهم الإمام الهادي لطريق اليقين
منازلهم في أوج العرش
والأرض والسماء في ظلهم
والأفلاك بحر يغشاه الموج من أوله إلى آخره
وحباب هذا البحر من بحر رفعتهم
وشرفت الأرض بتراب أقدامهم
فلماذا يزداد الشرف كمنابع الرغبة

وبعد هذا فيا أيها السلطان «سليمان» الذي منبع سعادته مكشوف، ومشهور الضمائر، وشمس العروش أعني أعلى فلكي الرفعة وعظمته مبسوطة كالشمس، والذي في عظمة «جمشيد» وفي رتبة «سليمان» وفي موقع ومقام «إسكندر»!

إنك سلطان عرش السعادة

و«فريدون» هذا الزمان و«جمشيد» الثاني

وإنك فاتح العالم والخديوى كالجبال في الرزانة

وإنك فلك العدالة الذي يطبق نظم الشاه جم

حامي الملك وسلطان كل شخص

فأنت السلطان العادل وسليمان زماننا

إنك سلطان العالم وسلطان أعظم السلاطين والقياصرة الكبار وبرهان أفاخم الخواقين والأكاسرة بعلو الرتبة والمقدار وناصب لأعلام الملك والدين وحامي ثغور الإسلام والمسلمين.

إنك سلطان على هذا النحو فقليلة رتبة وجه السماء

من أجلك وتستظل الأرض تحت لوائك

وتحمي كل قصر وقيصر

وتطبق نظم «دارا» و«إسكندر»

الفلك تابع لك والسماء تقتفي إثرك

فلديك خاتم «جم» وحظ «كيخسرو»

إنك فاتح العالم وضوؤك من الشمس

وتدبيرك الصادق من الفلك المرشد

وإنك بحر والعالم فيه حبابة ماء

وشمس رفعتك ألمع من الشمس

فالزمان والمكان يقبلون بلاطك

والإله مرشدك والحظ رفيقك

إنك باني مباني اللطف على أعلى مراتب الكمال، وسالب رءوس الكفرة الفجرة بميامن الغزو والإقبال، رافع رايات العدل والإحسان، ماحي آيات الجور والعدوان،

حامي حوزة الدين عن مكايد الكفار والمنافقين، دافع آثار الأشرار عن وجه الأرضين، حارس ناموس الشريعة البيضاء، كاسر ناقوس الكفرة الفاسدين الأشقياء، باسط بساط الأمن والأمان، ناشر صحائف اللطف والامتنان.

العالم مطمئن في ظله
وتنعم جميع الممالك بالراحة في ظله
وينام كل شخص في أمان بقوة سيفه
ولن تنهض تلك الفتنة حتى يوم القيامة
وسواء دنا قوس رستم من الحيلة أو بعد
سرت أقواس ضاربي السهام عند عودته
فالأرض لو صارت طريقًا أو ترابًا
ولو رفع رأسه إلى الأفلاك فهو مناسب
والفجر نجم في ظله
والليل حارس لبلاطه
وبعودته صار الفهد والكبش رفقاء
وأمضوا وقتًا سعيدًا مثل العاشق والمعشوق
فالأسد الذي يصطاد الغزال في الغابة
عودته تجعله يصير عاشقًا
فلو أن الظبي الذي نطلق عليه غزالًا
غاصت بقدمه شوكة فتم وجه الإعزاز
حرق الأهداب للأسد المفترس
وسبحه إخراج الشوكة من قدم لطفه
وفي ظل عدل ذلك السلطان
تم تعمير العالم الخرب
فإذا عمرت قلوب المشتاقين الخربة
فماذا سيبعث على الحيرة

سلطان العالم مدار وقار السلاطين وعالي الجاه مثل «جم» والذي في قدرة «سليمان» وعظمة «دارا» والذي عسكره كثيرون مثل النجوم ومدار الفلك ومورد التأثيرات الإلهية وموضع أنوار الفيض اللامتناهي.

فياأيهاالسلطان الذي رفعته مثل الشمس ... فرمانك مطبق على الكواكب
إنك «إسكندر» حاكم الممالك ... و«سليمان» الزمان و«دارا» الثاني
فبدون رأيك لم ير الفلك ... مكـــانًا قـــط أو وقـــتًــا قـــط
فمن قواعد «جم» وأثار «إسكندر» ... تلـك الصـورة التي تضيء العالم

خاقان البحرين، الخادم بموفور الإخلاص في الحرمين الشريفين، مؤيد أركان السلطنة الكبرى، ممهد بنيان الخلافة العظمى.

أيها السلطان الشبيه بالجواهر ومالك البحار
الذي صار الفلك صدفًا في جوهره
ورفرف علم «جشيد» برغبتك
وظلل الشمس بمظلته
ويضيق ميدان الكلام لمدحك
فطريق سمائك كالأغنية

المؤيد بالتأييدات الجليلة من عند الله الملك العزيز المنان والموفق بتوفيق الله الكريم، المستعان «سليمان» عرش السلطنة والشوكة والإقبال ومعز العظمة والأبهة والنصفة والعز والإجلال «سلطان سليمان خان»، ما زالت ميامن سلطنته الزاهرة مقرونة بالدوام ومآثر عظمته وجلالته ممدودة لتقوية دين الإسلام، وأقول في مقدمة هذا الخطاب ـ في مدح الخطاب الذي أرسلتموه الذي يشبه الكواكب والثواقب في العز والعلا والشواهب جليلة المراتب في الرفعة؛ يعني كتابًا واجب التعظيم وخطابًا مستطابًا لازم التكريم ـ أقول الآية الكريمة التي تصدق ذلك ﴿إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، حينما طلعت ولمعت مشارق سرادق عظمة سليمان وشمس عظمته

وسعادته مسعودة السواطع، حضر إلى جوارنا «شاه قولى بك قورجى» من عشيرة «قاجار» في أعز الأوقات وأشرف الساعات. وفاز بإشارة البشارة الغيبية التي كانت قد فاضت من مورد فيض اليقين، وحينما كان يلمع ويلوح من مضمون خيرها المشحون نور صلاح وفلاح الأماكن وآثار فوز ونجاح عامة العجزة والمسلمين، ظهر مضمون ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالنسبة إلى كافة البرايا، لهذا قابل وعده الكريم بشرائط الإعزاز والإكرام ولوازم التعظيم والاحترام، قابل تلك الأصناف بتسليمات مسكية النفحات التي توصل رائحة طيبها وفقًا لـ ﴿سلام عليكم طبتم﴾ نسائم رياض الرضوان إلى مشام روح أهل الدنيا، وعمر وعطر ألوف الدعوات الوردية النسائم وفوائح روائح أزهارها على حسب ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها﴾ميدان الآفاق مثل ساحة حدائق الجنات، فجعل تحفة المجلس عاليًا والمحفل مرتفعًا حقًا وبعزة الله تعالى، قد لاحظنا من بداية الحال حتى النهاية، دائمًا لإشاعة أنوار العدل والإحسان وإفاضة آثار الرأفة والامتنان بالنسبة إلى عامة أهل الدنيا، مضمون الحقائق مقرون بـ ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾، وقد وفقت مجموعة همة الخير على انتظام أسباب صلح وصلاح الجانبين واستحكام قواعد المحبة والصفوة التي بلا شك تتضمن صلاح حال العباد وتستلزم عمارة الولايات والبلاد كاشفة ود هذا العلو - الذي بمقتضى أرباب الدولة الملهمين - من الطرفين بإمضاء نبيه المعظم الذي في الواقع يوجب سعادة الدين والدنيا ويحض على رضا وسعادة حضرة الحق جل وعلا وحضرة حارس الرسالة محمد صلوات الله عليه وآله وحضرة الأئمة المعصومين عليهم السلام، وقد قال ذلك السلطان العالي الشأن مظهرًا اللطف والإحسان أيضًا خلال كتاب مشهور وصحيفة محترمة للاهتمام والإقبال لتمام هذا المسلك الذي دون تكلف هو من علو مآثر الإلهامات الربانية والتوفيقات السبحانية، وغاية الآمال أن تكون هناك ثقة ورسوخ وثبات تلك القاعدة، وأرسلنا «نصاب كمال الدين فرخ زاده بك الحاجب» الذي هو من المعتمدين والمقربين لهذا البلاط رسولًا إلى البلاط العالي لتبليغ الرسالة وتشييد مباني الاتفاق وتأكيد قواعد المحبة والصداقة.

ورجعت إلى تقريره لتفاصيل الأحوال التي عرضت، حينما تهب من مهب اللطف الإلهي ومكمن الفضل والنعم غير المتناهي بنسائم قبول الإقبال على رياض نية خير الآمال وزبدة استدعائها والتماسها؛ حيث يأمر بناء على هذا الأمر المهم بنوع مؤكد ومستحكم، بأنه بعد اليوم يهدأ عموم أهل الإسلام من جند ورعايا في مهاد الأمن والأمان ويطيب الحال ويروق ويفرغ البال، ويشتغلون من ناحية اطمئنان الخواطر، بالدعاء الدائم للدولة بالاتصال الأبدي، وبواسطة انتشار آثار اللطف وحدوث الترحم بمضمون «ولو كانت الدعوة مستجابة لصرفتها إلى السلطان العادل» يصل من لسان كل واحد من ضعفاء وكبار عبيد الله عزَّ وجلَّ إلى مسامع العز والجلال؛ ولأنه على حسب رسوم وعادات بنيان المسابقات والتصافي المؤكد المستحكم تكون مع إبلاغ الرسل والرسائل، فالمأمول والمتوقع لذلك أن يفتحوا دائماً أبواب المكاتبات والمراسلات ليظهر مع حقيقة صلاح الجانبين وإصلاح ذات البين على جميع العجزة والمسلمين، ويمكن أن يظهر من قمة فراغ الخاطر والأمية بمراسم الزهد واكتساب المصالح والمعاش والمعاد والقيام والإقدام، ومن ناحية الحقيقة وفراغ البال يفوزوا بسعادة الطواف وزيارة بيت الله الحرام والمدينة المشرفة والمكرمة وسائر المشاهد المقدسة، ويمكن أن يشغلوا في تلك الأماكن المباركة التي هي أماكن إجابة الدعاء بالدعاء الدائم للدولة المقرونة بالأبدية، ولا بد أن تصمد آثار ومال ذلك المقرن بالحظ السعيد والمعاون بالإقبال ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ليس العرش دائماً مثل عرش سليمان، وعرش سلطنة الملك مقر العزة والجاه ومستقر الحشمة ومسند السلطان في جاه جمشيد ومكان سليمان وإثر الخاقان «إسكندر».

ـ نظـم:

إلهي طالما بقى إثر الحظ والتاج

فسوف يروج العالم من التاج والحظ

ليكن عرش ملكه أسفل قدمه

إلهي ليظل التاج على مفرق رأسه

الخطاب السلطاني إلى شاه إيران

الشاه طهماسب صاحب الجناب العالي والمكانة التي تبلغ السماء، والشهرة التي تملأ الدنيا كالشمس وصاحب السعادة ككوكب المشترى والسمو ككوكب «زحل» والمكانة الرفيعة ككوكب «الثريا» والشبيه بالملك «دارا» في المعرفة وصاحب خصال «جمشيد» وحظ «جم» وعرش «كسرى»، وحامي العالم وحامي قبة سماء الإحسان والكرم، كريم النسب، صاحب المناقب، سباق الغايات عالي المرتبة ككوكب «الزهرة»، رافع رايات العزة الباهرة وافر الفضائل كامل الخصال، موضع إشراق الكوكب، والذي مناقبه الشريفة هي قبلة لقافلة طلاب المعرفة، أصل سلالة سلاطين كسرى، صفوة الملوك في البذل الذي بلا حدود، مؤسس بنيان السعادة والإقبال، مشيد أركان العظمة والإجلال، شمس سماء الإيالة والسعادة، درة برج الرفعة والسرور، المحفوف بصنوف لطائف الملك الإله، معز السلطنة السنية، ظهير الدولة البهية، ما زال مقرونًا بهداية الله، إن لطائف التسليات الوافيات مسكية النسمات، وأشرف التحيات الصافيات عنبرية النفحات التي تفيض وتتجلى فقط لعاطفتك الشاهانية المتخذة البهجة لها شعارًا ولعين رأفتك السلطانية عظيمة السعادة، تصل وتُرسل إلينا مع قافلة نسيم الشمال.

ليكن معلومًا لضميرك المنير الذي يضيء الشمس، ولخاطرك العاطر الذي يؤثر في كوكب المشترى أنه في الوقت الذي كانت فيه دار الفتوح والنصر «أرضروم» المحروسة تسعد قبل ذلك بظلال النصر، وصل خطاب الكرام من طرفكم إلى جانب عتبة بلاطنا بواسطة «قورجى قجار»، وقد طلبتم في هذا الخطاب أن تكون في المستقبل الصداقة والمحبة مع جنابنا حامي العظمة، وأن يسير الصلح والصلاح - الذي يضمن الراحة للناس ويوجب انتظام أحوال الجمهور - يسير في ذلك الطريق وقد تم قبول رجائكم، وفي الوقت نفسه، أرسل إليكم سفيركم المشار إليه بكتاب مستطاب، وكان قد أرسل فرماننا الواجب الطاعة إلى الحكام الذين كانوا موجودين عند حدود ممالكنا المحروسة، وتم التنبيه والتأكيد عليهم بالقول: «ينبغي عدم التدخل أو التعرض للخارج أي للسفير».

والآن فقد سلك الطريق نفسه الذي كان التوفيق له رفيق، حيث تم تحرير الكتاب المستطاب، والخطاب الذي كان المسك له نقاب إلى جانب بلاطنا موطن السعادة، وأرسل إلى بلاطنا مخلد الإقبال شرف الأماجد والأكارم، مستجمع جميع المحامد والمكارم، المختص بمزيد عواطف هادي السداد «إيشك أغاسي فرخ زاده بك» زيد قدره، الذي كان واحدًا من الذين يريدون عقد الصلح؛ حيث أرسل كسفير على أمل تأكيد مراسم التحية والوداد وتشييد مباني المودة والاتحاد، وقد وصل السفير إلى بلاطنا مدار العزة في أيمن الأوقات وأحسن الساعات وسعد بشرف تقبيل قدم عرشنا الذي هو مصير الخلافة، ثم عرض وبين لمجلسنا عظيم الجود الأمور التي أوصي بها من طرفكم، وقد تمت الإحاطة علمًا بما كان مسطورًا في خطابكم، وأصبح علمنا الشريف الذي يزين العالم يحيط بما قيل في خصوص تشييد مباني الموالاة، وتمهيد قواعد السلام.

وهذا المعنى واضح ومعلوم للعالم والعالمين كالشمس التي تضيء العالم، وهو أن حضرة الحق سبحانه وتعالى مالك الملك قد عهد بالممالك الواسعة الأطراف في العالم بالطول والعرض إلى زمام تصرفنا بمقتضى الآية ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]، وسلمت أحوال البلاد والعباد إلى رأينا الذي يزين العالم، والحمد لله على نعمه العميمة فقد أصبحت نيتنا الهمايونية المقرونة بالخير مصروفة لترفيه أحوال المسلمين بالاعتماد على المعجزات الدالة على الهداية لخير الكائنات وخلاصة الموجودات صلوات الله عليه وسلامه، وبالاعتماد على الفيض المبارك ذات الآثار العميمة للأرواح المقدسة لآله الكرام ولأصحابه الأخيار، وللخلفاء الأربعة المقرونين بالسعادة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ودائمًا ميامننا العلية التي تتسم بالعدل، موجهة لإصلاح حال الأنام.

وما دام يشار إلى الصلح والصلاح مع جانب بلاطنا مدار العالم في سبيل تقوية الصداقة وإقرارها، والمحبة الخالصة فيما بيننا، فإنه قد فهم وافر إخلاصكم لنا في مضمون خطابكم الذي ينثر الدر، وقطعًا فإن حسن التوافق والاتحاد بين المتحابين يعد من مستلزمات القواعد الخسروانية المتسمة بالإنصاف. وليكن معلومًا لضميركم

(١) سورة ص: آية ٣٨.

المنير الذي يضيء الشمس أن أقصى مرادنا وعمدة آمالنا هو حماية شرف أصحاب النبي الأخيار والخلفاء الأبرار الذين كانوا الصحابة المقربين لسيد المرسلين، ونحن قد أفهمنا هذا المعنى لسفيركم الذي أتى، كما أخبرنا السفير بأنه يُرجي من خاطركم الطيب القيام بمنع ومحو الذين يقومون بتكفير الصحابة والخلفاء من طائفة «تبراي» في مملكتكم، وفي الواقع فإن هذا الأمر هو غاية الأماني ومنتهى الآمال.

وقد وردت في خطابكم بعض الكلمات المتعلقة برفعة شأن حضرة سلطان الولاية وبرهان الكرامة الإمام «علي» كرم الله وجهه ورضي الله عنه، ومما لا شك فيه أن علو شأنه الذي علامته السعادة، أعظم من مرتبة البيان وخارج وزائد عن دائرة الإحصاء، ولكن علو جاهه المقرون بالسعادة لا يوجب البغض والعداوة لسائر الصحابة الأخيار، فقد تفضل خير الكائنات وخلاصة الموجودات بالحديث قائلًا: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»، فليس هناك من شك في أن وفور المحبة لكل هؤلاء الأخيار لازم لسعادة الدنيا والآخرة.

وعمومًا، فقد تم قبول طلبكم الخاص بعقد أواصر الصداقة مع بلاطنا واهب العظمة، وقد قام سفيركم المشار إليه أيضًا بتنفيذ شروط ولوازم تبليغ الرسالة كما ينبغي، وأرسل ثانية إلى جانبكم الذي كان على صواب بإذننا الهمايوني الحسن، وإن شاء الله تعالى الأعز الأكرم ستؤكد الروابط والاتحاد، وسترعى وتشيد شروط الود بيننا فيما بعد، وإذا كان من الضروري ألا تظهر أبدًا من جانبك أي أوضاع لإشعال الفتنة المنافية لخالص الحب والصداقة، فإنه ينبغي أن توصد أبواب التعدي على ضباط المملكة والملة وحراس الأقاليم والبلاد الذين يقيمون على حدودنا وممالكنا المحمية، ويجب على هؤلاء ألا يضيعوا دقيقة واحدة في رعاية أسباب الصداقة، والأمور التي أشير إليها في خطابكم المستطاب بمقتضى الصلح والصلاح، وبرغبة الفوز والفرح والتي تتضمن تهيئة الأوضاع لحجاج البيت الحرام وزوار مرقد حضرة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام، تهيئكم لتلك الرحلة السعيدة براحة واطمئنان، وأن هذه الأمور تجد شرف الموافقة بالإذن السلطاني عالي المكانة في ذلك الخصوص، فعلى المحافظين على

الثغور والطرق ألا يمنعوا عموم المسلمين وجماعة الموحدين الذين يقصدون طواف وزيارة أطراف الأماكن المشرفة والقبلة المطهرة، وعلى هؤلاء الحجاج أن يتموا مرامهم بصفاء خاطر واطمئنان بال، والسلام.

عودة السلطان إلى جانب دار السلطنة المحروسة

في سنة ٩٦٢ هجرية[١]، لما أنهى السفير مهمته، انتهت أيضًا بسبب هذا أمور الحملة، وعلى إثر هذا أذن لأمراء «الروم إيلي» وفرسانهم وأصحاب مقاطعات الزعامة منهم، ولكافة العسكر المنصورة الذين كانوا في المشتى بالعودة إلى أوطانهم الأصلية، فتحركوا، وذهبوا أفواجًا، كل فوج من الطريق والسبيل الذي يراه مناسبًا له، وفي غرة شعبان المعظم من السنة المذكورة[٢] عقد حضرة حامي الخلافة عنان العزيمة مع وزرائه رفيعي الشأن وعامة أركان الديوان، فلما وصلوا في اليوم الثاني عشر من رمضان المبارك[٣] إلى السراي العامرة المشيدة في «إسكدار» قاطعين المنازل وطاوين المراحل، غمرت العالم حياة جديدة وسُرُّوا سرورًا عظيمًا.

أحوال العاصي الذي ظهر في الروم إيلي قائلًا: «إنني الأمير السلطان مصطفى» وقتله

في سنة ٩٦٢ هجرية، لما كان ظل حضرة السلطان مدار السعادة قد بقي بعيدًا عن دار السلطنة قرابة عامين؛ بسبب خروجه لحملة «نخجوان»، ظهر أحد الأشخاص مجهول النسب وسيئ الأصل والحسب، في نواحي «يكي شهر»[٤] و«سلانيك»[٥]، حيث أدخل بعض السفهاء والأراذل شغف السلطنة إلى دماغه المملوءة بالفساد بالقول

(١) الموافق سنة ١٥٥٥م.
(٢) الموافق ٢١ من يونيه ١٥٥٥م.
(٣) الموافق ٢٣ من يوليو ١٥٥٥ م.
(٤) هي مركز قضاء في ولاية «بورصة» الواقعة جنوب إستانبول.
(٥) هي مركز ولاية، وهي تقع الآن في اليونان.

له: «إن شكلك عجيب وأنك تشبه المرحوم السلطان مصطفى»، فيروج لأمره المملوء بالفساد في صورة رجاء يصدر عنه لمن يقولون هكذا، إذ يتوسل قائلًا: «يا إلهي! لا تفشوا سري، ولا تقصدوا رأس الفقير الذي نجا من قبضة الجلاد، من أجل رضا الله تعالى»، وشاع تدريجيًا ذلك الأمر إلى درجة أن الأراذل وبعض الأشخاص قد أقروا بأن ذلك هو السلطان «مصطفى»؛ أي أنه كان يوجد تحت يد الجلاد في مكان قتل المرحوم «سلطان مصطفى» مجرمًا آخر يشبه «سلطان مصطفى»، فرأى أنه من الضروري قتله وترك «سلطان مصطفى» حرًا طليقًا، ولما قام ببيان ذلك إلى أتباعه الذين يعتمد عليهم استطاع أن يجعلهم يصدقون بأنه هو الأمير «مصطفى».

وهكذا جمع هذا الرجل إلى جواره قرابة عشرة آلاف رجل من عسكر «اللوند» الذين كانوا في «سلانيك» و«يكي شهر» ونواحيها، حيث وجه منصب الوزير الأعظم إلى الشخص المعروف باسم «أويل طوغجه» من طائفة المهاجين، وأعطى منصب قاضي عسكر إلى طالبين خاسرين، وبعد ذلك يقيم خيمته وبلاطه بين متصوفة طائفة «سماوني» في «دوبريجه»، ويوزع النقود على بعض الأغنياء، وبصفة خاصة على أصحاب الالتزام والأمناء ومحصلي الجزية، وسائر جامعي الضرائب، وبدأ في تنظيم أصحاب الود والمفتونين به وأفراد الموسيقى العسكرية، وحاملي الأعلام وسائر مستلزمات الحرب والخيول ومعيته أيضًا.

ولما عُرضت هذه الأحوال على الأمير المحمود الخصال أي الأمير السلطان «سليم» الموجود في «أدرنه»، قام بتعيين واحد من أغوات خدم الركوب المعروف ببطولته، قائدًا على خدم بابه وجميع الفرسان والأبطال الأقوياء والشجعان الذين يشبهون نهر «طونه» في القدرة، والموجودين في «أدرنه» المحروسة ونواحيها، وفي ذلك الحين أرسل الشهزاده «سلطان سليم» الأمر الشريف إلى «محمد خان» من عائلة «ذو القدرية»، الذي كان قد كلف بأن يكون واليًا على سنجق «نيكبولى»، بألا يتوانى عن دفع الأشقياء في تلك الناحية، حتى يمكنه الشروع في دفع تلك الفتنة بصحبته.

وفي هذه الأثناء كان قد تفضل السلطان صاحب السعادة بالعودة من مشتى «أماسيه»، وفي أثناء الطريق وردت الخطابات المتعددة إلى السدة الشبيهة بسدرة المنتهى من قضاة المحكمة وولاة ذلك الجانب أي الروم إيلي، ومن جانب الشهزاده صاحب السعادة الموجود في أدرنه، وعلى هذا عُهد في الحال بثلاثة آلاف من جند الإنكشارية وأربعة من أغوات البلوك إلى الوزير الثالث «محمد باشا»، حيث أُرسلوا على وجه السرعة إلى هناك فقام المشار إليه «محمد باشا» بالعبور من البحر، حيث شن هجومًا خاطفًا ونصب خيمته في صحراء «أدرنه» وأقام بها، وكان «محمد خان» المشار إليه أمير «نيكبولي» يتحين الفرصة مع أغا الشهزاده لبذل الوعود واستمالة «أويل طوغجه» الذي كان يمثل وزير الشقي المذكور؛ ومن ثم قبض عليه أغا الشهزاده وأرسله إلى «محمد خان»، وبعد ذلك قام «محمد خان» أيضًا بإرساله إلى جانب الشهزاده؛ أي الأمير السلطان «سليم» مع الأغا المومأ إليه، ثم أرسل الأشقياء المقبوض عليهم إلى الآستانة السعيدة، وأُحضروا إلى الديوان الهمايوني وأُعدموا بعد التعذيب الشديد، أما «أويل طوغجه» المذكور فقد أحسن إليه بمقاطعة زعامت قيمة، وتم القبض على سائر رجاله ومعاونيه واحدًا واحدًا ونالوا جزاءهم.

قتل الوزير الأعظم «أحمد باشا»

في ١٣ من ذي القعدة سنة ٩٦٢ هجرية[١]، كان المرحوم قد عُين قائدًا عدة مرات، ووُفق في الفتوحات العديدة حينما كان يشغل وظيفة وزير ثانٍ، وكان يفضل خدمة سلطان الإسلام صاحب السعادة وجميع الرعايا، وكان في قرارة نفسه مائلًا للإنصاف والعدالة، وقول كلمة الحق، وبصفة خاصة لم يعد هناك أي شخص قط في مقدوره أن يعيق رعاياه الذين كانوا أرباب حقوق، وحكمة الله، إنه في أثناء واقعة المرحوم السلطان مصطفى والتي اعتلى فيها مقام الوزارة العظمى، ذرع بذرة الشقاق بين الجميع، وبينما

(١) الموافق ٢٩ من مايو ١٥٥٥م.

كان الجنود المجموعون في تلك الحملة أي حملة «نخجوان» التي آثارها النصر لم يجمعوا في أي حملة من قبل قط، فإنه قصر كثيرًا في تنفيذ الخدمات التي كان ينتظرها منه السلطان صاحب السعادة، فلو كان هذا القدر من العسكر قد استخدم بحسن تدبير، ولو وافق ذلك تقدير إرادة الباري، لكان من المقرر ألا تصبح «روان» و«نخجوان» فقط متساويين بالأرض بل «أصفهان» وربما أيضًا الكثير من البلدان المعمورة.

ولما قُتل في ذلك المكان، لم يكن يُفهم السبب الحقيقي لقتله، ولكن بعض تصرفاته التي ارتكبها قبل ذلك، كانت قد أورثت الغضب للخاطر الطيب للسلطان الذي غضب غضبًا عظيمًا، وفي ذلك الحين طُوي دفتر عمره بعد الديوان، حيث ضرب عنقه أمام غرفة العرض، رحمة الله تعالى عليه، ووجهت الصدارة العظمى مرة أخرى إلى «رستم باشا».

في ذكر انهزام عسكر «إسبانيا» ثلاث أو أربع مرات بمعاونة ومساعدة «طور غودچه بك» لقبطان سلطان الفرنجة والاستيلاء على ست أو سبع قلاع

ـ توجه طور غودچه بك:

في ٣ رجب سنة ٩٦٠ هجرية[١]، كانت قد ذُكرت قبل ذلك بصورة مجملة، خصومة ملك الفرنجة مع «قارول چاسار» من أجل السيطرة على مُلك «إسبانيا»، كما ذكر الطلب الدائم للمساعدة من جانب السلطان لملك الفرنجة[٢]، وفي هذه المرة، أرسل أيضًا ملك «فرنجة» المذكور السفراء بهداياه اللائقة إلى بلاط السلطان، ولما طلب المساعدة بعدد من أفراد الأسطول الهمايوني، أُرسل «طور غودچه بك» الذي كان أعظم قراصنة البحر وصاحب شهرة بين تلك الطائفة، وكان واليًا على سنجق «قارلى إيلي» أرسل مع أكثر من عشرين سفينة من نوع القادرغة.

---

(١) الموافق ١٥ من يونيه١٥٥٣م.

(٢) فرنجة: (فرنك) هذا التعبير كان يستخدمه أهل الشرق بدلًا من كلمة «أوربا».

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. I، S. 635.

والآن جاء السفراء النجباء من قبل ملك الفرنجة المذكور بهداياه إلى مشتى «أماسيه»، وعرضوا هذه الغزوة على الركاب الهمايوني بالشرح والتفصيل قائلين: «إنهم انتصروا على أعدائهم وإنه قتل اثنا عشر ألف كافر من الإسبان في حرب واحدة فقط، وإنه تم تنكيس اثنين وعشرين من سناجقهم؛ أي أعلامهم، وأن غزاة الإسلام غنموا غنائم زائدة عن الحد، وأنه فتحت بعض القلاع المعروفة باسم «إسبانيا» و«تارلو» و«دشمه» و«أنيه» و«مويقه» و«مارموس» و«لبس» و«ماريانور» من قلاع «إسبانيا» المتينة، وضمت إلى ممالك الفرنجة، وأنهم قاموا بنهب وتخريب بعضها وبحرقها وهدمها»، وفي الوقت نفسه هنأ السفراء السلطان صاحب السعادة بتلك الغزوة وعرضوا العبودية للسلطان صاحب السعادة.

ومع أن «جلال زاده نشانجي بك»، و«عالي أفندي» فصلوا تلك الغزوة التي قام بها «طور غودچه بك» المذكور، فإنه بسبب أنها كانت خارج حدود الممالك المحروسة فقد صرف النظر عن التفصيل في هذا الموضوع؛ لأن هذا يعد من قبيل تحصيل الحاصل، ولكن بسبب أنه قد لوحظ أنه من المناسب الوقوف باختصار على علاقة ملك «فرنجة» بذلك البلاط مدار الفلك، وعلى بداية ظهور «طور غودچه بك» الذي كان من أشهر قراصنة البحر، فإنه يمكن شرح ذلك، وتوضيحه إجمالًا.

ذكر ما يبعث على افتخار ملوك الفرنجة بالانتساب إلى البلاط العالي

في العهد المقرون بالسعادة للسلطان «مراد الثاني» عليه الرحمة والغفران الوالد العظيم لحضرة المرحوم والمغفور له وساكن الفردوس بالجنة «أبو الفتح سلطان محمد خان»، كان قبطان أو اثنان من قادة «اللوند» الذين كانوا يقومون بأعمال القرصنة البحرية في البحر قد صادفا سفينة كبيرة من نوع «القاليون» قذفت بها رياح النصر، فلم يعطوها الفرصة، واستولوا عليها، إذ كان سلطان الفرنجة قد زوج ابنته لأحد الملوك من أقرانه، ووضعها في السفينة مع جهازها ومتاعها وحاشيتها وخدمها وأرسلها إليه، فلما

استولى المسلمون على هذه السفينة بفضل الله تعالى، يقفون على حقيقة الأمر، فيحملونها بلا تأخير وتوقف إلى جانب السلطان ويهدونها له، ويرى السلطان المنصور صاحب السعادة أن هذه المحبوبة لم يرسم قلم الفن مثلها، ولم ينحت نقاشو الكائنات مثلها على وجه العالم، وإنما هي موهبة عظيمة من عند الله تعالى فقط، فيأخذها إلى الحرم المحترم قائلًا قول عشيرة «الأغوز»: «من نظفها ومن صفف شعرها ومن أولى بصحبتها»، ومن ثم يصبح مقضي المرام بزفافه بها، ويُروى أنها لم تعتنق الإسلام لفترة طويلة، وعندما حملت بالمرحوم «أبي الفتوح سلطان محمد خان»، اعتنقت الدين الإسلامي.

وإنني هذا الحقير كثير التقصير كنت جالسًا في أحد الأيام في غرفة العرض في زمن وزارة «حافظ باشا»، فأتى سفير الفرنجة، وعندما خرج الوزير الأعظم إلى الخارج، اصطحبت السفير قرابة ساعة في الحديث عن هذا الموضوع، ويفتخر كثيرًا بذلك فيقول: «السلاطين رفيعو الشأن الذين أتوا بعد السلطان «محمد» أقارب سلاطين الفرنجة»، وأضاف قائلًا: «مع أن ملكنا كان متاخمًا لملك آل عثمان في كل وقت وحين، فإنه لم يظهر منا سوى الصداقة لقلاعها وحكامها، وهكذا يراعي سلاطيننا حق القرابة، ولم تعتنق تلك الفتاة ذات الحظ الطاهر الدين الإسلامي، والآن تربتها مقفلة ومسدودة، وكلما عبرنا من «غلطه» كثيرًا ما نمر من حرم الجامع، ونشاهد تربتها»، ولكن قبل عدة أيام جاءت المصادفة من عند الله تعالى إذ إننا تباحثنا هذا الموضوع مع بعض الأحباب كما لو كان قد أعد الجواب للسفير، وكان قد ظل الأمر أي أمر إسلام هذه الفتاة مبهمًا بيننا، وبعد ذلك، ذهبت في أحد الأيام خصيصى واستفسرت من حارس التربة ؛ فقال الحارس: «يُقرأ عليها القرآن كل يوم في وقت السحر، ولكن لا يبقى وينتظر فيها أحد مثل سائر ترب السلاطين، ولا يفتح بابها باستمرار، فبعد تلاوة الأجزاء الشريفة كل صباح يغلق الباب»، فقمت بشرح ذلك للسفير، فإنه لم يقبل ذلك، وأصر السفير على عناده، ولم يَعُد عن اعتقاده.

في بيان ظهور «طور غودچه بك» وبعض غزواته

هو من مدينة «منتشا»، التحق بجنود «اللوند»، حيث أظهر الكثير من البطولات واكتسب مهارة عظيمة في علوم البحرية، بينما كان يبحر في البداية بمركب من نوع «لوند قايغى»، ثم بسفينة من نوع «لوند قاليته سى»، ويصبح مالكًا لسفينة من نوع «فورسه»، ثم زادت سفنه بالتدريج، فبينما كانت واحدة أصبحت خمس سفن، وفي النهاية، اعتلى منصب قائد جند اللوند، وفي معيته خمسة وعشرون سفينة من نوع «فورسه».

وفي ذلك العصر، كان «سنان بك» شقيق الوزير الأعظم «رستم باشا» أمير «گليبولي» وقبودان البحر، وكان كلما يريد الهجوم على سواحل الكفار، يخبر المذكور؛ أي «طور غودچه بك»، فيلتحق بسفنه أيضًا بالأسطول، ويقومان معًا بالغزوات على الكفار، وكانا يوفقان في تحقيق بعض الفتوحات، وفي أحد الأيام، يلتحق «طور غودچه بك» بـ «سنان بك» حيث كانا يشكلان أسطولًا من الطرفين، ولما ظهر تفوقه في هذا الميدان اعُتبر قبودانًا، حيث أُحسن إليه بسنجق «قارلى إيلي»، وعُهد إليه برتبة «قبودان الترسانة» بعلوفة قدرها سبعين أو ثمانين أقچة باعتباره واحدًا من العشرة أو الخمسة عشر من رجال البحر المشهورين أمثال «حسن كلى» و«سنجاقدار» و«قيد حسن» و«قره قاضى» و«أولاج علي»، وفي ذلك الحين، أتم السلطان صاحب السعادة أسطول «طور غودچه بك»؛ حيث بلغ عدده أربعين قطعة سفينة، وكلفه بفتح القلعة المعروفة باسم «ثلثته»، وأرسله إليها، ويقوم فورًا بالتوجه إليها، وضربها لمدة أربعين يومًا على التوالي، وذلك حتى يفتحها بعد عناء عظيم، حيث يطلق سراح سبعة آلاف شخص من المسلمين المأسورين بداخل القلعة، وعندما يعود بالغنائم الوفيرة ويقبل تراب قدم ركاب السلطان، يحسن عليه السلطان برتبة قبودان مع إمارة أمراء الجزائر، ولكنه يخاف من شر «رستم باشا»، ولا يقبل هذا المنصب. وبعد ذلك، وفي أثناء توجه السلطان صاحب السعادة إلى «أدرنه» يقبل تراب قدم الركاب الهمايوني ويرجو إمارة أمراء «طرابلس غرب» ، فيحسن السلطان عليه بذلك.

ويصبح «طور غودچه بك» متصرفًا على إمارة أمراء «طرابلس غرب» لمدة أحد عشر عامًا قضاها يحكم بالعدل، ويقوم بتعمير ذلك الإقليم بتلك الدرجة التي حولها فيها إلى جنة. ومن المؤكد أن رأيه الصائب وانتصاره على الأعداء هو من عند الله، أما ما اشتهر به بين أرباب الترسانة العامرة، فيمكن تفصيله على النحو التالي: ففي أيامه الأولى وبينما كان يربط سفنه عند ميناء «قطره» الذي يقع في جزيرة «جربه» بثمانية قطع من السفن الأخرى، يقوم قبودان «چيغاله» وقبودان «ونديك» وقبودان «جنويز» و«إسبانيا» بالاستيلاء على مدخل الميناء بمائة وخمسين قطعة من السفن، ويحكموا إغلاق مدخل الميناء قائلين في أنفسهم: «لنستولي على سفنهم بلا حرب وقتال عندما ينفد زادهم»، ولكن هذا الأمر الذي قُرر، لما كان غير مقدر في إرادة الله تعالى لم يفد إحكام المدخل قط. ويرى «طور غودچه بك» أنه لا يمكن عبور السفن من خلف الهضبة المتصلة بذلك الميناء، ولكن يوجد هناك مستنقع في شكل مضيق؛ فيفتح المضيق كما ينبغي بموجب مضمون القول: «إذا أراد الله شيئًا هيأ أسبابه»، ويترك بعض خيامه الممزقة في مكانها، ثم يخرج ليلًا بالسفن من نوع «قادرغة» من قناة المضيق ويهرب.

إلا أن القبطان «چيغاله» المذكور كان قد أرسل أخبار البشرى إلى الـ «جنويز» قائلًا: «إنني أوقعت «طور غودچه بك» في الشراك وقبضت عليه، وعلى هذا يجهز بعض أبناء أمراء «جنويز» سفينة، ويقولون علينا أن نشاهد فاجعة «طور غودچه بك»».

وبينما كانوا في طريقهم، يصادفهم «طور غودچه بك» في الطريق فيأسرهم جميعًا مع سفينتهم، وبعد ذلك ييئس الحلفاء ويخفقون في الانتصار قائلين عليه: «إنه ساحر»، وبينما كان المرحوم شيخًا وقورًا في سن الثمانين، استشهد في محاصرة «مالطة»، فرحمة الله عليه، لم تكن لغزواته وفتوحاته نهاية أيضًا، وإن تفصيل ذلك يحتاج لكتاب مستقل.

في ذكر بعض حروب وفتوحات «صالح باشا» أمير أمراء الجزائر

في سنة ٩٦١ هجرية[1]، لما كان العربي عديم الحسب المعروف باسم «محمد»، ينتسب

---

(١) الموافق سنة ١٥٥٤م.

إلى قوم كبير وعشيرة كبيرة، وكانت أعراب البرية التابعون له أكثر من أن يحصى عددهم فقد دب شغف السلطنة إلى دماغه المختلة بادعاء السيادة في أرض المغرب، فيتبادل المراسلات مع كفار إسبانيا، حيث صار معهم قلبًا واحدًا وجهة واحدة، وتعهد بأنه في حالة استيلائه على بعض القلاع، فإنه سوف يتم تسليمها إلى ملك إسبانيا، وبعد أن عقدوا عهودهم ومواثيقهم واتفاقياتهم ووفاقهم، يقوم هو والأعراب الذين ليس لديهم حصر، والمهدمة منازلهم بمحاصرة القلعة المعروفة باسم «باووس» من قلاع المسلمين من جانب البر، ويقوم كفار إسبانيا الذين لا يحصى عددهم أيضًا بالمحاصرة من جانب البحر، وفي ذلك الحين، يهجم عليهم «صالح باشا» أمير أمراء الجزائر - الذي كان بطلًا مغوارًا، وصاحب تجربة، وعالمًا وقادرًا على اتخاذ التدابير الحسنة، والذي كان خبيرًا في شئون الحرب والقتال - يهجم عليهم مرات عديدة بالسفن الكثيرة من جانب البحر، ويجند الفرسان والمشاة من جانب البر، ويحمل على ذلك الجاهل المسمى «شريف» بينما كان على سرير الغفلة والراحة. وعلى الفور يقضي عليه، ويأسر بعض رجاله ويعدمهم في ذلك المكان، ولما يرى أسطول الكفار الذي تحت قيادته هذا الوضع ، يفر هاربًا دون توقف.

وبعد ذلك، يتحرك الغزاة من ذلك المكان، ويتجهون إلى القلعة المعروفة باسم «بجايه» من قلاع إسبانيا، فيفتحونها، ثم يقومون بالهجوم على البرج المحكم المعروف باسم «لولو» الذي قام الملك بترميمه من حديد، وبفضل الله تعالى يُدخلونه تحت تصرفهم في اليوم السادس ويستولون على الغنائم الكثيرة وهي من الأسرى الذين ليس لهم نظير ومن التحف والهدايا القيمة الموجودة بداخل البرج، وحولوا كنيسته إلى جامع، ثم أعلنوا البشرى وأرسلوها بأنه قد قرأت الخطبة في هذا الجامع باسم السلطان، وأن البرج أكملت تجهيزاته وأحضر الحراس والدزدار أي الحامي وسائر المستلزمات، فليسعد أهل الإسلام دائمًا بالفتوحات على هذا النحو، وليستمر الكفار دومًا في البكاء والألم.

في بيان غزوة القبطان «بياله بك» أمير سنجق «گليبولي» التي وقعت في البوسنة

ـ توجه الأسطول:

في ٦ من شعبان المعظم سنة ٩٦١ هجرية[1]، بينما كان «بياله باشا» المشار إليه أميرًا لسنجق «گليبولي»، ويشغل وظيفة قبطان عن جدارة، أصبح أمير أمراء، وبعد ذلك حظي بلقب القبطانية مع إمارة الأمراء، وفي هذه السنة المباركة، أرسل ملك الفرنجة أيضًا الهدايا الكثيرة مع السفراء الأكفاء، إلى «باب السعادة» وراح يشتكي من ملك إسبانيا مرة أخرى، وطلب من السلطان إرسال الأسطول الهمايوني إلى البحر.

وبناء على هذا، اتجه القبطان باشا المشار إليه بالأسطول الهمايوني بحسب الخطة التي رآها ملك الفرنجة مناسبة إلى جزيرة «چچليه»؛ نظرًا لأنه كُلف بذلك، فيحاصر القلعة المعروفة باسم «پرنچه» الواقعة تجاه القلعة العظيمة التي تسمى «مسينه»، وبفضل الله تعالى يوفق في فتحها، وبعد ذلك يتجه إلى القلاع المعروفة باسم «ضد لجقه» و«باوليه» و«حرول»، ولكن أهالي القلاع المذكورة يتركون قلاعهم أثناء محاصرة قلعة «پرنچه» ويختفون في بعض الأماكن الوعرة، ويتحصنون بالجبال والتلال هناك، و لما علم القبطان الشجاع بأحوالهم، يختار عدة آلاف من جند البحرية خفيفي الحركة والشجعان من جنود الأسطول الهمايوني، ويصحبهم المرشدون من أسرى الأعداء للإدلاء بمعلومات عن العدو ويرسلهم عليهم، وبعون الله يغتنم غزاة النصر الغنائم الكثيرة.

وفي ذلك الحين، علموا أن «أندريه دوره» قبطان «إسبانيا» موجود أمام «أنابولى» مع خمسة وستين قطعة من سفنه، فيقلعون في الحال ويتجهون إليه، إلا أن الأعداء لما علموا أن الأسطول الهمايوني سوف يتوجه إلى تلك الناحية، اندفعوا إلى ناحية أخرى. وبعد ذلك، فبسبب أن قبطان البحر «بياله باشا» لم يلتقِ مع «أندريه دوره»، يتجه «بياله

---

(١) الموافق ٥ أغسطس ١٥٥٤م.

باشا» إلى القلاع المعروفة باسم «غزاته» و«قيطه» و«ألينه» و«كستليه» و«قاليه» من قلاع إسبانيا، حيث يتمكن من فتح بعضها بهجوم الغزاة عليها، وبعضها الآخر بطلب أهلها الأمان، ويستولي على الكثير من الغنائم، وكانت قلعة «قاليه» مطلب ملك الفرنجة، وكان أسطوله أيضًا ينتظر للاستيلاء على ذلك المكان، فبعد أن فتح غزاة الإسلام تلك القلعة، أُحسن بها على ملك «فرنجة»، وهذا الإحسان أصبح الباعث والسبب وراء ازدياد طاعة ملك الفرنجة لذلك النجيب عالي الشأن أي السلطان.

في بيان قتل وإعدام «بيري بك» قبطان مصر

سنة ٩٦١ هجرية، لما كان قهر وغلبة الكفار حرفة للسلطان صاحب السعادة وحامي العالم ولما كانت هذه الرغبة دائمًا في إدراكه وفكره، فإنه بعد أن ضُمت بفضل الله تعالى أقصى بلاد اليمن وعدن إلى الأراضي العثمانية، وضمت البصرة ولحسا والأراضي الواقعة فيما وراء تلك السواحل، استقر في الخاطر الطيب للسلطان الرغبة في فتح جزيرة «هرمز»، وذلك على إثر علم السلطان بأنها قريبة نوعًا ما إلى البصرة وأنه يمكن إمداد ومساعدة البصرة منها وأنها ذات أهمية لحماية تلك الحدود.

وكان الوزير «سليمان باشا» قد عبر من اليمن وعدن قبل ذلك، ثم مر من «بحر فارس» ووصل إلى «شيراز»، وسواحل «برلار» وإلى «أحمد آباد» التي كانت دار ملك «كجرات»، ووصل من هذا المكان إلى ميناء «ديوه» وعاد ببعض الفتوحات والغنائم، ولما كانت جزيرة «هرمز» تقع في «بحر فارس»، وفي نهاية أرض اليمن، كان «بيري بك» قد قطع بذلك مسافة أكثر من خمسمائة ميل، وعلى الرغم من أن الوضع كان على هذا النحو فإنه لم يكن هناك أي عائق في فتحها والاستيلاء عليها بعون الحق، ولما كان التصور أنه يمكن تحقيق هذا الأمر بسهولة ويسر، فقد صدر من الهمة العالية الفرمان السلطاني الواجب ببناء السفن من جديد في ميناء السويس لنقل مستلزمات تلك الحملة.

وبعد أن تم بناء وتشييد ثلاثين سفينة بعضها من نوع «باشترده» وبعضها من نوع «قادرغة» والبعض الآخر من نوع «بارجه» و«قاليته»، وبعد أن تم تجهيز وإكمال مهماتها

ومستلزماتها، عين «بيري قبودان» ـ الذي كان قرصانًا شجاعًا وصل بهمته إلى مرتبة قبطان عسكر البحرية ـ عين سردارًا عليها مع بذل الوعود والآمال العظيمة له، وأرسل إلى «هرمز»، ووصل المذكور «بيري قبودان» إلى ساحل «هرمز»، حيث أغار على بعض أراضيها، وبعد أن أخذ الغنائم الكثيرة، حاضر «هرمز»، وقام بضربها لفترة طويلة، وبينما كان يوشك على فتحها بعناية الله، فعلى إثر قيام الملعون العنيد الذي كان يقع تحت الحصار بتقديم مقدار من المال لـ «بيري قبودان»، قبل القبودان برفع الحصار، على الرغم من أن هذا الوضع كان غير ممكن محلًا بين الذين يحيطون علمًا بوضع العدو آنذاك. وقام بفك الحصار من على جزيرة «هرمز» وذهب، حيث وصل إلى البصرة، ومكث واستراح بها، ثم اختار ثلاث قطع من سفنه من نوع «يوكرك قادرغة» وأقلع من هناك إلى السويس مرة أخرى من الطريق الذي أتى منه تاركًا باقي سفنه في البصرة إلا أن الرياح العكسية مزقت إحدى سفنه في سواحل اليمن، فوصل إلى السويس بسفينتين من سفنه.

ولما عرض هذا الأمر على السلطان، صدر الفرمان الهمايوني بإعدامه؛ بسبب أن الكفار أعطوا المال، وقبله في الوقت الذي كان فيه ذلك الأمر محالًا، وقطعت رأسه بحكم الإعدام في «ديوان مصر».

الغزوة الغراء التي قام بها «مالقوچ بك» أمير لواء «كليس»

كانت هذه الغزوة في سنة ٩٦١ هجرية، قام الشخص المعروف باسم «زرنسقى» الـذي كان جنرال مملكة «خـروات» و«إسـلوين» بإرسال عديم الحياء الذي يدعى بـ «هولسك»، الذي كان باش قبطانه إلى حدود «كليس» مع عدة آلاف من المشركين من جند المشاة والفرسان، فيقوم هؤلاء بالإغارة على بعض قرى أحد أطراف «كليس»، فيلحقون الضرر بالرعايا والبرايا ويسوقون الحيوانات التي وجدوها حية ويرتكبون أنواع المفاسد وقطع الطرق.

وما إن يصل الأمر إلى مسامع الأمير المشار إليه «مالقوچ بك»، حتى يقوم على الفور بتعقبهم بغزاة الإسلام، فيرسل خلفهم في البداية «حسن أغا» أغا طائفة «بشلو»[1] الموجودة في قلعة «بلغاى» و«محمد كتخدا» كتخدا قلعة «كلوج»، وينبه على هؤلاء بأن يعطلوا الكفار بالمناورة حتى يصل إليهم ببقية الجنود، فيتوجه هؤلاء أيضًا بإقدام، حيث يهجمون على الكفار في منتصف الليل، وعلى الفور يدخلون معهم في قتال ضروس وينقذون الغنائم التي أخذوها، إلا أن «زرنسقى» كان يعد كمينًا مع معظم عسكره الذين آثارهم الهزيمة، وبينما كان يقوم بتوفير المدد لعسكره يتوجه «مالقوچ بك» إليه، وبفضل الله تعالى يضرب الكفار بالسيف، حتى إن «زرنسقى» ينقذ رأسه بصعوبة، وبعد ذلك أرسل الأمير المذكور «مالقوچ بك» عددًا من الألسن والرءوس التي أسرها، وبذلك، بعث بالزينة إلى الديوان الهمايوني وبالسعادة العارمة إلى قلوب المسلمين؛ فاللهم لا تخلص الأعداء سيئ الفكر من هذا النوع من الاستحقار دائمًا.

الغزوة الغراء التي قام بها «دولت گراي خان» في ولاية القرم

كانت هذه الغزوة أيضًا في السنة نفسها، الحمد والشكر لله، فإن الفتوحات الجميلة التي كانت من نصيب أهل الإسلام في تلك السنة المباركة لا يُعرف أنه حدثت مثلها منذ عدة سنين، والحرب العظيمة والفتوح الفسيحة التي كانت من نصيب «دولت گراي خان» خان القرم، إنما هي واحدة من تلك الفتوح.

ففي هذه الأثناء، أتت عروض «دولت گراي خان» إلى إستانبول، حيث أحيط علمًا بأن الشخص سيئ السمعة المعروف باسم «إيوان» الذي كان حاكم «الروس» المنحوسين قد جهز حوالي ستين ألف جندي ممن يتخذون الهزيمة لهم أثرًا، وقام باتخاذ التدابير والاستعدادات الكثيرة للإغارة على ممالك الإسلام في أول الربيع، ولما وصلت

---

(١) البشلو: نوع من العسكر الذين كانوا يستخدمون في حراسة القلاع في الدولة العثمانية وكان يطلق على أميرهم «بشلو أغاسى».

- Mıdhat Sertoğlu: Adı geçen eser، S. 50.

أصداء هذه الأوضاع إلى هذا الجانب أي إلى جانب الدولة، تم على الفور تعيين الرجل صاحب الخبرة المعروف باسم «محمد ميرزا»، قائدًا على عدة آلاف من التتار خفيفي الحركة كرياح الصبا؛ حيث أرسل عليهم، ولما علم الكفار سيئ النسب بمجيء التتار، استقبلوهم، حيث اشتعلت نار الحرب والقتال بين الطرفين عند الظهيرة ولم يسترح الطرفان في تلك الليلة، حيث أداروا رحى الحرب حتى الصباح، وعندما أصبح الصباح ازداد القتال ضراوة، وبصفة عامة وعند بزوغ النهار، كان نسيم النصر قد راح يهب من جانب عسكر الإسلام، وهكذا، فضل الكفار عدماء النفع الفرار من ميدان المعركة، فيتعقبهم الغزاة ويطردونهم، وعلم الله، أن «دولت گراي خان» قد روى: «بأنه لم ينج إلا أقل القليل من الستين ألف كافر».

فتح قلعة «قبو شوار» و«بوبوفچه» و«قورتنه»

تم ذلك في سنة ٩٦١ هجرية، كانت قد عقدت أنواع الصلح بين حضرة حامي الخلافة و«فرديناند قرال» أثناء وقوع النزاع والحرب مع الشاه الضال، ولكن كان أشقياء طائفة «حيدود» و«قطانه» من الكفار لا يتوانون عن قطع الطرق والتعدي والإغارة على أبناء السبيل، وعن فعل أنواع المفاسد في الحدود الإسلامية، ولما كانت قلعة «قبوشوار» مسكنهم ومأواهم جميعًا، ومأمنهم وملجأهم كلما رأوا هجومًا من أرباب الجهاد، اتحد «طويفون باشا» أمير أمراء «بدون» الذي كان أسد حرفة القتال، و«أرسلان بك بن يحيى باشا زاده محمد باشا» أمير «أستوني بلغراد»، والذي كان من الأمراء التابعين للإيالة المذكورة، و«أحمد بك» أمير «أسترغون» وسليمان بك أمير «نويغراد»، و«سنان بك» أمير «سكسار»، و«أحمد بك» أمير «غرژغال» و «محمد بك» أمير «خطوان»، و«نصوح بك» أمير «شمونطورنه»، وأصبحوا يدًا واحدة في حسن التدبير والاتفاق في هذا الموضوع، حيث كان كل واحد من هؤلاء كالأسد الهصور في ميدان الجهاد وكالنمر والفهد في جبل الشجاعة، وأرسلوا مع أرباب تيمار سناجقهم ومع أفراد العزب[1] والحراس

(١) هذه الكلمة تعني الشخص غير المتزوج، وكما أن هذا الاسم أطلق على الجنود الذين يعملون في خدمة الأسطول في ولايات الأناضول، فقد أطلق هذا الاسم على جند المشاة خفيفي الحركة عند العثمانيين. وقد استخدم هذا الصنف من الجنود حتى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي. وكانت قوات

إلى تلـك القلعـة المتيـنة وحـتى يتم محـاصرتها أرسل هؤلاء قدرًا من العسكر كطليعة لهم، فيخرج الكفار من القلعة ويقومون بحرب ضروس مع الذين قدمون من عسكر الإسلام، وفي النهاية، تحصنوا بالقلعة منهزمين، وأغلقوا باب القلعة ببناء جدار عالٍ، ولما علم أهالي القلعة المعروفة باسم «سنديقاب» والتي تقع بقرب «قبوشوار» بمجيء أهل الإسلام، فروا من القلعة ودخلوا حصن «قبوشوار».

ولما أتى أمير الأمراء الذي قلبه يشبه قلب الأسد بالقرب من القلعة بعسكر الإسلام، وضع المدافع من نوع «باليمز» التي أحضرها معه من «شقلوش» في المتاريس وراح يضرب القلعة ليل نهار ثم ملأ نهر «قپوش» ـ الذي كان يجري في أطرافها والذي كان يعتبر خندق القلعة ـ بالحطب، وأشعل النار في مواقع هؤلاء الأشرار والأذلة، فامتلأ وجه السماء دخانًا، وكان قد استمر الحصار لمدة تسعة أيام، وقام غزاة الإسلام بالهجوم عليها في غرة ذي القعدة من السنة المذكورة ٩٦١ هجرية[1]، واستمرت المعركة والحرب والقتال والضرب مدة طويلة، وفي النهاية، لما هب نسيم النصر من جانب عسكر الإسلام، نصبت الأعلام على برجها وجدارها، ورفع الأذان، وارتوى السيف بالدم من كبد الكفار الذين مأواهم النار، وفي النهاية تحصن بعض الذين مأواهم جهنم في القلعة الداخلية، وفي ذلك الحين، تم إنقاذ الأسرى المسلمين الكثيرين الذين كانوا داخل القلعة. وبعد ذلك، قام من كانوا في القلعة الداخلية بتعليق سيوفهم وأكفانهم في رقابهم وطلبوا الأمان.

وبعد أن أكملت احتياجات القلعة المذكورة، تم التوجه إلى قلعة «قورتونه» ولكن فضل الذين بداخلها الفرار؛ بسبب نفاد طاقتهم من مهابة عسكر الإسلام، ولعدم قدرتهم على الدفاع، تركوا القلعة فارغة وذهبوا، وبعد ذلك تم التوجه إلى القلعة

العزب أيضًا تستخدم في حماية القلاع.

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser، S. 26.

(١) الموافق ٢٨ من أكتوبر ١٥٥٤م.

المعروفة باسم «بوبوفچة» وراح أهالي تلك القلعة أيضًا يتركون قلعتهم ويذهبون، وبعد ذلك تم النزول إلى صحراء «سكتوار» بنية محاصرة قلعة «سكتوار»، وانشغلوا بإجراء الاستعدادات للحصار عدة أيام ولكن نظرًا لاقتراب أيام الشتاء، لوحظ أنه من الأولى والأفضل صرف النظر عن المحاصرة.

ـ من كرامات الغزاة :

وفي ذلك الحين نظم شخص كان يعمل قاضيًا في حصن يعرف باسم «غرژغال» نظم أسطورة على قدر علمه؛ حيث كتب مشاهداته في هذه الحملات، والحقيقة أنه لو لم يكن هناك غزاة في تلك الغزوات، لما كان ممكنًا البقاء والاستقرار في «سكتوار» في الوقت الذي كانت فيه المدينة قريبة الجوار مع الكفار، وجوانبها الأربعة محاطة بهم، وبصفة خاصة لما كان ممكنًا الإقدام على الحرب بتلك الصورة.

ويقول قاضي «غرژغال»: بينما كان «أحمد بك» واليًا على القلعة المذكورة، يتجه إلى فتح «قبوشوار» مع خيرة المجاهدين الذين كانوا في القلعة، وبعد الفتح نزل على مقربة من «سكتوار»، وحتى يقوم باتخاذ الاستعداد لفتحها قام بالتشاور مع أمير الأمراء والأمراء وسائر الغزاة المنصورين، ولكن بسبب ضيق الوقت واقتراب موسم الشتاء، تم تأخير هذا الأمر إلى السنة القادمة قائلين: «إنه من المناسب صرف النظر عن الفتح الآن»، وقصدوا إلى ناحية «بدون» من أجل توديع أمير الأمراء، وبعد ذلك، لما تقدم «أحمد بك» وغزاته إلى الأمام ستة منازل عن «غرژغال»، استولى عديم الدين الذي كان أمير «سكتوار» على «غرژغال» مع أشقيائه قائلًا: «إنه وقت الفرصة»، وهذا الذي سيذكر هو بعض أبياته بعينها. وهي هذه:

(كانوا يطلقون على الأمير الكافر الذي كان سيدًا بينهم «قراجين»، وهذا الكافر أتى فجأة ذات يوم على القلعة، وقصد « غرژغال» في يوم آخر، فلو سألت عن المسافة فاعلم أنها قريبة، عندما أصبح يوجد ميل أو نصف ميل على «سكتوار»، أطلقنا مدافع الأخبار

الكثيرة التي تعني أننا ينبغي أن نعلن الإسلام، وكان الغزاة قليلين جدًا، وكنا نقول: ينبغي أن تكون العناية من الحق، فيا هو! كنا في لحظة مائة وأربعة عشر رجلًا، وأهل الإيمان حاضرون في تلك اللحظة، والكفار الذين أتوا أكثر من ألف شخص بعضهم سوارية وبعضهم مشاة، ولا يوجد مدد للحرب من أجل الخروج للخارج، فأغلقنا الباب ودخلنا إلى القلعة، ويرسل الكافر في تلك اللحظة ذميًا، فيقول: ينبغي أن تعطى بالاستسلام يعني «غرزغال»، وهناك حلف على النار والنور والصليب والإنجيل والزبور، وعلى هذا المنوال، وبالتعهد والقسم ألا ينبغي أن يرى أهل الإيمان ضررًا منا، وفي تلك اللحظة تشاورنا كثيرًا وفي النهاية رأينا الخروج والقتال، ولم يهملوا في الوصول إلى العدو، فجميعهم استعدوا وأتوا في الحال، وفي تلك اللحظة استعد جند الإسلام، وليفتح الباب، وإنني عبدكم أيضًا كنت قاضيًا لأهل الدين وإمامًا لزمرة المجاهدين، فقالوا ألطف بالباب وافتح وأقدم، واترك الخوف الذي في قلبك وأقدم، فها هي الأعلام مستعدة في الأيدي فينبغي أن أخرج وينبغي أن أسعى وأقدم إلى تلك الغزوة، وناديت عليهم يا أبطال الميدان، بعشق السلطان الغازي سليمان خان، أصغوا واستمعوا قليلًا للكلام الذي وضحته لكم بالمشاورة، فمن هنا لو سألتم، مرادي لا يمنعكم من الغزوة، فلتكن الرأس والروح فداء هذا اليوم، وخاصة فليكن غدًا عيد أضحى، وهذا هو الولي، فأنصتوا إلى مرادي الحق، وهذا يوم الجمعة يوم عرفة الحق)[1].

وعلى كل حال فقد قلت: إنه ليس هناك شك في أن حجاج المسلمين يناجون الله في هذا اليوم في عرفات، وسائر المؤمنين يناجونه في الجوامع كما أنه ليس هناك ريب في أن الغزاة مثلنا والمرابطين على الحدود يدعون من أجل النصر، وقلت: «من الواجب أن نؤدي أيضًا صلاتنا وندعو مذرفين دموع أعيننا، وينبغي أن نتسامح مع بعضنا، وبعد ذلك نذهب، وليصبح ما تبقى منا غزاة ، وما توفي منا شهيدًا، ولنذكر بالاسم الحسن في الدنيا ولنحشر تحت لواء حبيب الله عليه السلام».

---

(١) هذا شعر مترجم.

وفي الواقع قبل جميع الغزاة كلمتي، وتوقفوا حتى وقت الظهر، حتى ظن الكفار أنهم يتباحثون أمر التسليم، وعندما تمت صلاتنا وعلم الخواص والعوام أنه انتصف النهار، فتحوا الباب وخرجوا بغتة وهجموا من الجناحين.

ـ نظـم:

فمع أن جميعهم في الغزوة، وفي العبادة والتضرع والدعاء، ولكن بينهم اثنين من العارفين كلماتهما معارف، فالموحد والمصلي هم العظماء، ويذكر اسمهم بعد لفظ دلي؛ أي مجنون، فأطلقوا على أحدهم «دلي محمد»، وعلى الآخر «دلي خسرو» البطل وحسن الوجه، وقالوا: أصبح كلاهما رئيسًا لفرقتين، وقاموا بتحسين سواريتهم، فهؤلاء الذين وصلوا من أهل الدين الذين كانوا بجوارنا، ومن جانب قلاع المسلمين، أخفوا الأخبار على الفور، من مدافع الإشارة ومن الساعي، فسار وأتى هؤلاء بسرعة حتى عندما ظهروا كانوا خمسة أو عشرة غزاة، ويرتفع الغبار من الطريق الذي أتى منه هؤلاء، فيحجب وجه النهار من اليمين واليسار، وكنا نظن أنهم عدة آلاف من السوارية والعسكر، ووصل الأخ من أجل النصر؛ وبسبب أن نظر ورأى الكفار هذا الحال، فقد انهزم في تلك اللحظة طوعًا أو كرهًا، وولى الأدبار وهربوا جميعًا، وكان يقتل الغزاة كلما هجموا، فاسمع ما حدث قبل أن يأتي هؤلاء، هجم هذان الغازيان من جناحين، وسكر أو دهش كلاهما، ودخلا في الموكب وهم سكارى، وبينما يقاتلون في تلك الغزوة، استشهد «دلي محمد» هناك، وقد وقع أمر عجيب لعبدكم، وهذا الذي وقع ليس واقعة حقيقة، والله أعلم أنني لست كذابًا في هذا الكلام، بحق المصطفى وآله وأصحابه، رأيت «دلي» الذي استشهد، وبعد ذلك قطع رأسه وفصل عن الجسد، وأمسك الكافر بالرأس المقطوع؛ يعني يريد أن يحمله إلى مملكته، فرأى ذلك «دلي خسرو» فصاح وقال: لماذا تنام؟ أخذ رأسه وذهب، فلائق أنك أعطيت الروح للرأس القيمة، وحدث أمر عجيب ومشهد آخر، فاستمع لتلك الحكمة وذلك السر، فذلك الغازي الذي استشهد مقطوع رأسه. وقف على الفور وأتى من مكانه وضرب ذلك اللعين بيده، فسقط من على الحصان وسقط الرأس من يده، وظل الرأس بالطريق، وأخذ هذا الغازي رأسه وسقط واكتفى،

ولم يره الشخص ولم يسمعه، ورأى «خسرو» هذا الوضع فمدحه وأثنى عليه، ونادى: ارفع وجهك الذي هو جلاء القمر، وأشار أيضًا إلى ذلك عديم القدرة، انظر إلى ذلك الشاب ماذا أصبح حاله، لقد يبستُ وظللت فيه كما لو كنت بلا روح، ونظر بحيرة ودهشة إلى تلك العبرة، وعاتب وقال لي: كيف أصبحت أيتها الروح، لماذا أنت تقف؟ اغزو أيها المسلم، فأتت إليّ القوة بكلماته، وفي تلك الأثناء انهزم العدو، وبينما يقاتل حل وقت المساء، ووزع شعر الشام على وجه المعركة، ولما سمع النداء نادى، فأجاب الصدى قائلًا: تعالوا وعودوا، فعدنا جميعًا وأتينا إلى القلعة، البعض مجروح والبعض الآخر قطعًا قطعًا، ولما عددنا الذي استشهد في تلك اللحظة، بلغوا تسعة عشر جنديًّا، وأحصى الكفار الفجار الذين قتلوا، فالذي تبقى أربعة وستون جيفة، ويحملون أيضًا جيفًا كثيرة، فتأخذهم الغيرة ولم يتركوها في مكانها، وفي تلك الأثناء، لم نؤخر العمل عنده، وأحضرنا الشهداء إلى الناس، وبصفة خاصة فيا أيها الحبيب ذلك الشاب السابق، اسمع أيها الوفي ماذا مات من الوجه، وعندما وصلنا وجدنا رأسه بجواره، يرقد في إبطه ورأسه مقطوع، فحملناه ودفناه أيضًا في تلك اللحظة، وأدينا الصلاة عليها وقُرئ القرآن، ولما تذهب الخلائق إلى قبره، يظل عبدك في الظاهر دليلًا على أن الخالق واحد، ورأيت جمالًا وحسنًا في داخل القبر مثل حور الجنة، وأتت وقبلت ذلك الشاب واحتضنته ورأت عين اليقين عبدك في الحال، وأصبحت المقابر مضيئة على هذا النحو في تلك اللحظة، وأصبح هذا العالم مضيئًا من نوره، وعبر مني ولم أعلم، فأخذني وجهه المقمر من الأنانية، ويأتي بعض رفقائي ويغلقون الباب ويقولون: تعال وادخل؛ وفي تلك اللحظة دخلت إلى القلعة كما لو كنت سكران، وكان أحيانًا يهدأ وأحيانًا يكون مندهشًا، وبينما أذهب إلى الكمين الداخلي من القلعة، مررت بمنزل «خسرو»، فأحيانًا يبكي على الشهداء وأحيانًا يتوقف، ويحك ذلك الحصان ويترنم بالتركو، وعندما ناديت من الخارج علم في الحال، وقال: لبيك يا سلطان العالم، وأيضًا قبل أن أتكلم عن أحواله، قال: هل رأيت حظ ذلك الشاب، فقلت: رأيت حقيقة ذلك الشاب، هل رأيتموه من هنا. وقال حال هؤلاء كثير على هذا النحو، وأنت تعلم أنه لا يوجد شيء مخفيا على المبصر، وفي الواقع لم يبق

صبري إلى هنا، وأصبحت مداومًا على الخمارة وسقطت إلى هناك، وظل عبدك عاشقًا على هذه الحالة، وكنت دائمًا أزور قبره، وما أطلبه كان يلبى، وكنت قد وصلت عنده إلى المقاصد. وكالنهر لا يسع الأواني الفخارية الأخرى، وفي النهاية حكيت هذا الأمر، وبهذه الحالة زال ألف من عبيدك وامتلأ بالكثافة وأصبح حائلًا للقلب، وأصبحت هذه الروح لا تُرى لي، وبينما كان يذهب ذات يوم انتابته الحيرة، وبقى «دلي خسرو» في هذا الحين مشاهدًا، وكان في يده السهم والقوس دائمًا، فشد من خلفي وقال: تمهل لحظة. قال: يا أيها الأبله والأحمق، إن من لا يبالي عدو لنفسه في الدنيا، لماذا تعرض هذا الحال على الناس، اذهب وليبق حالك على ما هو عليه خاليًا، فلتتوقف ولا تتحرك قطعًا، والرخصة لك؛ لكي تكشفه، قلت: فلتتلطف أيها الفاتح الحسن وليستيقظ من نوم هذه الغفلة، فيا لحكمة هذه الأحوال، وهذه الحالة هابتني تمامًا، فهل هناك من يرى ويعلم هذه الأحوال معي سواك، قال: هناك، ولكن تلك الروح هل تظن أن كل شخص لا يرى ماء الحياة، ولكي يرى كلانا فهذه هي الإشارة، فبشرى الشهادة هي البشارة والسرور، فكل كلمة له تحيرني ولكن نار الغيرة تحرق داخلي، ويصبح حالي محكمًا ومشوشًا وليس لدي مجال للجلوس والوقوف، وأصبحت مجنونًا ومخبولًا تمامًا، وكلما وضح الحال، عاد كما كان أولًا. إلهي، فليتبدل الحال على هذا النحو، وفي الحال كتبت مقالة للترغيب.

في ذكر بداية ظهور مشروب القهوة في بلاد الروم التي علامتها البهجة

في سنة ٩٦٢ هجرية[1]، كانت لا توجد القهوة والمقاهي في العاصمة العلية «القسطنطينية» وفي جميع بلاد الروم إيلي على الإطلاق حتى تاريخ اثنين وستين وتسعمائة، وفي بدايات السنة المذكورة أتى شخص يعرف باسم «حكيم» من حلب وشخص آخر

(١) الموافق سنة ١٥٥٤م.

يعرف باسم «شمس» من الشام، وفتح كل واحد منهما دكانًا كبيرًا تحت القلعة وبدءوا في بيع القهوة، وراح يتجمع بعض الأحباء الأصفياء المبتلين بداء الكيف وخصوصًا بعض الظرفاء من طائفة القراء والكتاب، وأصبحوا يتجمعون في المكان تجمعات تتكون من عشرينات وثلاثينات، البعض يقرأ الكتب والمقالات الجميلة والبعض الآخر يلعب الطاولة والشطرنج، والبعض يحضر الغزليات المكتوبة حديثًا حيث كانت تتم المناقشات حول أنواع المعارف، وكان هناك من يصرفون النقود الكثيرة، ويرتبون الضيافات حتى تصبح هذه الأماكن سببًا لتجميع الأحباب، فيضفون على الاجتماع روح الصفاء بدفع ثمن القهوة أقچة أو أقچتين وليس أكثر من ذلك.

وأصبح الأمر بتلك الدرجة التي ملأ فيها المعزولون عن وظائفهم والمنتظرون فترة معلومة للحصول على وظائف جديدة؛ من القضاة والمدرسين من طائفة البطالة التي كانت بلا عمل أو كسب، ملئوا جميعًا المقاهي قائلين: «لا يمكن أن يكون هناك مكان يمكن أن يسلي ويلهي القلب مثل ذلك»، وأصبح لا يوجد مكان في القهوة يمكن الجلوس فيه أو حتى الوقوف فيه، وبصفة عامة اشتهرت المقاهي بالدرجة التي صار يأتي إليها الأعيان رغمًا عن إرادتهم، وذلك عدا أصحاب المناصب.

وقد قال الأئمة والمؤذنون والصوفية: إن الناس صاروا مبتلين بالمقاهي؛ وأصبح لا يأتي شخص للصلاة في المساجد، أما العلماء فيقولون عن هذه الأماكن: «إنها وكر مساوئ، والذهاب إلى الخمارة أولى من الذهاب إلى القهوة»، وبصفة خاصة كان الوعاظ يجتهدون كثيرًا لمنعها، وأفتى المفتون أيضًا قائلين: «بأن كل شيء يصل لمرتبة الفحم يعني يصبح أسود هو حرام صرف»، وكانت تحدث التنبيهات المؤكدة في العصر المبارك للمرحوم والمغفور له السلطان «مراد خان الثالث» ـ رحمة الله عليه ـ من أجل منع القهوة، ولكن بعض الأصدقاء أقاموا عند الأبواب الخلفية للشوارع المسدودة وخلف بعض الدكاكين، وقالوا عليها: إنها «قولتق قهوة سى»؛ أي قهوة الزاوية، وعلى إثر مراجعتهم بعد ذلك إلى الـ «سوباشى» و«عسس باشى» حصلوا على الإذن بفتح هذه الأماكن، ولم ينتهوا عن شربها، حتى إنه يروى أن المرحوم «مناو عوض أفندي»

حينما كان قاضي إستانبول قد أشار إلى الفناجين قائلًا: «إنها الأواني عند مواقدها ومراجلها»، ولكن بعد مرور ذلك العصر انتشرت حتى أصبحت غير ممنوعة، وبدأ الواعظون والمفتون يقولون: «إن القهوة لم تصل إلى درجة الفحم، إن شربها جائز»، ولم يبق رجل من العلماء والمشايخ والوزراء والكبراء دون أن يشرب القهوة، حتى وصل الأمر إلى درجة أن الوزراء العظام فتحوا المقاهي؛ لتكون مصدرًا للدخل وأصبحوا يأخذون أجرة يومية عنها قدرها ذهبية أو ذهبيتان.

ظهور الدخان سيئ الرائحة والمضر بالنفس

في سنة تسع وألف هجرية[1]، كان كفار الإنجليز قد أحضروه في بداية سنة تسع وألف، وقاموا ببيعه على أنه شفاء لبعض أمراض الرطوبة، وقد ابتلي به بعض أهل الكيف قائلين: «إنه يكيف»، وبالتدريج صار يستخدمه أيضًا الذين لم يكونوا أهل كيف، حتى إن كثيرًا من كبار العلماء وأصحاب المقام الرفيع ابتلوا بذلك أيضًا، وأصبحت المقاهي مملوءة بالدخان من كثرة استعمال الأراذل والأوباش له في المقاهي، ووصل الأمر إلى درجة أن الذين كانوا بداخل هذه المقاهي لا يرون بعضهم البعض، وأصبحت «اللولة»[2] لا تخلو من أيديهم في الأسواق وقد أفسدوا رائحة الأسواق والمحلات بنفخهم الدخان «بوف بوف» في وجه وعين بعضهم البعض، حتى إنهم نظموا في الدخان بعض الأشعار التي لا قيمة لها وقرءوها بلا مناسبة.

وقد عقدت المناقشات بين بعض الأصدقاء لأكثر من مرة، وكلما قالوا: «إن رائحة الدخان كريهة، خلاف أنها تفسد رائحة ذقن وعمامة الرجل والملابس التي على ظهره وخصوصًا الأماكن التي يستعملون الدخان بداخلها؛ حيث إنها تحرق الأشياء مثل السجادة واللبدة والمفارش، وإنها تلوثها جميعًا برمادها وفحمها، وبعد النوم فإن

---

(١) الموافق سنة ١٦٠٠م.

(٢) اسم لآلة خاصة بوضع الدخان أو التومباك في النرجيلة. وكانت تصنع من الطين.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. II، S. 372.

الرائحة الخبيثة للدخان تصعد إلى الدماغ، وعلى الرغم من ذلك لم يكتف الفرد؛ فباستخدامه الدخان باستمرار يبقى بلا عمل أو كسب، فإذا كانت بعض أضراره الفاحشة على هذا النحو، فماذا يكون نفعه؟»، فإن المدمنين له لا يستطيعون أن يجيبوا أي إجابة عدا قولهم: «إنه مُسلٍ، وعلاوة على هذا فإن صفاءه يشعر بالذوق»، والحقيقة أنه لا يوجد أي احتمال للصفاء الروحاني من هذا الداء حتى يشعر بالذوق، وهذه الإجابة لا يمكن أن تكون إجابة شافية، وإنما هي مجرد مكابرة لا معنى لها، وبصرف النظر عن كل ذلك، فقد كان الدخان سببًا لحدوث حريق عظيم عدة مرات في القسطنطينية حيث احترق مئات الآلاف من الرجال في مثل تلك النيران، ولكن في الواقع فإن استخدامه من طرف حراسي سفن «فورسه» له فائدة لا تنكر؛ حيث إنه يفيد في دفع النوم قدرًا ما عن الحراس، كما أنه يدفع أيضًا الرطوبة ويجلب الدفء، ولكن لا يجوز عقلًا ومسلكًا ارتكاب المضار الكثيرة من أجل منفعة قليلة بهذا القدر.

وكانت قد وقعت شهرته وانتشاره في تاريخ خمسة وأربعين وألف هجرية بالدرجة التي لا يمكن الكتابة أو التعبير عنها، فليمد حضرة الحق سبحانه وتعالى عمر وعظمة حضرة سلطاننا(١) صاحب السعادة أعز الله أنصاره، وليَزِدْ عدله وإنصافه؛ لأنه أزال المقاهي التي كانت تقع في جميع الممالك المحروسة، وأقام مكانها الدكاكين المناسبة، وتفضل بإصدار فرمانه القائل بمنع شرب الدخان الضار بالصحة على الإطلاق، وبهذا يكون قد قام بإحسان عظيم من كمال رحمته وشفقته على بعض الفقراء والأغنياء، كما أنه أكرم جميع الأشخاص الذين لو شكروه إلى يوم القيامة فإنهم لا يستطيعون أن يوفوه حقه كما ينبغي.

في ذكر أحوال الأسطول الهمايوني الذي بقي في البصرة

كان قد ذكر من قبل إنه أرسل «بيري قبودان» لفتح «هرمز» وأنه ترك سفن الأسطول

(١) المقصود بكلمة «سلطاننا» هنا: هو السلطان «مراد الرابع».

الهمايوني التي كانت معه في البصرة، فقام «قباد باشا» أمير أمراء البصرة في ذلك الوقت بعرض الأمر على السلطان قائلًا: «لو كلف «مراد بك» المعزول من سنجق «قطيف» بإيصال وإعادة الأسطول المذكور إلى السويس مرة أخرى، إن شاء الله تعالى فإنه سوف ينجح في ذلك»، وبموجب هذا العرض صدر الفرمان بإبقاء فرقاطتين، وسفينة واحدة من نوع «قاليته» وخمس سفن من نوع آخر في البصرة وإعادة ما دون ذلك مع «مراد بك» المشار إليه، وبعد أن أتم «مراد بك» المذكور استعداداته بناء على الأمر الشريف، وتوجه إلى طريقه، قابل في الطريق أسطول البرتغال الملعون بينما كان يتحرك تجاه «هرمز» فوقع قتال وجدال ضارٍ بين الطرفين، ومن حكمة الله تعالى، أن استشهد في البداية الباش قبطان «سليمان» و نائبه «رجب»، كما ذاق بعض الأشخاص الأبطال والمشهورين من سائر غزاة الإسلام شهد الشهادة في تلك الحرب، وتمزقت معظم السفن أيضًا؛ بسبب ضرب مدافع العدو، وبينما كانوا يوشكون على الهزيمة التامة، أوقف الطرفان القتال؛ نظرًا لحلول المساء، ولكن بينما كانت إحدى السفن من نوع «بارجة» على وشك الغرق في ذلك الوقت؛ بسبب أنها تضررت كثيرًا، اندفع الغزاة الذين كانوا بداخلها إلى ساحل «برلار»، لإنقاذ رءوسهم، فتعقبهم الكفار، حيث قتلوا وأسروا بعضهم، وربطوا بعضهم الآخر بالسلاسل، وعلى إثر ذلك رأى «مراد بك» أنه لا يمكن التوجه إلى الناحية التي كان يريد التوجه إليها؛ حيث اضطر إلى العودة إلى البصرة مرة أخرى، ولما كان من الواجب عرض واقع الأمر مرة أخرى على البلاط العثماني، فقد تم عرض ذلك الوضع وشرحه على البلاط السلطاني.

في ذكر تكليف «سيدي علي قبودان» بإحضار الأسطول الموجود في البصرة إلى السويس ونبذة عما حدث وجرى معه في الجبال والصحارى أثناء الطريق

لما رفعت عروض أمير أمراء البصرة في ذلك الحين باختصار إلى العرش الذي هو مصير العالم، عهد بقبطانية مصر إلى كتخدا الترسانة «خضر كتخدا بك أوغلو سيدي

علي قبودان» وهو من رؤساء الترسانة العامرة، وممن كانت لديهم خبرة في علم البحار وكان قد قام بحملات مع الأسطول عدة مرات، واشترك في عدة معارك مع المرحوم الغازي «خير الدين باشا» وكان رجلًا شجاعًا في نفسه ونادر الأقران في علوم المعرفة حتى صدرت له بعض المصنفات في علم الهيئة والنجوم وكان رجلًا ذا كفاءة وسخاء، وفي غرة المحرم الحرام سنة إحدى وستين وتسعمائة هجرية[1]، تحرك من مشتى «حلب الشهباء»، وتوجه صوب البصرة، ولما أكمل مهماته في البصرة، تحرك من البصرة في غرة شهر شعبان المعظم[2] بخمس عشرة قطعة سفينة من نوع «بارجة» و«قاليتة» و«قادرغة»، ووصل إلى «قطيف» بسواحل «لحسا»، وبعد ذلك وصل إلى البحرين، وأسر أسيرًا من سفينة أحد الكفار في جزية «خارك» تجاه مدينة «الري»، وعندما استخبر منه عن أسطول الكفار، أخبر الأسير بأن قبطان البرتغال يحاصر القلعة المعروفة باسم «دوبول» في ساحل الهند بخمس وثلاثين قطعة سفينة، ثم بعد ذلك استفسر عن الأسطول الذي في البصرة، وأرسل اثنتي عشرة سفينة كاملة العدة من نوع «قاليون» للتجسس على هؤلاء، ومن ثم عقد عنان العزيمة للتوجه إليهم، وفي اليوم العاشر من رمضان من السنة المذكورة[3] دخل الطرفان في حرب مع بعضهم، وبعد حرب وقتال ضارٍ، هبت بعناية الله رياح النصر والظفر من جانب أهل الإسلام، وبعد ذلك ذهب صوب رحلته.

وفي اليوم الأربعين تقابل بعشرين سفينة من نوع «بارجة» و«قاليون» و«غراب» للكفار بالقرب من «خورتكان»، حيث دارت المعركة والجدال والحرب والقتال الحامي الوطيس بينهما من وقت شقشقة الطيور وحتى وقت العشاء، وهنا أيضًا أصبح أهل الإسلام مظفرين ومنصورين بعناية الملك الغفور، وبينما كان «سيدي علي قبودان» في طريقه، وبعد سبعة عشر يومًا يهجم عليه القبطان «غوزنه دورك كوه» الذي كان في رتبة «باش قبطان» بأربع وثلاثين قطعة سفينة، ومع أن إحدى سفن «سيدي علي قبودان»

---

(١) الموافق ٧ من سبتمبر ١٥٥٣م.
(٢) الموافق ٢ من يوليو ١٥٥٤م.
(٣) الموافق ٩ من أغسطس ١٥٥٤م.

من نوع القادرغة اشتعلت فيها النيران بقذيفة من مدفع هاون، فإنه استطاع أيضًا إشعال النيران في إحدى سفن الكافر من نوع «بارجة»، ثم يتعقب خمسًا من سفن البارجة وخمسًا أخرى من نوع القادرغة إلى الساحل حيث دمرهم جميعًا، وفي النهاية نفدت طاقة المجدفين ولم تبق لديهم أي قدرة على القتال أو التجديف. وفي النهاية يرسو بالسفن في البحر، ويقاتل والسفن راسية في مكانها، وفي تلك المعركة يذوق حوالي مائتين من الغزاة شهد الشهادة، ولما كان معظم المجدفين «عربًا»، فإنهم كانوا يندفعون إلى الساحل. إلا أن السواحل التي كانوا يتجهون إليها كانت سواحل «نجد»، حيث يأتي أعراب «نجد» ويقومون بمساعدة كبيرة لهم، وعمومًا يصلون وهم على هذا الوضع في تلك المعركة بكثير من العناء، ثم وصلوا إلى «برجاش» في سواحل «كرمان». وبعد ذلك لما وصلوا إلى ميناء «شهبار»، قابلوا سفينة من نوع «قاليته» لأحد أفراد البحرية، فتحركوا بإرشادها إلى الميناء المعروف باسم «كوادر». وهناك تزودوا بالماء الكافي واستراحوا قليلًا ما. وكانت طائفة «بلوج» من أهالي تلك الولاية، وكانوا يطلقون على سلطانهم اسم «ملك جلال الدين بن دينار»، وكانت عاصمتهم أيضًا هي «بندر كوادر»، فعرض هؤلاء ولاءهم للسلطان صاحب السعادة وصرفوا جهدهم في تقديم الزاد والزواد، وإعطاء المرشدين لهم وإرسالهم معهم، وبعد ذلك دخلوا إلى بحر الهند يعني إلى البحر المحيط. وبإرادة الله ظهر الطوفان الذي يطلقون عليه «طوفان فيل»، ولم يستطيعوا تمييز النهار من الليل ولا الليل من النهار على مدى عشرة أيام وعشر ليالٍ، ولذلك اضطروا إلى إلقاء معظم أحمالهم وأثقالهم إلى البحر، وفي النهاية غمرتهم عناية الحق وهدأ الطوفان، فيدخلون إلى خليج «كجد». ولكن، يبيض لون ماء البحر بالتدريج فيخرج المرشدون قائلين: «إنها علامة الدوامة». وبعد أن تخطوا الخوف الكبير، تتيسر لهم النجاة. ثم يصلون إلى ساحل «كجرات» تجاه قلعة «ديوه»، ولكنهم تعبوا من تلاطم الأمواج ليل نهار بهذا القدر العظيم. وتم تزويد معظم السفن هناك بالماء حتى وصلت إلى المرتبة التي تبدو كما لو كانت لم تستخدم بعد. وبعد ذلك وصلوا إلى ميناء «دامن»، وعندئذ أيقن معظم أهل الأسطول أن النزول إلى البر نعمة، وبصفة خاصة عندما وصلهم الخبر في ذلك الحين

بأن أسطول البرتغال في تلك السواحل، دخل معظم أفراد البحرية في خدمة «الأمير أسد» حاكم الميناء المذكور «دامن»، وفي ذلك الحين، أرسل «عماد الملك» ـ الذي كان وزيرًا للسلطان «أحمد» سلطان «كجرات» ـ أرسل شخصًا يعرف باسم «أغا حمزة» حارس قلعة «سرت» للاستخبار عن أسطول البرتغال، ولما أبلغ: «بأنه تم الاستخبار عن أسطول الكفار وأن الموقف في ميناء «دامن» وحالة الاستقرار خطيرة جدًا ومخالفة للعادة، وأنهم أي أسطول الكفار يسعون للوصول إلى ميناء قلعة «سرت» بأي طريقة»، وصل «سلطان أحمد» بمشقة عظيمة وعناء إلى ذلك المكان؛ أي «قلعة سرت»، وكان قد مرت ثلاثة أشهر كاملة منذ أن خرج «سيدي علي قبودان» من البصرة، وكانت أعين وقلوب اللوندات[1] والمجدفين الذين كانوا معه قد رهبت الموقف فدخل جميع من كانوا معه إلى خدمة «عماد الملك» و«خداوند خان» حاكم «سرت»، حيث بقي مع «سيدي علي قبودان» خمسون رجلًا فقط، وهم خواصه، فيساعده ويصادقه قائد مسلحي خدم «مصر» «علي أغا» و«مصطفى أغا» كتخدا إنكشارية مصر، وفي النهاية باع «سيدي علي قبودان» سفنه وسائر مستلزماته إلى حاكم «سرت» «خداوند خان» المذكور بشرط أن يتعهد بإرسال ثمنها إليه، ويأخذ السند ويذهب إلى «أحمد آباد» عاصمة «كجرات» في غرة المحرم سنة اثنتين وستين وتسعمائة هجرية[2]، ثم قام بالتجوال أحيانًا في بلاد الهند، وأحيانًا أخرى في بلاد السند و«كابل» و«سمرقند» و«بدخشان» و«خراسان» و«دهل» و«ملتان» و«إيران» و«توران»، وبصفة عامة قام بالطواف والترحال ثلاث سنين ونصف، وفي رجب سنة ثلاث وستين وتسعمائة هجرية[3] وصل إلى القسطنطينية بأنواع المحن الكثيرة، ولم يمكث أو يسترح هناك أيضًا بل توجه إلى «أدرنه» التي كان السلطان صاحب السعادة يقيم فيها آنذاك، وبعد أن سلم له الخطابات التي أحضرها معه من سلاطين العالم الذين قابلهم، وشرح ووضح له الأحداث التي مرت به المملوءة

(١) لوند: اسم يطلق منذ القدم على صنف من الجنود العاملين في البحرية.
- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. II، S. 358.

(٢) الموافق ٢٦ من نوفمبر ١٥٥٤م.
(٣) الموافق مارس ١٥٥٦م.

بالمعاناة، وجهت إليه وظيفة متفرقة[1] بثمانين أقچة، كما وجهت الترقيات لخدم مصر الذين أتوا معه، وقدمت إليهم الهدايا والإحسانات، وأُلبسوا الخلع، ثم ذهبوا إلى جانب مصر بموجب الأمر الشريف من أجل علوفتهم[2] السابقة وجرايتهم[3]، وبعد شهر عهد إليه أيضًا بمنصب دفتردار تيمار «ديار بكر».

في ذكر الأولياء الكرام والمشايخ العظام الذين تشرف المرحوم «سيدي علي قبودان» بزيارتهم في تلك الحملة المملوءة بالمخاطر والبلدان والقصبات والعجائب والغرائب التي شاهدها

لقد سبق بيان ذهاب وعودة المرحوم من تلك الحملة، وقد حرر ذلك باختصار بالقدر الذي يلزم «كتب» التواريخ، ولكن لما كان من الضروري إيراد بعض النوادر في كتابنا هذا، فإنني رجحت أن أذكر هنا الأسماء المباركة للأولياء والمشايخ العظام الذين تشرف بزيارتهم «سيدي علي قبودان» وأيضًا المدن والقصبات التي استراح بها، وذلك نقلًا عن الرسالة التي ألفها المشار إليه المعروفة باسم «مرآة الممالك»، ويرجى

---

(١) متفرقة: هو لقب كان يطلق على قسم من أرباب الخدمة الذين هم من نوع الفراش عند السلاطين أو الوزراء. وكان يوجد من بين أمراء القصر من هم يعرفون باسم «متفرقة باي» ... وكان رئيس هؤلاء المتفرقة يعرف باسم «متفرقه باشي». أما عددهم فلم يكن هناك قدر معين للعدد، وإنما كان يزداد ويتناقص العدد طبقًا لأراضي الحاكم.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. II، S. 637 – 638.

(٢) علوفة : كانت تستخدم بدلًا من كلمة المرتب أو الأجر. وهذا التعبير بينما كان يعني في بداية الأمر نقود العلف التي تعطى لحيوان الجندي السواري. واستخدم بعد ذلك بدلًا من كلمة «راتب» الذي يعطى للجند في عهود تواجد الإنكشارية، ولسائر الموظفين. وكانت تعطى العلوفة بحساب اليومية. وعند تأسيس فرق الإنكشارية، كانت تعطى لكل فرد علوفة بقدر أقچتين، ومع أنه كان يعين مقدار العلوفة بحساب اليومية، فإنها كانت تدفع كل ثلاثة أشهر وليس باليوم.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. II، S. 544.

(٣) جراية: تعبير بمعنى الطعام الذي يعطى من الوقف. ويصادف في وثائق «الأرشيف» تعبير «جراية الحرمين»، والحرمين تعني: المخصصات الخاصة بالفقراء والعلماء. وكان يطلق لفظ «جراية» في مصر على هذا النوع من الصدقة المخصصة للفقراء والعلماء.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. II، S. 280.

من جناب رب العالمين أن يستفاض من روحانيته بناءً على محبته الموجودة بقلبي لأظفر بمرادات الدارين، وقد كتبت أيضًا بالترتيب البلدان والقصبات التي دخلها في سياحته والعجائب والغرائب التي شاهدها. وبالله التوفيق.

ـ من تشرف بزيارتهم: وكان أول من قام بزيارته بعد خروجه من إستانبول هو سيد غازي رحمه الله. وفي «قونية» زار حضرة مولانا رحمه الله وسلطان العلماء رحمه الله، و«سلطان ولد» رحمة الله عليه، و«شمس تبريزي» رحمة الله عليه، و«شيخ صدر الدين قونوي» رحمة الله عليه، وفي «قيصرية» زار «شيخ أوحد الدين كرماني» رحمة الله تعالى عليه، و«برهان الدين محقق ترمزي» رحمة الله تعالى عليه ، وشيخ «بهاء الدين زاده» رحمة الله تعالى عليه، و«شيخ إبراهيم آقسرايي» رحمة الله تعالى عليه، و«شيخ داود قيصري» رحمة الله تعالى عليه، وفي «حلب»: زار «داود» النبي عليه السلام وحضرة «زكريا» عليه السلام و«بلقيا» النبي عليه السلام، ومن الصحابة : سعيد الأنصاري رضي الله عنه وسعد الأنصاري رضي الله عنه وقبور الصالحين رحمة الله تعالى عليهم، وفي الـ «رها»: مقام إبراهيم عليه السلام وفي الموصل: حضرة «يونس» النبي و«جرجيس» النبي عليهما السلام، و«شيخ محمد غر أردبيلي» رحمة الله تعالى عليه و«قضيب البان موصلي» رحمة الله عليه، وفي السامرة؛ أي سمراء: الإمام علي الهادي رحمة الله تعالى عليه، والإمام حسن عسكري رحمة الله تعالى عليه.

وفي بغداد: «يوشع» النبي عليه السلام والإمام الأعظم «أبا حنيفة» رحمة الله تعالى عليه، والإمام «أحمد بن حنبل» رحمة الله تعالى عليه، والإمام «يوسف» رحمة الله تعالى عليه، والإمام «محمد» رحمة الله تعالى عليه، والإمام «الغزالي» رحمة الله تعالى عليه، والإمام «محمد نقي» رحمة الله تعالى عليه، و«قنبر علي» رحمة الله تعالى عليه، والشيخ عبد القادر الكيلاني رحمة الله تعالى عليه، والشيخ جنيد البغدادي رحمة الله تعالى عليه، و«معروف كرخي» رحمة الله تعالى عليه، و«شيخ شلبي» رحمة الله تعالى عليه، و«سري سقطي» رحمة الله تعالى عليه، و«حلاج منصور» [أي منصور الحلاج] رحمة الله تعالى عليه، و«بشر خافي» رحمة الله تعالى عليه، و«جو مرد قصاب» رحمة الله تعالى عليه و«بهلول دانا»

رحمة الله تعالى عليه، و«فضيل بن عياض» رحمة الله تعالى عليه، والشيخ «شهاب الدين سهروردي» رحمة الله تعالى عليه، والشيخ «داود طايي» رحمة الله تعالى عليه.

وفي كربلاء: حضرة الإمام الحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومقابر الشهداء الذين استشهدوا في تلك الواقعة رحمة الله تعالى عليهم، وفي النجف: حضرة آدم عليه السلام ونوح النبي عليه السلام، وشمعون النبي عليه السلام، وحضرة المرتضى علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه، ومسجد الكوفة ومحاريب الأنبياء عليهم السلام ومنزل السعادة [لحضرة علي] المرتضى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومقام «قنبر» و«دلدل»، وفي طريق قلعة «حسن»: النبي ذا الكفل ابن هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وفي حلب: مقام صاحب الزمان الإمام المهدي رحمة الله تعالى عليه، والإمام عقيل شقيق حضرة علي رحمة الله عليه، و«مسجد عمس»، وفي طريق البصرة: سلمان الفارسي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وفي ناحية «ركه»: النبي عزيز عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وفي البصرة: طلحة والزبير وأنس بن مالك وعبد الرحمن بن عوف والصحابة الشهداء رضي الله عنهم ومسجد الإمام علي.

وفي طريق «مهرذي» من شط العرب: عبادان، ومقام خضر عليه السلام، وفي الجزيرة المحترمة يعني «خارك»: الإمام محمد حنفي بن الإمام علي، والصحابة الشهداء رضي الله عنهم، وفي المكان المعروف باسم «چركس» في ولاية «كجرات» : الشيخ «أحمد المغربي» رحمة الله عليه، وفي مدينة «پن»: الشيخ «نظام الدين پيرپني»، ومن المشايخ الذين هم نسل سيدنا محمد ﷺ تقابل مع الشيخ عبد الوهاب وتشرف بزيارة الشيخ «ميرك» والشيخ «جمالي». وفي نهاية قلعة «ماو»: التقى فيها مع الشيخ إبراهيم رحمة الله تعالى عليه، وزار الشيخ «جمالي» والشيخ «جلالي»، وفي مدينة «بلبان» تشرف بزيارة الشيخ بهاء الدين زكريا والشيخ ركن الدين، والشيخ صدر الدين رحمة الله تعالى عليه، والشيخ «محمد أجوبة».

وفي «دهلي» التي كانت عاصمة ولاية الهند: التقى بالشيخ قطب الدين «پيرولي» والشيخ «نظام الدين ولي» والشيخ «فريد شكر كنج»، و«مير خسرو دهلي»، و«مير حسن

دهلوي»، وفي «دللي» التي تقع في ولاية «جيلان»: قابل «سيد علي همداني»، وفي قصبة «جهان شبتر» في مملكة «توران»: التقى بحضرة «خواجه يعقوب جرخي»، وفي قرب «كوه شكرد»: تشرف بخواجه باك وخواجه نما، وفي سمرقند زار مقام «دانيال» عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومقام الخضر، وخرقة رسول الله ﷺ ونعلي حضرة الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ وقرآنًا مكتوبًا بالخط الشريف لحضرة علي، ومن المشايخ: صاحب الهداية الشيخ «أبا منصور ماتريدي» رحمة الله عليه، و«شيخ زنده»، وخواجه عبد الله شيخ الأحرار و«خواجه عبدي بيرون»، و«خواجه عبدي أندرون».و«خواجه چوبان»، وقاضي زاده الرومي.

وفي «بخارى»: چاريكر، ومقابر علماء ما وراء النهر، وقبر صاحب الأربعين ألف وأربعمائة فتوى، وأربعة مزارات شريفة، وفي «غجدوان» التقى بالخواجة عبد الخالق غجدواني، وفي «بخارى» زار حضرة خواجة بهاء الدين نقشبندي، وقاضي خان، وخواجه أبا حفص كبير، وصدر الشريعة وشيخ العالم وسيد الفصاحة بير خواجه بهاء الدين النقشبندي، والسلطان إسماعيل السماني، وحضرة ابن أيوب النبي عليه السلام، وكعب الأحبار وشمس الأئمة السرخسي، وفي مدينة «چارحوي» في ديار «خراسان»: زار خواجه مشهد شقيق الإمام علي بن موسى الرضا، وفي مدينة «خوي»: زار «بهلوان بير يارولي، وفي مدينة «خوارزم»: زار الشيخ نجم الدين كبرا، والشيخ علي رامتني، وشيخ الخلوتية، وإمام محمد رباعي، وصحب قدوري، وجار الله علامة وصاحب الكشاف، والمنلا حسين خوارزمي صاحب التفسير الشريف، وسيد آتا، وحكيم آتا، ومخدومى أعظم عبد اللطيف، وفي مدينة «طوس»: زار محمد حنفي، وفردوس الطوسي، وفي «مشهد» التي تقع في خراسان: زار موسى الرضا إمام علي، وفي «نيسابور» زار إمام زاده محمد محروق، والشيخ العطار، وفي «بسطام» زار الإمام محمد أقنح، والشيخ بايزيد البسطامي، وأبا الحسن خرقاني، وفي «دهان»: زار الإمام زاده جعفر، وفي «سمنان»: زار الشيخ علاء الدولة الساناني، وفي مدينة «ري»: زار الإمام عبد العظيم رئيس، وشهر بانو زوجة حضرة الإمام الحسين، وفي «قزوين»: زار إمام شهزاده حسين.

وبالقرب من المدينة المعروفة باسم «أبهر» زار «ابن حسين بن أخي أوران»، وفي أثناء عبوره من «قرمان»، زار شيخ «محمد دم تيز ابن خواجة أحمد يسوي»، وفي «همدان» زار حضرة عين القضاة الهمداني، وپير أبو العلاي مهاجر مكي حامل راية النبي عليه السلام، وفي جبل «پيستون» زار الإمام قاسم، وفي قرية «أويس القران» زار حضرة أويس القران . وفي «أرغني»: زار حضرة النبي ذا الكفل عليه السلام وفي «سيواس»: زار عبد الوهاب غازي، وعلي بابا، وفي مملكة الروم: زار «حاجي بكتاشي ولي»، و«يالم سلطان»، وفي «قير شهر» زار «أخي أوران» وفي «قير شهر» أيضًا زار «عاشق باشا»، وفي «أنكوري»: زار حاجي بيرام سلطان وأولاده الكرام، ومقام الخضر عليه السلام، وفي «كوينك» زار الشيخ «آق شمس الدين»، وفي «إيزنكميد»: زار «شيخ بني خواجه» طيب الله تعالى بنسايم الروح روحهم ووالى من غنايم الرحمة فتوحهم.

في ذكر الجزر والسواحل التي صادفها «سيدي علي قبودان» المذكور، ومر عليها بعد خروجه من البصرة وبعد ذلك المدن والقصبات التي وصل إليها من ناحية البر

في البداية خرج من البصرة، فتصادف بجزيرة «قيس» يعني «إسكي هرمز»، وجزيرة «برحته» و«حلفار»، وقصبات «كميراز» و«ليمه» التي تقع على سواحل «جياوي»، وبعد ذلك وصل إلى مدينة «خوزنكاه» وأدار في هذا المكان معركة عظيمة مع أسطول الكفار وانتصر عليهم فيها وأصبح هذا المكان مدينة لأهل الإسلام، وتم تزويد السفن بالماء حيث هدأ الجنود واستراحوا هناك.

وبعد ذلك أتى إلى قصبة «عمان» من ولاية «عمان» يعني مدينة «سنجار»، ثم إلى قلعة «مسكت» و«قلهات»، وفي هذا المكان حمل عليه الأعداء مرة أخرى فخاض حربًا ضروسًا معهم، وكان هذا الموضع عند قرى «نجد»، فأتى أعراب «نجد» وقاموا بمساعدته وإمداده، وبعد ذلك وصل إلى «كجي مكران» من ولاية «مكران»، ومن هذا المكان انتقل إلى «بندر شهبار»، حيث التقى بأحد أفراد البحرية من أهل الإسلام

في هذا المكان، وبإرشاد هذا البحار، تمكن من الوصول إلى ميناء «كوادر»، وكان يطلق على أهالي تلك الولاية الـ «ملج»، وكان يطلق على سلطانهم اسم «ملك دينار بن جلال الدين»، وفي هذه الأثناء أتى إليه حاكم «كوادر»، والتقى معه، وأظهر غاية إخلاصه للسلطان صاحب السعادة، وكان يقوم دائمًا بمساعدة أسطولنا وإمداده، الذي أتى إلى «هرمز» حتى إنه عندما أتى الأسطول قبل ذلك حمل إليه المذكور الذخيرة محملة على خمسين أو ستين قطعة من السفن، ولكن بعد أن تحرك الأسطول، لم يستطع أن يتقابل به، وفي هذه المرة أيضًا قدم الذخيرة لـ «سيدي علي قبودان» وأمده بمرشد، وأرسل خطابًا إلى السلطان صاحب السعادة.

وخرج من ميناء «كوادر» إلى بحر الهند، يعني البحر المحيط أي المحيط الهندي، وتقدم في سواحل اليمن، ولما عبر «رأس الحد» واقترب إلى ناحية «ظفاره» و«سجر»، وقع الطوفان المشهور بطوفان الفيل، ولم يستطع الناس أن يميزوا بين الليل والنهار لمدة عشرة أيام وعشر ليالٍ، وفي ذلك الحين، بعد أن سكن الطوفان واعتدل الجو، أمر بصعود رجل إلى صاري السفينة، حيث استدل على الطريق بمعابد الأصنام في ولاية «جامهر»، وبعد ذلك، جاء إلى بوغاز «ديو»، ولما كان بوغاز «ديو» تحت سيطرة الكفار، فقد عبره بغاية الاحتراز والخوف.

وبعد ذلك، عاد من ديار الهند إلى ولاية «كجرات»، وكانت «كجرات» تقع تجاه المضيق المعروف باسم «دامن»، وعندما أتى «سيدي علي قبودان» إلى البوغاز المذكور، كان يوجد حاكم يعرف باسم «ملك أسد» من طرف سلطان «كجرات»، ولما وصلت ثلاث من سفن «سيدي على قبودان» من نوع القادرغة إلى درجة الهلاك في تلك العاصفة التي وقعت هناك فقد قام بإخراج مدافعها ومستلزماتها وأدواتها الحربية ووضعها أمانة عند «ملك أسد» المذكور، وفي تلك الأثناء، كان «شابري» سلطان «كلكوته» قد أصبح في حالة أضعف من كفار البرتغال، وقد استماله «سيدي علي قبودان» لتقوية عزمه قائلًا: «إنه سيأتي عن قريب أسطول عظيم من مصر»، وفي هذه الأثناء أحاط «ملك أسد» علمًا بأسطول الكفار، ولما أبلغ هذا قائلًا: ليس من المناسب أن يبقى الأسطول الهمايوني

في ذلك المكان وليست هناك حيلة سوى أن يتوجه إلى الميناء المعروف باسم «سرت»، قام الغزاة بالتوجه إلى «سرت»، ولكن، دخل معظم أفراد البحرية العثمانية في خدمة «ملك أسد»، وبعد أن وصل أيضًا سائر أفراد البحرية والمجدفين «سرت»، خرجوا من الأسطول، حيث اضطروا إلى ترك جميع سفنهم في ذلك المكان، وهو أيضًا أي «سيدي علي قبودان» قرر أن يعود من البر إلى إستانبول مع الخمسين رجل الذين بقوا معه.

وكانت «دمن» و«سرت» و«بروج» و«كيانه» و«سومنات» و«منكلور» و«فورميان» مواني في «كجرات»، ولكن كانت دار إمارتها مدينة «أحمد آباد»، وبعد أن خرج «سيدي علي قبودان» إلى البر جاء إلى «أحمد آباد»، وبعد ذلك وصل إلى «بتن»، ثم إلى «رادنبور»، وبعد ذلك إلى السند ثم إلى «وانك» على حدود السند، وبعد ذلك إلى مدينة «جون»، ومدينة «باغ فتحن»، و«تته» دار إمارة السند أي عاصمتها، وكان سلطان السند في ذلك العصر «شاه حسن ميراز»، وكانت عاصمته قلعة «نصرت آباد»، وبعد مدة طويلة قضاها في ميناء «لاهور»؛ أي في ممالك السند؛ يتوجه إلى «سباوان»، وبعد ذلك إلى قلعة «بكر»، ثم إلى قلعة «ماو»، وبعد فترة إلى مدينة «ملتان»، وبعد ذلك إلى «صد كرب»، ومنها عاد إلى «لاهور»، ومدينة «سحرند»، وبعد ذلك إلى قلعة «مانكوت»، ولما أحيط سلطان الهند «همايون بادشاه» علمًا بخبر هؤلاء؛ أي بسيدي علي قبودان ومن معه، أرسل خان الخانات مع أربعمائة فيل وعدة آلاف من العسكر لاستقبالهم تعظيمًا لسلطاننا؛ أي السلطان العثماني، وفي خمسة عشر من ذي القعدة من السنة المذكورة يأتون إلى مدينة «دهلي» عاصمة السند بالتعظيم والتكريم؛ وينعم «همايون بادشاه» على المذكور يعني عيَّن له علوفة قيمتها مائة غروش، ويحاول ويسعى كثيرًا لإبقائه في الهند، وبصفة عامة عين لكل واحد ممن كانوا مع «سيدي علي قبودان»؛ أي أنه عين على هذا الحساب نحو مائة ألف غروش لهم، ولكن لم يرض المذكور أي «سيدي علي قبودان» ويطلبون العودة، وفي النهاية، يطلب «سيدي علي قبودان» من المذكور أي «همايون بادشاه» البقاء لتحصيل علوم الخسوف والكسوف بحساب الأسطرلاب، ويحاول «همايون بادشاه» قائلًا: «ستبقى في هذا سنة كاملة» وعمومًا، لما قام بتحصيل

ذلك العلم، فلم يتركهم «همايون بادشاه» ولم يقصر أيضًا في رعايتهم، ويتعلم «سيدي علي قبودان» هذا العلم في ثلاثة أشهر، وكان «سيدي علي قبودان» صاحب علم وفير في ذلك الميدان، والآن لم يُعرف أن هناك شخصًا في بلاد الروم ـ وربما في الشام ومصر وحلب ـ قادر على استخراج الخسوف والكسوف بالأسطرلاب غيره، والذين يقومون بهذا إنما يستخرجونه من خلال تحركات النجوم والكواكب.

وفي ذلك الحين، وبعد أن أُذن لهم أي لسيدي علي قبودان ومن معه بالذهاب، كان السلطان يعرض نفسه ليلة الجمعة على أفراد العسكر وجميع الناس في قصر كانوا يطلقون عليه «كورونش» وفقًا لقوانين أو مراسم تلك البلاد، وكانت تجتمع آلاف كثيرة من الرجال في نواحي القصر، وفي ذلك الوقت، بينما كان يتكئ على عصاه عند رأس السلم تنزلق قدمه ويسقط؛ حيث توفي في اليوم الثالث، ويصبح ابنه «جلال الدين أكبر» سلطانًا مكانه، وحتى المرحوم «سيدي علي قبودان» يؤرخ لهذا الحدث على هذا النحو: (عندما تسمعون هذا الخبر المؤلم قولوا باكين تاريخ وفاة همايون بادشاه).

وعندما فتح أيضًا قبل ذلك العاصمة المعروفة باسم «أكره» كان قد أرخ لهذا الحدث بذلك المصرع: (فلتكن «أكره» مباركة على السلطان)، وفي مقابل هذا التأريخ كان قد غمر بعظيم الرعاية والنعم.

وعلى أية حال فقد تحركوا من «دهلة» في ربيع الأول، ووصلوا إلى «لاهور» وبعد ذلك إلى «صونى بت»، و«باقي بت»، و«قرتال»، ثم إلى «ثاني سر»، ومدينة «ثماني»، و«ماجوار»، ووصلوا إلى «أندر باجواري» وبعد ذلك عادوا ثانية إلى «لاهور» ومنها إلى «كابل» عابرين بحر «بهره»، وبحر «خوشاب»، ونهر «نيلاب» عابرين بعضهم بالسفن، والبعض الآخر يقوم بصف الأخشاب وربطها ثم العبور بها، وكانت «كابل» عاصمة ولاية «زابلستان»، وكانت مدينة عامرة وجميلة جدًا، وكانت حدائقها وبساتينها وأنهارها تفوق حد التعبير والوصف، وبعد ذلك، وصلوا إلى ولاية «قلان» و«بدخشان» وإلى مدينة «أندران» و«تالقان»، وكانت مدينة «كشي» هي عاصمة «بدخشان»، وبعد ذلك

أتوا إلى مدينة «رشطاف»، ثم إلى ناحية «بندر»، وتم عبور نهر «آمو»؛ يعني «جيحون»؛ وبعد ذلك أتوا إلى «دللي»، ثم إلى مدينة «كولابي»، وبعد ذلك إلى «بازارنو»، وبلدة «جهان سنبر» في بلاد «توران»، وبعد ذلك إلى «جغابتان»؛ يعني «حصار شادمان»، ثم إلى مدينة «دهنور». ثم إلى قصبة مصر، ثم إلى «سمرقند».

وكان السلطان صاحب السعادة قد أرسل عددًا من مسلحي الإنكشارية وبعض المدافع من نوع «ضربزن» كمدد لـ «براق خان» مع الـ «شيخ عبد اللطيف» سفير «براق خان»، ونظرًا لوفاة الـ «شيخ عبد اللطيف» المذكور، لم يستطع «براق خان» الاستفادة من ذلك. وسقط كتخداوية الروم؛ أي العثمانيين قتلى بعد كثير من القتال والجدال؛ فعاد الشخص الذي كان أغا الروم أي العثمانيين إلى بلاد الروم ثانية بطريق «طشكند» و«تركستان». واتجه أيضًا «أحمد جاويش» الذي كان موجودًا معهم إلى بلاد الروم أي الدولة العثمانية بطريق «بخارى» و«خوارزم»، ووصل أيضًا عدد من جند الإنكشارية الذين كانوا معهم إلى «سيد برهان»، وذهب عدد آخر منهم إلى جانب أبناء «براق خان». وبقي بجواره ما يقرب من مائة وخمسين رجلًا فقط.

ويقول «سيدي علي قبودان»: إنه لما سألت «براق خان» عن هذه الأحوال، رد قائلًا: «ماذا أفعل؟ لقد أصبحنا كذابين أمام السلطان صاحب السعادة، ولم نستطع أن نقوم بأي عمل، ولكن لو أنك ساعدتني، لكان من المأمول أن ينفذ العمل»، ولكنني عندما قلت له: «إنني لن أستطيع القيام بأي عمل دون أمر من سلطاني»، قام بتعيين «حيدر عالم شيخين» من أولاد الـ «شيخ أحمد يسوي» سفيرًا، وأعطى له الإذن وأرسله قائلًا لي: «الآن ينبغي أن أصحبك بسفير وأن أعرض الوضع على السلطان».

فليرحم حضرة الحق سبحانه وتعالى المرحوم السلطان «سليمان خان غازي». فهذه هي همة السلاطين، فأين «طشكند» وأين «سمرقند» حتى ينبغي أن يرسل العسكر والمدافع والضربزن إلى سلطانها من أجل غيرة الدين، فهذه ما أسعدها غيرة وحمية سلطانية، وما أجملها إعانة وحماية للإسلام.

وبعد ذلك عبر إلى المدينة المعروفة باسم «قلعة» في «بخارى»، ثم إلى مدينة «كرميني»، وبعد ذلك إلى «سمرقند»، وذهب إلى «بل رباط» وإلى مدينة «خراروس» ثم إلى مدينة «حيوان» ثم إلى ولاية «خوارزم» وبعد ذلك ضل الطريق في صحراء «قبچاق» أكثر من شهر، ولما حل موسم الخريف، قل توفر الماء فلم توجد قطرة من الماء ولم تبق ورقة ولا عشب على الإطلاق، ثم وصل إلى الموضع الذي يقولون عليه اسم الشام، ثم إلى «سرابـچوغ»، وبعد ذلك إلى مدينة «دورون» في ولاية «خراسان»، ثم إلى مدينة «باغ وا»؛ ثم إلى «لسا»، ومدينة «طوسي»، ومدينة «خراسان»، وبعد ذلك وصل إلى «عراق العجم»، و«مازندران» و«بسطام»، ثم إلى «دمغان»، ثم إلى «سيمان»، وإلى مدينة «الري»، وبعد ذلك وصل إلى «قزوين»، ثم إلى مدينة «درگزين» وإلى «همدان»، وقصبة «سعد آباد»، ثم إلى «كوردستان» بطريق «كوه الوند»، و«نهاوند»، وبعد ذلك إلى «كوه بى ستون» وقلعة «زنجير» ومدينة «بان»، ثم وصل إلى «بغداد» معمورة الجنان، ومنها يصل إلى القسطنطينية المحمية دار السلطنة العلية في رجب المرجب سنة ثلاث وستين وتسعمائة.

في ذكر العجائب والنوادر التي شاهدها المرحوم «سيدي علي قبودان» في سياحته

ـ وإحدى هذه العجائب: إنه عندما عبر من إحدى نواحي فارس أي من سواحل «شيراز» التي كانت مدينة «الري» ميناء لها، ووصل إلى البحرين، كان الشخص المعروف باسم «مراد رئيس» حاكمًا في تلك الديار تقريبًا، وكان البحارة يغوصون ثمانية باعات وربما أكثر أو أقل في عمق بحر هذا المكان، وكانوا يحضرون القرب، ويملئونها بالماء من عمق البحر ثم يحملونها إلى حكامهم وسائر أعيانهم، وكان هذا الماء أبرد وألذ من كل المياه في أيام الصيف، وكان ذلك الماء هو الذي يشربه الحاكم المذكور دائمًا. فأرسله أيضًا إلى «سيدي علي قبودان»؛ تبركًا، وقال «سيدي علي قبودان»: «نحن أيضًا وجدناه على هذا النحو»، وقال: «بسبب أننا كنا هناك، كنا أيضًا نشرب من ذلك الماء»، وكان أهالي

تلك المملكة يقولون: إن الآية الكريمة ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾[1] في القرآن العظيم قد نزلت في حق هذا الماء، وهذا هو السبب في تسمية تلك المدينة باسم البحرين.

ـ ومن النوادر: أنه رأى أسماكًا في طول سفينتين من نوع القادرغة، وذلك أثناء الطوفان الذي كانوا يطلقون عليه اسم طوفان «فيل»، ورأى فرس البحر، وقد كتب أنه رأى ثعابين كبيرة جدًا وسلاحف في حجم جرن الغلال، وقد أخبر مرشدوه بأن هذا علامة على الاقتراب إلى البر.

ـ ومن العجائب: إنه كانت توجد شجرة تعرف باسم «ناری أغاجی» في نواحي القلعة المعروفة باسم «سرت» الواقعة في مملكة «كجرات»؛ وكانت مثل شجر التمر؛ وكانوا يقطعون طرف كل غصن، ويدخلونه في إناء لوضع الماء، فيرشح ماء تلك الشجرة في ذلك الإناء حتى يملأه؛ ويتخمر بحرارة الشمس، ويصبح خمرًا وكان يشربه شارب الخمر في تلك الديار بدلًا من الخمر، وكانوا يقيمون مجالس الشرب دائمًا عند جذوع هذه الأشجار، وقد كتب «سيدي علي قبودان» أنه أسكر بعض جند السفينة، وقتلوا واحدًا من بينهم.

ـ ومن العجائب: إنه في الوقت الذي كان فيه «سيدي علي قبودان» متوجهًا إلى «أحمد آباد» بطريق «جانيامز» في الولاية المذكورة «كجرات»، شاهد أشجارًا وصلت قممها إلى السماء، وكانت توجد عليها طيور عظيمة الجثة تطير ليلًا؛ يعني طيورًا شديدة من سلالة الخفافيش، ويقول «سيدي علي»: وقد قسنا المسافة التي كانت بين جناحي الواحد منها فكانت أربعة عشر شبرًا، وكان لا يوجد حصر لهذا النوع من الخفافيش فوق كل شجرة. وكان فرع وغصن الشجرة المذكورة الذي يعلو إلى الفضاء، يميل أيضًا من أعلى إلى أسفل، وينحني حتى يصل إلى الأرض، ثم يتحول إلى جزع مرة أخرى، وينمو من الأرض، ويصير شجرة أخرى. وهكذا تصبح كل واحدة حوالي عشرين أو ثلاثين شجرة، فمثلًا كان ممكنًا أن يستظل عدة آلاف من الرجال في ظل واحدة فقط

(١) سورة الرحمن الآية (١٩).

من تلك الأشجار وكانوا يطلقون على تلك الشجرة اسم «طوبى»، وكانت توجد أيضًا شجرة الزقوم في هذا الطريق نفسه، فلا يمكن أن تكون هذه الشجرة خلاف ذلك.

ـ ومن النوادر: أن الببغاوات في تلك الديار كانت كثيرة جدًا في مثل كثرة الحمام في بلادنا، وكانت القرود أيضًا كثيرة جدًا، وقد كتب «سيدي علي قبودان» قائلًا: «كانت تتجمع العدة آلاف من القرود في أطرافنا في كل مكان ننزل به، ويحمل معظمهم صغاره في أيديهم وفي أبطنهم وعلى أكتافهم، وكانوا يلعبون ويسيرون تجاهنا وعندما يحل المساء كان كل واحد منهم يعود مرة أخرى إلى مكانه المحدد».

ـ ومن البدائع: أن أبناء السبيل والتجار في الولاية المذكورة «كجرات» كانوا يتخطون المخاطر، ويمرون بخوف شديد على الكفار الذين يطلق عليهم اسم «كفار راشبوت»؛ أي قطاع الطرق الذين يركبون الجياد من كفار الهند، ولكن كانت هناك طائفة يطلقون عليها اسم «بات»، وتتكون طائفة «بات» هذه من كفار «باينان» أي من أغزرهم علمًا طبقًا لاعتقاداتهم الفاسدة. فكان هؤلاء يضمنون توصيل التجار وأبناء السبيل من مكان إلى آخر، وفي مقابل هذا، كانوا يأخذون أجرة، وبهذا يصبح أبناء السبيل سالمين من اعتداءاتهم، وكان هؤلاء أيضًا يعملون ويكسبون على ذلك النحو، فإذا وجد فرد من طائفة الـ «بات» بجانب التجار وأبناء السبيل، كان لا يتعرض أي من الأشقياء لحرمة المارين، ولا يؤذونهم، فمثلًا لو تعرضوا لهم، كان ذلك الـ «بات» يضرب نفسه بخنجره ويموت، وبعد ذلك كانوا يبحثون عن الملاعين الذين كانوا كبراء الكفار الذين يطلق عليهم اسم كفار «راشبوت»، ثم يحقرونهم ويقومون بقتلهم معًا مع أولادهم وأقربائهم.

ـ ومن النوادر: كتب «سيدي علي قبودان» أنه رأى نملًا أكبر من العصفور في طريق قلعة «ماو» في ولاية السند.

ـ ومن العجائب: أن أهل «كجرات» كانوا يطلقون على كفار الهند اسم «تابيان» وكان أهل «هندوستان» يطلقون عليهم اسم «هندو»، وكان لا يوجد كتاب لدى هؤلاء

أي لا توجد لديهم ديانة. وكانوا يقولون بقدم العالم، وعندما يموت أي فرد منهم، كانوا يحملونه على أي فرد، ثم يحضرونه إلى ساحل البحر، ويشعلون فيه النيران، فعندما يموت الرجل، وتبقى المرأة، فلو كانت المرأة التي بقيت بعد الرجل قد بلغت سن الثمانين، كانوا لا يتعرضون لها، ولكن لو كانت المرأة في السن الذي سوف يصل بها إلى رجل آخر، قطعًا كانوا يحرقونها، وإذا قامت المرأة بالدخول في النار والاحتراق برغبتها، كان يفتخر بها أهلها وأقاربها، ويقيمون الأفراح، ولو عاندت المرأة التي مات زوجها، كانوا يحرقونها بالإكراه، ولكن إذا أنقذها بعض رجال البحرية من أهل الإسلام تصبح ملكًا لهم ولا يأخذونها من أيديهم ولا حتى يطلبونها، ولهذا السبب كانوا في تلك الأثناء، يأخذون حارسًا من كبرائهم، ويجعلونه ينتظر على رأس الميت حتى يحترق.

- ومن العجائب: إنه كان يوجد في الهند بعض الظباء المدربة، وكانوا يضعون حبلًا في قرني كل واحد منها، ولما كان يظهر غزالًا وحشيًا، وبسبب أنه من جنسهم، كانوا يشمون ويلعقون بعضهم بعضًا، ويتضاربون بالقرون، وبينما هم على هذا النحو، كان يتم لف الحبل على قرن ورقبة الغزال الوحشي، وكلما تحرك الغزال الوحشي، يلتف الحبل أكثر حتى يطوقه، ثم يأتي الصياد ويصطاد الغزال، وكان صيد الغزال في جميع بلاد الـ «هندستان» يتم بهذه الطريقة.

- ومن النوادر: إنه كان يوجد حيوان يعرف باسم «كاوميش»؛ أي الثور المائي في الصحراء، وهو حيوان وحشي جدًا، ويقوم الصياد بعمل مخبأ لنفسه على ظهر الفيل، ثم يربطه، ويدخل داخله، ثم يسوق الفيل إلى الأرض التي كانت موطن حيوان «كاوميش»، ولما كان يقابل «الكاوميش» يضربه الفيل بشدة بسنته «العاج»، فيوقف الكاوميش، عندئذ كان الصياد يخرج من ذلك المخرج الذي يحتمي به ويضربه أو يذبحه، وكان يصطاد أيضًا الحيوان المعروف باسم «كاو قسطاس» بتلك الطريقة نفسها، ولكن كانت لديه قوة غير موجودة عند أي حيوان آخر، فلو ضرب فارسًا بلسانه يقضي عليه، حتى إن «سيدي علي قبودان» ينقل عن سلطان «هندستان» «همايون بادشاه» أنه في أحد الأيام، بينما كان أحد الرجال يطارد الحيوان المعروف باسم «كاو قسطاس»، يبقى

ذلك الشخص بلا حيلة، فيرقد ويتمدد، يعني يريد بهذا الوجه الخلاص من شر ذلك الحيوان، وعلى الفور يقضي هذا الحيوان على ذلك الرجل بلحسة واحدة من لسانه من ظفره إلى رأسه، وكتب «سيدي علي قبودان» في رسالته أن «همايون بادشاه» قام بالقسم باليمين بينما كان يتحدث بتلك الكلمات السالفة الذكر، وكان أحسن «قسطاس» يوجد في البحر، ولهذا السبب أطلقوا عليه «قسطاس بحري».

ـ ومن العجائب: رأى «سيدي علي قبودان» صغار الحيوان المعروف باسم «كركدان» في جبال مدينة «جوشاپي»، وكان جسم كل واحد منهم في حجم الفيل الصغير، وكانت قرونهم بارزة في جبينهم بمقدار شبرين، ولكن من الشائع والمشهور أن حيوانات «كركدان» الموجودة في الـ «حبش» أكبر من هؤلاء.

ـ ومن النوادر: أن من عجائب جبل «سنكرد» في مدينة «دهنو» الواقعة في ولاية «توران» نزول قطرات الماء بلا انقطاع كالمطر في ذلك المصيف حتى يصبح مكانها عبارة عن نهر عظيم ويجري هذا الماء كالنهر.

ـ ومن البدائع: أن الأسود كانت كثيرة جدًا على طريق «خوارزم» بساحل نهر «آمو» في مملكة «خراسان»، وكان من المحال أن يتمكن رجل أو رجلان من الذهاب إلى هناك ويأخذان ماء، وقد كتب «سيدي علي قبودان» في هذا الخصوص قائلًا: إننا كنا نحصل على الماء بالقتال مع الأسود.

في ذكر حرب المرحوم السلطان سليم خان مع أخيه السلطان بايزيد خان في أثناء فترة إمارتهما وفرار السلطان «بايزيد» إلى شاه العجم وما حدث له هناك ونهاية أمره

كان ذلك في سنة ٩٦٦ هجرية[1]، بينما كان ظل عدل حضرة السلطان «سليم» مبسوطًا على سنجق «مغنيسا»، وظل عدل السلطان «بايزيد خان» مبسوطًا على سنجق

(١) الموافق سنة ١٥٥٨م.

«كوتاهية»، قام السلطان صاحب السعادة وعالي الجاه بإرسال السلطان «سليم خان» إلى «قونية» والسلطان «بايزيد خان» إلى «أماسية»؛ نظرًا لأنه كان من المقرر في الخاطر الهمايوني تبديل سناجقهم، وإرسال كل واحد منهم إلى سنجق آخر، فقبل السلطان سليم الأمر السلطاني قائلًا: «سمعًا وطاعة»، ولكن السلطان «بايزيد» تألم جدًا بإرساله إلى سنجق بعيد، بينما كانت «كوتاهية» قريبة من العاصمة العلية، فقدم بعض الأعذار وأرسل خطابات الرجاء لإبقائه في «كوتاهية» مرة أخرى، أما السلطان «سليم» فقد تحرك وأتى إلى «بروسه» وعرض الأمر على السلطان المغفور له قائلًا: «كان من المفترض الالتقاء بـ«بايزيد خان» بعد ثلاثة أيام على أساس أنه ذاهب إلى «أماسية»، فاحذر إيقاظ الفتنة».

وفي الحال أرسل السلطان صاحب السعادة الذي لطفه وإحسانه كالبحر بلا حدود الوزير الثالث «محمد باشا» إلى السلطان سليم والوزير الرابع «برتو باشا» إلى السلطان «بايزيد» بخطاب شريف إلى كل واحد منهم على سبيل النصيحة، وتفضل بأنواع التهديد والتأكيد عليها، وأمر وأوصى بشدة من أجل ألا يخالفا الأمر، وفي هذه المرة، لم يستطع السلطان «بايزيد» المخالفة وذهب صوب طرف «أماسية»، ولكن أرسل الخطابات المملوءة بالتوبيخ إلى أخيه الـ «سلطان سليم» وطلب منه المبارزة، ولم يكتف بهذا، بل أرسل له مرة أخرى نقابًا وخيمة نساء، ونسج نسيج الفتنة والفساد، وقام السلطان سليم أيضًا بإرسال خطابه بعينه وهديته غير المرغوب فيها ـ التي أرسلها ـ إلى بلاط السلطان ذي الجاه، ولما أصبحت أحوال «بايزيد خان» غير اللائقة وتصرفاته وأفعاله التي تدل على العصيان معلومة للسلطان صاحب السعادة، شعر بعدم رزانته وبقلة عقله، ولم يبق لدى علمه الشريف أي شك في أنه لا يليق بالتاج والعرش السلطاني، ولا يستحق حماية الملك والملة.

ـ تحقيق آخر: أما المرحوم «عالي أفندي» في البداية كاتب ديوان «لالا مصطفى باشا» في الشام الشريفة، وبعد ذلك أصبح «باش كاتب» مشهورًا في كتابة تذاكر «لالا مصطفى باشا» الذي كان آنذاك سردارًا على العجم، حتى إن الخطابات، وعروض الفتح،

والمكاتبات والمراسلات المرسلة إلى شاه العجم في تلك الأثناء جميعها من آثار قلمه البليغ؛ أي أنه بسبب أن بقي في خدمة «لالا مصطفى باشا» المشار إليه سنين طويلة، فقد دون أحيانًا ما كان قد سمعه عن لسان «لالا مصطفى باشا» وأحيانًا ما كان قد سمعه من بعض الثقات، وخصوصًا، لما كان «مصطفى باشا» ممدوحه، كان يعرفه أحيانًا بـ «الإسكندر» ويشبهه أحيانًا أخرى بـ «صاحب قران» وكان يرفع شأنه إلى السماء بسلم الوصف، ولا يمكن أن يكون ما كتبه مخالفًا للواقع؛ ولذلك فلا ريب في أنه كان صالحًا للاعتماد عليه، وعلى الرغم من كل ذلك يقول «عالي أفندي» في تاريخه عن هذا الموضوع: «إن مكر وفتنة لالا مصطفى باشا وإلقاءه بالمرحوم السلطان بايزيد في فخ البلاء، هو السبب والباعث على الحرب بين الأمراء، وإن قلة الشرف وسوء السمعة هي آثار حيله وخدعه»، ويوضح هذا السر المخفي ويشير إليه على هذا النحو: كان «مصطفى باشا» مشهورًا منذ البداية بتعلقه الشديد ببلاط السلطان بايزيد، ولكن الوزير الأعظم «رستم باشا» كان يحقد على المذكور «مصطفى باشا» قائلًا في قرارة نفسه: «إنه من أتباع الوزير أحمد باشا المقتول»، ومن أجل هذا جعله في وظيفة «جاشنكير باشي» مع وظيفة العرض على السلطان، بينما كان يشغل وظيفة رئيس الإسطبل الصغير، وبعد ذلك جعله أميرًا على سنجق «صفد».

وبسبب أنه كان مشهورًا بتبعيته للسلطان بايزيد، قام الوزير الأعظم «رستم باشا» بتعيينه في وظيفة «لالا»[(١)] في عام ثلاثة وستين وتسعمائة هجرية[(٢)]، وأرسله إلى خدمة السلطان سليم بقصد أن يقوم السلطان سليم بقتله والقضاء عليه، أما «سلطان بايزيد» فأرسل رجلًا خلف «مصطفى باشا» بينما يأتي من «صفد» إلى «مغنيسا» حيث أراد أن يبقيه بجواره، وكان يقصد عرض الأمر بعد ذلك على السلطان صاحب السعادة، حيث رجا منه تعيينه «لالا» له، وما إن علم «مصطفى باشا» بتلك الأحوال حتى أرسل خطابًا إلى بلاط السلطان «بايزيد خان» يوضح له فيه عبوديته، وجاء في خطابه: «إن العمل على

(١) كان يطلق هذا الاسم على مربي أولياء العهد.
(٢) الموافق سنة ٥٥/١٥٥٦م.

إبراز عظمة الأمير السلطان «بايزيد» صاحب العزة في الوقت الذي أكون فيه في خدمة «سلطان سليم» أسهل بكثير من السعي لإبراز هذه العظمة في الوقت الذي أكون فيه في خدمتكم الشريفة، فلو تقرر في خاطركم الشريف أن تحتجز عبدكم في هذه المرة، سيفهم أنك خارج على السلطان صاحب السعادة، وهذا ليس لائقًا بك»، أما المرحوم «سلطان بايزيد» فكان بريئًا من الحيل والخدع وضميره صافيًا جدًا، وكان يصدق كل كلام يسمعه وكان رجلًا تغلب عليه مشاعره.

ومعظم السلاطين رفيعي الشأن الذين أتوا من تلك السلالة الجليلة الرفيعة موصوفون بتلك الأوصاف الحميدة، ومن الأمثلة على ذلك؛ لقد سمعت من المرحوم «قورد بك بن ديكر مصطفى باشا»، وكان «لالا» لحضرة السلطان «محمد خان الثالث» فاتح «أكري» «دار الجهاد» رحمة الله تعالى عليه رحمة واسعة: أن المرحوم السلطان «محمد» كان في أيام صغره جالسًا ذات مرة على حافة الحوض في سراي «مغنيسا»؛ نظرًا لأنه كان ممن أقاموا بداخله، وكان يتسامر مع بعض أقربائه وندمائه؛ واتفق أثناء الكلام أن قيل في مجلسه الشريف ذلك الكلام: «يكذب بعض الكذابين ويخترعون بعض الأشياء التي لا تقع»، وعلى هذا تفضل السلطان «محمد خان الثالث» بالرد قائلًا: «وكيف يمكن هذا؟ وكيف يقولون الشيء الذي لم يحدث؟ ولا يوجد أصل لهذا»، وأورد أحد أغواته مثالًا، فقال: «مثلًا لو قال رجل: إن ما بداخل الحوض هو ماء ورد أو خمر يكون هذا الشخص قد كذب»، وفي هذه المرة لم يرض قط بهذا الكلام، وتفضل بالحديث قائلًا: «هذا ماء، فهل هناك شخص عاقل يقول على الماء ماء ورد أو خمرًا؟».

ولقد كانت الأوضاع غير المرضية التي ارتكبها المرحوم السلطان بايزيد هي نتيجة للتصرفات السيئة والفساد الذي أوقعه فيه لالاته، ولم يكن الشخص العاقل والمدبر والقادر على إيجاد أنواع الحيل والمكر مثل «رستم باشا» يستطيع الوقوف على فساد الـ «لالا»، وخصوصًا أن الـ «لالا» أيضًا كان يكتب في عروضه للسلطان «سليم خان» وللركاب الهمايوني قائلًا: هذه الأحوال جميعها من آثار إضلال «رستم باشا» للسلطان «بايزيد»، وكان يقول: هو الذي يحرض السلطان «بايزيد». وكان السلطان صاحب

السعادة أيضًا يؤمن بأن «رستم باشا» مائل للسلطان بايزيد، وما قام به من تدبير وعرض كان يحمل على غرض في نفسه.

ونعود إلى موضوعنا، فقد وصل «لالا» المشهور إلى خدمة الـ «سلطان سليم خان»، فاطلع على أوضاعه الشاهانية، ورأى أنه في معظم الأوقات منصرفًا في الشراب والتسلية، وأن الأعيان الذين في بلاطه يسيرون على الدرب نفسه بموجب مضمون القول: «الناس على دين ملوكهم»، ورأى أنه غافل تمامًا عن طلب السلطنة والشغف بها.

وبناءً على هذا، يقول «لالا مصطفى باشا» في حضور الأمير أو ولي العهد النجيب العبارات التالية بخصوص الجبلة الحسنة: «إن الوزير الأعظم «رستم باشا» ومعظم المقربين إليه والأغوات وربما كبار ووكلاء الدولة، يميلون إلى السلطان «بايزيد خان»، وبسبب أن طبيعتكم المباركة منصرفة إلى الشراب والتسلية والألفة مع الندماء الظرفاء، فعندما تحين الفرصة، يحتمل أن يبعد عنك السلطان صاحب السعادة، ويجعل السلطان «بايزيد» وليًا للعهد، ولهذا، فإن لم تؤخذ التدابير في وقتها، فعندما يتوفي السلطان صاحب السعادة بإرادة الله، يكون الحال سيئًا، وعندما لا تتيسر المساعدة من أي شخص، فكيف تصبح السلطنة ميسرة لك بتلك الغفلة؟!»، أما السلطان سليم فقد وعده بالوعود الكثيرة قائلًا: «الآن ينبغي أن أفهم ما تقول، فإن أي شيء تعرفه وتراه صوابًا فالتدبير لك، وإن شاء الله تعالى إذا أصبح العرش من نصيبي، فمنصب الوزارة العظمى أنت أحق به»، وبناءً هذا قال الـ «لالا»: «إن التدبير في هذا الأمر هو إسقاط السلطان «بايزيد» من نظر السلطان فاتح الأقاليم، وذلك أيضًا ليس ممكنًا ولكن من أجل الوصول للهدف علينا أن نبدأ بالمقدمات التي تؤدي إلى عصيانه بالضرورة، وذلك بإخراجه عن طاعة السلطان وبإعراجه إلى ذروة العصيان».

ولما أعطى السلطان سليم لـ «لالا» مصطفى باشا» صلاحية في هذا الموضوع، أظهر المحبة والعبودية للسلطان بايزيد، وكتب له خطابًا جاء فيه أن «السلطان سليم» منهمك بالشراب والمنادمة ليل نهار، وأنه ينام في سرير الغفلة صارفًا النظر عن الدنيا وما فيها،

وأنه يستطيع أن ينهي أمره بينما هو يرقد سكران، وبرأسه كثير من الأفكار التي تراوده، وفي البداية، قرأ الخطاب على السلطان سليم، وبعد ذلك أرسله، ولما وصل الخطاب إلى مجلس الأمير سلطان بايزيد النجيب الخالي من الغل والغش، صدق كذب الـ «لالا» وكما لو كان قد حصل على جميع أمانيه، وفي الحال كتب له جوابًا ورجا منه قائلًا: «مدد يا الله، ينبغي ألا نفوت تلك الفرصة، فافعل ما يقتضيه الأمر»، وعرض الـ «لالا» الخطاب على «سليم خان» قبل أن يفتح ختمه المختوم به، ثم قرأه عليه، وبعد ذلك، كتب أيضًا ردًا إلى «الأمير بايزيد»؛ حيث قال فيه: «إن الهجوم على المكان الذي يرقد به على غفلة، هو فعل اللصوص وليس لائقًا بالسلاطين، ولكن أرسلوا إليه الخطابات المملوءة بالطعنات، واطلبوا المبارزة، وفي حالة اعتزاره، استهزئوا به بإرسال النقاب والبرقع الخاص بالنساء إليه، وأكثروا من عسكركم وارفعوا طبولكم وأعلامكم السلطانية وأتوا سريعًا. وإنني عبدكم الذي سيقوم بالتدبير اللازم وسيدخل ميدان المواجهة وسيرى في ذلك الوقت أنني سأقوم بالواجب».

وعلى هذا قام المرحوم السلطان بايزيد «بتنفيذ هذا التدبير بعينه، ونفذه تمامًا» كما ذكر في الخطاب، ومرة أخرى قام الـ «لالا» بإرسالها إلى «سلطان سليم»، فأرسل «سلطان سليم» كل الخطابات التي أتت من السلطان بايزيد، إلى السلطان «سليمان القانوني» صاحب السعادة وعرضها عليه، وإذا كان قد أرسل خطًا همايونيًا أو مكاتبات سلطانية مقرونة بالظفر من طرف السلطان صاحب السعادة على وجه النصيحة إلى السلطان بايزيد مثل قوله: «ابني بايزيد خان احذر العار من تلك التصرفات غير اللائقة، فلو أنك أردت خير دعائي، فعليك أن تعيش في وئام مع أخيك»، إلا أن الـ «لالا» أيضًا كان يضع بمكره وخدعه اللصوص وقطاع الطرق في عدة أماكن على طول الطرق، وكان يجعلهم يأخذون حاملي الرسائل الذاهبين من جانب السلطان إلى جانب «الأمير بايزيد» ومن جانب الأمير بايزيد إلى جانب السلطان صاحب السعادة، ثم يحملونهم سرًا إلى الـ «لالا»، وكان الـ «لالا» يقوم بحرق الخطابات في النار، ثم يأمر بقتل الرسل. ومن ناحية أخرى كان يعرض ويخبر السلطان صاحب السعادة قائلًا: «لقد

قتل الأمير السلطان بايزيد خدم بابكم الذين أرسلتموهم من جانب السلطان سليم، وأحرق خطابكم المبارك»، وحتى إنه يروى عن المرحوم حامد أفندي الذي كان قاضي عسكر الروم إيلي في ذلك الوقت ما يلي: إنه في ذات يوم شكا السلطان صاحب السعادة بحزن شديد من السلطان بايزيد وتفضل بالحديث قائلًا: «لقد أرسلت إليه عددًا من الخطابات وراعيت حق الأبوة والبنوة» ونصحته قائلًا: «ينبغي أن تعيش في وئام مع أخيك الأكبر، وأحيانًا كنت أخيفه، وأحيانًا أخرى كنت أتوسل إليه، ولكن لم تكن هناك فائدة من ذلك كله، كما أنه قام بقتل خدم بابنا الذين وصلوا إليه وأحرق خطاباتنا، ومن ثم أصبح خروجنا عليه بالعسكر أمرًا ضروريًّا».

وعمومًا، وبعد أن أتم الـ «لالا» المكار أسباب هذا الفساد وهذه الفتنة، قام بإعلام السلطان صاحب السعادة قائلًا: «لقد جمع السلطان بايزيد عددًا من الأشقياء المعاندين تحت اسم «السعادة»، وقد جمع حوله قطاع طرق الأناضول وقرمان والأكراد والعرب مطلقًا عليهم اسم «قبوقولى»؛ أي خدم الباب، و«سكبان»[1]، و«تفنكجيان» أي حملة البنادق، وقد تجاوز مجموعهم الآن نحو الخمسة عشر ألفًا وربما وصل إلى عشرين ألفًا، ولهذا السبب قام السلطان صاحب السعادة بتعيين «جنابي أحمد باشا» أمير أمراء الأناضول، و«صولاق فرهاد باشا» أمير أمراء «قرمان»، و«كليون علي باشا» أمير أمراء «ذو القدرية» الذي كان «لالا» للسلطان سليم قبل ذلك، و«بيري باشا» والي «أدنة» الذي كان «مهتر»[2] عائلة «أبناء رمضان»، قام بتعيينهم مع العسكر المدربة على القتال

(١) كان يطلق على قسم من الأقسام الثلاثة التي تشكل معسكر الإنكشارية اسم «سكبان». كما كان يسمى القسمان الآخران باسم «بلوكات الأغا» أو «جماعة»، وكان يطلق على جند المشاه (البياده) في عهد أول سلطانين من السلاطين العثمانيين وهما «عثمان» و«أورخان» لقب «سكبان» أي حراس الكلاب اقتباسًا من مهنة الصيد.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، S. 145 – 146.

(٢) يستخدم هذا التعبير بمعانٍ مختلفة؛ مثل :الموسيقى، ناصب وحامي الخيام... إلخ. وإلى الآن لم يوضح لغوي أو مؤرخ بشكل صحيح معنى كلمة «مهتر» و«مهترخانه» ووظيفة تشكيل المهتر. واختلفت المعاجم في تعريف هذه الكلمة. ومن معاني هذه الكلمة كما ورد في قاموس «شمس الدين سامي» ما يلي:
١ ـ جاووش الباب العالي في ذلك الوقت.

التابعين لإيالاتهم، على أن يتجمعوا في صحراء «قونية»، فلو حدث أي تحرك من طرف «سلطان بايزيد»، ينبغي عليهم معاونة «سلطان سليم» وينبغي عليهم أن يبذلوا عظيم الجهد، لمواجهة هؤلاء الأشقياء وإهلاكهم جميعًا، وبعد ذلك قام السلطان صاحب السعادة بتعيين ثلاثة آلاف من جند الإنكشارية و«سلحدار بلوكي»[١]، وبعد ذلك، أيضًا جمع الـ «درت بلوكى»[٢] وأربعين مدفعًا من نوع «ضربزن» و«طوبجى بلوكي»، أي سرية المدفعية و«جبه جي بلوكى»[٣] والمدربين والأبطال من جاوشية البلاط العالي، ومن المتفرقة والجاشنكيرية تحت راية الوزير الثالث «محمد باشا الطويل» الذي كان صهر السلطان سليم المرعي بالعناية الدائمة، وقام بإرسالهم صوب المكان المقصود.

خلاصة توجه السلطان صاحب السعادة إلى «إسكدار»

في ٢٨ من شعبان المعظم سنة ٩٦٦ هجرية[٤]، لما أصبحت أحوال السلطان بايزيد

---

٢ ـ الأشخاص الذين يحملون خبر البشرى إلى منازل الأفراد الذين يرتقون في الرتبة أو الوظيفة.
٣ ـ طاقم الفرقة الموسيقية الموجود عند باب الوزير في ذلك الوقت.
- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser‹ C. II‹ S. 444 – 445.

(١) يطلق هذا الاسم على السرية الثانية من تشكيلات سوارية معسكر الإنكشارية والتي كانت عبارة عن ست سرايا. وهذه السرية هي أول سرية يتم تشكيلها. وأسماء السرايا الأخرى هي: ١ ـ السباهية ٢ ـ علوفجيان يمين ٣ ـ علوفجيان يسار ٤ ـ غرباء يمين ٥ ـ غرباء يسار . وكانوا مكلفين بتأمين طريق مرور الجيش أثناء الحروب. وكانوا يقاتلون كسوارية في الحرب. وكان يحمل ثلاثة وعشرون شخصًا من بينهم طبوغات السلطان تحت اسم «طيوغجو».
- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser‹ C. II‹ S. 225.

(٢) يعد سوارية خدم الباب قسم السوارية في جيش الدولة العثمانية. وكان سوارية خدم البابا عبارة عن ست سرايا. وهذه السرايا بترتيب درجاتها على هذا النحو:
١ ـ السباهية ٢ ـ سلحدار ٣ ـ علوفجية يمين ٤ ـ علوفجية يسار ٥ ـ غرباء يمين . ٦ ـ غرباء يسار .
وكان يقال على السريتين الأولى والثانية السرايا العليا، وعلى السرية الثالثة والرابعة، السرايا الوسطى، وعلى الأربع سرايا الأخيرة السرايا الأربع أي «دورت بلوكي». وعلى السريتين الأخيرتين اسم السرايا السفلى.
-Midhat Sertoğlu :Adı geçen eser‹ S.174- 175.

(٣) فئة من العسكر من كتائب جند خدم الباب المشاه الذين يقومون بتصنيع السلاح، وصيانته والمحافظة عليه، ومكلفون بإيصال المواد الحربية للجيش أثناء الحرب حتى الخطوط الأمامية. وكان لهؤلاء علوفة أو يومية. ويعتبرون أفضل وأحسن فئة بعد جنود الإنكشارية.
- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser‹ S.61.

(٤) الموافق ٥ من أبريل ١٥٥٩م.

المختلفة وغير المرضية معلومة لدى السلطان صاحب الوقار، أمر بمجيء أمير أمراء الروم إيلي، وأمراء سناجق الإيالة المذكورة بكامل أسلحتهم والتجمع في الآستانة السعيدة قائلًا في قرارة نفسه: «احذر فإنه إذا عمل برفق، سيصبح باعثًا على الفساد الكثير الذي يوجب المشقة الزائدة بعد ذلك»، فعبر الإنكشارية، وسائر جند خدم الباب والوزراء العظام، وكافة العسكر من البحر، ونزلوا في المعسكر الذي أقيم في صحراء «إسكدار».

حرب أبناء السلطان في صحراء «قونيه»

في ٢٢ من شعبان سنة ٩٦٦ هجرية[١]، بدأ السلطان بايزيد يظهر بعسكره العصاة في اليوم الثاني والعشرين من شعبان المعظم من السنة المذكورة، في صحراء «قونية»، ومن هذا الجانب أيضًا أي من جانب السلطان سليم قام الوزير المكرم «محمد باشا» المعظم، بترتيب الطوابير وتنظيم الصفوف، وكالعادة تم نصب مدافع الـ «ضربزن» أمام العسكر، ووقفت صفوف الإنكشارية خلف تلك المدافع صفًا صفا، وواجه أمراء الأمراء والأعداء بعسكرهم كل واحد من الجناح المخصص له، ولما اقترب الطرفان من بعضهم، هجم عدة طوابير من عسكر الأشقياء ـ الذين لم تبق أرواحهم ولا رءوسهم ـ على النحو الذي لو كان جبل «الوند» واقفًا أمامهم، لما كان من الممكن أن يثبت ويقف أمامهم، وفي ذلك الموضع الأمامي، كان يقف عسكر «قرمان» و«أدنه»، ففي الهجمة الأولى، ذاق أبطال فرقتين، وربما أكثر شهد الشهادة. أما سائر العسكر فقد قاموا بإمداد هؤلاء، حتى سقط معظم البغاة على تراب الموت في تلك المعركة، ومهما يكن من أمر، فقد استمر القتال من طلوع الشمس حتى غروب النهار، ولما حل وقت المساء توقفت الحرب وسفك الدماء، وانسحب كل شخص من مكان القتال إلى رايته التي كان يقاتل

(١) الموافق ٣ من مايو ١٥٥٩م.

تحتها، وعلى هذا النحو، لجأ الطرفان إلى وقف القتال، وأُجّل أمر القتال إلى اليوم التالي، وظل عسكر الحراسة الليلية يراقبون الوضع بكمال الحذر حتى الصباح.

ولما رفع عسكر الطرفين الأعلام وقت السحر، ووقفوا في «ميدان المعركة» كلٌّ في مكانه، أتى «لالا باشا» إلى جميع طوابير أمير الأمراء وأمير السنجق من طرف الأمير الحليم؛ يعني سلطان سليم، وأبلغهم سلام حضرة الأمير وخير دعائه لهم، واستمالهم بكثير من الوعود ورفع من روحهم المعنوية، ونبه بشدة قائلًا: «لو يعطي الحق سبحانه وتعالى الفرصة والنصر، فلتحذروا ولتتقوا الوقوع في الطمع والاحتشاد على حثالة الأعداء، فلربما ينهزم ويقهر العسكر الكثيرون المنصورون، بسبب الطمع»، وبعد ذلك اشتعلت نار الحرب والقتال مرة أخرى، وحاول كل شخص الانتصار على عدوه، وبفضل الله تعالى بدأ نسيم الظفر يهب من جانب «سلطان سليم»؛ وبدأ الأشقياء الذين جمعهم الـ «سلطان بايزيد» في الهرب، وقبل حلول وقت شقشقة الطيور رجحوا الفرار منهزمين ومنكوبين.

واصطحب المسكين الـ «سلطان بايزيد» ابنه الـ «سلطان أورخان» إلى «أماسيه»، ولكن عسكره لم يجعلوا عسكر السلطان سليمان الذين تعقبوهم يصلون إلى أميرهم، ولا إلى أي شخص آخر ناشبين القتال معهم، ولما وصلوا إلى «أماسيه»، تجمع ذلك الكلب سيئ الخلق؛ يعني «قدوز فرهاد» وعديم الدين المعروف باسم «أقسق سيف الدين»، وسيئ الأصل والعاقبة المعروف باسم «مستانه آلاى بكى» وسائر أهل الفسق والعوام، وتحدثوا بعد خراب البصرة يعني بعد فوات الأوان قائلين: «ما التدبير؟»، وسكب الـ «سلطان بايزيد» المسكين صديدًا، وأذرف دموعًا دامية من عين الغم، وكتب خطابًا بآلاف التوبة والاستغفار والعجز والانكسار ممزوجًا بدموع عين أبنائه الأربعة الدامية، وقال في خطابه: «إن جميع الأوضاع غير المرضي عنها التي صدرت مني إنما بتحريض من «لالا مصطفى باشا»، وهو الذي أغواني»، وأرسل هذا الخطاب إلى الركاب الهمايوني مع رجل أو رجلين مثل نسيم الصبا، ولكن هؤلاء سقطوا أيضًا في أيدي قطاع الطرق من طرف «لالا مصطفى باشا»، ولم تظهر أخبارهم ولا آثارهم.

ترجيح الأمير «السلطان بايزيد» الفرار إلى القزلباش مع أبنائه الأربعة

لما بدأ وظهر هذا المعنى لدى السلطان بايزيد وهو أنه لا يمكن البقاء في «أماسيه» بعد ذلك، وأنه لا يمكن أن يبقى عسكره في تلك الأطراف والجوانب، وجد أنه من الضروري أخذ أبنائه الأربعة ثمرة عمره بجانبه، وحمل أثوابهم وخزينتهم التي كانت خفيفة في النقل ثقيلة في القيمة، وقام أيضًا بتوديع حرمه، وخدم قصره ذارفًا الدموع الدامية وانسحب من بينهم واتجه صوب ديار الـ «عجم».

وتعقب كل من «تمرد علي باشا» أمير أمراء «سيواس روم» الذي كان قد تحصن بالقلعة؛ خوفًا من الأمير، والذي صدر إليه الأمر الشريف: «لو هرب الأمير وأتى إلى تلك الناحية فاحذر أن تفتح الطريق له و«مصطفى باشا» شقيق «طويفون باشا» الذي كان أمير «ملاطيه» و«خسرو باشا» ـ الذي كان أمير «عينتاب» ـ تعقبوا بعسكرهم الأمير بايزيد واحتشدوا عدة مرات على رأس قومه مثل زنبور البلاء، وفي النهاية لحقوا بالأمير في المكان المعروف باسم «ساعت چقورى»، ولكن جيش الأمير كان يزيد على اثني عشر ألف جندي فدائي كل واحد منهم مستعد للموت، فهجموا على هؤلاء السابق ذكرهم، ودارت بينهم رحى حرب ضروس، وذاق معظم عسكر الثلاثة سناجق السالف ذكرهم شهد الشهادة في ذلك المكان أي «ساعت چقورى»، ومن بقي منهم أصبح أيضًا بلا حيلة وهربوا، ولم يعترض «إياس باشا» أمير أمراء «أرضروم» الذي كان الأخ الأكبر لـ «قوجه سنان باشا» فاتح «خلق الواد» و«يانق» لم يعترض طريق الأمير ومن بجواره، حتى إنه لما علم أنهم يحتاجون إلى نعال ومسامير، أرسل إليهم عدة أحمال من النعال والمسامير، ومن أجل ذلك عرض الـ «سلطان سليم» الوضع على الركاب الهمايوني، فكلفه السلطان بقتل المذكور أي «إياس باشا»، وكان هذا سبب عداوة «محمد باشا الطويل» مع «سنان باشا»، وعهد بولاية «أرضروم» إلى «مصطفى بك» أمير «أرضروم» و«ملاطيه» الذي ظهرت بطولته أكثر من الآخرين في تلك الحرب، وأحسن أيضًا بسنجق «پاسين» على «خسرو بك».

ولكن المؤكد أن معظم العسكر كانوا يتحركون بنوع من التكاسل في المعركة، حيث كانوا يقولون في قرارة أنفسهم: «إن كلا الطرفين عسكر للإسلام، وأن الأمراء أو أولياء العهد أبناء السلطان، وينبغي ألا ينقلب أحدهم على الآخر»، ومع أنه لم يكن هناك تقصير من جانب القادة، فإن العسكر كانوا يقاتلون بلا رغبة، وكان ذلك هو السبب في عدم وصول تلك المعارك إلى النتيجة المرجوة، ولما استقرت الأحوال على هذا المنوال، أذن بالانصراف لـ «قزل أحمد لو مصطفى باشا» أمير أمراء الروم إيلي مع عسكر الروم إيلي، وبالانصراف لعسكر الأناضول وقرمان مع أمراء أمرائهم وذهبوا؛ حيث ذهب كل واحد منهم إلى ولايته، وأرسل الأمير أو ولي العهد عالي الجاه الأمير سلطان سليم مع جند خدم الباب الذين كانوا تحت إمرته، والوزير «محمد باشا» إلى حالب الشهباء بأمر السلطان حامي العالم من أجل قضاء فصل الشتاء بها، وأمضوا ذلك الشتاء بكامل الصفاء؛ وبعد ذلك توجه وذهب حضرة ولي العهد في أول الربيع إلى «قونية» التي كانت سنجقه، كما توجه «محمد باشا» مع جند الـ «قبو قولى»؛ أي جند خدم الباب إلى باب الدولة.

في ذكر عزل «لالا باشا» من منصب الـ «لالا»[1]

كان الوزير الأعظم «رستم باشا» يعلم أن جميع تلك المفاسد من تحت رأس الـ «لالا»، وكان لا يستطيع تبليغها إلى السلطان صاحب السعادة بأي وجه من الوجوه، إلا أن كل ما فعله، إنه قام بتنصيب «توتونسز حسين باشا» أمير سنجق «بوزغه» «لالا» لولي العهد، وعين «لالا مصطفى باشا» على سنجق «بوزغه»، ولما علم السلطان سليم بالوضع، طلب ورجا من السلطان صاحب السعادة بوقف أمر التغيير، إلا أن السلطان لم يرض بإبقاء «مصطفى باشا» في منصب الـ «لالا»، وعهد إليه بإيالة «طمشوار» من أجل خاطر ابنه فقط، ولكن عرض «مصطفى باشا» مرة أخرى على حضرة ولي العهد،

(١) كان يطلق هذا الاسم على مربي أولياء العهد ومعلميهم.

وأرسل إليه خطابات الرجاء قائلًا: «إن أحوال السلطان بايزيد لم تنتهِ إلى الآن، وبينما سيتظهر خدمة اللالا بعد ذلك، فإن قيام «رستم باشا» بهذا الأمر إهانة لي»، وفي هذه المرة أحسن إليه بإيالة «وان» من أجل أن يكون قريبًا من بلاد العجم.

ولقد كان مقصد الـ «لالا» من إيقاظ فتنة عظيمة على هذا النحو، هو أن يصبح وزيرًا أعظم بمجرد أن يتسنم السلطان سليم العرش الموفور السعادة، ولكن لم يجعل الله المجيب، تلك العظمة نصيبًا له، ولم يحدث لشرف السلطنة انكسار أكثر من هذا في العصر الشريف للسلطان المغفور له؛ حيث هلك قدر من الرجال من أهل الإسلام بسبب هذا، وفي الخصوص نفسه قال «عالي أفندي»: إنه خلاف ما تعرض له في دنياه، فإنه لن يستطيع أيضًا أن يجيب على أي شيء أمام الحق سبحانه وتعالى يوم القيامة، فبينما كان يأمل في كسب الالتفات والاعتبار من المرحوم الـ «سلطان سليم»، فقد أصيب بعدة مصائب في عهده الهمايوني، وقد تمزق كيده؛ بسبب إصابته بعدة استحقارات، فمثلًا مع أنه بذل السعي الحميد والبطولة بهذا القدر في فتح مملكة مثل «قبرص» فإنه لم يجد القبول، وفي الوقت الذي وفق فيه بالفتوحات التي لم تتيسر لأي شخص آخر في حملات العجم، فإنه لم يكن هذا أيضًا مقبولًا منه؛ وربما استحق اللوم والعتاب، وحتى بعد ذلك لما توفي الوزير «أحمد باشا» كان «مصطفى باشا» وزيرًا ثانيًا؛ وعلى هذا، وبينما كان منصب الصدارة العظمى حقًا معلومًا له بحسب الطريق أي بحسب التسلسل في الرتب، أرسل الختم الشريف أي ختم الصدارة العظمى إلى «سنان باشا» الذي كان سردارًا في بلاد العجم في ذلك الحين، والذي كان أقل وزير مرتبة، وأصبح «مصطفى باشا» قائم مقام له، وفي النهاية ودع العالم الفاني بذلك الألم والقهر، وبهذا بدأ مضمون القول: «الحريص كالمحروم».

أحوال السلطان «بايزيد» المؤلمة
التي حدثت بعد أن دخل حدود العجم

لما عبر «سلطان بايزيد» المعبر المنحوس المعروف باسم «سعد چقورى» ووصل إلى أراضي «روان»، استقبله «شاه قولى سلطان» الذي كان خان في «روان» بأنواع التعظيم

والإكرام، وأخبره بأن الشاه «طهماسب» يقوم في تلك الأثناء بدفع بعض الأعداء في ناحية «إستراباد»، ووضح له بأنه ينبغي انتظار الأوامر من الشاه، وأنه لم يؤذن بالتقدم، وهكذا اضطر الأمير بايزيد وركبه أن يبقى مدة طويلة في «روان».

وما إن علم الشاه سيئ الحال بتلك الأحوال، حتى أجل مشكلته مع أعدائه وعاد في الحال ووصل إلى «قزوين» التي كانت دار ملكه، وأذن بمجيء الأمير بايزيد، وكان دائما يقول لندمائه: «هذه هي هبة عظيمة لنا من جناب الباري مقابل «القاص»»، ولما اقترب الأمير من «قزوين»، أرسل الشاه وزراء ووكلاء الدولة وسائر أصحاب الشوكة والصولة لاستقباله، وعندما قابلوا الأمير بايزيد بالغوا في تعظيمه وتكريمه، وفي مقابل هذا أظهر محاربو الروم والجنود المتسمة بالهجوم، أنواع استعراضات الكر والفر، وأظهروا أنواع العلوم والمهارة في استخدام السلاح حتى دهش القزلباش.

وفي ذلك الحين، طلب بعض الأبطال الشجعان الذين كانوا قادة وزعماء للعسكر من «قدوز فرهاد» والأمير بايزيد الإذن قائلين: «ينبغي ألا نفوت هذه الفرصة، وينبغي علينا أن نذكر إلى يوم القيامة، وأن نقاتل القزلباش بإذنك الشريف»، فحذرهم حضرة الأمير ومنع ذلك قائلًا: «احذروا هذا الكلام، وألا تجلبوه على اللسان من بعد ذلك، وإلا سأقتل بيدي من يقوله»، وطبقًا لاعتقاد البعض أنه كان من المؤكد أن يصبح مُلك العجم تحت يد الأمير عالي الهمم في حالة ما إذا وفق في قتل الشاه، ولكن كان هذا الاحتمال بعيدًا جدًا عن العقل والفكر؛ نظرًا لأن الرعايا والبرايا جميعهم هناك كانوا أعداء لأهل السنة، فكان من الممكن أن تصبح عاقبة عسكر الروم القهر والهزيمة بالهجوم عليهم من كل جانب.

وعمومًا ففي اليوم الثالث والعشرين من صفر «سنة سبع وستين وتسعمائة هجرية»[1]، التقى الأمير بايزيد والشاه في برج واحد مثل كوكب الزهرة والمشترى في

---

(١) الموافق ٥ من نوفمبر ١٥٥٩م.

السماء، وتبادلوا القبلات وتعانقوا، بلا إخلاص، بدعوى الأبوة والبنوة، وحتى في أثناء الدخول إلى سراي الشاه، فرشوا لهم القماش المزركش تحت أقدامهم وأكرموا الأمير بايزيد ونثروا على كتفيه ثلاثين طبقا من الذهب والفضة مخلوطين بالدر والفيروز وحبات الياقوت، وأظهروا السرور والحبور الزائد عن الحد، وأظهروا أيضًا الفرح والمحبة، وقام الشاه الذي كان يجلس في الشرفة في ذلك الحين، بوضع طاقية مرصعة بالذهب الصافي وغالي السعر بيده المنحوسة على عمامة الأمير بايزيد يعني إظهار المحبة، ولما أراد الأمير أن يذهب إلى مكان إقامته، أهدى له الشاه تسعة أحصنة مدربة على السير بلطف ومزدانة أطقمها ومرصعة بالذهب، وفي هذه المرة كان التعظيم لشرف السلطنة العثمانية متمثلًا في شخص الأمير، وبعد خمسة أيام، دعاه الشاه إلى مقره الملكي المحفوف بالعزة وفرش الجواهر والتحف تحت كتفيه بهذا القدر الزائد عن حد الإحصاء والتعداد، وأهدى لهم أيضًا خمسين حصانًا بالتمام، ذات أطقم مرصعة بالذهب من أولها إلى آخرها، وعدة أكياس من الذهب والفضة، وعلبة مملوءة بالدر والجواهر، وسيفًا مجوهرًا، وخنجرًا مرصعًا، وحوالي ألف من الملبوسات القماشية.

ومرة أخرى، أظهر «طهماسب» شهامته وقدرته، وقام أيضًا بإعداد ضيافة قام فيها بالإحسان بثلاث مائة كيس من النقود، وعدة قطعان من الخيول، وبعض الملابس المرصعة بالذهب، واثني عشر طقمًا من الآلات والأدوات المصنوعة من الفضة والذهب لمجلس المحبة والصحبة والمنادمة؛ كما قام بالإحسان بأنواع الخلع، وأصناف الإحسان إلى جميع أغوات الأمير وأبطاله خبراء الحرب كل حسب مكانه ورتبته.

وهكذا، ولما بدت أحوال الضيافة والهدايا، ولما تجلت الشوكة والقدرة والإخلاص والمحبة بتلك الدرجة من الطرفين، بدأ الشاه المملوء بالحيل في عمل آخر؛ حيث تحدث إلى الأمير عالي المقدار مثل «جم» قائلًا: «إن نوابكم بهذه الأعداد غارقون في التعب ويعانون من الازدحام لبقائهم واستقرارهم في مكان واحد لفترة طويلة، وإنهم يعتبروا حملًا ثقيلًا على جناب سعادتكم، وأنه من المناسب أن يرسلوا جميعًا عدا أغواتكم إلى الحكام والسلاطين القريبين لقضاء الشتاء عندهم، فربما كان معظمهم سئم من تعب

الطريق، حيث جاءوا من مسافات بعيدة، ولم يضع أي واحد منهم رأسه على وسادة الراحة حتى الآن، وباختصار على كل واحد منهم أن ينزل في مكان هادئ وأن يلقي بقيود السفر جانبًا وأن ينوي الإقامة والاستقرار، ولما يشرعون في العودة، فإنه يمكن تجمعهم مرة أخرى»، ومع أن ذلك كان مخالفًا لرضا الأمير، فإنه اضطر إلى قبوله؛ بسبب خوفه من ظهور الخلاف بينه وبين الشاه، وبهذه الطريقة قام الشاه بتوزيع جميع عسكر الأمير بايزيد وتفريقهم.

إرسال السفراء من جانب السلطان حامي العالم إلى الشاه وطلبه الأمير «بايزيد»

لم يكد السلطان عالي المقدار يسمع بالألفة والوئام الذي حدث بين الشاه والأمير بايزيد حتى قام بتعيين أحد الأمراء الأبطال المعروف باسم «سنان بك» سفيرًا له، وأرسله بالخطاب السلطاني إلى الشاه، وأرسل حضرة السلطان سليم أيضًا «طوراق أغا» الذي كان رئيس إسطبله ونديمه، بخطاب آخر جميل العبارة، وبذلت المساعي الجليلة بخصوص تسليم الأمير بايزيد إلى السفراء، وقام الشاه أيضًا بإرسال الشيخ المعتوه يعني الشخص المعروف باسم «تابوت أغا يوز باشي» مع «سنان بك» بالرد إلى بلاط السلطان صاحب السعادة وحامي العالم، كما أرسل كلًا من «سيف الدين أريش أغا» و«ذي القدر لي بختيار» مع «طوراق أغا» إلى جانب الأمير «سليم» واصفًا إياه بهذا التعبير: «إن الصداقة شعارك، وإنني خادم لك».

وكان الشاه قد ذكر وكتب في الخطاب الذي أرسله إلى الأمير هذا التعبير بعينه: «لقد علمنا أنه لا نهاية للمساوئ والسفاهات التي ارتكبها الأمير العنيد سلطان بايزيد؛ بسبب أنه كان عنيدًا وجاهلًا وغافلًا ولا يعقل حقوق الأب، وأمر الأخ الأكبر، ولما رأى عيانًا مضمون الآية ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾[1] باديًا من العسكر اللامتناهي الذين

(١) سورة عبس: الآية ٣٤.

هجموا عليه في ذلك الوقت على إثر الغضب السلطاني، هرب رغمًا عنه وأتى إلى جانب صديقكم المخلص بأمل الشفاعة من أجل أن تعفوا عن زلته معتقدًا أن روابط الصداقة والمحبة التي بين سلالتكم العلية وبيننا مستندة إلى رسوخ الوداد والسداد، وبحمد الله تعالى لم يصل إلى جانب ضيق فكره سيئ أو إلى جانب الشخص الذي لم يرد صلاحكم. ونال جزاء الأعمال القبيحة والأفعال الشنيعة التي فعلها، وبالفعل أتى لطلب الاعتذار بلسان العجز والانكسار ولطلب الاستغفار، فالعمل بمقتضى مضمون القول: أحب الأمور إلى الله العفو عند المقدرة والحلم عند الغضب، وإن إظهار العفو والمرحمة، موجب للرضا الإلهي وسبب لرضا حضرة حامي الرسالة، وبصفة خاصة، فقد أمر وأشار حضرة السلطان الذي هو في هيبة «سليمان»[1] بالقبض على المومأ إليه، وتسليمه إلى حضرتكم، وحقيقة أن هذا الأسلوب ليس من عادتي، ولا سنتي أنا ولا آبائي ولا أجدادي في أي زمن أبدًا. وربما كان في الزمن السابق يهرب أرباب الجرائم والذنوب من خوف وهلع السلاطين، ويتخلصون من قبضة القتل والقصاص، لاجئين إلى سلالتكم العلية وعرشكم السعيد، وبينما يكون ممكنًا وميسرًا تحقيق هذه الرغبة؛ يعني وصول «سلطان بايزيد»، بطريقة أفضل، فلا حاجة للقبض عليه وإرساله، وعندما قرئ عليه خطابكم الشريف، ندم على قباحته ومساوئه التي فعلها وتضرع كثيرًا بالبكاء، وقد حرر خطاب الرجاء هذا بغرض المحافظة على شرف سلطنة حضرة السلطان؛ نظرًا لأنه قال لي: إنك لو أرسلتني إلى تلك الأطراف قبل أن تغفر لي ذنوبي، فإنه من المحقق أن يشتعل لهيب وغضب السلطان، وأن يقتلني أيضًا مثل المرحوم «سلطان مصطفى»، لهذا ألتمس من حضرة سلطان الإسلام أن يعفو عن جرائم وذنوب السلطان بايزيد الذي غرق في بحر الآثام ليصبح هذا المخلص دون شبهات [في هذا الخصوص]، فينبغي أن يُحرر منشور محفوف بالسعادة من أجل أن يقع الاطمئنان في قلب المذكور، وأن يرسل إلى هذا المخلص حتى ينبغي تقديم الخدمة للطرفين أي سلطان سليم وسلطان بايزيد؛ لأنهما لائقان بشرف الدولة، وقد كُتب وحُرر هذا البيت الذي ينثر رائحة المسك لحضرة

(١) المقصود بـ «سليمان» هنا هو سيدنا «سليمان» عليه السلام.

الشيخ «سعدي الشيرزي» صاحب «گلستان» عليه الرحمة والرضوان بأسوب جميل حرر في گلستانه الباعثة على الشرف:

أهل الغفران يصفحون عن السيئات بسبب
أنهم لا يفعلونها وهذا لائق بأهل الصفح

ولو ذكرت القطعة التالية مع هذا البيت في خطابكم فمن المحقق أن يكون هذا أنسب وأقرب للمروءة والإحسان:

قطعـــة

قـــال فـــريـدون لنقـــاشـــين الصـــين
ينبغي أن يكتبوا هذا في أطراف قصره
أيها الأعزاء أحسنوا على أهل الصفح الذين هم هناك
لأن الطيبين أينما يكونون فهم طيبون

... إلى آخر القطعة.

وقام الشاه بإرسال سفراء مع سفراء السلطان صاحب السعادة والأمير سليم، وأرسلهم جميعًا بجواب على هذا النحو ردًا على خطاب السلطان ذي الخلق الطيب والأمير سليم صاحب الأطوار الجميلة، على أمل أن يعفو عن سيئات السلطان بايزيد، ولكنني هذا الحقير[1] قليل البضاعة تقابلت في أيام الشباب بشخصين عارفين وواقفين على هذه الأحوال، يطلقون على أحدهم اسم «سنان أغا» الذي نشأ ونما في خدمة المرحوم «طوراق جلبي» سالف الذكر، وكان قد حصل على علوفة «بلوك» في عهد الأمير «سلطان سليم»، وبعد ذلك أخذ «سنان أغا» تيمارًا في سنجق «سرم» بدلًا من علوفته، وكان قد استقر في ناحية «غجه»، وكان شيخًا من العارفين، وغالبًا كان «سنان أغا» موجودًا آنذاك مع «طوراق جلبي» الذي أرسل سفيرًا، وطبقًا لما أوضحه سنان أغا:

(١) المتحدث هنا هو المؤرخ «إبراهيم بجوي».

أنه في البداية التمس الشاه توجيه إيالة بغداد إلى الأمير سلطان بايزيد، ولما رأى السفراء أن إعطاءها إليه غير مناسب، يرجو الشاه ثانية إحسانها إليه، فلم يستطع السفراء أن يجيبوا قط على تلك الكلمة، والشخص الآخر من الشخصين اللذين قابلتهما في أيام شبابي، هو «بيري أفندي» الذي كان نديم «سنان باشا زاده محمد باشا»، وكان شخصًا صاحب معرفة وفهم ودراية بالتاريخ، حتى إنه كان في حملة العجم من ضمن أتباع «كتخدا يري كاتبي» عند باب الأغا، وقد روى هذا أن الشيخ المعتوه والسفير المذكور، يعني «تابوت أغا» طلب «بغداد» من السلطان شخصيًا في مقابل تسليم الأمير بايزيد، فقال الوزير الأعظم «رستم باشا»: «إن جواب هذا الطلب هو الإخلاص من جانبك، فاخرج وخذ خطابكم»، ثم قام بتوبيخ السفير توبيخًا شديدًا شفويًا وأجاب قائلًا: «لقد راعى سلطانكم أدب السلطنة، ولم يكتب في خطابه أي كلام مخالف للعقل أما أنت فما أحقرك! تتحدث هذا الكلام بالمشافهة، ألم تعلم أن تلك الأوضاع تنتج عن حالة الضرورة والخوف الشديدة؟! وأنه لا يوجد لدينا خوف ولا فزع من الشهزاده بايزيد، ولا من سلطانكم، حتى نضطر لتوجيه ملك للأمير، فقد رفع راية العصيان قرابة سنة أو سنتين، وقرع الطبول، ونفخ الأبواق من أجل جمع العصاة والبغاة، واستطاع أن يجمع بعض أشقياء الأناضول، وألفًا أو ألفين من عراة الرأس وحفاة الأقدام من «ذي القدر»، ومن تركمان «بوزاوق»، تحت اسم السعادة [يوملو]، ولم يستطع أن يخضع أي رجل من خدم السلطان أو من أصحاب العلوفة والمقاطعة، حتى الخدم الذين عينهم السلطان صاحب السعادة في البداية لخدمة هذا الأمير أداروا الوجه عنه بمجرد أن أعلن العصيان، وعادوا إلى بلاط السلطان، وفي حالة عناد الشاه فإن الوئام والصداقة التي عقدت بيننا سوف تتحول إلى عداوة وبغضاء؛ لأن السلطان المتدين هو الذي يصيد الخصوم والأعداء كما تعلمون منذ القدم، وقد وصل بفضل الله تعالى، وهو قادر على أن ينتزع الأمير من أيديكم طوعًا أو كرهًا، ولكن في حالة عدم مخالفة السلطان، فسوف يكون من اللائق إهداء وإحسان السلطان صاحب السعادة الإنعامات والإحسانات وربما الخزينة الغنية لتأكيد المحبة، وبعث الوداد وزيادة الإخلاص والسداد.

وبعد ذلك، أرسل مرة أخرى «صوفي علي باشا» الذي كان «لالا» السلطان سليم سابقًا و«حسن أغا» رئيس خدم الباب، حيث كان كل واحد منهم معروفًا بلباقة الكلام وبلاغة الحديث، وأرسل من جانب الأمير أيضًا «قره محمد أغا» رئيس خدم الباب الذي كان رجلًا عاقلًا وعالمًا، وأرسلوا جميعًا سفراء بالهدايا السلطانية اللائقة وبالأقمشة والأمتعة اللائقة إلى جانب الشاه.

وهكذا، ففي الوقت الذي كان ينبغي فيه القبض على الأمير، قام الشاه الضال بالترتيب؛ لتشتيت عسكر الأمير في البداية بإحدى الحجج؛ وذلك لأنه لا يمكن تسليم الآلاف المؤلفة من الرجال دفعة واحدة بأي حال من الأحوال، وحتى يحول دون وقوع القتال وهدر الدماء الكثيرة، وقد تحدث إلى حضرة الأمير بود وعرض ما في الضمير على النحو التالي: «لقد أمرنا بتأخير أمورنا المهمة في نواحي «إستراباد» من أجل الالتقاء بذاتكم الشريفة؛ والآن أرجو أن تمدني بعدة آلاف من عساكركم، وأن تبذلوا حسن معونتكم معنا لتنفيذ أمورنا المهمة»، ولم يستطع الأمير النجيب مخالفة الشاه، فقام بتعيين العسكر المدربين من قبل ونصَّب رئيس خدم بابه «عرب محمد أغا» سردارًا أي قائدًا عليهم، ولكن الشاه المملوء بالشيطنة، لم يكتف بهذا بل أوصى بشدة على الخانات والسلاطين الذاهبين مع عسكر الأمير أن يظهروا المحبة للروم؛ أي لعسكر الترك الذين مع الأمير، وأن يبذلوا جهدهم لكسب قلوبهم، وأقام المذكورون؛ أي الخانات والسلاطين الضيافة للروم على الدوام، وأظهروا لهم الاحترام، وقاموا بكل ما يبعث على سرورهم، ونتيجة هذا التصرف أصبح من المؤكد أن الطائفة التي نما حبها للشاه منذ القدم دون أي اعتبار لأمور الدين والمذهب والملة، ربما أصبح أكثرهم تابعًا للأعاجم؛ أي الخانات والسلاطين الذين هم من قبل الشاه، وأداروا الوجه عن الأمير، وعلى الرغم من أنهم قد حققوا النصر في الأماكن التي توجهوا إليها، فإنهم بعد ذلك اتبعوا الشاه كلية، وعندما عادوا بالفتح والفتوح، قام الشاه مرة أخرى بإعداد المجلس في حديقته بتلك الدرجة من البشرى والسرور، حتى إن الأمير بايزيد وصل إلى مكان لاعبي الجمباز الذين كانوا يلعبون بالنار؛ حيث أضفت عليه مزيدًا من السعادة

والسرور، وكأن تلك الرعاية العظيمة والالتفات كانت من أجله، وبعد ذلك تجول مع المعية في تلك الحديقة، فأحيانًا كانوا يفترقون وأحيانًا أخرى كانوا يلتقون في تقاطعات الطرق، وكان الرجل الرزيل المعروف باسم «عرب محمد» يسير خلف الشاه دائمًا. ويقول في نفسه: لقد انفردت بالشاه. وفي هذه الأثناء كان في عقبهم أحد غلمان الأمير، فاقترب «عرب محمد» فورًا إلى الشاه، وقال له: «احذر يا سلطاني أن تكون غافلًا، فقد نبه هذا الشخص الساذج سيئ الخلق الذي كان عاقًّا لوالده ولأخيه الأكبر، على واحد أو اثنين من المسلحين، واستمال قلوبهم بآلاف من الوعود ليضربوك الضربة التي ستقضي عليك»، وعندئذ، تحجج الشاه في الحال بأنه أصيب بألم في البطن يعني المغص، وخرج سرًا من الباب، ثم انزوى وذهب صوب قصره، أما «معصوم بك» و«حسن بك» من وزرائه، فلم يغفلوا دقيقة عن إكرام الأمير، وقالوا: إن الشاه يعتذر عن عدم الحضور، وفي الواقع يقومون بهذا الإكرام، ويأخذون الأمير، ويذهبون به بالمشاعل حتى منزله.

ولكن فهم القزلباش في الحال سبب اضطراب الشاه، فأخذوا يسبون الغرباء، وارتكبوا معهم التصرفات غير اللائقة التي لم يرتكبوها قط حتى ذلك الوقت، ولم يبق شك لدى الأمير بايزيد في إمكانية إهانة الشاه له، ولكنه لم يكن يفهم سبب ذلك؛ وأتى إلى موضع إقامته مطحون القلب ومتألمًا جدًا، وقام غلام الأمير الذي وقف على بهتان «عرب محمد»، بإلقاء عمامته من نوع «الأسكوف» على الأرض في مجلس الأمير، وعرض ووضح الزور الذي سمعه، وفي الحال، لم يتمالك الأمير نفسه، وأحضر «عرب محمد» وضرب رقبته، وبينما كان يجب أن يلتزم قدرًا من التحري في هذا الموضوع، فإنه لم يفعل ذلك ولم يسلك طريق إظهار الصداقة، وإخفاء الحقد والخصومة.

ولما قلق عديم الدين «آقسق سيف الدين» والمجنون المعروف باسم «مير آلاي مستان» والكلب الضال الذي كان في رتبة «سكبان باشي» من تصرف الأمير هذا، ولما شعر هؤلاء أن الأمير بايزيد غاضب عليهم، توجهوا في الحال إلى جوار الشاه وقالوا: «لماذا يغدر الأمير بايزيد على هذا النحو بالمسكين «عرب محمد بابا» في حين أنه كان ظهيرًا وحاميًا لك، وذلك عدا الخدمة التي كان يقوم بها لأخيه ومن ثم يخالف رأي

الشاه عالي الجاه، فيقتله ليبين أن هذه هي عاقبة من يذهب إلى طريقك، ونحن متفقون في هذا الموضوع، وبعد ذلك إذا وجد الفرصة فإنه سيقتلنا، فقد لجأنا إلى ذيل عناية الشاه عالي الجاه، فإذا أردت قتلنا بالسيف، فلتفعل».

وصدق الشاه كذب هؤلاء المنافقين، واعتقد أن الأمير يشرع في التسبب في مفاسد كثيرة، فقام الشاه بتهدئة هؤلاء الذين أتوا إلى جواره ومدهم بالأمل واستمال قلوبهم، وفي اليوم التالي، دخل السبابون أيضًا إلى منزل الأمير، وقاموا ببعض التصرفات الهمجية وغير المعقولة، ولما بالغوا في التعدي، سعى «قدوز فرهاد» وبعض الأبطال الشجعان في دفع هؤلاء على قدر الإمكان؛ وقالوا: «ينبغي أن يحدث لنا أكثر من هذا؛ لأننا لما أتينا إلى «قزوين»، لم نفعل ما كنا نريده، وراعينا خاطر أميرنا السلطان بايزيد»، ومنذ ذلك الوقت فهم الأمير المسكين ما يمكن أن يحل على رأسه؛ فأحضر أبناءه إلى جواره وقرر قتلهم قائلًا في قرارة نفسه: «كيف سيصبح حالهم من بعدي فليقتلوا بيدي بنظافة وجوههم البريئة»، ولما علم الشاه سيئ الحال بتلك الأحوال، قام بالتعزية بتهدئته قائلًا: «ما سبب هذا القتل، بينما لم يظهر أي تقصير في حق الأبوة والبنوة؟ وما هذا الشيء الغريب؟»، وتظاهر بعدم الرضا من قتل بعض الأبرياء، ثم أرسل إلى الأمير وأبنائه بعض الخلع المزركشة بالذهب، والأطعمة اللذيذة، وفي اليوم التالي دعاهم إلى الضيافة من أجل تطييب خاطرهم، وفي أثناء مجيء الأمير إلى قصر الشاه، فما إن وصل إلى مبنى الجلاد الذي سيهدم فوق رأسه ـ الذي كان يقع في طريق الذهاب إلى الشاه وكان لا بد أولًا العبور من هناك حتى يمكنه الوصول إلى الشاه ـ حتى انقض عليه عشرة أو خمسة عشر جلادًا، وربطوا يداه بإحكام وأخذوه، وقبضوا على أغواته وخدمه الذين أتوا سويًا معه إلى السراي، وقتلوا المتمردين من الخدم المعروفين باسم «آت أوغلنلري»[1] والـ «قره

(١) تعبير كان يطلق على ساسة خيول القصر. وكان قسم منهم يخدم في الإسطبلات الداخلية والخارجية للقصر في إستانبول، وقسم يخدم في سائر الإسطبلات. وحينما كان يتوجه السلطان للحملة، كان هؤلاء يقومون برعاية الخيول سواء الموجودة لدى السلطان أو الموجودة لدى معيته. وكان مقدار «آت أوغلنلري» حتى أواخر القرن الثامن عشر حوالي ستمائة.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. I، S. 112.

قوللقجى»[١] الذين يزيدون عن الألف في «قزوين»، ثم قبضوا على الذين استسلموا منهم، وأرسلوا الرجال إلى أبناء الأمير، وأعطوا كل واحد منهم إلى أحد الخانات، على أن يحبسه، وتم الاستيلاء على جميع أموالهم ومأكولاتهم وكل أمتعتهم القيمة المتعددة وأسلحتهم، والدر والجواهر بهذا القدر، والفضة والذهب، كل ذلك باسم الشاه.

وكانت قد وقعت تلك المصيبة وذلك البلاء العظيم في أواسط جمادى الأولى سنة سبع وستين وتسعمائة هجرية[٢]، ولكن بعد ذلك لم يكف الشاه عن النفاق والحيلة والمكر والفتنة، وخاطب الأمير المسكين قائلًا: بينما كان يجب وقوع هذا الوضع غير اللائق بعد المشاورة معكم، فإن ذلك لم يتم، وعذرنا لكم بهذا القدر العظيم، وأنتم تعلمون أنه عندما ذهب سفراؤنا إلى أبيكم، كانوا قد أخبروه «بأن الأمير الحائر ندم على الأمر الذي فعله، وقام بقتل الذين كانوا السبب في ذلك بموافقتنا، ثم حُبس هو أي الأمير «بايزيد» من أجل دفع احتمال العصيان»، وأنتم لا ترون أنه مناسب جعل صديقكم المخلص يبدو كاذبًا بينما لم تكن هناك ضرورة لذلك؛ ولذا فقد تم الإقدام على محو بعض النفوس من أجل أن نصبح صادقين في قسمنا، ووقع الحبس عليكم، وأنتم التزمتم بذلك، وإن ذلك قد وقع عليكم؛ بسبب أخطائكم وأفعالكم، وهكذا أبكى الشاه الأمير المسكين كثيرًا بتلك الكلمات وكوى جرح الألم آلاف المرات فأوجعه كثيرًا.

قدوم السفير من جانب السلطان صاحب السعادة للمرة الثانية

لما أتى السفراء العثمانيون، سلموا الشاه الخطاب السلطاني، وخطاب «الأمير

(١) يطلق هذا الاسم على أحدث الأفراد في غرف الإنكشارية. وكانت هذه الطائفة (قره قوللقجو) مكلفة بكل خدمات حجراتهم. وكان «القره قوللقجو» إذا رقي، يصبح «متفرقة صغير»، ويتخلص من الخدمة. وكان يوجد في كل حجرة إنكشارية من واحد إلى أربعة «قوللقجي». وكان يلقب أميرهم بلقب «باش قره قوللقجو».

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser‹ S. 176.

(٢) الموافق ١٢ من فبراير ١٥٦٠م.

السلطان سليم»، وأحاطوا الشاه علمًا بالتفصيل بما كلفوا بتبليغه من أخبار شفاهة،وعلى هذا أجابهم الشاه قائلًا: «إننا لن نتعدي على الرضا السلطاني، فبينما نقف على طريق المحبة والوئام، فإننا لن ننحرف ونذهب إلى سبيل الخلاف».

ولكن قام الشاه أيضًا بابتكار إحدى الحيل من أجل الوصول إلى الإحسانات السلطانية والالتفاتات العلية الملكية، فقام بإرسال خطاب مع أحد أفراد القزلباش المعروف باسم «أشك آغاسي بشارت»، قال الشاه فيه: «إنه لما نزل السلطان بايزيد إلى ملك صديقكم المخلص، كانت قد قُرِّرت وعُقدت الأيمان الغلاظ في المعاهدة والميثاق الذي تم معه أنه لا ينبغي تسليمه عندما يطلب ذلك من جانب السلطان، وفي هذه المرة، ولما أصبح من المقرر تسليم الأمير، وعدم مخالفة رضاكم المبارك، فإنه ينبغي على الأقل ألا نسلمه لكم، ونرسله لجناب الأمير السلطان «سليم» حتى يمكن تأويل يميننا»، وكان المقصد الأصلي للشاه من هذا التصرف، تجديد العهود المواثيق مع جناب الأمير السلطان «سليم» ولي العهد؛ نظرًا لأن السلطان صاحب السعادة كان قد صار عجوزًا وأصبح جناب الأمير وليًا للعهد، ولهذا السبب تجدد أمر الصلح والصلاح وتحقق بين الطرفين.

وفي أول رجب سنة ثمان وستين وتسعمائة هجرية[1]، وصل «أشك آغاسي» المعروف باسم «بشارت» الذي كان سفيرًا إلى حضرة الأمير السلطان «سليم» وصل بخبر تلك البشرى، وفي ذلك الحين، كان قد وصل الـ «سلطان سليم» إلى قمة السرور، بسبب أن عهد إليه بسنجق «كوتاهية»، وعهد بسنجق «مغنيسا» إلى قرة عينه حضرة الأمير عالي النسب السلطان مراد، بينما كان متصرفًا على سنجق «آق شهر»، والآن فقد ازداد سروره؛ بسبب ظهور هذا الخبر المفرح من جانب الشاه، وقد أرسل أمير أمراء «وان» «خسرو باشا» و«سنان أغا» رئيس خدم الباب المشهور باسم «داماد لالا زاده» من طرف السلطان سليمان القانوني و«جاوش باشى علي أغا» الذي كان شخصًا بليغًا

(١) الموافق ٢٨ من مارس ١٥٦٠م.

ذا خلق طيب من طرف جناب الأمير «سليم» حيث أرسلوا جميعًا سفراء إلى الشاه، وطلبوا تسليم السلطان «بايزيد» وأولاده المذكورين، وعمومًا فقد قاموا بتسليم الأمير وأولاده في اليوم الخامس عشر من المحرم سنة تسع وستين وتسعمائة هجرية[1] الذي كان يوم نحس، وشهر مأتم وأسبوع هم، وأنهوا أمرهم، رحمهم الله تعالى.

وهكذا رحل السلطان «بايزيد» المريض والمسكين من الدنيا بتلك المحنة وذلك الاضطراب، فبدلًا من أن يبكي عليه أبوه العطوف، وأخوه الأكبر، سعوا وتسببوا في قتله، وصاروا مسرورين من ذلك، مصراع: (أيها الغلام يا من صارت الخصومة أمه الحقيقية)، وكان الشاه في البداية قد استفسر من السفير «سنان أغا» قائلًا: «هل تعرف الأمير السلطان «بايزيد» عندما تراه؟»، ولما رد السفير بقوله: «كنت قد رأيته أثناء شبابه، ودخلت في خدمته عدة مرات؛ وعلى كل حال، فالشارب واللحية اللذين في وجهه لن يمنعاني من معرفته الآن، وأظن أنني سأعرفه بدلالة العين والحاجب»؛ أمر الشاه بحلق شعر ولحية الشهزاده المسكين، وتم تسليمه بلا شارب أو لحية، وأثناء تسليمه، كانت توجد فوق رأسه عمامة خشنة ورداء على ظهره. وكانت ملابسه مصنوعة من الصوف الرخيص الأخضر، وكان يحيط خصره حزام.

وكان الشاه الضال قد أظهر الأمير في هذا الوضع عديم الإنسانية إمعانًا في إهانته لآل عثمان، أما في «قزوين» فقد صب أهلها آلاف اللعنات على شاههم، وذلك عدا ما قاموا به من صياح وأنين والنفور والطعن الكثير للسفراء.

وبصفة عامة فقد حمل «علي أغا» المذكور أجساد الموتى، وقام بدفنهم في مدينة «سيواس»، وقد بنيت عليهم الآن قبة عالية، ويُتلى القرآن على أرواحهم كل يوم، وبعد ذلك، وصل السفير إلى الأمير السلطان سليم، وأخبره هذا الخبر الموحش بالتفصيل، ولما انتهت الأحوال على هذا المنوال غُمر الذين قاموا بهذا الأمر في العطاء الوفير على العادة السنية للسلاطين، وبسبب عدم مخالفة الأمر السلطاني فقد أُحسن عليهم من

(١) الموافق ٦ من أكتوبر ١٥٦٠م.

جانب السلطان بثلاث مائة ألف ذهبية ومن جناب الأمير سلطان سليم بمائة ألف ذهبية، وقد أعدت أيضًا بعض التحف اللائقة من أجل الشاه، وأرسلت مع الوزير الرابع «پرتو باشا» حتى المكان المعروف باسم «قاز آباد»؛ وبعد ذلك حملهم «إلياس بك» أمير «قره حصار شرقي» و«قره محمود أغا» ـ الذي ذهب قبل ذلك سفيرًا لحضرة الشهزاده ـ حتى «قزوين» وقاموا بتوصيلهم وتسليمهم إلى الشاه، ومرة أخرى وقع الإخلاص والصداقة بين الطرفين، وازدادت محبتهم ومودتهم بإرسال أنواع التحف والهدايا والكتب والمصاحف المذهبة والمرصعة والأمتعة الشاهانية القيمة والأسلحة السلطانية من جانب الشاه.

إرسال العسكر لفتح «مالطة» وعودتهم بلا فتح أو ظفر

سنة ٩٦٩ هجرية[1] اتجه «بياله باشا» الذي كان قبطانًا في ذلك الحين، والوزير «مصطفى باشا» ـ وهو الأخ الأكبر لـ «قزل أحمد لو شمس باشا» ـ الذي عُين قائدًا، اتجها إلى «مالطة» بثلاث مائة سفينة من نوع «قادرغة» و«قاليته» و«بارجة» و«باشترده» مع الأبطال الكثيرين ذوي الخبرة بالحروب من أرباب تيمار «الروم إيلي» و«الأناضول» و«قرمان» مع الآلاف الكثيرة من المسلحين من الإنكشارية والجبه جية والطوبجية، فركب «سموز علي باشا» الذي كان وزيرًا أعظم وكان رجلًا بشوشًا وصاحب مزاح، ركب سفينة السردار أي القائد المشار إليه من نوع «الباشترده» مع سائر الوزراء من أجل توديع الحملة بحسب العادة القديمة، فودعهم.

وبعد أن افترقوا، تحدث «علي باشا» إلى سائر الوزراء مازحًا بقوله: «لما كان المشار إليهما معروفين بابتلائهما بالكيف فقد أرسلناهما لمشاهدة الجزر. وعلى كل حال، فإن سفنهم كانت مملوءة بالشراب الأفيوني والقهوة، فلا أدري ما الخدمة التي يمكن أن يؤدوها، ولاسيما أنهم سوف يبقون في وافر الصفاء بالشراب الأفيوني والقهوة»، وهكذا أظهر تشاؤمه بعدم صفاء قلب كلا القائدين.

---

(١) الموافق سنة ١٥٦٢م.

وفي ذلك الحين، كان «طور غودجه باشا» أمير أمراء «طرابلس الغرب» وكان السلطان قد نبه قائلًا: «إنه أي طورغودجه باشا على معرفة ودراية أكثر من أي شخص بأحوال جزيرة مالطة»، وبالجهة التي ستضرب منها القلعة، وبالمكان الذي ستقام به المتاريس، فاحذروا أن تخالفوا رأيه»، ولكن، لما أقلعوا واتجهوا صوب المقصود ووصلوا إلى جزيرة «مالطة»، كان «طور غودجه باشا» لم يكمل حتى ذلك الوقت أسطول «طرابلس»، ولهذا لم يستطع أن يتوجه معهم إلى الجزيرة، ولم يستطع القبودان ولا السردار أن ينتظروا المذكور لعدة أيام؛ حيث إنهم رأوا أن تحركهم أمر مناسب، وقالوا: «ينبغي أن ننتظره من أجل محاصرة «مالطة»، ولكن علينا أن نصرف همتنا ونستولي على قلعة «سنترمة» التي هي عبارة عن برج متين وحصن حصين حاكمًا لـ «مالطة»، وحتى يتم ذلك، يكون «طور غودجه» قد وصل، وبعد ذلك، نصرف همتنا إلى «مالطة»». وعلى هذا نصبوا المتاريس وحاصروا «سنترمة» بإحكام.

وكانت القلعة المذكورة لا تقل عن «مالطة» متانة، وعمومًا، لما أتى «طور غودجه» بعد سبعة أيام، تألم جدًا لمحاصرتهم «سنترمة»، وتكدر كثيرًا واشتكى قائلًا: «ما فائدة الاستيلاء على «سنترمة»، فلو أنكم بنيتم عشرة أبراج مثل «سنترمة» فإنه لا يمكن السيطرة عليها ما لم يتم فتح مالطة»، وعلى كل فقد قام «طور غودجه» أيضًا ببذل ما في وسعه نحو «سنترمة» حتى فتحت في اليوم السابع عشر، ولكن ما الفائدة؟! فقد جرح خيرة العسكر واستشهد أشخاص كثيرون، وباختصار كانت قد ضعفت حمية العسكر المحاربين، وقصم وسط «طور غودجه باشا»، وصرفت معظم مهماته وباروده وسائر مستلزماته في فتح «سنترمة»، وفي النهاية، صرفوا همتهم إلى «مالطة»، حيث أقاموا المتاريس، وبدءوا في ضرب القلعة، ولكن، لما لم يحن وقت فتحها، ولم يقدر في ذلك الوقت، فقد بدأت أسباب الموانع في الظهور، وجرح «طور غودجه» من شظية مدفع، ويقول بعض الأشخاص: إن الشظية كانت من مدفعنا، ويقول بعضهم: إنها أتت من مدافع الكفار، وعمومًا ذاق «طور غودجه» شهد الشهادة من تلك الضربة التي أخذها ورحل من دار الغرور رحمة الله تعالى عليه.

وقام السردار برفع الروح المعنوية للعسكر قائلًا: «إن هذا الأمر إنما هو مقدر على هذا النحو»، وقام بزيادة رواتبهم، وأنعم وأحسن عليهم، أما القبودان باشا فلم يُلتفت إليه، مع أنه محارب ذو خبرة مثل «طور غودجة» ولم يُنعم أو يُحسن على الغزاة الذين كانوا في فرقته، ولا على أفراد البحرية الذين كانوا في الأسطول، ولم يعبأ القبودان باشا بهذا الوضع، ولم يرجع إلى السردار، ولم يستمع إليه، وبالجملة فقد تبدل ما بينهم من وئام إلى خصومة، وفي النهاية صرفوا النظر عن الاستيلاء على القلعة، وعادوا إلى «إستانبول» خائبين وخاسرين.

وفي إستانبول اتهم بعضهم بعضًا، فقد كان القبودان باشا، كلما تطلق المدافع، ينبه على الطوبجية أي على جنود المدفعية قائلًا: «إن السردار ينام في غفلة القيلولة، وينبغي ألا تطلق المدافع»، وعلى هذا حمل أفراد الأسطول ذنبهم على السردار قائلين: «ولما تم التنبيه على الطوبجية بعدم إطلاق المدافع، ماذا ينبغي عليهم أن يفعلوا، وكيف يمكن أن يسعى ويهتم عسكر الإسلام بالقتال»، وهكذا أنفقت أموال بهذا القدر وهلك غزاة بهذا العدد بلا فائدة، وعندما أتوا إلى باب الدولة بهذا الخجل والحزن، تم عزل السردار من الوزارة بهذه التهمة.

إجمالي الحملة الهمايونية على «سكتوار»(1) وتوجه السلطان عالي المقدار إليها

في ٩ من شهر شوال سنة ٩٧٣ هجرية(2)، لقد كان الباعث على تلك الحملة المأثورة بالعبر والتي وقعت في أواخر العمر المبارك لحضرة السلطان المظفر الذي ودع الدنيا الفانية خلال هذه الغزوة الغراء هو أن «يحيى لي أرسلان باشا» أمير أمراء «بدون» كان قد أرسل المكاتبات المتعاقبة إلى الركاب الهمايوني، حيث عرض الأمر وما آلت إليه الحدود قائلًا: «لقد ازدادت كثيرًا تعديات المجر الموجودين في مناطق الحدود على الممالك

(١) مدينة تقع في بلاد المجر وبالتحديد شرق «بودين» بحوالي ٢٣٠ كيلو مترًا.
(٢) ٢٩ من أبريل ١٥٦٦م.

المحروسة السلطانية، وخصوصًا بعد محاصرتهم قلعة «أكره»، فلما لم يكن قد حان وقت فتحها، فقد تجاوز الملاعين كثيرًا، وازدادت شقاوتهم وانتشرت مفاسدهم يومًا بعد يوم»، وعلاوة على ذلك فقد ذكر عدة مرات أن «سمون يانوش» ابن أمير «أردل» يصرخ من تعديات «فرديناند قرال» ملك «بج»، وأن «فرديناند قرال» قد وضع الأساس وفتح باب الفتنة والفساد بالاستيلاء على قلاع «سقمار» و«طوغاي» من قلاع «أردل»، وهكذا كتب «يحيى لي أرسلان باشا» عدة مرات وطلب المدد من مركز الدولة.

وعلى الرغم من أن السلطان عالي النسب قد ابتلي بضعف الشيخوخة والهرم وأصيب بالأمراض المزمنة والسقم، فإنه قد ثارت فيه عروق الغيرة والحمية السلطانية وانضم للدفاع عن شرف السلطنة؛ ففي اليوم السابع من شهر شوال المكرم من السنة المذكورة قام السلطان صاحب السعادة بتعيين الوزير الثاني «برتو باشا» صاحب الدراية الحربية العظيمة سردارًا أي قائدًا وقام بإرساله كطليعة للحملة قبله، أما هو فقد شمر عن ساعد الجد وتوجه في اليوم التاسع من الشهر المذكور الذي كان موافقًا يوم الخميس، من القسطنطينية المحمية وفقًا لمراسم آل عثمان القديمة وعاداتهم المطبقة منذ القدم، ثم تحرك وزراؤه، الوزير الأعظم الجليل «محمد باشا الطويل» والوزير الثاني «برتو باشا» والوزير الثالث «فرهاد باشا» والوزير الرابع «أحمد باشا» والوزير الخامس «قزل أحمد لو مصطفى باشا» وأمير أمراء الروم إيلي «شمس أحمد باشا» وقاضي العسكر «حامد أفندي» والنيشانجي «أكري عبدي زاده محمد جلبي» ودفترداريتها «مراد جلبي» و«محمد جلبي» و«حسن جلبي» وأغا الإنكشارية «علي أغا» وسائر الأعيان والأركان، حيث ساروا في الموكب الهمايوني كالعادة ووفقًا لمراسم العثمانيين، وكان قد تفضل السلطان صاحب السعادة بشرف النزول من منزل إلى منزل، ولكن كان خاطره الطيب متألمًا ومنكسرًا بتأثير الشيخوخة، وبتأثير مرض النقرس الذي ألم به في جسده المبارك، ولكن كانت معظم تحركاته مقصورة على عربته ذات الخيول، وأحيانًا على المحفة، ولكن في أثناء مروره من بعض المدن والقصبات، كان يمتطي الحصان ويمر به.

ولما تفضل بالنزول إلى صحراء «زمون»، قام «شمس باشا» في ذلك اليوم بتنظيم طوابير الروم إيلي، وقام بالعرض العسكري الذي لم تشاهد عين الفلك مثله حتى ذلك اليوم، وبعد ذلك نال أيضًا «سليمان باشا» أمير أمراء «قرمان» تقدير والتفات السلطان بتنظيم الطوابير، والصفوف صفًا صفًا بعسكر «قرمان»، وبعد ذلك، وقف ابن أمير «أردل» الذي كانت السلطنة قد أحسنت عليه بإمارة «أردل» أثناء فتح «بدون» وقف للسلام بموكب كامل ومرتب، حيث حاز على الإعجاب السلطاني، وبعد ذلك صدر الأمر بأن يتجه المذكور شخصيًا على «أكره» بالعسكر المأثورة بالظفر، وذلك بناءً على طلبه وصدق رؤيته، كما صدر الأمر ببناء جسر عند «وارادين» وصدر الأمر إلى ابن أمير «أردل» بأن يتوجه أولًا بعسكر التتار الذين انضموا إلى جانبه مع أبناء ملوكهم إلى «سقمار» و«طوغاني» اللذين كانا مراده واللذين كانا قد فصلهما «فرديناند قرال» عن مملكة «أردل» قبل ذلك بسنة، وضمهم إلى ممالكه المنحوسة، وكانت قد قررت الأحوال على هذا المنوال، حتى إنه بسبب إعطاء الإذن الهمايوني بعبور الفرسان الجسر متقدمين إلى الأمام، وبسبب أن كان ساحل «باجقه» مكانًا ذا عشب وماء وفير، أسرع كل شخص في العبور، حيث عبر معظم الجند إلى الساحل الآخر، وقد اتفق أن هذا الرأي والتدبير لم يكن موافقًا التقدير الإلهي.

وكان أمير السنجق المكلف بالمحافظة على قلعة «بچوي» قد نزل بالقرب من قلعة «شقلوش» بعسكره، وفي ذلك الحين، كان «إسكندر آلاي بكي» رئيس جند «بچوي» موجودًا في «شقلوش»؛ ولذا فإن أمير السنجق توجه إلى الأمير المذكور؛ أي «إسكندر آلاي بكي» وسعى لدخول القلعة قائلًا: «إن قضاء الليل هنا خطر»، ولكن أمير السنجق لا يُسمح له بالدخول على اعتبار أنه لن يحل به أي ضرر من قضاء الليل في الخارج، ويقوم بوضع نقط حراسة محكمة على محاور الطرق، ويهتم بالحفاظ على الجيش.

وهكذا كان قد قدر في تقدير الباري أن يكون هذا الأمر سببًا في الاستيلاء على «سكتوار»، ففي ذلك الحين، أرسل الحقير أمير «سكتوار» الذي كانوا يطلقون عليه اسم «زرنسقي مقلوش» ألفًا من طائفة «الحيدود»، وأربعمائة من طائفة الـ «قطانه» حتى

يقوموا بحرق ونهب الحي الخارجي لـ «بچوي»، ومن ثم يهجمون على القلعة، ويحضرون أسرى يمكن أن يدلوا بمعلومات عن قواتهم، حتى يحصلوا على الخبر الصحيح حول وجهة السلطان صاحب السعادة، وكان قد أتى هؤلاء الملاعين إلى القرية المعروفة باسم «پشه» الواقعة بين «سكتوار» و«شقلوش»، وهناك راحوا يأخذون الأخبار من الرعايا، بأنه نزل عسكر كثيرة أمام «شقلوش»، وعلى هذا اتجهوا في الحال صوب «شقلوش» بهدف التأكد من تلك الأخبار عن سلطان الإسلام وبهدف الحصول على الغنائم الكثيرة التي يمكن أن تؤخذ من هؤلاء، وبتقدير الملك المنان يهطل مطر شديد، حتى يضطر كل واحد من العسكر الذين وضعهم الأمير المذكور «أمير بچوي» كحرس عند محاور الطرق إلى إدخال رأسه في العشب، ويلقي بوظيفة الحراسة، ويزعم أنه لا توجد لدى العدو القدرة التي تمكنه من التحرك، ويصبح الأمير المذكور في أمن مع عسكره من كثرة الوحل والمطر، أما الملاعين فقد غرق كل واحد منهم في الماء النجس حتى وقت السحر؛ حيث شكلوا عدة طوابير من الكلاب التي مثل الخنازير وهجموا على الأمير المذكور، فألحقوه هو وابنه بزمرة الشهداء، وهزموا سائر عسكره ونهبوا وخربوا كل ما ملكوا.

وما إن يصل هذا الخبر المؤلم إلى مسامع السلطان حتى يصرف النظر عن الذهاب إلى ناحية «أكره» ويأمر بعبور العسكر إلى ساحل «سرم»، وكان القبطان المعروف باسم «علي بورتوق» الذي كان أمير سنجق «قارلي إيلي»، وأفضل القراصنة الأبطال وأحسن أقرانه في علم المدفعية، وضرب القلاع، كان مكلفًا بالحفاظ على سفن الذخيرة بقطعتين من «القادرغة»، وكان مكلفًا كقائد على أسطول «طونه» ببناء جسر هناك، وفي الحال أرسل الأمر الشريف إلى القبطان «علي بورتوق» وأمر أن ينتقل الجسر ويقيمه على نهر «دراوه»، وتم تعيين أغا الإنكشارية «علي أغا» لإتمام هذا الأمر، وأرسل للعبور إلى ساحل «مهاج» قبل عساكر الإسلام من أجل الإقدام والاهتمام بعملية تأسيس الجسر، ولما تم أمر بناء الجسر في خلال عشرة أيام،.تفضل السلطان صاحب السعادة أيضًا بالنزول إلى صحراء «أوسك» مع الجيش الهمايوني، حيث بدأ في عبور الجسر في

الحال، وفي أثناء عبور السلطان صاحب السعادة عبر بسفينة القبطان «علي بورتوق»، وتم النزول إلى صحراء الجبل العظيم المعروف باسم «أرشان» الذي كان معروفًا للعالم، حيث أقيم بها يومين.

وفي ذلك الحين، ألحق «محمد باشا زاده أرسلان باشا» أمير أمراء «بدون» بزمرة الشهداء بسيف الإعدام السلطاني أمام الأوتاق الهمايوني، «رحمة الله عليه»، وكان جرمه أنه لما سمع أن السلطان صاحب السعادة وحامي العالم توجه إلى الحملة الهمايونية، جمع عسكر «بدون»، وذهب وحاصر قلعة «بولاطه» التي تقع قرب «أستوني بلغراد» والتي تجاوز أشقياؤها بتصرفهم عن الحد، ولكن لما علم «فرديناند» اللعين ملك «نمچه» بتوجه السلطان صاحب السعادة إلى الحملة، كان قد بدأ بجمع العسكر، فأرسل العسكر الموجودة تحت يده على «أرسلان باشا»، ولما لم يستطع «أرسلان باشا» المقاومة، اضطر إلى رفع الحصار عن القلعة، والإسراع لحماية «بدون»، إلا أن الكفار يسبقونه ويستولون على قلعة «پسپرم»، وبعد ذلك، يتوجهون أيضًا إلى قلعة «تاتا» ويضمونها إلى الممالك المنحوسة، ثم إنهم وضعوا الطوابير المنحوسة بالقرب منها، وانتظروا تحرك عسكر الإسلام.

وبناء على هذا عُهد في ذلك الحين بإيالة «دون» إلى «مصطفى باشا» أمير سنجق البوسنة الذي كان أخا الوزير الأعظم الجليل، وكان «مصطفى باشا» المشار إليه المعين واليًا على «بدون» والذي كان شرفًا للوزراء الكرام قد فتح قلعة «قوربه» في البوسنة قبل عام، وسلم على السلطان صاحب السعادة بالقرب من «ولغوار» مع خدمه الذين يتجاوز عددهم الألف، ومن أجل ذلك، رؤى إنه يليق بالعناية السلطانية، فأحسن إليه بـ «بدون»، وبعد ذلك أُرسل مع أمير أمراء «قرمان» لحماية «بدون» وكلفوا بالإقامة عند رأس البحيرة الواقعة قرب «أستوني بلغراد»، وبحماية تلك الأطرف، ومن هذا المنزل عين «شمس باشا» أمير أمراء الروم إيلي، كطليعة للعسكر لمحاصرة القلعة، وقد أرسل البطل المومأ إليه المعروف باسم «علي بورتوق» والبطل المعروف باسم «نصوح بك» أمير سنجق «بوژغه» معًا، من أجل أن يستطلعوا الأماكن التي سيقام بها المتاريس،

وفي اليوم التالي، ولما تحرك السلطان مع عسكر الإسلام، جاءوا إلى المنزل الثاني أمام «سكتوار»، ومع أن السلطان صاحب السعادة ومدار العبودية، قد أقام خيمته الهمايونية على حافة البحيرة في الجانب العلوي من «سكتوار»، فإنه رؤي أن النزول إلى هذا المكان غير مناسب؛ نظرًا لأن ذلك المكان يمكن أن تصل إليه دانات المدافع من القلعة، وكان المكان الذي تقع فيه الآن تربته المباركة[1] عبارة عن غابة «بالوط»، عبورها صعب للغاية، حيث كانت محاطة بأشجار الخلنج، ولذلك، قام عسكر الإسطبل المسلحون بالبلط وخدم الحرم الهمايوني في الحال بتطهير ذلك المكان الكثيف الأشجار، وذلك بالهجوم عليه حتى جعلوه صحراء لا نظير لها، وبعد ذلك، نصبت الخيام الأخرى، ولم ترفع الخيام التي أقيمت من قبل من ذلك المكان حتى فتح القلعة.

وكان النزول الهمايوني في هذا المكان في اليوم العشرين من «المحرم الحرام» «سنة أربع وسبعين وتسعمائة هجرية» اليوم الخامس من شهر أغسطس الرومي، وقام الوزير الثالث «فرهاد باشا» وأمير أمراء الأناضول «محمود باشا» بمحاصرة الجانب الجنوبي والغربي من القلعة، وحاصر الوزير الخامس «مصطفى باشا» وأخوه الأصغر أمير أمراء «الروم إيلي» «شمس أحمد باشا» الجانب الشمالي من القلعة، ودخل أغا الإنكشارية «علي أغا» مع أبطال الإنكشارية إلى المتاريس الواقعة بين فرقة جيش «فرهاد باشا» وفرق الروم إيلي، وعين أيضًا القبطان «علي بورتوق» وأمير «بوزغه» «نصوح بك» للتمركز في الجانب الغربي لفرقة جيش «فرهاد باشا»، وعلى هذا المنوال شرع في ضرب القلعة ليل نهار من أربع جهات، وتم تعيين «محمد خان» وهو من عائلة «ذو القدرية» وكان متصرفًا على سنجق «كوستنديل» بدرجة «أربه لق»[2] في نقطة حراسة، وكلف بالعبور

---

(١) توفي السلطان سليمان القانوني قبل فتح «سكتوار» بيومين، حيث دفن في هذا المكان بصورة مؤقتة، وبعد الفتح بقي الوزير الأعظم وعساكر الإسلام في صحراء «سكتوار» ثلاثة وأربعين يومًا بهدف تعمير القلعة وترميمها، وعند العودة إلى إستانبول أخرج جسده المبارك وحمل إلى إستانبول.

(٢) هو شيء يعطى كمعاش على العزل أو التقاعد للموظفين المدنيين والعلماء المعزولين أو المتقاعدين. ووفقًا لتعريف شمس الدين سامي في «قاموس تركي» فهي المخصصات التي تعطى عينًا أو نقدًا لرجال الطريق العلمي.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. I، S. 84.

إلى خلف البحيرة المملوءة بالوحل والماء والمعروفة باسم نهر «ريكه»، وبعد ذلك تم فتح الحي الخارجي للقلعة في اليوم السادس، حيث قتل ما يزيد على ستمائة كافر.

وحتى تتدفق مياه البحيرة التي كانت محيطة بالقلعة الداخلية قاموا بقطع السد، وبعد عدة أيام، نفد ماء البحيرة تمامًا، ولكن لما دخلوا إلى البحيرة، كان بها الوحل والطين الذي يمكن أن يغرق الجمال، وكان قد أحضر وبرًا كثيرًا من أجل غزل مساكات يضعها العسكر في أيديهم من أجل حمل الحطب، وتم ملء الأجولة بالتراب، حيث ملئت عدة أجولة واجتهدوا في ردم ذلك المستنقع، وبفضل الله تعالى تم إنشاء طريق واسع يمتد حتى جدار القلعة من كل جانب، وذلك خلال عدة أيام، وبعد ذلك، تجلت إمكانية الاستيلاء على حصن القلعة، حيث راح بعضهم يسحب الأعمدة، وبعضهم يقطع القضبان ويدق بها، وبعضهم كان يسكب القطران داخل المتراس ويشعل النار.

وقد ضحى الملاعين الذين كانوا بداخل القلعة بأرواحهم، وكان هذا البلوك عديم الدين يسعى ويجتهد بهذا القدر الذي كانوا فيه يتسابقون لبذل الروح، وباختصار، حرقت وحطمت قضبان وأعمدة الحصن في كل ناحية، ولكن العائق كان يتمثل في التراب الذي كان محشوًّا في الجدار، حيث كانت قذائف المدافع الموجهة إليه تصطدم بالتراب ولا تحرق أي شيء، وكان الكفار يزيدون من وضع التراب في هذا الجدار، ويحكمون تحصينه من الجهة الداخلية بأوتار القماش، ثم يترقبون الفرصة؛ ولا يطلقون المدافع والبنادق عشوائيًا، لكن كانوا يطلقون دانات المدافع، أثناء هجوم عسكر الإسلام، فيحرقون كثيرًا من الغزاة ويؤخرونهم بالحراب الطويلة ويردونهم إلى الخلف، ثم يقوم الغزاة أيضًا بصنع حراب بخطاف مدبب، حيث كانوا يسحبون بها الكفار إلى الخارج، ثم يقطعون رءوسهم، وعمومًا فإنه لا يمكن إيضاح وتسجيل أحداث القتال والحرب وأنواع المصادمات والضرب الذي حدث أثناء الهجوم على القلعة المذكورة، وفي النهاية، صدر الأمر بالهجوم في اليوم الرابع والعشرين من شهر صفر الخير الموافق

اليوم السابع من شهر أغسطس الرومي، فهجم جملة العسكر دفعة واحدة بموجب الغيرة والحمية الإسلامية، ولم يعطوا الكفار فرصة قط. وبفضل الله تعالى وفقوا في فتحها والاستيلاء عليها، ولقد استشهد رجال كثيرون في هذا الهجوم من أصحاب مقاطعات الزعامة وأرباب التيمار، ومن سائر عسكر «الروم إيلي»؛ حيث ودعوا العالم الفاني ولحقوا بالحياة الباقية، ويروى أن الكافر المعروف باسم «زر نسقي مقلوش» الذي كان أميرًا على القلعة لما علم بما آلت إليه الأحوال، علق حبلًا من نوع «طورنه» حول رأسه، وارتدى ملابسه ووضع مائة ذهبية في جيبه وقال: «فلتكن هدية لذلك الغازي الذي سيقطع رقبتي»، وحتى الكفار كتبوا: «إنه كان يوجد لديه سيف باقٍ من أجداده، فتقلده وانطلق به على عسكر الإسلام، فأطلق أحد الغزاة الذين في المواجهة بندقية إلى صدره، ثم أصابه سهم في رأسه، فسلم روحه الخبيثة إلى زبانية جهنم».

وبعد أن استراح عسكر الإسلام في ذلك اليوم تمامًا، وصل الوزراء والوكلاء؛ لمشاهدة القلعة، ومكثوا فيها، ثم أكملوا بعض مهماتها ومستلزماتها. فإنه كان يوجد بارود كثير في مخزن منزل الملعون «زرنسقي» الذي يشبه إسطبل الخنزير؛ حيث اشتعل هذا البارود فألحق الضرر بالكثير من الرجال وغالبًا إن ذلك قد حدث إما بوضع الملعون الفتيل، أو لمس البارود النار من المغيرين، وقد ألقى بعض الرجال على الأرض حتى وصل ارتفاع جثثهم قدر سهم، فإنه لم يلحق ضرر بأي شخص من أصحاب الدولة، ولما أصبحت القلعة المذكورة أي قلعة سكتوار من عدد القلاع الإسلامية. عُهد في البداية بإمارة سنجقها إلى قائد جند «بچوي»؛ حيث تم تعيين قاضي و«دزدار»؛ أي حامي ومستحفظين أي حراس لها، وأكملت سائر اللوازم والاحتياجات لها.

وبينما كان عسكر الإسلام أمام «سكتوار»، أرسل الوزير الخامس «مصطفى باشا» - الموجود في الحملة - في اليوم التاسع والعشرين من الشهر المذكور مع أخيه أمير أمراء الروم إيلي «شمس باشا» وجميع عسكر «الروم إيلي» وألفان من جند الإنكشارية وفرقتان من «بلوك خلقي» مع أغواتهم، وأرسلوا جميعًا لفتح قلعة «بوبوفچه»، ولما نزل هؤلاء تجاه القلعة، قام الملاعين الذين بداخلها بترك القلعة في تلك الليلة وولوا

الأدبار، وبفضل الله الملك العلام استولى أهل الإسلام على القلعة المذكورة، وبعد أن استكملت احتياجاتها خلال أربعة أيام، عادوا والتحقوا بالجيش الهمايوني، وبعد ذلك، أذن بالتحرك، حيث تم اختيار الكثير من العسكر، ليتوجهوا صوب أطرف «قنيژه» و«برزنچه» و«قونار»، وعادوا إلى الجيش الهمايوني بالصحة والسلامة وبالغنائم الزائدة عن الحد.

فتح قلعة «كوله» و«يانوه» و«دلاغوش»

في سنة ٩٧٤ هجرية[1]، كان السلطان صاحب السعادة الذي مأواه الجنة قد قام بتنصيب الوزير الثاني «برتو باشا» سردارًا أي قائدًا قبل توجهه من «إستانبول» بيومين، ثم أرسله إلى تلك الأطراف، فقام المشار إليه «برتو باشا» بتعيين ألفين من الإنكشارية ومن جند خدم الباب وبلوك «علوفجي يسار» وبلوك «غرباء يمين» وقدر كافٍ من الطوبجية والجبه جيه، وأصحبهم بعسكر إيالات أمراء «سمندرة» و«ودين» و«طمشوار» وعسكر التتار والأفلاق والبغدان، وكلفهم بفتح القلعة المذكورة قلعة «كوله»، وبعون الله تعالى وصلوا إليها، وحاصروها أكثر من ثلاثين يومًا، وفي النهاية، فتحت بالاستسلام، حتى إن المرحوم «يحيالو صوفي محمد بك»؛ نظرًا لأنه كان أمير سنجق «ورات» فإنه في ذلك الحين، دخل القلعة وقرأ وثيقة الاستسلام، وبينما كان الكفار يخرجون ويذهبون، نقض بعض الغزاة وثيقة الاستسلام، وسلوا السيف على الكفار وأوقعوهم جميعًا في لحظة واحدة على تراب الموت، وفي ذلك الحين، يجرح المشار إليه «محمد بك»؛ لأنه كان موجودًا بين الكفار؛ حيث ينجو من الموت بصعوبة، وقد فتحت أيضًا قلاع «دلاغوش» و«يانوه» في تلك الحملة المأثورة بالنصر، وكانت قد أتت البشرى قبل فتح «سكتوار» بيومين أو ثلاثة، فاستبشر عسكر الإسلام بها.

---

(١) الموافق سنة ١٥٦٦م.

وداع السلطان المغفور له للملك الفاني
وانتقاله إلى السلطنة الباقية

في سنة ٩٧٤ هجرية[1]، من المؤكد أنه عندما تسقط نفوس البشر في قبضة الأجل في نهاية الأمر، لم يستطع السلاطين الذين يحكمون الدنيا من أولها إلى آخرها أن تكون لهم حيلة في مواجهة هذا الأمر، وعثر الحكماء على الطريق إلى الأفلاك بالسلالم المعتمدة على الهندسة، ووصلوا إلى مقصدهم، فإنهم لم يجدوا الدواء لداء الأجل ولم يتخلصوا من تلك المصيبة.

ودع السلطان المغفور له السلطنة الفانية بموجب مضمون الآية الشريفة: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾[2] في تمام الساعة التاسعة من ليلة الخميس الموافق ليلة اليوم الثاني والعشرين من الشهر المذكور قبل فتح قلعة «سكتوار» بيومين، رحمة الله تعالى عليه رحمة واسعة، وبناء على هذا، راعى الوزير الأعظم الجليل «محمد باشا الطويل» الدقة والاهتمام في إخفاء هذا السر، حتى إن الوزراء رفيعو المقام لم يقفوا على هذا الأمر، ولم يفش هذا الأمر لأي فرد سوى لـ «فريدون بك» رئيس الكتاب، وربما كان قد كتب هذا الوضع لـ «أمير سليم خان» قبل أن يصبح القلم واقفًا على الأمر ومحيطًا به، حيث طلب قدومه الشريف إلى عسكر الإسلام بالعزة، وأرسل الرسالة مع الساعي المعروف باسم «حسن جاوش» الذي كان ذا خلق عال والشبيه برياح الصبا في سرعته، فتوشح المشار إليه «حسن جاوش» بحزام الغيرة والحمية تاركًا الراحة والهدوء في السرعة بالدرجة التي وصل فيها من «سكتوار» إلى «كوتاهية» في ثمانية أيام ونال عظيم الرعاية بتسليم الرسالة إلى جناب السلطان، وأتى الأمير صاحب السعادة وعالي الجناب في اليوم التاسع إلى دار السلطنة القسطنطينية تاركًا الراحة والنوم، وفي اليوم التاسع من شهر ربيع الأول[3] شرف العرش المقرون بالسعادة الجلوس الهمايوني.

---

(١) الموافق سنة ١٥٦٦م.
(٢) سورة الفجر: الآية ٢٨.
(٣) الموافق ٢٤ـ٩ ـ١٥٦٦م.

وتشرف شيخ الإسلام والموالي العظام وسائر الأعيان من أصحاب الرأي السديد الصائب الموجودون في الآستانة بتقبيل قدم العرش مصير العالم لمبايعة السلطان، وكان قد كلف «إسكندر باشا» الذي كان قد رقي من رتبة «بوستانجي باشي» بحماية «إستانبول»، وفي اليوم التالي، أدى السلطان «سليم» صلاة الجمعة في مسجد حضرة «أبي أيوب الأنصاري» رضي الله تعالى عنه، وزار مراقد أجداده العظام، وفي اليوم الثالث، تفضل بالتوجه إلى جانب بلغراد بالعزة والإقبال، ووصل إليها بسرعة دون أن يستريح في أي منزل.

ومن ناحية أخرى، استراح وأقام الوزير الكبير والجليل ثلاثة وأربعين يومًا في صحراء «سكتوار» بعد الفتح بهدف تعمير قلعة «سكتوار» وترميمها؛ وبعد ذلك أخرج الجسد المبارك للسلطان المغفور له في اليوم الثالث من شهر ربيع الآخر من المكان الذي كان مدفونًا به بصورة مؤقتة، ووضعه في المحفة، ثم تفضل بالعودة، وكان أحيانًا يقترب من المحفة ويقرأ التلخيص كما لو يعرض القضايا، وكان يتظاهر بأنه يتناقش مع السلطان قليلًا، وهكذا أخفى الأمر بمهارة حتى لم يقف معظم خدم الحرم الهمايوني على الأمر، ويركب «جعفر أغا» الذي كان سلحدارًا في ذلك الوقت، وكان قد أصبح صهرًا للوزير الأعظم الجليل فيما بعد، يركب المحفة مع نعش المرحوم ويجيب الوزير الأعظم، وكان أحيانًا يقوم بدفع المحفة، وكلما قام الصدر الأعظم بعرض تلخيص بعض القضايا، كان جعفر أغا يحرر الإجابة عليه؛ نظرًا لأن خطه كان يشبه خط المرحوم السلطان، وكان يقال كل شيء بين الناس، إلا أن تلك الشبهات كانت تزول بتدبير الوزير الجليل، ولم يُحط أي شخص قط علمًا بوفاة أو حياة المرحوم بشكل قاطع.

ولما اقترب الركب إلى منزل «بلغراد»، شاع نبأ وصول حضرة الأمير سلطان سليم إلى «بلغراد»، ولكن لم يستطع أي شخص أن يفتح فمه أو يتحدث بوضوح، وفي تلك الليلة، أتى الأمير السلطان سليم بالعزة إلى الخيمة الهمايونية، ودخلها، وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، تسنم تخت السعادة المحفوف بالحظ وتشرف وزراء ووكلاء الدولة بشرف تقبيل حاشية ثوب الأمير سليم، وبايعوه، وأحاطوا به جميعًا كالعادة،

وأدوا الصلاة أمام الأوتاق الهمايوني، وبعد ذلك، أرسل الأمير سليم كلًّا من الوزير «أحمد باشا» و«الشيخ نور الدين زاده أفندي» و«فرهاد أغا» محبوب المرحوم مع نعش المرحوم المزدان بالرحمة إلى جانب إستانبول، ثم أمر الأمير «السلطان سليم» بدفنه أمام محراب جامعه الشريف.

في ذكر خيرات وحسنات السلطان المغفور له

أولًا الجامع الكبير المشهور باسم السليمانية في إستانبول والذي هو غني عن التعريف والتوصيف، وحتى الفضلاء الذين كتبوا التواريخ من علماء الخطوط الجميلة والذين حفروا إشارتهم في ذلك الوادي على المرمر، اعترفوا بعجزهم وقصورهم عن تعريف وتوصيف ذلك الجامع، فكيف يستطيع حقير مثلي يجري الأقلام سريعة البيان في هذا الموضوع، وبخاصة، فإنه يحتوي على أربع منارات، وميضأة في حرمه الداخلي، وماء جار بالحنفيات المتعددة والموضوعة من أجل الطهارة على جانبي الميضأة، وبصفة خاصة، توجد به أربع مدارس، وأيضًا دار للحديث، ومدرسة للطب، وخلاف ذلك توجد به عمارات عالية، وحمامات متعددة، ودار الشفاء، ودار الضيافة أغني به «تابه خانه»، وحجرات بلا مثيل، ولا يمكن تعداد سائر الأبنية الجميلة الموجودة به، وكان قد شرع في بنائه سنة ست وخمسين وتسعمائة هجرية، وتم بناؤه في سنة أربع وستين وتسعمائة هجرية بمساع حثيثة ومشقة وعناء، وطبقًا لحساب أمين البناء، فقد تم صرف ثمانمائة وست وتسعين ألفًا وثلاثمائة وثلاثة وثمانين فلوريًّا، وبحسب حساب ذلك العصر، فقد بلغ هذا المبلغ سبعة وثلاثين حملًا، واثنين وثمانين ألفًا وتسعمائة أقچة، وبحساب اليوم يقترب لألفين ومائتين وأربعين حمل أقچة.

ـ سبيل «قرق چشمه»:

وهو أيضًا من الخيرات القيمة. فقبل أن تجري الأنهار المذكورة إلى إستانبول، كان كل شخص يحتاج لرشفة ماء، وكان يحضر الماء بعناء عظيم، وبقدر ضئيل، ويؤمل أن تكون المثوبات العظيمة التي اكتسبها في هذا الموضوع ديباجة لدفاتر حسناته، والأموال

التي صرفت من أجل إتمامه لا تقل كثيرًا عن مصاريف الجامع الشريف، فقد كتبوا أن مصاريفها بلغت «خمسمائة وسبعة أحمال وثمانين ألف أقچة».

- جسر «چكمجه» الكبير:

هو أيضًا خير عظيم، ولا حاجة لتعريفه وتوصيفه، والذين يأتون من الروم إيلي إلى الآستانة لا بد أن يذهبوا ليشاهدوه، وقبل بنائه لم يكن من الممكن النجاة من وقوع الحوادث أو سقوط قطيع إبل، وغرق العربات من نوع قوچي، وبصفة خاصة في أيام الشتاء، وقد كتبوا أنه صرف عليه أيضًا حوالي مائة وخمسة عشر حمل أقچة.

- جامع السلطان «سليم خان» طاب ثراه :

بعد أن دفن والده المرحوم المغفور له السلطان سليم الأول أمر ببناء تربة عالية عليه وجامع شريف، وعمارات لطيفة، ومكتب ودار للشفاء، ومدرسة عالية ودار للضيافة، وقد أعطيت أربع مائة ألف ذهبية بالتمام من الخزينة الداخلية، حيث صرف على تلك الأبنية من هذا الحساب.

- جامع الشهزاده «سلطان محمد خان» المبارك - رحمة الله عليه:

وهو جامع عظيم الشأن ولا ينقص عن الجوامع المباركة لسائر السلاطين العظام، وإنما يماثلها، ولا حاجة لتعريف عماراته، ومدرسته، وتابخانته أي دار ضيافته وغيرها.

خيرات وحسنات والدة أولياء العهد أعني «خاصكي سلطان»

إن الجامع العالي والعمارات ودار الشفاء والمدرسة وسائر الخيرات التي كانت موجودة في «عورت بازاري»، كانت معروفة لكل شخص، ومن جملة لطف الطبع الشريف للسلطان المغفور له أن تقام خيرات «خاصكي سلطان» في منطقة «عورت بازاري».

ـ جامع الأمير جهانگير المبارك :

وهو الجامع المبارك الذي يقع على الربوة العظيمة المطلة على الـ «طوبخانه».

ـ وفي بغداد المعمورة بالجنان:

تم تجديد قلعة متينة وجامع شريف وعمارات لطيفة وتربة عالية ودار الضيافة على المرقد ناثر الأنوار لحضرة الإمام الأعظم ـ رحمة الله تعالى عليه، وكذلك تم تجديد القبة العالية التي كانت فوق المرقد المبارك لحضرة الشيخ «عبد القادر كيلاني» ـ رحمة الله تعالى عليه، وتم تعمير وترميم جامعه المبارك من جديد؛ كما تم تجديد عماراته العالية وسائر خيراته؛ وقد عينت عليه الأوقاف بالقدر الكافي.

ـ وفي قونية أيضًا:

تم بناء جامع عالٍ ذي منارتين بالقرب من المرقد المشع نورًا لحضرة «منلا جلال الدين» قُدِّس سرّه، وسماع خانه[1]، ومسجد لطيف وعمارات معمورة، ودار للضيافة، وحجرات أخرى من أجل الدراويش.

ـ وفي الشام المباركة:

جامع عالٍ، ومدرسة، وعمارات، ومكتب وغير ذلك.

ـ وفي مدينة «كفه» و«إيزنيق»:

بينما حولت الكنيسة الكبيرة في كل واحدة منهما إلى جامع مبارك، فقد تعرضا للخراب مع طول الزمن، ولهذا السبب، فقد تم تجديدهما، وتعيين الأوقاف لهما بالقدر الكافي. وكانت تحول كل كنيسة موجودة في كل قلعة أو حصن أو قصبة فتحت في

---

(١) هو المكان الواسع المخصص لسماع أجراس التكية المولوية. وهو أيضًا المكان المخصص للذكر والمقابلة في التكايا.

ـ شمس الدين سامي : قاموس تركي، إستانبول ١٣١٧ هـ ص ٧٣٤.

عصره المبارك كانت تحول إلى جامع مبارك، أما حينها كانت لا توجد كنيسة كانت تبنى الجوامع من جديد وتكمل اللوازم الإسلامية.

ـ أما حسناتها التي كانت في الحرمين المحترمين، والصدقات الوفيرة فكانت أساسًا لحياة سكان الحرمين، ومع أنه كانت هذه الصدقات موجودة من قبل، ولكن كانت أحيانًا تصل وأحيانًا لا تصل، أما الآن فأصبحت تصل أضعافًا مضاعفة، وتوزع وتقسم على يد أمين وكاتب على الوجه الذي يضمن وصولها لكل فرد محتاج بلا قصور.

وصدقة الحبوب، هي واحدة من هذه الصدقات، ومع أن الذي وضع هذا هو والده العظيم «سلطان سليم»، فاتح ممالك العرب والعجم فإن تلك الأماكن المباركة قد عمرت في العصر المبارك للسلطان «سليمان خان»، ولما ازداد الفقراء والمجاورون في الأماكن المقدسة، راح يزداد ذلك القدر من صدقة الحبوب بالتدريج، حتى زادت أكثر من الضعف.

وصدقة جوالي، يعني خراج أهل الذمة هي واحدة من تلك الصدقات، وكانت قبل ذلك شيئًا قليلًا جدًا، وكانت مقصورة على بعض العلماء والأعيان فقط، ولكن عينت لمعظم سكان الحرمين في عصر دولة المرحوم «سليمان خان»، وصدقة الماء الجاري التي هي «عين عرفات»، هي واحدة من تلك الحسنات، وقد أجرت «زبيدة خاتون» هذا الماء قبل ذلك، ولكن بسبب أن خيم الخراب عليها كان يسحب هذا الماء بعناء شديد، حتى إنهم كانوا يشترون في يوم عرفة قربة الماء التي يمكن حملها بإصبع واحدة بذهبية، ولما أجرى السلطان المغفور له ثلاثة أو أربعة عيون، أنقذ جميع الحجاج من ندرة احتياجات الماء.

والمدارس الأربعة التي بناها في الحرمين المحترمين، هي أيضًا واحدة من خيراته، فقد أمر ببناء أربع مدارس عالية في مكة المكرمة نفسها من أجل المذاهب الأربعة، وقام بتعيين خمسة عشر طالبًا ومعيدًا لكل واحدة منها، على غرار القواعد المتبعة في مملكة الروم، حيث كانت تصل معاشات هؤلاء إلى أيديهم دائمًا.

ودار السعادة لأم المؤمنين حضرة خديجة رضي الله تعالى عنها التي أنجبت وشرفت العالم بحضرة فاطمة رضي الله تعالى عنها وسائر أولادها الكرام كانت دار السعادة هذه

قد أصبحت مسجدًا فيها بعد، ثم إنه بسبب أن خيم الخراب عليه، قام السلطان المغفور له بتعميره، وأمر ببناء قبة عالية عليه، والآن يجتمع فيه الفقراء والدراويش كل يوم جمعة حتى وقت العصر وكل ليلة ثلاثاء حتى الصباح يذكرون الله تعالى.

وقد قام ببناء عمارات عالية في المدينة المنورة، خلاف العمارات كثيرة النعمة التي شيدها من أجل المرحومة «خاصكي سلطان»، حيث كان يتم الإعداد لضيافة الفقراء في مكة والمدينة كل يوم فيها، ويجري الأنهار مثل نهر الكوثر إلى مدينة «أدرنه»، ولا يخلو الفقراء من الحصول على الحياة الجديدة والسرور الذي بلا حدود بتفجيره بعض العيون، والجامع المبارك، والعمارات الجميلة، والخان الكبير المملوء بالسعادة العظيمة في حي «مصطفى كوبريسي» هي من عداد خيرات المرحومة «خاصكي سلطان»، والمنزلان الواقعان على ساحل البحر في «أسكدار» من أجل ابنته «مهرماه سلطان» عالية الحظ، والمدرسة والكتاب والجامع والعمارات، تعد جميعًا بأمره وبدفع معظم مصاريفها ومستلزماتها من خزينة جنابه العالي، ولما كانت سائر خيراته وحسناته تتجاوز حد التعبير والتحرير، فقد اكتفي بهذا القدر.

وفي القدس المباركة فإن صخرة الله المنقوشة داخلها وخارجها؛ يعني أخشابها وحجراتها، والمزدانة بالخزف الجميل وبأنواع النقوش هي أثر معتبر لدرجة تثير حسد الإنشاءات الصينية، حيث استقرت على رأس صفحة حسناته كاللوحة التي بلا نظير.

في ذكر الصلح والصلاح مع الكفار الذين مقرهم النار في عصر سلطنة الوالد العظيم السلطان سليمان وعصر سلطنته هو وفي عصر سلطنة ابنه الأمجد من بعده

ليكن معلومًا لأولي النهى أنني هذا العبد الفقير قليل الحمل، ضئيل البضاعة، كنت قد جعلت هذه الأوراق المبعثرة التي كانت متفرقة وعلى غير انتظام وتلك المجموعة البتراء كحالي، جعلتها تحت عنوان «غزوات وفتوحات المرحوم السلطان سليمان

خان»، ثم تعديت حدود الأدب، وأهديتها إلى حضرة «موسى باشا» صاحب السعادة ـ دام إقباله كما يشاء ـ الذي كان قائم مقام الصدر الأعظم، أثناء خروج المرحوم والمغفور له حضرة السلطان «مراد خان الرابع» عليه الرحمة والغفران للغزوة، وتوفيقه في فتح بغداد المعمورة بالجنان، والذي كان أعقل وزراء الدهر وأكمل كبراء العصر والأوان، حيث كان آنذاك وزيرًا ثانيًا، ليس له نظير، ومشيرًا كبيرًا، يشبه «أرسطو» في التدبير، كنت قد أهديتها إليه عندما أتى إلى إيالة «بدون» في تلك الأيام، يعني في عام ١٠٠٠ هجرية، حيث وجد أهالي تلك الديار الأمن والراحة في أيام حكمه العادل.

وفي يوم من الأيام، تفضل «موسى باشا» بالحديث إلى هذا الحقير أي إليَّ قائلًا: «بينما كان من الواجب توضيح كيف تم عقد أمور الصلح والصلاح التي وقعت في عصر كل سلطان ذي شأن، والتي ربما كانت ألزم وأهم من كل ذلك في التاريخ، إلا أنك لم تتطرق إلى هذا الموضوع، ولم تقل فيه لفظة واحدة قط»، ومع أنني هذا العبد العاجز قد أجبت بما يلي آملًا أن يكون كلامي هذا عذرًا لذلك التقصير: «كنت أطالع بعض كتب الفضلاء من أهل السلف دون أن أتجاوز حدي، إلا أنني لم أقرأ ولم أشاهد كلامًا متعلقًا بالصلح في أي منها، ولما كان لا يمكن الكتابة في مثل هذا الموضوع دون النظر في الكتب لم أستطع التعرض لهذا الموضوع»، وعلى إثر صدور الفرمان الشريف مرة أخرى من قبل «موسى باشا» قائلًا: «لقد كان من الضروري أن يتم ذلك العمل بأي حال، ولا داعي للتقيد بهؤلاء»، اضطررت إلى القيام بتقصي تواريخ الكفار، وذلك لأن مؤرخي الإسلام لم يكتبوا في هذا الموضوع فأخرجت ما كتبوه بخصوص أمور الصلح التي عقدت في عصر سلطنة هؤلاء السلاطين الثلاثة وقمت بترجمتها ووجدت إنه من المناسب نقلها وإضافتها إلى مجموعتنا على النحو التالي:

لقد كتب المؤرخون الكفار عن الصلح الذي عقد مع حضرة السلطان «سليم خان الأول» قائلين: بينما كان هناك صلح مع المرحوم السلطان «بايزيد خان»، قام السلطان بجمع عسكر المسلمين الكثيرين عند حدود البوسنة، حيث تحرك لنهب مملكة الخروات. وكان قسيس «پسپرم» أميرًا لخروات، فعندما علم بذلك، جمع عسكر النصارى واحتشد

بهم عند الحدود نفسها، ولما دخل عسكر الإسلام إلى مملكة الخروات، هجم عسكر النصارى عليهم ودارت بينهم معركة عند الموضع الذي يلتقي فيه نهر «أونه» بنهر «ساوه»، وانتصر في هذه المعركة النصارى، وفي ذلك الحين، انتقل الكثير من المسلمين إلى رحمة الله، وكان «ولاديث لابوش» ملك المجر في ذلك الوقت وهو والد «لابوش قرال» الذي تحارب مع السلطان سليمان خان في «مهاج»، قد أرسل الشخص المعروف باسم «بارلا بايلا» بالرسالة من أجل هذا الخصوص أي من أجل عقد الصلح وربما تجديده مرة أخرى، وفي ذلك الوقت كان «بارلا بايلا» قائد قلعة «سورين» ـ التي كانت قلعة خربة تقع على ساحل «طونه» أسفل «سمندرة» والتي أومأ وأشار إليها الشاعر الماهر المرحوم يحيى بك في منظومة «شاه وگدا» بقوله: (قم بتخريب قلعة «سورين» وامح عشقها من القلب مثل الروح)، وقد أتى هذا السفير إلى إستانبول في الوقت الذي كان فيه المرحوم السلطان بايزيد يودع فيه العالم الفاني ويعد مهمات رحلته إلى السلطنة الباقية، وكان قد جعل أكبر أبنائه شهزاده سلطان أحمد وليًا للعهد، وكان سيخلفه في السلطنة، ولكن خرج ابنه الصغير الآخر السلطان «سليم خان» وأتى على والده، وكان قد جلس مكان والده عنوة حيث كان قد سم والده السلطان بايزيد وتوفي.

ولما جاء السفير المذكور، عُرض على السلطان سليم خان الأول، فأصدر أمره قائلًا: «ما دام أن أمر السلطنة لم يستقر بعد، فإنني لا أجيبه، والآن فعليه بالبقاء في إستانبول، وليرَ لماذا تتقلب أحوالنا»، وخلال فترة قليلة، قام بالقبض على أخيه السلطان أحمد، وأخيه الآخر السلطان «قورقود» بطريقة واحدة؛ وأنهى أمرهم مع جملة أولادهم وأنسابهم، واستقل بأمر السلطنة فإنه لم يجب السفير المذكور بعد، وأمره قائلًا: «تعال معي إلى الحملة»، وجهز جندًا كثيفًا وجاء على «مصر»، وفي تلك الحملة قهر السلطان سليم الأول سلطانين عظيمي الشأن، يعني «قنصوه الغوري»، و«طومانباي» قهر أحدهما أثناء الحرب، والآخر قبض عليه، وصلبه في مصر؛ وفتح مصر والشام وحلب مع جملة أتباعها. وقام بقتل عام لقوم «مامه لوقه»؛ يعني الشراكسة.

وفتح أيضًا تلك القلعة العظيمة التي تعرف باسم «منقش» في لغة «دياق» وغالبًا هي «ديار بكر»، وقد حمل السلطان سليم الأول السفير المذكور في كل هذه الحملات،

وقد لازم السفير بلاط السلطان في السفر والحضر لمدة سبع سنوات، وبعد السبع سنوات، عقد السلطان سليم الأول الصلح معه، وقد عقد الصلح في السنة التالية؛ أي في السنة الثامنة، وقد دخلت في هذا الصلح «نمچه» [يعني النمسا]، والمجر و«له»[1] و«ونديك»[2]، ولكن لم يعقد الصلح مع سوارية «أودين»[3]، وأعد العدة للحملة على هؤلاء، وبعد هذا، قام السلطان سليم بإرسال السفير المذكور إلى الملك ومعه الهدايا والتحف اللائقة بالسلاطين، ولكن في تلك الأثناء، كان الملك قد توفي، وتولى مقاليد الحكم بدلًا منه ابنه «لابوش قرال» الذي غرق في الماء بينما يهرب من المعركة التي كانت في «موهاج»[4] مع السلطان سليمان القانوني. وفي عهده، دخل السفير إلى «بدون»، وبعد ذلك، ففي الوقت الذي خرج فيه السلطان سليم من إستانبول بينما كان متوجهًا إلى الحملة، طُعن؛ وتولى مكانه ابنه السلطان سليمان القانوني.

كتب الكفار في تواريخهم عن الصلح الذي عقد مع السلطان سليمان القانوني على النحو التالي

في تاريخ ١٥٤٤ من تاريخ ولادة حضرة عيسى عليه السلام الموافق ٩٥٤ من الهجرة النبوية عليه أفضل الصلاة والتحية، أراد «فرديناند قرال» ملك «نمچه» عقد الصلح مع السلطان صاحب السعادة «سليمان القانوني» عليه الرحمة والغفران، ففي التاريخ المذكور قام «فرديناند قرال» بإرسال سفير مشهور بالهدايا اللائقة بالملوك إلى الآستانة السعيدة، وقد بقي السفير المذكور في الآستانة فترة ما، حيث رجا الصلح، وعانى عناء شديدًا في ذلك الأمر، وبعد ثماني سنوات قُبل أمر الصلح بصعوبة.

---

(١) وهو اسم قوم مشهورين من أقوام السلاو ويطلق على المنطقة التي يسكنها هؤلاء اسم «لهستان». ـ قاموس الأعلام ٦/ ٤٠٣٨ .

(٢) وهي البندقية.

(٣) «أودين» هي نفسها مدينة «بودين»، هي أيضًا «بدون».

(٤) قد كانت هذه المعركة عام ٩٣٢ هـ/ ١٥٢٦م.

وقد عقد الصلح بهذه العهود والشروط؛ وهي أنه ما دام «فرديناند قرال» يرعى الصلح، أنه لم يصدر من جانب السلطان صاحب السعادة أي وضع خلاف الصلح، ينبغي أن ترسل ثلاثون ألف سكة ذهبية إلى آستانة السلطان صاحب السعادة كل سنة، وأن يرعى والي «أردل» «يانوش زيدمون» ابن «يانوش قرال» الذي نصبه السلطان على «بدون» الصلح الذي عقده السلطان صاحب السعادة، كما ينبغي؛ وألا يصدر منه خلاف الصلح.

وكان «باطوري مقلوش» و«ملغيور بلاش» من كبراء أمراء «أردل» قد أعلنوا الطاعة للسلطان صاحب السعادة ولـ «يانوش قرال»، بينما كان متصرفًا على «بدون»، وبعد ذلك، لما توفي «يانوش قرال»، ولما كان ابنه «يانوش زيدمون» لا يزال صغيرًا، فقد خرج هؤلاء المذكورون من الخضوع له، وخرجوا عن طاعة السلطان صاحب السعادة، وأعلنوا التبعية لـ «فرديناند قرال».

ولما كانت قلاع معظم هؤلاء ونواحيها وممالكهم تقع في «أردل» وفي ناحية «صقمار» و«طوغاي» وفي أطراف «أكره»، فإنهم لم يخلوا من نهب وسلب عسكر ابن الملك الصغير، وخدم السلطان صاحب السعادة الذين في الحدود وذلك بالدرجة التي كانوا قد حولوا فيها تلك الأطراف خرابًا، وكان هؤلاء أيضًا قد دخلوا في الصلح وتم التعهد بعدم التعرض لملك هؤلاء، وكان قد اشترط عدم طلب الضريبة أصلًا سواء من طرف الإسلام أو من جان «نمچه»، وكان قد اشترط أيضًا عدم تجاوز أشقياء الحدود، وعدم تجريد الجند على المملكة التي كانت تابعة للملك «فرديناند قرال» وعقد الصلح لمدة ثماني سنوات، واشترط أيضًا شيوع الراحة والطمأنينة بين الطرفين، ولكن قد تعهد بأن يرسل كل سنة إلى بلاط السلطان ثلاثين ألف ذهبية بيد سفراء «فرديناند قرال» الذين يعتمد عليهم، وكان السلطان صاحب السعادة قد كتب رسالة باللغة العربية فيها الشروط السابقة، وأصحب الشخص المعروف باسم «ترجمان إبراهيم» إلى سفراء الملك ومعه الرسالة، وأرسلهم إلى «فرديناند قرال» من أجل تقديم هذه العهود والشروط.

وفي ذلك الوقت، كان «فرديناند قرال» موجودًا في مدينة من مدن «نمچه» تعرف باسم «برانقو بورق»، وكان قد جعل ابنه «مقسميلياني» وليًا للعهد، وكان على وشك إلباسه التاج، وبينما كان موجودًا في ذلك الاجتماع جملة كبار قوم النصارى، جاء ترجمان إبراهيم»، وسلم خطاب السلطان صاحب السعادة إلى «فرديناند قرال»، ولكن كان «ترجمان إبراهيم» المذكور رجلًا وقورًا ورزينًا، فلم يتكلم بكلمة خلاف كلام السلطان ولكن أبلغ كل ما أمر به السلطان في الرسالة. وعقد الصلح كما ينبغي وذهب، وأعجب أمراء «نمچه» بترجمان إبراهيم، وقالوا: «إن هذا السفير هو نموذج رائع من سفراء سلطان العالم».

كتب مؤرخو الكفار عن الصلح الذي عقد في عصر السلطان سليم الثاني بعد فتح «سكتوار» ما يلي:

بعد عام واحد من فتح «سكتوار» أي في سنة ١٥٦٧ من تاريخ ولادة حضرة عيسى عليه السلام، كان عسكر الترك وكفار «أردل» لا يتوانون عن الاتفاق فيما بينهما لنهب وتخريب نواحي «أكره» و«قاشه» و«طوغاي» باستمرار، وقد تم فتح «قردار» و«بورنوق» وحوالي عشر قلاع بنواحيها من مملكة الـ «قرال» ملك إسبانيا، حيث ضمها جميعًا «يانوش ژيدمون بن يانوش قرال» حاكم «أردل» الذي كان تابعًا للترك إلى مملكة «أردل»، وكان أهل الإسلام وعسكر «أردل» قد سعوا لقهر مملكة الـ «قرال» بالكامل، حيث غضب الإمبراطور كثيرًا، واحتار سائر الكفار في هذا الوضع.

وفي تلك الأثناء، ورد خطاب إلى الجاسار أي الإمبراطور من طرف سفيره الذي كان موجودًا في آستانة السلطان «سليم خان» سلطان الترك، وقد جاء في هذا الخطاب: «إن السلطان صاحب السعادة قد جمع عسكرًا في أعداد كثيرة، حيث أتى بعضهم إلى الآستانة السلطانية، وصدر الفرمان السلطاني الشريف باجتماع بعضهم الآخر في أماكن محددة أخرى، وطبقًا للتحريات التي أجريت، فإن السلطان يريد أن يرسل هؤلاء العسكر على بلاد «نمچه» ومملكة المجر، وأنه يريد أن يحطم تلك المملكة»، ولما وصل

هذا الخطاب إلى الإمبراطور «چاسار مقسميليان» واطلع على مضمون الرسالة، قام بلا تردد بجمع كل أعيان قوم النصارى سواء من «نمچه» أو «المجر» لعقد المشاورة بينهم، فتناقشوا كثيرًا حول هذا الموضوع، وفي النهاية استقروا على هذا التدبير: وهو أنه ينبغي أن يستميلوا قلب حضرة السلطان صاحب السعادة وحامي العالم بأي حجة، وأن يعقدوا معه الصلح والصلاح. فقاموا بإرسال سفيرين إلى الآستانة عالية الشأن بهذا التدبير.

وقد كان أحد السفراء مجريًا، وكان حاكم «أكره»، أما الآخر، فقد كان رجلًا مشهورًا من أعيان «نمچه»، وقد وصلا إلى إستانبول بأوانٍ كثيرة من الذهب والفضة وبتحف وهدايا تذكارية كثيرة لم ير مثلها، وبأحمال وفيرة من المال، وقدما ما أحضراه إلى السلطان صاحب السعادة، وإلى وزرائه ووكلائه، وفي النهاية، رضي السلطان بالصلاح على العهود والشروط التي كانت قد عقدت مع والده السلطان سليمان القانوني بشرط دفع ثلاثين ألف ذهبية مجرية كل سنة لمدة ثماني سنوات، وقد خضع «يانوش زيدمون» حاكم «أردل» لهذا الصلح، وتعهد مع جميع أهالي «أردل» بالامتثال لهذا الصلح. وكان الشرط الأساسي في هذه المعاهدة هو أنهم تعهدوا بأن يتصرف كل واحد منهم فيما تحت يده في ذلك الحين، أي في وقت انعقاد هذا الصلح، وألا يتعدوا على ما هو موجود تحت أيديهم، وذلك بتحين الفرصة، وخلاف ذلك فقد تعهدوا في وثائقهم بأنه ينبغي ألا تحرض العصابات المسلحة، وألا تجرد المدافع والعسكر من كلا الطرفين من بعد ذلك، وأن يدعوا أهالي الطرفين لسلاطينهم بالأمن والسلامة.

وقد قبل السلطان صاحب السعادة السلطان «سليم خان» ووكلاؤه ووزراؤه الصلح الذي كان على هذه الصورة، وبهذه الشروط عن طيب خاطر من الروح والقلب. وفي ذلك الحين، كانوا يعدون لتجريد الحملة على قبرص، فقاموا بإرسال العسكر قبل مرور وقت طويل على هذه المعاهدة؛ حيث فتحوا تلك الجزيرة المعمورة بجميع ملحقاتها.

من غرائب الآثار

لقد ذكر اسم قلعة «سورين» أثناء الحديث عن الرسل والرسائل من قبل، وكان يوجد في الزمن الماضي جسر عظيم من أغرب الغرائب يتجاوز قدرة إدراك البشر، مبني بالحجارة على نهر «طونه» الذي هو من أعظم الأنهار الموجودة على وجه الأرض، وذلك بالقرب من القلعة المذكورة، والآن في وقت تناقص مياه نهر «طونه» تظهر أقدام الفيل، كان يقترب بعض أرباب السفن من هذا الجسر، فيأكلون ويشربون فوقه، وكانوا يسألون أنفسهم قائلين: «من الذي شيد هذا الجسر؟ وكم استغرق بناؤه؟ ولماذا شيد؟»، ولو تخطر هذه الأسئلة على الخاطر الشريف للشخص من أرباب الدولة الذين ينظرون إلى العالم بعين العبرة، فإنه سيجد الإجابة في تلك المعلومات التي وجدتها في التواريخ القديمة التي كتبها الكفار:

لقد توجه الإمبراطور المعروف باسم «طرايان» ـ الذي كان ملكًا على مملكة «ريم بابا» ـ سنة مائة وواحد بعد ولادة حضرة عيسى عليه السلام على ممالك الروم إيلي والبوسنة والمجر والأفلاق والبغدان، وكان الكفار يقولون على هذه الممالك مجتمعة مملكة «تراجيه»، وكان يحكم هذه المملكة ملك يعرف باسم «قابال»، فهجم الإمبراطور «طرايان» عليه، وهزمه، وفي النهاية، أبرموا الصلح بشرط أن يدفع «قابال» قدرًا من المال كل سنة، ولكن بسبب أن الملك الضال المذكور «قابال» نقض الصلح، فقد أتى الإمبراطور «طرايان» عليه مرة أخرى، فانتصر عليه وعلى ملكه مرة أخرى، وعلى هذا ولما كان الملك «قابال» بلا قدرة على المواجهة، فقد قتل نفسه بيده خشية العار، وفي ذلك الحين، قام النجس الذي كان إمبراطورًا ببناء ذلك الجسر العظيم حتى يكون الطريق مفتوحًا لجيوشه دائمًا وحتى لا يكون هناك أي احتمال في أن يعلن أي ملك في تلك النواحي العصيان عليه.

وقد نجس الإمبراطور المذكور، مقام الحكم لمدة أربعين سنة، حيث سلم روحه الخبيثة إلى زبانية جهنم، دون أن يمر وقت طويل على مقتل الملك «قابال»، وأصبح

عديم الدين المعروف باسم «أرديان» إمبراطورًا بعده، فقام بهدم ذلك الجسر العظيم، لأن أهالي «تراجيه» كانوا قد بدءوا يتعدون على ممالك الإمبراطور، وكان ذلك الكوبري المذكور قد بقي لمدة ثلاثة وعشرين عامًا فقط، ولكن آثاره ظاهرة إلى الآن.

ولو يخطر أيضًا بالخاطر السؤال عن مؤسس «دون» التي هي أعظم قلاع أنگروس؛ أي بلاد المجر، فقد ورد في هذه التواريخ حول هذا الموضوع ما يلي: كان ضال معروف باسم «أتله» قد ظهر في مملكة «سنته»، حيث استولى على جميع مملكة «تراجيه»، وعلى عمق «فرنگستان»، وسائر قلاع وبلدان الكفار وكان هناك حي عظيم موجود في مكان «دون» يعرف باسم «شيقان يريه»، وكان «أتله» قد استحسن هذا المكان، وكلف أخاه «دون» ببناء قصر عظيم، وقلعة متينة هناك، أما هو فقد ذهب لتخريب ممالك الكفار مرة أخرى، وتجول هناك سنين طويلة، ولما عاد وعلم أنه نسبت القلعة العظيمة إلى اسم أخيه، قام في الحال بقتل أخيه بيده، وجعل «بدون» عاصمة، وفي إحدى الليالي، وعلى إثر حدوث نزيف دم شديد من أنفه، سلم روحه الخبيثة إلى زبانية جهنم. وكان «أتله» قد عاش مائة وأربعة وعشرين عامًا وترك ستين ابنًا، وقد تم تطهير العالم من أجسادهم الخبيثة.

أما مشيد مدينة «بچوي» مراد قلوبنا والتي هي موطننا الأصلي هم قوم أنجاس من أهل «نمچه» حيث بنوا في البداية أسوارها وكان هؤلاء هم الذين سكنوا بداخلها، وبعد ذلك قام الملك «سنده أستوان» الذي كان أول ملك لأهالي المجر والذي يدين له هؤلاء القوم الضالون بغاية الاحترام قام بطرد وإخراج أهالي «نمچه»، وقام هو ببناء خمس كنائس عظيمة في تلك المدينة، و«پچوي» تعني في لغتهم الخمس كنائس. وبعد ذلك، قام الملك «بتور» ابن ابنة «أستوان قرال»، والذي كان الملك الثاني لهؤلاء القوم الضالين، قام ببناء الكنيسة التي هي الآن الجامع الكبير الموجود في القلعة الداخلية

لـ «پچوي»، وبعد ذلك شق أهل المجر عصا الطاعة عليه، وفقئوا عينيه، وتوفي بعد ثلاث سنوات ودفن فيها، وقد مر نحو ستمائة عام منذ ذلك الوقت وحتى الآن الذي يصادف عام ألف وخمسين هجرية[1].

(١) الموافق سنة ١٦٤٠ / ١٦٤١م.

الدولة العثمانية
خلال فترة حكم السلطان سليم الثانى
٩٤٧ ـ ٩٨٢هـ = ١٥٦٦ ـ ١٥٧٤م

في ذكر سلطنة السلطان الكريم والحليم
أعني به السلطان سليم طاب ثراه وجعل الجنة مثواه

كان مولد سعادته في سنة ٩٢٩ هجرية، وكان جلوسه الهمايوني على العرش في اليوم التاسع من ربيع الأول سنة ٩٧٤ هجرية، فقد كان المرحوم والمغفور له سلطانًا حليمًا وسليمًا وكريمًا حتى إنه في زمن سلطنته لم يغضب منه أي فرد، وكان دائمًا يميل إلى الندماء الذين كانوا من أرباب القلوب، وكان مصاحبًا لهم ومؤتنسًا بهم ليل نهار؛ يعني كان فائق الأقران عن سائر أبناء السلاطين لا يخلو دائمًا من أكثر من عشرين شاعرًا من أخص الشعراء، وكان يحدث أحيانًا أن يقول الشعر.

وكان دائمًا يلازم مجلسه أصحاب الألحان العزبة وبعض الفصحاء وعازفو الرباب والعود، وأن بعض المبدعين أمثال «نقاش حيدر» المشهور بلطفه والذي كان يضحك الموتى بتصرفاته المضحكة ويضحك النفس العابسة التي كانت تسمعه، وأن المضحكين وأصحاب الفكاهة أمثال هؤلاء كانوا دائمًا يبعثون السرور على مجلسه.

وعلى كل، فإن أسباب الشرب والمنادمة ولوازم الذوق والصحبة التي كان يمنحها لهؤلاء، لم يكن معلومًا أنها كانت ميسرة لـ «جم» أو «جمشيد»[1]، ومع كل هذا، كان محبًا للعلماء والصلحاء ومحسنًا على المشايخ والفقراء، وكان إحسانه يبذل لأرباب الاستحقاق أي لمن هم أهل له كغيث يهطل وقت الحاجة.

- أوصافه الشريفة:

كان متوسط القامة، وحواجبه رقيقة ومقوسة، وكانت عيناه عسليتين، وكانت توجد بلسانه لكنة، وكان ساعده قويًا جدًا، فمثلًا القوس الذي كان يسحبه، كان يعجز عن سحبه بطلان من الأبطال، وكان نصفه الأسفل طويلًا، ورقبته قصيرة، وكان في غاية المهابة والعجب. ويتفضل الشاعر الماهر المرحوم يحيى بك بوصفه قائلًا:

(١) هما بطلان من الأبطال الأسطوريين الذين ورد ذكرهم في «شاهنامه» الفردوسي الشاعر الإيراني.

يشبه «حمزة» في النظرة ويشبهه أيضًا في القوة
ونظرته مهيبة كعين «علي» وتصرفه عجيب كخضر النبي

وهذا البيت أيضًا لواحد من شعراء ذلك العصر وهو في وصف استخدامه للقوس:

لا يوجد حاليًا من يشد قوسه
وقوس الفلك يعرفه جليًا فلا داعي للحديث

في ذكر الشهزادية أي أولياء العهد

سلطان مراد خان: وهو خير خلف لوالده على العرش، حيث شرف العرش الهمايوني العثماني بالجلوس عليه.

سلطان مصطفى، وشهزاده سلطان عثمان، وسلطان سليمان، وأيضًا اثنين من الشهزادية النجباء لم تحرر أسماؤهم الشريفة، وقد قتل هؤلاء جميعًا أثناء جلوس مراد الثالث على العرش وذلك بموجب القانون العثماني.

في ذكر الوزراء العظام في عصر السلطان سليم الثاني

ـ الصدر الأعظم الجليل محمد باشا الطويل:

وقد سبق تفصيل أحواله أثناء الحديث عن وزراء سليمان خان، وقد فُصل جهده الفائق الذي بذله في إخفاء وفاة السلطان سليمان القانوني أثناء فتح «سكتوار»، فبعد أن وصل السلطان سليم الثاني صاحب السعادة إلى الجيش الهمايوني[1]، وجد كمال الاستقرار في مقام الصدارة بالدرجة التي مكنته من أن يرعى صفاء خاطره ليل نهار، وكانت قد فوضت له أمور السلطنة بالكامل. وفي الزمن الشريف للسلطان سليم الثاني

(١) لحق بالجيش الهمايوني في بلغراد وهو عائد من حملة «سكتوار» إذ وافت والده المنية في هذه الحملة.

لم يعارض رأيه فرد قط، وهو أيضًا كان يتصرف على كمال العدل والإنصاف، ولم يجد أعداؤه الطريق؛ للنيل منه سوى بعزل بعض أقربائه وأتباعه.

- الوزير الثاني أحمد باشا :

كان أرناءوطي الأصل، وسخيًّا ورجل دولة، يغلب عليه اللطف. خرج من الحرم المحترم لسليمان خان برتبة «قبوجي باشي»، وبعد ذلك أصبح أغا الإنكشارية، وعقب ذلك صار أمير أمراء الروم إيلي، وكان قد أصبح موضع حسد من الأقران بزواجه من بنت الوزير الأعظم «رستم باشا» الموفورة السعادة المعروفة باسم «عايشه سلطان» والتي كانت والدتها «مهروماه سلطان»، وفي ذات مرة كان قد أُرسل إلى الروم إيلي كسردار، فإنه لم يقم بأي خدمة يذكر بها بعد موته، ولما ارتكب نوعًا من الحماقة تجاه الصدر الأعظم، فقد عزل من منصب وزير ثانٍ، وتم تقديم وإجلاس «بياله باشا» في مقام الوزير الثاني بدلًا منه وعلى إثر عدم رضائه بالجلوس في مقام الوزارة الثالثة، بقي معزولًا لعدة أيام، وبعد ذلك أصبح وزيرًا أعظم في عصر «مراد خان» وتصرف بكمال العدل والإنصاف، ولم يعزل أي فرد بلا ذنب، ولم يسفك دم أحد، ولم يأخذ الرشوة، ولم يعطها على الإطلاق، ولكن انقضى الأجل قاطع طريق الأمل، وودع الآلام الدنيوية في الشهر السادس من توليه الصدارة العظمى، ولحق بالسعادة الأخروية رحمة الله تعالى عليه.

- الوزير القبودان بياله باشا:

كان «خرواتي» الأصل، خرج من الحرم السلطاني برتبة «قبوجي باشي، وبعد ذلك، رُقي إلى رتبة قبطان مع منصب أمير سنجق «گليبولي»، ونال في فترة حياته شهرة في القيادة البحرية، وإمارة الأمراء، وقد ظل في ذلك المنصب الجليل ستة عشر عامًا بالتمام، وكان رجلًا شجاعًا، وموفور السعادة، وقد اشترك في غزوات وفتوحات كثيرة، وجزيرة «ساقز» واحدة من جملة فتوحاته، وقد أغرق في أثناء معارك فتح جزيرة «جربه» فقط نحو أربعين أو خمسين قلعًا [يعني سفينة]، وبعد ذلك، تزوج من «گوهرخان سلطان»

إحدى بنات السلطان «سليم خان»، ولهذا، علا شأنه على «أحمد باشا»، وكان مقصده الأصلي الوصول إلى منصب الوزارة العظمى، ولكن انقضى الأجل المقدر ورحل في عصر «مراد خان» دون الوصول إلى مراده.

ويروي «عالي أفندي» على لسان الباشا أنه وقع حد القصاص على رجل أحمق في أثناء حكمه في المناصب الجليلة على مدى سنين طويلة، وأنه تفضل بالحديث عنه قائلًا: «لم أر النوم والراحة عدة أيام لهذا السبب»، وهكذا، فقد كان رجل دولة مشغولًا بحاله، ومعتادًا دائمًا على الجلوس والقيام مع أهل العرفان، وعمومًا كان بعيدًا عن المساوئ.

- الوزير زال محمود باشا:

خرج من الحرم المحترم برتبة «قبوجي باشي»، وبعد ذلك علا شأنه بوصوله إلى رتبة أمير أمراء «دون»، ثم «حلب» ثم «أناضولي»، وبعد ذلك وصل إلى رتبة الوزارة بزواجه من أرملة «حسن باشا» أمير أمراء الروم إيلي والتي كانت من بنات السلطان.

وفي أثناء قتل المرحوم «الأمير السلطان مصطفى»، تمكن الأمير المسكين من تخليص نفسه من قبضة الجلادين، وبينما كان يهرب إلى جانب السلطان، هجم المذكور «زال محمود باشا» عليه، ولما كان رجلًا ليس له مثيل في المصارعة، قام بإسقاط الأمير على الأرض وأخذه إلى أسفل منه، ولذلك السبب لوحظ أنه لائق بذلك اللقب [أي لقب زال]، وكان رجلًا معتدلًا في العدل والجود، وكان معززًا ومكرمًا بين الأكفاء، ويروى أنه مرض في يوم واحد مع «سلطان» التي كانت حليلته، وراحا يتسامحان مع بعضهما ويسلمان روحيهما في لحظة واحدة متعانقين، فلم يُر زوج وزوجة على هذا النحو، وهذا الأمر حمل على كمال المحبة التي كانت بينهما.

- لالا قره مصطفى باشا:

هو من أصل بوسنوي، وهو الأخ الأصغر للوزير «خسرو باشا» من عائلة «صوقوللو»، خرج من الحرم السلطاني برئاسة بلوك، وبعد ذلك أصبح «مير أخور

ثاني»؛ أي رئيس الإسطبل بكفاءته الشخصية، ثم صار بعد ذلك، «جاشنكير باشي»؛ أي رئيس دائرة الإشراف على الأكل، وعقب ذلك، أصبح «لالا»[1] للسلطان صاحب السعادة مع شغله إمارة سنجق «صفد»، وقام بكثير من المكر والتدبير في معركة أولياء العهد[2] التي كانت في «قونية» من أجل أن يوصل فقط ولي نعمته إلى مقام السلطنة بلا منازع، وبينما كان يعتقد بشكل قاطع أنه سيصبح وزيرًا أعظم لذلك السبب، فقد صدق مضمون القول: «الحريص محروم»، وقد سبق تفصيل ذلك الحدث، أما «رستم باشا» فبسبب أنه كان عدوه اللدود، فقد جلب عليه الكثير من الأذى، وبينما كان يُطرد أحيانًا إلى سنجق «بوزغه» وأحيانًا إلى إيالة «طمشوار»، فقد أُعطى إيالة «وان» بعلو همة الأمير ولي العهد عالي الشأن، وبعد ذلك، أصبح أمير أمراء «أرضروم»، ثم أمير أمراء «حلب»، وبعد ذلك صار أمير أمراء الشام لمدة ثماني سنوات، وفي النهاية صار وزيرًا، وقد عين سردارًا لفتح «قبرص»، وبعد ذلك، أصبح سردارًا لحملة القزلباش، ولم يُضرب القزلباش على أيديهم من أي سردار قط مثلما ضُربوا منه، وإن شاء الله تعالى سيرد تفصيل ذلك في موضعه.

ـ لالا توتونسز حسين باشا:

كان قد خرج من الحرم برتبة «بلوك». ووصل إلى إمارة سنجق «بوزغه» بسبب قرابته بـ «برتو باشا»، وبعد ذلك، عين «لالا» للسلطان سليم مكان «قره مصطفى باشا»، ولكن بسبب أنه كان معروفًا بالبخل، فقد نزل إليه من السماء لقب «توتونسز» وفقًا لمضمون القول : «الأسماء تنزل من السماء»؛ وبسبب أنه كان لا يزال في وظيفة «لالا» أثناء اعتلاء السلطان صاحب السعادة العرش، فقد أصبح أمير أمراء الروم إيلي، وبعد ذلك أسندت إليه الوزارة، ولكن بسبب أنه كان رجلًا دنيء الطبع، فقد غلبت ذاته على منصبه وسلب منه شرف الوزارة.

---

(١) يطلق هذا اللقب على مربي ومعلم أولياء العهد أي أبناء السلاطين.

(٢) وهي المعركة التي كانت بين ولي العهد السلطان بايزيد، وأخيه ولي العهد السلطان سليم، أبناء السلطان سليمان القانوني.

في ذكر مشاهير أمراء أمراء هذا العصر

ـ القبطان علي باشا:

كان القبطان علي باشا الذي استشهد في الأسطول الهمايوني ابن مؤذن في «أدرنه»، وقد دخل في زمرة بوابين البلاط العالي، وبعد ذلك، أصبح «جاشنكير»؛ أي مشرف على إعداد الطعام، وعقب ذلك، صار كتخدا البوابين ثم أغا الإنكشارية، ثم أصبح أمير أمراء الجزائر، ثم صار قبودانًا، ولما هجم على أسطول الكفار الذي كان في تعداد كبير، بثلاث سفن فقط ذوات مشاعلٍ من نوع «باشترده» من الأسطول الهمايوني المنهزم، وصل إلى مرتبة الشهادة، وكان رجلًا في غاية الشجاعة، ومنبعًا للسخاء والكرم، ومحبًا لأرباب المعارف، وكان حلو الحديث بين أعيان الدولة، وكان نقي العقيدة نقي الجبلة، ولكن كان عيبه بين أصحاب الدولة الذين تربوا في الحرم الهمايوني أنهم كانوا يقولون عليه «أجنبي»؛ بسبب أنه تربى خارج القصر.

ـ صوفي علي باشا:

وهو بوسنوي الأصل، خرج من الحرم المحترم برتبة «أغا»، وبعد ذلك ألحق بزمرة الأمراء، وكان في وظيفة «لالا» للسلطان سليم قبل أن يشغل «مصطفى باشا» هذه الوظيفة، وبعد ذلك أصبح أمير أمراء «ذو القدرية»، ثم بعد ذلك صار أمير أمراء «قرمان» ثم أمير أمراء حلب ثم بغداد، ثم مصر، ثم الشام العامرة كالجنة، وبسبب أنه كان يميل إلى التصرفات العاقلة بلا تكلف، فقد لقبه أبناء العرب بلقب «كيلون»، وكان يشفق على بعض الأبطال الشباب المقبوض عليهم من قطاع الطرق، ومن اللصوص ويحلفهم على اليمين بألا يفعلوا شيئًا، وكان يطلق سراحهم. ولهذا كان الناس يتضاحكون على هذا التصرف ويقولون: «هل يعتد بيمين اللص؟»، ومن حكمة الله أن يسقط الذين نقضوا العهد تحت يده مرة أخرى، ويوقع بهم الجزاء، ولكن تصرفاته المخالفة على هذا النحو كانت نادرة جدًا، وكان أيضًا حاله غريب، حيث كان ضعيف الدراية جدًا في معرفة الناس، فمثلًا كان أحيانًا لا يعرف ابنه، فكان يطيب خاطره قائلًا: «أتيت أهلًا، من أين أتيت؟».

- بوتور حسين باشا:

هو من قصبة معروفة باسم «براجه» في الهرسك. خرج من الحرم السلطاني برتبة «جاشنكير»، وكان قد أصبح أمير أمراء نظرًا لانتسابه إلى الصدر الأعظم المرحوم «محمد باشا»، ثم أصبح أمير أمراء «وان»، ثم بغداد ثم مصر، ثم الشام، وكان رجلًا جامعًا لذات البين، ومعتدلًا.

- محمود باشا:

كان يشغل وظيفة رئيس العلوفجية لـ «داود باشا» أمير أمراء مصر في عهد السلطان «سليمان خان»، وبعد ذلك أصبح من طائفة «متفرقة»[١] مصر، وكان يحيط علمًا بأحوال الناس، ويجود عليهم، وكلما أتى إليه أحد من أصحاب الحقوق، كان يسكنه بإعطاء سندات الديون المضاعفة، وبعد ذلك، أصبح أمير سنجق بمساعي الصدر الأعظم «سمز علي باشا»، ثم وصل إلى مرتبة أمير أمراء اليمن، وفي اليمن قام بقتل شخص صاحب مال وفير واستولى على ماله، ودفع دينه إلى أصحاب الديون أضعافًا مضاعفة، ولما عُزل وأتى إلى باب الدولة، وأشبع أيضًا الوزراء والوكلاء، لوحظ على الفور في تلك اللحظة أنه لائق بإيالة مصر، وأراد أن يرتكب هناك أيضًا الأوضاع التي ارتكبها في اليمن، وعندما تعرض لبعض الأبرياء، ضُرب ببندقية وتخلص الناس من شره.

- محمد باشا بن لالا مصطفى باشا:

كان قد تزوج المرحوم «لالا مصطفى باشا» من أخت «قنصوه الغوري»، وكان قد أتى أمير الأمراء المشار إليه «محمد باشا» إلى الوجود من تلك الفتاة الطاهرة، وكان شابًا

(١) متفرقة: هو لقب كان يطلق على قسم من أرباب الخدمة الذين هم من نوع الفراش عند السلاطين أو الوزراء. وكان يوجد من بين أمراء القصر من هم يعرفون باسم «متفرقة باشي» ... وكان رئيس هؤلاء المتفرقة يعرف باسم «متفرقة باشي»، أما عددهم فلم يكن هناك قدر معين للعدد، وإنما كان يزداد ويتناقص العدد طبقًا لأراضي الحاكم.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser, C. II، S. 637 – 638.

شجاعًا وبطلًا، وبعد أن أصبح متصرفًا على بعض السناجق، صار أمير أمراء حلب، وتوفي بينما كان في ذلك المنصب الجليل. وكان رجلًا بعيدًا عن الطمع والظلم، ومعرضًا عن الدولة الفانية، وهو ابن وقته، وقلبه غني، وكان أيضًا رجلًا محترمًا، ولما توفي كان لديه ألف ذهبية فقط، وقد حزن عليه أهالي حلب عدة سنين، فمن كان يجلب مقاطعة التيمار أو الزعامة الخالية كان يعطيها إليه، ولم يحدث قط أنه أعطى أقچة إلى غلمان قصره، أو أخذ أقچة من أي شخص، ولكن لو كانت هناك شكوى من رجاله، كان يحاسب هؤلاء بشدة، وودع العالم الفاني وهو في عمر الثلاثين، رحمة الله تعالى عليه.

ـ عبد الرحمن باشا:

وهو من «طوسيه»، وكان كاتب تذاكر «رستم باشا»، وبعد ذلك، أصبح رئيس كتاب التذاكر، ثم أصبح «دفتردار تيمار»[1] للروم إيلي، وعقب ذلك، صار دفتردار مصر، وبعد ذلك أعطي سنجق «بروسه»، وكان موصوفًا بين الأكارم بلقب «عدو الرحمن»؛ بسبب أنه كان متصلبًا وخشنًا، وبعد ذلك، أصبح أمير أمراء «ذو القدرية» بمساعدة خطه المتواضع، وعقب ذلك، صار أمير أمراء بغداد، وفي النهاية ودع العالم الفاني.

ـ داود باشا:

لقد أعطيت إليه إمارة سنجق مترقيًا من رتبة رئيس البوستانجية «بوستانجي باشي»، وبعد ذلك، أصبح واليًا على إيالة «طمشوار» وكان رجلًا صاحب نعم وجرأة.

(١) تيمار: تعبير يستخدم بحق حصة المال التي تعطى للسباهية والزعماء من الأراضي التي تعد أراضي أميرية في عهد السلطان محمد الفاتح. ومقابل هذا التعبير الذي عمم في الدولة العثمانية كان يستخدم تعبير «إقطاع» في الحكومات الإسلامية. وكان مصطلح «تيمار» يستخدم عند سلاجقة الأناضول... وكان يقال على الأراضي المعطاة للسباهية والتي بلغ دخلها حتى عشرين ألف أقچة كان يقال عليها «تيمار»، أما الأراضي التي يبلغ دخلها أعلى من ذلك كان يقال عليها «زعامت» و«خاص». وفصلت التيمارات بعد ذلك إلى قسمين. كان يطلق على القسم الأصغر منها «تيمار»، وعلى قسمها الأكبر «زعامت».
- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser‹ C. III‹ S. 497 – 507.

ـ روس حسن باشا:

خرج من الداخل، وبعد أن وصل إلى إمارة سنجق غزه، أصبح أمير أمراء اليمن، ولما كان سببًا لاختلال مملكة اليمن، عزل منها، وتوفي بينما كان في الحبس.

ـ خادم جعفر باشا:

وهو أيضًا روسي الأصل، وقد أصبح أمير أمراء «قبرص»، ثم بعد ذلك أمير أمراء «تونس»، ولكن كان بلا دراية بتلك المناصب.

ـ درويش علي باشا :

وهذا أيضًا بينما كان واحدًا من رجال البحرية، أصبح محميًا بانتسابه للوزير الأعظم، وفي ظل تلك الحماية فقد أصبح واليًا على «البصرة» و«لحسا»، ثم «بغداد» المعمورة بالجنان، وتوفي هناك.

ـ عرب أحمد باشا:

كان رئيسًا في الترسانة العامرة، وبعد ذلك، أصبح أمير أمراء الجزائر بمساعدة الحظ حليف المتواضعين، وبعد ذلك أيضًا أصبح أمير أمراء إيالة «قبرص»، ولكن خدم «قبرص» استكثروا عليه ذلك المنصب وقتلوه.

ـ مصطفى باشا:

كان مصطفى باشا فائق الأقران، وبينما كان دلالًا بسوق الكهنة، دخل إلى سفينة بحرية، وأصبح صاحب مال وصار غنيًا، وكان قد أصبح أمير أمراء طرابلس الغرب.

ولم تكن هناك نهاية لأمراء الأمراء، والأمراء في الدولة العلية العثمانية، وبسبب أنه لم تكن هناك جدوى من التعريف بهؤلاء بهذا القدر، فترك ذلك أولى.

في ذكر الدفتردارية والنشانجية

- مراد چلبي الدفتري:

لما كان باش دفتردار في أثناء جلوس السلطان سليم على العرش، فقد تُرك في مكانه، وهو ابن جندي من قلعة «كليد البحر»[1]، ولما قام بالخدمة بجوار الدفتردار المعروف باسم «نقاش علي»، ألحق بكتاب الخزينة، وبعد ذلك، أصبح دفتردار «حلب» مرتين، وظل في ذلك المنصب الجليل ثماني سنوات، وبعد ذلك أصبح دفتردار الأناضول، وفي النهاية، صار باش دفتردار، وظل في هذه الوظيفة حتى توفي، وبينما كان من أهالي الذوق، ويمضي وقته ليل نهار في الشراب والمنادمة، كان فائق الأقران في خدمة الدفتردارية وفي التحصيل.

- درويش چلبي:

كان ابن الشيخ بابا نقاش، وكان صاحب «علوفة بلوك»؛ أي مسئول عن رواتب بلوك من بلوكات الجند، وكان مشغولًا بالزراعة والحراثة في القرية التي تحمل اسم والده. وكلما ذهب المرحوم والمغفور له السلطان سليمان خان إلى تلك الأطراف؛ بسبب الصيد والقنص، كان يحضر ما قسم به الله قائلًا: «طعام بابا»، ولما رأى السلطان صاحب السعادة الفطنة عند «درويش چلبي»، قام بتعيينه في البلاط السلطاني، وبعد ذلك أصبح أمين الدفتر، ولكن لم تكن لديه إحاطة تامة بهذا القدر بأمور الكتابة، وبعد ذلك وصل إلى مقام دفتردارية «حلب»، وحصل مالًا وفيرًا على مدى ست سنوات، ثم وصل إلى مقام دفتردارية الأناضول، وبعد فترة صار «باش دفتردار» وظل في هذه الوظيفة حتى توفي، وكان رجلًا موقرًا، وكان شخصًا مستقيمًا ومتدينًا في مقام دروشته أو خلوته.

- لالا زار محمد چلبي :

كان قد نشأ ونما هو وأبوه في معسكر الإنكشارية، وبعد أن أصبح دفتردار «بدون»، صار من طائفة «متفرقة» بـ «زعامة» قدرها مائة ألف أقچة، ولما أصبح «رستم باشا»

---

(١) وهو حصن الروم إيلي الواقع على بوغاز «چناق قلعة».

وزيرًا أعظمًا مرة أخرى، أخذ من يده زعامته قائلًا: «إنه من رجال أحمد باشا»، وعُهد بها إلى شخص آخر، وبينما كانت الأمور تسير على هذا النحو لفترة طويلة، فعندما أصبح محمد باشا وزيرًا أعظم، أحسن عليه بمنصب دفتردارية حلب التي كان يطلق عليها دفتردارية العرب والعجم[1]، ولما عزل وأتى إلى الآستانة، فعلى إثر وفاة «درويش چلبي»، أصبح «باش دفتردار» مكانه، وعندما تولى السلطان مراد العرش، كان هو أيضًا «دفتردار أول»؛ أي باش دفتردار، وكان رجلًا من أرباب العلم، وصادق القول، ومتدينًا وزاهدًا.

- أوغلان ممي چلبي:

كان يعمل «تذكره جي» لـ «أحمد باشا المقتول»، وكان قد وصل إلى مقاطعة «زعامة» في قيمة مائة ألف أقچة، وقد نزع منه «رستم باشا» نصف مقاطعة الزعامة هذه ووجهها إلى شخص آخر، وكأنه كان ينتقم من «أحمد باشا»، ولم يتوجه المذكور «ممي چلبي» إلى ديوان السلطان، في عهد وزارة «رستم باشا»، ولم يره شخص قط عند باب الأكابر، ولما أصبح علي باشا وزيرًا أعظم مكان «رستم باشا»، جعل «ممي چلبي» رئيسًا للكتاب قائلًا: إنه مغدور به ومظلوم. وبعد ذلك أصبح أمين دفتر، وعقب ذلك صار «دفتردار الأناضول»؛ وبسبب أنه كان رجلًا مستقيمًا وكاتبًا لطيفًا فقد أعز وأكرم بذلك المنصب حتى توفي، وعندما أصبح «ممي چلبي» دفتردار الأناضول، بينما كان «لالا زار محمد چلبي» «باش دفتردار» و«سنبل» دفتردار شق ثانٍ، قام أحد الظرفاء بإدراج الثلاثة في مكان واحد بهذا البيت:

أصبح سنبل صديق لالا زار فنجس أوغلان ممي البين

---

(١) بعد أن فتح «ياوز سلطان سليم» منطقة الأناضول الشرقية وسوريا، شكلت دفتردارية جديدة في هذه النواحي، على أن تكون حلب مركزها. وكان يطلق على هذه دفتردارية حلب، وهذه الدفتردارية انفصلت في عام ١٥٧٣م إلى خمسة معًا مع حلب. الأولى دفتردارية ديار بكر، وبعد ذلك دفتردارية الشام، ودفتردارية أرضروم، ودفتردارية طرابلس الشام.

- Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser، S. 17.

ـ عبد الغفور چلبي:

كان ابن أحد تجار «بروسه»، وقد أصبح قاضيًا، ثم بعد ذلك أصبح مفتشًا على مدينة «تيره»، ولما قتل المرحوم «دوراق چلبي»، أعطيت دفترداريه الشهزاده، أي ولي العهد إلى المذكور «عبد الغفور چلبي»، وعندما جلس السلطان «سليم» على العرش، أصبح «دفتردار الأناضول»، وبعد ذلك، أعطي سنجق «بروسه» بناء على طلبه، وعهد إليه أيضًا بوظيفة محاسب «بروسه» ومقاطعة حرير وسائر أموالها القليلة والكثيرة، وكان رجلًا «فارسًا» يجود بالنعم، وقد ظل في ذلك المنصب حتى توفي.

ـ محرم چلبي:

أولًا كان دفتردار «طمشوار»، وبسبب أنه كان من رجال الوزير الأعظم الجليل «محمد باشا الطويل»، فقد أصبح دفتردار شق ثانٍ بينما كان لا يريدها، وبعد ذلك عندما أراد إمارة سنجق، أصبح واليًا على سنجق «كوله»؛ نظرًا لأن أصله كان من «كوله»، وظل في هذا المنصب بصفاء خاطر حتى توفي، وكان في حد ذاته أميرًا كريمًا ومعززًا ومحترمًا.

في ذكر النشانجية الذين كانوا في عصره المبارك

ـ جلال زاده نشاني مصطفى بك:

لما اعتلى السلطان العرش، كان المرحوم يتولى وظيفة موقِّع السلطان، وبقي في تلك الخدمة الجليلة حتى نهاية عمره، وقد مرت سيرته الذاتية بين النشانجية الذين كانوا في عصر «سليمان خان».

ـ فيروز بك التوفيقي:

كان «فيروز بك» معلم غلمان الحرم بينما كان السلطان صاحب السعادة متصرفًا على السنجق الهمايوني وكان يدعى باسمه الأصلي «بالي چلبي»، وبعد ذلك عندما توفي

«فضلي بك» مؤلف «گل بلبل»؛ ونظرًا لأنه لم يكن هناك شخص يليق بتوليه الوظيفة المذكورة في الآستانة السعيدة، تم تعيين المشار إليه «فيروز بك» نشانجيًا، وعندما وجهت وظيفة «نشانجية» لـ «جلال زاده» أثناء جلوس السلطان «سليم» على العرش، عزل المذكور «فيروز بك»، وأصبح في رتبة «متفرقة» وتصرف في مقاطعة «زعامة»، وعندما توفي المرحوم جلال زاده بعد فترة، تعاد وظيفة النشانجية مرة أخرى إلى المذكور «فيروز بك»، ولكن لما كان غير ماهر في علم الإنشاء، فقد كان يكتب بعض الكلمات غير المستعملة، وعندما كان يسأل عن معانيها كان يجيب على التساؤل بعد النظر في المعاجم أمثال [اختري وجوهري]، وبعد ذلك ابتُلي بضعف البصر، وكان سكران ومنهكًا باستمرار، حتى كان يذهب أحيانًا إلى الخمارات التي تقع في زوايا الشوارع قائلًا خمارة أهل الشرف، وكان يغلب عليه الشرب الذي شربه، فيقع على الأرض أثناء عودته إلى غرفته ويبقى في زاوية ما، حيث كان يرفعه خدمه من هناك ويحملونه إما إلى دكان حلاق أو إلى مكان آخر، وكانوا ينتظرون زوال أثر سكره، وعلى الرغم من ذلك التجاوز بتلك الدرجة فإنه لم يعزل من وظيفته، ولكن كتب إليه بعض الكتاب عريضة مملوءة بالشتائم الغليظة ووضعوها له بين الأوامر السلطانية الأخرى، وبمجرد أن وضع عليها الطغراء دون أن يميزها، قام الكتاب بتوصيلها إلى الوزير الأعظم فأصبحت سببًا لعزله، حيث وجه إليه معاش التقاعد.

- محمد چلبي:

كان ابن أخت المرحوم «نشان جلال زاده» وابن «بير أحمد أفندي» قاضي «حلب»، ولما كان من أشراف الكتاب، أصبح «نشانجيًا» مكان «فيروز بك» المذكور، وظل في ذلك المنصب الجليل حتى وفاة السلطان «سليم»؛ ونظرًا لأنه كان رجلًا عبوس الوجه، قال أبناء زمانه فيه ذلك المطلع: «إن صورة خسرو الغابرة لا تضحك لصاحب الوجه العابس، فهل يليق أن يضع دائمًا طغرائك في وجه زمان عدلك»، ومع أن محمد چلبي كان بلا دراية أو معرفة، فإنه كان في غاية التعنت.

في ذكر بعض مشاهير الأمراء في عصره المبارك

إن هذه الزمرة العلية كثرة كثيرة لا يمكن حصرها وتعدادها، وليعلم أولي النهى أنه لو تمت الإحاطة علمًا بأمراء كل إيالة وكل منطقة حدودية وغزاة كل واحد منهم في تلك الحدود في عصرهم فقط، فإن ذلك كله لا يمكن ذكره وحصره مثلما لا يمكن تعداد كواكب الفلك الثامن.

فمثلًا هناك أمراء كثيرون في ديوان «القبودان باشا» ووفقوا في عدة غزوات، وهناك أيضًا أمراء مصر الذين ليس لهم نظير في ذلك العصر، والأمراء رفيعو الشأن الذين كانوا في الشام وحلب وسائر الممالك العربية وأمراء الأكراد رفيعو المقام من أرباب الجهاد الذين كانوا يذكرون دائمًا ويكرمون بكتابة لقب «جناب» لهم، والأمراء الذين كانوا موجودين في حدود «أرضروم» وفي أطراف «وان» وبغداد المعمورة بالجنان، وفي حدود «شهر زور» وفي إيالات اليمن وعدن والجزائر وتونس وطرابلس، وبصفة خاصة أمراء «أورنوسلي» و«ميخاللو» و«تورحانلي» و«مالقوجلي» الذين كانوا أصحاب معاهدات صلح مع السلاطين في ولايات «الروم»، وللأسف لم يبق في هذا العصر أي فرد من هؤلاء الأمراء من أصحاب الغزوات الجليلة والكفاءات والقدرات العظيمة، ولم تبق الغيرة والحمية التي بذلها في سبيل السلطان أولئك الأبطال الذين يبلغ عددهم لدى كل واحد من الأمراء خمسمائة، وألفًا، وأكثر من ألف، فقد جعل بلاء العزل وبلاء الارتشاء جميع الأمراء الذين في عصرنا أعداء لبعضهم البعض، فقضى عليهم ومحا وجودهم من العالم، وفي النهاية فقد اكتفى المرحوم «عالي أفندي» بتحرير ثلاثة أشخاص من الأمراء الذين كانوا في عصر «سليم خان»، وأنا هذا الفقير «إبراهيم بچوي» ينبغي أن أذكر أيضًا بعضًا من أمراء الحدود الذين تربيت معهم تبركًا وتيمنًا بهم.

- درويش بك:

هو ابن «بيري باشا» من آل رمضان. وكان فريد العصر بصلاح حاله ويكرمه وسخائه. وكان أفضل جميع الصيادين في مجال الصيد والقنص، وبينما كان أميرًا على

«طرسوس» في حياة والده، راح كتخداه يسجل نحو عشرة آلاف سكة كاملة لحسابه في السنة قائلًا مصاريف مربي الصقور، ولتقاس سائر أحواله على هذا.

ـ صاري علي بك :

يطلق عليه أيضًا «باتوري علي بك». وكان قد أصبح أمير سنجق «سكتوار» لفترة طويلة. وكان مالكًا لأكثر من ألف رجل علاوة على سبع أو ثمانمائة من أقربائه، وكان قائدًا عظيمًا مفديًا بالروح دائمًا في الهجوم على ديار الكفار، وكان المشار إليه قد جعل معظم قرى الحدود التي كانت دار حرب تعلن الطاعة والانقياد، وكان قد فتح بعض القلاع والحصون بالهجوم عليها أثناء فترة الصلح حيث يقوم بحرقها ثم يتركها، وكان قد أحرق الحي الخارجي لقلعة «قنيـژه» التي كانت مفتاح ديار الكفار في ذلك العصر وكانت سدًا منيعًا أمام الحدود الإسلامية في عصرنا، وقد غنم مالًا وفيرًا وأحضر أيضًا أسرى بلا حدود، حتى إنني الآن أذكر أنه نزل ضيفًا عند المرحوم والدي في «بچوي» في تلك الأثناء، فأخذني أنا العبد الفقير في حضنه، حيث كنت صبيًا وداعبني وأهداني واحدًا من هؤلاء الأسرى، وبعد ذلك عُين على حملة العجم قائلين عليه إن بابه مكتمل وأن قوته وقدرته تامة، وأصبح أمير أمراء «چلدر» وهناك ترك ديار العالم الفاني.

ـ أرسلان بك:

هو ابن «صاري علي بك» المشار إليه، ومع أن المشار إليه «أرسلان بك» من أمراء عصر «مراد خان»، فإنه كتب في هذا المكان بمناسبة والده، وبينما كان موجودًا مع المرحوم والده في «چلدر» أصبح أمير سنجق ثم أمير أمراء بعد ذلك، وبعد أن توفي المرحوم والده أراد العودة مرة أخرى إلى حدود «بدون» مع خدم أبيه، وقد حُصر في عام فتح قلعة «يانق» أكثر من سبعين يومًا في قلعة «خطوان»، وعندما أصبح «قوجه سنان باشا» وزيرًا أعظم وسردارًا، وجه إليه سنجق «خطوان» أثناء توجه السلطان «محمد خان» إلى قلعة «أكره»؛ ونظرًا لعدم وصول الإمدادات إليه قرابة شهرين من الزمان، انتصر الكفار وألحق بزمرة الشهداء مع جميع الغزاة الذين كانوا محاصرين.

وكان بطلًا مغوارًا بدرجة فائقة في استخدام السيف، وما قيل عنه: إنه كان متفوقًا على أبيه هو حقيقة، ولكنه كان مبتلى بقدر من الكيف.

ـ قره علي بك:

كان المشار إليه في معظم فترات حياته واليًا على «أستوني بلغراد» و«أسترغون» وكان في ذاته بطلًا مثل «علي» و«حمزة» رضي الله عنهما، وكان عالمًا متينًا وفائق الأقران في العلم والمعرفة، ولكن كان لا يملك رجالًا كثيرين عند بابه مثل أمراء عصره، وسمعت من لسانه أنه قال: «لقد أصبحت واليًا على «أستوني بلغراد» لمدة خمسة عشر عامًا، ومع أنني عزلت وتغير موقعي مرة أو مرتين خلال تلك الفترة فإنه في إحدى السنين تم حساب أموال الغنائم ودخل المحصول الخاص بي، فبلغ نحو سبعين ألف غروش، وفي تلك السنة وقع أخي أسيرًا لدى الكفار، ومن أجل إنقاذه أطلقت سراح أسرى يبلغ قيمتهم نحو ثلاثين ألف غروش ولولا ذلك لزاد دخلي إلى مائة ألف غروش».

وقد كنا محاصرين معًا مع المذكور «قره علي بك» في «أسترغون» حيث ضرب «قره علي بك» وهو بجواري ببندقية بينما كان يلقي السهم على الكفار، فاستشهد رحمة الله تعالى عليه.

وقد كان المشار إليه يسكن منذ فترة طويلة في حي «باج». وقبل محاصرة «أسترغون» أخذ الإذن من الوزير والسردار «محمد باشا» وذهب إلى داره، وبعد ذلك، وعندما حُصرت القلعة، أتى إلى «بدون» في خلال يومين، وفي «بدون» أخذ سفينة أو سفينتين من نوع «شيقه»، وبعد أن هجم على برج الكفار في ميدان رمي السهام الواقع في «أسترغون»، وبعد أن قتل بعض الكفار، هجم مرة أخرى على الأبراج التي أقاموها في مضيق «غاذه»، فقتل أيضًا بعض الكفار من هؤلاء، وكان قد أتى ودخل إلى القلعة أمام أعين الملاعين.

ولم تكن بطولة المرحوم هذه التي تنال التقدير تتوفر عند كل شخص بهذا القدر، ولم يوضح كيف أنه قام باستدراج «مادارْد أوغلو» و«بسبرملو» اللذين كانا على رأس عدة

آلاف من الكفار إلى كمين في الوقت الذي كان فيه أميرًا لـ «أستوني بلغراد» حيث انهزم الملعون، ثم استدرج كفار «أويوار» أيضًا إلى كمين بينما كان أمير «أسترغون»، حيث قام بقتل معظمهم ولا يمكن توضيح سائر غزواته، حيث إنه ليس هناك أيضًا قدرة لهذا الكتاب المختصر لتوضيحها لا باختصار ولا إجمالًا.

- پيرسز علي بك:

كان المشار إليه أيضًا موضع شرف أمراء ذلك العصر، كان يحتفظ بصورة مستمرة بسبعمائة أو ثمانمائة رجل شجاع عند بابه، وكان يوجد في بابه رجال مشهورون جدًا وذوو غيرة وحمية، وكان يوجد لديه الولاة الذين كانوا يربون الأربعين والخمسين والسبعين والثمانين من الخيول والرجال، وكان متصرفًا في معظم الوقت على سناجق «فيلك» و«صونلق» و«كوله»[1]، وكان قد أصبح أيضًا متصرفًا على «سكتوار» بعد «صاري علي بك»، ولكن كان منهمكًا بالشراب والمنادمة، وكان يعد الموائد باستمرار ويبذل فيها النعم، وكان يجلس مع جملة الأعيان، وكانت ضيافته تستمر أسابيع كثيرة، وكان ولاته أيضًا يتحركون لشن الهجمات المتصلة، وكانوا لا يهدءون عن الغزو وأخذ الغنائم، وكان يحدث أحيانًا أن يهدي في مجلسه أشياء كثيرة من الأحصنة والأشياء المنزلية والأسرى ومن الأثواب التي يرتديها وأسباب الفراش وما هو في قيمة عشرة آلاف غروش.

ولما توفي في «بدون»، كنت حاضرًا، وقد ورث ابن أخته الأشياء التي تركها. وبعد أن احتجز منها أشياء قيمة كثيرة بشغف السنجق، قال الدلالون: «لقد تجاوزت الأشياء المنزلية والأواني والذهب والفضة المباعة بأيديهم أكثر من أربعين أو خمسين ألف غروش خلاف ما خرج من يده بالبذل والسخاء».

- المرحوم فرهاد بك:

هو المرحوم فرهاد باشا الذي استشهد في «بدون»، وأصبح من أمراء ذلك العصر،

---

(١) تقع هذه السناجق في بلاد المجر.

وعهد إليه بإيالة «البوسنة» خلال سلطنة «مراد الثالث»، وأصبح أمير أمراء، وكان خال هذا العبد العاجز أي خالي، ولهذا كنت أعرف معظم أحواله.

وكان ابن عم الوزير الأعظم «محمد باشا الطويل»، وكان رئيس علوفة في زمن دولته، وبعد ذلك أصبح واليًا على سنجق «كليس»، ولما كان يوجد في ذلك السنجق في أثناء إلحاق الهزيمة بالأسطول الهمايوني، فقد قام بفتح القلاع المعروفة باسم «زمونيك» و«أوزرن» و«برودين» و«تروغير» الواقعة بقرب القلعة العظيمة المعروفة باسم «زادره» التابعة لـ «ونديك» وأيضًا بعض القلاع الأخرى، حيث ألحق الهزيمة بعسكر الأعداء عدة مرات وعندما أبرم الصلح مع «الفرنك» حافظ على الحدود بين الطرفين، والآن فإن الحدود التي كانت معتبرة آنذاك لا تزال قائمة؛ ونظرًا لعدم التزام الأمراء في عصرنا لذلك، فقدوا الاحترام بين أهل الإسلام فلم تنفذ كلماتهم، ولما فقدوا اللياقة والاحترام لدى الكفار، تجاوز الفرنك؛ أي الفرنجة ذوو المكر السيئ عليهم، فكان تقديم المرحوم «فرهاد بك» الخدمات العظيمة للدولة العلية بعد ذلك أمرًا مقررًا، وكان «فرهاد باك» قد نقل إلى البوسنة في عصر الوزير الجليل «محمد باشا الطويل»، حتى إنه كان يُروى أنه يدخل إلى سنجقه بسبعمائة راية بالتمام، وبمائتين من أفراد اللوند المعروفين باسم «دلو» الذين كانوا يرتدون ذئاب وذوي التيجان وبمائتين أو ثلاثمائة رجل فقط. وقد وفق أيضًا في عدة فتوحات في البوسنة، حيث ألحق الهزيمة بالكفار عدة مرات، وسبى بعض ممالكهم ونهبها. وحتى في أثناء جلوس السلطان «مراد الثالث» على العرش كان قد قطع رأس اللعين المعروف باسم «أوشپر غار» الذي كان جنرال «خروات» وأسر ابنه، وكان هؤلاء الأسرى وتلك الرءوس المقطوعة أول ما وصل إلى الآستانة في عصر «مراد الثالث»، وقد أحسن عليه السلطان صاحب السعادة بالكافر الذي كان ابن الجنرال، فقام «فرهاد بك» بإطلاق سراحه في مقابل ثلاثين ألف ذهبية نقدًا ومائة أسير من أهل الإسلام، وكان قد بنى بهذا المال الجامع الشريف الذي كان في «بنالوقه».

ولما عزل المشار إليه «فرهاد بك» من إيالة البوسنة في فترة سرداردية «عثمان باشا» كلف بحماية «كفه» إثر عصيان «محمد گراي خان» خان التتار، وفي هذه الأثناء ينحرف

مزاجه قليلًا، حيث أطلق سراح ثمانمائة خادم دفعة واحدة من الخدم الذين أسرهم من الكفار في غزواته، فأعطى كل واحد من هؤلاء وثيقة إطلاق السراح من قاضي «كفه»، وكان كل واحد من هؤلاء الخدم لديه مملوك وجارية وخدم وحشم، وفي ذات مرة يحصي خادمه الشركسي ويدعى «دلي باشيسي رستم ويوده» الأشياء التي تركها «فرهاد بك» وذلك عندما وصل إلى سكرات الموت، فوجد أن عنده ثلاثمائة عبد مملوك فقط، ويمكن تحديد ومعرفة كافة قدرته من خلال هذا، وليس هناك سعة لهذا الكتاب المختصر لعرض سائر غزواته وأحواله.

في ذكر بعض مشاهير العلماء في عصر السلطان سليم الثاني

ـ المرحوم بشكطاشي يحيى أفندي:

شرف هذا العالم أي ولد في «طربزون»[1]، وفي ذلك الحين كان المرحوم السلطان سليم واليًا على «طربزون» وكان ولده النجيب حضرة السلطان «سليمان» طفلًا رضيعًا، ولما كان يسمح لوالدة «يحيى أفندي» بالدخول إلى السراي العامرة في كل وقت فقد بلغت درجة السعادة في إرضاع حضرة السلطان «سليمان»، وبعد ذلك أصبح «يحيى أفندي» رجلًا كاملًا، وتفوق على أقرانه في العلم والتحصيل، وأصبح ملازمًا في خدمة «مفتي علي چلبي»، وبعد أن وصل إلى إحدى «مدارس ثمانية»[2] بطريق الترقي رفع ذات يوم تذكرة إلى جناب السلطان قائلًا في نفسه: «أثبت الحقوق القديمة»، ولكن بموجب

---

(١) هي مدينة ومركز ولاية في الساحل الجنوبي من البحر الأسود، وفي شمال الأناضول، وهي تقع شرق إستانبول بحوالي ٨٩٠ كيلو مترًا، وشمال غرب أوضروم بحوالي ١٤٠ كيلو مترًا.
ـ قاموس الأعلام، ٤ / ٣٠٠٤ـ٣٠٠٥.

(٢) وهي المدارس الثمانية التي شيدت في الطرف الشمالي والجنوبي للمسجد الذي شيده السلطان محمد الفاتح. وأطلق على هذه المدارس اسم «صحن ثمان». وكانت تدرس في هذه المدارس العلوم الدينية، والآداب، ومبادئ القانون. وكان يوجد في كل واحدة من المدارس الثمانية أقسام للدراسات التكميلية وتعرف هذه الأقسام باسم «مدارس تكميلية».

ـ Midhat Sertoğlu: Adı geçen eser، S. 109.

مضمون القول لا وفاء للملوك، قد أصبح ذلك العرض باعثًا على تكدر الخاطر الطيب للسلطان «سليم الثاني»، ونتيجة لهذا، عزل يحيى أفندي من وظيفته، وعينت له وظيفة تقاعدية قدرها ستون أقچة.

ولهذا تخلص من عادة التردد على أبواب الأكابر، واتخذ مقامًا عند سواحل «بشكطاش»[1]، وأصبح مشغولًا ليل نهار بالطاعة والعبادة، وراح يبذل كل ما يملك في ضيافة القادمين لزيارته وأحيانًا كان يزرع أنواع الأشجار في تلك النواحي وأحيانًا أخرى كان يلقح تلك الأشجار، وبدأت تظهر عليه آثار الكرامات يومًا بعد يوم، وهكذا استمر حتى صار منزله مزدحمًا بالأكابر والأصاغر، ولما وردت إليه الصدقات والنذور قام ببناء مسجد وخانقاه ومدرسة وحمام، حتى إنه لما رأى الناس المصاريف الكثيرة، قالوا: إنه وجد كنزًا. والحقيقة أن كنز القناعة كنز لا يفنى والذين يصلون إلى هذا المقام لا يعانون من الفقر أبدًا.

ـ مولانا محمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم:

هو ملا كبير يعرف بين العلماء بـ «عبد الكريم زاده»، كان جده «عبد الكريم» قاضي عسكر في عصر السلطان «محمد الفاتح»، وكان والده «عبد الوهاب» دفتردار عالي الجناب في عصر السلطان «سليم الأول» وأصبح مولانا «محمد» ملازمًا لـ «كمال باشا زاده»، وبعد أن عمل في قضاء حلب ومصر والشام، أصبح قاضي عسكر لـ «بروسه» وبعد ذلك قاضي عسكر للأناضول، وظل في ذلك المنصب الجليل ست سنوات، وكان في حد ذاته سخيًا وصاحب كرم، ولو كان هناك ألف رجل لاغتنموا في ساعة واحدة من إحسانه ونعمه، وكان الشيء الأقل من القطرة يزداد قيمة في حضرته، وتوفي ليلة القدر من شهر رمضان سنة خمس وستين وتسعمائة هجرية[2].

ـ مولانا مصلح الدين:

وهو «بستان أفندي» الذي كان مشهورًا ومعروفًا بأنه بستان العلم والمعرفة، وبستان

---

(١) وهي من أحياء إستانبول.

(٢) الموافق ٣١ـ ١٠ ـ ١٥٥٨م.

حديقة الفضل، وكان ملازمًا لـ «خير الدين أفندي» معلم السلطان، وبينما كان منتظمًا في نشر فضائله في بعض المدارس، رضي بالقضاء وقدر الزمان، وأصبح قاضيًا في بعض الأحياء.

ويروى عن أحد الثقات أن السلطان المغفور له استفسر في أحد الأيام من حضرة شيخ الإسلام قائلًا: «كم رجل من بين العلماء قادر على خدمة الفتوى الشريفة؟»، ولما عرض على السدة الجليلة عدد قليل، تفضل بالحديث قائلًا: «أريد اختيار بعض الرجال اللائقين بالفتوى من بين العلماء الموجودين، سواء في وظيفة القضاء أو في خدمة الفتوى، أو عند سائر العلماء في الممالك المحروسة، وأريد مجيئهم إلى عاصمتنا»، وعلى هذا كان حضرة المشار إليه مولانا مصلح الدين واحدًا من السبعين الأفاضل رفيعي المنزلة الذين أتوا في ذلك الحين إلى عاصمة الدولة، وبعد ذلك أصبح متصرفًا في بعض المدارس بحسب الطريق، ثم أصبح متصرفًا في قضاء «بروسه»، وعلى الترتيب أصبح متصرفًا في قضاء «أدرنه» وإستانبول لمدة أربع سنوات، وبعد ذلك أصبح قاضي عسكر الأناضول، وبعد ذلك عندما توفي المرحوم «جوي زاده»، أصبح قاضي عسكر الروم إيلي، وأصبح مرجع الأكابر والأصاغر في ذلك المنصب الجليل لمدة خمس سنوات، وتوفي في العشر الأواخر من رمضان المبارك سنة سبع وسبعين وتسعمائة هجرية، وكان يصرح في كل وقت لأحبائه هذا السر المستور: «من المؤكد أن موتي سيقع في آخر رمضان، ودفني سيكون في ليلة القدر»، وفي الواقع حدث ذلك على هذا النحو، وكان مسلكه في غاية الصلاح، وكان متدينًا ويختم القرآن مرة كل أسبوع، وكانت بعض ولاياته وكراماته مشهورة ومذكورة على لسان الخلق.

ـ مولانا جعفر أفندي:

كان ابن عم شيخ الإسلام والمفسر العلامة المرحوم «أبي السعود أفندي»، وهو الوالد الجليل للمرحوم «صنع الله أفندي» الذي كان شيخ الإسلام في عصر السلطان «محمد خان»، وأصبح ملازمًا لمولانا «شجاع أفندي» وبعد أن شرف بعض المدارس، أصبح

قاضي الشام الشريفة، وبعد ستة أشهر أصبح قاضي عسكر الأناضول، وبقى ست سنين في ذلك المنصب، وبعد ذلك قنع بعلوفة قيمتها مائة وخمسين أقچة، وبينما كان مشغولاً بالعبادة والطاعة ليل نهار، توفي في سنة ثمان وسبعين وتسعمائة هجرية، وكان «منلا»[1] ملتزمًا جدًا ومستقيمًا ومتدينًا وزاهدًا، رحمة الله تعالى عليه.

ـ مولانا عطاء الله:

كان معلمًا للسلطان حامي العالم، وهو من الحي المعروف باسم «بركي» في سنجق «آيدين»، وبعد أن وصل إلى مدرسة «رستم باشا» بحسب الطريق عين معلمًا لجناب الشهزاده؛ أي ولي العهد، ولما شرف السلطان صاحب السعادة العالم بالجلوس على العرش، علا قدره وزادت قيمة المنلا المذكور مولانا «عطاء الله» وزادت قيمته يومًا بعد يوم وأصبح مرجع العلماء والأكابر لمدة خمس سنوات، وبينما كان يتتلمذ على يد المرحوم «أبو السعود أفندي»، فنظرًا لتقصيره في احترامه وإكرامه، فقد أصبح عرضة لدعائه السيئ، وتوفي في صفر سنة تسع وسبعين وتسعمائة هجرية، وأدى حضرة شيخ الإسلام أفندي صلاة الجنازة عليه، ويروى أنه بدت علامة السعادة الخفية على وجه أبي السعود أفندي المبارك.

ويروى عن بعض أحبائه أنه رأى رؤية في منامه قبل وفاته بعدة أيام رأى فيها: أنه بينما كان يجلس في مكانه الموقر وفحول العلماء والأكابر جالسون، يأتي رجل صوفي خرقته على ظهره وعصاه في يده، ويهجم عليه قائلاً: «قم من مجلسك يا ناسي الأدب»، ولما تكرر هذا الأمر العجيب ثلاث مرات، ولم يفعل، يرفعه في النهاية من مكانه، ولما يستفسر من الحاضرين عن هذا الشخص يقولون له: إنه الشيخ «محيي الدين ياوصي إسكلبي» الوالد الموقر لحضرة شيخ الإسلام.

(١) هو لقب يطلق على العلماء الذين أحرزوا درجة المولوية. وكانت تكتب في صورة «منلا» أو «ملا». وكان يستخدم لقب «منلا» بحق من يشغلون الوظائف العلمية والاجتماعية العليا. وكان يقال على الطبقة الأولى من القضاة «منلا». وكان المدرسون لا ينادون على طلبة المدرسة بأسمائهم ولكن كانوا يخاطبونهم قائلين «منلا».

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، C. II، S. 549.

ولكن في الوقت نفسه كانت تقوى مولانا المومأ إليه عظيمة، وكان منلا كريم الشأن مواظبًا على الصلاح والعبادة، كان يحترم الأقرباء وكان يصرف ما في وسعه لإعلاء مراتبهم.

- مولانا علاء الدين بن محمد:

هو المرحوم «حنالي زاده علي أفندي» الذي كان فضله وعلمه فوق العادة، وتفوق على أقرانه في أنواع العلوم، وبصفة خاصة كان المنلا كاتبًا، وصل إلى درجة الكمال في النظم والإنشاء، وبعد أن أصبح قاضيًا للبلاد الثلاثة[1] على الترتيب، أصبح قاضي عسكر الأناضول، وبينما كان في ذلك المنصب ودع العالم الفاني سنة ٩٧٩ هجرية في «أدرنه» المحمية؛ بسبب مرض عرق النساء، ولم يمهله عمره العزيز، فقد كان مقررًا أن يصبح شيخًا للإسلام، وأن تبقى بعض آثاره البلاغية، ولما كان يعيش في عصره فحول العلماء أمثال «أبو السعود أفندي» و«محشي سنان أفندي» و«بستان أفندي»، فلم يكن ممكنًا سطوع شهرته بين هؤلاء. إلا أنه لم يكن هناك شك في أنه كان شبيهًا بهم؛ وربما كان أفضل منهم في بعض العلوم.

- مولانا محمد چلبي وأحمد چلبي:

كانا يذكران بين العلماء باسم الأخوين، وكانت الدرجة العلمية لكليهما متوسطة، ولم يكونا جهلة ولا متبحرين في العلم، وما إن وصل «محمد چلبي» المذكور إلى مدارس السليمانية حتى ترك العالم الفاني، ولما عزل «أحمد چلبي» من مدرسة السلطان سليم، توفي هو أيضًا دون أن يحيط علمًا بوفاة أخيه، وكان رجلًا مازحًا وكثير المحاورة وذا طابع حسن وكان رجلًا يضفي على المجلس زينة وبهاء.

ويحكى أنه عندما وصل «أحمد چلبي» إلى «قونية» لصلة الأرحام، رافقه في المجلس وفي الحديث «أزلي زاده» الذي كان يقطن في «قونية» وكان عظيم الشأن بين المشايخ،

(١) البلاد الثلاثة هي: أسكودار، وإستانبول، وغلطه، أما البلاد الخمسة فهي: فيلبه، والشام، ومصر، وبورصه، وأدرنه.

وكانت مداعبته ومزاحه فوق العادة مثل كراماته العظيمة، وبينما كان يمضي معه بعض الأوقات لعدة أيام، يشكو مولانا المذكور في أحد الأيام إلى حضرة الشيخ من أن هوى نفسه يغلب عليه وأنه مسلوب الإرادة تجاه شغفه وحبه للأحباب، ويتفضل حضرة الشيخ بالحديث قائلًا: «إنه بسبب قرب انفصال الأحباب عن عالم الأرواح وبسبب أن الأرواح لا بد وأن تكون مشتاقة إلى بعضها، فهي مدفوعة بالرغبة في أن يكون هذا الانفصال قريبًا»، فمثلًا عندما يجد الشخص في دار الغربة أحد مواطنيه، يصبح مائلًا وراغبًا في الحديث معه بلا إرادة، وعلى هذا يعترض مولانا «أحمد» ويرد قائلًا: «طبقًا لذلك التقدير فما سبب عدم الرغبة في الاقتراب من الصبيان الذين أعمارهم صغيرة»، فيقول الشيخ المذكور أيضًا: «إن الرغبة في عالم الغربة تنحصر في ذلك المواطن القادر على إبلاغ الخبر الصحيح عن دياره، وأن هذه الرغبة لا تكون لذلك المواطن الذي لا يحيط علمًا بالديار التي أتى منها وينحصر تمامًا في عمله التحريري»، ويقول مولانا صاحب الأوصاف المحمودة هذه المرة: «فما سبب ميل طبيعتنا إلى الأحباب سيئي القيافة»، أما حضرة الشيخ فيجيب قائلًا: «لأن الاستخبار من عالم الأرواح، لا بد وأن يكون من شأن الأرواح»، ثم يضيف الشيخ أيضًا مجيبًا عن السؤال: ما سبب عدم ميل روحنا لهؤلاء؟ بقوله: «أنتم تقولون: ما أعجب روحي، فمثلًا هل يستوي لديكم الأحباب الذين في حيكم؟ والأحباب الذين في حي الأداني من الناس؟ فكلاهما مواطنوكم، ولكن هل يمكن الميل لهؤلاء الأداني؟ ونتيجة الكلام في هذا الموضوع هو أن العصمة تطلب من جناب الحق والعفة ترجى من مقتضى النفس الأمارة».

ـ مولانا عبد الكريم بن محمد بن حضرة شيخ الإسلام أبو السعود العمادي:

أصبح ملازمًا لجده العظيم، وصار في البداية مدرسًا بخمسين أقچة، وبعد ذلك وصل إلى مدارس السليمانية في خلال سبع أو ثماني سنوات، ومع أنه كان مخضرمًا ومؤدبًا جدًا، وصاحب فضيلة وخلق وحسن الكلام، وقائلًا للحق وصاحب حظ جميل فإن عين الفلك الحولة رأت أنه قطع كل هذه المراتب، فطوت سجل حياته بينما كان عمره ما دون الثلاثين، روح الله تعالى روحه.

في ذكر الأطباء الذين كانوا في عصر السلطان «سليمان خان» وبعده في عصر السلطان المغفور له أي السلطان سليم الثاني

ـ مولانا حكيم سنان:

بينما كان رئيسًا في بعض دور الشفاء، أرسل إلى «طربزون» لجناب السلطان سليم الثاني. وكان رئيس الأطباء في عصر «سليمان القانوني»، وتوفي سنة ٩٥١ هجرية في الوقت الذي تجاوز فيه عمره المائة.

ـ مولانا حكيم عيسى:

كان طبيبًا ماهرًا وحاذقًا جدًا.

ـ مولانا حكيم عثمان:

أتى من بلاد العجم، وأُلحق بزمرة «أطباء خاصة» في عصر «سليم خان»، وكان صالحًا ومتدينًا وصاحب شهرة كحكيم ماهر.

ـ مولانا حكيم إسحاق:

كان نصرانيًا، وكان يقرأ عن المنطق وعلم الهيئة نقلًا عن الـ «منلا لطفي التوقاتي»؛ نظرًا لمهارته في علم الحكمة [الفلسفة]، وبعد ذلك توغل في علم الكلام، ولما رسخ كلامه في المباحث الدينية، ووقف على الأدلة الصحيحة للحقيقة الإسلامية؟ رفع إصبعه بلا إرادة وأصبح مسلمًا، وترك علم الطب واشتغل بمؤلفات الإمام محمد الغزالي، وشرح الفقه الأكبر المستند إلى آراء الإمام الأعظم الفقيه وعمل بالكتاب والسنة، وكان منكرًا لعلم التصوف.

ـ الطبيب بدر الدين محمد بن محمد الشهير بقايصوني:

ولد في مصر. وبعد ذلك أكمل دراسة الطب وأتى إلى العاصمة العلية، وانضم إلى الأطباء بحسب الطريق، وبالتدرج أصبح رئيس الأطباء، وظل في العمل بتلك الخدمة

حوالي ثلاثين عامًا، وكان ألم مرض النقرس يسبب أحيانًا الضجر الزائد للسلطان صاحب السعادة، ولا يذيق عينيه طعم النوم والراحة، ولا يستطيع الحركة، وكان صراخه يقلق أهل السراي، فقام الحكيم المذكور بصنع دواء مفيد له، يسكن الآلام، حيث شعر السلطان المغفور له بالراحة، وعندئذ أحسن عليه السلطان بجوائز سنية وخلع بهية، علاوة على تعيين يومية أحيانًا تبلغ مائة أقچة وأحيانًا أخرى تصل إلى خمسين وستين أقچة لتوزع على رجاله، وبسبب توزيع هذه اليومية على تلاميذه سواء الحديث منهم أو القديم؛ كثر عدد الأشخاص التابعين له، ولما أصبح المرحوم شيخًا، لم يفقد قدره بل بقي معززًا ومحترمًا بدرجة عظيمة بجانب السلطان، حتى إنه أذن له بالمجيء والذهاب راكبًا من الطريق الذي كان يمشي عليه الوزراء العظام بالأقدام، وحتى الباب الهمايوني، ولكن لما حان الأجل، لم ينفعه طبه ولا حذاقته ولا التفات ورعاية سلطان العالم له، فما إن مرَّ عامان من «جلوس سليم خان» على العرش حتى ودع العالم الفاني، رحمة الله تعالى عليه رحمة واسعة.

ـ طبيب أحمد چلبي:

هو ابن «حكيم عيسى» المذكور من قبل، وكان فاضلًا جدًا؛ حيث وصل إلى درجة الكمال في الطب، وعهدت إليه «مدرسة الطب» المشيدة في «جامع سليمان خان» بمرتب قدره ستين أقچة في البداية. ولكن، لم يعمر طويلًا، ولم يجد الدواء لداء الأجل، وترك العالم الفاني في التاريخ المذكور، رحمة الله تعالى عليه.

في ذكر بعض مشاهير المشايخ الكبار في العصر الشريف لسليمان خان وبعده في عصر السلطان سليم الثاني

ـ الشيخ علاء الدين ـ قُدّس سره:

هو من بلدة «آقسراي» في ولاية «قرمان»، وكان وليًّا تظهر عليه ولايته وكرامته. وشرح رسالة حضرة «شيخ أكبر» المعروفة باسم «عنقاي مغرب»، ومن إشارته العلية

ورموز حروفه الخفية أنه كتب بشكل صريح قائلًا: «ينبغي أن يلتقي الشيخ الذي كان الحرف الأول من اسمه «عين» مع السلطان ذي الشأن الذي كان الحرف الأول من اسمه «سين» في المدينة التي كان أول اسمها حرف «قاف» وآخره «ها»[1] في سنة أربعين وتسعمائة»، ولما التقوا في «قونيه» أثناء توجه السلطان «سليمان» إلى حملة «بغداد»، كان قد أهدى له تلك الرسالة مع شرحها، وكان قد أشار قائلًا: «لقد كتب حضرة الشيخ ملاقاتنا على هذا النحو مع بعضنا»، وأن بعض كراماته العلية أيضًا مشهورة وليس هناك مجال لتفصيلها في هذا الكتاب المختصر.

- الشيخ عبد الكريم:

لما كان عالمًا بالوعظ والتذكير في «كوجك آيا صوفيا»، وكان عالمًا ممتازًا وفقيهًا، فقد كلف من جانب السلطان بالإفتاء، وكلما دخل إلى خلوته «الأربعين»[2] كان يحفر بئرًا يشبه القبر؛ حيث كان يتم رياضته الروحية بالدخول إليه.

- الشيخ عارف بالله محمود چلبي:

كان مولانا قد حصل العلم في بلاد القرم، وتعلق بحضرة «سيد أحمد بخاري» رحمة الله تعالى عليه، وكان قد تردد لفترة على المجالس المباركة لحضرة الشيخ «إلهي» [عبد الله إلهي سماوي]، حيث اكتسب الفيض والاستعداد من أنفاسه المباركة، وكان وليًا يغلب عليه وقاره وحياؤه وجاذبًا قلوب الراغبين.

- الشيخ أبو سعيد - رحمة الله تعالى عليه:

كان قد أتى من ولاية العجم، وكان الوزير الأعظم «علي باشا» معتقدًا جدًا فيه، وقد أحسن عليه بوظيفة قدرها مائة أقچة، ولكن كان مبتلى بعظيم الوسوسة.

ويروى أنه في إحدى الأيام، يرسل إليه «علي باشا» بالطو مبطن بفراء الحيوان المعروف باسم «سمور»، فيأبى ويمتنع عن قبوله، وفي النهاية يكرهه على أخذه، ولكن،

---

(١) المقصود بها: «قونيه».

(٢) رياضة كان يقوم بها بعض الدراويش تستمر أربعين يومًا.

يقوم الشيخ بغسله بالصابون عدة مرات قائلًا: «ليطهر»، ويعلقه في ساحة منزله، ويبقى في ذلك المكان حوالي ثلاثة أشهر أحيانًا في الشمس وأحيانًا في المطر، وأحيانًا يبلل وأحيانًا يجف، وبعد ذلك قال طبقًا لاعتقاده: «لقد تطهر»، وجعل أحد الدراويش يغسل له يديه عدة مرات، ويمسحها بقطعة قماش غير مستعملة وينفض البالطو، ولكن لم تعد هناك وَبَرة واحدة موجودة على البالطو، ويبقى مثل رق الغزال الجميل، وفي هذه المرة، يوزع الشيخ كل وبر البالطو على الجوانب الأربعة لمنزله، وأحيانًا بسبب «علي باشا» وأحيانًا بسبب نفسه، ويبكي بهذا الحزن والغم حتى المساء، ويكتوي كبده من شدة الآهات، وفي اليوم التالي، يرسل واحدًا أو اثنين من مريديه إلى سوق القرويين، فيحضروا له خمسين نفرًا من الفلاحين، أعينهم سليمة من أي مرض، وذلك لترتيب تلك الساحة أي كل جوانب منزله، وجعلهم يمسحون أبواب المنزل وأسقفه وكل زاوية فيه وساحته على مدى ثلاثة أيام، وجعلهم يبحثون ويجمعون وبر البالطو، ولما وصل إلى اعتقاده أن المنزل قد أصبح طاهرًا تمامًا؛ يهدأ ألمه، ويضحك الخلق عليه.

وفي ذات يوم، يقوم «علي باشا» بوصف الشيخ المومأ إليه إلى السلطان صاحب السعادة، ويحدثه عن بعض كراماته وإفراطه في الظن والوسوسة، فيرد السلطان عليه قائلًا: «هو ولي مستجاب الدعوة، فخذوا دعاءه»، ويبتسم السلطان صاحب السعادة قائلًا: «عندك عادة الإصرار»، ويأذن بمجيء الشيخ، وعندما يلتقي في اليوم التالي بالسلطان صاحب السعادة، يحترز من لمس السلطان صاحب السعادة والاتصال به، ويبدو كما لو يصافحه ويرحب به من بعيد، ولم يجرؤ أغوات الحرم على تقبيل اليد وحاشية الثوب امتثالًا لتنبيه السلطان المحترم، وتنتهي آداب المصافحة، بالانحناء والتعظيم من الطرفين، ولكن لما دخل الوزير ذو الوجه الباسم إلى حجرة العرض مقبلًا تراب قدم السلطان ذي الخلق الحسن، سأل السلطان صاحب السعادة في البداية قائلًا: «كم تبلغ وظيفة ذلك الولي؟»، ثم أضاف قائلًا: «إنني لم أر في عمري شخصًا في هذه الخلقة»، وعندما قال الوزير حسن التدبير: «إن وظيفته مائة أقچة»، تفضل السلطان

بالحديث: «هذا قليل، زده مائة أيضًا كبدل صابون، ربما يطهر به وسخ الوسوسة»، وكان قصد السلطان بالكلام الظريف على هذا النحو أن يرعى خاطر الوزير الجليل وأن يبعث الهمة لدى الولي.

- الشيخ حكيم چلبي:

كان قد اشتهر باسم «حكيم چلبي» علاوة على أن اسمه المبارك «محيي الدين»؛ أي أنه مسمى بنفس اسم «فخر المرسلين»، وأنه كان أفضل العارفين بين مشايخ النقشبندية وضليعًا جدًا في العلوم والمعارف وقرينًا للحكماء السالفين في علم الحكمة أي الفلسفة، فقد تعلم على أيدي حضرة «الشيخ محمد بخاري»، عليه رحمة الملك الباري، وكان قد جلس مكانه على سجادة إرشاده، وقد تبعه الصدر الأعظم «رستم باشا»، ولم يخالفه في أي كلمة على الإطلاق لمدة عشرين عامًا، ولم يرجُ المرحوم أيضًا من الباشا أمرًا دنيويًا في أي زمن قط، وكان زاهدًا جدًا، وفي غاية التدين، رحمة الله تعالى عليه.

- الشيخ يعقوب كرمياني:

بينما كان من أرباب التيمار، وصل إلى خدمة الشيخ «سنبل سنان أفندي»، وهو من مشايخ الخلوتية. وقد استمر على الرياضة الروحية والعبادة فألزم نفسه بأن يتناول إفطارًا واحدًا كل ثلاثة أيام، وأن يشرب الماء مرة واحدة كل ستة أشهر، ولما توفي الشيخ «سنبل أفندي» يحل المرحوم مركز مصلح الدين أفندي محله، وبينما كان «يعقوب كرمياني» مترددًا في التعلق بمركز أفندي المذكور، فإنه يشاهد في منامه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاضرًا مع الصحابة والأكابر في مجلس وعظ «مركز أفندي»، ولكن كانت عمامته تظهر فوق رأسه أحيانًا خضراء وأحيانًا سوداء. ولما استفسر من الحاضرين: «ما الذي يبعث على تغير اللون؟»، قالوا: «إن خضاره دليل على كمال الشريعة وسواده دليل على استكمال الطريقة»، ويصل إلى مجلسه في اليوم التالي ويبايعه، ولما توفي المرحوم «مركز أفندي»، كان قد جلس على سجادته في جامع «مصطفى باشا».

- الشيخ سرخوش بالي أفندي:

كان ابن معلم المرحوم الـ «شهزاده سلطان أحمد»، وبينما كان مدرسًا في مدرسة «كينكجي»، يرى في منامه أن شيخًا عظيمًا يذكر مع مريديه ويتفضل الشيخ بالحديث إليه: «لماذا لا تدخل إلى حلقة الذكر؟»، وبعد فترة يتصادف بمجلس الـ «شيخ رمضان أفندي» فشاهد المجلس نفسه والشيخ الذي شاهده في منامه، عندئذ، يتبعه بلا إرادة، ويجتهد بالرياضة الروحية والمجاهدة معه، وبعد ذلك أصبح لا يتوجه إلى جانب الوزراء والأكابر على الإطلاق، واعتزل عن الناس تمامًا، وقد أصبح أحيانًا يلقن بعض الأموات كلمة الشهادة، وكان المرحوم الشيخ «نور الدين زاده» الذي كان معاصرًا له منكرًا للتلقين، وكان يقول: «إنه يرغب في تلقين الموتى»، وكان المرحوم أيضًا يجيب: «عند الوفاة هل يرى المتوفي، هل يسمع أم لا يسمع؟»، وكان قد وضع مطلع شعري في هذا الأمر جاء فيه: أصبح الخلق ينكرون ذلك النوع من الكرامات، فلو أنك تستنطق الموتى لماذا يقول هذا فعل منكر؟ وقد روى عن سبب توبة المرحوم أنه في أوائل حاله ابتلي بشاب يعرف باسم «پيروزه علي»، حتى إنه كان قد اتخذ اسم «جوهري» مخلصًا من أجل ذلك، واتفق أن توفي الشاب المذكور، فيرى «بالي أفندي» في إحدى الليالي محبوبه في منامه، فيطلب منه هدية، فيضع المحبوب قليلًا من التراب على قطعة من الورق ويهديها له، فيأخذها «بالي أفندي» أيضًا بشغف ويضعها في قطعة شاش، وفي الصباح، وبعد أن يحكي لأحبابه رؤيته، ينفض عمامته، وتسقط تلك الورقة بينهم وهي مملوءة بالتراب الطاهر، وفي ذلك اليوم، يصبح في نشوة ومدهوشًا، ويسلك طريق التصوف، وهو مدفون قرب التربة المطلية بالرصاص، وقد كتب على نافذة تربته ذلك المصرع: (كان بالي أفندي سكران ورحل بكأسه السيئ)، وذلك المصرع هو تاريخ وفاته.

- الشيخ رمضان بهشتي:

هو من الحي المعروف باس «ويزه»، وصل إلى خدمة «صفا أفندي» والمفتي «سعدي أفندي»، وبعد ذلك، لما أصبح مصابًا بالجذب الإلهي فقد ترك الطريق الظاهر، وسلك

مسلك الصوفية، وكان قد اقتنع بوظيفة خطيب جامع «أحمد باشا» في «چورلي»، وكان لا يتوانى عن الإفادة والاستفادة، وقد اشتهر بمخلص «بهشتي»، وكان رجلًا ظريفًا جدًا ولذيذ المحاورة، وعاشقًا، وكان لا يبالي شيئًا.

- الشيخ محيي الدين بركوي:

كان الابن النجيب للشيخ صاحب الإرشاد في «بالي كسرى»، وأصبح ملازمًا لقاضي العسكر «عبد الرحمن أفندي» في طريق العلم، وفي النهاية، سلك مسلك الصوفية، وتخرج على أيدي الشيخ «عبد الله قرماني» وهو من مشايخ طريقة «حاجي بيرام»، وكان في غاية الورع والتقوى، وكان قد نقل الوسوسة إلى الناس بقوله: «لا يعود الثواب على روح الذين قاموا بوقف سواء كرسي أو جزء، وأن القيام بالإمامة وبتلاوة القرآن العظيم بالأجر لا يبلغ مرتبة الجواز أي غير جائز»، وفي النهاية أحضره شيخ الإسلام أبو السعود أفندي عليه رحمة الودود، ونبه وأكد عليه قائلًا: «لا تتحدث بالكلمات التي تبعث على اختلال العقائد»، ولكن كان «عطاء الله أفندي» معلم السلطان حامي العالم يعتقد جدًا فيما يقول، وأمر ببناء مدرسة عالية وجعلها موقوفة عليه، وكانت معارفه وكمال صفاته غالبة على زهده وتقواه، وبعد ذلك، أتى إلى «إستانبول» وبلغ مجلس الوزير الأعظم الجليل محمد باشا الطويل؛ حيث راح يتحدث كثيرًا حول دفع المظالم، وكان في إظهار الحق مثل السيف المسلول، وتوفي في سنة إحدى وثمانين وتسعمائة هجرية[1]، رحمة الله تعالى عليه.

في ذكر الفتوحات والغزوات التي وقعت في عصر سلطنة «سليم خان» وعصيان «عليان أوغلو» من جانب البصرة وجعله يعلن الطاعة والخضوع جبرًا وقهرًا

في سنة ٩٧٥ هجرية[2]، كان المذكور «عليان أوغلو» من أقرباء مشايخ العرب الذين

(١) الموافق سنة ١٥٧٣/ ١٥٧٤م.
(٢) الموافق سنة ١٥٦٧ / ١٥٦٨م.

كانوا يعيشون في صحاري البصرة، ولما كانت تحت يده بعض القرى والنواحي والأحياء، وليس لديه قدرة على دفع تكاليف أمير أمراء البصرة وبغداد، فقد شق عصا الطاعة، ولما عُرض على الركاب الهمايوني أن «عليان أوغلو» والأعراب سيئي النية الذين قام بجمعهم، ألحقوا الضرر والخسارة ببعض الأماكن من الممالك المحروسة، أرسل عليه من باب الدولة ألفي جندي من الإنكشارية، وعددًا كافيًا من جند الطوبجي والعربه جي، ولما كان «إسكندر باشا» أمير أمراء بغداد ـ الذي أشير إلى حربه التي كانت مع «إسماعيل ميرزا» قبل ذلك، بينما كان أمير أمراء أرضروم ـ رجلًا شجاعًا جدًا ومدبرًا، فقد عُين سردارًا، وأرسل معه أمراء أمراء «شهرزور»، والبصرة مع خيرة رجال الأمراء الأكراد، فتوجه هؤلاء إلى «عليان أوغلو» وأخضعوه طوعًا وكرهًا، وقاموا بنهب وتخريب بعض نواحيه وقراه.

حملة «أژدرهان» و«غازان»

في سنة ٩٧٦ هجرية[1]، كان الوزير الأعظم الجليل «محمد باشا الطويل» لا يتوقف في أي وقت عن التفكير في مقدمات فتوحات ممالك العجم، ولما كان من الواضح أن أهم تلك المقدمات جميعًا هو تجهيز وإكمال ذخيرة عسكر الإسلام بسهولة ويسر، فقد ألقى بعض الأشخاص العارفين إلى مسامع الصدر الأعظم قولهم: «إن ما بين نهر "تن" الذي يصب في البحر الأسود ونهر «أتل» الذي يصب في بحر القلزم مسافة قليلة، وأن اتصالهم ببعضهم أمر سهل بهمة السلطان الهمايونية»، وعلى هذا، فقد أحسن بسنجق «كفه» على «شركس قاسم بك» الذي كان دفترادارًا ثانيا من أجل تحصيل المعلومات اللازمة حول هذا الموضوع كما ينبغي، وذلك بسبب أن «شركس قاسم بك» كان على دراية تامة بأحوال تلك الديار، وأنه كان من أقارب الصدر الأعظم المشار إليه علاوة على إنه كان رجلًا ذا كفاءة وكرم في ذاته.

---

(١) الموافق ١٥٦٨ ـ ١٥٦٩م.

وصل المشار إليه إلى تلك الديار واستخبر عن هذا الأمر من الأشخاص المحيطين به، وعلاوة على ذلك قام بإرسال الرجال الثقات إلى المكان المقصود، وكلفهم باستطلاع المكان وقياسه، وكتب «شركس قاسم بك» ورفع الأمر إلى باب الدولة بأن ما بين النهرين ستة أميال بحرية، ولو تحقق هذا الأمر الصعب بعون الله أي توصيل المسافة بين النهرين بحفر مجرى بينهما، فلن يعاني عسكر الإسلام من قلة الذخيرة في حملات العجم ، وسيجبر مملكة «شروان» و«قره باغ» وجميع «گورجستان» على طلب الأمان من الركاب الهمايوني السلطاني.

ولما فهم من هذا العرض أن هؤلاء، لا بد أن يخضعوا وينصاعوا، قطعًا بذل الوزير الجليل ما في وسعه، وأعد بعض المدافع المخصصة لضرب القلاع ومدافع الـ «ضربزن»، وقوائم الحديد، والكواريك، وآلات تكسير الأحجار وسائر مهمات القتال التي يعتبر توضيحها من قبيل تحصيل حاصل، وتفضل بإرسالها إلى ساحل «كفه» بأسطول عظيم، ثم أرسل عسكرًا بالقدر الكافي من جند الإنكشارية وسائر الخدم، وأمر أيضًا خان التتار بأن يلتحق بالحملة مصطحبًا معه الحيوانات الكثيرة مع جميع عسكر التتار، ووجه «كفه» إلى «قاسم بك» المومأ إليه كإيالة؛ فقام بتوفير الحيوانات من نواحي «كفه» ومن ولاية «تات» ومن رعايا «بالقلاغي» و«منكوب» و«تمان»، واتجه إلى المكان المكلف بالذهاب إليه، وقطعوا تلك الصحراء التي كانت مشهورة بين الآفاق باسم «دشت قبجاق» والتي كانت مرعى أهالي «تتار نغاي» فوصلوا إلى نهر «أتل»، ورأوا المدينة القديمة التي يطلقون عليها «أژدرهان».

وكانت منازل أهل الإسلام في الزمن الماضي ظاهرة وواضحة إلى الآن، وأيضًا آثار بناء جوامعها الشريفة وحماماتها ومدارسها، وكان واضحًا أنه لا يوجد بداخلها أي إنسان، وبعد ذلك، اختاروها مكانًا مناسبًا، وبدءوا بحفر جدول، ولم يقصروا في السعي والجد لمدة ثلاثة أشهر، ولكن حفر ثلث المقدار فقط، وأتى حوالي ثلاثين ألفًا من «تتار نغاي»، والتقوا بهؤلاء عند ذلك المكان، ومن حكمة الله تعالى إنه بينهما لم يكن هناك أي سبب يبعث على الخوف من العدو، وكانت الذخيرة والمستلزمات كثيرة، فقد ذاعت

شائعة بين العسكر، تقول: «إن الشتاء في هذا المكان يحل مبكرًا بثلاثة أشهر وأن أيدي وأقدام كل شخص تتجمد في ذلك الوقت وتقف عن العمل»؛ وبسبب أن الجند صدقوا هذه الشائعة ينظرون إلى بعضهم، ورحلوا على الفور، وذهبوا، وطبقًا لاعتقاد بعض الأشخاص: «فإن تخويف العسكر بهذه الصورة لا بد وأن يكون قد حدث بمعرفة خان التتار، فهو أيضًا قد خيم الوهم عليه؛ حيث يظن بأنه عندما يبدأ العساكر العثمانيون في الذهاب والإياب من البر والبحر إلى صحراء «قبچاق» وأطراف «شروان»، من المحتمل أن يزول اعتبار التتار في المنطقة وربما لا تبقى القرم أيضًا في أيدينا»، وعمومًا، أصبحت الحملة على هذا النحو، بلا فائدة وأنفق الكثير وتمت خسارة كبيرة، وحفروا خندقًا للعتاد العسكري وما شابهه من الأشياء التي كان من المتعسر حملها، ودفنوها بداخله، وعند العودة كانوا يسابقون بعضهم بعضًا، حتى عندما عرض الأمر على السلطان صاحب السعادة، عاتب الصدر الأعظم أمام الوزراء أصحاب المقامات الرفيعة، وتفضل السلطان صاحب السعادة بالقول: «فلتحسب كل المصاريف التي تلفت، وتخصم منك».

التحقيق في إجمالي أحوال «دشت قبچاق» و«أژدرهان» وأهالي تلك الصحراء المترامية الأطراف

إذا أراد الإخوان الذين يعلقون النظر بمجموعتنا المطبوعة هذه أن يعلموا ماهية ديار «دشت قبچاق» و«أژدرهان» ومن المتصرفون عليها، فإنه سيرخي العنان ليجول القلم سريع البيان على قدر الإمكان في ذلك الوادي الذي بلا شطئان، وليعلم أولو النهى أصحاب المعرفة أن «آلتي بارمق أفندي» و«جنابي أفندي» صاحب «تيمور نامه» قد كتبوا عن أحوال صحراء «قبچاق» ما يلي:

يحد الطرف الجنوبي لصحراء «قبچاق» بحر «قلزم» وبحر «بنطش» الذي هو مشهور باسم «البحر الأسود»، والأراضي والجبال التي يسكن بها الكورجيون و«الشركس» تقع بين هذين البحرين العميقين وكان قد أقيم سد في الزمن السابق فيما بينهما أي بين

الكورجيين والشركس، وآثار بناء هذا السد ظاهرة واضحة إلى الآن في مكانها، ويطلق على هذا السد أيضًا اسم «سد إسكندر»، ومن جملة ذلك، أن سلطان المفسرين حضرة قاضي رحمة الله تعالى عليه، تفضل بالإيماء والإشارة إليه في تفسيره الشريف، وذكر في الحديث الشريف الذي رواه ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن الإسكندر ذا القرنين(١) قد شيد السد العظيم لباب الأبواب بدلالة جبرائيل عليه السلام، وفي رواية أخرى أن الذي شيده هو «نوشروان عادل»، وباب الأبواب هو الموضع المعروف باسم «تيمور قبو»، وهو باب هذا السد.

والجانب الشرقي لصحراء «قبچاق» يصل حتى «خوارزم» و«سقنان» و«تركستان» و«خطا» و«ختن» وإلى أقصى بلاد الصين، والجانب الشمالي هو عبارة عن صحارى، وبحار من الرمال التي ليس لها نهاية، فمثلًا يوضح «هاتفي» بهذا التعبير الجميل أن «تيمور» قد تعرض للقحط والمشقة العظيمة في هذه الصحارى أثناء عبوره إياها:

كان العسكر بلا عد والطريق بلا حد

فحلت بالخيل صعاب بلا حد

فشرد القحط الذي كان بتلك الدرجة قدم الثبات

حتى أصبح الخبز لا يوجد مثل ماء الحياة

وأصبح التبن ذا قيمة أعلى من الزعفران

لأنه كان رفيقًا لحبته قدرًا من الزمان

وعبرت الذخيرة بكل فتور

من مخزن السلطان إلى ثقب النملة

والجانب الغربي من هذه الصحراء يشمل بلاد الروس و«له» و«بلغار» و«أفلاق» و«بغدان» و«ممالك آل عثمان»، وبناءً على تقدير أرباب الهيئة أي علماء الفلك فقد خمنوا وحددوا أن طول صحراء «قبچاق» ألف فرسخ وعرضها ستمائة فرسخ، حتى

---

(١) الإسكندر ذو القرنين: هو ملك مقدونيا وفاتح إيران والهند.

إن المؤرخين كتبوا أنه عندما سار «تيمور» القوي إلى «توختمش خان» عبر هذا المكان في ستة أشهر فقط، وسجلوا أيضًا، أنه كانت توجد هضبة عالية وسط الصحراء، وأن «تيمور» صعد أعلى الهضبة وأقام منارة في ذروتها، كتب عليها تاريخ حملته، وحفر على لوحة المرمر التي كانت على تلك المنارة الكتابات التي كانت على العملة التي ضربها.

وحتى ذلك الوقت الذي قام فيه «تيمور» بتلك الحملة، كانت القافلة تخرج بالعربات المحملة من «خوارزم» وكانت تصل إلى القرم في ثلاثة أشهر، ومع هذا كانوا لا يحملون الزاد والزواد، بل كانوا ينزلون ويرحلون من قبيلة إلى قبيلة، وكانت هذه القبائل الكثيرة جميعها من التتار، ومدن هؤلاء فقط، هي عبارة عن أحياء تحمل اسم «سراي» و«أزاق» و«أژدرهان» و«حاجي ترحان» و«سراچوق» و«قره صو»، وخلاف تلك المدن، كان الناس ينزلون ويرحلون بخيام الترحال، حتى كانت كل قبيلة تذهب وهي رابطة خيامها التي تستخدم كمساجد وأماكن عبادة على العربة التي تجرها الدواب، ولما أتى «تيمور» إلى تلك البلاد سبى وأسر بعض هؤلاء، وأصبح بعضهم الآخر طعمًا للسيف، ففرت بعض قبائلهم إلى ممالك كفار «له» و«مسقو»، واستقروا في دار الكفر هذه، وموجودة لديهم إلى الآن ستون قرية في «له»، ولديهم جامع في كل قرية وكانوا يقرءون الخطب باسم ملك «له» وكانت قرى عامرة جدًا، وبينما كانوا يتمنون أن يقيموا عدة جوامع ومساجد في كل قرية، كان الكفار لا يأذنون لهم بذلك.

وكان «موسى كتخدا» ـ كتخدا المرحوم «إسكندر باشا»ـ الذي كان رجلًا من أهل التصوف يعتمد عليه، قد سجن مدة عشر سنوات بالتمام في «له»، وقد روي أنه التقى في تلك الأثناء ببعض الرجال من هؤلاء؛ أي من القرويين التتار، وأنه أرسل ذات مرة رجلًا منهم إلى مفتي «آق كرمان» لحل مسألة من أمر الدين، وأن ذلك الشخص التقى به، وشرح له أحوال التتار، حتى كانوا يكتبون القرآن العظيم بخط عربي، ولكنهم كانوا يفسرون بلغة كفار «له»، وكانوا أيضًا لا يدفعون أي ضريبة للملك، فإنهم كانوا يرسلون كل عام ثلاثمائة رجل من بينهم لخدمة الملك، ويحمل هؤلاء المكاتبات والمراسلات اللازمة إلى الملك، وكان اعتماد ملوك «له» على هؤلاء؛ أي على التتار أكثر

من الكفار الذين من أبناء جنسهم، وقد سكنت بعض قبائل التتار المذكورة في ممالك البغدان والأفلاق، وتنصروا؛ بسبب العيش لفترة طويلة مع الكفار، ومعظم كفار البغدان من هؤلاء القوم.

وفي أثناء قتال «تيمور» مع «توختمش خان» الذي استمر ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ على نهر «أتل»، أرسل «تيمور» خبرًا سريًا إلى بعض قبائل التتار، ودعاهم لطاعته، وصدق هؤلاء وعود «تيمور» الخادعة، وانضموا إلى عسكره، ولهذا انهزم «توختمش خان»، وكانوا يطلقون على تلك القبائل التي انضمت إلى جانب «تيمور» اسم «افتاد»[1]، وأتى هؤلاء مع «تيمور» إلى جانب الروم واستوطن بعضهم في نواحي «أدرنه» وبعضهم الآخر في منطقة «بابا»، وموجودة الآن بعض قراهم في منطقة «بابا»، ولما خرج أمراء «سلستره» للحملة، خرج معهم مئات الرجال من هؤلاء، ومن أنشطة هؤلاء زراعة المراعي للأمراء ورعي خيولهم، وقد روى «ألتي بارمق أفندي» في كتابه «صاحب الفتوحات» وكتب قائلًا: «لقد أسر عمال تيمور»؛ أي عسكر تيمور في تلك الحملة التي قام بها تيمور، على سبعمائة وعشرين ألف أسير، واستولى على مائة وثمانين ألفًا من الدواب المخصصة للركوب، وذلك عدا الأموال الأخرى التي اغتنمها تحت مسمى «عوايد ديوانية»، والعهدة على الراوي.

في ذكر بعض خانات القرم و«دشت قبچاق»

لا يعرف من الذين كانوا خانات؛ أي حكام في «دشت قبچاق» والقرم منذ القدم، إلا أن هذه التفصيلات وما شابهها من موضوعات قد حررت في التواريخ، أما «جنكيز» عديم التمييز كان قد وجه منصب خان «دشت قبچاق» و«بلغار» و«أسن» و«روس» و«نكري» إلى «جوجي خان» الذي كان أكبر أولاده، وجاء «جوجي خان» أيضًا إلى القرم، حيث ضم تلك المملكة أيضًا إلى قبضة تصرفه. وقد توفي قبل «جنكيز»

(١) افتاد: معناها بالتركية Düşkün أي الساقط ـ الهابط ـ النازل.

بستة أشهر، وبعد عدة حروب ومعارك بين أبنائه، أصبح منصب الخان من نصيب ابنه المعروف باسم «بركت خان»، وقد وصلت هداية الله تعالى إلى «بركت خان» هذا وصار مسلمًا، وأمر بدخول جميع أهالي التتار إلى الإسلام، وهو الذي أسس مدينة «سراي» في القرم، ولما اختلف في العقيدة مع «هولاكو» عديم الدين، تحاربا مع بعضهما البعض سنة ٦٦١هـ، وقد نجا «هولاكو»، بعد هزيمته، مع قليل من الرجال، وبعد ذلك قام «بركت خان» بحملة على القسطنطينية، وبعد نهب وتخريب كثير، عقد الصلح مع القيصر إمبراطور بيزنطة، وبعد أن حمل «هولاكو» روحه الخبيثة إلى زبانية جهنم، قام «بركت خان» بحرب ضد «آباقا خان» الذي كان قد حل محل «هولاكو» وانتصر عليه أيضًا، وبعد ذلك الوقت أصبح معينًا وظهيرًا لأهل الإسلام، ولما كان سائر الملوك الجنكيزيين يقومون بالقتل والنهب في «إيران» و«توران» ويستحقرون أهل الإسلام، فقد لجأ السادات والعلماء والمشايخ من كل حدب وصوب إلى ظل عدل «بركت خان» ومن هؤلاء العلامة «قطب الدين الرازي» و«أحمد حجندي» و«مختار محمود زاهدي» و«سعد الدين تفتازاني» و«سيد جلال» شارح الحاجبية و«حافظ الدين برازي»، وعدا هؤلاء، القضاة والمدرسون وخيرة مشايخ المذهب الشافعي والحنفي، وعمومًا اجتمع العلماء الكبار بهذا القدر حتى أصبحت تلك الديار التي شعارها البهجة منبع العلماء رفيعي القدر، ومنذ ذلك الوقت وإلى الآن أصبحت عبارة «علماء التتار» من ضروب الأمثال على لسان الناس.

وبعد ذلك، أصبح «بركت خان» رفيق حور الجنان بإرادة الله تعالى، وصار «منكوتمر ابن طغان خان» ـ من نسل «تولى» الابن الرابع لـ «جنكيز خان» ـ الذي كان ولي عهده خانًا أي سلطانًا محله، وأمضى عمره بالعدل والإنصاف على نهج «بركت خان»، وبعد موته أصبح أخوه «ندان بن طغان» خانًا مكانه أيضًا، وعمومًا، ففي هذه الأثناء وبعد أن جلس بعض الأشخاص على عرش الخانية، أي عرش السلطنة، ولما أصبح «منكوتمر

أوغلو طغطغاي» خانًا في تاريخ سنة ٦٩٠ هجرية[١] ارتد إلى دين أجداده الذين كانوا عدماء دين، وبدأ في عبادة الأصنام والكواكب ولكن لم يتوانَ دقيقة في توقير واحترام أهل الإسلام، وخصوصًا العلماء العظام ببركة معجزات حضرة حامي الرسالة، وبعد ذلك تسنم «أوزبك خان» العرش، حيث كان خانًا متدينًا وغازيًا ومجاهدًا وعالي المقدار، ثم أصبح عقب ذلك «ساين خان» خانًا أي حاكمًا، وبعده صار «إنسان أوغلان خان» خانًا، وبينما كان يجلس «جابي بك» على عرش الخانية؛ أي الحكم، أصبح «أروس خان» خانًا، ولكن، «توختمش خان» أعلن العصيان عليه، وانهدم في النهاية، ولما لجأ إلى «تيمور لنك»، أصبح تحريضه سببًا في مجيء «تيمور» إلى «دشت قبچاق».

ونظرًا لأن «تيمور لنك» قد جاء إلى «دشت قبچاق» والقرم مرتين أو ثلاثًا بعساكر جرارة، فقد أصبحت تلك المالك المعمورة متساوية بالتراب تحت أقدام خيول عسكر التتار المغيرة، والآن بعض مقابرهم ظاهرة وواضحة في صحارى «أوزي»، ويبدو أنه كتب على مرقد بعضهم آيات قرآنية وكلمة التوحيد وعلى بعضها الآخر عبارات «هذا مرقد شيخ الإسلام فلان»، وعلى بعضها أيضًا شيخ ومفتي ووزير وميرزا، حتى إنني هذا الحقير[٢] كثير التقصير، كنت قد مررت صدفة في سنة ١٠٢٧ هجرية[٣] من ناحية «آق كرمان» و«بندر»، وكانت قطعة من الجدار الذي كان منتصبًا على باب البناء المشيد على التبة العالية كانت منصوبة في مكانها تجاه «بندر»، وكان مكتوب عليها بخط جلي «هذا مرقد شرين»، وكان قد انهدم كله ماعدا ذلك الجزء، وشاهدنا بأعيننا أنه بقي في تلك المالك إثر على هذا النحو من تلك البلدان والقرى الكثير، وذلك بسبب شر «تيمور» المغرور، أما الآن فإن تلك الصحارى والبوادي مملوءة بمئات القلاع والحصون من قلاع الروس المنحوسين و«القزاق» العاقين، والكلمة جرت الكلمة وبعدنا عن المقصود الأصلي، وينبغي علينا الآن العودة مرة أخرى إلى ما كنا بصدده، لنبدأ بشرح غزوات وفتوحات السلطان المغفور له.

---

(١) الموافق ١٢٦١م.
(٢) المتكلم هنا المؤرخ «إبراهيم بجوي» صاحب هذا المؤلف.
(٣) الموافق ١٦١٨م.

في ذكر دفع الاضطراب الذي وقع في ممالك اليمن بفضل الله الملك ذي الجلال

سنة ٩٧٦ هجرية[١]، أنه واضح وجلي أن تلك الاختلالات والفتن التي حدثت في الممالك العثمانية إنما كانت نتيجة التبديل والتغيير الذي ظهر بلا مقدمات أو أسباب، وبينما كانت فتنة واحدة فقط من تلك الفتن تكفي كعظة أو عبرة لأصحاب الدولة، فإنهم لم ينتبهوا أو يتيقظوا لهذا الأمر.

فلما وجهت إيالة «اليمن» و«عدن» إلى «مصطفى باشا زاده رضوان باشا»، بدأ في التعدي الزائد عن الحد على رجال «محمود باشا» - أمير الأمراء السابق - الذين بقوا هناك، ولما وصلت هذه الأحوال إلى مسامع «محمود باشا»، دبر أمره قائلًا: «ينبغي أن أوقعه في أمر مثل هذا، حتى يضطر أن يرفع يده عن اليمن، وأن أورطه هناك»، وبعد ذلك جاء «محمود باشا» إلى الآستانة السعيدة، وبذل الأموال حتى أخذ ولاية «مصر»، ولما رفع عرضًا قال فيه: «إن اليمن مملكة واسعة مساحتها قدر المسافة من إستانبول إلى الشام، ويمكن تقسيمها إلى إيالتين، وإذا عين عليها اثنان من أمراء الأمراء، سوف يعين ويساعد أحدهما الآخر، ومن ثم يسهل ضبط وربط الممالك»، ووجهت جبال اليمن التي تتشكل من «صنعاء» و«تعز» وغيرها إلى «مراد باشا» تحت اسم سنجق «تعز»، ووجهت سواحل اليمن التي تشمل «زبيد» والأحياء والقرى التي كانت تابعة لها إلى «أروس حسن باشا»، ولما وصل مسلمو الأوامر لهؤلاء، لم ينتظر «رضوان باشا» مجيئهم من كمال اضطرابه، فنهض وذهب، وفي هذه الأثناء، اغتنم «مطهر لنك» - الذي كان حاكمًا لمملكة اليمن سابقًا باسم سلطان - الفرصة، وعلى الفور حاصر صنعاء، ومع أن «مراد باشا» وصل إلى تعز، فإنه لم يجرؤ على الهجوم على «مطهر لنك»، وزعم أنه قام بالمساعدة اللائقة بإرساله مقدارًا من الذخيرة إلى المحاصرين في صنعاء، ولكن «مطهر لنك» استطاع الاستيلاء على كل الذخيرة، كما قام بقتل جميع العسكر الذين أتوا إلى

(١) الموافق سنة ١٥٦٨ - ١٥٦٩م.

صنعاء، وعلى هذا اشتعلت غيرة «مراد باشا» واتجه إلى صنعاء بنفسه من أجل إيصال الإمدادات، ولما دخل إلى وادي جهنم الذي كانوا يطلقون عليه اسم «وادي خوبان» بعسكره، ألقى الزبيديون عليه الحجارة من كل جانب، وأصبحوا في وضع لم تبق فيه يد أو قدم أي فرد سليمة ولم يبق أي فرد قادرًا على العمل، فساقوا أهالي الروم قطيعًا قطيعًا كقطيع الغنم، وقتلوا أيضًا «مراد باشا»، حتى «منلا شهابي» الذي كان ابن «شكري» ناظم فتوحات اليمن، وناظم «سليم نامه»، يقول في منظومته ما يلي :

جردوه من ملابسه وجعلوه عريانا
وربطوه بالحبل وأفقدوه بهاءه كالأعمى
وقتلوه بذلك الاستحقار، فليملأ
الرب المجيد المكان الذي استشهد فيه نورا

وخلاصة القول: إن الزبيديين رفعوا رأس الباشا المقطوعة وأبرزوها للعسكر المحاصرين في صنعاء؛ فخارت عزيمتهم أيضًا وسلموا القلعة بطلب الأمان، وبعد ذلك، أخذ الزبيديون «تعز»، واستولوا على «عدن»، ثم أنهم لما أتوا على «مورغه» ثم «مخا»، قام القبودان «محمود بك» وأمير السنجق المعروف باسم «شهلا» بقتال شرس بشجاعة فائقة في هذا المكان، ولكنهما بلغا مرتبة الشهادة مع جميع العسكر؛ نظرًا لكثرة الزبيديين، وقد دخلت تلك الممالك جميعًا تحت سيطرة «ابن شويع» قائد عسكر «مطهر لنك»، وبعد ذلك، حملوا على «زبيد»، فأرسل «أروس حسن باشا» من الداخل عسكره المدربين للمواجهة. وبفضل الله تعالى هزم الأعداء وأجبرهم على التراجع، وبقيت «زبيد» فقط تحت تصرف أهالي الروم؛ أي العثمانيين.

ولما عرضت الأحوال على باب الدولة بالتفصيل، كان «قره مصطفى باشا» أمير أمراء الشام؛ فوجهت إليه رتبة الوزارة، وعين سردارًا على حملة اليمن، وعُهد باليمن إلى «أوز تيمور أوغلو عثمان باشا» وأمر بالتوجه إلى جانب اليمن قبل السردار، ومن قبل كانت معظم مواضع اليمن والحبشة تعتبر من فتوحات «أوز تيمور باشا» و«عثمان

باشا»، ووجهت مصر إلى «قوجه سنان باشا»، ولكن لم يوفق في إعداد مهمات الحملة بالتعاون مع «مصطفى باشا»، وعُرضت أحوال كلاهما على الآستانة السعيدة، ولما كان طالع «سنان باشا» ميسرًا، فقد صدر الأمر إليه بمنصب السردارية وورد الأمر الشريف مع ستة أفراد من الجاوشية يقضي بأن يحاسب عثمان باشا لو لم يكن قد ذهب بعد، ولكن كان «عثمان باشا» قد ذهب قبل شهر مع ألف نفر من خدم اليمن وألف فرد ممن تتوق قلوبهم لمصر والذين يرغبون في المغادرة.

وخرج «عثمان باشا» إلى مدينة «تعز»، ولما وصل إلى القلعة العالية المعروفة باسم «قاهرة» ـ التي كانت «تعز» نفسها صغيرة الحجم بالقياس إلى سورها ـ نصب مدافعه، ودخل إلى المتاريس، ولما أطلق بعض طلقات المدافع، كان يوجد قصر مشيد بالقلعة، فهدمه بنيران المدافع؛ حيث قُتل أمير ذو رتبة عالية من الزبيديين المحاصرين في القلعة، وعلى هذا، هرب سائر عسكره بلا توقف، وتحصنوا بالتلال والجبال التي كانت قرب «تعز»؛ حيث رفعوا أيديهم عن «تعز»، وفي ذلك الحين، فتح عسكر الإسلام «تعز»، وغنموا غنائم كثيرة تتجاوز حد التعبير، وفي هذه الأثناء، وصل خبر سار يقول: «بأن السردار «سنان باشا» قد خرج من مصر في رجب من السنة المذكورة، وأتى إلى الكعبة الشريفة، والآن قد دخل مدينة «زبيد»»، وفي ظرف يوم أو يومين امتلأت وديان اليمن بعسكر الإسلام، وتوجه «عثمان باشا» أيضًا لاستقبال السردار، ومع أنه غمر بالرعاية والعناية الفائقة من السردار أثناء المقابلة، فإنه نظرًا للألفة التي كانت بينه وبين «مصطفى باشا» كان من المؤكد أنه سيكسر خاطره، وكان «عثمان باشا» على رأس فرقة من الجند، فأرسله السردار على أهل المنزل أي على جحافل الجنود الذين كانوا تحت قيادة «مطهر لنك» المعروف باسم «ابن شويع» والذين كانوا قد أتوا إلى «تعز» في تلك الأثناء للإمداد، وبفضل الله تعالى وصل ذلك أيضًا؛ أي «عثمان باشا»، وأوقع الاضطراب بالعدو، وفي هذا الجانب، أعطى السردار أيضًا الأمان إلى أهالي القاهرة ووفق في فتحها، والتأريخ الذي قاله «مولانا شهابي» في فتحها هو: «أصبح القتال كثيرًا وأخذت القاهرة بالصلح»، وبعد ذلك، أرسل السردار «سنان باشا» الأمراء رفيعي الشأن المعروفين

باسم «ممي بك» و«قبودان خضر بك» لفتح «عدن»، فتم الاستيلاء أيضًا على «عدن»، ووصل غزاة الإسلام إلى الغنائم التي تتجاوز الحد والحصر، ولكن لما كان «عثمان باشا» يميل إلى «قره مصطفى باشا» بهذا القدر، كان لا يطمئن قلبه لـ «سنان باشا» كما كان قلب «سنان باشا» لا يطمئن له، فكان «عثمان باشا» كلما حصل على بعض الأخبار السرية من رجال «سنان باشا»، كان ينعم ويحسن عليهم، ولهذا السبب، كان قد كسب صداقة بعضهم، وفي إحدى الأيام علم «عثمان باشا» من أحد المقربين جدًا أنه في تلك العصور، كان يعطي لكل سردار مقدارًا من الأحكام غير المحررة البيضاء والمعنونة بطغراء «نشانجي بك»، وبعد ذلك كان يحاسب على ما استخدمه منها، وكان لا يعطي الحكم بطغرائه الذي وضعه بنفسه مثل الآن[1]؛ أي أنه كان يجب عليه أن يأمر بكتابة أمر شريف على هذا الحكم للتفتيش على «عثمان باشا»؛ ونظرًا لأنه قد أتى الجاوشية قبل ذلك من أجل محاسبته، إذا كان موجودًا في مصر، فقد صدق هذا الخبر واتجه صوب «مكة» من طريق غير معهود مع ألف رجل من رجاله، وفي الطريق صادف مشايخ الأعراب فراح يضحك من تحت شاربه، ويخرط البصل في وجوههم العابسة.

ولم يجعل أحدًا من رجاله يأخذ حبة واحدة من أي فرد مجانًا، وربما اتجه صوب المقصود قائمًا ببعض الإنعام والإحسان، ولما أحاط الوزير الواجب التوقير علمًا بذهاب «عثمان باشا»، سرى في بدنه سم الثعبان، ولكن ماذا ينبغي أن يفعل؟ فما كان في وسعه إلا أن يعرض أحوال «عثمان باشا» على العاصمة، حيث حرر الأمر، ثم عرضه بقدر ما يسمح به العقل من اتهام «عثمان باشا»، وبعد ذلك، تحرك بعسكره، وفتح القلعة المعروفة باسم «تعسكر»، وعزم على التوجه صوب قلعة «إيب»، ولما هرب الحراس الذين كانوا بداخلها، ودخلت القلعة والمدينة في حوزة عسكر الإسلام، وتساوت القلعة مأوى الغربان بالتراب، اتجهوا صوب «صنعاء»، وكان «مطهر لنك» متمركزًا في «صنعاء» حتى الآن، وفي تلك الأثناء هرب وتوجه إلى طرف «توله» ونصب مكانه زنجيًا يعرف

(١) مثل الآن: المقصود بها الوقت الذي يعيش فيه المؤلف في القرن السابع عشر الميلادي.

باسم «قطران»، ولكن لما هجم عليه البطل المعروف باسم «ممي بك» فر منها أيضًا، وبذلك فتحت مدينة صنعاء، وسحق «حسن باشا» أيضًا ناحية «أسر» و«حصن مرمر» بعسكر الإسلام وشتت شمل العصاة.

وبعد ذلك، اتجهوا إلى قلعة «كوكبان»، حيث وقعت معركة وجدال وحرب وقتال عظيم واستولوا على مدينتها[١]، وقاموا بتخريبها وتدميرها، ولكن رأوا أنه لا يمكن أن تؤخذ «كوكبان» نفسها بالهجوم عليها، وعقب ذلك، أرسلوا أيضًا قدرًا من العسكر عليها إلا أن ذلك لم يفد، وأقدموا على ذلك مرة أخرى، ووضع بعض الرجال من الأمراء ومن أغوات السردار ذوي الوقار المعروفين والمشهورين أقدامهم على مرتبة الشهادة، وفي هذه الأثناء، أتى «مطهر لنك» بنية الهجوم على الجيش وكسر قوس قوة عسكر الإسلام، ولما واجهه السردار بعسكر الإسلام، فر بفضل الله تعالى منهزمًا.

وقام أسود الوجه «قطران» المذكور، و«علي شير» الذي كان مشهورًا بالبطولة والشجاعة الفائقة بين أمراء «زبيديه» بالهجوم على «صنعا» مرة أخرى، فأرسل السردار أيضًا عليهم البطلين المعروفين باسم «قره كوزبك» و«علي سوباشي»، وبعناية الله تعالى قطعا رأسي هذين الملعونين، وأجبرا عسكرهما المقهورة والمكسورة على التراجع، وفي النهاية، طلب «ابن شمس الدين» المحاصر في «كوكبان» الأمان، فأعطى إليه سنجق «كوكبان» مرة أخرى بمقاطعة خاص[٢] قدرها ستمائة ألف أقچة، فقام هو أيضًا بترك القلعتين المشهورتين والمعروفتين باسم «عروس» و«مسار» للسلطان وكانتا من أملاكه الموروثة بنواحي «كوكبان»، وقدم أخاه أيضًا كرهينة، وكان قد أرخ «شكري زاده مولانا شهابي» لذلك الحدث بهذا المصرع: «أُخذت «كوكبان» في سبعة وسبعين»[٣].

(١) المقصود بكلمة مدينتها: مدينة قلعة «كوكبان» ويقصد بها هنا القلعة الخارجية.

(٢) خاص: تعبير يطلق على التيمارات التي تحقق دخلًا أكثر من مائة ألف أقچة. وكان يوجد تعبير «خاص» عند سلاطين خوارزم، والمماليك، وسلاجقة الأناضول. وكانت الخواص التي تعطى للوزراء وأمراء الأمراء والأمراء الآخرين تسمى باسم «خواص وزراء». حيث تم انقسام التيمارات إلى قسمين «تيمار» و«زعامت» في عهد السلطان مراد الأول.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، S. 750

(٣) آلندى كوكبان يتمش يديده.

وبعد ذلك، عاد الوزير ورجع إلى جانب «صنعاء»، وفي ذلك المكان، أرسل «مطهر لنك» أيضًا رجلًا، وأظهر الرغبة في الطاعة بموجب مضمون القول: «الصلح خير»، ورجا أن تعطى له صحراء «ين» والولاية المعروفة باسم «عمران» كـ «أربه لق»[1]، وقبل الوزير ذلك، وعقد العهد والميثاق والصلح والوفاق بين الطرفين، وبعد هذا، أقام السردار شهرين في «صنعاء»، وفي أثناء توجهه صوب «دمار»، ورد الخبر بأن تُعطى إيالة اليمن إلى «مصطفى باشا زاده بهرام باشا» الذي كان أمير سنجق في «غزة»، وأن يتوجه هو إلى المدينة المعروفة باسم «زبيد»، وكان التاريخ الهجري قد بلغ سنة ثمانية وسبعين وتسعمائة، وعبر «بهرام باشا» سفاك الدماء الجبل صعب المرور المعروف باسم «نقيل أحمر» وأراد إظهار القدرة والجلد للأعراب، وعلى هذا، أمر «مطهر لنك» باجتماع ثلاثين قبيلة من الأعراب في ممر «نقيل أحمر» حتى بلغ عدد الأعراب البدو المجتمعين خمسين ألفًا، ولكن لم يخف على «بهرام باشا» الذي يشبه «بهرام»[2] في صولته اجتماعهم، ولم يعبأ بهم، وتوجه صوب المرام، ولكن أصيبت قوته بفتور، وانكسر مزاجه اللطيف كالزجاج بدرجة عالية، فلم يظهر ذلك، وكان يهجم بنفسه على الأعراب المجتمعين كما تهجم الصقور على جماعة الغربان المكروهة، وكان يكر ويفر إلى حيث يريد ميمنة أو ميسرة، وفي هذا المكان، دعا الوزير السردار فاتح البلدان «بهرام باشا» القابض على العدو إلى جانبه؛ حيث حرر له خطابًا ورد فيه: «إن اختلال ولاية اليمن يحدث دائمًا من ناحية «إيب» أو «جيله»، ولكن تقوى قوة هاتين أي هاتين القلعتين بأخذ قلعة «حب»»، فمثلًا قال الشاعر شهابي في منظومته:

---

(١) هو شيء يُعطى كمعاش عزل أو تقاعد للموظفين المدنيين والعلماء المعزولين أو المتقاعدين. ووفقًا لتعريف «شمس الدين سامي» في «قاموس تركي»: هي المخصصات التي تعطى عينًا أو نقدًا لرجال الطريق العلمي.

- Mehmet Zeki Pakalın: Adı geçen eser، S. 84.

(٢) هو بطل أسطوري ورد ذكره في «شاهنامه» الفردوسي الشاعر الإيراني.

فلأن «إيب» و«جيله» تابعان لحصن «حب»
فإن ضبط ملك اليمن يتم بإخضاع هاتين
فلو تقمع الفتنة من «جيله» و«إيب»
فإنه يخضع هذين لقلعة «حب»

وبعد ذلك قام الباشا بمحاصرة قلعة «حب»، وكان يوجد في قلعة «حب» مخزن بارود، فقام الباشا بربط فتيل بفأر، وأدخله في حزمة قصب وألقى به إلى داخل مخزن البارود من نافذة المخزن، وفي مدة قليلة، تطاير برج مخزن البارود في الهواء، وفي وقت قصير، تساوت كل القلعة بالتراب.

ويُروى أنه كان يوجد رئيس مدفعية لدى «الباشا» الذي في صولة «بهرام»، وكان ماهرًا جدًا وخبيرًا في حرفته، وفي ذات يوم، وعلى إثر قيام الباشا بالإقلال من الالتفات والرعاية التي كانت لهذا الرجل، اضطجر ذلك الرجل وقال: «لو أن لدى العدو أستاذ مدفعية ماهرًا مثلي يظهر المهارة، هل كنتم تمكثون هنا، وهل كنتم تستطيعون ضرب القلعة»، ولكن الباشا مع أنه تضايق من هذا الكلام، فإنه لم يظهر ذلك ولم يعط اعتبارًا لكلامه هذا، وربما كان يوجد مقصد آخر لدى هذا الخبيث وكانت توجد في نفسه آلاف المآرب، ففي ذات يوم هرب ودخل القلعة، وبقى الباشا في عالم الحيرة من الألم والاضطراب الذي تسبب فيه هذا الخبيث، وفي النهاية، قام الباشا بتحرير خطاب بلسانه إلى «ابن إمام» الذي كان محصورًا في القلعة والذي كان صديقًا قديمًا للباشا وكان قد انتسب إليه، وأمر الباشا بإيصال هذا الخطاب إلى القلعة، وبمجرد أن اطلع «ابن إمام» على مضمون الرسالة، قام بإحضار رئيس المدفعية وقال له: «لماذا أتيت؟»، ولما رأى رئيس المدفعية غضب «ابن إمام» ارتبك، وفي الحال قاموا بقطع رأسه وألقوا بها من القلعة، وهكذا، تخلص الباشا ذو الرأي الحسن من هذه الورطة.

وعلى كل، فبعد أن ضُربت القلعة لمدة خمسة وسبعين يومًا، توفي «ابن إمام»، وطلب الذين كانوا بداخل القلعة الأمان، وبعدما أتم الباشا مهمات القلعة، عطف عنان العزم صوب طرف السردار عالي المقدار، وقام الطرفان باستقبال بعضهما البعض وتعانقا

مظهرين مشاعر الأبوة والبنوة وتبادلا الخلع القيمة والجياد ذوات السروج المرصعة، ولم يقصر أي منهما في إظهار الرعاية.

وبعد ذلك، عزم الوزير صاحب الشوكة إلى جانب «مصر»، وعهد بإصلاح ولاية اليمن إلى «بهرام باشا»، وعلى هذا، أمر الباشا المشهور بأنه يجب على جميع شيوخ الأعراب أن يتواجدوا دائمًا في ديوان اليمن، ولو يؤذن لأي منهم بالذهاب لعدة أيام، فإنه يجب على ابنه أو أخيه أن يبقى مكانه، وينبغي أن تكون مدينة القاهرة هي مكان الإقامة لأمراء الأمراء وذلك في الوقت الذي كانت فيه مدينة صنعاء هي مكان إقامتهم، وعلى هذا، شيد سراي في القاهرة وجامعًا وعمارات، وأمر ببناء بيوت متعددة من أجل كل أتباعه ورجاله.

وفي رجب من السنة المذكورة، توفي «مطهر لنك» عن عمر يزيد عن التسعين، وكان حمارًا سيئ المذهب والطبيعة في صورة إنسان من أخس خلق الله تعالى، وكان قد عزم أحد إخوته أيضًا إلى دار البوار في قلعة «حب»، وفي عصره، تم الاستيلاء على «دينوه» وحصن «أعور» وديار «ملجان» و«حفاش» وبلاد «جزار» وغير ذلك، ولكن بموجب مضمون البيت الشعري:

ملك اليمن لا يخلو من الفتنة   فعليك أن تسمع لواحدة من الحوادث

فإن التاريخ في هذا الوقت وصل إلى ١٠٥٠ هجرية، واستولى العدو الحقود على ملك اليمن وعدن ثانية، وكان الباعث وراء ذلك هو كثرة التغييرات والتبديلات في المناصب، وإن شاء الله تعالى، عن قريب تدخل تحت قبضة تصرف الحكام العثمانيين ثانية بفضل جناب الله المستعان، وتختم إن شاء الله تعالى مجموعتنا هذه أي هذا الكتاب التاريخي بفتح اليمن؛ بحق الحق ونبيه المطلق.

في ذكر بعض الوقائع عن أحوال سردار اليمن «سنان باشا»

لما عاد السردار مؤتمن الديار من اليمن، ووصل إلى مكة المكرمة، وكان سيد السادات في ذلك التاريخ الشريف «أبو يمن بن بركات»، فأرسل السردار إليه رجلًا ورجا منه

أن يقوم بإرسال خطابات التوجيه أو الرعاية المتعلقة بفتوحاته إلى القبائل العربية، وبينما كان متوجهًا قبل ذلك إلى ديار اليمن، عندما أتى من أجل زيارة بيت الله، كان الشريف المومأ إليه قد أرسل إليه آلاف الأطعمة والحلويات التي أعدها والأشياء الأخرى القيمة، والفغفوري والمرتباني[1]، وذلك مع الـ «قاضي حسين» وكيله ورجله الذي يعتمد عليه قائلًا: «خير مقدم»؛ حيث كان قد كلفه بتقديمها له في موضع نزوله، ولما لم يأت الشريف بنفسه غضب السردار وأمر بسحق كل الطعام والفغفوري تحت قدم الحصان، وكان قد أهانه كثيرًا؛ ولهذا السبب تردد الشريف كثيرًا في هذه المرة في عرضه الذي رجاه وأجاب قائلًا: «ما دام السردار محتاجًا إلينا، وأن عرضنا سيروج لعمله، فلماذا ارتكب هذا الوضع غير المعقول من قبل؟!»، وعمومًا، فقد ختمت ورقة العرض التي كتبها بحسب مراده بواسطة المصلحين، وحتى ذلك الوقت، كان لا يتدخل الأشراف في جمرك ميناء «جدة»، ولما عرض السردار هذا الأمر في ذلك الحين، تم تعيين نصفه للأشراف، إلا أن الجمارك التي كان يدفعها الحجاج والتجار قد ازدادت إلى الضعف.

ولما أتى «سنان باشا» إلى إستانبول، عين في مقام الوزير السابع. وكان الصدر الأعظم في ذلك الحين هو، «محمد باشا الطويل»، والوزير الثاني «برتو باشا»، والثالث «بياله باشا»، والرابع «أحمد باشا»، والخامس «زال محمود باشا»، والسادس «لاله قره مصطفى باشا».

وفي تلك الأثناء، كان قد شب حريق في محلة «يهودا»، واشتعلت المدينة لمدة سبعة أيام وسبع ليالٍ، وكان هناك خوف من أن تحرق المدينة بالكامل، وكان «جعفر أغا» أغا الإنكشارية هو زوج ابنة الصدر الأعظم. فلم يستطع أن يأتي لإطفاء الحريق نظرًا لأنه كان مريضًا، وعلى هذا وجهت أغاوية الإنكشارية مع منصب رئيس خدم الباب إلى «سياوش أغا» أمير الإسطبل الكبير للسلطان فاتح الأقاليم والذي كان حبيبًا له وموضع اهتمامه، وما إن أتى «سياوش أغا» لإطفاء الحريق حتى أطفئت النار، و«سياوش أغا»

---

(١) نوع من القماش.

هذا هو «سياوش باشا» الذي أصبح وزيرًا أعظم في عصر الدولة المرادية؛ أي في عهد السلطان «مراد خان».

ـ ومن العجائب:

إن رجلًا فقيرًا من أتراك الأناضول أحضر ابنه الصغير الذي كان نصف وجهه وإحدى عينيه ونصف أنفه في لون شديد السواد وبراق، وكان النصف الآخر أبيض مثل العمامة، ولما كان كل شخص لديه الرغبة في رؤية هذا الغلام، ومشاهدة عجائب جناب الباري، فقد حصل ذلك الرجل الفقير على أموال كثيرة، وعاد إلى وطنه غانمًا.

انتصار أهل الإسلام الذين كانوا في «إسبانيا» على مدينة «غرناطة» وطلبهم للمدد

سنة ٩٨٧ هجرية[1]، حينما جرد كفار «إسبانيا» العسكر على كفار «لوتران»، انتهز أهل الإسلام هذه الفرصة وتغلبوا على مدينة «غرناطة»، وظهر شخص معروف باسم «الملك محمد منصور»، وهو من ملوك «بني الأحمر»؛ حيث أصبح سلطان تلك الديار، ولكن، بمجرد أن وقف الكفار على هذه الأخبار، عادوا وشنوا الهجوم على أهل الإسلام، إلا أن أهل الإسلام انتصروا عليهم بعد حرب ضروس، وفي هذه الأثناء قام شخص منافق بقتل «محمد منصور» بينما كان بالطريق، بدعوى قوله: «إنني من أبناء الملوك السالفين»؛ حيث حل محله، وعلى هذا، لما دبت الفرقة بين أهل الإسلام، هجم الكفار عليهم، فاضطروا أن يجتمعوا بجبل عظيم، ولما مرت عليهم سنة أو سنتان، وهم مظفرون ومنصورون أحيانًا ومقهورون ومكسورون أحيانًا أخرى، أرسلوا الرجال إلى الآستانة حامية الخلافة، حيث حررت خطابات الاستغاثة، ولكن، نظرًا لأن الأسطول الهمايوني في هذه الأثناء كان متهيئًا للخروج للحملة على «قبرص»، عاد الذين أتوا طالبين المدد بالوعود والآمال بالقول لهم: «إن شاء الله تعالى بعدما يتحقق أمرنا المهم

(١) الموافق سنة ١٥٧٠ ـ ١٥٧١م.

هذا سوف يرسل إليكم أسطولنا الهمايوني بالكامل»، ولكن بعد الفتح لم يطلب هؤلاء أي شيء ولم يرسلوا أي رسل، أما الذين قاموا بهذه البطولة في ذلك التاريخ، فهم أهالي «مدجر» الذين طردوا من إسبانيا بعد ذلك.

فتح جزيرة «قبرص» وتوابعها

سنة ٩٧٨ هجرية[1]، مع أن الصلح والصلاح كان معقودًا مع كفار «ونديك»؛ أي «البندقية» فإن السفن المتجهة إلى مصر وأبناء السبيل والتجار والحجاج كانوا يشعرون بقلق واضطراب؛ بسبب تعديات أشقياء جزيرة قبرص، وعلى هذا، لما استفسر من حضرة شيخ الإسلام أبي السعود أفندي عن وجوب خروج الحملة على «ونديك» بمقتضى الشرف والحمية السلطانية، تفضل حضرة أبو السعود أفندي بإصدار الفتوى التالية وقد أدرجت صورة الفتوى بعينها في هذا المكان تبركًا وتيمنًا، وهذه هي الفتوى:

كانت «قبرص» قبل ذلك ولاية من دار الإسلام، وبعد ذلك استولى عليها الكفار الصاغرون، وقاموا بتخريب مدارس المسلمين ومساجدهم وتعطيلها وملئوا المنابر والمحافل بالكفر والضلال، ولطخوا شعائر الدين الإسلامي ببعض الأفعال الخبيثة المختلفة؛ وأشاعوا عاداتهم القبيحة في أطراف العالم، فإذا توجه وسعى حضرة السلطان حامي الدين لاستعادة الديار المذكورة من أيدي الكفار الصاغرين وإلحاقها بدار الإسلام بمقتضى حمية الإسلام؛ علمًا بأن الولاية المذكورة قد دخلت ضمن العهد الذي أعطي إلى أيدي الكفار، وأنه قد عقد الصلح مع الولايات الأخرى التي كانت تحت تصرف الكفار المذكورين قبل ذلك، فإنه ينبغي أن يوضح، هل هناك مانع للتوجه لنقض المعاهدة المذكورة بموجب الشريعة المطهرة؟

(١) الموافق سنة ١٥٧٠ ـ ١٥٧١م.

ـ الجـواب:

الله أعلـم بأنه، لا يوجـد احـتمال أن يكون هناك مانع أصلًا، فإن عقد سلطان الإسلام ـ أعز الله تعالى أنصاره ـ الصلح مع الكفار قد يكون مشروعًا في ذلك الوقت حتى تكون المنفعة عامة لكافة المسلمين، وعندما لا تكون هناك منفعة، لا يكون الصلح مشروعًا أصلًا، وبعد أن تشاهد المصلحة، ويعقد الصلح الدائم أو المؤقت، فلو شوهد أن نقضه في وقت المصلحة أنفع، فإنه من المؤكد أن يكون النقض واجبًا ولازمًا. فقد عقد رسول الله عليه السلام الصلح في السنة السادسة من الهجرة النبوية لمدة عشر سنوات؛ وكتب حضرة علي كرم الله وجهه وثيقة المعاهدة، وبعد أن أقر بالمعاهدة، لوحظ في العام التالي أن نقض المعاهدة أنفع؛ فوصل عليهم في عام ثمانية هجرية، وتفضل بفتح مكة المعظمة، وقد اقتدى حضرة خليفة رب العالمين خلد الله تعالى ظلال سلطنته على مفارق المسلمين وأيده بالنصر العزيز والفتح المبين في توجهه الهمايوني بالسنة الشريفة لحضرة جناب حامي الرسالة صلى الله تعالى عليه وسلم.

(كتبه الفقير أبو السعود)

وبعد ذلك تم تعيين الوزير السادس «لاله قره مصطفى باشا» سردارًا، وأصبح كل من «بهرام باشا» أمير أمراء الأناضول، و«مصطفى باشا بن جعفر باشا» أمير أمراء «مرعش» و«درويش باشا» أمير أمراء «حلب» مع كل الأمراء وأرباب مقاطعات التيمار والزعامة التابعين لإيالاتهم، و«مظفر باشا» المعزول من ولاية «شهرزور» و«حسن باشا» أمير أمراء «قرمان» و«إسكندر باشا» أمير أمراء «سيواس» مع أمراء أمراء عسكر سناجق «ترحاله» و«يانيه» و«موره» و«إيلبصان» و«برزرين» في الروم إيلي، و«يحيى كتخدا» كتخدا الإنكشارية مع خمسة آلاف من جند الإنكشارية، وقدر كافٍ من جند المدفعية وسائقي العربات ومشاهير كتيبة «البلوك خلقي» أصبحوا جميعًا تحت أمرة السردار عالي المقدار، وأقلعوا بالأسطول الهمايوني في بداية ربيع الأول من السنة المذكورة، حيث اتجهوا صوب المقصود.

وقام الوزير «بياله باشا» والـ «قبودان علي باشا» بتشكيل الأسطول الهمايوني بما يقرب من أربعمائة سفينة بعضها من نوع «بارچه» و«قاليته»، حيث كلف هؤلاء أيضًا بحماية الطرق البحرية بينما كان عسكر الإسلام مشغولين بفتح القلعة، ولما رست السفن في ميناء الجزيرة المذكورة، وعلى إثر أمر السردار صاحب الوقار، قام «بياله باشا» مع أن رتبته تعلو ثلاث درجات عن السردار، وخصوصًا أنه كان مقررًا أن يصبح زوج ابنة جناب السلطان، قام بإخراج خيمة السردار إلى الجزيرة، قائلًا مثل سائر أمراء الأمراء: «الأمر على العين والرأس»، ونصبها في مكانها، وفي اليوم التالي، ذهب في موكب السردار مع جملة العسكر من أجل التعظيم والإجلال؛ حيث أنزله في خيمته، وعمومًا، فقد أحاطوا قلعة «لفقوشه» أول مرة بالمتاريس من سبعة مواضع مثل البرجل، وبدءوا بالضرب، وبفضل الله تعالى، فتحت واستولى عليها في اليوم الواحد والخمسين. وأصبح جملة عسكر الإسلام مسرورين وفرحين، وبعد ذلك، أرسلوا رءوس الأمراء الكفار الذين قتلوا في الحرب إلى الكفار الذين سيحاصرون في قلعة «كرينه»، وعلى هذا، أرسل هؤلاء أيضًا مفاتيح القلعة بشرط أن يُعطى الأمان لأرواحهم.

ولما فتحت القلاع المذكورة - أي قلعة لفقوشه وكرينه - قام «بياله باشا» صاحب الرأي السديد بحماية أطراف الجزيرة بنصف الأسطول، وكان الـ «قبودان باشا» قد رسا بالنصف الآخر من الأسطول عند ميناء «لفقوشه» لمنع دخول أي رجل إلى القلعة، وبعد ذلك، لما كان «علي باشا» بطلًا قويًا وشجاعًا فقد دخل إلى المتاريس، وعين مكانه أمير أمراء «سيواس» قائدًا على السفن التي كانت في الميناء؛ نظرًا لأنه كان شيخًا، ولما أكملت مستلزمات القلعتين المفتوحتين، كانت أيام الشتاء قد اقتربت؛ حيث انقضى موسم البحر، فعقد الأسطول الهمايوني العزم على التوجه إلى الآستانة السعيدة.

وقد أحاط السردار صاحب الوقار قلعة «ماغوسه» في شكل هلال بالعسكر صائدي الأعداء الذين كانوا تحت إمرته؛ وبدءوا في الضرب عليها ليل نهار، وأمر بحفر خندق عميق حولها حتى إنه لا يمكن لجنس من البشر الدخول إلى القلعة والخروج منها عدا الطائر السريع الطيران، وعمومًا راحوا يختارون مكانًا مناسبًا للهجوم منه على القلعة،

وبدءوا يملئون هذا المكان بالتراب، إلا أن الكفار الملاعين حفروا لغمًا مرعبًا تحت ذلك المكان وملئوه بالبارود، ولما شرع عسكر الإسلام في الهجوم، تطاير في الهواء نحو ثلاثة أو أربعة آلاف رجل مع ذلك التراب المتناثر، حتى بقي معظمهم تحت التراب دون أن يبدو لهم أي أثر، وقد استشهد في هذه الحادثة من الأمراء «فرهاد بك» الذي كان أمير «ملاطيه» والذي كان يرافق المرحوم السلطان «سليم غازي»؛ أي «سليم الثاني» في أواخر عمره العزيز، وكان مشهورًا باسم «قبوجي باشي فرهاد باشا» وثلاثة أمراء سناجق وعدد كبير من أرباب مقاطعات الزعامة والتيمار.

وبعد هذا، ضربت قلعة «ماغوسه» لمدة أربعين أو خمسين يومًا، وبينما كان الوضع على هذا النحو، جاء «برتو باشا» والـ «قبودان باشا» مع الأسطول الهمايوني، وفي هذه المرة يئس الكفار من إرسال الإمدادات لهم فطلبوا الأمان، وكان السردار ذو الوقار قد أرسل قبل ذلك خطابًا إلى الكفار الذين مأواهم النار مرة أو مرتين؛ حيث طلب القلعة، وحوالي خمسين من أسرى المسلمين المشهورين الذين سقطوا في الأسر، وكان قد كتب أمير «ماغوسه» ردًا قال فيه: «إن أسطولنا سيأتي ذات يوم وسيشتت عسكركم وأسطولكم، وفي ذلك الوقت، أجبرك على أن تسير ماشيًا أمام جوادي، وأن تخرج التراب الذي ملأت به الخندق على ظهرك»، وفي هذه المرة، قال أمراء «ماغوسه»: «عندما يعطون القلعة لنا، نسلم الأسرى لهم»، وبعد ذلك، حررت وثائق الاستسلام والأمان بين الطرفين، وتم تبادلها، وعندما طلب تسليم الأسرى، قام أحد الكفار بإرسال رد يقول فيه: «سوف أجيب عندما نلتقي»، وعمومًا، قام الكفار بنصب خيامهم، ثم انتقلوا من القلعة إلى الخيام، وأخذوا من السردار عشرين قطعة سفينة وملئوها ورحلوا، وكان عدد الكفار المقيدين بالدفتر عندما كانوا محاصرين عشرة آلاف كافر، أما الآن فالذين خرجوا من القلعة كانوا يتجاوزون الأربعة آلاف فقط، وكان قد كلف «عرب أحمد بك» من الأمراء بالذهاب مع هؤلاء بعشرين قطعة «قادرغة» وبإحضار السفن التي ذهبوا بها مرة أخرى.

وكان قد أعد كل شيء، وعند ذهابهم، جاءوا إلى السردار للوداع، وكان هناك كلب مكلف بالتحدث باسم الأحد عشر أميرًا الذين أتوا، فوضعوا كرسيًا لكل واحد منهم،

فجلسوا أمام السردار، وعلى هذا قال : «لقد أعطيتكم كل هذا العدد من السفن في الوقت الذي كان فيه أسطولكم موجودا في البحر؛ فحتى تعود إلينا سفننا مرة أخرى، يجب أن يبقى أمير منكم بجوارنا كرهينة»، فقال الملعون ـ الذي كان متحدثًا عنهم ـ بغضب: «إنك لن تستطيع أن تحجز ليس أميرًا، بل كلبًا»، وعلى الفور ألم بالسردار العار والغيرة والحدة، وقال: «أين أسرى المسلمين؟»، وعندما أجاب الملعون قائلًا: «إنهم جميعًا ليسوا ملكي بمفردي، وإن كل واحد من هؤلاء الأسرى، صار ملكًا لواحد من الأمراء أو من الجنود، وقد قاموا بقتل هؤلاء ليلة التسليم، وأنت ماذا فعلت في الذين كانوا عندكم؟ فعندما قتلتم أنتم هؤلاء قمت أنا أيضًا بقتل أتباعكم»، وبناء على هذا قال السردار أيضًا: «لقد أفسدت أمر الاستسلام بهذا الشكل»، وأمر بربطهم جميعًا وبقطع رءوس عشرة ملاعين منهم أمام خيمته، كما أخرج أيضًا الكفار الذين كانوا في السفن وربط أقدامهم بالحلقات المحكمة، وأمر بتوزيعهم على سفن الأسطول الهمايوني، ثم بقطع أذني الملعون الذي كان رئيسًا لهم ومتحدثًا باسمهم، وقام بربطه وأمر بتغطيسه في البحر عدة مرات، وإخراجه مرة أخرى، وذلك لأنه كان قد أمر بتعذيب بعض الأسرى المسلمين على هذا النحو، وبعد ذلك، أحضروه إلى السردار، ولما حان وقت التوجه إلى القلعة، حمله بعض مهمات السباهية على ظهره وجعله يحملها أمامه؛ أي أمام السردار، ثم إنه أمر الملعون بحمل تراب الخندق حتى يؤدي صلاة الجمعة، ولما فرغ السردار من الصلاة، وجاء إلى قصر الأمراء، رأى عمودًا منصوبًا في الميدان، وملقى بجواره طوق أو طوقان من الحديد مما يثبت في أيدي السجين، ولما استفسر السردار من الملعون بقوله: «لماذا هذا؟»، اعترف بأنه قام بتعذيب الأسرى المسلمين بهذا، وعلى هذا أمر السردار بصلبه في العمود حيث كبله بالحديد في يديه ورجليه، ثم سلخ جلده وملأه بالتبن، وعلقه على طرف ذلك العمود، وقسم جسده النجس أربعة أرباع، وأرسلهم إلى الأبواب.

وكان المرحوم «عالي أفندي» موجودًا في هذا الفتح، وهذا هو مضمون ما أورده في تاريخه نقلًا عن لسان «مصطفى باشا».

فتح «تونس» وإقليم أفريقيا بيد «قليج علي باشا»

في سنة ٩٧٧ هجرية، كان ملوك «بني حفص» يتولون أمور السلطنة في الأقاليم المذكورة منذ عام ستمائة، وتنحدر هذه السلسلة الجليلة عمدة الأكابر من نسل حضرة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وكان قد أصاب دولة الملوك المذكورين الضعف من قبل؛ فلما بدا عجزهم عن دفع العدو، استولى كفار الـ «فرنك»؛ أي الفرنجة على طرابلس؛ حيث ظلت في أيدي الـ «فرنك» الأشقياء اثنين وأربعين عامًا كاملة.

ثم إن القبطان «سنان باشا» شقيق الوزير الأعظم «رستم باشا» قام بفتح تلك الممالك في عصر «سليمان خان»، حيث عمل على تعميرها وإصلاحها كما ينبغي، وفي ذلك التاريخ توفي «سلطان محمد بن حسن» الذي كان يطلق عليه لقب «سلطان» في تونس؛ حيث ترك خمسة وأربعين ابنًا، فاستولى «السلطان حسن» من هؤلاء على أمر المملكة؛ وقام بقتل جميع إخوته. ولكن، بقيا «رشيد» و«عبد المؤمن»؛ حيث اختفى كلاهما بين القبائل العربية، ولما كان «سلطان حسن» المذكور منشغلًا بالشراب والمنادمة، غلبت عليه شهوته ومحبته للأصدقاء، وكان إذا سمع عن غلام جميل لدى أي شخص، كان يأخذه منه جبرًا، وبهذه الصورة تجمع في قصره أكثر من أربعمائة من الغلمان المحبوبين، وبهذا السبب نفر الناس منه، وأرسلوا رجلًا إلى أخيه «رشيد»، ودعوه للجلوس على عرش الملك.

ولما وقف «السلطان حسن» على هذا الأمر، قام بقتل عدد كبير من الرجال الذين قاموا بهذا العمل، وأرسل رجلًا إلى القبيلة التي كان بها «رشيد» وطلبه منهم، فسلك كبار تلك القبيلة طريق الحيلة، حيث قاموا بحجز هذا الرجل قائلين: «إننا نخاف أن يكشف أمرنا، فعندما يحل المساء خذوه واحملوه دون أن يعلم أي شخص أبدًا»، ثم أعطوا جوادًا كان يسير أسرع من ريح الصبا إلى «رشيد» فركبه وفر به، ولما علموا بالأمر، تعقبوه بجميع القبائل، ولكن لم يلحقوا بغباره؛ بل لم يعثروا على أي أثر له، ووصل «رشيد» إلى «الجزائر»، حيث لجأ إلى «خير الدين باشا».

ولما علم السلطان «حسن» بذلك، أرسل الرجال بالهدايا إلى المرحوم والمغفور له «سلطان سليمان خان»، ورجا واشتكى من «خير الدين باشا»، فأجاب السلطان صاحب السعادة أنه عن قريب سنحضر «خير الدين باشا» و«رشيد» إلى عاصمتنا ولن نأذن من بعد بوصولهم إلى ذلك الجانب، ووصل «رشيد» و«خير الدين باشا» إلى الآستانة دون أن يمر وقت طويل، وهناك عين لـ «رشيد» يومية قدرها خمسمائة أقچة علاوة على سائر احتياجاته من الخزينة العامرة، ولكن «خير الدين باشا» عرض على الركاب الهمايوني ما يلي: «إن تلك الحدود - أي حدود تونس - على مسافة بعيدة من الآستانة، وإنه من المؤكد أن هناك صعوبة وفتورًا في وصول عسكر الإسلام إلى تلك الحدود، فإذا عهد بملك «تونس» إلى «رشيد»، وتم الاستيلاء على ميناء «خلق الواد» وإصلاحه من قبل السلطان، وإذا اتخذ الأسطول الهمايوني مقره بالمكوث والإقامة هناك معظم الأوقات، فإنه بفضل الله تعالى يمكن فتح وتسخير بلاد الأندلس بسهولة من هناك».

وقد صار هذا التدبير موافقًا لضمير السلطان فاتح الأقاليم؛ فأرسل «خير الدين باشا» بالأسطول الهمايوني إلى ذلك الجانب، فوصل المشار إليه إلى «تونس»؛ واستقبل أهل البلد بالتكريم والتعظيم قائلًا: «لقد أحضرت رشيد» فحملوه إلى المدينة، فركب السلطان «حسن» رأسه وانضم إلى قبائل مشايخ العرب، ولكن لما علموا أن «رشيدًا» لم يسرع بإحاطة أهل البلد علمًا بالأمر، شرعوا في القتال مع «خير الدين باشا»، فقام «خير الدين باشا» بقتل نحو ثلاثين ألف رجل من هؤلاء. وفي النهاية، عقد الصلح وكف عن القتال، وفي إحدى الليالي دخل السلطان «حسن» إلى المدينة مرة أخرى؛ وقام بهجوم ليلي عليها، وقتل على أدنى تقدير نحو ألف وثلاثمائة رجل، فإنه لم يستطع البقاء في المدينة، حيث لجأ إلى «إسبانيا» ليرجو منها المدد.

ويروى أنه مكث بجانب ملك إسبانيا لمدة سبعة أو ثمانية أيام، وكان ملك إسبانيا يعطي له أربعة آلاف ذهبية كمصاريف يومية، وعلى كل، فقبل مرور شهر، جاء على «تونس» بأربعمائة قطعة سفينة من النوع الكبير والصغير، وفي ذلك الوقت كان «خير الدين باشا» في «تونس»، فحُصر لمدة واحد وثلاثين يومًا بالتمام، وفي النهاية، قام

بهزيمتهم، وخرج ذات يوم وعهد بالمدينة إلى كتخداها «فرنك جعفر أغا»، وربما لم يكن هذا الملعون قد صار مسلمًا بعد، وكان «فرنك» كافرًا أشد الكفر، ففي ذلك الوقت كان يوجد أربعون ألف أسير في القلعة، فقام بفك قيد أسرهم، حيث استولى على القلعة، وأطلق المدافع على أهل الإسلام.

وعلى هذا، انهزم «خير الدين باشا»؛ وسُحق جملة عسكر الإسلام تحت أقدام الكفار. وأتى السلطان «حسن»، وجلس على العرش، وأمر بأن يأسر الكفار من أهل تونس سبعة آلاف مسلم ويحضروهم، وقد بقي بجانب السلطان «حسن» أربعة آلاف من الفرنك أو الفرنجة، وقد شيدوا قلعة متينة في ميناء «خلق الواد».

وبعد ذلك، فبينما كان سلطان «حسن» في حرب مع عدوه، ثار أهل البلد، وعينوا ابنه سلطان «حميد» سلطانًا، وقالوا له: «هل تعلم أننا عانينا من ظلم والدك، فإن لم تقبل السلطنة، فإننا سنحضر عمك «عبد المؤمن» ونجعله سلطانًا»، وعلى هذا اضطر «سلطان حميد» قبول السلطنة.

ولما سمع السلطان «حسن» بهذا الأمر، ذهب ثانية إلى «إسبانيا» لطلب المدد، وأتى على ابنه بستين ألف كافر، ولكن اتحد وتكاتف جملة مشايخ الأعراب وقبائل البلدة، وهزموا الكفار، وقبضوا على السلطان «حسن» حيًا، وقاموا بمناصرة ابنه، حيث صار مستقلًا بالسلطة.

ولكن السلطان «حميدًا» هذا، نَهَجَ نهج والده، وبدأ في التجاوز، فأيما سمع بامرأة جميلة، كان يحضرها طوعًا أو كرهًا ويأخذها؛ حتى اجتمع في قصره ثلاثمائة امرأة من هذا القبيل، وقد تولى أمور السلطنة بهذا التجاوز لمدة خمسة وعشرين عامًا. وفي النهاية، أعرض عنه الناس واتحدوا وتكاتفوا مع «علي باشا» أمير أمراء الجزائر.

وفي ذات يوم، بينما كان السلطان المذكور يذهب على قبيلة عربية، جاء «علي باشا» ودخل المدينة، ووصل إلى الخزائن التي جمعها ملوك «بني حفص» منذ ثلاثمائة أو أربعمائة سنة، وقرأت الخطبة في أقاليم إفريقيا باسم سلطان العصر والأوان السلطان سليم ابن السلطان سليمان خان.

وفي ذلك الوقت كان الوزير «قره مصطفى باشا» فائق الأقران مشغولًا في ذلك الوقت بفتح «قبرص»، فعرض عليه هذا الفتح الجميل، فاتجه صوب الآستانة السعيدة بعشرين قطعة سفينة من التي كانت تابعة له، وأخبر الركاب الهمايوني بما جرى، وأهدى إلى جانب السلطنة الأموال الكثيرة والتحف اللائقة التي استولى عليها من قبرص، فنال العطف والاعتبار السلطاني بأكثر مما يتوقع.

انهزام الأسطول الهمايوني

حدث ذلك في ١٧ جمادى الأولى في سنة ٩٧٩ هجرية، لقد عاد الأسطول الهمايوني من «قبرص»، وفي الوقت الذي كان فيه مشغولًا بإكمال مهماته في الترسانة العامرة، جاء «أولج علي باشا» مع عشرين قطعة سفينة كانت مخصصة له، ودخل بهم الترسانة العامرة، ولما كان الوزير فائق الأقران «مصطفى باشا» يبذل عظيم الاهتمام لفتح قلعة «ماغوسه» في ذلك الوقت، سعى لإخراج الأسطول الهمايوني قبله بيوم قائلًا: «احذروا! أسطول الكفار يتقدم إلينا، ويأتي على العسكر الذين هناك»، وصدر الفرمان إلى الوزير الثاني «برتو باشا» الذي كان سردارًا وإلى «قبودان علي باشا»، حيث كلفهما بصرف ما في وسعهما، وقد كان يوم النوروز يوافق يوم الجمعة الموافق غرة صفر الخير.

وعلى هذا، خرجا في اليوم المذكور بأكثر من ثلاثمائة قطعة سفينة من ميناء إستانبول، وكانت السفن تزيد على أربعمائة بسفن الأمراء التي كانت في الخارج وزوارق أفراد البحرية، وتوجها صوب المقصود. ولما خرج الأسطول في البداية في هذه السنة المباركة، كان مقرر أن يكون هناك نقص تام في طائفة المجدفين والمحاربين.

وبصفة عامة، وصل الأسطول إلى «قبرص»، وقام بالمعاونة بالقدر اللازم، وبعد ذلك وصل لحراسة البحر، واتجه إلى جانب جزر الكفار، حيث وصلوا إلى جزيرة «كفالونية» وقاموا بسلبها ونهبها، وبعد ذلك، أرسلوا السفن من نوع «لوند كمي» إلى بعض الجزر، واغتنموا من كل واحدة منها، وبعد ذلك، أتوا إلى ميناء «كورفوس» و«بره

وزه»، ثم قفلوا عائدين؛ وقد رسوا أيضًا في ميناء «إينه بختي»، وفيه أحاطوا علمًا بأن الكفار قد أتموا إعداد أسطولهم ويأتون على أسطول أهل الإسلام.

وعلى هذا، اجتمع الغزاة وعقدوا المشاورة. ولما كان «برتو باشا» يخشى من أن يتسرب الوهم إلى نفسه وأن يخطئ في تقدير الاحتمالات، قال: «كنتم تظهرون العجز في كل مرة قائلين: هناك نقصان كبير في صفوف المجدفين والمحاربين، وبصفة خاصة، فإن أرباب تيمار سناجق الساحل معلوم ومشهور أنهم أخذوا الإذن بالانصراف بحجة ما وذهبوا، وعلى هذا، فمن المؤكد أن هناك نقصانًا في أسطولنا؛ ولذا، ينبغي علينا أن نمكث في ميناء «إينه بختي»، ولو يأتي الكفار علينا، فإننا عندئذ يجب علينا أن نقاتلهم».

أما «قبودان باشا» فقد رجح الخروج للمقابلة قائلًا: «قطعًا، هذه ليست غيرة الإسلام وعرض وناموس شرف السلطنة، فلو كان هناك نقص خمسة أو عشرة رجال في كل سفينة، فإن شاء الله تعالى يؤمل إلى ألا يُعطى ذلك النقصان لنا»، أما «أولج علي باشا» فقد رأى أن الرغبة في الحرب والوصول إلى الكفار أمرٌ غير مناسب، ولكن لما أصر «قبودان باشا» قائلًا: «لقد أكد وهدد كثيرًا في الأحكام الصادرة إلينا من الآستانة بشأن هذا الفتح، وإنني أخاف ليس على منصبي وإنما على رأسي»، ولما أصر القبودان على ذلك، لم يستطع أن يخالفه سائر الأمراء والرؤساء قط.

ولما قرروا التوجه إلى العدو، قال «أولج باشا»: «ينبغي علينا أن نسلك طرف المحيط»، وقال «قبودان باشا»: «إن اتخاذ البر أولى»، وقد وقع اللّج والعناد في هذا الأمر، وفي النهاية، أمسك القبودان بلحية «أولج»، أما الذين شاركوا في الحروب مع «خير الدين باشا» و«طور غودجه» فلم يقولوا شيئًا، وإنما قالوا: «لو يرغب في التوجه إلى البر خشية الغرق، فإنه مهما يصاح بالقول: إن ذلك سيصبح باعثًا على هزيمة الآخرين، فإن ذلك لم يفد، وعلى كل حال، فعندما يتقابل أسطولنا من البر وأسطول الكفار من البحر، فإن «قبودان باشا» يظهر بطولته، ويلقي بكافة أولاده على أسطول الكفار».

ولما أحاط الكفار علماً بقبودان باشا، حشدوا عليه أكثر أسطولهم، وفي الحال، قاموا بقتل قبودان باشا، وأسروا أولاده بالسفينة، ولما رأى سائر أهل الأسطول هذا الأمر، اتجهوا صوب البر، وخرج «برتو باشا» إلى البر، وفر إلى الجبال، حيث أنقذ رأسه بآلاف المحن، وإنني هذا الحقير كثير التقصير رأيت المكان الذي دارت فيه تلك المحاربة، وهو تجاه قصبة تعرف باسم «أركيله قصري» الواقعة في سنجق «قارلي إيلي» بالجانب الأسفل للقرية الكبيرة المعروفة باسم «أناطو لقوز» من الخواص الهمايونية وهي في مكان ضحل من البحر في سنجق «قارلي إيلي» أسفل سنجق «إينه بختي»، ويقع هذا المكان في عمق جبل صعب وحجري، والذين نجوا من المعركة أنقذوا أرواحهم بالالتجاء إلى ذلك الجبل.

أما «أولج علي باشا» فقد شكل طابورًا آخر بعشرين قطعة سفينة تابعة له، وأدار رحى حرب وقتال مع سفن الكفار التي أتت إلى الجانب الأيمن للكفار والتي أتت عليه من الجانب الأيسر للأسطول الهمايوني، حيث قام بتحطيم بعض سفنهم وقتل بعض الكفار، وأطلق أيضًا مدفع أو مدفعان من الكفار على سفنه، وفي النهاية هبت الرياح من طرف العدو، ولما كُتب التوفيق لـ «علي باشا»، فإنه نجا من الحرب دون إصابة، وأخذ من الكفار سفينة أو سفينتين.

ولما أتى إلى الآستانة السعيدة، أحسنت عليه رتبة قبطان، وصدر الفرمان بتبديل لفظ «أولج» إلى «قليج»، حتى إنه حرر لفظ «قليج» في الأحكام التي حررت له، وهذه الحرب غير المباركة لم تحدث في الدولة الإسلامية، وربما لم تحدث في بحار الأرض منذ أن صنع حضرة النبي نوح عليه السلام السفينة، فقد كانت سفن الأعداء حوالي مائة وتسعين سفينة، وطبقًا لهذا، فإن مدافعهم وبنادقهم وسائر آلاتهم ولوازمهم وسفنهم من نوع «فورسه» ومجدفيهم كانوا أقل من محاربي أهل الإسلام وليس أقل منهم بثلاثمائة رجل، ولكن كانوا أقل من أهل الإسلام بحوالي عشرين ألفًا.

وفي ذلك الحين، كان حضرة السلطان ـ أعز الله تعالى أنصاره ـ موجودًا في «أدرنه»؛ فأتى على الفور إلى القسطنطينية المحمية، وشرع في بناء الأسطول والسفن، واختار

مكانًا يبعد مسافة ما عن الحديقة الخاصة الواقعة قرب الترسانة، وأوجد من جديد ترسانة لثمانية سفن ويروى أن القبطان «قليج علي باشا» كان دائمًا يقول للصدر الأعظم «محمد باشا»: «من الممكن صنع بدن سفينة، ولكن لا يمكن إعداد خمسمائة أو ستمائة صاري لمائتي سفينة، وطبقًا لهذا لا يمكن إعداد الآلات التي تلزم السفينة من حبال وأربطة»، ويجيب المرحوم «محمد باشا» على هذا النحو: «حضرة الباشا، إنك لا تعرف هذه الدولة العلية، والله إن هذه الدولة هي تلك الدولة التي لو أرادت، فإنه لن تكون هناك صعوبة صنع مراسي كل الأسطول من الفضة، وحبالها من الأبريشم وقلاع السفن من الأطلس»، ونهض «علي باشا» وقال: «إنكم أنتم ستكملون الأسطول».

وفي الأمر نفسه، فبعد أن أكملت أكثر من مائتي سفينة من نوع «قادرغة» و«باشترده» قبل حلول النوروز أي الربيع، وبعد أن أكملت بالتمام والكمال آلات وأسباب جملتها ومجدفيها ومحاربيها والمدافع والبنادق وأدوات القتال، أخرجوا الأسطول في وقته وزمانه المحدد كاملًا ومرتبًا، وقاموا بإرساله، ولم يرسلوا سفينة لأي فرد ولم يأخذوا أقچة أو إمدادات من أي أحد، ولو أن إعداد كل هذه الأشياء في خمسة أو ستة أشهر أمر محال، فإن الكفار أيضًا كانوا على اعتقاد بأنه لن يكون هناك رجل يمكن أن يستخدم السفينة، ولما رأى الكفار خروج الأسطول كاملًا مكملًا إلى البحر؛ أصيبوا بالحيرة والدهشة، وقالوا: «هل هؤلاء القوم هم الذين أعدوا هذا القدر من السفن في جملة واحدة، وأتموها كما كانت، بل بشكل أتم وأكمل خلال ستة أشهر؟!».

خروج الأسطول الهمايوني إلى الحملة

في سنة ٩٨٠ هجرية، لما أُكمل الأسطول الهمايوني كما ينبغي، حيث أُعدت مائتان وخمسون قطعة سفينة «قادرغة» و«باشترده»، أرسل صوب العدو مع «قبودان قليج علي باشا»؛ فوصل إلى ميناء «آوارين» الذي كان يقع في «المورة»، وأتى أيضًا أسطول الكفار إلى ذلك المكان، وكان قد حل وقت الغروب، ووقعت المواجهة بين الطرفين،

حيث تبادل الطرفان إطلاق المدافع، ولكن، لما صار ظلام الليل مانعًا للحرب والقتال، أقلع الكفار وهربوا ليلًا، ولم يُعرف إلى أي جانب ذهبوا.

وتحرك القبطان باشا أيضًا بالأسطول من هذا المكان؛ حيث دخل إلى ميناء «قرون»، وكان الكفار أصحاب الأفعال السيئة قد جهزوا أسطولًا كبيرًا مرة أخرى، وأتوا إلى «قرون»، ووقع قتال بين الطرفين، ولكن لم يستطع أهل الإسلام التجرؤ على الهجوم عليهم، خوفًا من عاقبة الواقعة التي حلت برءوسهم في العام الماضي، وبلغ الكفار أيضًا المرام بانتصار العام الماضي؛ فعادوا وذهبوا، ورجع أيضًا «علي باشا» بالأسطول سالمًا؛ حيث وصل إلى إستانبول.

تعمير سطح مكة المكرمة

في سنة ٩٧٩ هجرية، كانت قد تهدمت بعض أسطح الحرم المحترم الشريف؛ ولما أصبح في حاجة إلى الإصلاح، أُرسل الأمر الشريف إلى شريف مكة المكرمة، وكلف ببناء القباب العالية من جديد، حيث تم بناؤها وترميمها على نحو لطيف ومتين، ووردت عروضهم ومكاتباتهم الدالة على أنها قد أتمت في سنة ٩٨٢ هجرية.

هجوم «تتار خان» على ولاية «موسقو»

في سنة ٩٧٩ هجرية، لما صدر الأمر العالي إلى «تتار خان» بالهجوم على ولاية الـ «روس» المنحوسة في السنة المذكورة، تحرك «تتار خان» بعدد كبير من التتار خفيفي الحركة؛ وعبر أيضًا نهر «أتل»؛ حيث وصل إلى جانب دار الملك؛ أي العاصمة «موسقو»؛ وقام بنهب وتخريب دار الملك هذه وعاد بغنائم كثيرة. وغزوة التتار هذه هي من أعظم الغزوات.

طلوع الكوكب ذي الذؤابة

في سنة ٩٨٠ هجرية، ظهر كوكب في الجانب الشمالي كبيرا جدا ومضيئا؛ فقام أصحاب

التنجيم باستخراج الأحكام والتقاويم منه قائلين: «هذا يدل على أنه سيكون هناك مطر وسيل عظيم في بعض الأماكن»، وفي الواقع سقط مطر وسيل عظيم، وهدمت بيوت كثيرة في الروم إيلي والأناضول، وانهدم أكثر من أربعمائة منزل في «إستانبول» المحمية وأغلقت الطرقات؛ وبقي أبناء السبيل أي المارة والقوافل متوقفين عن المرور والعبور لفترة من الزمن، حتى إنه أشيع أن الحجاج والزوار قد طافوا البيت الشريف في الحرم المحترم في ذراع أو ذراعين من الماء.

انهزام بعض الكفار في قلعة «نوه»

في سنة ٩٨٠ هجرية، لما استولى بعض الكفار على قلعة «نوه»، توجه «فرهاد بك» أمير سنجق «كليس»، وأمير الـ «هرسك» إليهم، وألحقا الهزيمة بالكفار، وقاما بإرسال ثلاثمائة كافر إلى الآستانة عاصمة الدولة للإدلاء بمعلومات عن العدو.

بناء منارتين عظيمتين من جديد لجامع «آيا صوفيا» الشريف

في سنة ٩٨١ هجرية، صدر أمر من السلطان «سليم خان» عليه الرحمة والرضوان يقضي ببناء قباب عظيمة احتياطًا للقبة العظيمة لجامع «آيا صوفيا» الشريف ومنارتين لا نظير لهما، ومدرستين عاليتين وتربة شريفة لتكون مدفنًا له بها؛ وأتموا ذلك كله في مدة قصيرة. ولكن التربة لم تتم إلا بعد الدفن.

حملة الأسطول التي قام بها الوزير «بياله باشا» و«قليج علي باشا»

في سنة ٩٨١ هجرية، وصل الوزير المومأ إليه مع القبطان «قيلج علي باشا» إلى جزيرة «بنارقه» التابعة لـ «ونديك»؛ أي البندقية، في هذه السنة المباركة، ولكن لما كان الصلح معقودًا مع كفار الـ «ونديك»، لم يتعرضوا لها، وبينما حاولا التوجه لعدة مرات إلى

جزيرة «مسينه»، فإنه نظرًا لهبوب الرياح المعاكسة لم يتمكنا من التوجه إليها، حيث أصبحت هذه الرياح مانعًا للوصول إلى المكان المقصود؛ فاضطروا إلى العودة، فعادوا إلى «إستانبول» بالسلامة.

انتصار الكفار على قلعة «تونس»

سنة ٩٨١ هجرية، لقد أتى «سلطان حميد» سالف الذكر وهو من ملوك بني حفص بمائة وخمسين قطعة سفينة من سفن الـ «فرنك»؛ ولما كان أمير أمراء «تونس» «حيدر باشا» لم يستطع المقاومة مع أهل الإسلام الذين كانوا بداخل القلعة، فقد انسحبوا إلى ناحية القيروان، وبعد ذلك، هجم «مولانا محمد» شقيق «سلطان حميد» الذي كان أسيرًا في «مسينه» لمدة طويلة والـ «فرنك» أيضًا على «سلطان حميد»، حيث أسروه، وحملوه إلى بلاد الـ «فرنك»، ونصب «مولانا محمد» المذكور سلطانًا على تونس، وتركوا معه نحو ثمانية آلاف كافر لمعاونته.

قيام السردار «سنان باشا» بفتح تونس وهدمه «خلق الواد»

في سنة ٩٨٢ هجرية، لما عرضت هذه الأحوال[1] على السلطان الذي لطفه وإحسانه كالبحر بلا نهاية، تفضل بتعيين الوزير «سنان باشا» سردارًا على الأسطول الهمايوني؛ وأرسله مع القبطان «قليج علي باشا» إلى تونس، ولما اتجهوا نحوها وذهبوا إليها، هجموا أولًا على «قلاورتي»، وبعد ذلك توجهوا إلى «مسينه»، حيث ضربوا بعض مواضعها وقاموا بأنواع النهب والتخريب، واستولوا على سفينة عظيمة من نوع «بارجه» في نواحي «مسينه». وبعد أن أخرجوا الغنائم الموجودة بداخلها، قاموا بإحراقها، ثم خرجوا إلى سواحل تونس؛ حيث قاموا بتعمير القلعة الخربة التي تعرف باسم «قالبه»، ووضعوا جنودًا بالقدر الكافي بداخلها، ولما رأى الكفار عسكر الإسلام تركوا القلعة المعروفة باسم «بنفرد»؛ وتحصن الملاعين الذين كانوا بداخلها بقلعة «خلق الواد».

(١) أي استيلاء الكفار على «تونس».

وبعد ذلك، أرسل السردار عالي الوقار أميرَ أمراء طرابلس «مصطفى باشا» و«حيدر باشا» الذي خرج من تونس لمحاصرة «خلق الواد»؛ حيث أصحبهم بقدر كاف من العسكر، وكان «مولانا محمد» الذي كان سلطانًا على «تونس» قد تحصن بالقلعة المعروفة باسم «مدنينة» مع سبعة آلاف محارب؛ فإنه هرب ليلًا، ودخل «خلق الواد» أيضًا، وكان طرفي قلعة «خلق الواد» يتصلان بالبحر، وكانت خنادقها التي تقع بين هذين الطرفين تمتد في عمق الأرض، وبرجها وسورها يصعدان إلى السماء، فكانت قلعة حصينة ومحكمة، حتى إنه لم يكن هناك نظير أو مثيل لها في ذلك الساحل، وقد ضربت هذه القلعة ليل نهار لأكثر من شهر.

وفي النهاية كانت عناية الحق تعالى معينًا وظهيرًا؛ ففي اليوم السادس من جمادى الأولى، فتحت القلعة بشن الهجوم عليها وقتل أكثر من خمسة آلاف كافر ممن كانوا موجودين بداخلها، وقبض على عديم النفع رئيس الكفار ـ الذي يعرف باسم «مولانا محمد» ـ حيًا، وبعد ذلك، تم تلغيم «خلق الواد» من عدة أماكن، حيث جاء عاليها سافلها، وصارت في حالة لا يمكن إصلاحها من بعد، وانهدمت أيضًا القلعتان اللتان كانتا تسمى إحداهما «بحيرة خلق الواد» والأخرى «معقل خلق الواد»، وتساوتا بالتراب، واستولى على نحو مائتين وخمسة مدافع من داخل هذه القلاع؛ وتم توزيعها على الأسطول الهمايوني، وبعد ذلك، قاموا بتعمير قلعة «تونس» كما ينبغي، حيث وجهت إيالتها إلى «رمضان باشا»، وعاد السردار والقبطان «قليج علي باشا» بالأسطول الهمايوني، وجاءوا إلى الآستانة السعيدة منصورين ومظفرين في شعبان المعظم من السنة المذكورة؛ حيث سلموا الأسطول الهمايوني إلى الترسانة العامرة.

وفاة حضرة السلطان «سليم خان» المغفور له

في ١٨ من شعبان المعظم سنة ٩٨٢ هجرية، إن هذه الدنيا الدنيئة والغدارة ليست دار قرار سواء للسلطان أو الشحاذ، فكانت قد زينت بعض قباب الحمام الخاص بالسلطان الواقع في السراي العامرة، وجدد بعضها، وفي هذه الأثناء، أراد حضرة السلطان عالي

الجاه مثل «جم» أن يعمل خلوة في الحمام؛ وبينما كان مقضي المرام بالسرور والحبور، فقد أبعد هذا الزمان سلطان العالم عن كل هذا الصفاء، فبينما كان يتفقد الحمام، انزلقت قدماه المباركة على المرمر وسقط على أحد جنبيه بغتة، وأزرق ذلك الطرف الذي سقط عليه من صلابة المرمر، وحمله الخدم والأغوات ونقلوه إلى خلوته الخاصة، وأتى «حكيم باشي»؛ أي رئيس الأطباء ورأى أن من المناسب علاجه بالكي، ولكن في تلك الأثناء، أصيب بالحمى في الحال.

وفي النهاية ابتلي بمرض في المعدة وما تبعه من الوجع والاضطراب، وخلاصة القول: إن أجله المقدر كان قد انتهى، وأن كل ما فعلوه لم يفد بشيء، وكما لم يجد بنو الإنسان دواء لداء الأجل حتى الآن، لم يجد السلطان ذلك أيضًا، ولحق بجنة الخلد عند وقت زوال يوم الاثنين الموافق اليوم الثاني من زمهري[1]، وهو في عمر اثنين وخمسين عامًا، معانقًا حور العين. رحمة الله تعالى عليه رحمة واسعة.

وأتى حضرة الأمير السلطان «مراد» الشاب موفور الحظ واللائق بالتاج والعرش إلى السراي العامرة في اليوم الثامن من رمضان المبارك، وفي اليوم التالي، كلف المنادون بالنداء بمقدمه، وبعد الظهر صُليت صلاة الجنازة على المرحوم السلطان «سليم» بإمامة شيخ الإسلام المرحوم «حامد أفندي»، وأصبح المرحوم السلطان «سليم» أول مَنْ توفي من سلاطين آل عثمان في القسطنطينية، وبعد صلاة العصر أديت أيضًا صلاة الجنازة على خمسة أفراد من الأمراء الذين كانوا بلا جرم، رحمهم الله تعالى.

(١) الزمهري: هو أبرد شهور الشتاء وهو يوافق شهر كانون.

ـ المؤلف في سطور:

ـ إبراهيم أفندي

لُقب بـ «بچوي» نسبة إلى مدينة «بچ» من مدن المجر، ولد عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م في مدينة «بچ»، بداية من عام ١٠٠٠هـ عمل بجوار «لالا محمد باشا».

ـ كانت الجندية أول وظيفة يشغلها بجانب «لالا محمد باشا».

ـ شغل وظيفة كاتب لـ «لالا محمد باشا».

ـ شغل وظيفة «بياده مقابله جي» عام ١٠١٤هـ/ ١٦٠٥م.

ـ أسند إليه السلطان أحمد الأول وظيفة «سواري مقابله جيسى» عندما حمل خبر فتح قلعة «أسترغون» إلى الآستانة؛ حيث صار يشغل وظيفة «بياده وسواري مقابله جيسي» في آن واحد.

ـ شغل وظيفة دفتردار «ديار بكر» عام ١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م، وظل في هذه الوظيفة حتى عام ١٠٣٤هـ ـ ١٦٢٥م.

ـ كلف منصب «باش دفتردار» لكنه لم يقبل ذلك؛ لكبر سنه وقنع فقط بوظيفة «دفتردار» لمدينة «توقات» عام ١٠٣٤هـ/ ١٦٢٥م، ثم نقل من وظيفة دفتردارية «توقات» إلى دفتردارية «طونه».

ـ عين «بچوى» واليًا على سنجق «أستونى بلغراد» فى الفترة من ١٠٤٢ ـ ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٢ ـ ١٦٣٥م، ثم تولى دفتردارية البوسنة عام ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م ـ ١٦٣٦م.

وفى عام ١٠٤٧هـ/ ١٦٣٨م نقل عن منصب دفتردارية البوسنة إلى دفتردارية «طمشوار»، واعتبارًا من عام ١٠٥١هـ/ ١٦٤١م انزوى عن الحياة الوظيفية؛ حيث عاش مع خواطر الحروب القديمة التى خاضتها الدولة وانشغل بتحرير الغزوات والفتوحات.

ـ كانت وفاته عام ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م فى مدينة «بچ»؛ حيث دفن بها.

ـ المترجم فى سطور:

الدكتور/ ناصر عبد الرحيم حسين محمد

ـ حصل على ليسانس الآداب ـ قسم اللغات الشرقية ـ اللغة التركية عام ١٩٩١م.

ـ حصل على درجة الماجستير عام ١٩٩٩م.

ـ عين مدرسا مساعدا بكلية الآداب ـ قسم اللغات الشرقية جامعة حلوان عام ٢٠٠٠م.

ـ حصل على درجة الدكتوراه عام ٢٠٠٥م.

التصحيح اللغوى: نعيمة عاشور
الإشـــراف الفنـى: حســن كامل

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب